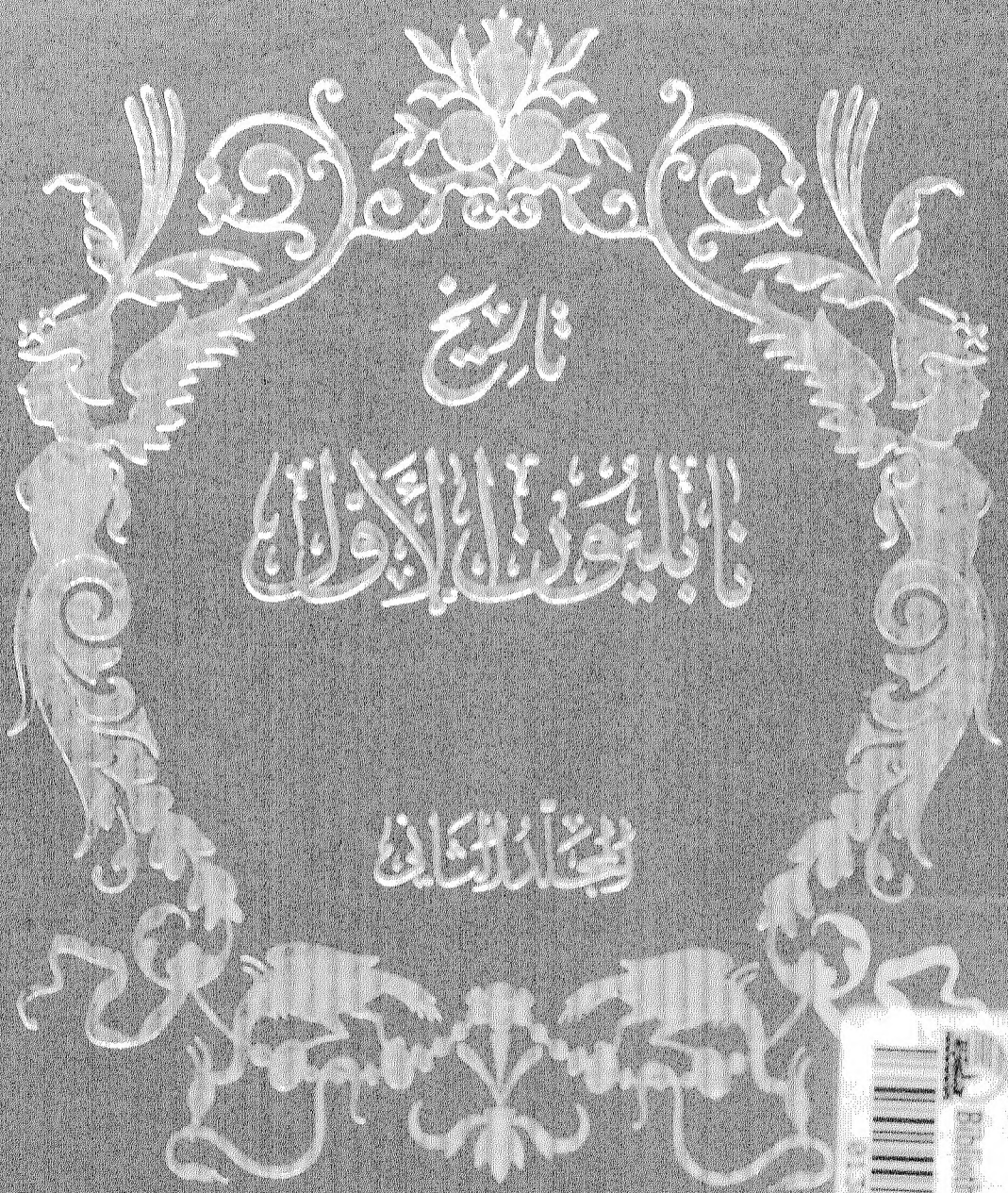
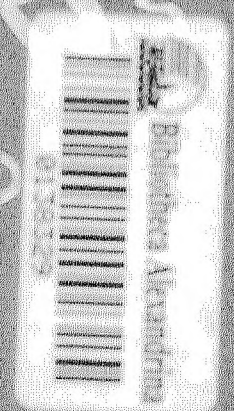


الياسق طنوس كحويك
اللبستاني



دار ومكتبة الهلال
بيروت



تاریخ
نابولپون الأول

تاریخ نابولپون الأول

لمؤلفه
الياس طنوس الحويك
البناني

الجزء الثاني

منشورات
دار ومكتبة الهلال
ص ٥٠٣ - ١٥

جميع الحقوق محفوظة
١٩٨١



نابليون الاول امبراطور الفرنسيين



الامبراطورة جوزفين

كلمة المؤلف

رأينا ان نقسم تاريخ نابوليون الأول الى ثلاثة أجزاء لاسباب وجيهة ،
وأهمها سببان : الأول مراعاة حياة نابوليون ، والثاني تخفيف حمل الكتاب ،
فالجزء الأول الذي يتضمن ما كان من أمر نابوليون من مولده الى آخر عهد
القنصلية انتهى طبعه ونباشر الآن طبع الجزء الثاني وهو يدور على عهد
الامبراطورية وهو العهد الذي بلغ فيه نابوليون أعلى ذروة من ذرى المجد ولم
يسر زيادة لمستزيد في هذا الصدد وجميع أجزاء الكتاب مزينة برسوم بديعة
متقنة الصنع فلم نترك وسيلة من الوسائل إلا وتوصلنا بها لكي نجعل كتابنا
يروق القراء ويكون لهم منبع لذة وفائدة مما .

الفصل الاول

انشاء الحكومة الامبراطورية . أعمال الرحمة . معسكر بولون .

الرحلة الى بلجيكا

إن بونايرت وإن لم يكن يتوخى سوى السلطة العظمى لاعادة النظام والوحدة الى ادارة شؤون الحكومة واعطاء الثورة الظاهرة حتى ذلك العهد بمظهر الحرب النخو المنتظم بعد ما صيرته حركات الديمقراطية مغلول اليدين مدة طويلة فقد كانت مزاولته للسلطة العليا مدى حياته كافية لادراك الغاية التي يرمي اليها ولا سيما لحصوله على الحق باختيار خلف له فان انتقاء هذا الداهية خلفاً له كان أكبر ضامن لبقاء السلطة الجديدة وأفضل من القاء مقاليدها الى شخص لم يؤهله الى ذلك المنصب السامي إلا تحدره من أسرة ملكية .

وكان نابوليون وهو يسعى الى انشاء سلطة موروثية يعقده ولا جرم انه لا يسعى الى ذلك إلا لتوطيد أركان المشروع العظيم الذي تولاه وحفظ النظام الجديد المنهثق من الفتنة الكبرى . وقد قال : « تستطيع الوراثة وحدها أن تحول دون مناوأة الثورة فما دمت حياً لا يخشى من حدوث شيء . إلا أن من يأتي بعدي من الزعماء المنتخبين لا تتسنى له مقاومة أنصار البوربون . . . ففرنسا مدينة بكثير من الامور لقوادها المشرين الذين أبلوا بلاء حسناً في الحرب ولكن لم يخلق أحد منهم ليكون قائداً أكبر أو رئيس حكومة . »

فهل كان هذا الحكم العنيف الذي أصدره بونايرت على قادة الجيش المشهورين مصيباً كبد الحقيقة ؟ أو لم يكذب بعضهم ما عزي اليه من العجز عن ادارة شؤون الحكومة ؟ أو لا تزال حتى الآن متربعة في عرش أسوج أسرة قائد من أولئك القواد الذين قال عنهم بونايرت في سنة ١٨٠٤ أنهم لم يوجدوا ليكون واحد منهم رئيس حكومة ؟ فنشأ العترة المالكة في أسوج هو برنادوت وقد انتخب لهذا المنصب السامي في سنة ١٨١٠ من دون أن ينهض لمناوأة أبناء

الاسر المالكه العربيه في القدم الذين تألبوا وحطموا صولجان نابوليون أو يلفوا في عجز هذا القائد الفرنسي القديم والنفوات التي ارتكبها ما يدعو الى ارجاع الاسرة المالكه الشرعيه الى عرش أسوج كما فعلوا في فرنسا ويطهروا أوروبا الملكيه جماعاً من الشكوك الناشئة فيها لوجود الاسر الدخيله التي أسعدتها الاحوال على القبض على أزمة الحكم في البلاد . وهب لم يكن بين أولئك القواد العظام من لا يصلحون حقيقة لان يكونوا رؤساء حكومات ألم يكن سوى أشخاص موصوفين بضعف المدارك العقلية بين الساسة المتنفين حول القنصل الاول ممن كان يمكنه أن يلتقي من بينهم رئيساً للحكومة كما كان يمكنه أن يلتقي هذا الرئيس من بين رجال الجندية ؟ نحن لا نعتقد صحة زعمه هذاوكانا بيونابرت قد قصد بحمله الناس على النظر الى ارجع الوراثة الى العترة الحاكمة بعين الرضى أن يبين تعذر وجود شخص جدير بالقبض على أزمة السلطة العليا بين الرجال العظام الذين ولدتهم الثورة في فرنسا ولعمري أصبح دهاؤه هذه المرة خاضعاً لمطامعه . أجل ان بعضهم قال ان بونابرت لما سعى لايجاد ضمان لاستمرار بقاء الوراثة الملكيه كان اعتماده على قوة المبدأ الوراثي أكثر مما كان على منزلة وارثه الشخصية . على انه لو كان هذا الامر قد نزل في فناء فؤاد القنصل الاول ومالاه عليه رجال الحكومة الذين ناصروه على ترميم العرش المتساعى لكان ذلك يدل على أن الدماء السامي قد يلم به الوهن وان الذكاء الشديد يصيبه في غالب الاحيان ما يخدم نيرانه المضطربة .

فلو كانوا قد عولوا قبل كل شيء على قوة المبدأ الوراثي الذي كان سائداً في القرون المتوسطة لكننا نجهد عملهم فالوراثة في مثل هذه الحال لا تكون ممكنة بل ضرورية : تكون ممكنة لانه يكفي أن يكرسها الدين لتصبح مرغية الحرمة في انظار الملوك والشعوب التي يضمن ايمانها الحي والتماثل خضوعاً مشتركاً لكل نظام وشرعية ومبدأ مما هو موسوم بسمه الدين وتكون ممكنة أيضاً لان مسح الملوك لم يكن حفلة باطلة في الازمنة المنتشرة فيها الاعتقادات العامة الراسخة الاركان فقد كان للزيت المقدس قوة سياسية ولم يكن الحق الشرعي يخص إلا مسيح الرب وذريته . وكانت ضرورية لان السكينة والوحدة في المملكة تكونان بغير الكريس الديني لهذه العقيدة السياسية معرضتين للخطر

عند نهاية حكم كل ملك بما ينشأ عن ذلك من الخصومات الشديدة بين كبار العمال الذين يعالج بعضهم اصابة تاج الملك بقوة السلاح ويلجأ البعض الآخر الى القوة لينالوا الاستقلال ويحطموا نير كل سلطنة . واذا كانت المطامع والاميال الى الفوضى قد ظهرت غير مرة مع ما كان من الحق العام للملكية المؤيد بالدين وكانت باعنا على الحرب الاهلية في فرنسا من عهد انشاء أصحاب الاقطاعات حتى فنن الفرند (المقلع) فما قولكم بما يجرؤ على اتيانه النبلاء الطامحة نفوسهم الى نيل السيادة واحراز الثورة والطامعة بالحرب والميالة الى نبذ كل شكيمة ان لم يكن ثمة رادع لمفاسدهم واطماعتهم ناجم عن سلطة أدبية لمبدأ لا يجرؤون على تعدي حدوده من دون أن يستهدفوا السهام الانتعيف التي ترشقهم بها ضمايرهم ومن دون أن تهتهم الكنيسة والدولة بالاحاد والمروق . ولا يخفى أن همجية أصحاب الانطحات وجماعهم زقا بقساوة عظيمة أحشاء فرنسا ولم يتيسر لصاحب التاج الضرب على أيديهم والظفر بهم ظفراً مبيناً . إلا أن تأييد الدين لحقوق الوراثة جعل تمرد النبلاء على الملك غير مؤثر به كما انه أيضاً كان قد أولى جان دارك قوة عجيبة تدرعت بها وعضدت ملسكا حدثاً على تخليص مملكة من أعظم ممالك الأرض .

ولما أجهز ريشليو وبعده لويس الرابع عشر على الارسطقراطية العريقة في القدم ووضعا أساس الوحدة والانضمام للذين أكتهما الثورة الفرنسية فيما بعد وحققتهما كان الظلم والاستبداد اللذان طاملا النبلاء بهما من أقوى العوامل لخدمة السلطة الملكية بدلا من صبرورتهما شقوياً عليها لأن السلطة الملكية كانت في ذلك العهد ممثلة للحق الالهي المصون بإيمان الشعب . وان مناهضة الاشخاص المتطرسين الذين كانوا عقبة كؤوداً في وجهها لم تكن تؤثر إلا بممثلي القوة الوحشية المحجوبة وراء ستار أبهة الألقاب .

وماذا جرى في سنة ١٨٠٤ لذلك الحق الالهي حامي دمار السلطة الموروثة ؟ انه تحلى عن مكانه للحق الالهي المتسلسل عن الاهلية الشخصية والدهاء وصارت الثقة العامة من ذلك الحين منوطة بسيادة الشعب .

وهل كان من جهة أخرى حول المنصة القنصلية عمال ذوو سطوة وبأس وقوة ومراس يرفعون ألويتهم فوق أغنى ولايات المملكة وأوسعها ويهيئون

عدة الحرب في كل حين ويستعدون لتكدير حياض السلم في البلاد ليتسنى لهم القبض بأيديهم على السلطة العليا أو ليعملوا استقلالهم في ناحية من أنحاء الامبراطورية انه لم يكن من سبيل للخوف من وقوع شيء من هذه الاشياء : واذا كان حق الزيت المقدس قد تحطم فان شعار النبلاء تمزق أيضاً . وعلى أنقاض قوة أصحاب الاقطاعات المدربين خلفا عن سلف لا يقاد نيران الحروب والمضطرين الى الاستعانة بالسلح لحفظ كيانهم في هيئة اجتماعية مشيدة على الفتح ومنظمة على الحرب بنيت في فرنسا هيئة اجتماعية جديدة نشأت فيها من كل جهة قوات جديدة ملاكها الأهلية الشخصية سواء كان في الزراعة أو في التجارة أو في الفنون أو في العلوم فانتفت بذلك الامراة فضلية شرف المحند المجرد ولم يكن نطاق تلك الامور يتسع وأجلها يطول إلا في آونة السلم . على ان أمراء الجندية أنفسهم لم يرتقوا الى المناصب العالمية التي ارتقوا اليها الا بفضل الحالة الاستثنائية التي صارت اليها البلاد من خمس عشرة سنة وكانوا يفتخرون بأن يجهلواها تتمتع في حالة السلم بحسنات ثورة كانت بتمهيدها السبيل للتوفيق بين أعمال الشعوب الادبية وأعمالهم الصناعية تصير الحرب غير ممكنة الوقوع . ولم يكن للقواد الفرنسيون تفوق شخصي في ناحية من أنحاء البلاد وحزب سياسي ووسائل تمكنهم من إعادة دور رجال الجندية في العهد البائد . ولم يكن بينهم أمثل لارمانياك وبرغونيون ومنموراسي وأبرنون . وقد دل تصرفهم المقرون بالتحفظ والتمقل عند تغير شكل كل حكومة فيما بعد ان انتقال السلطة بطريق الوراثة أو بطريق الانتخاب لم يكن ليعروه أدنى اضطراب ينجم عن مقاصدهم الشخصية .

وكان بوناپرت منخدعاً حين سعى لاججاد مسوغ لاعادة الملكية الموروثة بإيراده مباديء وحوادث تنتمي الى حالة اجتماعية تختلف كل الاختلاف عن الحالة الحاضرة : فما كان ممكناً وضرورياً في هيئة اجتماعية ميالة الى الحرب ومعتصمة بأهداب الدين لم يبق ضرورياً وممكناً في هيئة اجتماعية كان من وكدها مزاوله الصناعة والارتباب في كل ما لا يقوم عليه دليل بعد ماأمنت إثارة مثل هذه القلاقل التي كان أصحاب الاقطاعات يثيرونها ولم تكن تطمع بأن تصيب الغرض من وراء الحروب نفسها إلا اذا تيسر لها ان تتعاطى أشغالها الساعية بالامن . وكان القنصل الأول قد أورد في زمان قريب من ١٨ برومير أسباباً قوية

لعدم انكاره للسلطة الموروثة وأعلن ان ذلك النظام الذي كان ملائماً لفرنسا في القرون المتوسطة لم يبق له مسوغ في القرن التاسع عشر واليكم الكلام نفسه الذي فاه به في هذا الصدد : « ان السلطة الموروثة تنافي الصواب وذلك من غير مانظر الى عدم ضمانها لرسوخ أركان الدولة وانما لا مكان بقاءها في فرنسا . ولقد كانت مرعية فيها مدة طويلة ولكن على قواعد كانوا يسرون عليها في ذلك العهد وانتسخت آثارها الآن ولم يبق الرجوع اليها ممكناً أو ضرورياً . فالسلطة الموروثة مشتقة من الحق المدني وهي تفترض الملك . وقد جعلت لتضمن انتقاله . فكيف والحالة هذه يمكن التوفيق بين الوراثة في السلطة العليا ومبدأ السيادة الشعبية ؟ وكيف يمكن افئاع الافكار بأن هذه السلطة نوع من الملك . وحين كان تاج الملك موروثاً كانت سلطات متعددة موروثة أيضاً وكان هذا التمويه سريعة تكاد تكون حامة بيد انه لم يبق لها شيء منها . »

فمن ابتداء القنصلية الى انتهائها أصبح المستحيل ممكناً فهل زال ما كان بين الحاضر والماضي من التباين الذي استفحل أمره في سنة ١٨٠٠ أو كاد لا يكون شيئاً مذكوراً في سنة ١٨٠٤ ؟

انه لم يحدث شيء من هذا قط وهب ظل كل عصر محافظاً على أخلاق أهله فان بونايرت غير أفكاره ولم يكن يعتبر السلطة العليا مدى حياته كافية له فوقع في نفسه ان ينشئ أسرة ويصير أسرته من عداد الاسر المالكة : فسياسته المبذية على الفلسفة وحب الوطن والمتسعة الدائرة نظير سعة الصدر المنبعثة عنه أصبحت تتمرس من ذلك الحين بالشؤون الصغيرة وتهبط الى وهدة الأباطيل طمعاً بالبناء العثرة التي كان يحلم بها .

وهذا ما قاله عنه دي شاتوبريان من هذا القبيل : « ان هذا الجبار الهائل لم يكن يقرن حظه بحظ معاصريه فكان دهاؤه عصرياً ومطامعه من بقايا العهد القديم وقد فاته ان معجزات حياته تفوق كثيراً قيمة التاج وان هذه الحلبة الغوطية الطراز لا تلائم . »

ولا بد من القول بأن بونايرت مع شعوره بالضعف أمام المطامع المتسربة اليه من العهد القديم لم يذهل عن حاجته الى الدهاء العصري فلم ينسب الى

السلطة الموروثة التي كان ينبغي انشاءها الصفة المطلقة والنتائج الجليلة المنسوبة الى الحق الالهى القديم بل كان بعكس ذلك يرمي الى التوفيق بقدر الامكان بينها وبين سيادة الشعب . فلما مضى اليه أعضاء مجلس الشيوخ في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة (١٨ مايو سنة ١٨٠٤) ليرفعوا اليه قرارهم الذي يدعونه به الى تسلم العرش الامبراطوري واعلانهم الامبراطورية موروثة في أسرته خاطبهم بما يأتي : —

« اني أبسط للشعب قانون الوراثة منتظراً موافقته عليه وأؤمل ان فرنسا لاتندم أبداً على ايلاء أسرتي هذا الشرف الانيل . وفي كل حال لاتبقى روحي مع ذريتي في اليوم الذي لاتبقى فيه هذه الذرية جديرة بمحبة الشعب الفرنسي وثقته . » أولم ينشئ على هذه الصورة وراثة معلقة على شرط ويخضع امتيازات الأصل والفصل لحقوق الأمة ويدعم سيادة الشعب ويرض علنا بسقوط الاسرة التي أنشأها حين تفقد ثقة الشعب بها ؟

وعلى هذا النمط لم يكن مبدأ الوراثة يخول أعضاء الأسرة الامبراطورية إلا نوحاً من الترشح الشرعي الذي كان من شأنه ضمان النظام ونباته عند الخوف من حدوث شغب على أثر خلو العرش من الجالس عليه من دون ان ينزع من الشعب الحق السامي الذي يخوله بهذا الشخص الحاصل على حق الوراثة حين لا يكون هذا الشخص نائلاً لمحبة الشعب وثقته .

وعلى هذه القاعدة بنيت السلطة الموروثة في فرنسا في مفتتح القرن التاسع عشر على أن بوناپرت الموجس خيفة من قضاء نخبه قبل ان يتيسر له قضاء مايتوخاه من العمل الخطير والمبتغى ان يكون له وارث يضمن بقاء عمله ونباته سيمعيش بعد اسرته ويبقى بعد الحكومة التي أنشأها لعدم تمكنه من وجدان عضد يضافره على الاجنبي في الاسد الشعبي الذي قيده أو خدره في ظل استبداده المجيد . فان اقتراع اللكسمبور والمسخ بالزيت المقدس في نوتردام لم يجدياه نفعاً لأن مجلس الشيوخ الذي نوه بمجده وأوصله حتى عنان السماء ماعتم ان نبذه نبذ النواة والخبر الذي منحه البركة مالبت ان قذفه باللعنة . ولما عادت الاسرة الشرعية القديمة وجلست على أنقاض الاسرة الامبراطورية وجعلت تنهت عجباً وخيلاء وتتجرش بروح العصر والأمة نهض بعض العملة المرتدين أطهاراً

وتمكنوا من معاقبة هذه العترة على عجزها منتقمين للأمة والعصر ومؤيدي
الكلمة التي فاه بها بونابرت نفسه : « ان السلطة الموروثة على مثال ما كانوا
يفهمون معناها في عهد ملوكنا الأقدمين أصبحت من جملة المستحيلات . »
وسبرى القراء فيما بعد ان دهاء الانسان وشرف المحمد والتكريس في باريس
والتكريس في رنس ليست سوى ضمان باطل للثبات واذا كان التكريس الدستوري
للعرش الموروث يدفع عن البلاد غوائل الفتن المتوالية بين الشعب والدسائس
الانتخابية التي كثيراً ماتصحبها المتآلف فذلك إلا ليجعله هدفاً لسهام الاضطرابات
الثورية المتصل بعضها ببعض الآخر . أجل انه لا يكون ثمة سبيل للخوف من
توالي الاجتماعات ولكن لا يكون هذا الأمر واقعياً لعري العترة المالككة
من الانقصاص . فبدلاً من ضجيج الناخبين يسمع في ذلك الحين قعقة السلاح
فتغزى البلاد أو يحل عقاب الفتنة واذا ذاك يصبح نظام الخلافة الموهوم انه
واسطة ثابتة لدوام بقاء الحكومات منتهك الحرمة مرتين في أقل من عشرين
سنة تارة بالحرب الأجنبية لمضد منتخب الأمة وتارة بسيف الأمة لمضد
منتخب الحرب الأجنبية . فليكبروا والحالة هذه لنجاتهم من الاضطرابات
الملازمة للطريقة الانتخابية ولوضعهم أمن الدولة وحفظ الأسر المالككة تحت
حماية السلطة الموروثة

فما هي النتيجة الأدبية لاعادة الملكية والسلطة الموروثة الى فرنسا وتأثيرها
بأفكار الشعوب الأوروبية ؟

واذا نظرنا الى الملكية والسلطة الموروثة نظرة مجردة فهل نرى انهما غنمتا
فائدة حقيقية ؟ وهل أصبحت أركان العروش أكثر توطداً ؟ وهل ازدادت
دعائم الأسر المالككة ثباتاً ؟ وهل استعاد تفوقها القديم الناشئة عنه فخمتها
وسطوتها قوة السحر الذي كانت تتسلط به في خالي الحين على الهيئة الاجتماعية
الأوروبية جماء ؟

على ان هذه الفخامة كانت بعكس ذلك تضعف بين الشعوب حين كان القوم
يروون ان الشعب المستمعين بالثورة لاصابة السلطة وادراك الحول والطول اختار
جندياً من بين جنوده وجعله عاملاً وألبسه الارجوان وعقد التاج على رأسه
من دون ان يلتقي الملأ في هذا الأمر ما يدعو الى الشك مما لم تكن أوروبا القديمة

تنظر اليه إلا بمقلة النفور زاعمة انه ضرب من الاحاد والابتداع ونوع من المروق والاختلاس .

وقد طرأ على مبدأ الوراثة تغير ذو بال حين تسنى للأسر الحاملة الأصل ان تحمل محل الأسر العريقة في الشرف في فرنسا وايطاليا وأسبانيا وغيرهن من البلدان وان تتآخى الأسر الدخيلة وأحفاد شارل الخامس وبطرس الاكبر وفريدريك العظيم .

ولا يخفى انه كان مكتوباً لبونابرت ان يظل عاملاً من أقوى العوامل للخدمة الثورة حتى في أعماله التي كان يبدو عليها انها مخافة كل المخالفة لمبادئ الثورة وكل يدري ان هذه الثورة اضطرت في مناصبتها لاوروبا جمعاء الى الانتقال من الملكية الدستورية الى الجمهورية وألجأت في امتدادها في أوروبا جميعها ونشر جرائم المبادئ الفرنسية في كل ناحية الى السعي وراء المطامع وركوب مركب الفتوح والتدرج من الجمهورية الى الملكية المجاهدة . وقد تم هذا الانتقال الاخير بقرار من المجلس صدر في ٢٨ فلورال من السنة الثانية عشرة (١٨ مايو سنة ١٨٠٤) فتوجه القنصل كباساريس حاملاً القرار الخطير الى زميله الذي أصبح سيده ومولاه فقاه بحضرته بالكلام التالي :

« لقد ذاق الشعب الفرنسي في أثناء القرون الماضية طعم الفوائد المعلقة على وراثة السلطة وقد اختبر اختباراً قصيراً بيد انه مؤلم المبدأ المعاكس لذلك الا انه ركب بعد مفاوضات حرة ومبنية على التروي طريقاً ملائماً لا فسكاره وهو يستعمل مختاراً حقوقه ليسخر لجلائك الامبراطورية قوة تحول مصلحته من دون مزاولتها بذاته وهو يقرر للأجيال الآتية وبوثيقة علنية القاء مقاليد سعادة أبنائه الى أعقاب تتحدر من نسلك . فهؤلاء يتصرون فضائلك وأولئك يرثون محبتنا وأمانتنا . »

فأجاب نابوليون :

« كل ما ياول الى خبر الوطن مرتبط من جوهره بسعادتنا فأنا أقبل اللقب الذي ترويه موافقاً لمجد الامة »

ثم انه أخضع الوراثة الجديدة لنثيت اقتراع الامة فصرف همهته الى تحاشي اثاره نفور الديمقراطيين في ذلك المهد وعني بابداء علامات الاحترام لسلطة

الشعب بما أتاه من العمل الذي كان من شأنه أن يقف حاجزاً في وجه تلك السلطة فقام حينئذ بالعبارة المشهورة التي أوردناها عنه : « اني أبسط للشعب قانون الوراثة منتظراً موافقته عليه وأؤمل أن فرنسا لا تندم أبداً على إيلاء أسرتي هذا الشرف الاثيل . وفي كل حال لا تبقى روحي مع ذريتي في اليوم الذي لا تبقى فيه هذه الذرية جذيرة بحجة الشعب الفرنسي وثقته . »

ولما خرج أعضاء مجلس الشيوخ من حضرة الامبراطور توجهوا الى جوزفين حاملين اليها لقب امبراطورة فخطبها كلباسا ريس بهذا الكلام : « يامولاتي ان لسان الشهرة يذيع الخبر الذي لا تزالين تأتينه وهو يقول أنك لا تنفكين عن مؤساة البائسين ولا تستخدمين مالزعم الحكومة من الثقة بك الا لتفريج كرب الملهوفين وان جلالتك تضيفين الى مسرتك بعمل الاحسان لطافة ومحبة تجعلان الافرار بالجميل عذباً واثيان المعروف نافعاً . وهذه المقاصد الحسنة تجعلنا نتفاءل بأن اسم الامبراطورة جوزفين سيكون علامة للتعزية والامل ويهني مجلس الشيوخ نفسه بأن يكون في مقدمة المهنيين لجلالتك الامبراطورية . »

وقد كوفي كلباسا ريس على غيرته باسناد منصب المستشارية السكرى اليه فيكون قد استبدل بلقب رئيس الجمهورية الثاني لقب التابع الاول للامبراطورية . وجعل لبرون ناظر بيت المال الاكبر .

ولم يقتصر نابليون على مدارة عواطف الجمهوريين في جوابه لمجلس الشيوخ بل نم بالاسرار الكامنة في ضميره في صورة القسم الذي فاه به عند جلوسه على العرش . فقد أراد أن يجعل فرنسا قاطبة تدري أنه لا يزال كما كان وهو قنصل يمثل الثورة الاول وهو امبراطور والعرض المتين لمصلحة الأمة والنصير الاكبر للجمهورية نفسها . واليك صورة ذلك القسم :

« أقسم على أن أحافظ على كمال أرض الجمهورية وعلى أن أحترم وأجعل الناس يحترمون قوانين السكندر وحرية الاديان وعلى أن أحترم وأجعل الناس يحترمون المساواة في الحقوق والحرية السياسية والمدنية وعدم نقض بيع مقتنيات الأمة وعدم وضع ضرائب وفرض رسوم الا ما كان منها مطابقاً للقانون وعلى أن أحافظ على بقاء نظام جوقة الشرف وعلى أن أتولى الحكم وايس لي من غاية أرمي اليها سوى مصلحة الشعب الفرنسي وسعادته ونفخه . »

على أن نابوليون مع ما بذله من الجهد لافئاع الامة بأن انشاء الامبراطورية لايمس بشيء من الاشياء المبادئ الجمهورية لم يتسن له أن يجعل انشاء أسرة جديدة يزيل من أفكار الجمهوريين الشديدي الاعتصام بمبادئهم ما كان يحول فيها من المخاوف ولم يتمكن من منعهم عن اقامة النكير والاحتجاج بعنف على نوع الحكومة الجديدة وكان أشدهم عارضة في الاعتراض كارنو المفوض اليه أمر المناضلة عن الجمهوريين . وقد نشأت في ردهة المجلس فكرة إعادة السلطة الموروثة الى نابوليون وأسرته وهناك عاكسها كارنو من نشأتها وقاومها بما عرف عنه من الفصاحة وشدة الصريمة . وكان من جملة ما قاله في هذا الموضوع ما يأتي : « من ١٨ رومير دخل عصر فريد في بابه من انشاء العالم يستطيع فيه المرء أن يعمل عوامل فكرته وهو بعيد عن عواصف الاهواء والاقدار ويبي صرح الحرية على دعائم متينة اعترف بها الاختبار والعقل . فبعد صاح اميان تمكن نابوليون من الاختيار بين الطريقة الجمهورية والطريقة الملكية . وكان يستطيع عمل كل ما يبتغيه بحيث انه لم يكن يلقي أدنى معارضة : فقد كان مؤتمناً على الحرية وقد آلى على نفسه أن يذود عنها . وكان يبره بقسمه يتم جميع رغائب الامة التي وجدت فيه الكفاءة لحل عقد مستبهمات مسائل الحرية العامة في بلادها المتراخية الاطراف . وكان يمكنه أن يرتدي بمطارف غفرافد النظير... »

وكان كلام كارنو كصوت صارخ في النبرة فقد أجمعت كلمة المجالس في الحكومة على ترميم ما تدعى من صرح الملكية حتى خيل للناس ان في الامر بعثاً عجيباً في الحزب الايمن من الجمعية الدستورية ومع ذلك لم يكن مجلس الشيوخ ولا مجلس النواب ولا المجلس الاشتراعي قد أخذوا ذلك الطريق من تلك الجهة لانتهاء الى الغاية التي كانوا يؤمنونها بل كان مجرى الحوادث يدعو متقدمي الكنفنسيون الى التحول بقتة الى مترلفين متملقين ذاهلين عن المبادئ التي كانوا يعتصمون بحبلها بالامس واللهجة التي كانوا يفوهون بها والزي الذي كانوا يبرزون به للانظار

وقد تصير القواد الجمهوريون قداماء ممثلي الشعب في الاذعان لمقتضيات الأحوال فانهم ببقائهم على عهد الأمانة للفتنة الكبرى ارتضوا بأن يقفوا ذواتهم على خدمتها في شكلها الجديد ولا سيما حين وجدوا ضمناً لبقاء سيادتهم

وفي غد اليوم الذي ارتقى فيه نابوليون الى السدة الامبراطورية دعا اليه أشهر رفاقه في ميادين القتال وأنعم عليهم بلقب مارشال وهم برتيه ومورات ومنسي وجوردان وماسينا وأوجرو وبرنادوت وسولت وبرون ولان ومرتيه وناي ودافو وبسيار وكلمان وليفيغفر وبرينيون وسروريه .

ولم ينقم الشعب على أولئك الجنود الذين خدموا الجمهورية باخلاص وأمانة ولم يتهمهم بمجدهم مبادئها عند رؤيته اياهم يقبلون اللقب الذي يدير على النهي ذكر عهد الملكية بل اعتبر بمكس ذلك ان الميزة الجديدة نوع من الاحترام لمبادئ المساواة التي كانت عزيزة جداً عنده: أي ان هذه الميزة كانت تمنح مكافأة على الأهلية الجديدة خلافا للميزة التي كانت تمنح في عهد الملكية الماضية لشرف الأصل والفصل .

وما عثمت ان سنحت لنا بوليون فرصة مكنته من افتتاح عصر جلوسه على عرش الامبراطورية بمعمل من أعمال الرحمة فان مجلس الجمايات كان قد أصدر في ١٠ يونيو من سنة ١٨٠٤ حكماً قاضياً بالموت على جورج كادودال ورفاقه . وكان الجنرال مورو بما له من الشهرة وبما للجيش من التماق به قد نجح من طائلة العقاب ومن الحكم الصادر على رفاقه المتأمرين فاكتفى المجلس بالحكم عليه بالسجن سنتين ثم استبدل بذلك الحكم الذي المؤبد . وكان بين المتهمين المحكوم عليهم بالموت أشخاص من أصحاب العنصر الكريم كدي ريفيار ودي بولينياك وغيرهما . وبذلت لدى نابوليون جميع المساعي الفعالة لتخليصهم من فائلة الردى ووطنت جوزفين النفس على عضد مطالب أسرا أولئك المنكودي الحظ . ومضت بايعاز سنها لتلك الغاية عقيلة دي منتسون الى سان كلود وقدمت للامبراطور عقيلة دي بولينياك . ملتمة منه العفو عن زوجها وعن دي ريفيار وبعد أيام قالت الامبراطورة : « تمكننا من ادخال عقيلة دي بولينياك عليه فيالله ما أجملها ! ولما أبصرها نابوليون تأثر وقال لها : يا حضرة السيدة لقد تعمد قرينك الايقاع بي ولسكني أصفح عن جرمته » ولم يقف كرم نابوليون عند حد العفو عن المحكوم عليهم الذين كان شرف نصابهم يوجد لهم من كبار القوم من يتدخلون في شؤونهم بل تجاوز الى ما وراء ذلك الحد فان فتاة خاملة الأصل لم يكن حظها أقل من حظ عقيلة دي بولينياك لدى نابوليون فانها خرجت من قصر سان كلود نائلة مبتغاها أي انها أدركت

لأخيها ماتكرم به العاهل لقرين السيدة النبيلة . وان المرحمة الامبراطورية الملتزمة لدي بولينياك ودي ريفيار تناولت أيضاً لاجوله وبوفه دي لوزيه وروشل وغاليار وروسيليون وشارل دوزيه . أما جورج ورفاقه فانهم أرسلوا الى النطع . وانتحر بيشغرو في سجنه مستدركا بذلك الامر الحكم عليه واجراء الحكم بحقه . وقال نابوليون في هذا الصدد في مفكراته ما يلي : « ان اجراء الحكم بحق جورج لم يبق بعده أدنى أسف عند القوم لان جريمة القتل مهما كان السبب الداعي اليها تعتبر في عيون الفرنسيين ممقوتة . وان عمل يهوديت يقتضي كل ما في الكتاب المقدس من القوة لئلا يفور عليها فائر القوم . » وأما انتحار بيشغرو فهو متلبس بالشك في عصر اتفقت فيه عواطف الاحزاب المختلفة واهواء الجماعات المدحورة على تسويد صحيفة الظافر والقدح في عرضه ، وقد يكون ثمة اشخاص من كرام القوم قد قام في وجدانهم ان وفاة بيشغرو على تلك الصورة تمت بأمر من الامبراطور . واليكم ما قاله نابوليون في هذا الشأن في مفكراته .

« من العار على المرء ان يسعى لتبرئة نفسه وهو لعمرى ضرب من الخفاة وأي فائدة كنت أؤمل اصابتها ؟ فمن كان ذا خلق نظير خلقي لا يفعل شيئاً من الاشياء من دون أن يكون مدفوعاً اليه بعامل من العوامل الكبيرة . وهل رأي أحد من الناس أسفك الدم منقاداً اليه بعامل الهوى ؟ ومهما بذل الخوصوم من الجهد لتسويد صحيفة حياتي والغض من كرامتي فان الذين يعرفونني حق المعرفة يعلمون اني من ذات طبعي بعيد عن افتراء الجرائم . وليس في حكومي جميعها عمل من الاعمال الخاصة إلا وأستطيع ان أتكلم عنه أمام المحاكم وأنا ناعم البال وغير محاذر فيه لومة لائم . وواقع الحال يدل على ان بيشغرو لما وجد ان الامر ضاق عليه وانسدت في وجهه جميع المسالك لم يسم نفسه الكبيرة ان ينظر الى العذاب الذي يتوقعه من دون ان يشعر بفضاعة موقفه فتخبر الانتحار لقنوطه من رحمتي أو لاسنائه بها . »

وبينا العاهل والملك والاقبال الذين أغروا جورج وبيشغرو على اتيان الخيانة وعادوا الى اجراء هذا الامر وهم في أرض بريطانيا العظمى يتجرعون كؤوس الخزي لانهم كانوا سبباً لمنح الصولجان لمن تعمدوا اهلا كه كان زعيم

آل البوربون المقيم في فرسوفيا والقائل عنه نابوليون انه لم يجده منتظما في سلك احدى المؤامرات الموجهة ضده رأساً معتقداً انه لا بد له من اذاعة نشرة يعارض بها ماقدره مجلس الشيوخ عن انشاء أسرة مالسكة رابعة . وكان فوشه أول من وقف على النشرة فبادر الى رفعها الى الامبراطور متوها ان نابوليون سيقدر له خدمته حق قدرها وانه سيصدر على الفور أمراً يحول دون انتشار نشرة لويس الثامن عشر في فرنسا . إلا ان سهم ظمه ضل عن المرمى فان نابوليون تناول النشرة وقرأها ثم أعادها الى الوزير وقال له برباطة جأش : « ان الكونت دي بروفنس يتعمد ركوب مركب الحماقة فليجعل ما يروقه فعله ! ان حتي منوط بارادة فرنسا وما دام لي سيف فأنا أستطيع المحافظة عليه . ومع ذلك يجب على البوربون ان يعلموا اني لا أوجس خيفة منهم فليتركوني وشأني . أتقول ان الاغرار في دسكرة سان جرمان يتبعون ان يذيعوا نسخا من نشرة الكونت دي بروفنس الاعترافية ؟ فليقرأوها ماشاءوا قراءتها . يافوشه ارسل هذه النشرة الى المونيطور . فأنا أريد أن تنشر في العدد الذي يصدر منه غداً . » وكان ان المونيطور نشر في عدده الصادر في أول يوليو اعتراض لويس الثامن عشر .

وبعد بضعة عشر يوماً وقع تذكار الاستيلاء على البستيل فتوهم بعضهم أن العاهل سينظر اليه بمقلة الاستنكار والنفور ولكن ساء ما توهموا فان نابوليون تمكن من الاستفادة من ذكرى ١٤ يوليو وجعلها مرتبطة كل الارتباط بالقوانين التي سنّها والانظمة التي وضعها . فاختار ذلك اليوم لتوزيع نشان جوقه الشرف للمرة الاولى بعد انشائه وتقواه من منحوه بيمين الاقامة على عهد الامانة واحتفلوا بالحملة في الانفاليد . خفف الكردينال دي بلوى رئيس أساقفة باريس في مقدمة كهنته لاستقبال الامبراطور عند مدخل المعبد . وكان يحف بنابوليون كبار رجال حكومته وعظماؤهم وبعد الحفلة الدينية انبرى لاسيبيد المستشار الاكبر لحوقة الشرف وخطب خطاباً نقتطف منه العبارات التالية :

« ان كل ماتوخاه الشعب في ١٤ يوليو في سنة ١٧٨٩ نراه اليوم قد تم بمشيئته فقد ادرك حريته المبنية على أس الشرائع الثابتة وقد ابتغى المساواة فهي الآن تدافع عنها حكومة نأت المساواة ركننا من أركانها . .. رددوا هذه الكلمات التي لفظت قبلا في هذا المكان وليردد صداها جميع أطراف الامبراطورية لـ فكل

ما وضعه اليوم الرابع عشر من شهر يوليو ثابت وغير متزعزع ولا شيء مما هدمه ذلك اليوم يستطاع ترميمه . »

وبعد هذا الخطاب قرأ لاسبيد أسماء الذين نالوا نشان جوقة الشرف وكان بينها اسم الكردينال كبرارا . فلبس العاهل قبعته على مثال ملوك فرنسا وفي أثناء السكوت السائد على الجماعة قال بصوت جهوري :

« أيها القواد والضباط ورجال جوقة الشرف والوطنيون والجنود هل تقسمون بشرفكم على ان تقفوا نفوسكم على خدمة الامبراطورية والمحافظة على أرضها وبقاء كيائها كاملا والدفاع عن الامبراطور وشرائع الجمهورية والاملاك التي قدسها والمناوأة بجميع الوسائل التي يجزها العدل والعقل والشرع لكل مشروع يراد به اعادة طريقة الحكم الاقطاعي والسمي بكل ما لكم من القوة للمحافظة على الحرية والمساواة المعبرتين قاعدتين اساسيتين لقوانيننا . هل تحلفون ؟ » فصاح جميع رجال جوقة الشرف بصوت واحد : « نعم نحلف » وتلا ذلك هتاف الحضور في المعبد فليحي الامبراطور . ويقول المسيودي بوريان انه كان متمذرا وصف ما أظهره القوم من الحماس في تلك الساعة .

ووضع في غد اليوم الذي احتفلوا فيه بتلك الحفلة الشائقة نظام جديد للمدرسة المهندسين .

وبعد يومين خرج نابوليون من باريس ميمما سواحل المانش لتعهد المعسكرات التي كان قد أمر بانشائها فيها وأذاع ان الغاية التي يري اليها من وراء رحلته هذه كانت توزيع نشان جوقة الشرف بحفلة كبيرة على الشجعان الذين لم يثيسر لهم حضور حفلة الانفاليد . الا ان هذا الأمر لم يحل عند القوم محل التصديق وعلم الجميع ان هذه الاذاعة لم تكن سوى حجة واهية وان غاية نابوليون الوحيدة كانت غزو الديار البريطانية .

وكانت الجيوش الفرنسية في تلك الانحاء ممتدة من أتابل حتى أستند وقد أسندت القيادة في دنسرك الى دافو وفي كاله الى ناي وفي سان أومير الى أودينو وعند حدود هولندا الى مرمون وفي المعسكر العام ببولون الى سولت ولما وصل الامبراطور الى مدينة بولون وجد الجيش ملتبهاً بنار الحماسة والجرأة فكان الجنود والقواد معتمدين انهم موشكون ان يجتازوا المضيق حتى

ان القوم الذين في ما وراء المانش لم تكن أفسكارهم تستقر على حال من فرط مانابهم من القلق . وكان في البحر خمس مئة سفينة يتولى قيادتها الامبرال فرهويل وهي تنظر الأمر بالتوجه الى ثغور بريطانيا العظمى ولم يكن أحد غير نابوليون واقفا على سر الغاية المتصودة من حشد هذه القوات الهائلة في هاتيك الانحاء فانه مع تهديده لبريطانيا العظمى تهديداً حقيقياً كان يشعر بأن في القارة الاوربية عواصف جديدة تنهياً للانتفاض عليه . وبينما هو يتذرع بالذرائع الفعالة لانشاء بمثة بحرية هائلة كان يدبر أيضاً سحرة لا يمتريها المال أسباب حرب برية عظيمة كان يلمح بروقها تومض في الأفق البعيد ويخشى من صواعقها الفتاكة .

واحتشد من معسكري بولون ومنرويل ثمانون ألف رجل بقيادة المارشال سولت في سهل فسيح قراب برج قيصر . وكان الامبراطور بينهم يحف به أركان حربه المؤلفون من أشهر قوائ ذلك العصر . فوقف على يناع من الأرض كان كأن الطبيعة هيأته له صمداً كعرش وهناك كرر بصوت جهير الخطاب الذي خطبه في حفلة الانفاليد فلم يكن كلامه في بولون أقل تأثيراً منه في باريس فبعث دفين الحماس في القلوب وقد ارتاح كل الارتياح الى ماشاهده من المظاهر بحيث ان الجنرال راب أحد حجاجه صرح بأنه لم يشاهد قط العاهل نابوليون على ما كان عليه من الابتهاج في ذلك الحين .

الا أنه حدث عند انتهاء النهار ما كدر صفاء الحفلة الشائقة فان عاصفة شديدة هبت وجعلت الناس يتخوفون من تلف قسم من الاسطول . ولما انتهى الامر الى العاهل خف لساعته الى المرفأ وأمر بانخاذ التدابير اللازمة وراقب بذاته اجراءها . ولكنه ما كاد يصل الى المرفأ حتى سكنت العاصفة كأن العناصر كانت خاضعة لسلطة هذا الرجل العظيم . فدخل الاسطول المرفأ من دون أن يفقد منه شيء وعاد نابوليون الى المعسكر . وما عم الجنود ان عادوا الى ارتشاف كؤوس المذاذ ومزاولة الملاهي . وختمت الحفلة باقامة الزينات الباهرة بالنيران الصناعية ورشق السهام النارية في الفضاء وقيل ان القوم في سواحل انكلترا شاهدوا تلك السهام

وكان في أثناء اقامة نابوليون في معسكر بولون أن نوتينين بريطانيين أسيرين في فردون فرا وتمكنا من الوصول الى بولون حيث بنيا زورقا صغيراً ولم يكن لهما من الادوات غير مدينتيهما اللتين عالجا بناءه بهما فكان لهما زورق صغير صمما على الذهاب به الى انكلترا وهو زورق خفيف يسهل على الرجل الواحد حمله على ظهره . ولما فرغا منه أنزلاه الى الماء وعالجا الوصول به الى سفينة حربية بريطانية كانت في عرض البحر قبالة الشاطئ . وما كادا يوغلان في اليم حتى لهما رجال المكس فلم يمض عليهما وقت طويل حتى أمسكا وأرجعا الى البر وسيقا أمام العاهل نابوليون وكان قد رغب في رؤيتهما ورؤية زورقهما الصغير لما كان قد شاع بين الجيش عن جرأتهم الغريبة . فسألهم العاهل قائلاً : « أصبح انكما عقدتما عروة العزم على اجتياز البحر بهذا الزورق ؟ » فأجاباه قائلين : « يا صاحب الجلالة ان كنت مرتاباً في أمرنا فافسح لنا بالمضي فتبصرنا منطلقين » . فقال لهما نابوليون : « أريد أن أفسح لكما بالانطلاق فأنتما جريئان مقدامان وافي لتعجبني الشجاعة أيا كان ولكني لا أشاء أن تتعرضا للخطر فأنتما حران وسأصدر الامر بتوجيهكما الى سفينة بريطانية فقولاً للناس في لندرة اني أحترم الشجعان وإن كانوا أعدائي » .

فهذان الرجلان اللذان لو لم يأمر العاهل بهما أن يمثلا لديه لكان قد قضى عليهما بالموت كجاسوسين لم يقتصر على منحهما الحرية بل جاد عليهما نابوليون ببعض الدنانير . وكان يسر وهو في منفاه بمجزيرة القديسة هيلانة بأن يروي لرفاقه هذه الحادثة .

قلنا ان العاهل نابوليون كان متوقفاً عاجلاً أو آجلاً اشتعال نار الحرب في أوروبا وكان يفقه جيداً انه وان كانت الحكومات الملكية قد عدلت لهجتها وخففت من غلوائها خوفاً من سطوة وبأس الجيوش الفرنسية فانها لم تكن لتغير شيئاً من عواطفها ومبادئها . وكان ينتظر من يوم الى آخر أن يرى دسائس الحكومة البريطانية تتمكن من اقناع حكومات فينا وبطرسبرج وبرلين بعقد محالفة جديدة لمناهضة فرنسا . وكل من يدري ما كان من التنافر بين حكومة فرنسا المعتبرة ربيبة للشورة والحكومة الملكية القديمة العهد في الممالك الاوربية

لا يقضي العجب بته من رؤيته جميع هذه الممالك تعلن العدواة لفرنسا . وفضلا عن ذلك كان نابوليون واقفاً بواسطة سفرائه على سوء مقاصد الحكومات النمساوية والروسية والبروسيانة وميلهن الى إضرار مواقد الهيجاء .

وكان الجيش المحتشد لديه في بولون والمؤلف من ثمانين الف رجل يمكنه من الاشتباك بحرب هائلة كانت المقاصد السيئة الآنفة الذكر تبعث على الظن بقرب حدوثها . وكان يرى في ذلك الحادث مستقبله ومستقبل فرنسا وعليه لم يهمل شيئاً من شأنه إقالة عشار قوى الجيش واضرام سفير الحماسة في أفئدة رجاله فألف من ذلك الحين من بقايا جنود الجمهورية الكتائب الامبراطورية التي قيضت لها العناية أن تغطأ بأرجلها جميع العواصم الاوربية . ولم يكن يرى في ذلك الحين الا الجنود أنفسهم والقوادذواتهم ورجال القرن الثامن عشر وروحه وبعبارة أخرى أبناء الثورة الكبرى . وكان معسكر بولون مهداً للجيش العظيم الغازي الناشئ مبادئ الثورة . وبعد ما أصاب في عشر سنوات انتصارات لم يسبق لها مثيل ألقى في سهول واترلو قبراً حفرته له يد الخيانة والقدر وأصبح مشهوراً ببسالة الابطال الذين آثروا الموت على الاستسلام للعدو .

على ان ما كان الامبراطور مهتماً به من جهة تهيئة عدد الحرب لم يحل دون اهتمامه بمزاولة شؤون ادارة سلطنته فكان يسر بأن يظهر ان دهاء وعنايته لم يكونا مقتصرين على جميع فروع الحكومة بل كان فكره يستطيع الامتداد في الوقت عينه من دون أن يفقد شيئاً من صفائه وحدثته الى غير ذلك من الامور على اختلاف أنواعها فانه أنشأ وهو في معسكر بولون يتفقد شؤون الجيش ويعرضه الجوائز العشرية بمرسوم هذا نصه :

« من نابوليون عاهل الفرنسيين الى المطلعين على هذه النشرة سلام :
« حيث كانت غايتنا مناصرة العلوم والآداب والفنون التي من شأنها اعلاء منار مجد الامم وحيث لم تكن رغبتنا مقصورة على محافظة فرنسا على التفوق الذي أصابته في العلوم والفنون فقط بل كانت أمانينا أن نرى العصر الجديد يفوق جميع العصور التي تقدمته وحيث كنا نبتغي أن نعرف الاشخاص المبرزين على غيرهم بالاشتراك في تعزيز العلوم والآداب والفنون نأمر باذاعة ما يلي :
« المادة الاولى : في اليوم الموافق للثامن عشر من شهر برومير يحتفل مرة

واحدة في كل عشر سنين بتوزيع جوائز سنية تسلم من يدنا في حفلة ومكان يسبق تعيينهما .

«المادة الثانية : ان جميع ما ينتشر من المؤلفات العلمية والادبية والفنية وجميع الاختراعات المفيدة والمنشآت المخصصة لتقدم الزراعة والصناعة الوطنية وينشر ويعرف أو يؤلف في خلال عشر سنوات وتسبق بسنة واحدة وقت التوزيع يحق له الاشتراك في المسابقة لنيل الجائزة الكبرى .

«المادة الثالثة : تقام الحفلة الاولى لتوزيع الجوائز السنية في ١٨ برومير من السنة الثامنة عشرة ويتناول السباق بموجب منطوق البند السابق جميع المؤلفات والاختراعات أو المنشآت المنتشرة أو المعروفة في المدة الممتدة بين ١٨ برومير من السنة السابعة و ١٨ برومير من السنة السابعة عشرة .

«المادة الرابعة: تكون قيمة بعض هذه الجوائز السنية عشرة آلاف فرنك وقيمة البعض الآخر خمسة آلاف فرنك

«المادة الخامسة : تكون الجوائز الكبرى البالغة قيمة الواحدة منها عشرة آلاف فرنك تسع جوائز تمنح على الوجه الآتي بيانه :

«١— لمؤلفي أفضل كتابين علميين أحدهما في العلوم الطبيعية والآخر في علم المعقولات

«٢— لمؤلف أفضل تاريخ أو أفضل قطعة تاريخية سواء كان في التاريخ القديم أو في التاريخ الحديث

«٣— لمخترع أنفع آلة في الفنون والمعامل

«٤— مؤسس أفضل معهد للزراعة او للصناعة الوطنية

«٥— لمؤلف أفضل رواية تمثيلية سواء كانت هزلية أو مأساة تمثل على

الملاعب الفرنسية

«٦— لمنشئ أفضل أثرين أحدهما في التصوير والآخر في الحفر يمثلان اعمالا

خطيرة أو حوادث كبيرة مأخوذة عن تاريخنا

«٧— لمؤلف أفضل قطعة موسيقية تنشده على ملعب ندوة الموسيقى الامبراطورية

«المادة السادسة : يكون عدد الجوائز الكبرى البالغة قيمة الواحدة منها

خمسة آلاف فرنك ثلاث عشرة وتمنح على الصورة الآتية :

« ١- لترجي عشرة كتب من المخطوطات في المكتبة الامبراطورية أو في غيرها من مكاتب باريس مما هو مكتوب باللغات القديمة أو اللغات الشرقية وتكون أجدى فائدة من سواها للعلوم أو التاريخ أو الاداب او الفنون .
 « ٢- لناظمي عقد ثلاث قصائد صغيرة من أبلغ القصائد يكون موضوعها دأرا على حوادث كبيرة من تاريخنا أو على اعمال خطيرة تعلي مجد أخلاق الفرنسيين .

« المادة السابعة : تمنح هذه الجوائز بناء على تقرير واقتراح لجنة مؤلفة من أربعة مستشارين دائمين من لدن فروع الندوة العلمية الاربعة ومن أربعة رؤساء حاملين في السنة التي تسبق سنة التوزيع » .

وبينا جميع أوروبا تنتظر غزوة نابوليون لانكلترا شاهدته بروسيل يشاهده فجأة وكان قد ضرب لجوزفين موعداً توأف فيه اليها . تخفت اليه واجتمعوا في قصر لاكن الذي هيء لاستقبالهما على غاية التأني . وهناك فاه نابوليون عن عقيلة ستال بالكلام الاتي بمناسبة رواية كورين التي وضعها هذه المرأة : « اني لأحب النساء المترجلات ولا الرجال المتخنثين فيجب على كل انسان في هذا العالم أن يمثل الدور المخصص له ، فما هذا الشرود في الافكار ؟ وماذا يبقى منه ؟ لاشيء وكل هذا يعتبر مما لا يدرك في العواطف ومن اختلال الفكر . فانا لا أطيق هذه المرأة لاني لا أشاء أن تتصدى لي النساء والله يعلم ما بذلته لي من النملق . »

ولا يخفى ان ما كان نابوليون يشعر به دائما من النفور من عقيلة ستال التي أصبحت عدوة لدودة له لانها نالت من جراء ذلك الامر شهرة واسعة كما يستفاد من رواية نابوليون نفسه في مفكراته يجعل ذلك الرجل العظيم مفتريا على النساء بوجه الاجمال وهو لم يكن يشكو الا من واحدة منهن على أن حكمه الصائب والمادل ضل عن المرمى هذه المرة لما كان يشعر به من القلى ولما كان قد اقتبس من المعادات حتى أنه لم يرعو عن هذا الحكم وهو في جزيرة القديسة هيلانة وظل يجاهر بأن المرأة لا تصلح الا لوضع الاولاد . وكان يقول أمام عقيلة برتران وعقيلة منطولون : « أتدعون المساواة ؟ ان هذا ضرب من الحماقة ! فالمرأة ملك لنا ولسنا ملكا لها . »

ولم تطل مدة اقامة العاهل في قصر لاكن فبرحه متوجها الى اكس لاشابل



نابوليون في ملابسه الامبراطورية

لقضاء ربح من الدهر فيه وقد شاقه الى المكث فيه ميلٌ سريٌّ الى عاصمة وصرح
الفتاح المشرع الذي شاء نابوليون بعد الف سنة أن يرمي ما تدعى من صرح
سلطنته وكان نظيره مفوضا اليه من الحق سبحانه وتعالى أن ينشر ألوية الحضارة
في أوروبا بما أوتيته من الدهاء والبأس

ويم نابوليون ما يانس مجتازاً كولونيا وكبلنتر عند عودته من مدينة شارلمان
التي كان يبتغي نقل شاراتها الى باريس نخف للقائه أمراء الامبراطورية فاغتم
الفرصة مما شاهده فيهم من الحماسة لوضع أسس مخالفة الرين التي كان يفكر في
اقامتها سداً لفرنسا في وجه الدول الشمالية العظمى

الا ان ما كان هؤلاء الامراء يبذونه له من محالي الاكرام سواء كانت صادقة
أو كاذبة واقتراع الشعب لم يكن لينقع غلة معبد سلطنة شارلمان : فان بطل
القرون الوسطى كرس سلطته موطدا دعائها على أساس الدين . أما نابوليون فع
ما كان مشهورا عنه من قلة الاكثارات للتفريق بين عصر وآخر شاء أن يجعل
عرشه محفوفا بكل ما كان عرش شارلمان محفوفا به من الاركان . وأنفذ لهذا
الغرض من ما يانس الى رومية كافارلي سفيرا يدعو البابا بيوس السابع الى المجيء
لمسح نابوليون عاهلا على فرنسا في باريس . وفي أثناء المفاوضات أصدر
نابوليون وهو على ضفاف الرين أوامره بتسيير أسطولين أحدهما من رشفور
والآخر من طولون بقيادة أميري البحر سياسي وفلنوف
وكان شديد الاهتمام بهاتين البعثتين البحريتين . وبعد غياب ثلاثة أشهر
عاد الى عاصمته فوصل الى سان كلود في أواسط شهر أكتوبر



الفصل الثاني

دعوة المجلس الاشتراعي الى الاجتماع — تمحيص الاقتراح الشعبي —

وصول الباباييوس السابع الى فرنسا — تتويج الامبراطور

ودنا الموعد المعين للتتويج فأخبر كافارلي المنفذ الى رومية للغرض الذي مر بنا ذكره في الفصل السابق انه بلغ متوخاه من مهمته : وعليه أوشك نابوليون ان يجلس على العرش الذي كان يجلس عليه خلفاء القديس لويس أبناء الكنيسة البكر برضى زعيم الكنيسة الاكبر وتحت رعايته . وكانت الحال تقضي بأن تصحب أبهة التمثيل السياسي نخامة الاحتفالات الدينية . ومعلوم ان مجلس الشيوخ ومجلس النواب ومجلس الشورى كانت معتبرة مجالس دأمة الانعقاد وكان المجلس الاشتراعي من دون سواء محتاجاً الى دعوة أعضائه الى الالتئام قبل الأجل المضروب لاجتماعهم بمدة من الزمان فدعي بموجب أمر عال صدر في ١٧ أكتوبر .

وأقسم أعضاء مجلس الشيوخ فرداً فرداً على رماية عهد الامانة للامبراطور وخطب فرانسوى دي نوشاتو زعيم المجلس خطاباً في حضرة العاهل نقتطف منه الفقرة الآتية :

« ياذا الجلالة في المستقبل البعيد حين يأتي أولاد أولادنا في مثل هذه الحفلة ليبايعوا الخلافة عاهلاً من حفداتك أو حفدة أخوتك ويؤيدوا له يمين الامانة بحسبهم لاظهار عواطف الشعب وأمانيه وحاجاته ولرسم خطة الواجبات المتقضي عليه المسير بموجبها ان يقولوا له هذه الكلمة : اسمك بونا بارت وأنت رجل فرنسا فاذا ذكر أيها العاهل اسم نابوليون الكبير . »

ولما جمعت أصوات الشعب للاقتراح على قرار مجلس الشيوخ الصادر في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة وتمحق مفوض الاحصاء الخاص الذي كان رودري لسان حاله ان ثلاثة ملايين وخمس مئة واثنين وسبعين ألفاً وثلاث مئة وتسعة وعشرين وطنياً أبدوا رغبتهم في أن تكون وراثة العرش الامبراطوري في الذرية المتحدرة رأساً من نابوليون بونا بارت بوجه طبيعي أو شرعي أو بشكل التبني وفي الذرية المتحدرة بصورة طبيعية أو شرعية من يوسف بونا بارت ولويس بونا بارت

فوض أيضاً الى فرنسوى نوباتو نفسه ان يهيئ نابوليون بما باح له به الشعب الفرنسوي من أسرار الثقة ومعرفة الجليل . وفي تضاعيف عبارات الاطراء والتعلق المزوق المركب منها الخطاب الرسمي الذي خطبه زعيم مجلس الشيوخ والذي كان معذوراً عليه لتوجهه الى مثل نابوليون تمكن الخطيب من التمييز بين الحكومة الامبراطورية والحكومة الملكية القديمة وتلك الميزة هي الميزة نفسها التي بين الثورة عينها وشكل الحكومة القديم ولولا ذلك لأبهم ايضاح معنى الاقتراع الحديث الذي أجراه الشعب الفرنسوي . وهذا ما قاله فرنسوي دي نوباتو الآنف الذكر : « ان لقب الامبراطور لا يذكركنا بتلك الحكومة الملكية التي تذلل لها الرعية وتتطامن لديها بل يدبر على نهاننا ذكر الفكر العظيم الحر الجائل في ذهن الحاكم الاكبر المتولي الاحكام باسم الشريعة وتشرف الرعية بأن تخضع لمثل هذا الفكر السامي . »

وهذا جواب نابوليون :

« ارتقي الى العرش وقد دعيت الى العرش بالصوت الحي أما في مجلس الشيوخ والشعب والجيش وفؤادي فمغم بالشعور بالحظ الاكبر الذي أصابه هذا الشعب وقد كنت وأنا في ميدان الحرب أول من أطلق عليه اسم « عظيم » فمذ حداتي وقفت عليه جميع أفكارى ولا ندحة لي عن القول الآن بأن أفراحي وأتراحي ليست سوى صدى أفراح شعبي وأتراحه .

« وسيحفظ أعقابى زماناً طويلاً هذا العرش المعدود في مقدمة عروش الدنيا وسيكونون في ميادين القتال في مقدمة الجنود ويمثلون نفوسهم في سبيل الدفاع عن بلادهم .

« وبصفة كونهم حكاماً لا يذهلون أبداً عن ان احتقار الشرائع وتضعيف النظام الاجتماعي ليسا سوى ضعف العهال وترددهم .

« وأنتم يا أعضاء مجلس الشيوخ يامن لم تضنوا على بعشوراتكم ومكافئكم لي في الاحوال المعصيبة المخوفة بالمصاعب ستنتقل روحكم الى خلفائكم فكونوا أعضاءاً ومستشارين لهذا العرش الذي لاغنى عنه لسعادة هذه السلطنة الواسعة . »

وكانوا قد وصلوا الى اليوم السابق لليوم المعينة فيه حفلة التتويج وكان البابا بيوس السابع قد خرج من رومية في مفتح شهر نوفمبر فانتهى الى فنتنبلو

في ٢٥ منه . وكان نابوليون قد دبر حفلة صيد ليتسنى له ان يخف على تلك الصورة للقاء الحبر الاعظم فالتقى به على طريق نيمور وحالما وقعت عينه عليه ترجل فحذا البابا حذوه . وبعد ما تصاحفا ركبا مركبة واحدة وسارا الى قصر فنتنبلوا الامبراطوري المزدان بالرياش الفاخر الجديد . ودارت بين الامبراطور والبابا مفاوضات متوالية في ذلك المقام الفخم وبرحاه في ٢٨ نوفمبر ودخلا في اليوم عينه مدينة باريس .

وكان موعد حفلة التتويج قد ضرب في اليوم الثاني من شهر دسمبر ففي ريق الامر ترددوا في اختيار المكان الملائم للحفلة فبعضهم كان يري ان يختار ميدان مارس والبعض الآخر ان تتقى كنيسة الانفاليد أما نابوليون فانه آثر كنيسة نوتردام على سواها : فقد كان ميدان مارس ممتلئا من ذكرى الفتنة الكبرى وهذا لم يكن يجعله ملائما لحفلة تنسى فيه الثورة ما كان في فاتحتها من الحوادث المشؤومة وما كان يشور في صدر القوم من البغضاء للملوك وخدام الدين وتؤول الى تحقيق تغيير شكل الحكومة الملكية واقناع أوربا بأنها تستطيع التوفيق بينها وبين وحدة السلطة ومزاولة فروض الدين ونوافله

وقد كان من الخطأ أن يكرر في سنة ١٨٠٤ ماجرى في سنة ١٧٩٠ ولكن اذا كان بيوس السابع قد شعر بوجوب المحافظة على كرامته وانه من الغض لها أن يفعل ما دبره تاليران فان نابوليون كان ذا ذوق سليم بحيث انه كان يحاذر أن يطلب من البابا فعل مثل ذلك الامر وقد قال : « ارتأى بعضهم أن تقام الحفلة في ميدان مارس نيمنا بذكرى التعاضد ولكن الازمنة تغيرت ... وبعضهم ذهب الى اقامة الحفلة في كنيسة الانفاليد استنادا الى ذكرى الحرب المتعلقة بها اما أنا فعندي أن اقامة الحفلة في كنيسة نوتردام أفضل منها في سواها : فهذه الكنيسة واسعة ولها أيضا ذكرى تناجي الفكر أكثر من غيرها وسيكون من جراء ذلك أهية تصيبها الحفلة بشكل باهر ... »

ولما كان اليوم المعين ذهب بيوس السابع الى نوتردام ووراءه عدد فقير من رجال الدين وأمامه بغل جريا على العادة الرومانية وقد ضحك الباريسيون كثيرا من ذلك الامر مما ذهب برصانة الحفلة في بداءتها . وجاء الامبراطور بعد البابا . ولم يسبق أن نظر موكب عليه من مجالي العظمة والفخامة ما كان على ذلك

الموكب الخاف بالامبراطور فقد احتشد فيه جميع مشاهير الرجال على اختلاف طبقات الشعب. وقد امتزج فيه بهاء المجد الشخصي بهاء المقامات والمناصب فان بهرجة الشارات والبهزات ونخامة المركبات والخيول المطهمة وزخرفة الملابس وتوارد المتفرجين القادمين من جميع انحاء السلطنة الفرنسية كانت جميعها تأول الى تصيبر الحفلة مشهداً من المشاهد التي لم تسمع الاذن أنه جرى نظيرها في العظمة والبهاء فقد كان يمثل الامة في نوتردام رؤساء الولايات ورؤساء دوائر الانتخاب ومندوبو الادارات المختلفة في الجيش والمجلس الاشتراعي وغيره من المجالس . فاقام البابا صلاة الحفلة اما الامبراطور فانه عند دنوه من المذبح لم ينتظر أن يضع البابا التاج على رأسه بل تناوله من يد البابا ووضعته على رأسه ثم توج الامبراطورة . وفي غد اليوم الذي أقيمت فيه الحفلة الباهرة عرض الجيش في ميدان مارس وتلا العرض توزيع الرايات الامبراطورية على جميع الفيالق وقد تولى الامبراطور بذاته توزيع الرايات وهو جالس على عرش نصب له على مقربة من المدرسة الحربية وعند اعطاء اشارة متفق عليها تحركت الجنود ودنت فخطبهم بما يلي :

« أيها الجنود اليكم راياتكم التي تكون دأمة علامة لكم على الاجتماع وستكون في كل مكان يراه امبراطوركم ضروريا للدفاع عن عرشه وعن شعبه »

« فهل تحلفون على بذل حياتكم للذود عنها والمحافظة على استمرار بقائها بما أوتيتموه من الشجاعة سائرة على طريق الشرف والنصر ؟ »

فارتفعت أصوات الجنود مطبقة الفضاء : « نعم نحلف »

وقد شاء مجلس الشيوخ ومدينة باريس اقامة الاحتفالات اكراما لتتويج امبراطور والامبراطورة فرفع مجلس البلدية في العاصمة في تلك الفرصة خطابا امبراطور هنأه به . وهذه صورة جواب الامبراطور عليه :

« يا حضرات أعضاء المجلس البلدي لقد جئت اليكم لامنح مدينتي باريس الفخمة تأكيد حمائي الخاصة لها ففي جميع الاحوال أسر وأرى من الواجب علي بأن أبدي لها براهين خاصة عن عطفي اذ أني اريد أن تعلموا اني وأنا في أثناء المعارك وفي المخاطر الشديدة وعلى متون البحار وفي أجواز القفار لم يكن يبرح مخيلتي رأي هذه العاصمة الاوربية الكبرى عقيب اقتراح الاجيال الالمانية العزيز لدى قلبي . »

وبقي بيوس السابع في باريس في خلال تلك الحفلات جميعها ولم يكن قد جاء الى فرنسا طامعا بالاختصار على استعمال ذلك التنازل لمصلحة الدين فقط بل لمصلحة سلطته الزمنية أيضاً وعليه كان من الطبيعي ان يطيل مدة مكثه عند نابوليون ليتسنى له تحقيق الاماني التي كان يعمل النفس بنيلها وسرى فيما بعد هل كانت آماله مبنية على أساس متين وهل كان الامبراطور مع ما بذله لاجبر الروماني من علامات الاحترام وعرفان الجميل للمسححة المقدسة التي منحه اياها يخطر له أن يضحى في جنب الاقرار بالمعروف بمبادئ السياسة الفرنسية في ايطاليا ومصالحها ؟



الفصل الثالث

جلسات المجلس الاشتراعي — ازاحة الستار عن تمثال نابوليون — كتاب
الامبراطور الى ملك بريطانيا العظمى — جواب اللورد ملغراف — اعلام
مجلس الشيوخ

وبعد حفلة التتويج بخمسة وعشرين يوما ترأس الامبراطور افتتاح جلسات
المجلس الاشتراعي وقد فاه في تلك الحفلة بما يأتي : « أيها الامراء والحكام
والجنود والوطنيون ليس لنا في الخطبة التي ننتهجها سوى غاية واحدة وهي مصلحة
الوطن فاذا كان هذا العرش الذي انتدبتي العناية وارادة الامة للجلوس عليه يعتبر
عزيزا في عيني فما ذلك الا لانه يستطيع من دون سواء أن يدافع عن اعز مصالح
الشعب الفرنسي المقدسة ويحفظها .

« ان ضعف السلطة السامية أكر بلية تصاب بها الشعوب . وحين كنت
جنديا ثم صرت قنصلا أول لم يكن يحول في خازري سوى فكر واحد وحين
صرت ماهلا لم يبرح ذلك الفكر مخيلتي وهو سعادة فرنسا وقد أسعدني
الخطب بأن أجعله مشهرا بالانتصارات لكي أعززه بالمعاهدات واجعله بمعمل عن
الخصومات الاهلية وهيأت له نهضة الاخلاق والهيئة الاجتماعية والدين . واذا لم
تفاجئني المنية في ابان مزاوله هذه الاعمال فانا أو مل أن أخلف الى الاجيال الاتية
تذكارا يكون الى ماشاء الله مثالا خلفائي ينسجون هلى منواله أو منذرا لهم .
وسيسبط لديكم وزير داخليتي حالة الامبراطورية » .

ونهض المسيودي شامباني باعباء هذه المهمة الوعرة المرتقى فاسهب في بيان
السكينة السائدة في فرنسا وعظمة هذه البلاد ويسرها بعد النكبات المتوالية التي
حلت عليها وذكر أن الكهنة وخدام الدين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم أجمعوا
كلهم على حب الوطن والاعجاب بنابوليون . وان الناس يعتبرون الاحكام
الجديدة في كل مكان نعمة سامية وان مدارس الحقوق موشكة أن تفتح أبوابها
وان مدرسة العلوم والفنون ملأت المسالح والمرافق والمعامل من الاشخاص

المفيدة المتخرجين فيها وان مدرسة الفنون والهندسة في كومبيانيه تتدرج بوما فيوما في مراقي التقدم وان فرقة المهندسين الفرنسيين انتدبت لانشاء الطرف في جميع فروع العلوم والآداب والفنون وتخصيص جوائز عشرية وان ادارة الجسورة والطرق تواصل بملء الثقة الاعمال التي باشرت وتفكر في مزاولة اعمال جديدة انشئت في الفنده (مدينة نابوليون فنده) لتصير مجمعا للنور ونقطة لداثرة المراقبة الشديدة الثابتة واعيدت حركة التجارة الى ضفة الين اليسرى بأوامر الامبراطور ومنحت ما يانس وكولونيا جميع امتيازات المستودعات الحقيقية من دون أن تتعرض لخطر الاحتيايل والتهريب الى داخل فرنسا وبلغت المعامل درجة الكمال ومدت صناعتنا وشائجها في أرضنا فذهبت فيها كل مذهب وحلت محل الصناعة البريطانية مبعدة اياها عن تخومنا بعدما تمكنت من مضاهاتها في ما كان سببا لاشتهارها ورقبها وداعيا الى انتشارها وهو اتقان أدواتها واتسعت دائرة الزراعة وصاروا يزاولونها بشكل معقول وقصارى القول غزت موارد الرزق الحقيقية في جميع انحاء السلطنة الفرنسية .

وذيل وزير الداخلية هذا البيان بإيراده بياناً آخرأفصح فيه عن عدد الفقراء في العاصمة فكان أن عددهم نقص ٣٢ ألفاً عما كان عليه في سنة ١٧٩١ و ٢٥ ألفاً عما كان عليه في السنة العاشرة .

أما حالة الطوارئ الفرنسية فانها لم تكن مرضية من جراء الحروب البحرية وكانت علاقات الحكومة الفرنسية مع دول القارة الاوربية حمية في الظاهر ولكن لا بد لنا من القول بان هذا السلام كان كاذبا يستر تحته الحرب الموشكة نيرانها أن تستمر

وجوابا على هذا البيان توجه أعضاء المجلس الاشتراعي أنفسهم بالبزات الرسمية في ٢ يناير سنة ١٩٠٥ ومثلوا في حضرة الامبراطور رافعين اليه خطابا دس فيه الميسو دي فنتان رئيس المجلس كلمة « رعيته الشديدة الامانة » مع ما كان من تذمر الاكثريه بين زملائه . وبعد أيام نصب في المكان الذي يجتمع فيه مجالس النواب التمثال الذي حفره شوده لنابوليون . والقي الميسو دي فيلان قيم المجلس خطابا في حضرة الامبراطور والامبراطورة وعظماة رجال الامبراطورية استمله بالسكلام التالي :



حفلة تنويع الامبراطور نابوليون والامبراطورة جوزفين في سنة ١٨٠٤

« أيها السادة . لقد اعلنتم نجاح القانون المدني مما أثار في الافئدة ساكنات التمتع وعرفان الجميل . وقد أقمتم تمثالا للعاهل الكبير الذي أنجز بآرادته القوية الثابتة هذا الاثر العظيم وكان ذهنه الواسع ينشر في الوقت عينه النور الساطع على هذا القسم الشريف المتضمن المنشئات الانسانية وقد بدا هذا الرجل في هيكل الشرائع حين كان قنصلا أول كما يبدو الآن وهو امبراطور الفرنسيين رأسا يزينه الا كليل المقرون بالظفر والموضوع بيد النص على مفرقة مرات كثيرة كفأ لللبسه يوما ما اكليل الملوك ... »

« واذا كان المدح مفسداً للنفوس الضعيفة فانه مقو للنفوس الكبيرة ... »
« وأي رجل يستحق أكبر من نابوليون أن يؤدي له معاصروه والاجيال الآتية الاكرام السامي الذي تحتصونه به اليوم ؟ ... »

وتلاه المسيو دي فنتان فلم يقصر عنه في الاطراء والثناء على العاهل نابوليون ومما قاله : « ان المجد يصيب اليوم أعدل مكافأة والسلطة تنال أيضا أنبل التعليمات . فهذا التمثال لم ينصب للقائد المقدام ولقاهر الشعوب المتعددة فالجلس الاشتراعي يقيمه لمريم صرح الشرائع . فلا يرتجف الارقاء ولا تتذلل الامم المقيدة عند قدسي هذا التمثال وانما نصب لكي ترى الامة الكريمة بانهاج هيثة مخلصها فيه »

« فلتعظم التماثيل المنصوبة لتكريم الكبرياء والتدليس ولكن فلتكرم معرفة الجميل تكريما خالدا التماثيل المنصوبة مكافأة للبسالة وقرارا بالاحسان »
وبعد قليل من الحين ختم المجلس الاشتراعي جلساته فاقفه المسيو دي سينغور مستشار الامبراطورية وبعد ما أورد بصورة جديدة خلاصة أقوال لاسيبيد وفرنسوى دي نوشاتو وفيلان وفنتان وغيرهم عن المعجزات التي أتاها الامبراطور ردد على مسامع النواب ما فاه به نابوليون نفسه لما افتتح المجلس وهو : « أيها الامراء والحكام والجنود والوطنيون ليس لنا في الخطة التي ننتهجها سوى غاية واحدة وهي خدمة مصلحة الوطن »

وكان نابوليون يعلم ان هذه الخدمة تقتضي قبل كل شيء صلاحا متين الاركان طويل المهد يكون أوربيا حقيقيا من دون ان تستثنى منه بريطانيا العظمى ننسي ما أصابه من الفشل مكتوبه للملك جورج الثالث أيام كان هو

قنصلاً أول وعالج بعد ارتقائه الى عرش الامبراطورية استئناف المساعي السلمية لدى هذا الملك فكتب اليه في ٢ يناير سنة ١٨٠٥: « حضرة أخي حيث انتدبت من لدن العناية وباقتراع مجلس الشيوخ والشعب والجيش للجلوس على العرش فأول عاطفة تهزني هي رغبتني في السلم فبريطانيا العظمى وفرنسا تستنزفان موارد قوتهما وهما تستطيعان ان تتحاربا قروناً طويلة ولكن هل تكون حكومتاهما والحالة هذه متمتين لا قدس ما يجب عليهما ؟ أولا يوبخهما ضميرهما من جراء غدران الدماء المسفوكة على غير طائل ومن دون غاية يرمى اليها ؟ فلا أعتبر مبادأتي بالكتابة من باب التذلل والتصاغر ولا يذهب عني اني كثيراً ما برهنت للملأ طراً على أني لا أخشى البتة أهواء الحرب وفضلاً عن ذلك ليس ثمة ما يستوجب خوفي . فالسلام منية فؤادي والحرب لم تكن قط معاكسة لمجدي . الخ . الخ »

ولم يرد الى نابوليون جواب شخصي على رسالته فان ملك بريطانيا العظمى اكتبني بأن يفوض الى اللورد ملغراف ان يمضي كتاباً مبهماً الى الميسيو تاليران فطرح الماهل لدى مجلس الشيوخ هذا الكتاب مع نسخة من الكتاب الذي أنقذه هو الى جورج الثالث . وهذه خلاصة مكتوب اللورد ملغراف :

« انتهي الى جلالة الملك الكتاب الذي بعث به اليه رئيس الحكومة الفرنسية فليس أشهى على قلب جلالته من اغتنام أول فرصة يظهر فيها لرعيته فوائده سلم مبنية على قواعد غير منافية للامن الدائم والمصالح الجوهرية في بلاده ويعتقد جلالته ان هذا الخير لا يدرك إلا باتفاق يكون من ورائه توطيد دعائم السكينة في مستطرف الحين في أوروبا وتلافي تجديد المتالف والنكبات التي ألقت نفسها مضطرة الى تلقيها . وان جلالته يشعر بموجب هذه العواطف بأنه يتعذر عليه ان يقابل بالمثل ما بودى به ريثما يتسنى له ان يفاوض في هذا الشأن دول القارة الاوربية المرتبط هو بها بعهود ومواثيق سرية ولا سيما قيصر روسيا الذي برهن بصورة واضحة عن حكمته وسمو عواطفه وشدة اهتمامه بأمن أوروبا واستقلالها . »

ومع ما بذله ذلك السياسي البريطاني من المجهود لاختفاء حقيقة مقاصد حكومته نحو فرنسا لم يتمكن في المكتوب الذي نشرنا خلاصته من التويه على

العقول فيما يتعلق بميل هذه الحكومة الى الحرب وابتعادها عن السلم . فما هو معنى انكارها على نابوليون لقب امبراطور وقد اعترف له به الشعب الفرنسي وكرسه البابا ولم تنكره عليه غيرها من الدول الاوربية وماذا كانت تلك التداير التي زعمت بريطانيا انه لامندوحة عنها للامن الاوربي في مستقل الايام والتي اعتقدت انها من دون سواها تستطيع ان تتلافى تجديد النكبات الماضية ؟ وتلك العلاقات السرية مع دول القارة الاوربية ولا سيما مع قصر روسيا فما هي الغاية المقصودة بها وضد من أنشئت فكل شيء في تلك الرسالة مع كونه في الظاهر معتدلا ومبهما كان يدل على مقاصد الحكومة البريطانية المبينة على العناد وعلى روح برك وبت والمبدأ المتخذ لمحاربة فرنسا بطريقة جهارية أو منهاج خفي ما دامت فرنسا لا تبذل ضمانا على إعادة السكينة الى اوربا القديمة بنبذها مبادئها الجديدة . وهدم ما بنته من صروح الانظمة الحديثة وعودتها الى الطريقة القديمة . وقد شعر نابوليون بذلك الامر وشاء أن تنشر رسالة الوزير البريطاني في جميع أنحاء فرنسا تأييداً لعزمه على تهيئة عدد الحرب مما يجعل الملاء طرا يعتقد أن من كانوا يحاربون الامبراطور لم يكونوا يحاربون سوى الثورة الفرنسية الكبرى .

الفصل الرابع

المناداة بنابوليون ملكا على ايطاليا-- الانطلاق من باريس - الاقامة
في طورينو - نصب مارنغو - دخول ميلانو - ضم جنوى الى فرنسا
- التتويج الجديد - الرحلة الى ايطاليا - العودة الى فرنسا .

وكان ما بسطه تاليران باسم الامبراطور لمجلس الشيوخ قد ايقظ فرنسا
من رقتها فاصبح من ذلك الحين الرأي العام مواليا لنابوليون وحسبت السنة
القائلين انه كان ميالا الى مواصلة الحرب البحرية أو الى اثاره تقع الحرب البرية .
وكان بيوس السابع لا يزال مقبلا في باريس فشهد مندوبي الدوائر الانتخابية
والجالس المؤلفة في الجمهورية الايطالية يقدمون الى باريس ويلقون عند قدمي
العاقل أماني أمتهم وينادون بنابوليون ملكا على ايطاليا . وكان ملازي نائب رئيس
الجمهورية لسان حال ذلك الوفد فثقل في ١٧ مايو سنة ١٨٠٥ في الحفلة الكبرى
أمام العاقل والقي أمامه وأمام مجلس الشيوخ خطبا ختمه بهذه العبارة :
« يا ذا الجلالة اردت أن تكون جمهورية ايطاليا فسكانت فأرد ان تكون
مملكة ايطاليا فتكن . »

فأجابه نابوليون :

« ان ارادتنا الاولى مع كونها لا تزال ملطخة بالدم ومنغشة بالغبار في
المعارك كانت ترمي الى اعادة تنظيم البلاد الايطالية »

« لقد دار في خلدكم ان مصالحكم تقتضي أن تتولى رئاسة حكومتكم والآن
مع بقائكم محافظين على هذا الفكر تريدون أن تكون أول ملك عليكم فان فصل
تاج فرنسا عن تاج ايطاليا مع نفعه لضمانة استقلال ذرايكم يكون في هذا
الوان شؤما على كيانكم وراحتكم . فأنا أحتفظ بهذا التاج ما دامت مصالحكم
تقتضي ذلك ويسرني أن أنظر وصول الوقت الذي أستطيع فيه أن أضعه على
رأس فتى أصغر سنأ مني تهب في صدره نسمات روجي فيستأنف عملي ويكون
دائما مستعدا لبذل ذاته ومصلحه في سبيل امن وسعادة الشعب الذي تدعوه
النهائية ودستور المملكة واداتي لتولي شؤونه . »

ولم يكن البابا خالياً من القلق السري العميق عند رؤيته انشاء مملكة ايطاليا الجديدة وامتداد سلطة نابوليون رأساً حتى أبواب رومية فان رحلته الى فرنسا المقررة بنوع خاص باعتبارات زمنية كان يراد منها غير ذلك الجوار الهائل فكتم بيوس السابع استيائه مغمضاً جفنه على التقذى وطاويماً كشحه على الاذى في الامور الخارجية وقد رضي بان يزاول مهمته الحبرية مرة أخرى للعترة المالكة في فرنسا .

وكان قد ولد للويس بوناپرت غلام ثان فوضع العاهل نابوليون في خزانه مجلس الشيوخ صك ولادة الامير الحدث المدعو بموجب انظمة الامبراطورية بطريق العرض الى الجلوس على العرش وأطلق على الطفل اسم نابوليون لويس وكان الامبراطور عرابه وقد عمده البابا في ٢٤ مارس سنة ١٨٠٥ بقصر سان كلود وفي مفتتح شهر ابريل رحل الامبراطور باريس ميمماً ميلانو وقد صحبته الامبراطورة فكثت ثلاثة أسابيع في طورينو حيث نزل في قصر ستوبينييسي الملقب بسان كلود ملوك سردينيا ولما عاد البابا الى رومية ذهب لزيارة العاهل نابوليون فدارت بينهما محاورات كثيرة لم يكن نابوليون في خلالها يجعل بيوس السابع يعمل نفسه بأمل الحصول على أراض جديدة في مقابل الزيت المقدس الذي مسحه به . وفي ٨ مايو أراد نابوليون وهو متوجه الى ميلانو أن يتفقد المكان الذي جرت فيه معركة مارنغو فحشدوا فيه جميع الجنود الفرنسيين الذين كانوا في ذلك الصقع . فعرضهم الامبراطور وهو لا يس الثوب نفسه والقبعة نفسها اللذين كان يلبسهما في اليوم الذي نشبت فيه هذه المعركة العظيمة . وقد قال بوريان : « ولأحظ القوم ان الأرض التي لا يقل فتكها بثياب الرجال العظام عن فتكها بحسوسهم كانت قد قرضت ثوب العاهل ومع ذلك لم يحل هذا الامر دون ارتدائه به » .

ولم يستأنف نابوليون المسير الا بعد ما وضع الحجر الاول من النصب الذي أمر باقامته للشجعان الذين وردوا حياض المنية في ذلك الموضع وفي اليوم عينه دخل ميلانو .

على أن المؤرخين المعتبرين من أشد الناس عداوة لنابوليون اعترفوا بأن

هذه العاصمة احتفت به احتفاء باهراً لا يقل عن الاحتفاء الذي جرى له في فرنسا بعد معركتي ليوبن ومارنغو فقد بلغ حماس الايطاليين غاية ما وراءها من مزيد .

ونزل نابوليون في قصر منزا فاقبل عليه دوراتزو آخر حاكم من حكام جنوى وطلب اليه ان يضم الجمهورية الليغورية الى السلطنة الفرنسية . فاجابه نابوليون بمايلي

« يا حضرة الحاكم ويا حضرات مندوبي مجلس الشيوخ وشعب جنوى
« تستطيع الافكار الحرة دون سواها أن تعيد الى حكومتكم ما كانت عليه
من الفخامة منذ قرون طويلة بيد اني مامكثت ان اعتقدت ما كنتم عليه من
العجز عن اتيان ما يليق بآبائكم

« كل شيء قد تغير: المبادئ الجديدة الموضوعة لشريعة البحار والجاري
على منهاجها البريطانيون لاجبار معظم أوروبا على الاعتراف بها وحق الحصار
المستطاع مده على الاماكن غير المحصورة والمراد به الحق باادة تجارة الشعوب
على هوام والدمار المتزايد الناجم عن البربر فجميع هذه الاحوال جعلتكم معزولين
في استقلالكم وستدخر لي الاجيال الاتية هذه المنة وهي سمي وراء تحرير
البحار واضطرار البربر الى العدول عن محاربة السفن الضعيفة . ولم يكن بحري
في وهمي سوى تعزيز مصلحة البشر والمحافظة على كرامتهم . وعند عقد وثيقة
اميان أثبت بريطانيا العظمى بمالاتي على هذه الافكار الحرة . .

« وحيث لا يكون استقلال بحري لشعب بزاول التجارة تنشأ الحاجة الى
الانضواء تحت لواء قوي فاننا سأنتم أمانكم وأضمتكم الى شعبي العظيم .
وقد تم هذا الضم في الحال وأصبح حاكم جنوى عضوا في مجلس الشيوخ
الفرنسي .

وفي ٢٦ مايو اقيمت في كاتدرائية ميلانو حفلة تنويج نابوليون ملكا على
ايطاليا . وكان مترأس الحفلة الكاردينال كبرارا رئيس اساقفة المدينة فسلم المعاهل
التاج الحديدي القديم فأعاد نابوليون العمل نفسه الذي أجراه في حفلة
التنويج بباريس أي انه تناول التاج بيده ووضعه على رأسه وقال بصوت عال:
« الله أعطانيه فحذار أن يمسه أحد ! »

وكان حسد الحكومة النمساوية يفوق حسد الكرسي الرسولي من جراء
توطيد أركان السيادة الفرنسية في إيطاليا فقد كان هذا الأمر حادثاً جديداً
أضيف إلى الحوادث الكثيرة التي كانت الممالك الأوروبية القديمة تعتبرها
مستوجبة لمقاومة الثورة الفرنسية الكبرى والحكومة المنبثقة منها . وكان
نابوليون يتوقع دائماً انفجار بركان القلي والاستياء في أفئدة أعداء الثورة
الفرنسية الأقدمين مما كانوا يشاهدونه من ممو مكائته وازدهار الامبراطورية
الفرنسية في عهده وقد جعل نصب عينيّه اذكاء مواقف الاخلاص والحماس عند
الشعوب الخاضعة لسلطته فطاف مملكة إيطاليا تصحبه جوزفين فكان القوم
يبالغون في الاحتفاء بهما في جميع الامكنة التي يمران بها وقد امتازت عن سواها
الحفلات التي احتفل بها اكراما لهما في جنوى . وقبل ان يفصل نابوليون عن
ميلانو انجز ما وعد الايطاليين به فاختار لهم أوجين بوهرنه حاكماً عليهم ثم أنه
أنشأ نشان التاج الحديدي ونظم شئون جامعة طورينو .
ثم أن نابوليون وجوزفين عادا الى فرنسا فوصلا في ١١ يوليو الى فننبلو
وشخصا منها الى باريس وسان كلود الا أن الاحوال لم تمكن الامبراطور من
التمتع بمجده وقد قدر له أن تسخر راحته لعظمته .



الفصل الخامس

انطلاق نابوليون الى معسكر بولون — حشد الجنود الفرنسية على
حدود النمسا — عودة الامبراطور الى باريس - اعادة التقويم الغريغوري
— اعلان الحرب على النمسا وتقرير مجلس الشيوخ تعبئة ثمانين الف مقاتل —
توجه الامبراطور الى الجيش — معركة استرلتز

ودنا الزمان الذي كان نابولايون ينتظره وأوشكت العداوة المضمرة أن
تتحول الى حرب ظاهرة : فبرح الامبراطور عاصمته مرة أخرى في مفتتح شهر
أوغسطس ميمما معسكر بولون لتفقد أحوال الجيش المنتشر على السواحل .
ولم تتجاوز هذه الرحلة شهراً من الزمان وقد اصدر الناهل في أثناءه أوامره
بتمعبئة ثمانين الف مقاتل عند حدود النمسا .

ولما عاد نابوليون الى باريس عني وهو مهتم بشؤون الحرب باعادة التقويم
الغريغوري وكان ذلك العمل نتيجة من نتائج طريقة الحكم الذي انتقى شكله
واللقب الجديد الذي اتخذده فان العصر الجمهوري لم يبق ملاماً لمجموع الانظمة
الملكية التي كان نابوليون يتوخى ادخالها الى الاماكن المنتشرة فيها سطوته . على
أن التوقيت أوقسمه السنة على ماقدره الكنفنسيون الوطني مبني على حسابات علمية
وكيفما كان الامر فالعلم ايضا هو الذي بين ضرورة العودة الى استعمال التقويم
الغريغوري وقد فوض الى العلامة لابلاس اعادة ذلك الامر . ولا بد من القول
بان هذا العالم النحرير المنتظم في سلك مجلس الشيوخ جعل الناس يشهدون له بسعة
الصدر في العلوم والمعارف واقنع القوم بانه لا سبيل الى الخوف على المبادئ الجمهورية
من اعادة الحساب القديم . ومما يجدر بنا أن نحفظه ونكرده هو كلام درينيو دي
سان جان دنجلي خطيب الحكومة الذي بذل غاية المجهود لاقناع الامة بان
ما تنوي الحكومة اجراءه لم يكن سوى انتقال بسيط . واليك طرفا مما قاله في
هذا الصدد : « سيأتي ولا ريب يوم حين تسكن الاحوال في أوروبا ويعود
السلام الى نصابه في ربوعها وتتمز في الافكار المفيدة وتتسع دوائر العلوم



جونودوق ابرنتس (۱۷۷۱-۱۸۱۳)

يشعر فيه القوم بالحاجة الى اتقان الانظمة الاجتماعية والتقريب بين الشعوب بمجمل
هذه الانظمة مشتركة بينها وننتهي الى عصر مشهور بشكل عام وأتم لاجل قياس
الوقت .

« فحينئذ يمكن ولا جرم انشاء تقويم جديد لجميع اوربا ولجميع العالم السياسي
والتجاري يؤخذ من بقايا التقويم الذي أعرضت عنه فرنسا الآن لثلاث تنفرد في
أوربا . »

وكانت أوربا مصرة على عزل فرنسا مع ما كان قد أعيد اليها من الانظمة
الملغاة مما هو معمول به في الدول العريقة في القدم فانها كانت ترى بكل وضوح
ان مضادات الثورة المعمول بها في الهيئة الاجتماعية الفرنسية لم تكن سوى
سترسياي زائل القوي على الثورة الاجتماعية تاركا لها كل قوتها الحقيقية ومعناها
الديمقراطي . وبعد انقضاء عشرة أيام على صدور قرار المجلس القاضي بأن يستبدل
بتقويم الجمهورية الجديد تقويم الملكية القديم رأى نابوليون ان يبسط لمجلس
الشيوخ أعمال النمسا وروسيا العدائية ويشعره بقرب انطلاقه الى الجيش واليك
مافاهه أمام المجلس : « يا حضرة أعضاء مجلس الشيوخ أراني في الاحوال الاوربية
الحاضرة مكرها على الوجود بين ظهرانكم وعلى اظهار عواطفني أمامكم واني
مصمم على مغادرة عاصمتي للزحف في مقدمة الجيش والاسراع لنجدة حلفائي
والدفاع عن أعز مصالح رعيتي . »

« لقد أدرك أعداء القارة الاوربية الابديون قصوى أمانهم فانفتحت
أبواب الحرب في وسط ألمانيا وقد اتحدت النمسا وروسيا مع بريطانيا العظمى
فلم يجد جيلنا بداً من دخول معترك الحرب ومكابدة ويلاتها : وقد كنت من
أيام مؤملا ان تظل حياض السلم صافية إلا ان الجيش النمساوي اجتاز الآن
وغزا مونيخ وطرده أمير بافاريا من عاصمته فانقضت جميع عرى آمالي . »

« لقد أصبح الآن شر أعداء القارة ظاهراً كالشمس في رابعة النهار فهم
يهاذرون ما أبديته من الميل الشديد الى السلم وهم يخشون ان تعود النمسا الى
الشعور بمواطن العدالة والاعتدال عند رؤيتها الوهدة العميقة التي حفرها
عند قدمها فدفعوها الى التورط في الحرب . يعز علي وايم الحق ان أرى الدماء

تهرق في أوروبا ولكن سيكسى الاسم الفرنسي من وراء هذا الامر حلة جديدة من الفخر والثناء .

« يا أعضاء مجلس الشيوخ حين وافقتكم على أمانيتكم واجبت نداء الشعب الفرنسي جميعه ولبست التاج الامبراطوري عاهدتموني أنتم وجميع الرعية على المحافظة على بقائه نقياً من كل وصمة . وقد برهن لي شعبي في جميع الاحوال عن ثقته بي ومحبه لي ولذلك لا أمترى أبداً في انه سيخفف الى الانتظام تحت ألوية امبراطوره وفي سلك جيشه اللذين يجتازان الحدود بعد أيام .

« إن جميع الحكام والجنود والرعية يبتغون بقاء الوطن بعيداً عن تفوق بريطانيا فهذه اذا سادت كلمتنا لم تمنحنا سوى سلم ممزوجة بالهوان والصغار ويكون من أهم شروطها احراق أساطيلنا وهدم نفورنا واتلاف صناعتنا

« اني أنجزت المواعيد التي وعدت بها الشعب الفرنسي وهذا الشعب قد أنجز في نوبته كل ما آلى على نفسه ان ينهض باعبائه نحوحي فبناء عليه لا يحجم أبداً في هذه الاحوال الضرورية لمجده ولجدي عن بقاءه جديراً باسم « الشعب العظيم » الذي أطلقته عليه في ميادين القتال .

« أيها الفرنسيون ان امبراطوركم سيقضي مايجب عليه وجنودي سيقومون بما يسند اليهم وأنتم ستضطلمون بما يعول عليكم فيه . »

فأجاب مجلس الشيوخ نداء الامبراطور بتقريره تعبته حيش مؤلف من ثمانين ألف جندي وتنظيم الحرس الوطني . وقد شاء المجلس أيضاً ان يتم بأسرار خبرته واخلاصه فبادر الى رفعه عند قوائم العرش ترجمة عواطف استيائه من روسيا والنمسا العدائية . واعتبرت حكومة العاصمة انه لايليق بها ان تظل صامتة في مثل هذه الاحوال الخطيرة فجاء فروشو حاكماً مقاطعة السين مترأساً المجلس البلدي وقدم للامبراطور مفاتيح مدينة باريس وهي عادة قديمة تدل على خضوع المدينة واخلاصها . واليك خلاصة الكلام الذي فاه به في حضرة الامبراطور :

« اذا كان مايدعونه صحيحاًعن طموحهم الى الايقاع بشخصك والتطال الى العبث باستقلال الامة وبحريتنا ونظامنا فربأ أن يكون دفاعنا على قدر المصلحة المتعلقة بهذا الامر واذا قضت الحال بالرحف فكن على ثقة بأن

الجميع مستعدون للحاق بك وخدمتك والانتقام لك . »

ومهما شاء بعضهم ان يعزوا الى التظاهرات المكروهة عليها المجالس وما ينطوي من الظنون تحت الخطب الرسمية فمن المحقق ان الخطباء الذين أوردنا حتى الآن أقوالهم رددوا بصور مختلفة تعبير العواطف الوطنية . ولما وثق نابوليون من معاضدة فرنسا له انطلق من باريس في ٢٤ سبتمبر وجعل محل أركان حربه في ستراسبورغ وفي ٢٩ منه أذاع المنشور الآتي الموجه الى الجيش :

« أيها الجنود :

« لقد ابتدأت حرب المحالفة الثالثة وقد عبر الجيش النمساوي نهر الان وتغص الموانئ وأغار على حليفنا وطرده من عاصمته . . . وأنتم اضطررتم الى الاسراع للدفاع عن حدودنا . فقد اجتزم نهر الرين ونحن لا نتوقف عن الزحف الا حين يتسنى لنا ضمان استقلال الوحدة الجرمانية ومناصرة حلفائنا وكبت البغاة المتغطرسين الجائرين ولا نعقد من الآن فصاعداً صلحاً بلا ضمان ونحاذر أن ندع كرم أخلاقنا يخدع سياستنا .

« أيها الجنود :

« ان امبراطوركم بين ظهرانيكم وأنتم لستم الا طلائع الشعب العظيم واذا مست الحاجة نهض هذا الشعب برمته ملبياً ندائي ليحبط ويفكك أجزاء التحالف الجديد الذي نسجت برده على منوال قلى بريطانيا العظمى ومالها . « ولكن أمامنا أيها الجنود زحف عنيف ومصاب شتى يقضى علينا تدليلها وموانع كثيرة تتصدى لنا . ولكن كيفها كان نوع الشدائد التي تقف في وجهنا سنتقلب عليها ولا يقر لنا قرار الا حين ننصب أعلامنا في ربوع أعدائنا .

نابوليون »

وفي أول أكتوبر عبر الامبراطور نهر الرين عند كهل وبات ليلته في اتلنجن فوافاه اليها حاكم بادن الأكبر وأمرأؤها ثم أنه انتجع لويزبورغ ونزل في قصر حاكم ورتمبرج .

وفي ٦ منه دخل الجيش الفرنسي أرض بافاريا بعد ما تحاشى الايغال في الجبال السوداء وخط الانهر المحاذية لها والجاري مأوها في وادي الدانوب . على أن النمساويين الذين صمموا بعد غزوتهم الديار البافارية في أثناء السلم على

التقدم الى منافذ الغاب الاسود ليصدوا الجيش الفرنسوي عن المرور به كانوا خائفين على مؤخرتهم التي كانت المتالف تهددها .

وفي اليوم عينه وجه الامبراطور الى الجنود البافاريين لشرة هذا ما كملها :
« لقد زحمت في مقدمة جيشي إرادة إنقاذ وطنكم من الطغاة الظالمين . . .
ولما كنت حليفاً لحاكمكم أبهجني ما أبدىتموه له من علام الحب في مثل هذه
الاحوال المصيبة . فأنا أهرف بسالتكم وأعلل النفس بأني سأستطيع بعد
المعركة الاولى أن أقول لمولاكم ولشعبكم أنكم جديرون بأن تقاتلوا في صفوف
الجيش العظيم » .

ولما كان من الغد جرت الموقعة الاولى فاستولى مئتا فارس من فرسان
مورات على جسر لوخ الذي دافع عنه الاعداء دفاعاً غنياً على غير طائل . وكان
السكرولون واطيه قد هجم عليه في مقدمة أولئك الشجعان .
وفي ٨ منه زحف المارشال سولت الى أوغسبورغ بعد ما افتتح هذه
الحرب باحتلاله دوناورث .

وكان مورات ومعه ثلاث كوكبات من الفرسان يعمل لقطع الصلات بين
ألم وأوغسبورغ ولما التقى بالعدو عند ورتنجن حمل عليه حملة صادقة وكان
يمضيه المارشال لان الذي قدم لنجدته بفرقة أودينو . وبعد قتال شديد دام
ساعتين اضطر الى الاستسلام جيش النمساويين المؤلف من اثنتي عشرة فصيلة
من رماة القنابل . وقد شاء الامبراطور أن يبلغ هذا الانتصار الباهر الى حكام
مدينة باريس بارساله اليهم رايات ومدفعين غنهما من الاعداء لتوضع في دار
البلدية . وكان الكتاب الذي خطه اليهم مؤرخاً في ١٠ ديسمبر وصادراً عن
المعسكر العام في أوغسبورغ . وكان المارشال سولت قد دخل تلك المدينة في
اليوم السابق ومعه فرق فندام وسان هيلار وليفران .

ولما عرض الامبراطور الدراغون في قرية زومرسهوزن أمر بالجندي مارنت
الذي أنقذ حياة قائده من غائلة الردى عند عبوره نهر ليخ — وكان هذا القائد
قبل ذلك الحين ببضعة أيام قد عاقبه بانزله اياه عن رتبته — أن يمثل لديه
ومنحه نشان جوقة الشرف فقال له الجندي : « لم أفعل الا ما هو مقضي علي

فعله فقائدي أنزلي عن رتبتي عقاباً لي على هفوات ارتكبتها ولكنه يدري أنني جندي من أفضل جنوده .

ولم يكن تصرف الدارغون في معركة ورتنجن يقل في الجرأة عن تصرفهم في جسر ليخ فأمر الامبراطور بأن يمثل لديه جندي من كل فرقة ومنحه نشان جوقة الشرف ولما جاء اكسلمان حاجب مورات بالاعلام التي غنمها من النمساويين وكان قد قتل تحتته جوادان في يوم واحد قال له نابوليون : « أنا أدري أنه لا يمكن الانسان أن يكون أشجع منك وعليه أمنحك نشان جوقة الشرف من رتبة ضابط . »

وبعد انقضاء أربع وعشرين ساعة على معركة ورتنجن استولت الفصيلة التاسعة والمحسون من فرقة مالهه وهي احدى الفرق في فيلق المارشال ناي على جسر غنزبورغ برؤوس الحراب وكان الارشيدوق فردينان يدافع بذاته عن ذلك الجسر . وسقط الكولونل فتيلاً في ساحة القتال وهو يقاتل في مقدمة تلك الفصيلة .

وكانت الحيوش النمساوية تنسحب في كل الجهات والجيش الفرنسي يتعقبها ويجري من الحركات الحربية ما يدهش الالباب حتى أنه قطع بين الجيوش النمساوية جميع أسباب المواصلات . وهذا ما جاء في النشرة الخامسة :
« انا نتوقع حدوث وقعة فاصلة فالجيش النمساوي هو الآن في الموقف نفسه الذي كان فيه جيش ميلاس في مارنغو »

« وكان الامبراطور على جسر ليخ حين مر فيلق الجنرال مرمون فأمر بان يتألف من كل فصيلة دائرة وألقى عليها كلاماً عن موقف العدو وعن خطورة معركة عظيمة وعما له من الثقة برجاله . وكان القاء هذا الخطاب في وقت هائل فكان الثلج يتساقط بغزارة والوحل يغمر أرجل الجنود حتى ركسهم والبرد يقرس بشدة . الا أن كلام الامبراطور كان بمثابة نار فقد كان الجنود عند سماعه اياه ينسى المشاق التي يكابدها وشظف المعيشة الذي يقاسيه وينتظر وقد عيل صبره الحين الذي تدكى فيه مواقد الهيجاء »

وأنقذت عاصمة بافاريا في اليوم الرابع عشر من شهر اكتوبر فدخلها

المارشال برنادوت في الساعة السادسة صباحا بعدما طرد منها البرنس فردينان الذي ترك في حيازة الظافر ثمانى مئة أسير .

وكانت فرقة فرنسوية بقيادة الجنرال دوبون وقوامها ستة آلاف رجل تواقم حامية ألم وتظفر بها في الوقت عينه وعدد الحامية خمسة وعشرون ألفاً وقد غنمت منها في معركة ألبك ألفاً وخمس مئة أسير وجاء العاهل بذاته في ١٣ أكتوبر الى المعسكر أمام ألم وأمر باحتلال الجسر وموقع الشنجن ليسهل عليه تطويق جيش العدو .

واجتاز المارشال ناي هذا الجسر في ١٤ منه عند تبليج الفجر واستولى على مواقع الشنجن غير مبال بما كان أمامه من المقاومة الشديدة . وعاد الامبراطور في الغد الى ألم . وكان مورات ولان وناي مصطفىين للقتال ومباشرة الهجوم . وأما سولت فكان محتلاً ببيراخ وبرنادوت مواصلاً حركاته الحربية ماوراء مونيخ وقد فرغ من كسر الجنرال كيانهير شر كسرة . وكان الجنود في معسكر ألم غائمين في الوحل حتى ركبهم . وقد مضى على الامبراطور ثمانية أيام لم يخلم في أثناءها حذاءه من رجله

واستسلم ماك في ١٧ منه وبقيت جميع الحامية في أوهاق الأسر . وكان نابوليون يعتبر معركة الشنجن من أهم الاحتمال الحربية الخطيرة التي تذكر . وكتب نابوليون في ١٨ منه من المعسكر العام الى مجلس الشيوخ يذبحه أن الجيش الفرنسوي غنم أربعين راية في المعارك التي تلت معركة ورتنجن . وهذا ملخص ما كتبه : « منذ دخولي ساحة الحرب بددت شمل جيش مؤلف من مئة الف محارب وقد أسرت نحو نصفه والنصف الآخر بات قتيلاً أو جريحاً أو طريداً أو أصبح والدعز ملء أهابه وقد أدركت غاية الحرب الاولى : لحاكم بافاريا أعيد الى عرشه والصواعق انقضت على رؤوس الطفلة البغاة . وأؤمل أن انتصر بمعونة الله على أعدائي الآخرين بمدة قصيرة »

ووجه الى أساقفة الامبراطورية في اليوم عينه نشرة دعاهم بها الى اقامة صلاة الشكر . واليك بمض ماجاء في هذه النشرة :

« ان النصر المبين الذي أصابته جيوشنا على المحالفة الطاغية التي ألتمهاضنا بغضاء بريطانيا العظمى واموالها تقتضي مني ومن شعبي أن نرفع الشكر لرب

الجنود وتتوسل اليه بأن يظل دائماً معنا . »

وتم تسليم ألم في ٢٠ منه فان سبعة وعشرين ألفاً من الجنود النمساويين ومعهم ستون مدفعاً وثمانية عشر قائداً مروا أمام الامبراطور وهو واقف على مرتفعات دير الشنجن المشرفة على الدانوب الطاغى في ذلك الحين طفينا لم يسبق له مثيل منذ مئة سنة . ولما كان الجيش المأسور يمر أمام نابوليون قال هذا للقواد النمساويين وكان قد أمر بهم أن يمثلوا لديه : « يا حضرة السادة : أن مولاكم بنى بأعلانه الحرب علي وانا أقول لكم بكل صراحة اني لا أدري السبب الذي من أجله نتقاتل ولا أعلم ماذا يبتغون مني » فاجابه ماك قائلاً : أن امبراطور ألمانيا لم يكن يشاء اعلان الحرب ولكن روسيا اضطرته الى اعلانها . فقال له نابوليون : « بناء عليه لستم دولة »

وأذيعت على الجيش نشرة جديدة صادرة عن محل أركان الحرب العام في الشنجن رقم ٢١ أكتوبر وهذه خلاصتها :

« يا جنود الجيش العظيم :

« في خلال خمسة عشر يوماً أضرمنا لظى المعركة وقد أنجزنا ما كنا نتوخاه فطردنا الجيوش النمساوية من بافاريا وأرجعنا حليفنا الى عرش بلاده . وذلك الجيش الذي أتى وخيم على حدودنا مدفوعاً بعوامل التبجح والجهل أصبح أثراً بعد عين . ولكن ماذا يهم بريطانيا العظمى هذا الامر فقد نالت مبتغاه وتقلص ظلنا من بولونيا . وقد تمكنت من ادراك الظفر عينه من دون أن نعد الى المتألف يدها . وبما لا يستطيع فهمه في تاريخ الامم هو أن مثل هذه النتيجة العظيمة لاتضعفنا من جراء خسارتنا ألفاً وخمس مئة رجل :

« أيها الجنود : أن الفضل في هذا الظفر يرجع الى ثقكم غير المحدودة بماهلكم وصبركم على المكاره والشدائد وبسالتم النادرة .

« على اننا لانقف عند هذا الحد فقد انفتحت بناثق صبركم لمباشرة حرب أخرى وسنجعل الجيش الروسي الذي أهابت به أموال بريطانيا العظمى الى الهبيء من أقاصي العالم يصاب بما أصيب به أعداؤنا

« وعلى هذه المعركة معلق شرف مشاة الجند وستقرر فيها المرة الثانية المسألة التي تقرر في سويسرا وهولندا وهي هل يعتبر لمشاة الجيش الفرنسي المحل

الاول أو المحل الثاني في أوروبا ؟ وليس ثمة قواد أطعم بمساماتهم . فكل همي مصروف الى نيل الغلبة مع الاقلال من سفك الدم : «خنودي أولادي»
وتلا هذه اللشرة مرسوم امبراطوري مآله أن الشهر المنقضي من ٣٠ سبتمبر حتى ٢٤ أكتوبر دارت فيه حرب اشترك فيها الجيش برمته . ثم أن الامبراطور برح دير الشنجن ميمما مونيخ فدخلها في ٢٤ أكتوبر
وكان الجيش النمساوي قد أوشك أن تدرس آثاره على أن الذين نجوا منه وتعبهم الفرنسيون بشدة لم ينجوا في جميع الأماكن من ثقل وطأة الفرنسيين الأشداء . وبعد مسير مقرون بالنصر المتواصل في معارك مارينزال ومرهنباخ ولباخ ولوفرز وامستن انتهى الجيش العظيم الى فينا ومن اليوم العاشر من شهر نوفمبر نقل الامبراطور مركز أركان حربه الى ملك وأقام في الدير وهو من اجمل الديورة في أوروبا . وموقعه منيع يشرف على الدانوب . وكان الرومانيون قد جعلوه من أهم مواقعهم الحربية وأطلقوا عليه اسم « البيت الحديدي » وهو من الابنية التي شيدتها كوموديوس

وقبل دخول الجيش الفرنسي عاصمة النمسا أراد أن يضيف الى انتصاراته الكثيرة انتصاراً جديداً باهراً . ففي ١١ نوفمبر أدركت ست فرق مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقيادة المارشال مورتيه معظم الجيش الروسي في قرية درنستين ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن يعبروا ثمة الا على مؤخرة ذلك الجيش ومع ذلك لم تكن قلة عددهم لتخمد نيران إسالتهم . فمن الساعة السادسة صباحا الى الساعة الرابعة بعد الظهر جاهد الابطال الفرنسيون الاربعة آلاف جهاداً عنيفاً محاربين الجيش الروسي كله فاوردوه موارد لا صدر لها وقتلوا وجرحوا منه أربعة الاف رجل وأسروا منه نحو الف وثلاث مئة مقاتل

وبعد هذه المعركة الشهيرة بيومين دخل الجيش العظيم عاصمة النمسا وكان المارشال لان والجنرال برتران في مقدمة المارين على الجسر ولم يتمكن الاعداء من احراقه

ولم يشأ الامبراطور قط دخول فينا فجعل مركز أركان حربه في قصر شنبرن الذي كانت قد شيدته ماري تيريز . ولما أبصر في الردهة التي اختارها لمزاولة العمل فيها تمثالاً من الرخام يمثل هذه الملكة قال :



المرشال غوفيون سان سير (١٧٦٤-١٨٣٠)

لو كانت هذه الملكة العظيمة باقية في قيد الحياة لما تركت القوزاق والروس يعيثون فساداً في بلادها بانتقائها مستشارة لها امرأة نظير عقيلة كولوريدو ونديماً يحاكي كوبنتزل وكاتباً يشبه كولنباخ وصاحب دسائس يماثل لمبرتي وقائد جيش يضارع ماك .

وكان البلاط النمساوي قد هجر العاصمة مقتنيا آثار بقايا الجيش . وأما رجال الحكومة الباقون في فيينا بزعماء المسيودي بينافانهم مضوا الى شنبرن ليرفعوا اكرام هذه المدينة العظيمة الى الامبراطور . فأكرم نابوليون وفادتهم وأذاع نشرة أوصى فيها جنوده بأن يحافظوا كل المحافظة على النظام ويحترموا كل الاحترام الاشخاص والاموال

ولم يحل احتلال فيينا دون مواصلة مجرى الحوادث والحركات الحربية فان مورات ولان شدا وراء الجيش النمساوي الروسي المنسحب الى مورافيا وأدركاه وظفرا به في أثناء يومين متواليين أي في ١٥ و ١٦ نوفمبر في هولابرن وجنترسدراف وقد اشترك معهما المارشال سولت في المعركة الاخيرة .

وفي خلال ذلك الحين كان المارشال ناي المو كول اليه أمر غزوة التيرول قد نهض بأعباء مهمته بالدكاء والبسالة المبهودين به على ما جاء في النشرة الخامسة والعشرين فبعد استيلائه على حصون شارتز ونوسطارك دخل أنسبروك في ١٦ نوفمبر فوجد فيها ستة عشر ألف بندقية ومقداراً وافراً من البارود . وكان بين فصائل الشجعان في جيشه الفصيلة السادسة والسمعون فانها فقدت رايتين في الحرب الاخيرة وشعرت من جراء ذلك الامر بكآبة شديدة . وكانت تانك الرايتان في مسلحة أنسبروك فعرفهما ضابط فرنسوي . ولما ردهما المارشال ناي باحتفال الى الجيش انتشرت عقود المدامع من عيون جميع الجنود القدماء واما الجنود الشبان فكانوا يتباهون بجراتهم التي مكنتهم من استعادة تينك الرايتين اللتين كان لفقداهما رنة أسف في قلوب جميع العساكر . ولما انتهى الى العاهل خبر الرايتين المذكورتين أمر بأن يخلد ذكرهما بصورة يرسمها أحد مشاهير المصورين . وفي غد اليوم الذي نشبت فيه معركة جنترسدراف نقل العاهل مركز أركان حربه الى زاييم ومنها الى برلتز فبرون . وكان الروس في أثناء انسحابهم يصابون كل يوم بانكسارات متواصلة . وفي آخر الامر انخدعوا بحركة تفهقية أجراها

نابوليون ليومهم انه يعتبر موقفه محفوقاً بالمخاطر وجيشه مهدداً بالمهلك . فتوقعوا واتخذوا خطة الهجوم غير دارين بأن قائد الجيش الفرنسي لم يكن يتوخى سوى جرهم الى المكان الذي اختاره لمحاربهم . ولما رأى نابوليون أنهم نشبوا في الحبال التي نصبها لهم لم يعمل إلا لابقائه اياهم في مهامه الغرور هائمين وتمكن من التجلد وقع حدثه ليسمع ما اقترحه عليه مندوب مفوض من قبل أعدائه من الامور التي لا يمكنه الموافقة عليها وفي أول دسمبر وقف الجيشان الواحد منهما بأزاء الآخر ولما صار الفوز في المعركة التي دبرها في حكم المضمون جمع قواده وصاح بهم وهو يدهم على صفوف الاعداء : « هذا الجيش لي . » وبعد ذلك قال في نشرة أصدرها عن معسكر استرلتز :

« أيتها الجنود ان الجيش الروسي قدم للانتقام للجيش النمساوي الذي انكسر في ألم . فهذه هي الجحافل نفسها التي ظفرت بها في هولابرون والتي ماقتنتم تشدون وراءها حتى هذا المكان .

« ان المواقع التي حللناها في غاية المنعة وبينما هم يسرون للاحاطة بميمنتي يبرزون لي كشحهم .

« أيتها الجنود اني سأتولى بذاتي تدريب جحافلكم وأقف في مكان لاتصل اليه نيران الاعداء ان أنتم تمكنتم ببسالتكم المعهودة من ضعضة أحوالهم والقضاء الاضطراب في صفوفهم ولكن اذا تردد النصر في الميل الينا حيناً من الزمان أبصرتم طاهلكم مستهدفاً للضربات الأولى فلا ينبغي للنصر ان يتردد في أمر موالئنا في هذا اليوم المعلق عليه شرف الجيش الفرنسي المعتبر شرفاً للامة جمعاء .

« ويجب على جنودنا ان يتجنبوا بلبلة النظام في الصفوف بحجة نقل الجرحى مثلاً ولا مندوحة لكل فرد منهم عن الافتكار بأنه من المقضي عليه ان يقهر هؤلاء الجنود المأجورين لبريطانيا العظمى والمشرين البغضاء لا متنا .

« وسيكون الانتصار خاتمة للحرب وحينئذ نستطيع ان نعود الى مراكزنا الشتوية حيث توافينا الفيالق الجديدة التي تتألف في فرنسا ويكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبي وبكم وبى . »

وكان ذلك اليوم واقعاً قبل اليوم الموافق لتذكار حفلة التتويج ففي

المساء أقيمت الزينات في المعسكر إجلالا لذلك اليوم العظيم .
ولما كان من الغد تحققت أماني نابوليون وآماله فانه بما أوتيته من الدهاء
والاقدام في الحروب وبمناصرة قواده القساور وبشجاعة جنوده الاشداء
الجريئين أصاب في استرلنز انتصاراً فاصلاً يندر أن يروي التاريخ مثله عن
مشاهير القواد ودهاتهم ويكثر حدوثه على يد نابوليون الكبير واليك تفصيل
هذه المعركة المشهورة على ما وصفت به في النشرة الثلاثين :

معركة استرلنز

« في ٦ فبراير لما انتهى الى نابليون التفويض المطلق المسند الى ستاديون
وجيولي اقترح هدنة رغبة منه في حقن الدماء بشرط ان يكونوا في الحقيقة راغبين
في تسوية الخلاف وفض المشكل فضا نهائيا
« وقد سهل على الامبراطور أن يعلم أنهم كانوا يضمرون مقاصد أخرى
وحيث أن الامل بالنجاح لم يكن بحيثه ممكننا الى العدو الا من جهة الجيش الروسي
جال في وهمه ان الجيشين الثاني والثالث وصلوا أو أوشكا أن يصلوا الى ألتز وان
المفاوضات لم تكن سوى خدعة حربية يراد بها ترصد غفلة منه
« وفي الساعة التاسعة من صباح ٧ منه قدمت عصابات من القوزاق بمضدها
فرسان الروس فاضطرت طلائع البرنس مورات الى التقهقر وأحاطت فيشوا
واسرت خمسين رجلا من كوكبة الدراغون السادسة . وفي بحر النهار جاء عاهل
الروس الى فيشوا فتحصن جميع الجيش الروسي وراء هذه المدينة
« وارسل الامبراطور الجنرال سافاري حاجبه ليرحب بعاهل روسيا القادم
حديثا حين انتهى اليه ان ذلك العاهل وافى جيشه .
« وعاد الجنرال سافاري حين كان الامبراطور يستعرف مواقع النيران في
معسكرات العدو في فيشوا وأكثر من الامتداح من حسن الاستقبال الذي لقيه
ومن لطف عاهل روسيا وعواطفه الشخصية الكريمة وأثنى ثناء طيبا على الفرندوق
قسطنطين الذي أعلن له كثيرا من العطف والرعاية ولكن سهل عليه أن يفهم من
الاحاديث التي جاذب أطرافها في خلال ثلاثة أيام ثلاثين رجلا من الاغرار المتألفة
منهم بطانة قيصر الروس ان الدعوى والجهالة والخفة كانت سائدة في قرارات

المجلس الحربي كما كانت سائدة في قرارات المجلس السياسي
 « على أن مثل هذا الجيش المدارة شؤونه على تلك الصورة لم يكن يأمن من
 ركوب مركب الخطأ ومن ذلك الحين أصبحت خطة الامبراطور ميمنية على انتظاره
 وتوقع الحين الملائم للاستفادة من ذلك الانتظار . فعلى الفور اصدر اوامره
 لجيشه بالانسحاب والانسحاب هو ليلاً كما أنه مكسور واتخذ موقفاً منيعاً يبعد
 عن ذلك الموضع نحو ثلاثة فراسخ وعمل بهمة عالية على تحصينه ووضع
 البطاريات فيه

واقترح على قيصر الروس أن يفاوضه فأرسل اليه دلفوروكي حاجبه وقد
 لاحظ هذا الأخير أن الجيش الفرنسي تبدو عليه علامات التحفظ والجبن فاقام
 الخفراء في مراكزهم وتوهم المندوب الروسي عند رؤيته التحصينات التي باثروها
 على عجل أن ذلك الجيش انكسر بعض الانكسار

« على أن الامبراطور خالف عادته من جهة استقباله بغير تحفظ في مركز
 أركان حربه المندوبين المفوضين وتوجه الى الموضع النازلة فيه طلائع جيشه .
 وبعد التحية عمد المندوب الروسي الى مباحثته في الشؤون السياسية فكان
 يبت في كل شيء بوقاحة يصعب تصديقها وكان يجمل جهلاً تاماً مصالح أوروبا
 وموقف دول القارة ويمكن القول عنه انه نفير يردد صدى مقاصد بريطانيا
 العظمى فكان يخاطب الامبراطور كما أنه يخاطب الضباط الروس فاستشاط الامبراطور
 غضباً من غطرسته وسوء تصرفه وبذاته الا أنه كظم غيظه متجلداً . واد ذلك
 الشاب الذي كان متسلطاً على القيصر الاسكندر وهو معتقد كل الاعتقاد ان
 الجيش الفرنسي على شفا الهلاك . ويمكن المرء أن يعلم مقدار استياء الامبراطور
 عند سماعه المندوب الروسي يختم مقاله باقتراحه عليه التخلي عن البلجيك
 ووضع التاج الحديدي على مفرق ألد أعداء فرنسا ولم تكن تلك المساعي بدون
 نتيجة فان الشبان الذين كانوا قابضين بأيديهم على أزمة الشؤون في روسيا
 اندفعوا بلا تحذر منقادين الى دعواهم الباطلة الطبيعية . وأصبحوا غير مهتمين
 بالظفر بالجيش الفرنسي بل جعلوا يفكرون بالاحاطة به وأسرهم وزعموا أنه
 لم يأت ما أتاه من الاعمال الحربية الخطيرة الا لما أظهره النمساويون من الجبانة.

ويحققون أن كثيرين من الجنود النمساويين الذين قاتلوا الامبراطور في معارك كثيرة لم يصيبوا أدنى انتصار وكانت جميع اعمال مؤخرة الجيش الروسي الاول مؤاتية للجيش الفرنسي وكان فتيان الروس المتهوسون يعارضون ذلك بثمانين ألف روسي وبما كان حضور امبراطورهم يثيره من الحماسة في افئدة الجنود بين ظهرانيهم ونخبة الحرس الروسي الامبراطوري وما يرجع انهم لم يكونوا يجسرون على المجاهرة به وهي اهليتهم التي كانت تجعلهم يدهشون من رؤيتهم النمساويين ينكرون عليهم قوتها .

« وفي ١٠ منه أبصر الامبراطور من المكان النازل فيه والجذل يفيض من فؤاده الجيش الروسي يباشر على مسافة ضعف رمى المدافع من طلائعه حركة كشحية للالتفاف حول ميمنة الفرنسيين وحينئذ شاهد مقدار الدعوي وجهل فن الحرب اللذين ضللا رأي ذلك الجيش اللجب وقال غير مرة : « قبل مساء الغد يصير هذا الجيش في قبضي . »

« الا ان عواطف العدو كانت تختلف عن عواطفنا فدنا من طلائعنا حتى صار على قيد رمى غدارة منها وجعل يسير سيرا كشحيا على خط طوله اربعة فراسخ محاذيا للجيش الفرنسي وهذا كان يظهر انه لا يجرؤ على مزابلة مركزه ولم يكن يحاذر غير شيء واحد وهو إفلات الجيش الفرنسي من يده . وبذل المجهود لابقاء العدو ثابتا في هذا الوم فقدم البرنس مورات كوكبة من الفرسان في السهل ولكنه اظهر لجأة الدهش من وفرة عدد العدو وانقلب راجعا بسرعة وعلى هذه الصورة كان كل شيء يأول الى تثبيت القائد الروسي في اجراء العمل الذي قرره ومن دون أن يحسن تقدير النتيجة التي يصيبها . وتم الامبراطور منطوق النشرة المذاعة في اول ديسمبر . ولما دخل الليل أراد ان يزور متكررا وهو ماش جميع الامكنة النازل فيها الجيش ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى عرفوه ويتعذر على المرء وصف حماس الجنود عند مشاهدتهم اياه . فرفعت في الحال مشاعل من العصافة على رؤوس الاوتاد وتقدم ثمانون ألف مقاتل من الامبراطور وحيوه مطبقين القضاء باصوات الهتاف : فكان بعضهم يهتئ بتذكارة تنويجه والبعض الآخر يقول ان الجيش سيقدم في الغد باقته الى الامبراطور .

« ودنا من العاهل فارس من اقدم الفرسان وخاطبه قائلاً :
 « مولاي ، لست بحاجة الى تعريض حياتك للعطب فاننا اعدك باسم فرسان
 الجيش بانك لا تقا تل الا بعينك وسنأتيك غدا باعلام الجيش الروسي ومدافعه
 لنحتفل بتذكارتك بتوحيجك . »

وقال الامبراطور وهو داخل المحل المعد لنزوله وهو كوخ مصنوع من
 العصاف لا سقف له

« هذه اهل ليلة في حياتي ولكنني أتنبئ حينما افكر بانني سأفقد عددا
 كبيرا من هؤلاء الابطال ويؤولني اعتباري ايام اولاداً لي والحق يقال اني في
 بعض الاحيان أنحي على نفسي باللائمة من جراء هذا الشعور مخافة أن أفقد
 خبرتي في شؤون الحرب .

« ولو قدر للمدو أن يبصر ذلك المشهد لطارت نفسه شعاعاً ولكنه
 استطرد تلك الحركة وظل جارياً بسرعة وراء حقه . وهياً الامبراطور في الحال
 جميع معدات الحرب وسير المارشال دافو بكل سرعة الى دير رايمون وفوض
 اليه ان يشغل ميسرة المدو باحدى فرقه وبفرقة من فرق الدراغون بحيث تصبح
 هذه الميسرة محاطة من كل جهة عند الحين الملائم . وأصار الى المارشال لان
 قيادة الميسرة والى المارشال سولت قيادة الميمنة والى المارشال برنادوت قيادة
 الوسط والى البرنس مورات قيادة جميع الفرسان الذين حشدتم في مكان واحد
 وكانت ميسرة المارشال لان مستندة الى السانطون وهو موقع منيع حصنه
 الامبراطور ونصب فيه ثمانية عشر مدفعا . وكان منذ اليوم السابق قد عهد
 بادارة هذا الموقع الحصين الى فرقة المشاة السابعة عشرة ولم يكن افضل منها
 لحراسته . وكانت فرقة الجنرال سوشه تؤلف ميسرة المارشال لان وفرقة الجنرال
 كافارلي تؤلف ميمنته المستندة الى فرسان البرنس مورات . وكان أمام هؤلاء
 الفرسان رجال الجنرال كلرمان ورجال ولتر وبومون . وكان جنود الجنرال
 نيسوني والجنرال دوتبول يؤلفون الجند الاحتياطي ومعهم اربعة وعشرون
 مدفعا خفيفاً .

« وكان الى يسار المارشال برنادوت المتولي قيادة الوسط فرقة الجنرال
 ريفو المستندة الى ميمنة البرنس مورات والى ميمنته فرقة الجنرال دروه .

وكان الى يسار فرقة المارشال سولت قائد ميمنة الجيش فرقة الجنرال فندام وفي الوسط فرقة الجنرال سان هيلار والى الميمنة فرقة الجنرال لغران الباسل .
 « وقد انفصل المارشال دافو عن ميمنة الجنرال لغران المرابط على مداخل المستنقعات وقرىتي سو كولنز وسلنيز . وكان معه فرقة فريان وفرسان فرقة الجنرال بورسيه . وكان مقضيا على فرقة غودان أن تزحف عند تبشير الصباح من نيكلسبورغ لتقف في وجه العدو الذي كان يستطيع ان يفتش الميمنة .
 « وكان الامبراطور ومعه رفيقه الامين المارشال برتیه وحاجبه الاول الجنرال جونو وجميع أركان حربه مقبلا للاحتياط مع عشر فرق من حرسه وعشر فرق من جنود الجبرال اودينو وكان الجنرال دوروك يقود قسما منهم .

« وكان هذا الجيش الاحتياطي مصطفاً صفيين فرقا فرقا على طول المسكان المندثرة فيه المساكر وبين الصفيين أربعون مدفعا يتولى ادارتها مدفعيو الحرس وكان الامبراطور ينوي أن يخف بهذا الجيش الاحتياطي الى حيث تدعوه الحاجة . ويمكن القول أن الجنود الاحتياطيين كانوا يبادلون فيلقا كاملا .

« وفي الساعة الواحدة صباحا امتطى الامبراطور صهوة جواده وخرج يريد تفقد المواقع واستعراف النيران المشبوبة في الاماكن النازل فيها العدو ويستطلع من الخفراء طلع ما سمعوه عن حركات الروس فعلم أنهم أحيوا ليلتهم في السكر والضوضاء وأن فيلقا من مشاة الروس دنا من قرية سو كولنز المحتلة فيها فصيلة من فرقة الجنرال لغران الذي تلقى أمرا بنجدها .

« وبدا أخيراً صبح اليوم الحادي عشر من شهر فريمار فطلعت الشمس ساطعة على أن هذا اليوم الموافق لتذكار تتويج الامبراطور والمنظر أن يقع فيه حادث من أهم الحوادث الحربية في ذلك العصر كان يوما من أجمل أيام الخريف .

« وهذه المعركة التي يصر الجنود على تسميتها بيوم الامبراطورين الثلاثة والتي يدعوها غيرهم بيوم تذكار التتويج والتي يطلق عليها الامبراطور اسم يوم استرلنز ستظل الى ماشاء الله مشهورة في تاريخ الامة العظيمة .
 « وكان الامبراطور واقفاين جميع المارشالية ينتظر اتشاح الافق بحلة النور

لاصدار الاوامر الاخيرة . ولما بدأ قرن الغزاة يذر أصدرت الاوامر فانضم كل مارشال الى فيلقه موافيا اياه على جناح السرعة .

« وقال الامبراطور وهو مار أمام الكتائب المصطفة للقتال : » « أيها الجنود ينبغي لنا أن نختتم هذه الحرب بصاعقة لا تبقي ولا تذر من غطرسة اعدائنا . » وفي الحال رفعت قبعات الجنود على رؤوس الحراب وعلا صياحهم قائلين : « ليحيى الامبراطور » وبعد قليل من الحين سمع قصف المدافع عند طرف الميمنة التي كانت طلائع العدو قد هاجمتها الا أن صدمة المارشال دافو غير المنتظرة وققت سدا في وجه العدو وحينئذ دار القتال .

وتحرك المارشال سولت في ذلك الحين عينه ميمما مرتفعات قرية برنجن بفرقي القائدين فندام وسان هيلار وقطعت ميمنة العدو وقد أصبحت حركاته مبهمه . على أن ذلك العدو المفاجأ على كشحه وهو يهرب رأى نفسه مهاجماً بعد ما كان يظن نفسه مهاجماً وأوشك أن ينكسر .

« وتحرك أيضا البرنس مورات بفرسانه وسارت الميسرة المتولي لان قيادتها الفرقة تلو الاخرى كأنها تتمرن . وأطلقت المدافع اطلاقاً هائلاً على طول الخط فكان ينبعث ضجيج هائل عن مئتي مدفع ونحو مئتي الف رجل ويمكن القول ان هذه الحرب كانت في الحقيقة حرب جبابرة . ولم يكن قد مضى على ابتداء الحرب ساعة من الزمان حتى تقطعت ميسرة العدو بمجملتها وكانت ميمنته قد وصلت الى استرلنز موضع أركان الحرب العام للامبراطورين اللذين اضطرا أن يسيرا في الحال حرس امبراطور روسيا لاحادة المواصله بين الوسط والميسرة . فحدث أن فرقة فرنسوية هجم عليها الحرس الامبراطوري الروسي ومزق ثملها الا أن الامبراطور لم يكن بعيداً عنها فبصر بملك الحركة وأمر المارشال بسيار بان يخف لنجدة ميمنته بابطاله الجريين فاعتم الحرس ان اشتبكا في القتال .

« ولم يبق أحد مرتابا في الجهة التي ينجح اليها النصر فانهمز الحرس الروسي في مدة قصيرة ووقع السكولونل والمدفعية والاعلام في قبضة الفرنسيين وانكسرت فرقة الفرندوق قسطنطين شر كسرة وهو ذاته لم ينجح الا بفضل سرعة فرسه .



المرشان فكتور دوق بلون (١٧٦٦-١٨٤١)

« وكان الامبراطوران ينظران من مرتفعات استرلتز انهزام الحرس الروسي وتقدم في الوقت عينه وسط الجيش الفرنسي يقوده المارشال برنادوت وكانت ثلاث فرق من فرقه تصادم فرسان الروس المهاجمين وهجمت الميسرة ثلاث مرات بقيادة المارشال لان فأصابت الانتصار في جميع هجماتها وقد امتازت في هذه المعركة فرقة الجنرال كافارلي واستولت فرق المدرعين على بطاريات العدو . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تم الانتصار ولم يكن قد سبق أن ارتاب أحد في النصر دقيقة واحدة من دون أن يحتاج الى جندي واحد من الجنود الاحتياطيين . ولم يبق صوت المدافع مسموعاً الا عند ميمنة الفرنسيين وصار جيش العدو المطوق والمنهزم من جميع المرتفعات في منخفض من الارض ووراء بحيرة . فطارده الامبراطور ومعه عشرون مدفعاً ولم يزل ذلك الجيش ينهزم من موقع الى موقع وقد بدا للانظار في ذلك المكان مشهد يحكي المشهد الذي شاهدته الابصار في أبي قبر فان عشرين ألفاً قذفوا بأنفسهم الى الماء فغرقوا فيه .

« واستسلم فيلقان من الروس مؤلفان من ثمانية آلاف مقاتل وأخذ الفرنسيون المكان المنصوبة فيه مدفعية الاعداء وذخائرهم ومؤنهم . وكانت نتيجة ذلك اليوم اغتنام الفرنسيين لأربعين راية روسية وبينها أعلام الحرس الامبراطوري وأسرم عدد كبيراً من المقاتلة بحيث ان أركان الحرب لم يكونوا يسرفونهم جميعهم . وكانت الجداول تدل على أن هذا العدد لا يقل عن عشرين ألفاً وقبض على ١٢ قائداً أو ١٥ قائداً وبطش بخمسة عشر ألف روسي على الأقل . على انه وان لم يكن لدينا تقارير صحيحة فيمكننا من أول وهلة أن نقدر خسارتنا بثمان مئة رجل من القتلى وألف وخمس مئة أو ألف وست مئة من الجرحى . وهذا الامر لا يقضي المعجب منه المقاتلون الذين يعلمون أن الرجال لا تفقد الا عند الانكسار ولم يتقطع نظام فيلق من فيالقنا الا الفيلق الرابع . وكان بين الجرحى الجنرال سان هيلار فانه جرح في أول المعركة وبقي سحابة ذلك النهار يجاهد في ساحة القتال وقد تجلبب بمطارف الفخار القواد سكرمان وولتر وفالهور وطيابو وسباستياني وكبان وراب حاجب الامبراطور وهذا الاخير هو الذي هجم في مقدمة فرسان الحرس وأسر البرنس ربنان قائم

فرسان الحرس الامبراطوري الروسي . أما الرجال الذين امتازوا عن غيرهم فلا يمكن حصر عددهم لان كل الجيش اتشح بأردية المجد فكانوا يهجمون وهم يصيحون « ليحيى الامبراطور ! » وكان تصورهم بأنهم يحتفلون في ذلك اليوم بتذكار تتويج امبراطورهم ينعش قواهم ويقلل عثاثرهم .

« على أن الجيش الفرنسي وان يكن وافر العدد ومستكمل العدد كان أقل عدداً من جيش العدو المؤلف من مئة وخمسة آلاف مقاتل منها ثمانون ألفاً من الروس وخمسة وعشرون ألفاً من النمساويين . وقد قتل نصف هذا الجيش وتمزق الباقي منه كل ممزق على أن معظمه استسلم .

» وسيجعل هذا اليوم القوم في بطرسبرج ييكون دماً فيا ليته يجعلهم ينفذون نبذ النواة ذهب بريطانيا العظمى ! ويا ليت هذا العاهل الشاب الذي تقلد به فضائله السامية الى أن يكون أباً لرعيته يتملص من سيطرة أولئك المأجورين الثلاثين الذين تستخدمهم بريطانيا العظمى بدهائها والذين تشوه وقاحتهم وجوه مقاصدهم وتفقدته محبة جنوده وتطوح به في الاعمال المتناهية في الخطأ . فالطبيعة حين جادت عليه بهذه المزايا الكريمة دعتة الى أن يكون معزياً لأوروبا الا أن المستشارين المداجين الذين زينوا له مناصرة بريطانيا العظمى وضعوه في التاريخ في صف الاشخاص الذين مع جعلهم الحرب دائماً الاستعمار في القارة يوطدون دعائم المظالم البريطانية في البحار ويسوقون الى جيلنا البلاء والدمار .

« واذا لم تكن فرنسا تستطيع أن تنال السلم الا بالشروط التي اقترحتها على الامبراطور دلفوروكي حاجب القيصر والتي فوض الى المسيودي نوفوزيلزوفه بسطها لديه فان روسيا لاتصيب تلك الشروط ولو نزل جيشها على مرتفعات منارتز . » وفي رواية أخرى عن هذه المعركة أكثر اسهاباً سيبين أركان الحرب ما فعله كل فيلق وكل ضابط وكل قائد لشهرة الاسم الفرنسي ومجاهرتهم بمحبتهم للامبراطور .

« وفي ١٢ منه عند انبثاق الفجر جاء البرنس جان دي ليختنستين قائد الجيش النمساوي الى الامبراطور في مركز أركان حربه في أحد الاهراء وطالت مدته اجتماعه به . الا أن الفرنسيين استأنفوا تقدمهم وارتد عدوهم الى الطريق الممتد

من استرلنز الى غودن وكان في ارتداداه معرضا كشحه لهم، واقتفى الجيش الفرنسي
 أثره محكما السيف في أوقيته
 « ولم يسبق أن كان ميدان حرب أفظع منظراً من هذا الميدان فكانوا
 من أواسط البحيرات الكبيرة يسمعون صراخ ألوف من الرجال المستحيل
 خلاصهم . وكان نقل جميع جرحى الاعداء الى برن يستغرق ثلاثة أيام . فكان
 القلب يقطر دماً من ذلك المشهد . فياليت تلك الدماء الغزيرة المسفوكة ويا ليت
 تلك الولايات الكثيرة تسقط على سكان الجزائر الذين كانوا سبباً لجلبها ويا ليتهم
 يجنون ثمار هذه البلايا المتعددة ! »



الفصل السادس

نتيجة معركة استرلتز - معركة طرف الغار البحرية - صلح برسبورغ
 خلع البربون عن عرش نابولي - ترفيع بافاريا الى درجة مملكة
 ارسال رايات استرلتز الى باريس - عودة نابوليون الى فرنسا

وكان بعد ذلك أن الملكية والارسطقراطية الاوربيتين المذلتين بشخصي
 طاهلي ألمانيا وروسيا تولاهما الذعر لما انتهى اليهما أن المحالفة الجديدة لقيت في
 استرلتز الشعب عينه الذي لقيته في زوريخ ومارنغو . فكان العناية المدبرة
 التقريب في الازمنة عيذت هي عينها في موعده تذكرا للاحتفال بتتويج الامبراطور
 نابوليون الانتصار الاول الفاصل الذي أحرزه هذا العاهل العظيم لتظهر للملا
 طراً أن جنود الامبراطورية كانوا يستأنفون بجداره صمل الكتائب الجمهورية ولم
 تكن أبهة الملك قد غيرت شيئاً من عزائم الشعب والجيش كما انها لم تكن أيضاً
 قد غيرت شيئاً من دهاء الزعيم الأكبر وكانت الثورة الشديدة التي لا يقل حدها
 باقية صاحبة السيادة في فرنسا

على أن هذه النكبة الشديدة التي لم تحل رأساً الا على النمسا وروسيا مع ما
 كان لصداها من الرجع العنيف في برلين ولندرة لم تؤدب مثيري تقع الحرب
 الضروس وتجعلهم يرعون عن غيهم . فانهم لم يحركوا أقوى الدول الاوربية
 منة وأشدن حولاً وطولاً للبروز الى ميادين الوغى رغبة في التنازل عن أرض
 من الاراضي أو طمعاً بنيل مصلحة من المصالح المادية أو انتقاماً لمظلمة وقعت
 حمداً أو عرضاً ، فلم يكن نصب أعينهم سوى مسألة المبادئ وهي لعمر الحق
 مسألة ينجم عنها سبب دائم لبقاء مواقف الهيحاء مستمرة وان تكن في ظاهر
 الحال مسألة غير محسوسة كالمسألة العقارية أو المالية وهذا ما كان يجعل نابوليون
 ينخدع منفراً ويخطب الضباط النمساويين الناشئين في حبال الأسر بقوله لهم
 « إني لا أدري وايم الحق السبب الذي من أجله أقاتل ولا أعلم ماذا يتفنون مني »
 وثابت الحكومة البريطانية على نهج المنهاج الذي نهجته في معاداتها لفرنسا

غير مبالية بما لقيه حلفاؤها من الفشل التام فقد استعاضت عن ذلك الانكسار بالنصر الذي نالته في معركة طرف الغار البحرية على يد نلسن أمير البحر البريطاني الذي دمر الاسطولين الفرنسي والاسباني المتحدين عند سواحل اسبانيا الجنوبية وقتل هو نفسه في هذه المعركة الشهيرة التي أولت بريطانيا العظمى السيادة البحرية . وقد انتهت أنباء هذه الكسرة الى نابوليون وهو يحجر ذل الناصر الباهر على الجيوش النمساوية الروسية المتحالفة فقال في هذا الصدد ما معناه . « في أكثر المعارك التي انتصر فيها البريطانيون كسنا اما أقل عدداً منهم واما متحدين مع سفائن اسبانية غير منظمة التنظيم الكافي فكانت تضعف خطوطنا بدلا من أن تقويها . أو أن قوادها القابضين بأيديهم على أزمة الشؤون والميالين الى تسعير لظى الحرب والزحف الى العدو كانوا يترددون في حركاتهم ويرتدون لاسباب شتى وعلى هذه الحال كانوا يعرضون لنهبال الردي أجراً جنودنا وأشدّهم اقداًما » وقال في موضع آخر : « قضيت معظم وقتي في البحث عن الرجل الملائم للبحرية من دون أن أوفق الى وجدانه ففي هذه الخطة خاصة وقمت جميع أفكارى حائمة حولها وحائرة دونها ... فلو أسعدي الحظ بالعثور على شخص يشايعني على مقاصدي من هذه الجهة لكنت قد أدركت غاية ما وراءها من مزيد ولكن لم ينشأ في أيام مملكتي رجل في البحرية تمكن من الخروج عن الدائرة المرسومة لتلك الخطة ووفق الى الاستنباط فيها »

وكان تحطم الاسطول الفرنسي باعثاً على اكتئاب الامبراطور واغتمامه ظالمين بعين الفكر من ذلك الحين أن السيادة البحرية أصبحت في قبضة البريطانيين مدة طويلة فوطن النفس على أن يصلبهم جرباً عواناً في القارة الاوربية بمقاتلته حلفاءهم الميالين اليهم وبمصادرته بحارة طوارئهم التي كانوا قد احتكروها . على أن الحرب المملكتي الذي كانت نشرة الجيش الكبير الاولى قد هدمت صرح قواه انتمش في لندرة وظهر بمظهر البذاءة والاستعلاء وكان بتّ زعيمه الأكبر قد دنا من شفير الحفير وأوشك أن يقضي نحبّه بين مجالي الانتصار كما فعل نلسن من قبله . وكانت بريطانيا العظمى من نحو شهر قد ثملت بخمرة الابتهاج من جراء الفوز غير المنتظر الذي أصابه أسطولها . وقد جرأها ذلك الامر وحملها صوت مدفع طرف الغار على مواصلة الحرب التي مع تهيتها سقوط

ابوليون سهلت مدة عشر سنوات توسيع دائرة المبادئ الثورية في أوروبا . فلندع الآن حكومة بريطانيا العظمى في وسط الحفلات العامة التي احتفلت بها ولنسرع في العودة الى استرلنز وقد شوهدت في وقت وجيز وجوه الاحتفالات التي دبرها الحزب الملكي وافراح بت الاخيرة

وفي غد اليوم الذي دارت فيه رحى تلك المعركة العظيمة جاء عند الفجر البرنس دي ليختنستين قائد الجيش النمساوي في مورافيا قاصداً المكان المعد لأركان حرب الامبراطور نابوليون وهو موفد بمهمة خطيرة فايها الالتئاس من الامبراطور الاجتماع بمولاه المحتاج الى اعتدال الظافر وكرم اخلاقه لحفظ تاجه وبلاده وتخليصهما من الحقوق المخولة للفاتح فمنحه نابوليون سؤله وتمت المواجهة التي التمسها الامبراطور المغلوب في اليوم عينه في المكان النازل فيه البطل الغالب . وقال نابوليون للامبراطور فرنسوى : « اني استقبلك في القصر الذي اتخذته لسكنائي من شهرين » فقال له الامبراطور فرنسوى باقتسامه مكره عليها « انك تستفيد من مقامك هذا لانه يسرك » وتقررت الهدنة وشروط الصالح الخطيرة في بضع ساعات . وكان امبراطور المانيا يداري الاحوال ويقول بحاربا نابوليون في استيائه من البريطانيين بقوله :

« إنهم تجار يضرمون النار في القارة الاوربية ليستأثروا بالتجارة في العالم طراً » وتكلم أيضاً بالنيابة عن امبراطور روسيا قائلاً أنه نبذ محالفة البريطانيين وعهد الى عقد الصلح منفرداً عنهم وختم مقاله بهذه العبارة : « لا امثري البتة في أن فرنسا مصيبة كبدا الصواب في مقاتلتها لبريطانيا العظمى » أو لم يكن ذلك الأمر غريباً في بابه وهو أن يرى العاهلين المذنبين جيشا الكتائب الرجراجة لمواقعة فرنسا يفتحان أعينهما لرؤية حقوق أعدائهما وخطأ محالفيهما ؟ أو ليس ذلك الامر مما يرثى له وهو أن يكون اقتتاح أعينهما الفجائي قد جرى بعد عشرين وقعة وبعد معركة جرى فيها الدم البشري غدراناً ؟

ولم يبطر نابوليون ما ناله من التفوق في المعركة الاخيرة فوعده بأن يوقف زحف جحافلهم وأن يدع الجيش الروسي يعبر على شريطة أن يوائمه التقيصر الاسكندر على الانقلاب مائدا الى بلاده والجللاء عن بولونيا النمساوية والبربرسيانية فوعده الامبراطور فرنسوى بالنيابة عن العاهل الاسكندر بأن يفعل ذلك

الامر على ما يبتغي ويريد ثم انه انصرف يصحبه البرنس دي ليختنستين والبرنس دي شوارتزنبرغ فرافقه نابوليون حتى أوصله الى مركبته ثم عاد الى استرلنز وقضى فيها ليلته ولما ودعه وعاد قال : « لقد جعلني هذا الرجل أرتكب هفوة فقد كنت مستطيعاً استطراد انتصاري والاستيلاء على الجيشين النمساوي والروسي بمجملتهما ولكنني بفعلني هذا حققت جداول من العبرات عن السيلان » وكان نابوليون قد خاطب جنوده قبل المعركة ليقود نيران البسالة في قلوبهم ويجعلهم يمتقدون أن النصر ميال اليهم . فلم يذهل عن مخاطبتهم أيضاً بعد المعركة ليهنئهم بما فعلوه لتحقيق اعتقاده فيهم وهذا ما قاله لهم :

« أيها الجنود أنا راض عنكم لقد حققتم في يوم استرلنز كل ما كنت أمله من جراتكم وقد وسمتم راياتكم بفخر يلازمها أبد الدهر . . . وحين يتم ما هو ضروري لضمان سعادة وطننا ونجاحه أعود بكم الى فرنسا حيث تصبحون موزوعاً لعناتي الشديدة . وسيشاهدكم شعبي بكل ابتهاج وحسب الواحد منكم أن يقول : « كنت في معركة استرلنز » حتى يقال عنه : « هذا شجاع »

وكان حاجب من حجاب نابوليون يقال له الجنرال سافاري قد صاحب امبراطور المانيا ليتحقق رضى القيصر الاسكندر بما عاهد عليه باهمه . فبادر القيصر الى الموافقة على ذلك العهد ثم انه قال للعندوب الفرنسي : « كنتم أدنى مني ومع ذلك كنتم أعلى في جميع الجهات التي نشب فيها القتال . » فاجابه سافاري : « يامولاي هو فن الحرب وهو نتيجة خمس عشرة سنة قضيناها في ساحة الفخار وهي المعركة الاربعون من معارك الامبراطور » فقال الاسكندر : « أجل ان الامر انكما تقول فهو ولا جرم جندي عظيم أما أنا فهذه اول مرة أرى فيها نار الحرب ولم تخطر لي الدعوى قط بمطاولته في القتال . فها انذا انصرف الى عاصمتي وكنت قد قدمت لنجدة امبراطور المانيا وهو أخبرني انه راض ولذلك انا راض أيضاً »

على أن الهدنة التي تقررت في ٣ دسمبر بين الامبراطور نابوليون وامبراطور المانيا أخذت شكلاً رسمياً في ٦ منه على أثر توقيع المارشال برتیه والبرنس دي ليختنستين عليها .

وتلا توقيع رحي القتال مرسوم ان امبراطور يان أحداهما يمنح به رواتب لآيائي

ويتمشى الجنود المقتولين في استرلتز على اختلاف رتبهم والاخر يقضي بسبب المدافع الروسية والمساوية التي غنموها في تلك المعركة ويصنع صمود منها ينصب في ساحة فندوم لتخليد مجد الجيش الفرنسي . وأصدر نابوليون مرسوماً امبراطورياً ثالثاً تنهى بموجبه جميع أولاد القواد والضباط والجنود الفرنسيين الذين سقطوا قتلى في معركة استرلتز وهذه خلاصته :

١ — تربيتهم على تفقة الحكومة ٢ — اضافة اسم نابوليون الى اسمائهم الاصلية .

وماد أركان الحرب من استرلتز الى بون فاستقبل نابوليون البرنس ربنان كولونل فرسان الحرس وقال له انه لا يشاء أن يحرم امبراطور روسيا مثل هذا الجندي الباسل وانه يمكنه أن يجمع جميع الحرس الامبراطوري الروسي الاسرى ويعود بهم الى بلاده

وفي ١٣ ديسمبر عاد نابوليون الى شنهرن فاستقبل وفد محافظي باريس فخطب بالنيابة عنهم محافظ الحلي السابع من المدينة وأخبرهم الامبراطور ان عقد الصلح قريب وفوض اليهم أن يحملوا الى باريس الرايات المأخوذة من الاعداء في استرلتز والمعدة للوضع في كنيسة نوتردام . وارسل معهم كتابا الى الكردينال رئيس أساقفة باريس بكل اليه به حراسة تلك الوديعة الثمينة ويفصح له فيه عن نيته بان تقام في كل سنة في تلك الكنيسة الكبرى صلاة حافلة تذكراً للابطال الذين قضوا في سبيل الوطن في ذلك اليوم العظيم .

وفي أثناء اقامة نابوليون في شنهرن عرض جيشه ولما وصل الى القصيلة الاولى من الفرقة الرابعة التي تمزق شملها في استرلتز وفقدت رايتها خاطبها الامبراطور بهذا الكلام : « ايها الجنود ماذا فعلتم بالراية التي سامتكم اياها ؟ لقد حلفتم على أنها تكون علامة لضم متفرق شملكم وانكم تبدلون نفوسكم في سبيل الذود عنها فكيف قتم بعهودكم ؟

فاجاب القائد أن حامل الراية قتل في المعركة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ولم تقصر القصيلة في تسميم ما يجب عليها فانها مزقت شمل فرقتين من الروس وغنمت منهم رايتين قدمتهما لجلالته : وبعد ما تردد نابوليون هنيهة من الزمان طلب من الضابط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل رايتهم مجندلا



المرشال لان دوق متنبلو (١٧٦٩-١٨٠٩)

فبادروا جميعهم الى الحلف حينئذ لطف الامبراطور لهجته وقال لهم مبتسماً :
« بناء عليه أعيد اليكم رايتكم »

وكانت مفاوضات الصلح جارية في مجراها بصورة جدية فأدت الى عقد وثيقة برسبورغ التي تم التوقيع عليها في ٢٦ ديسمبر والتي تم بموجبها ضم ولايات البندقية الى مملكة ايطاليا ورفع مقام حاكمي بافاريا وورتمبرج الى مقام الملوك. ثم ان نابوليون ذاته بشر بهذا النبأ السعيد جيشه بنشرة أصدرها في ٢٧ منه قال لهم فيها انهم بعد ما شاهدوا امبراطورهم يشاطرهم المخاطر والمشاق شاهدوه محاطا بالعظمة والالهة وهما من خصائص ولي الامر والنهي في الشعب المحرز للمقام الاول في المعمورة وختم مقالته بهذا الكلام :

« سأقيم في أوائل شهر مايو في باريس حفلة شائقة لشهدونها جميعكم وبعد ذلك نمضي الى حيث ندعونا سعادة وطننا ومصالح مجدها . أيها الجنود ان تصوري بأني سأراكم جميعكم قبل ستة أشهر محتشدين حول قصري يجعلني أفر ثغراً وأشعر قبل ذلك الحين بتأثر شديد . وسنحتفل بذكرى من صرعتهم المنية في هاتين المعركتين . وسيدشاهدنا العالم طراً مستعدين للنسج على منوالهم واتيان فوق ما أتيناها اذا اقتضى الامر ذلك لمواثبة من يريدون التهج على أحساننا أو ينخدعون بالذهب الواج الذي يرشوه به أعداء القارة الاوربية الابديون »

ان مثل هذه اللهجة السحرية الشديدة الوقع على أفكار الجنود ومثل الاحاديث الفردية التي كان يقوه بها في أثناء عرضه للجيش ومثل الكلام الذي كان يلقيه على رجاله وأعوانه في الحين الملائم جعلت الناس يزعمون أنها كانت السبب الذي يجعل عساكره تميل اليه متعلقة بأهداب محبته وتستमित في سبيل اعلاء مجده وخدمة مقاصده ونياته . وبعضهم يزعم أن نابوليون كان من أكبر الفشارين الذين كانوا يحسنون تزويق الكلام والتلويح على العقول . الا أن مثل هؤلاء المتحاملين عليه فاتهم أنه لو كان مثل هذا الزعم يصح أن يطلق على ما أوتيه من البراعة التي تم بأسرارها هذا الداهية ليتمكن من جملة أمة او جيشاً قادرين على الاتيان بالمعجزات والغرائب لما عقل أن هذا الداهية انحط الى درجة يدعوها رعاا الناس وطماعهم نوعاً من الفشار وضرباً من الهذر بل بمكس ذلك نرى أن ما يسمونه فشاراً وهذراً رفعه الى درجة تساوي درجة حب الوطن

الناسمي والدهاء السياسي النادر الذي ما وراءه زيادة لمستزيد فليتدبروا التاريخ اذا شاؤوا فيبدو لهم ولا ريب أنه لم يكن بين نصراء الانسانية أو أحلاف الحضارة سواء كان في الشرع أو في الدين أو في الفتوح من أحجم عن التذرع بالذرائع التي توخى نابوليون ركوب مركبها إرادة التسلط على البشر والسير بهم الى غاية المجد السامية البعيدة المنال وإذا كانت الاسباب التي تسببوا بها بتفوقهم لاجل سعادة الشعوب ومجدهم يصح أن يطلق عليها أسم فشار كما كانوا يطلقون أسم سحر على السلطة التي كانت لزوجة المارشال دانكر على مادي المد يشية فلا ينبغي لنا في هذا العصر والحالة هذه أن نعد النطع لمثل اولئك القشارين بل يجب علينا أن نصبح بملء أفواهنا على رؤوس الاشهاد : « ليفتخر بفشارهم ا » ولم يكن وداع نابوليون لعاصمة النمسا يقل أهمية في التاريخ عن نكرته الاخيرة لجيشه واليك مقاله في هذا الصدد :

« ياسكان فينا اني لم اكثّر من مخالطتكم والظهور بين ظهرانيكم ولم افعل ذلك استصغاراً مني لامركم أو استعلاء مني عليكم ولسكني لم اشأ أن أحول فيكم أدنى عاطفة من العواطف المقضي عليكم ابدائها للعاهل الذي كنت موطناً النفس على عقد صلح معجل معه . فأغادركم تاركاً لكم مسلحتكم سالمة كم تفصح عن احترامي لكم مع أن قوانين الحرب صيرتها ملكاً لي فلا تنفكوا عن استخدامها في سبيل المحافظة على النظام فأنسبوا النكبات التي قاسيتموها الى الولايات التي تصحب الحرب وتكون غير منفصلة عنها واعلموا ان المجاملة التي لقيتموها من جيشي ناجمة عن الاحترام الذي استوجبتموه »

ولم يكد التوقيع على النشرة يتم والصلح يذاع على سكان فينا والجيش الفرنسي حتى أذاع نابوليون على الملأ طراً في نشرة جديدة بالتاريخ عينه أي في ٢٧ ديسمبر خيانة حكومة نابولي التي فتحت أبواب نفورها في وجه البريطانيين غير محترمة منطوق الوثيقة المعقودة من شهرين بينها وبين الحكومة الفرنسية ولم يسبق ان كان لسكلام نابوليون من العظمة والشدة والتهديد ما كان في هذه النشرة فان أفراداً من أسرة البربون كانوا يمدون أيدي المساعدة للبريطانيين ويخونون فرنسا وكان هذا الامر يكفي لاثارة نقع أهواء الامة الفرنسية وبغضائها ونفورها والتعبير عنها بلسان زعيمها الاكبر . وفي هذا المقام تتكلم

الحكومة الامبراطورية كما كان يجب على حكومة الكنفنسيون ان تتكلم فقد كانت الحال تقضي بان يعامل الحزب الملكي بقساوة شديدة عقابا له على نقضه العهد وأن يخلع عن العرش آل البربون في نابولي ويستذلوا ويمتهنوا أمام البريطانيين أنفسهم . فتم نابوليون هذا الامر بطريقة عجيبة ولم يسمق له قط ان يمثل مثل ما مثل به هذه المرة الثورة وفرنسا وهذه صورة النشرة التي وجهها الى الجيش العظيم :

« عن المعسكر الامبراطوري في شبرن في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥ »

أيها الجنود

« لقد فعلت كل شيء من عشر سنوات لنجاة ملك نابولي وهو فعل كل

شيء لبواره

« فلم يكن في وسعه بعد معارك داغو ومندوفي ولودي أن يبدي لي الا مقاومة ضعيفة وقد ركنت الى كلام هذا الملك وعاملته بما يقتضيه كرم الاخلاق » ولما انحلت عرى المحالفة الثانية في مارنغو ظل ملك نابولي وحيدا وبغير مدافعة بعد ما كان أول من باشر حرب الافراء هذه وبعد ما خذله حلفاؤه في لونا فيل فاستغاث بي فصفحت عنه مرة أخرى

« وقد كنتم عند أبواب نابولي من أشهر وكان لدي اسباب شرعية تدعوني الى الظنة بان ثمة خيانة تدبر والى الانتقام من الاهانات الموجهة الي ومع ذلك أبديت نحوه من كرم الاخلاق ما أبديت فاعترفت بحياذ نابولي وأمرتكم بالجلء عن هذه المملكة . وكان من وراء عملي هذا توطيد أركان الاسرة المالكة في نابولي وخلاصها للمرة الثالثة

« فهل نغضي أيضا الطرف مرة رابعة ؟ وهل نركن مرة رابعة الى بلاط خال من الدمام والشرف والعقل ؟ كلا كلا . لقد قضي الأمر على العثرة النابولية المالكة وتقلص ظل ولائها فسكياها لا يأتلف مع الراحة في أوربا وشرف تاجي

« أيها الجنود سيروا واقذفوا الى اللجج كتائب الطغاة البحريين الضعيفة اذا وجدتموهم مقيمين علي حبل انتظاركم واظهروا للعالم طريقة معاقبتنا لناقضي اليمن ولا تتلصكوا عن اخباري بان اجمل صقع في الارض تحرر من نير أشد الناس غدرا وبان قداسة الموائيق انتقم لها وبان أرواح جنودي القساور المقتولين

في ثغور صقلية عند عودتهم من مصر بعد افلاتهم من اوهاق المتالف برا وبحرا وبعد نجاحهم من مئة وقعة سكنت أخيرا . »

على أن جيش ايطاليا الذي ساقته انتصارات ماسينا الى حدود النمسا والذي أصبح على تلك الصورة الفيلق الثامن في المانيا انجز طبقا لمبتغى نابوليون ما كان المعامل يتوخى عمله بفتح مملكة نابولي بسرعة غريبة . واليكم النشرة السابعة والثلاثين التي وجهها نابوليون الى الجيش العظيم منبئاً اياه بها صما أصابه من الفتح القريب :

« ان الجنرال سان سير يوسع الخطى ميمما نابولي لينزل العقوبة بالمملكة الخائنة ويخلع عن العرش المرأة المجرمة التي داست بوقاحها كل ما هو مقدس بين البشر . » وقد شأوا والتوسط لها لدى الامبراطور فاجاب :

« وهب قضي الامر بتجدد العداء واضطرت الامة الى اضطرام لظى الحرب ثلاثين سنة فلا يمكن السكوت عن مثل هذا الغدر الفاضح فلكم نابولي انقضى حكمها وهذه الجريمة الاخيرة اتمت حظها . فلتذهب الى اندرة فيزددها عدد أصحاب الدسائس ولتتأمر مع دراك وسبنسر سميت وتايلر ووكهام ، وهي تستطيع ان تدعو اليها اذا مارأت ذلك ملائما البارون درمفلد والمسيو دي فرسن والمسيو دنريغ والراهب موروس . »

وقبل ما فصل نابوليون عن فينا أبدى رغبته في المفاوضة بكل صراحة مع مندوب أو فده ملك بروسيا لتلك الغاية وهو المسيو دوغويتز وهذا لم يكن قد جاء الى ساحة الحرب الا ليراقب الحركات والحظوظ ويكون قريبا لاعلان محالفة مولاه للحكومة النمسا وزوسيا عند أول فشل يصاب به الجيش الفرنسي وكانت معركة استرلنز قد أرجأت ولا مرأ ذلك الاعلان ولم يبق من وجه للمندوب البروسياني المهتم بعقد وثيقة جديدة مع المسيو دي تاليران للتفكير بتعليماته الاولى ولما مثل في حضرة الامبراطور قال له هذا بكلام جاف وباستعلاء :

« وهل بنى مولاك تصرفه على قاعدة المروءة ؟ فلأن يشهر علي الحرب جهاراً وان لم يكن ثمة من سبب موجب أشرف وأجل له وعندى أن الاعداء الصادقين أفضل من الاصدقاء الخائنين . فما معنى هذا الامر ؟ فهل تزمون انكم حلفائي وتطبقون ان يكون في هانوفر فيلق روسي قوامه ثلاثون

الف مقاتل يتولى المواصلات مع الجيش الروسي العظيم عن طريق بلادكم . فلا شيء يمكنه أن يهزكم من تبعه هذا التصرف فهو عمل عدائي صريح . وإذا لم تسكن مفوضنا تفويضنا واسمنا لمعالجة جميع هذه المسائل فللازم خطة اللياقة . وانّا سأزحف الى اعدائي ايان كانوا . »

ولم يكن المسيو دوغويتز يستطيع انكار صحة التعنيف الموجه اليه بحق . ولكي يجعلهم يصرفون النظر عن موقفه المبهم أبدى ارتياحا الى الاتفاق مع فرنسا على الاصول التي يقترحها المسيو دي تاليران ووقع وثيقة رسمية تبودلت بموجبها الهانوفر بولايته بارت وأنسباخ . وكان المسيو دي هردنبرغ يدبر في الوقت نفسه في برلين عقد وثيقة مع حكومة لندرة بأمر ملك بروسيا وتحت نظره . وسرى فيما بعد نتيجة هذه السياسة المبنيّة على الخداعة

ولما عاد نابوليون الى باريس مرّ بمونيخ وقضى فيها ردهامن الزمان ليشهد حفلة قران ريبه البرنس اوجين دي بوهرنه بكريمة ملك بافاريا . وكتب من تلك العاصمة بتاريخ ٦ يناير سنة ١٨٠٦ الى مجلس الشيوخ المحافظ ينبئه بأن وثيقة برسبورغ ستبسط له بعد قليل من الحين وانه مقضى عليه بان يذيعها بمثابة قانون من قوانين الامبراطورية . وكان من جملة ما كتبه ما يأتي :

« كنت أبتغي أن أجعلكم بذاتي تطلعون في جلسة رسمية على الشروط ولكنني لما كنت من حين طويل قد قررت مع ملك بافاريا زواج ابني البرنس اوجين بالاميرة أوغسطا كريمته وكنت في مونيخ في الحين المضروبة فيه حفلة القران لم أستطع أن أنبذ السرور الذي يخامرني بعقد زواج هذين العروسين اللذين يصح أن نسميهما مثال الزوجين ... ولذلك سيرجأ وصولي الى ما بين شعبي أياماً وستكون هذه الايام طويلة عندي الا اني بعدما شغلت بدون انقطع بما تقضي به علي الجنديّة أشعر بابتهاج شديد باهتمامي بتدبير مايجب على رب العائلة ولكنني لما لم أكن أشاء تأخير نشر وثيقة الصلاح امرت بان تبلغ اليكم بلا تريت ولا ابطاء . »

وتلت هذه الرسالة رسالة أخرى أشعر بها الامبراطور مجلس الشيوخ بانه

تبنى أوجين دي بوهرنه وأعدده للتملك بعده على الايطاليين اذالم يرزق أولادا طبيعيين أو شرعيين

وقمت حفلة قران هذا الامير الشاب في ١٥ يناير من سنة ١٨٠٦ في مدينة مونيخ وقد شهدها نابوليون وجوزفين فزاد بحضورها بهاء الاحتفالات التي أقامها بلاط بافاريا اكراما لذلك القران . وكان اوجين في بدء الامر قد نفر من المفاوضات الاولى التي أوعد اليه نابوليون بأن يتولاها في ذلك الشأن فانه كان يأنف من أن يكون زواجه سياسياً . ولكنه لما وقعت عينه على الاميرة الفتاة المعدة له واستطاع أن يقدرها حق قدرها بادر بكل لطفة الى اجابة طلب نابوليون

وفي أثناء إطالة نابوليون مدة مكثه في بافاريا كانت تستعد دوائر الحكومة الفرنسية والشعب الباريزي استعداداً عظيماً للاحتفاء باستقبال بطل استرلنز وكان المجلس الاعلى قد باشر ذلك الامر فاقترح في جلسة ٣٠ ديسمبر ١٨٠٥ أمرا مآله اظهار دلالات الاعجاب والمحبة وعرفان الجليل للبطل الذي تعري اللسان حبسة عند ارادة التكلم عما أتاه من المعجزات العظيمة لبقاء تلك الدلالات الكثيرة خالدة كمجده

وفي أول يناير من سنة ١٨٠٦ نقل المجلس الاعلى الى اللكسمبور الرايات الاربع والخمسين التي بعث بها الامبراطور هدية الى مجلس الشيوخ وكان يسير في الموكب وراء أعضاء المجلس أصحاب المناصب والموسيقى العسكرية وفريق من حامية باريس . وقد شهد الحفلة مستشار الامبراطورية الاكبر وجميع الوزراء فاعلن مجلس الشيوخ وعلى رأسه الناخب الاكبر وصول الهدية الفاخرة المعدة لتزيين دار المجلس وأصدر باسم الشعب الفرنسي القرار الآتي :

١ - تشييد نصب عظيم لنا بوليون الكبير

٢ - ذهاب هيئة مجلس الشيوخ بذاتها للقاء جلالته الامبراطورية والملكية لتقديم ما يجب على الشعب الفرنسي من الشكر والمحبة له

٣ - حفر كتاب الامبراطور المرسل الى مجلس الشيوخ من الشنجن في ٢٦ فنديمار من السنة الرابعة عشرة على ألواح من الرخام توضع في الردهات التي تعقد فيها جلسات مجلس الشيوخ

٤ - تذييل هذا الكتاب بما يلي :

« ان الرايات الاربعين والرايات الأخر الاربع عشرة المنضمة اليها بأمرجلاته
 جاء بها المجلس الاعلى بذاته الى مجلس الشيوخ ووضعها في هذه الردهة في يوم
 الاربعاء في أول يناير سنة ١٨٠٦ »

ونالت كاتدرائية باريس نصيبها من توزيع غنائم تلك الحرب الخالدة الذكر . وقد
 رأينا أن الرايات المعدة لها سلمت الى بلدية باريس في المعسكر الامبراطوري
 بشنبرن . جاء كلبروس العاصمة في ١٩ يناير لاستقبالها باحتفال عظيم عند
 باب الكنيسة فعلقت في سقها



الفصل السابع

اعتراف الحكومة العثمانية بنابوليون امبراطوراً - اعادة مزاولة العبادة
الكاثوليكية في البنىطيون - ترميم سان دنيس - افتتاح المجلس
الاشتراعي - الاشغال العامة - قانون المرافعات الحقوقية - الكلية
الامبراطورية - مصرف فرنسا - أنظمة امبراطورية - إقامة
يوسف بوناپرت ملكا على نابولي - ترفيع مورات الى
درجة غرندوق برغ - إقامة لويس بوناپرت ملكا على
هولندا - انشاء محالفة الرين - التثام محكمة اليهود العليا
في باريس - عقد معاهدة مع الباب العالي - مفاوضات
في سبيل عقد السلم العامة - وفاة فوكس

وعاد نابوليون وجوزفين الى باريس في ٢٦ ينابر من سنة ١٨٠٦ فكان
الحضورهما في العاصمة رنة طرب وهزة ابتهاج عمت جميع طبقات الامة الفرنسية
وقد أعرب مجلس الشيوخ والمجلس الاعلى عن الحماس الشديد فوقف فرنسوى
دي نوشاتو رئيس مجلس الشيوخ في الجلسة الاحتفالية التي عقدت لهما في قصر
التويلري في اليوم الثامن والعشرين من ذلك الشهر وخطب الخطاب التالي
« يا ذا الجلالة انه وان يكن تواضع جلالكم يمجدهمكم تتكلمون ببساطة
عن المعجزات الحربية المتوالية التي فاق بها دهاؤكم نفسه بعد تفوقه على جميع
الابطال فلا يثقلن عليكم أن نضع موضع الاجراء قرار مجلس الشيوخ باطلاقنا
على مخلص فرنسا لقب « كبير » وهو اللقب الذي يقضي علينا صوت الشعب
المعتبر هنا صوت الله بأن نخصه لكم »

فأجاب الامبراطور بأنه شاكر لمجلس الشيوخ ما أبداه رئيسه من العواطف
له وانه يجعل وكده بأن يكون نخره الوحيد في تحديده حفظ فرنسا بحيث تعترف



المرشال دافو أميرا كمهل (١٨٢٣-١٧٧٠)

المصور المتأخرة باطلاق اسم « عظيم » على الشعب الفرنسي
وتلت التهانى الرسمية احتفالات عامة

وكان هم نابوليون أن يجعل جميع الحكومات في أوروبا تعترف له بلقب
« امبراطور » وقد تحفته به الامة الفرنسية . وكان يعتبر أن كرامة الشعب
العظيم النائل هو حقوقه منه متعلقة بهذا الاعتراف وما عدا ذلك كانت أنفته
الشخصية وعزة نفسه وخيلاؤه تجعله يعلق أهمية أعظم على ذلك الامر فقد غاظه
الاسكندر قيصر الروس بارساله اليه كتاباً تحت هذا العنوان البسيط : « رئيس
الحكومة الفرنسية » على مثال ملك بريطانيا العظمى الذي لم يكن يكتب الى
حكومة فرنسا الا بواسطة وزرائه . وكان لنابوليون بمثابة تعويض ما اتصل
اليه من أن سليم الثالث السلطان العثماني يعترف به رسمياً امبراطوراً على
الفرنسيين .

على أن الغاية التي كان نابوليون يتقصدها وهي رغبته في مؤاخاة الملوك
والعاهل كانت شؤماً عليه فانها دفعته الى ركوب مركب سياسة جديدة تخالف
السياسة التي كان يجري على منهاجها في علاقاته الخارجية وفي ادارته الداخلية
فأظهر في استرلنز من مكارم الاخلاق ماعده عليه بعضهم ضرباً من السياسة الخرقاء
مع خصوم أشداء لا يرجى تحسین العلاقات معهم مع أنه كان يمكنه طمس رسومهم .
وهو نفسه عرف خطأه على أثر هذا العمل . وبعد ما رجع من تلك المعركة المشهورة
أمر بان تعاد مزاولة فروض الديانة الكاثوليكية ونوافلها في البنيطيون وأمر
أيضاً بترميم مدافن الملوك في سان دنيس غير محاذر أن يجرح العواطف الفلسفية
والديمقراطية عند الشعب مصدق قوته الوحيدة وعظمته الفريدة . وأصدر في
٢٠ فبراير سنة ١٨٠٦ مرسوماً براطورياً بوجوب اجراء هذين الامرين وقد دفعه
اليهما المسيو دي شامباني وزير الداخلية وكانت أعماله تجعل المرء يبرز حكمه على
حقيقة أميال الحكومة في ذلك العهد وهذا ما قاله الوزير في هذا الصدد :

« يامولاي ان كنيسة القديسة جنيفاف وهي من اجمل المعابد في العاصمة
وقد شيدت على قمة الجبل المخصص لعبادة كانت تزين بنوع نفخ مجموع الطرف
المزدانة بها هذه العاصمة وتشعر الاجانب عن بعد بسيادة الديانة السامية على
هذا الشعب الغفير وقد نزع من أمانى القوم التقوية في الحين الذي أوشكوا

فيه أن يستمتعوا بها وخصصت فيما بعد لغاية أخرى ثم انها تركت وشأنها لينعق فيها اليوم من دون أن تستعمل ومن دون أن تتخذ لغاية من الغايات . فهي نفسها تقضي العجب الآن من الالهال التي صارت اليه فالفضولي الذي يزورها يتعجب من رؤيته وحشة الخراب في هذا المعهد الذي لم يكد بناؤه يتم . على أن دهاة الفنون الذين استنزفوا في سبيلها جميع موارد تصوراتهم يسؤهم أن يروها بلا سمة وبلا روح وبلا حياة . فالديانة عند رؤيتها اخفاقاً أمانيتها حولت انظارها عن أثر لا توسم جلالته بسمة الكرامة الا بعبادة العلي ويرتفع على مثال الاكرام العادل الذي يؤديه دهاء البشر الى الحق سبحانه وتعالى .

ويفتخر سان دنيس بأثر آخر يرقى الى عهد نشأة الامة وقد خصصه داغوير لمحمي فرنسا ورفع له الاب سوجه وهو يحتوي في وسطه على تاريخ هذه السلطنة بمجملته . وترقد فيه ثلاث أسر تولت الحكم في فرنسا وهو لعمر الحق مشهد يقضي على الملوك والامم بالتأمل العميق ويذكر في وقت واحد بعظمة الاشياء البشرية وبقائها الزائل وهو أثر قدسته الديانة والعصور ونعش واسم مملؤ برفات الملوك وموضوع في مكان منفرد بعيداً عن ضوضاء العاصمة كأن ذلك جرى بحركة الرعب والاحترام ...

يا مولاي ان فكرك وحده أحيا وبعث هذين الاثرين وهو سيعيد اليهما كرامتهما الاولى »

ولم يكن ممكناً التعبير بأفضل من هذا الكلام عن الرجوع الى الافكار الدينية والملكية واذا كان الامبراطور يريد أن يبيض صحيفته في الخارج وفي فرنسا عينها عند رجال الدين وأنصار الحكومة القديمة فان وزيره خدم افكاره بهذا الكلام خدمة جليلة وان يكن ما بذله من الجهد ليكذب على أصله ويخفي طبيعته الحقيقية قد ذهب على غير جدوى بعد كل شيء لدى اوروبا القديمة وفرنسا القديمة والكهنوت القديم وقد كان يقدر نابوليون بوناپرت حق قدره اكثر مما كان هو يقدر نفسه في ذلك العهد مع الاصرار على رؤيته فيه ريبب الفلسفة والمحمي عنها وسليل الديمقراطية وعضدها والعدو الألد للعاضي وليس المرمم الصادق له وموضوع الاحترام والاسف . وكانوا يبرئون ساحبة الامبراطور باستنجاذهم بطريقته التي رمى بها الى المسألة العامة والتوفيق بين الاحزاب

المتنافرة . ولو لم يكن ثمة الا اعمال من شأنها ان تعيد الى فرنسا مزاوله الدين بحرية بعد ما كان الاضطهاد قد قطع مجراه وصرم حبله في عهد حكومتي الكفسنسيون والديركستوار لكان العذر مقبولا في هذا الشأن . ولما كان التفصيل الاول يفتح المعابد الكاثوليكية في بلاد ينتحل السواد الاعظم من سكانها المذهب الكاثوليكي ويزاولون فروضه ونوافله ولو هلى سبيل العادة اذا لم يكن ذلك من باب الورع والعبادة كان بونا برت في ذلك العهد يتصرف تصرف السياسي العاقل والخفيف الداهية وكان يراعي مقتضيات الاحوال والمبادئ معا على أن امانى الشعب والدين والفلسفة الصحيحة كانت قد ادركت غاية مبتغاها : لان هذا الامر لم يكن سوى تساهل وحرية لا ينافيان الحماية حين لا تكون معاكسة للمصالح والاعتقادات الاخر . ولكن حين لا يكتفي الامبراطور بارجاعه الى رجال الدين كنائسهم المهجورة ووضعه الكاهن الكاثوليكي تحت كنف حماية الشريعة وتخزينه العامة بل ينبذ من معابده الفلسفة ليقم في مكانها الديانة الكاثوليكية وحين يغض الطرف عن سمائه كلام الاحتقار الموجه الى المنشآت الوطنية ليستبدل بها بصورة رسمية المنشآت الاكبريكية وحين يرضى بان يفوهوا بكلام التحقير على الضريح الفخم الذي خصصه الوطن المعترف بالجليل بدفن رجاله/العظام ويصني فيما بعد بارتياح الى عبارات نخمة يفوهون بها تعظيما لرفات الملوك وتكريس داغوير لقبورهم في سان دنيس وكل ذلك رغبة في نسخ التعظيم الفلسفي وحصر ذكرى الرجال العظام واسمهم في مدافن البنطيون ودوس الكهنة بأقدامهم رفات فلتير وروسو وضمان حفظ رفات الامبراطورين على أيدي الكهنة في سان دنيس مع رفات الملوك فليس والحالة هذه في تصرف الامبراطور هذا شيء من التساهل والحرية أو الحماية لمذهب الكاثوليك بل تهجم موجه رأسا الى المبادئ التي خصصت البنطيون بدفن مشاهير الرجال ودهاتهم وثمة أيضا شجب للحاضر وترميم لصرح الماضي ومناوأة للثورة . وليس هنالك شيء مما يشبه عملا من الاعمال السياسية أو مما هو من ضروراتها : والمستقبل يدلي بحجته على ذلك .

وبعد صدور المرسوم الامبراطوري المؤرخ في ٢٠ فبراير بأيام افتتحت جلسات المجلس الاشتراعي ولم يفكر أحد من نواب فرنسا باقامة النكير على ترك ذلك الهيكل الوطني لرجال الدين الكاثوليك . وفضلا عن ذلك كان كل احتجاج

في هذا الصدد من شأنه أن يظل عقيما ومن ذلك الحين نبذت فرنسا القيام بأعمالها الثورية في أوروبا بواسطة الخطابة أو الصحافة .

وخطب نابوليون بذاته خطاب افتتاح المجلس فلام نفسه على ما أبداه من كرم الاخلاق مما لمناه عليه فبما سبق وتشاءم بقرب وقوع الحوادث التي دبرها تغفله فقال : « ان روسيا لولا تساهلي معها بتسليم جنودها لما عادت الى بلادها بقايا جيشها الممزق وقد كان بوسعي أن أدك عرش الامبراطورية النمساوية ولكنني وطدت أسسه فهل يجعل تصرف حكومة فيينا الناس في الاجيال الآتية يحملون علي باللائمة من جراء تقصيري في النظر في عواقب الأمور ؟ »

وقدم الوزراء بياناً عن حالة الامبراطورية التي كانت سائرة بقدوم السرعة في جادة النجاح : فالطرق والترع والجسورة والآثار المختلفة الانواع والمباني المفيدة والجميلة شرع بها أو أُنجزت في جميع أنحاء المملكة الواسعة وكانت تتألف في ذلك العهد من مئة وعشر ولايات ماعدا هولندا ولايات البندقية ومملكة ايطاليا .

وقال وزير الداخلية : ان الحكومة انتهت الى عدة طرق جديدة للمواصلات مما يرغب فيه الشعب فالطريق بين فالونيه ولاهوغ تمت أشغالها والطريق من كان الى هونفلور أو شكت أن تنجز والطريق بين أجا كسيو وبستيا تم انشاء نصفها والطريق بين الاسكندرية وساقون خططت وصدر الامر بالبناء طريق من باريس الى ماينس مارة بهمبورغ وطريق أخرى بين اكس لاشابل ومنجوى . وهبت نيران المباراة في أفئدة الناس في جميع الجهات لاصلاح الطرق المؤدية الى القرى .

وأعيد بناء الجسورة على نهر الرين في كهل وبرساك وعلى نهر الموز في جيفه وعلى نهر الشير في تور وعلى نهر اللوار في نمر وروان وعلى السون في أكسون الخ . وأجبر على المرور تحت الجسورة نهر الدورانس والايذر اللذان كانت مياههما تأبى الخضوع والانقياد .

وبوشر احتفال ست ترع عظيمة وهي ترعة سان كنتان وترعة نابوليون الواصلة الرين بالرون وترعة برغونيه وترعتا بلافه وإل ورنس وترعة ارل وفروع ترعة البلجييك .

وشرع بتخطيط ترع أخرى وإنشائها كترع سان فالري وبوكير واينج ورت وسدان ونيورت الى روشل ونانت الى برست وتقرر انشاء غيرها كترع سدسه وشارلوى واير وبريار .

ويجد الناظر الى الثغور الفرنسية أنهم يهتمون على البحرين بتصوير المرافق مما يسهل الدنو منها وتتوفر فيها الراحة والامن .

ثم أن المسيو دي شامباني تطرق الى الكلام عن المباني العظيمة وتحسينات باريس فقال : « ان أنظاركم عند عودتكم الى العاصمة تعجبت من رؤيتكم أياها قد تحسنت في بحر سنة انقضت بالحرب أكثر مما تحسنت قبلا بمدة نصف قرن انقضى في السلم . فالارصفة الجديدة مدت على ضفاف السين وبنى جسران في السنين الماضية وأوشك أن يتم الجسر الثالث وهو أهمها من جهة سعته ورسم في جواره حي جديد تم به زينته . وقد أطلقت على شوارع هذا الحي أسماء المجاهدين الذين لقوا موتاً شريفاً في أثناء الحرب وأطلق اسم استرلنز على الجسر عينه .

واذا ما ابتعد المرء عن ضفاف السين ألقى قوس نصر منصوباً عند مدخل الاسواق وسيصبح أثراً جديداً لهذه الحوادث التي يجب أن يدوم ذكرها أكثر مما يمكننا أن نفعله لاحل تخليدها . وستشهد هذه الاعمال للأجيال الآتية بأننا كنّا عادلين بقدر ماستكرونا هي عادلة وان معرفتنا للجميل كانت معادلة لأعجابنا . »

وأجاب المجلس الاشتراعي على هذه الفقرات من التقرير المتقدم ذكره وعلى الخطاب الذي خطبه الامبراطور لما افتتح هذا المجلس بخطاب أعاد فيه جميع مجالي الحماسة والاخلاص المبسوطة بفخامة في جميع ماخطبته دوائر الحكومة من الخطب السابقة . ولا بأس من اعادة ما فاه به المسيو دي فنتان في هذا الشأن : « ان السنين المنقضية في عهدك كثرت فيها الحوادث الخطيرة كثرت تفوق ماوقع من الحوادث المجيدة في مدة قرون كثيرة في عهد غيرك .

ان العالم يظن أنه عاد الى تلك الازمنة التي كان فيها على رواية أعظم الكتاب المعالجين للموضوعات العامة وأبعدهم مدارك يسير الظافر سيرا سريماً جداً بحيث كان العالم جائزاً للسابق أكثر مما كان جائزاً للمنتصر . »

على أن مثل هذا الكلام لم يكن من جراء خروجه من فم متملق سوى
تعبير التاريخ بلهجة بسيطة وقد كان صفة عجيبة تمتاز بها حياة نابوليون بحيث
أن التملق المتوفرة فيه عبارات الغلو لم يكن من المستطاع أن يعبر به عن
ذهنه ومجده من دون أن يظل محصوراً في دائرة الحقيقة وان يكن في الظاهر
مفعماً من المبالغة .

وقرر المجلس الاشتراعي في هذه الجلسة الاعتماد على قانون المحاكمات الحقوقية
الموضوع حديثاً فقرظه وزير الداخلية بهذا الكلام :
« ان هذا الكتاب لم يبلغ غاية الكمال ولكنه سيكون أفضل مما تقدمه
من الكتب في هذا الباب . »

وينتمي النشاء الجامعة الامبراطورية الى هذا العهد وقد بسط أسباب ذلك
الانشاء الخطير فركوى المشهور الذي كان علمه الواسع وحبه الشديد للوطن
يبعثان على اللقاء مقاليد الرئاسة اليه الا أن نابوليون أخطأ بتفضيله عليه
المسيو دي فنتان وهذا كان في غابر أيامه منتظماً في سلك خدام الدين .
وأُنشئ مصرف فرنسا بناء على تقرير رينيو دي سان جان دنجي مستشار
الدولة ووافق عليه المجلس الاشتراعي

ولفتت الانظار الى الفقرات الآتية في خطاب ختام الجلسات الذي خطبه
في ١٢ مايو سنة ١٨٠٦ المسيو جويرير أحد المستشارين
« ان جلالتهم أرسل نظرة بعيدة على الفروع المتعددة المتفرعة على الطريقة المالية
« وقد تعمق في البحث عن طبيعة الثروة ودقق في احصاء الموارد والوسائل
التي تؤديها حركة التجارة الخارجية للزراع والتاجر
« وسمع جلالتهم أيضاً الشكوى العامة من وضع الضرائب للمحافظة على الطرقات
« وقال جلالتهم :

« فليخفف عبء الضرائب

« فلتنسخ الحدود

« فلتضمن الاموال اللازمة للإدارة ضرائب ملائمة لحالة فرنسا .

وكان ذلك الامر بمثابة اعلان للحقوق المجتمعة وقد أوشكت السياسة الملكية
في الامبراطورية ان تظهر في طريقها المالية فكان نابوليون يرمي الى استمالة

اصحاب الاملاك الواسعة اليه والى التعويل على الارسطقراطية العقارية ولذلك وعدمهم بتخفيف اعباء الضرائب عنهم غير مكترث لانقال منازك المعوزين بها. واذا كان نابوليون مع جنوحه عن الجادة التي يسير عليها الشعب قد وجد الامة مقيمة على عهد الامانة له وميالة الى خدمة افكاره فان انحرافه عن الصراط المستقيم في سياسته الداخلية وان يكن مأصابه من النصر في الخارج قد جعل الامة تذهل عن تلك السياسة كاد يحمد نيران الحماسة في قلوب مريديه والمعجبين به. وحين جاءت أيام البؤس وناوأت العناية الامبراطورية قالبة لها ظهر المجن وجرت الشعب الى الاستسلام اليها ناقشوه الحساب عن الغاء الحقوق المجتمعة. وكان في رأس نابوليون عقل جلم يكن يسمعه الا اظهاره في اعماله وخططه وعوده الى الجري على الطريقة الملكية وما كان قد فعله لذاته كزعيم دولة كرهه لدوي قرباه وكبار موظفيه. فبسطت قوانين امبراطورية جديدة لمجلس الشيوخ في الجلسة المنعقدة في ٣١ مارس سنة ١٨٠٦ لتقرر حالة الامراء والاميرات من العترة الامبراطورية. ورفع الى درجة دوقيات واقطاعات متوارثة دلماسيا وإستريا وغيرها وأجلس شقيقه يوسف نابوليون بونابرت على عرش نابولي والتقى بمقاليد السلطة في دوقيتي برغ وكليف الى مورات صهره ومنح الاميرة بولين اماره غوستالا وبرتيه اماره نوشاتل الخ

وان ما قلناه عن الوراثة السياسية فيما يتعلق بالابهة الامبراطورية التي التحف نابوليون بمطرفها يمكن اطلاقه على ما يتعلق بانشاء الاقطاعات الكبيرة الموروثة ويكفيها مؤونة تكرير الافكار التي جالت في خواطرنا عن سعي الامبراطور لاعادة تلك الامور الى مجاريها وعن تكذيبه لذلك أمام الجمعية الدستورية. وسنرى فيما بعد ان العمل الخطير الذي تم في ٣١ مارس سنة ١٨٠٦ ألغى في ٣١ مارس سنة ١٨١٤ أما النتائج العظيمة المتسلسلة عن ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ فانها ستظل خالدة الى ما شاء الله. وعلاوة على ذلك لا ينبغي لنا أن نذهل كما قد نهينا الافكار اليه عن أن النبلاء والملوك في عصر الامبراطورية المأخوذون من سوقة الشعب والمحافظين في أثناء جميع تقلبات الاحوال على جوهرهم الثوري قربوا النبلاء والملوك من أنظار الشعب وعملوا على اضعاف أو نسخ الابهة التي كانت تعضدها تين الطبقتين العظيمتين في خلال شيخوختها

وكان من جملة الانشاءات والترقيات التي سبق لنا ذكرها أمر كان له نتائج ملائمة لنشر الافكار الفرنسوية واعداد أسباب الفتنة الاوربية وهو ترقية يوسف بونابرت الى عرش نابولي بدلا من أسرة البربون الخلوعة عن سرير الملك والمبعدة الى صقلية . فان يدا زعم أنها ملكية ألفت وهي لا تدري ولا تريد بذار الفتن الحرة عند سفتح جبل يزوف فاعتم هذا البذار أن أفرخ ونما وأثمر ووضع تاج آخر على رأس لويس بونابرت أحد اشقاء العاهل نابوليون في خلال السنة عينها فان مندوبي الشعب الباتافي طلبوا من الامبراطور بلسان الاميرال فرهوبل أن يملك عليهم البرنس لويس نابوليون مانحاً إياه لقب ملك هولندا . فبادر نابوليون الى إجابة سؤالهم ونادى بأخيه ملكا عليهم في حفلة كبيرة أقيمت اكراماً لهم في قصر التويلري في ٥ يونيو سنة ١٨٠٦ وخائب أخاه قائلاً له : « أيها الملك تول شؤون هذا الشعب فأبأؤهم لم يحرزوا استقلالهم الا بما مننت به عليهم فرنسا من المساعدة المستمرة . ولما حالفت هولندا بريطانيا العظمى دوخها الغزاة وعاثوا في ارضها مفسدين : وفرنسا فضل عليها ببقاء كيانها . فأعطها ملوكا يذودون عن حريتها وشرائعها وديانتها ولكن حذار أن تلبد جنسيتك الفرنسية »

وفي هذه الكلمات الاخيرة خلاصة السياسة التي كان نابوليون يتعمدها في استيلائه على العروش المجاورة فان غايته في وضعه التيجان على رؤوس اخوته لم تكن مقتصرة على منحه أسرته مكانة رفيعة جدية بمكانته وهو الذي كان يريد قبل كل شيء أن تكون الممالك المجاورة الخاضعة لشرائعه ولايات من جملة الولايات الفرنسية ولكي يكون اندغامها بالامبراطورية شديداً ومضموناً وضعها تحت سلطة ملوك من لحمه ودمه .

واذا كان صحيحاً أنه حيث ترسخ سلطة فرنسا ترسخ أسس الحضارة الاوربية فلا بد من الاقرار بالمعروف لنابوليون ولو لم تكن غايته من وراء عمله هذا الا توسيع دائرة سلطته الشخصية بسعيه لادخال جميع الشعوب التي تمكن من سلبها عن مبادئ أوروبا القديمة في وحدة فرنسا الجديدة العظمى وكان الامبراطور يؤم غايته موسعاً الخطى وهو لا يقتصر على وضع اخوته على عروش الاسر المالكة العربية في القدم فقط بل على انشاءه محالفات قوية



المرشال ليفيفر دوق دنتريك (١٧٥٠ - ١٨٢٠)

يرأسها بلقب محام أو وسيط . فانه بعدمارقي حاكمي بافاريا وورتمبرج الى درجة الملك أراد أن يوثق عرى علائق تينك المملكتين بالامبراطورية الفرنسية بمعاهدة رسمية كان من غايتها انشاء محالفة الرين ومن نتيجهها تصيير أجل بلدان ألمانيا فرنسوية الميل

وكان نابوليون وهو يسعى لتجديد العتر المالكة حول فرنسا يهتم اهتماماً جدياً بتنظيم مجلس شورى الدولة لتنظيمها تائياً وتأليف فرع لعلم الاقتصاد البري في مدرسة القور وانشاء محلات لتوليد الخيل وتربيتها وإفقال المقامر في جميع أنحاء الامبراطورية الخ . وقد شمل بعنايته أيضاً اليهود وأصدر أمراً بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٠٦ يدعو به جميع رعاياه الذين على المذهب الموسوي الى إرسال نواب عنهم الى باريس . وقد وضع ذلك الامر موضع الاجراء وعقدت محكمة اليهود العليا أول جلسة من جلساتها في ٢٦ يوليو من السنة عينها

ولم تكن فرنسا في ذلك الحين تحارب الا روسيا وبريطانيا العظمى وكانت بفضل قوة عارضة الجنرال سباستيان في سفيرها في القسطنطينية ومقدرته السياسية وتقننه في أساليب الدهاء قد عقدت مع الباب العالي وثيقة درت عليها المرافق والفوائد . وقد استقبل نابوليون في قصر التويلري السفير الموفد فوق العادة من لدن الحكومة العثمانية واسمه موحد أفندي في اليوم عينه المعين لاستقبال وفود هولندا والصادر فيه المرسوم الامبراطوري السامي بمنح ناليران لقب أمير بنيفان وبرنادوت لقب أمير بنتي كرفو

على أنه ولو كانت العداوة باقية مشتدة كل الاشتداد بين الحكومة الفرنسية وحكومتها لندرة وبطرسبرج لم يكن ذلك لينزع من القلوب الامل بعقد الصالح ورفع أعلام السلم فأسندت رئاسة الوزارة الى فكس بعد وفاة بت في شهر يناير سنة ١٨٠٦ فكان ذلك الحادث وحده كافياً لجعل الناس يعتقدون انه سيحدث تغيير في السياسة البريطانية نحو فرنسا . وقد سبق لنا القول ان كلا من فكس ونابوليون كان يحترم الآخر ويقدره حق قدره . وكان قد قدم الى ذلك السياسي البريطاني الداهية في خلال وزارته الاخيرة مهاجر من المهاجرين الفرنسيين الاوغاد وعرض عليه الايقاع بالامبراطور فأمر الوزير بذلك المهاجر السفاح أن يلقي القبض عليه . ثم انه كتب الى وزارة خارجية فرنسا يشعروها

بالامر ويخبرها ان الشرائع البريطانية لا تمكن من ابقاء الاجنبي الذي لم يرتكب
أدنى جناح مدة طويلة في السجن وانه آلى على نفسه ألا يطلق سراح ذلك الشقي
الا حين يرقى خبره الى نابوليون ويتمكن هذا من اتخاذ جميع التدابير للوقاية
من شره .

وقد كان من المستطاع تقليل أظفار العداوة القديمة الراسخة أركانها بين
فرنسا وبريطانيا العظمى وتمعية آثارها والعودة الى حالة سلم طويلة العمر على
يد مثل هذا الوزير الخطير . وكان نابوليون يعتقد إمكان حدوث هذا الامر
وقد صرح به أيام كان في جزيرة القديسة هيلانة الا أن الفتنة الكبرى لم تكن
حتى ذلك الحين قد ضربت أطنابها الا في عاصمة واحدة من عواصم أوروبا وكان
الناس يتوقعون زيارتها لهم في غير هذه العاصمة . وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٠٦
حضرت الوفاة فكس في أثناء المفاوضات بينه وبين فرنسا فأعاد شبح بت
عواطف النفور في الوزارة البريطانية الجديدة من الحكومة الفرنسية

الفصل الثامن

حرب بروسيا - معركة ايانا - نابوليون في بتسدام

وعقدت في باريس وثيقة الصلح بين حكومة فرنسا وسفير روسيا في ٢٠ يوليو سنة ١٨٠٦ بمساعي الوزارة البريطانية السلمية ونقودها الآن مصرع فكس هدم صرح هذه المساعي ونسخ تأثير تلك الكلمة المسموعة فأبى الاسكندر الموافقة على عمل سفيره وتولى المفاوضات مع الوزارة البريطانية الجديدة وحكومة برلين لاستئناف اشغال نيران القتال في القارة الاوربية . وكان قيصر روسيا وملك بروسيا وزوجته قد عقدوا من نحو سنة من الزمان وثيقة بتسدام المشهورة وأقسموا على ضريح فريدريك الكبير بأن يبذلوا كل ما عندهم من الجهد لمناهضة فرنسا ومناصبتها

ولما انتهى الى نابوليون ما كانت الحكومات الشمالية تهبطه من المكاييد أشعر بالامر حلفاءه المتسألقة منهم محالفة الرين . وفي ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠٦ كتب الى ملك بافاريا يخبره عن تسليح بروسيا ويطلب منه تقديم الجنود الذين وعده بهم في وثيقة ١٢ يوليو

وبرح سان كلود بعد ثلاثة أيام منطلقا الى المانيا ومعه جوزفين وبلغ ما يانس في ٢٨ منه وهناك افترق عن الامبراطورة . وبلغه في ٣٠ منه ان حاكم ورزبورغ انضم الى محالفة الرين فعبر النهر في أول اكتوبر وجعل مركزا ركان حربه في بمرغ في ٦ منه ووجه منها نشرة الى جيشه يخبره بها عن العدو المقضي عليه بأن يوائمه . وهذه خلاصة ما تضمنته تلك النشرة :

« أيها الجنود لقد علت اصوات الحرب في برلين ولا يزال القوم فيها من شهرين عاملين على استئزالنا

» ومعلوم ان العصابة عينها التي اغتذمت الفرصة من الاختلافات الداخلية التي كانت تعبت بنا وكانت تجذب بروح الطيش من أربع عشرة سنة جنود البروسيا نين الى سهول الشمبانيا لا تزال صاحبة الكلمة المسموعة في مجالسهم وقد أصابوا في الشمبانيا ما أصابوه من الانكسار والموت والعار . . .

« فلهما بنا زحف اليهم . . وليصب الجيش البروسياني الحظ عينه الذي أصابه من اربع عشرة سنة . وليعلموا انه اذا كان يسهل الحصول على توسيع نطاق البلدان وتعزيز السطوة بنيل مصادقة الشعب العظيم فان معاداته (التي لاتمكن المجاهرة بها الا بنبذ روح الحكمة والتعقل) أشد رعباً من عواصف الاوقيانوس وأنوائه . »

ويسهل على المرء أن يرى أن الامبراطور كان وهو يمثل هذا الدور بالحرية والحماسة في إظهاره التقاليد الثورية المودعة بين يديه أفضل منه حين يذكر القوم في فرنسا بتذكارات القديسة جنيفياف وسان دنيس الدينية والملكية . وكان نابوليون قد باشر الحرب وهم بشن الغارة الشعواء على أعدائه من دون أن يعرف أكثر مما كان يعرفه في الحرب الاخيرة السبب الذي من أجله كان يقاقل والغاية التي كانوا يبتغونها منه في محاربهم اياه . وهذا ماجعله يكتب في ١٧ أكتوبر من بمرغ الى مجلس الشيوخ المحافظ مايلي :

« إنا في الحرب التي لم نتقلمد فيها السلاح الا للدفاع عن احسابنا والتي لم نستثرها بعمل من الاعمال أو دعوى من دعاوى والتي يتعذر علينا أن نمين سببها الحقيقي نتكل كل الاتكال على مضافرة الشرائع ومساندة الشعوب التي تدعوها الاحوال الى تقديم براهين جديدة لنا عن اخلاصها وشجاعتها . » وقد أشرنا الى هذا السبب الحقيقي عند نشوب الحروب السابقة فان نابوليون الذي صار يحاذر من صيرورته امبراطوراً أن يعترف بأن الملوك يمكنهم أن يشهروا عليه حرب مبادئ يجعل الناس يفكرون بهذا الامر في الذشرة التي أذاعها على الجيش حين يشكو من العصابات وروح الطيش الهاب في صدرها مما كان قد ساق سنة ١٧٩٢ برنسويك الى الشامبانيا وهو يخشى أن تكون تلك العصابات مع الروح المذكور سائدة في مجالس المملكة البروسيانة كما كانت سائدة فيها في ماغير من الدهر .

وقد جاءه رسول من تاليران نزيل ماينس في اليوم الذي سير فيه رسالته الى مجلس الشيوخ يحمل اليه كتاباً من ملك بروسيا يكرر فيه هذا الملك اكثر من عشرين مرة شكواه مما كان أعداء الثورة يأتونه من خمس عشرة سنة على صور شتى لمواقعة فرنسا فلم يستطع الامبراطور انجاز تلاوة ذلك الكتاب

والتفت الى جلسائه وقال لهم :

« اني أرثي لآخي ملك بروسيا فانه لا يفهم اللغة الفرنسية وهو ولا مرء لم يقرأ هذه اللوحة . »

وكان مع كتاب الملك مذكرة الميسو دي كنوبلسدرف المشهورة فقال الامبراطور لبرتيه : « يا حضرة المارشال يضربون لنا موعد الاجتماع في ٨ منه ولم يسبق لفرنسوي قط أن يتخلف عن مثل هذا الموعد ولكن يقولون ان هنالك ملكة حسناء تريد أن تشهد القتال فلنسرف في اللطف ولنزحف الى الساكس من دون أن ندوق طعم الرقاد »

وكان نابوليون يلح بهذا الكلام الى ملكة بروسيا التي كانت تصحب الجيش لابسة لباس الفرسان الذي يلبسه رجال فرقها وكانت تكتب عشرين كتابا في كل يوم تعرض بها الجيش البروسياني على اضرار هيب الحرب في كل ناحية .

وبر الامبراطور بوعدده فانه في ٨ أكتوبر فصل عن بمرغ في الساعة الثالثة صباحا واجتاز غابة فرنكونيا في النهار وشهد في ٩ منه في شلتز فاتحة الحرب الجارية على مايشتهى ويريد . واستولى المارشال رنادوت على هذه القرية بعد ما كسر في هذه الوقعة عشرة آلاف من البروسيانين وأسرقسا كبراً منهم . واشترك مورات بهذه المعركة هاجماً في المقدمة وقد شعر السيف بيده .

ونال الفرنسيون انتصاراً جديداً في ١٠ منه في سالفلد وقد باشرت ميسرة الجيش الفرنسي بقيادة المارشال لان القتال هذه المرة وكان من نتيجة ذلك انكسار طليعة البرنس دي هو هنلوه انكساراً تاماً وكان يقودها البرنس لويس البروسياني الذي لقي حمامه في وسط المعركة . وكان هذا الامير الشاب المتعلق الجند باهداب حبه يذوب حينئذ لاعادة مجد ذلك الجيش القديم فكانت شجاعته مجلبة لحتفه وقد أظهر أنه من أشد الناس في بلاده رغبة في تسعير لظى الوغى وكان قد أبدى رأيه في المجالس البروسيانية بوجوب مباشرة هجوم شديد وساءه أن يترك الموقع الموكولة اليه المدفعة عنه فباشر سقالاته تفوق قواته كثيرا وتفضلها في الموقف بعد مقاومة عنيفة وزلزلت اقدام جيشه وانقطع نظامهم .

وبينما هو يستنزف مجهود اليأس لضم ما تفرق من شمل رجاله فاجأه من فرسان أعدائه فارس يدعى غنيمده وسامه تسليم سيفه اليه فأبى الأمير اجابة طلب الفارس الفرنسوي وحمل عليه يقاتله قتالا أحب معه الموت ويدافع عن نفسه مدافعة الاسود فأهوى عليه الفرنسوي بسيفه وضربه ضربة كانت القاضية وهذا هو معنى الفقرة المذكورة في بيان تلك الموقعة والمقول فيها :

« ان أول الضربات في تلك الحرب أودت بمن كان مدبرها . »

ومنذ اليوم الثاني عشر من شهر اكتوبر كانت طلائع الجيش الفرنسوي عند ابواب لبسيك وأركان حرب الامبراطور في جبرا

ولم يكن نابوليون مرتابا في نتيجة الحرب ولكنه حيث كان يهمله أن يتنصل من مسؤولية الحرب ويبين للقوم في فرنسا خصوصا وأوربا عموما انه لم يدخر وسعا في سبيل المحافظة على السلم عني في جبرا بتسخير جواب لكتاب ملك بروسيا مامكت أن أذاعه على رؤوس الاشهاد وهذا أهم ماجاء في هذا الجواب :

« حضرة اخي ان كتاب جلالتم المؤرخ في ٢٥ سبتمبر لم يلته الي الا في ١٧ اكتوبر ويسوء في وايم الحق ان أرى أنهم حملوك على التوقيع على مثل هذه الرسالة المشحونة قدحا . ولم أكن لاجاب عليها الا لأقيم التكبر على ذلك مبينا لكم اني لا أنسب اليكم شيئا مما هو وارد فيها ومما هو مخالف لاخلاقكم ولشرفنا كطينا . فانا أثري لحالة مسطري الرسالة واحترهم . وقد انتهت الي بعد وصول رقيمكم بوقت قصير مذكرة وزيركم المؤرخة في أول اكتوبر والضرابة لي موعد اللقاء في ٨ منه . وقد قمت بوعدى كرجل يحافظ على كلامه وهاءنذا الآن في وسط السالكس فصدقي بان لدي من القوات مالا تستطيع قوة أن تصادمها وتظل مدة طويلة مترددة في الجهة الجانح النصر اليها . ولكن لماذا يسفك مثل هذا الدم الغزير ؟ وما هي الغاية من ذلك ؟ وأنا أخاطب جلالتم بالسلام عينه الذي خاطبت به الامبراطور الاسكندر قبل معركة استرلنز يومين فلماذا تقتل رعايانا فالنصرة التي اشتريها بحياة عدد كبير من أولادي لا أعتبرها شيئا مذكورا . فلو كنت في بدء حياتي الحربية وكنت أخشى أهواء القتال لكان مثل كلامي هذا مخطئا موقع الصواب

يا صاحب الجلالة انكم ستتكسرون وتعرضون للخطر راحتكم وحياة رعاياكم من دون أن يكون لكم في ذلك أدنى عذر . فبردة جلالكم لا تزال نظيفة حتى الآن من كل وصمة ويمكنكم أن تعقدوا معي صلحاً بضمن كرامة مقامكم ويمكنكم أن تتعاطوا معي هذا الامر قبل انقضاء شهر ولكن في موقف يختلف عن الموثفء الحاضر . . . وقد أكون أثرت بهذا الكتاب كامن عواطفكم الا أن الاحوال لا تقتضي أدنى مداراة ، فليصدر أمر جلالكم لعصابة المقربين منكم الذين دخلت صدورهم وطاشت أحلامهم بأن يصمتوا لدى عرشكم مراعين في ذلك الاحترام الواجب عليهم ولتعيدوا السكينة اليكم والى بلادكم . . . »

ولم يكن الامبراطور نخطئاً في قوله بأن كتابه سيبيع كامنات عواطف ملك روسيا ويوقظ ضغنه من رقدته وكان أيضاً كأنه يقرأ في كتاب المستقبل حين أنبأ هذا الملك بجرأة عظيمة بأنه سينكسر . وكان في واقع الحال أن الجيش البروسياني تمزق كل ممزق بعد يومين في سهول ايانا . وصدرت النشرة الخامسة للجيش العظيم عن ساحة الحرب في ايانا في ١٥ اكتوبر وهذا نصها :

معركة ايانا

« ان معركة ايانا نحت عار روزباخ وقررت في سبعة أيام قتالا سكن الهياج الحربي الذي كانت عواصفه قد هبت في صدور البروسيين . . . »
« وقد شاء ملك روسيا أن يفتح باب المحاربة في ٩ اكتوبر بتسييره ميمنته على فرنكفور ووسطه على ورتزبورغ وميسرته على بمرغ . وكانت جميع فرق جيشه مستعدة للقيام بهذه الخطة الا أن الجيش الفرنسي دار على طرف الميسرة ووصل في أيام قليلة الى سالبورغ ولوبنستين وشلز وجيراو نومبورغ . وقضى الجيش البروسياني المطوق أيام ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ اكتوبر في لم متفرق شعثه . وتقدم للقتال في ١٣ منه بين كابلسندرف وأرستاد وعدده يقدر بزهاء مئة وخمسين ألف مقاتل .

ووصل الامبراطور الى ايانا في ١٣ منه في الساعة الثانية بعد الظهر وشاهد وهو واقف على الهضاب النازلة فيها طلائع جيشه العدو يهيم العدة لمهاجمة

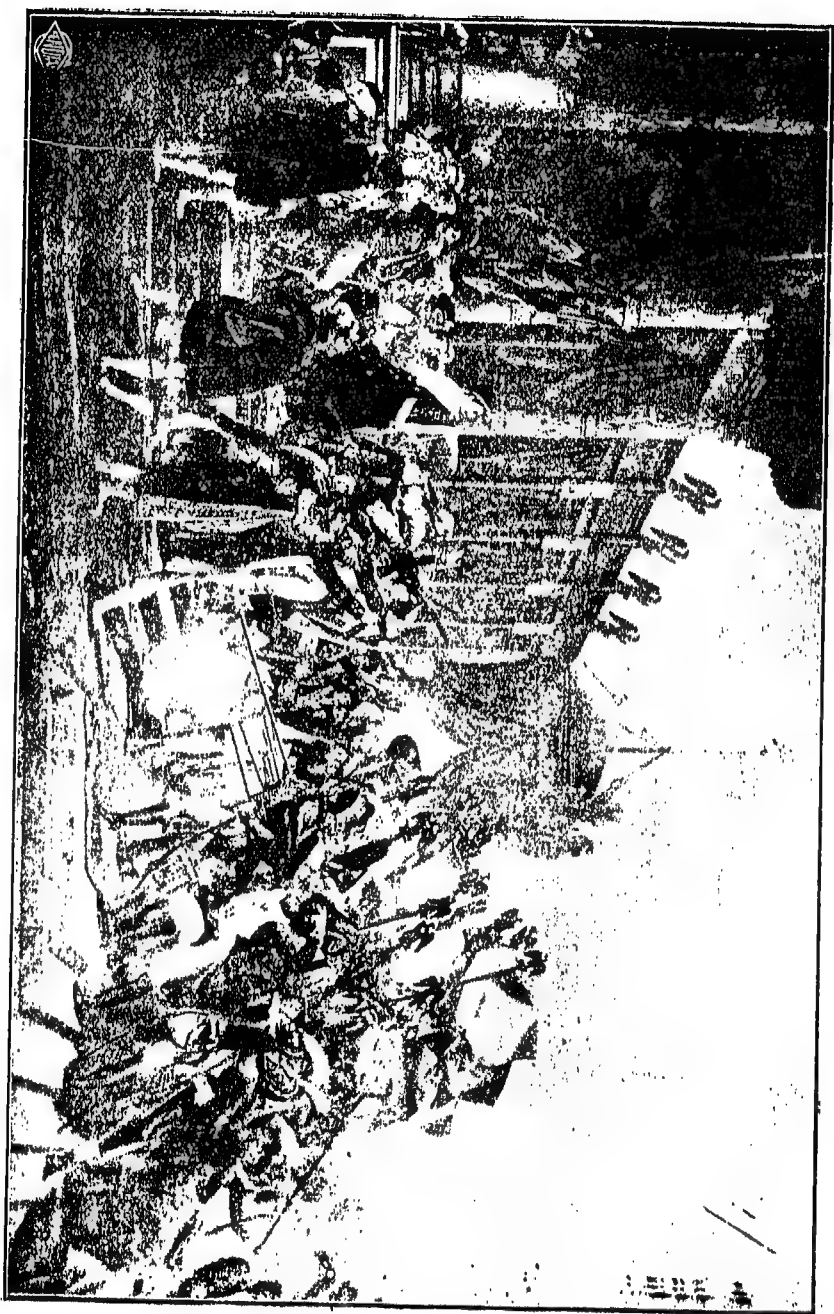
الفرنسويين في الغد واغتصاب منافذ نهر السال وأخذها عنوة . وكان البروسيانيون ينمون بأسرار قوة عظيمة وهم في موقفهم المنيع للدفاع عن الطريق المؤدي من ايانا الى ويمار وكانهم اعتقدوا أن الفرنسيين لا يستطيعون البلوغ الى السهل من دون أن يغتصبوا المعبر ويستولوا عليه . وكأنه لم يكن ممكناً في واقع الحال أن تصعد المدفعية الى الهضاب الضيقة الفسحة بحيث لا تكاد تسمع أربع فرق . واشتغل الفرنسيون الليل بطوله في اختراق طريق بين الصخور تمكنوا من تسيير المدفعية عليه حتى انتهوا به الى أعلى الهضاب المذكورة .

« وتلقى المارشال دافو الأمر بالتحف من جهة نومبورغ للدفاع عن مضائق كوزن اذا ما كان البروسيانيون يبتغون مهاجمة نومبورغ أو بالتحف الى ابولدا لمهاجمة البروسيانيين من الورا اذا بقي هؤلاء في مراكزم .

« وأمر فيلق المارشال البرنس دي بنتي كرفو بالسير من دورنبرغ للوقوع على البروسيانيين من الورا سواء زحفت قواتهم لمهاجمة نومبورغ أو لمهاجمة ايانا .

« أما معظم الفرسان الذين لم يكونوا بعد قد انضموا الى الجيش فلم يكونوا يستطيعون الانضمام اليه الا عند الظهر . ولم تكن المسافة بين فرسان الحرس الامبراطوري وبينهم أقل من مسيرة ست وثلاثين ساعة مهما كانوا قد حددوا في السير بعد انطلاقهم من باريس . ولكن يحدث في الحرب في غالب الاحيان أنه لا يستطيع أدنى اعتبار من الاعتبار أن يجعل المرء يتردد في إنذار عدوه ومباشرة مهاجمته . وصف الامبراطور على الهضاب النازلة فيها طلأته - وقد أهملها العدو واتخذ موقفه بازائها - فيلق المارشال لان برمته جاعلا كل فرقة منه تؤلف جناحاً . وصف المارشال ليثيفر عند المرتفعات الحرس الامبراطوري على شكل مربع ونزل الامبراطور بين أبطاله . وكان الليل يمثل منظراً رهيباً جديراً بالاعتبار وهو مشهد الجيشين اللذين كان أحدهما ينشر مقدمته على مسافة ستة فراسخ ويرفع نيرانه في الفضاء وكان الآخر كأن نيرانه محصورة في نقطة صغيرة وكان في كلا الجيشين حركة ونشاط . وكانت نيران الجيشين مشوبة على قيد نصف مرمى المدفع وكاد الخفراء يتماسون بحيث لم تكن تدور حركة من الحركات عند أحد الجيشين من دون أن يسمعا الآخر .

« وقضى فيلقا المارشال ناي والمارشال سولت الليل في السرى وهب جميع



نابليون يوزع الرايات على الجيش (سنة ١٨٠٤)

الجيش لحمل السلاح عند تباشير الصباح واصطفت فرقة غازان ثلاثة صفوف الى يسار الهضاب وألقت فرقة سوشه الميمنة واحتل الحرس الامبراطوري قبة الالكمة وكان لكل فرقة من تلك الفرق مدافع منصوبة بين الفسحات وفاصلة الواحدة منهن عن الاخرى . وفتحت من المدينة ومن الاودية المجاورة منافذ تسهل الانتشار للجيش التي لم يتسن لها احتلال الهضاب . ومن المرجح أن هذه هي المرة الاولى التي قضي فيها على جيش أن يمر بمثل ذلك المنفذ الصغير

« وكان ضباب كثيف يلبس النهار حلة من الحلك فر الامبراطور أمام عدة صفوف وأوصى الجنود بأن يتحذروا من الفرسان البروسيايين الذين كان الناس يتصورونهم هائلين . وذكروهم بانهم منذ سنة من الزمان استولوا في مثل ذلك الحين على ألم وان الجيش البروسياي هو اليوم مطوق على مشال ماكان عليه الجيش النمساوي في السنة المنقضية . وانه أضاع خط حركاته وفقد ذخائره وانه لم يكن يقاتل في هذا الحين في سبيل المجد ولكن سعياً وراء الانسحاب وان القيالى التي تبحث عن منافذ في جهات مختلفة وتدع ذلك الجيش يمر تفقد شرفها وتسمتها . ولما سمع الجنود هذا الخطاب الحاسي صاحوا : « سيروا بنا ! » وباشر الرماة المعركة . وما مكث اطلاق المدافع والبنادق أن أصبح شديداً . على أن العدو أزيح من المواقع الحصينة النازل فيها وتمكن الجيش الفرنسي المنقطع الى السهل من استعادة نظام الحرب .

« أما معظم الجيش الذي لم يكن مصمماً على الهجوم الا حين ينقشع الضباب طانه باشر القتال وكان فيلق من الميسرة قوامه خمسون الف مقاتل قد غشي مضايق نومبورغ ناويا الاستيلاء على مخارج كوزن الا أن المارشال دافوكان قد اطلع على حركته وتقدم فيلقان آخران يتألفان من أربعين الف محارب أمام الجيش الفرنسي المنقطع الى هضاب ايانا . وظل الضباب غمماً فوق الجيشين ساعتين ولكنه مالبت أن انقشع أمام شمس الخريف الساطعة ولمح كل من الجيشين الآخر على مسافة لا تزيد على مرمى المدفع . وكان المارشال أوجرو يقود ميسرة الجيش الفرنسي المستندة الى إحدى القرى والى الاحراج . وكان الحرس الامبراطوري يفصلها عن الوسط المتولي قيادته المارشال لان . وكان فيلق

المارشال سولت يؤلف الميمنة ولم يكن مع المارشال ناي سوى ثلاثة آلاف جندي وهم الجنود الذين كانوا قد وصلوا اليه من فيلقه .

« وكان جيش العدو وكثير العدد وفيه فرسان شجعان . وقد تمت الحركات بتدقيق وسرعة وكان الامبراطور راغباً في تأخير القتال ساعتين ليتسنى له أن ينتظر في الموقع الذي غنمه بعد معركة الصباح الجنود الذين كان ينتظر موافاتهم له ولا سيما الفرسان الا أن الحدة الفرنسية تغلبت على رغبته . واشتبكت في القتال عدة فرق في قرية هلسند وتحرك العدو ليزيحها عنه فاصدر الامبراطور أمره في الحال الى المارشال لان بان يزحف بصفوفه الواحد منها قدام الآخر لعصد تلك القرية وشن المارشال سولت الغارة على حرجة الى الجهة اليمنى . ولما تحركت ميمنة العدو لتهاجم ميسرتنا أمر المارشال أوجرو برد حركتها وعم القتال في أقل من ساعة . فكان مئتان وخمسون ألف أو ثلاث مئة ألف مقاتل وسبع مئة أو ثمان مئة مدفع تشر الموت في كل جهة وتبدي للانظار مشهداً يندر حدوث مثله في التاريخ

« وكانوا من كلا الجانبين يقومون بحركات متوالية تحاكي حركات عرض الجند ولم يكن بين جنودنا أدنى اضطراب ولم يتردد النصر دقيقة واحدة عن الميل اليسار . وكان الى جانب الامبراطور ما عدا الحرس الامبراطوري عدد كبير من الجند الاحتياطي ليتمكن أن يسد به ثمة الحوادث غير المنتظرة .

« ولما استولى المارشال سولت على الحرجة التي كان يهاجمها من ساعتين قام بحركة الى الامام . فاشعر الامبراطور في ذلك الحين بأن فرقة الفرسان الفرنسيين الاحتياطية ابتدأت تصطف في ساحة القتال وان فرقتين من فيلق المارشال ناي اصطفقتا وراءها . وحينئذ قدموا في الصف الاول جميع الجنود الاحتياطيين المعضودين فضعضعوا أركان العدو بأسرع من لمح الطرف وفلوا حده فانسحب انسحاباً منتظماً في الساعة الاولى الا أن ذلك الانسحاب لم يعطى أن أصبح فشلاً هائلاً حالماً تمكن من الاشتراك في الحرب فرق دراغونا ومدرعينا المتولي قيادتها الفرندوق دي برغ . فقد ساء هؤلاء الفرسان الشجعان أن يروا النصر يتم بدونهم فاندفعوا الى كل مكان أبصروا فيه الاعداء ولم يستطع فرسان ومشاة البروسيانين مقاومة حملتهم . وكان المربع الذي ألفه العدو قد ذهب على غير

طائل فان خمس فرق من فرقهم خرفت وتمزق شمل المدفعيين والفرسان والمشاة وسقطوا أسرى في أيدي الفرنسيين ووصل هؤلاء الى ويمار في الحين عينه الذي وصل فيه اليها العدو الذي كذا نتعقبه مسافة ستة فراسخ .

« وكان فيلق المارشال دافو يجري المعجزات عند ميمنتنا فلم يكتف بأن يوقف على مسافة تزيد على ثلاثة فراسخ معظم جيش الاعداء المقضي عليه بالخروج من جهة كوزن بل أعمل فيه الطمن والضرب . . . وهذه نتيجة المعركة : ثلاثون الى أربعين ألف أسير ويصل اليها أسرى جدد في كل دقيقة وخمس وعشرون الى ثلاثين راية وثلاث مئة مدفع ونخازن كبيرة مملوءة مؤنًا . وكان بين الاسرى أكثر من عشرين جنرالاً بينهم عدة نواب جنرالية وفيهم شميتهو نائب القائد الاكبر . وكان عدد القتلى كثيراً في الجيش البروسياني ويقدرون القتلى والجرحى بأكثر من عشرين ألفاً وجرح ألفاً الفلد مارشال مولندرف وقتل دوق برنسويك والجنرال بلوخر وجرح البرنس هنري البروسياني جرحاً بالغاً ويؤخذ من رواية الفارين والاسرى والمنسوديين للمفاوضة أن الاضطراب والفشل بلغا مبلغهما في فلور جيش العدو .

« وانسدت جميع طرق الانسحاب في وجه الجيش البروسياني في هذه المعركة وضاعت جميع خطوط حركاته . وكانت ميسرته الجاد المارشال دافو في اثرها قد انسحبت الى ويمار حين كانت ميمنتته ووسطها بنسجهان من ويمار الى نومبورغ . وكان العرب قد سكن جوائهم والخشية قد ملأت صدورهم فزلزلت أقدامهم واضطر الملك الى الانسحاب في وسط الحقول بكوكبة فرسانه » وتقدر خسارتنا بألف قتيل الى ألف ومئتي قتيل وثلاثة آلاف جريح وأحاط الفرندوق دي برغ في ذلك الحين بموقع ارفورت حيث كان فيلق من العدو بقيادة المارشال دي مولندرف والبرنس دورانج . واذا كان هذا الامر مما يضيف شيئاً من الاشياء الى الصفات التي يستوجبها الجيش من احترام الامة واكرامها فلا شيء في وسعه أن يضيف شيئاً الى عاطفة الحنان التي شعر بها أولئك الذين شاهدوا الحماسة والمحبة اللتين كانت الامة تعالان بهما الامبراطور عند اشتداد وطيس الهيجاء . وهب كان زمن وقع فيه تردد فان كلمة : « ليحيى الامبراطور ! » كانت وحدها كافية لاقالة عثار البسالة الهاوية ولتقوية جميع

النفوس الواهية . ولما ملح الامبراطور في أثناء اشتداد المعركة ان فرسان العدو تهدد أعلامه اندفع بجواده لتدبير حركات رجاله وتغيير اتجاه مقدمته صفوف المربع . وكان يدوي في صياحه أذنه أنى سار « ليحى الامبراطور ! » وكان مشاة الحرس الامبراطوري ينظرون باستياء لا يتمكنون من كتمانهم الجيوش تتقاتل وتتطاحن وهم وقوف بلا عمل . وسمع كثيرون يصيحون قائلين : « الى الامام » فقال الامبراطور : « ما هذا ان صاحب هذا الصوت ولا جرم فنى لم يثبت عذاره بعد وهو يبتغي أن يجري في ضميمه ما يجب علي أن أفعله فلينتظر ريثما يتولى القيادة في ثلاثين معركة منظمة وحينئذ يتمكن من الدعوى بأن يمدني بأرائه » . وكانوا في واقع الحال من المتطوعين الذين كانت حماسهم تجعل مصطبرهم يعيل لاطهار مكنونات شجاعته .

« وفي مثل هذه الموقعة الهائلة التي فقد فيها العدو جميع قواده على التقريب لا نلتقى مندوحة عن اسداء الشكر للعناية الالهية التي حفظت جيشنا فلم يقتل أو يجرح منه أحد من أصحاب المسكينة العالية فيه . أما المارشال لان فإنه لمست صدره قذيفة بندقية من دون أن تجرحه ونزعت قبعة المارشال دافو عن رأسه وأصابت ملابسه رصاصات عديدة من العدو . . »

وكان بين الاسرى في ذلك اليوم ستة آلاف سكسوني وأكثر من ثلاث مئة ضابط . وكان نابوليون خبيراً في الوسائل التي يمكنه الاستفادة منها لفصل الامة السكسونية عن الشعب البروسياني ولاستماله حليف له على نهر الالب لمناجزة حكومة برلين ومقارعها فأمر بأولئك الاسرى أن يعرضوا أمامه ووعدهم بأن يعيدهم الى مواطنهم ان هم عاهدوه على عدم العودة الى منازلة فرنسا فيما بعد . وكان يقول لهم : « ان محل السكسونيين مفرز في محالفة الرين وان فرنسا هي المحامية الطبيعية للساكس من مظالم بروسيا ولا بد من وضع حد لهذه المظالم . فالقارة الاوربية محتاجة الى السلام وهذا السلام لا ندحه عن وجوده في كل حال » ولو قضي بسقوط عدة عروش في سبيله .

وأدرك السكسونيون مرمى ذلك الكلام فواثقوه على تقديم الضمان المطلوب منهم وعادوا جميعهم الى منازلهم مصحوبين بنشرة وجهها الامبراطور الى وطنيهم .

وتلا معركة ايانا على الاثر الاستيلاء على أرفورت فهذه سلت في ١٦ منه وأسر فيها البرنس دورانج والفيلد مارشال مولندرف .

وطلب ملك بروسيا هدنة في اليوم عينه فنبد نابوليون طلبه بيد ان الجنرال كلاركروث الذي ضايقه المارشال سولت دخل عليه الخوف من السقوط في أيدي أعدائه مع عشرة آلاف مقاتل كان يقودهم وكان معهم ملك بروسيا ذاته فطلب توقيف رحي القتال وربما كان الامبراطور قد منحه سؤاله إلا أن المارشال سولت لم يشأ ان يوافق على طلبه وقال له انه من المحال ان يأتي نابوليون مثل هذا الخطأ وانه لا يصدق وقوع مثل هذه الهدنة إلا حين تبلغه بطريقة رسمية فدنا حينئذ القائد البروسياني من طلائع الفرنسيين ليفاوض المارشال عن كتب مستسلماً الى كرم أخلاقه وبعبارة أخرى الى شفقة الظافر

فأجاب الجندي الفرنسي : « يا حضرة الجنرال انهم يتصرفون في مدة طويلة معنا على هذا الوجه وحين يغلبون على أمرهم يلتجئون الى مكارم أخلاقنا ثم انهم لا يلبثون ان يذهلوا عن ذلك بعد المروءة التي تعودنا اظهارها . فبعد معركة استرازن منح الامبراطور الجيش الروسي هدنة تخلصت هذه الهدنة ذلك الجيش فانظروا كيف يتصرف الروس الآن بأعمال لاتليق بهم . . . اطرحوا السلاح وحينئذ انتظر أوامر الامبراطور فاعمل بموجها : »

وعاد الجنرال البروسياني بالخزي واستأنف المارشال سولت مطاردة العدو بشدة أياماً فوصل في ٢٢ منه الى أسوار مغدبورغ . ولم يكن البروسيانيون يدركون شيئاً من الغاية المقصودة بذلك السير السريع والعجلة في الحركات التي كانت تجعل شملهم يتمزق في أثناء إدهارهم وهذا ما جعل الامبراطور نابوليون يقول في نشرته الرابعة عشرة :

« ان هؤلاء القوم كانوا ولا ريب متعودين بالحركات الحربية التي كانوا يأتونها في حرب السنوات السبع وكانوا يريدون ان يطلبوا مهلة ثلاثة أيام لدفن موتاهم الأجاب الامبراطور : افتكروا بالاحياء ودعونا نحن نهم بدفن الأموات وهذا فلا أمر لا يلزمه مهلة . »

وبينا المارشال سولت يطارد العدو في ناحية مغدبورغ ويحمله خسائر متواصلة في هذه المطاردة كان برنادوت يبطش في هال بجيش الاحتياط البروسياني السائر

تحت راية أمير ورتمبرجي . واجتاز الامبراطور ساحة القتال في روزباخ بعد هذا الانتصار فأمر بأن ينقل الى باريس العمود المنصب فيها .

وحدثت موقعة هال في ١٧ منه واستولى المارشال دافو على ليزنيك في

١٨ منه وكانت طريق مغدبورغ مسدودة في وجه البروسيين بفيلقي سولت ومورات في ٢١ منه فلم يبق حيلت لبق من جيش البروسيين إلا اللباز بالفرار . وقدم الى الامبراطور نابوليون برنسويك المشهور عدو فرنسا القديم وصاحب النشرة التي أذيعت سنة ١٧٩٢ فوضع بلاده تحت حمايته . وهو حظ غريب لقائد الارسطراطية الاوربية الاول المناهض للفتنة الفرنسية الكبرى . فأصبح الآن معزراً الجبين أمام ذلك الشعب وقد كان يهدده من أربع عشرة سنة بوقاحة وفظاظة . وكان يخاف على قصوره ولا سيما على مسكنه الخاص من الحديد والنار اللذين استنجد بقوتهما المتلفة لتدمير عاصمة فرنسا وسائر المدن والبلدان الفرنسية . وخاف برنسويك ان يقابل ما أتاه من الشر بمثلته فالتبس بتدليل معاملة الجندي الفرنسي له بالحسن بعد ما كان قد علل النفس بأن يصيب انتصاراً حيناً عليه فجاء وهو حامل نشرته بيده وجرواً ان يطلب من ذلك البطل وارث جمهوري سنة ١٧٩٢ وممثلهم ان يعامله بالرفق وان يمد فوقه لواء حمايته ويصونه ممن يعتمد ايقاع الأذى به . ما أجل ذلك الحين للفتنة المنتصرة فان العناية ذاتها ساقط اليها ذليلاً ومتوسلاً أقدم أعدائها وأصلبهم عوداً وأشدهم صرامة وأكثرهم عناداً . وقد تمكنت الفتنة من معاقبة المتعجرفين واطهار تفوقهم بتساهلها وصفحتها لأن من يتكلم ويفعل باسمها كان نابوليون بوناپرت .

وقال الامبراطور لسفير الدوق : « لو كنت أهدم مدينة برنسويك ولا أبقى فيها حجراً على حجر ماذا كان يقول أميركم ؟ أولا تخولني شريعة العين بالعين والسن بالسن أن أفعل ببرنسويك ما كان يبتغي فعله بعاصمتي ان التبجح بقصد تدمير المدن يدل على الحماسة وأما إرادة نزع الشرف من جيش كامل من الشجعان والاقتراح عليه أن يفادر ألمانيا مبتعداً عنها مراحل عديدة بناء على اخطار الجيش البروسياني فانه يشق على الأجيال الالية تصديقه . فلم يكن ينبغي لدوق برنسويك أن يوجه اليها مثل هذه الاهانة . وحين تشيب ناصية الانسان

تحت السلاح بلزمه أن يحترم الشرف العسكري . وفضلا عن ذلك ان هذا القائد لم يتيسر له أن يحرز في سهول الشمبانيا الحق بأن يعامل الاعلام الفرنسية بمثل هذا الاحتقار

وكرر نابوليون بحدة عظيمة مرات متوالية هذا الكلام : « ان هدم مساكن الشعب الآمن وتدميرها جريمة يمكن تعويضها بالمال مع كروور الزمان ولكن إلحاق العار بالجيش والرغبة في هربه من ألمانيا أمام الراية البروسيانة ذل يستطيع أن يركب مركبه من يشيربه دون سواه »

على أن بلاد دوق برنسيك بقيت تحت حماية حقوق الامم ووصل الامبراطور الى بتسدام في ٢٤ منه وتفقد قصر صان سوسي في مساء اليوم عينه فوجد موقعه وترتيبه بالغين غاية الجمال . ولبت هنيئة من الزمان وهو مفرق الفكر في غرفة فريدريك الكبير المفروشة بنفس الرياش الذي كانت مفروشة به عند وفاته .

ولما كان من الغد زار نابوليون ضريح فريدريك بعد ما عرض مشاة الحرس الامبراطوري المتولي قيادتهم المارشال ليفيفر . ويذكر في الثمرة الثامنة عشر أن رفات ذلك الرجل العظيم يضمه نعش من الخشب مغشى بالنحاس وموضوع في ضريح خال من الزينة والاعلام ومن كل ميزة تدبر على النهي ذكر أعمال ذلك الداهية الخطيرة .

وأهدى الامبراطور الى قصر الانفاليد بباريس سيف فريدريك ونشان النسر الأسود الذي كان يتقلده ومنطقته والاعلام التي كان حرسه يحملونها في حرب السنوات السبع . ومن المحقق أن عجزه جيش هانوفر الطاعنين في السن سيتلقون بالاحترام الممزوج بالخشوع كل ما كان يخص ذلك القائد الكبير المعتبر من أشهر القواد الذين يحفظ التاريخ ذكرهم . ولما رأى نابوليون أن الحكومة البروسيانة لم تكن قد افتركت بأن تضع تلك الذخائر الثمينة في مكان حصين لاتصل اليه أيدي الغزاة الفاتحين صاح بصوت جهوري وهو يشير بيده الى حسام ذلك القائد العظيم : « اني أفضل هذا على عشرين مليوناً من الفرنكات »

الفصل التاسع

دخول نابوليون برلين - اقامته في هذه العاصمة - حصار

القارة الاوربية - توقيف رحي القتال - رسالة الى

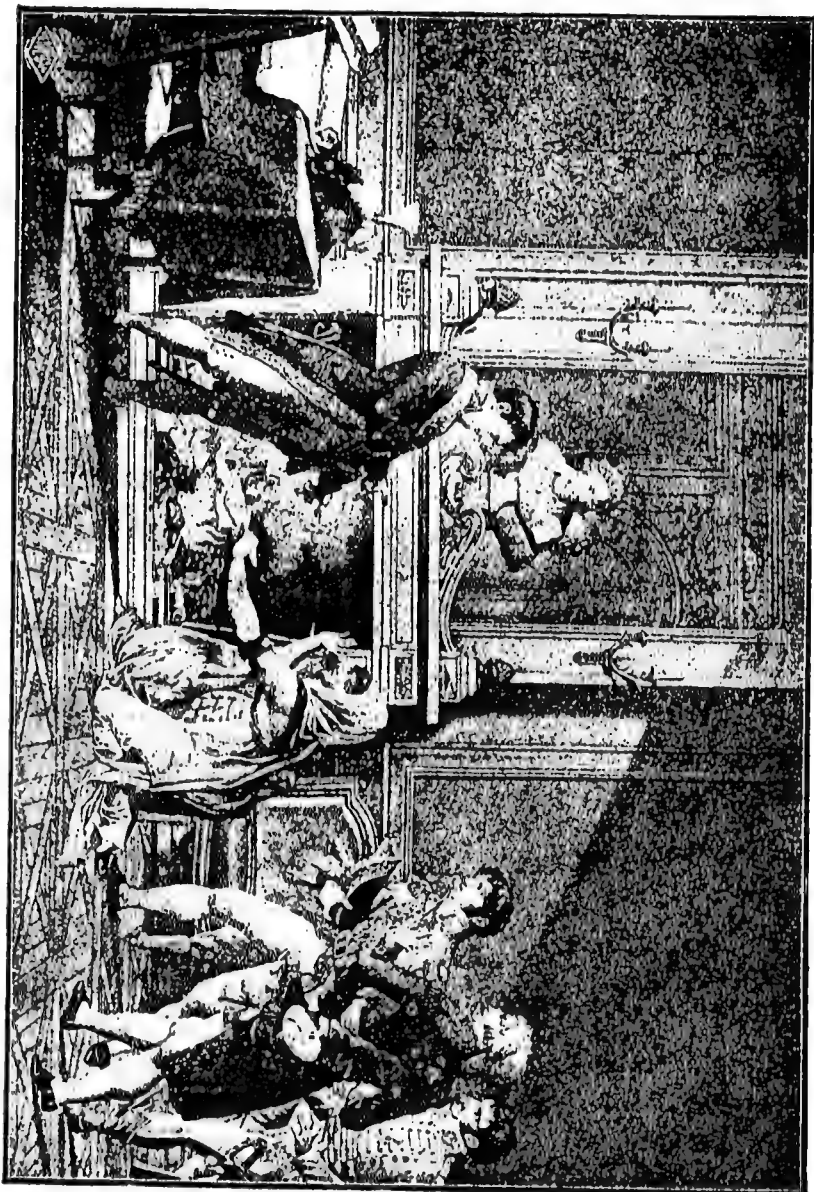
مجلس الشيوخ - تجنيد ثمانين الف مقاتل - نشرة

بوزن - نصب المدلين

ودخل نابوليون باحتفال عظيم مدينة برلين من باب شارلوتنبورغ الفخيم في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٦ بعد سقوط فيينا باقل من سنة وكان يحيط به المارشالية برتيه ودافو وأوجرو ودوروك مارشال قصره الاكبر وكولانكور كبير حجابيه . وكان يسير بين فرسان الحرس على طريق اصطف على كل جانب من جانبيه رجال فرقة ناسوتي كأنهم في الحرب . وافتتح السير المارشال ليفيغر في مقدمة مشاة الحرس . وخف سكان مدينة برلين زرافات الى لقاء الظافر فاستقبلوه بجميع محالي الاعجاب وضروب الاحترام وقدمت البلدية مفاتيح العاصمة الى الامبراطور على يد الجنرال هولن قائد الموقع

وكان أول أمر اهتم به الامبراطور تأليف مجلس بلدي من ستين عضواً فوض انتخابهم الى ألفي شخص من أغنى سكان المدينة . وعاد المجلس البلدي الى المشول في حضرته يتقدمه الأمير دتزلد وقد قبل هذا تولي شؤون الحكومة في برلين باسم الفرنسيين وظل يتولى المفاوضات سراً مع ملك بروسيا ليوقفه على جميع حركات الجيش المظفر . فقال نابوليون لهذا الامير : « اغرب عن وجهي فلست محتاجا اليك واعتزل في أراضيك . » وبعد قليل من الحين بقي القبض على الامير دتزلد وفوض أمره الى مجلس حربي

ولما علمت زوجته بما جرى وكانت ابنة المسيودي شولنبورغ تولاهها بأس شديد فأوحى اليها عقلها وناجتها حباؤها بأن تلتجئ الى مرجحة نابوليون . وقد شجعها دوروك على هذا الامر وسهل لها سبيل الوصول الى الامبراطور . فجاءت الى القصر وانطرحت على قدمي نابوليون وتوسلت اليه بأن يعفو عن



مرحمة نابوليون
البرنيس دارفله تحرق رسالة زوجها لكي لا يبقى شيء يشجبه وقد فعلت ذلك بأشارة من نابوليون وبرضاه

زوجها قائلة انها تزعم أنهم لم يكونوا يتعقبونه الا نكايه بالوزير شولنبورغ أحد مدبري تلك الحرب . فأزال نابوليون غرورها بقوله لها ان المسيدون فلد كان يرسل ملك بروسيا وانه لم يكن قد خطب مودة الفرنسيين ومنحهم الثقة به الا ليخونهم . فولدت عقيلة دتزلد زاعمة أن زوجها بريء مما نسب اليه وأصرت على الدعوى بأنه موشى به . فقال لها الامبراطور : « أولا تعرفين خط زوجك فهاءنذا أطلعك عليه وأترك لك الحكم في ذلك . » وفي الحال أمر باحضار الرسالة التي وقعت في أيديهم وناولها الى الاميرة وكانت هي في الشهر الثامن من حملها بحيث أن التأثر الذي كانت تشعر به عند قراءتها كل كلمة من الرسالة المثبته جريمة بعلمها كان يسبب لها اغماء متواصل لا تفريق منه الا لتنتجب انتحاباً شديداً ، فتأثر نابوليون من رؤيته اغتمام الاميرة وقال لها : « ان هذه الرسالة في قبضتك فاطرحيها في النار واذا أتلقت هذه الورقة لم يبق عندي من دليل استند اليه في استصدار الحكم على زوجك . » وكان هذا المشهد قد جرى أمام موقد تتأحج فيه النار فبادرت الاميرة دتزلد الى انقاذ بعلمها بالقاء رسالته في اللهب فتلقى المارشال برتية على الاثر أمراً باخلاء سبيل الامير دتزلد . وقد أساء الامبراطور الى ملكة بروسيا في احدى زثراته بقوله :

« ان البروسيانين يشكون من الامبراطور الاسكندر ناسيين اليه جميع مصائبهم فان ما طراً من التغير من ذلك الحين في فكر الملكة وقد كانت امرأة ذات حياء وخفر تعنى بأموال بيتها الداخلية فأصبحت ميالة الى الضوضاء والقتال أثار حركة لجائية فيها فأرادت أن يكون لها فرقة وأن تشهد المجلس الحربي وقد دبرت شؤون المملكة تديراً جعلها في أيام قليلة تسوقها الى شفير الهاوية » ولما قرأت الامبراطورة جوزفين هذه النشرة المتضمنة كلاما جارحا بحق ملكة حسناء في عنفوان العمر تأثرت تأثراً شديداً وأرسلت الى قرينها كتاباً أودعته ملاحظاتها بكل حرية في هذا الصدد وأنحت عليه باللائمة لأنه كان يسر بأن يغلف في الكلام للنساء فأجابها نابوليون بما يأتي :

« انتهى الى كتابك الذي تعنفيني فيه على اساءتي بالقول الى النساء أجل اني أكره فوق كل شيء النساء صاحبات الدسائس لتعودي رؤية بعض النساء لفاضلات اللطيفات المؤاتييات : فهؤلاء هن اللواتي أحبن . وان كن هن اللواتي

أفسدن علي أمري فلست أنا مخطئاً وإنما أنت هي المخطئة في ذلك . وعلاوة على هذا ترين اني بالغت في اللطف نحو سيدة وهي عقيلة دزفند التي باحت بما انطوت عليه من رقة الاخلاق وجودة الطباع . فحين أريتها كتاب قرينها قالت لي وهي تلتصّب بتأثر وسذاجة : « هذا هو خطه بعينه . » فكان كلامها يخترق أعماق النفس وقد أثر بي تأثيراً شديداً حينئذ قلت لها :

« حسناً قلت يا حضرة السيدة فاطرحي هذا المكتوب في النار فلا تعود لي مقدرة على استصدار الحكم على بعلك . » فأحرقت المكتوب وأبرقت أساور جبينها وقد أصبح زوجها ناعم البال من ذلك الحين ولو تأخرت ساعتين عن الجيء الي لسان قد قضي عليه . فترين والحالة هذه اني أحب النساء الفضالات البسيطات القلب المشهورات بالالطف وما ذلك إلا لانهن على صورتك ومثالك . »

وفي غد اليوم الذي دخل فيه نابوليون مدينة برلين استقبل سفراء بافاريا وأسبانيا والبرتغال والباب العالي واستقبل أيضاً في اليوم عينه رجال الدين الممثلين للشيع البروتستانتية المختلفة ومجالس العدلية وقد قدمها له المستشار . وفاوض عدة قضاة في أمور شتى تتعلق بتنظيم العدلية .

وأصدر نابوليون في أثناء اقامته في برلين الامر المشهور القاضي باقامة الحصار على الجزر البريطانية ومنع الشعوب المتألفة منها الامبراطورية الفرنسية وحلفاؤها عن تعاطي التجارة ومزاولة العلاقات مع تلك الجزر وقد كان هذا العمل الذي اعتبره بعضهم مخالفاً للمعقول ولم ينسبوا صدوره بوجه الاجمال الا للبغضاء التي كانت قد أعمت بصيرة العاهل الفرنسي ناشئاً عن اصرار الحكومة البريطانية على تحريش دول القارة الاوربية تحريشاً متواصلاً على فرنسا وكان نتيجة الدسائس والغدر والمكايد والعداوة والاعتداء الى غير ذلك من الامور المختلفة التي كانت الارسطقراطية البريطانية تأتينا المناصب الديمقراطية الفرنسية من سنة ١٧٩٢ وكان ذلك الامر جواب الثورة الظافرة للسخط الملكي الذي استهدفت لنباله وهي في المهد حين كانوا يستثيرون عليها جميع أوروبا وحين كان رجال الحكومة البريطانية يزعمون أنها أحدثت فراغاً فيها . ولما كان برك وبت اللذان شاءا عزل فرنسا عن العالم المتمدن لا يزالان مسموعين الكلمة بواسطة مريديهما وتلامذتهما في مجالس لندرة وكانا يجعلان افكارهما

سائدة فيها أهملت فرنسا مقابلة عملهما هذا بالمثل واقتصرت على عزل بريطانيا العظمى بقدر الامكان في وسط البحار وقد كان من المقضي أن يحصر الحصار الذي هددوا به الروح الثوري بالتضييق عليه مدة خمس عشرة سنة في نوبته ما يضاد الثورة في الاوقيانوس . وهل يصح ان لا يكون هذا الحصار اذا نظر اليه من جهة المصالح المادية سببا لغير المضرة عند شعوب القارة الاوربية وأن يكون له بوجه الاجمال في أوروبا جميع النتائج الوخيمة المنسوبة اليه وقد كان سببا ولا مرأى لانتقالات شتى في وجوه التجارة البحرية واخضع للتقير الموقت شعوبا لم يكن في وسع التهريب أن يقدم لها حاجاتها أو كاف ارتفاع الاسعار الباهظ يجعلها تمرض عن شراء الحاصلات المجلوبة من الطواريء ولكن ماخلا كون هذه الحالة وقتيا وكون الحصار وان لم يكن مشدداً لم يكن له من التأثير الادبي ما كان الامبراطور يتوقعه منه ولم تكن الصناعة الاوربية ولا مشاحة متأثرة منه قط وكانت فرنسا مثلاً مدينة للرسوم السامي الصادر عن برلين بايجاد صناعة جديدة عظيمة الاهمية وهي صناعة السكر الوطني على أن هذه النتيجة السكبيرة للمستقبل ولو لم يكن ثمة من نتيجة غيرها كان من حقها أن تسكفي لسكي تصير الاجيال الآتية متساهلة نحو نابوليون من جراء العذابات الوقتية التي جعلت طريقته الجيل المعاصر يحتملها وهذا ما قاله نابوليون في هذا الصدد : « كنت منفرداً برأيي في القارة وقد قضت علي الحال في الوقت الحاضر بأن ألقأ الى العنف في كل مكان فصار القوم يفهموني في آخر الامر فالشجرة أخرجت أثمارها والزمان يكفيننا مؤونة الباقي .

« ولو لم أهو عن متن العرش لكننت قد غيرت وجه التجارة وطريق الصناعة وجعلت السكر والنيل يتبلهان عندنا . ولكننت أيضاً قد بلدت القطن وكثيراً من الاشياء الاخرى ولسكانوا قد أبصروني أنقل الطواريء انهم ظلوا مصرين على الضن علينا بقسم منها . »

وبينا الامبراطور يهتم في برلين بمصادرة مسببي الحرب وتهيأ لاجراج بريطانيا العظمى من صف الحق العام ليمقاتلها مقاتلة الاكفاء ويعاقبها على خرقها لحقوق الامم خرقاً متواصلاً لم يكن نواب نابوليون يتركون العدو يقر له قرار وكلانوا يتمقبون فلول الجيش البروسياني في كل ناحية فاستولى مورات على

برنزلو في ٢٨ أكتوبر وأجبر البرنس دي هوهنلوه على الاستسلام مع جيشه وسقط في الغد حصن بستتين في قبضة الجنرال لاسال قائد ميمنة الفرندوق دي برغ أما الجنرال ميلهوقائد الميسرة فانه أكره ستة آلاف جندي من الاعداء على طرح السلاح والاستسلام .

وألقت كوستران مقاليدها الى المارشال دافو في ٢ نوفمبر وفتح مرتبه في ذلك الحين ولايات هس وهنبورغ ونزع شعار البرنس دورانج وشعار الدوق في فولد وبرنسويك وجاء في النشرة الرابعة والعشرين مايلى :

« ان هذين الاميرين لن يملكا أبداً فهما أصل هذه المحالفة الجديدة . »

وكان القوز الباهر ينتظر الفرنسيين أمام أسوار لوبك وفي شوارعها والتقى مورات وسولت وبرنادوت في ٦ نوفمبر أمام تلك المدينة بعد ما أجروه من البراعة في حركاتهم المتفق عليها وكان بلوخر المشهور قد حشد فيها ثمانية آلاف المملكة البروسيانية وهجم الفرنسيون على المدينة فدخلها برنادوت من باب لاتفاف وسولت من باب مولن

وكانت المقاومة عنيفة جداً وقد استمر القتال مدة طويلة في الشوارع الا أن بلوخر وأمير برنسويك ألس قصدا في صباح اليوم السابع منه الظافرين ٣٣ وممهم عشرة من قواد البروسيانين وخمس مئة وثمانية عشر ضابطاً من ضباطهم وأكثر من عشرين ألف مقاتل منهم وطلبوا الاستسلام اليهم فروا في الحال أمام الجيش الفرنسي :

وأصاب المواقع الحربية الأخرى في أيام قليلة ما أصاب هذا الموقع ففتحت مغدبورغ أبوابها في ٨ منه فلقى الفرنسيون فيها ثمان مئة مدفع وحامية مؤلفة من ستة عشر ألفاً من المقاومة . ووجه الامبراطور أيضاً فيلقا الى القستول لتعقب ملك بروسيا الفار بعشرة آلاف أو اثني عشر ألف رجل كانوا قد بقوا معه ولازموه ملازمة ظله له .

ودخل المارشال دافو بوزن في ١٠ منه وكان أهلها بولونيين أكثر منهم بروسانيين فاكرموا وفادة الفرنسيين وأجلوا مشواهم وجاء في النشرة الثانية والثلاثين الصادرة في ١٦ منه انه بعد سقوط مغدبورغ وحادثة لوبك انتهت .

بته الحرب مع روسيا وتم في شارلوتنبورغ في هذا اليوم عينه التوقيع على
توقيف رحي القتال .

وحينئذ اهتم الامبراطور بالمرسوم السامي الذي أصدره عن حصار
الجزر البريطانية على ما سبق لنا بيانه .

ان روسيا التي ضربت بسرعة نحاكي سرعة انقضا الصاعقة لم تبق من
ذلك الحين معتبرة دولة سياسية أما بريطانيا العظمى التي دفعتها الى هذه الحرب
فانها ظلت سليمة . وقد رمى نابوليون الى إيصال الاذى اليها وعزلها عن أوروبا
وكانت هي تغربها وتستغويها بالتناوب باحتكاكها التجارة ونصب الحبال
السياسية . أجل ان الطريقة التي قصد اليها نابوليون تخرج مبادئ القنن
الحديث وقد شعر هو بذلك وأعلنه على رؤوس الاشهاد الا أنه أورد الشريعة
وحق التبادل شاهدين على براءته من تبعة هذا الامر الوخيمة .

ولما طلب الامبراطور من مجلس الشيوخ تقرير تجميع قوة جديدة بسط
له التداير العظيمة منوها بالمبادئ التي اتخذها دستوراً عاماً للعمل فقال :
« ان اعتمادنا الشديد بعد كل حرب من الحروب الثلاث الاولى كان سبباً
للحرب التي تلها ولذلك اضطررنا الى مناصبة محالفة رابعة بعد تمزق شمل
المحالفة الثالثة بتسعة أشهر وبعد الانتصارات الباهرة التي مننت علينا بها العناية
وكان يجب أن تضمن الراحة مدة طويلة في القارة . . . وقد اتخذنا في هذا الموقف
قاعدة ثابتة للعمل احتلال برلين وفرنسوفيا والولايات التي ألقها قوة السلاح
بين ايدينا قبل إبرام أسباب الصالح العام وقبل إرجاع الطوارئ الاسبانيولية
والهولندية والفرنسوية اليها وقبل توطيد أركان الدولة العثمانية وتعزيز
الاستقلال المطلق لهذه السلطنة الواسعة وهو عندي من أهم مصالح شعبنا
المقدسة بلا تردد . وقد وضعنا الحصار على الجزر البريطانية وأمرنا بأن تعامل
معاملة تحالف ميل فؤادنا ولكننا اضطررنا حياً بخير حلفائنا الى مناصبة العدو
العام بالسلاح نفسه الذي كان يقاتلنا به .

« ونحن الآن في زمان خطير يقرر فيه حظ الشعوب وسيظهر الشعب
الفرنسوي انه جدير بالخط الذي يتوقعه فان قرار مجلس الشيوخ الصادر أمرنا ببسطه

لكم والواضع تحت أمركم في الايام الاولى من السنة القرعة العسكرية لسنة ١٨٠٧ ولم يكن يجب في الازمنة العادية أن توضع موضع الاجراء الا في شهر سبتمبر سيبادر الى العمل بموجبه الآباء والابناء على السواء . فهل لنا أفضل من هذا الوقت لدعوة الفرنسيين الشباب الى حمل السلاح وهؤلاء مقضي عليهم بأن يجتازوا للوصول الى راياتهم عواصم أعدائنا وميادين القتال المشهورة بانتصارات من تقدم موهم » .

وقد حقق هذا الطلب تقدم الروس وكان نابوليون يريد أن يخف الى لقاءهم ليباشر حرباً جديدة حالما تفسح له حالة الجو في ذلك . وفصل عن برلين في ٢٥ منه فانتهى في ٢٨ منه الى بوزن . وقد خففت من حدة الجنود رداة الاحوال الجوية والمتاعب وشظف المعيشة . وأزج أعداء فرنسا بعد معارك وانتصارات متوالية الى ما وراء الفستول وكأن زمن الوقوف قد دنا بدلا من التقدم لاشغال مواقد معارك جديدة فان مجلس الشيوخ نفسه المتعود كثرة المجاملة أظهر فكرة الاعتدال في رسالة سيرها الى الامبراطور فأنتهت اليه وهو في برلين الا أن مجلس الشيوخ ومجلس النواب والشعب لم يكونوا يدركون خطورة الاحوال واصرار أوروبا القديمة ومقتضيات الطريقة المقضي على نابوليون انتهاجها لكي يصير أعداء فرنسا الحديثة اللداء غير قادرين على تأليف محالفة جديدة لمناوئتها . وكان الجميع يتمنون السلم ولم يكن هذا الامر يغرب عن علم الامبراطور وكان هذا غاية مبتغاه الا أنه كان يعرف أكثر من غيره المسكان الذي تكون فيه الحرب أجدى نفعا له والشروط التي يكون فيها الصلح مرغوبا فيه وبممكننا . وهذا هو السبب الذي من أجله انقاد الى مداركه العالية ولم يكثر للأراجيف البعيدة أو القريبة الممكن استئثارها ضده فصار توجأ الى بولونيا ليسحق الروس قبل أن يتركهم يفسدون روسيا ويجمعوا شتات حلفائهم المغلوبين ويقللوا عثار آمالهم الواهية . وكان ولا مرية يستهدف بهذا العمل لنبال الشكوى منه بأنه هو الذي أثار دفين الحرب كما عرض ذاته لنفور الناس منه بوضعه الحصار على القارة الاوربية وان لم تكن له من غاية سوى تحرish البريطانيين على وزرائهم المصريين على إذكاء لظى الحرب بالقائه على عواقبهم اعباء التبعية الناجمة عن تلك التدابير الشديدة وكان نابوليون قد قال من زمان طويل ان

الاحوال التي بلغت به الى ذروة السلطة تقتضي الاسراع في قبضه على أزمة هذه السلطة . وكان من طبيعته كرجل داهية كما كان من طبيعته كحاكم أن يظل مستأثراً برأيه وأن ينحو غايته بجرأة غير مبال باستهجان الشعوب التي أخضعها الحق سبحانه وتعالى لدرأه القوية وأن يصمم النية كما قال ميرابو « على توقع عدالة ثابتة من الزمان والايال الآتية دون سواهما » .

واذا أنس من الجيش ميلا الى التوقف حين يكون ذلك الظافر وقد هادنه النصر في معارك متوالية يرى أنه من الملائم التقدم فهل يظن ان هذا الداهية يذعن لجأة لمن ينبغي لهم أن يطيعوا أو امره ؟ كلا فانه تكون له بعكس ذلك فرصة جديدة لظهور تفوقه السائد وغير الممكنة مقاومته . واذا كان بين الجيش افراد لا نقول عنهم أنهم غير راضين عن الحالة الحاضرة بل ميالون الى الراحة فانه ينمش قواهم الواهنة بكلمة واحدة ويصيرهم عديمي الصبر أكثر مما كانوا عليه من قبل للعودة الى مقاتلة أعداء الاسم الفرنسي مقاتلة هائلة ، والى القراء النشرة الآتية :

« عن المعسكر العام في بوزن في ٢ ديسمبر

« أيها الجنود في مثل هذا اليوم من السنة الماضية وفي مثل هذه الساعة كنتم في ميدان الحرب في استرلنز وقد كانت الفرق الروسية المقذوف الذعر على أفئدتها تهرب مقطعة النظام لاثلي على شيء أو كانت تستسلم الى جنودنا المظفرة المحيطة بها . وقد خرجت كلمات الصلح من أفواههم في الغد ولكنها كانت كلمات خداعة غرارة ولم يكادوا ينجون بفضل مكارم أخلاقنا المقام عليها التكبر من نكبات المحالفة الثلاثية حتى أنشأوا محالفة رابعة الا أن حليفهم الذي علقوا آمالهم المهمة بمخطته الحربية لم يبق له من وجود فان مواقعه الحصينة وعواصمه ومخازنه ومساحله وممتين وثمانين راية من راياته وسبع مئة مدفع من مدافعه وخمسة مواقع حربية منيعة سقطت في حيازتنا ولم يقو نهر الاودر والورتا وصحاري بولونيا ورداءة الاحوال الجوية على تثبيط همكم دقيقة من الزمان فقد اقتحمتم كل شيء وتغلبنم على كل شيء وفر كل شيء من وجهكم وقد حالج الروس على غير طائل الدفاع عن عاصمة بولونيا القديمة المشهورة فالنسر الفرنسي يحوم

فوق القستول ويتوهم البولوني الباسل المنكود الحظ عند رؤيته اياكم أنه يرى فيالق سويسكي حائدة من حملتها الشهيرة .

« أيها الجنود نحن لانطرح السلاح الا حين نرى السلام العام قد عزز موقف حلفائنا وضمنه ورد الى تجارتنا سلامتها وطوارها . فقد دوخنا ضفاف الالب والاورد وبنديشيري وممتلكاتنا في الهند ورأس الرجاء الصالح والطواري الاسبانيولية . فن يخول الروس الحق بمسامة الحظ ولا يخوهم الحق بهدم ما بديناه من صروح المقاصد الشاخنة أولسنا نحن وهم جنود استرلنز ؟ »

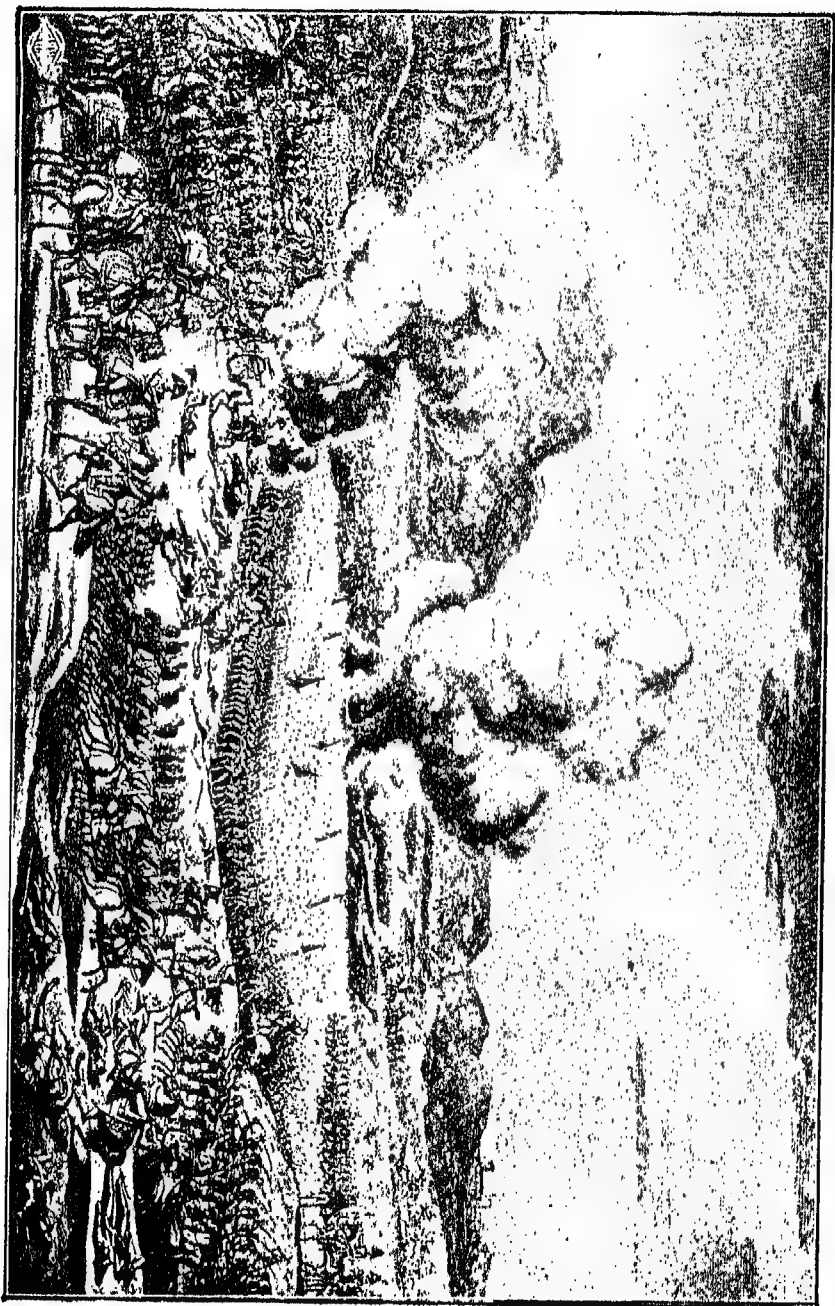
وكان لهذه النشرة تأثير شديد فانه لم يقتصر على جيش القستول بل عم جميع أنحاء المانيا ويؤكد بوريان نفسه هذا الامر . واذا كان روح التمرد قد تلصص في ذلك الحين الى بعض الافراد في الجيش العظيم وكان الميل الى المعارضة قد ساور بعض أعضاء مجلس الشيوخ فكل ذلك لا يعد أمراً مذكوراً لان نابوليون كان بما أوتيته من شدة الصرامة وقوة المعارضة يحبط مساعي خصومه المذيعين عنه أمورا لا غبار عليها من الصحة وأراد الامبراطور قبل استئناف خوض غمار الحرب أن يقيم نصبا يخلد به معجزات الحربين الاخيرتين فاضاف الى النشرة الصادرة في ٢ ديسمبر مرسوماً يحتوي مايلي :

« المادة الاولى — ينصب في محلة المدلين بمدينةنا باريس الفخمة وعلى نفقة الخزينة ونفقتنا الخاصة نصب يخصص للجيش العظيم ويحفر على صدره ما يأتي :
« من الامبراطور نابوليون الى جنود الجيش العظيم »

« المادة الثانية — تحفر في داخل النصب على ألواح من الرخام أسماء جميع الرجال من كل فيلق ومن كل فرقة الذين شهدوا معارك ألم واسترلنز وايانا وعلى ألواح من الذهب الخالص أسماء الذين صرعتهم المنية في ميادين القتال وعلى ألواح من الفضة أسماء الجنود الذين قدمتهم كل مقاطعة على حدة

« المادة الثالثة — تحفر حول الردهة نقوش نائمة تمثل قواد جميع الفرق في الجيش العظيم وأسماءهم الخ . الخ . »

وذكر في المواد الأخر المؤلف منها ذلك المرسوم أنه يجب أن توضع في داخل النصب الاسلاب المأخوذة من العدو في المعركتين الاخيرتين وأن يحتفل في كل سنة بذكرى معركتي استرلنز وايانا .



مركة استرلنز (۲ دسمبر سنه ۱۸۰۵)

الفصل العاشر

حرب بولونيا - صلح تلست

ومكث الامبراطور في بوزن حتى اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر فاستقبل
وفد فرسوفيا المؤلف من غوتا كوفسكي كبير حكام ليطوانيا ومن كبراء النبلاء
البولونيين .

وكان الجيش الفرنسي يوالي التقدم وبعد مادحر الروس في وقعة أولى
عند لوز واحتل فرسوفيا وأجبر سكان طورغو على التسليم عبر نهر الفستول
ووصل في ٦ منه الى طورن حيث لقي المارشال ناي بعض البروسيانين ففرقهم
طرائق ومزقهم حزائى ويدكرنا عبور هذا النهر بمحادث مشهور وهو أن المركب
الذي كان يقل طلائع الجيش الفرنسي نشب في الجمد واضطر الى الوقوف في
وسط النهر خفف لنجدة فريق من النوتية البولونيين وعالجوا تخليصه من أوهاق
الجمد غير مباينين بيران العدو والحامية المنصبة عليهم . ولما رأى البروسيانيون ان
قدائهم لم تكن لتحول دون تقدم البولونيين لانقاذ الفرنسيين سيروا من
لديهم نوتية لاحباط مساعي البولونيين فاشتبك قتال عنيف كان النوتية من
الجانبين يتلاحمون فيه وكانت نتيجة قذف البروسيانين الى الماء ووصول طلائع
الفرنسيين بالسلامة الى الضفة الفستول المني بفضل مناصرة البولونيين الاشداء لهم .
ووصل الجيش كله بعد أيام الى تلك الضفة وظفر المارشال دافو بفيلق
روسي في ١١ منه بعد ما اجتاز نهزبوغ وعقدت وثيقة مع الساكس في هذا
اليوم فدخل حاكم هذه البلاد في محالفة الرين ومنح لقب ملك وكانت استمالة
بلاد الى الدولة الفرنسية امرا من الامور الخطيرة فان قدمها رسخت من
جاء ذلك على مقربة من أبواب برلين .

ودخل الامبراطور مدينة فرسوفيا في ١٨ منه فالتف عليه حزب ألح عليه
بإعادة مملكة بولونيا فخشي أن يتقيد بأسباب الوعد الصريح وأجابهم أجوبة
بهمة تبقي له ملء الحرية وتتمام الارادة في المستقبل . وهذا ما قاله لراب في هذا
لصدد :

« أفي احب البولونيين وتمعجيني حماسهم وأتمنى أن اصير هذا الشعب مستقلا
ولسكن ذلك ليس بالامر السهل فان أناسا كثيرين اقتسموا فيما بينهم هذه الغنيمة
وهم النمساويون والروس والبروسيان ويون . ومتى اشعلت الذبالة لا يستطيع أحد
أن يعين الحد الذي يقف عنده الحريق فأول أمر يجب علي القيام باعبائه هو
خدمة فرنسا ولا ينبغي لي أن أضحي بها في سبيل بولونيا لئلا يبلغ بنا ذلك الى
مدى بعيد ثم انه يلزمنا أن نركن الى مدبر كل شيء أعني به الوقت فهو يعلمنا
ما يجب علينا أن نفعله » .

وكان الجنرال كامنسكي الذي ساءه تقهقر قواد الروس الآخرين يتقدم في
خلال ذلك الحين بسرعة للقاء الجحافل الفرنسية . فضم اليه بننغزن وبكسودن
واعتبر هذا الانضمام ضمينا للنصر فاحتفل به احتفالا شائعا في قصر سياروك
باقامته زينات باهرة كان الفرنسيون يصيرونها من أعلى أبراج فرسوفيا .

وبرح الامبراطور عاصمة بولونيا القديمة في ٢٣ ديسمبر فاجتاز نهر بوغ علي جسر
مدته فوقه بمدة ساعتين وسير فيلق دافو على الروس فظهر عليهم في كزارنوفو
في معركة ظلت نيرانها مشبوبة حتى جن الظلام ، واستولى الجنرال بي على
حصون الجسر في ضوء القمر . وتم انكسار العدو في الساعة الثانية صباحا ولم تقم
له قاعة بعد ذلك

على أن هذا الانكسار الأول الذي نال كامنسكي لم يكن سوى مقدمة
لانكسارات جديدة نالته في ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ منه في نازيلسك وكرسومب ولوباكين
وغوليمين وبولتسك وقد انهزم الجيش الروسي على أرضها انهزاما ضعيفا
وأباح ذماره بعد ما فقد ثمانين مدفعا وألفا ومئتي مركبة وعشرة آلاف الى اثني
عشر الف رجل . وعلى هذه الصورة تحققت آمال القائد الروسي بعدما تباهى بها
بمعجب وخيلاء في الاحتفالات المقامة في قصر سياروك

وسلمت مدينة برسلو في ٥ يناير سنة ١٨٠٧ وأحرق المحاصرون الدساكر في
ضواحيها فهلك فيها خلق كثير من النساء والاولاد وباتوا فريسة للهب . وقد
امتاز جيروم بوناپرت في هذه الفاجعة بمده يد المساعدة لضحايا الحريق وفضل
الفرنسيون التنازل عن الحق العنيف الذي تخولهم اياه شرائع الحرب على دوس

شرائع الانسانية . فاستقبلوا الفارين وعاملوهم بسخاء بدلا من نهبهم اياهم في
الموضع المحصور الذي تعلوه النار المضطربة في مساكنهم
وعاد الامبراطور الى فرسوفيا في ٢ يناير فاستقبل أصحاب المناصب في المدينة
والسفراء الاجانب ووفداً من لدن مملكة إيطاليا وهدا الى اثاره التنافس بين جنود
محالفة الرين بمكافأته فيلق الورتمبرجيين الذي استولى على غلوغو بإرساله الى ملك
ورتمبرج قسماً من الرايات المأخوذة في ذلك الموقع وعشرة نيساشين من جوقه
الشرف لتوزع على أشجع جنود الفيلق
ووقعت رحى الحرب عشرين يوماً ولكن برنادوت عاد في ٢٥ يناير الى
توريكها في موهرنجيم فهزم الكونت باهين والكونت غاليترن وأسر ثلاث مئة من
رجالهما وجرح وقتل منهم ألفاً ومئتي رجل
وانتهى الى الامبراطور أنه وقعت في القسطنطينية حوادث خطيرة فالروس
واليونان طردوا منها وهدر دم البسيلتي وأعلن السلطان الجهاد على روسيا .
فرأى نابوليون أن عمل الباب العالي هذا لم يكن نتيجة المفاوضات السياسية
فقط بل نتيجة تأثير ماناله من الانتصارات السريعة على دول الاقاليم الشمالية
ونال أمنيته في مفاوضاته لحكومة المعجم لايجاد مشكلات جديدة لروسيا عند
حدودها الآسيوية . وكان نابوليون يدل بالهائه الروس على تلك الصورة وقد
بين خطورة الامر برسالة وجهها الى مجلس الشيوخ وألح فيها بوجوب ضمان
استقلال السلطنة العثمانية وحفظ كيانهما كسد طبيعي في وجه الدولة الروسية
الغازية . وقال نابوليون : « من يستطيع أن يحدد مدة الحرب وعدد المعارك
التي تقتضي مباشرتها يوماً ما لتلافي النكبات الناجمة عن خسارة سلطنة القسطنطينية
اذا تفوق حب الراحة الدنيئة وملاذ تلك المدينة العظيمة على مشورات الحكماء
البعيدي النظر . وسنبقي الى أحفادنا ميراثاً طويلاً من الحروب والمصائب فان
التاج الاغريقي اذا استعاد بهاءه وسؤدده من بحر البلطيك الى البحر المتوسط
جعلنا نبصر في أيامنا هذه عصابات من البربر المتعصبين تشن الغارة على بلادنا
ابتغاء اجتياحها واكتساحها واذا انقضت أوروبا المتمدنة في هذه الحرب المتأخرة
هاج اهلنا الموسوم بسمة الجريمة الاجيال الآتية علينا فتدمرت منا ويحق
لها التذمر وكان ذلك العمل طاراً يسجله التاريخ علينا . » وكانت هذه الرسالة

تدل بصراحة أكثر مما كانت نشرة بوزن تدل على وجوب تدخل مجلس الشيوخ في أمر السلم بحيث كان نابوليون يعتبر ذلك العمل في غير حينه ومما يبعث على إطالة الروية هو أن المليل عينه الذي أبداه أمبراطور الفرنسيين لحفظ كيان الدولة العثمانية أبداه عند توجه الحملة الفرنسية الى مصر بت الشهير رئيس الوزارة البريطانية حين لفظ طمعاً بتعزيز المصلحة البريطانية كلاماً مشابهاً لكلام نابوليون الموجه الى مجلس الشيوخ طمعاً بتعزيز المصلحة الاوربية وطمعاً بخدمة الحضارة العامة

ورفعت الى الامبراطور في أثناء إقامته بفرسوفيا العريضة التالية :

« مولاي

» ان شهادة معموديتي ترتقي الى سنة ١٦٩٠ فبناء عليه يكون لي من العمر الآن مئة وسبع عشرة سنة ولا أزال أذكر معركة فيناو عهد جان سويسكي .
« وكنت أتوهم أن ذلك الامر لا يتكرر أبداً ولكني والحق يقال لم أكن أنتظر قط أن أشاهد عصر الاسكندر

» ان شيخوختي استمطرت علي ديم العواطف من جميع الملوك الذين دانت لهم هذه البلاد وأنا الآن استندي كف نابوليون العظيم فأنا طاعن في السن وغير قادر على مزاولة العمل .

« فعمش يا مولاي صمراً طويلاً نظير عمري أجل ان مجدك في غنى عن ذلك ولكن سعادة الجنس البشري تقتضي هذا الامر .
ناروكي »
وكان ان الامبراطور لما رفع اليه ذلك الشيخ عريضته بادر الى اجابة سؤاله فاجرى عليه رزقا سنوياً قدره مئة دينار ودفع له سلفة عن سنة واحدة .

وزادت أنباء القسطنطينية حنق الامبراطور الاسكندر من دون أن تجعله يميل الى توقيف رحي القتال على ضفاف القسطنول ليوجه قواه الى الدانوب . فاستغنى الفرصة من وصول النجيدات المستقدمة من ملدا فيا وعلل النفس باخراج الفرنسيين من مرا كزم الشتوية والهجوم عليهم والتنكيل بهم .

وسر نابوليون بمشاهدته ما كان القيصر ينوي اجراءه فأمر برنادوت بأن يسهل له ذلك الامر بالنسحابه أمام الجيش الروسي رجاء أن يجذبه الى اسفل نهر

الفتستول . ثم انه برح فرسوفيا ووافي مورات في فيلنبرغ في مساء اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير .

ولما كان من الغد خف الجيش الفرنسي الى لقاء الروس فادرهم في باسنيهم فاسرعوا الى الانسحاب للاعتصام بمواقع في سكتدرف .

ولما رأى نابوليون انهم مصممون على الاقامة فيها نزل بين الباسارج والال ومعه حرسه والفرسان والفيلقان الثالث والسابع وأصار الى المارشال سولت أن يستولي على جسر برغفريد ليهجم على ميسرة العدو .

على أن بننغزن لما عرف ما لذلك الموقع من الخطورة عهد بالمحافظة على جسر برغفريد الى اثنتي عشرة فرقة من افضل جنوده ولكن جرأتهم خشعت أمام إقدام الفرنسيين وشدة بأسهم وحماستهم فأخذوا الجسر عنوة وهرب الروس بعد ما تركوا في ساحة القتال أربعة مدافع وعدداً كبيراً من القتلى والجرحى . وقد در نابوليون حركات جميع فيالقه رغبة في ضرب العدو ضربة قاضية الا ان الصدفه أوقعت الخلل في قسم من خطته فان الضابط حامل أوامره الى برنادوت سقط في يد العدو فاغتتم بننغزن الفرصة من ذلك الامر وتجنب النخ الذي كان زعيم الجيش الفرنسي قد نصبه له بدهائه وخبرته وسعى المجره اليه لينشب فيه ويصبح في قبضته .

على أن موقعة برغفريد التي دارت في ٣ فبراير لم تكن مع مواقع وتردرف وديان وهوف وبروسيك ايلو التي نشبت في ٤ و٥ و٦ فبراير سوى تمهيد لمركبة تعد في تاريخ فرنسا الحربي من اعظم المعارك الهائلة التي جرت فيها الدماء جداول وأنهارا فلم تسقط كنيسة ايلو وجبانها وكان الروس يدافعون عنهما مدافعة الاسود الا في ٦ منه في الساعة العاشرة مساء بعد قتال عنيف من كلا الجانبين وياشر بننغزن الهجوم في ٧ منه عند أفراط الصباح باطلاق المدافع اطلاقات متواصلا على مدينة ايلو ولم يلبث القتال أن عم على طول الخط فألحقت المدفعية الفرنسية في مفتتح الامر اضرارا جسيمة بالعدو الذي كان تافو قد دهمه من الوراء حين كان أوجرو موشكا أن ينقض على وسطه الا ان الثلج الكثيف الذي سقط وجعل الجيشين في ظلام دامس خلص الروس من انكسار تام فضل أوجرو متحيراً بين ميمنة العدو ووسطه ولولا شدة صريمة الامبراطور ومرعة خاطره

وخفة حركة مورات وقوة بأسه لما كان اوجرو قد نجح من الورطة التي نشب فيها . فدار الفرسان المعضودون بالحرس حول فرقة سان هيلار وسقطوا جثاة على العدو جارفين في طريقهم كل من تصدى لهم أو قام عقبة في وجههم فاجتازوا مرات متوالية الجيش الروسي قاذفين امامهم الذعر والردى . وكان المارشال دافو والمارشال نامي في ذلك الحين يتقدمان أحدهما من مؤخرة الروس والآخر من ميسرتهم . ولما شاهد بننغون مؤخرته في خطر عمد في الساعة الثامنة مساء الى استرجاع قرية شنادتني لكي يتخذها موقعا يلجأ اليه عند انسحابه الا أن الفرسان الروس المفوضة اليهم تلك المهمة المحفوفة بالمثالف أخفقوا في مساهم كل الاخفاق وانهمزموا شر هزيمة وانسحب الجيش الروسي في الغد الى ماوراء نهر بريجل والفرسان يتعقبونه بشدة تاركا في ساحة الحرب ستة عشر مدفعا وكثيراً من الجرحى .

وكانت في يوم ايلو محزنة هائلة وقد جاء في النشرة الثامنة والخمسين ان عدد القتلى بلغ ١٩٠٠ وعدد الجرحى ٥٧٠٠ من الفرنسيين . أما الروس فان عدد قتلاهم بلغ ٧٠٠٠ الا أن بعض المؤرخين يزعم ان هذا العدد ليس مضبوطا ويقول ان عدد القتلى بلغ ٦٠٠٠ وعدد الجرحى ٢٠٠٠٠ من الروس . أما الفرنسيون فان قتلاهم بلغ عددهم ٣٠٠٠ وجرحاهم ١٥٠٠٠ وكيفما كان الامر فقد كانت تلك المعركة هائلة جداً لان الامبراطور ذكر في الرسائل الثلاث التي وجهها الى الامبراطورة جوزفين في خلال شهر فبراير أسفه الشديد على ماوقع في تلك المعركة ومن جملة ما قاله :

« نشبت أمس معركة كبيرة انتصرت فيها ولكنني فقدت فيها خلقا كثيراً أما خسارة العدو فهمما عظمت لاتعزيني ... »

وقال في كتاب آخر : « ان هذه البلاد مغطاة بالقتلى والجرحى وليس هو القسم الجليل في الحرب فالمرء يتمذب والنفس تضيق عند رؤية هذه الضحايا الكثيرة ... »

ولما لم يكن أعداء فرنسا يندحرون اندحارا هيناً أو ينكسرون انكساراتا ما كانوا يتعمدون أن يتبجحوا بأنهم منتصرون . وقد كان من الطبيعي والحالة هذه بان معركة ايلو التي كانت خسارة الفرنسيين لاتقل فيها عن خسارة أعدائهم

لأن تكون فاصلة بحيث تنتهي معها الحرب وتدعو الى وضع شروط للصالح ولذلك لم تمض ثمانية أيام حتى عادت نيران الوغى الى الاستعار فزحف الجنرال اسن بخمسة وعشرين الف مقاتل في ١٦ فبراير الى أستروولنسكا فظفر به الفيلق الخامس الفرنسي المتولي قيادته الجنرال سافاري والمعضود في هذا الانتصار بالقواد اودينو وسوشه وغاران . وقتل في هذه الموقعة ليجل سوفاروف المشهور .

وأذاع الامبراطور في اليوم عينه وكان باقياً في بروسيك ايلو نشرة ختمت بهذه الكلمات : « لما كانت جميع مساعي العدو قد حطمت بسببنا أو شكنا أن ندنو من القستول ونعود الى مرا كزنا . فن يستجريء على اطلاق راحتنا يعرض أنامله ندماً وسواء كنا ما وراء القستول أو وراء الدنوب في أبان زهرير الشتاء أو في مبتدأ فصل الخريف نظل دائماً جنوداً فرنسويين وجنوداً فرنسويين من الجيش العظيم »

ولم يكن يفوت نابوليون قط أن يعنى بذاته باكرام ذكرى الشجعان فامر بالمدايع المأخوذة في ايلو أن نصب ويصنع منها تمثال للجنرال دوتبول قائد المدرعين وقد نزلت به صرعة الموت على أثر الجراح التي أصابته في ذلك اليوم العصيب .

وأظهر نابوليون ارتياحه الى تصرف الجنرال سافاري في أستروولنسكا فدعا اليه وقربه منه . وفوضت قيادة الفيلق الخامس الى ماسينا وجعل محل أركان حرب الامبراطور في فنكستن في ٢٥ ابريل بعد معارك عنيفة جرت الشهرة البعيدة لبعض قرى حقيرة كانت مجهولة حتى ذلك العهد وهي بتروالد وغستاد وليغنو الخ من دون أن تأتى بادنى نتيجة خطيرة للحرب وأصدر عنه نابوليون مرسوماً يتعلق بالملاعب التمثيل في باريس فقسمها الى قسمين الملاعب الكبرى وملاعب الدرجة الثانية

الا أن الجيش الفرنسي كان من فرط ما أصابه من النصر والفتح قد ضعف من جراءه والى المعارك الشديدة عليه واتساع البلدان التي غزاها ودوخها وعدد المواقع التي فتحها واحتلها فاقتضت الحال تجهيز جنود جديد فطلب الامبراطور هذا الامر وهذا ما جعل الناس يقولون ان اعلان الفوز العظيم لم يكن سوى خدعة لتجهيز جيش جديد على أن سياقة الحوادث كانت تجعل هذا الطلب أمراً لا مندوحة عنه .

ولما كانت الدول المعاديات مصرات مع ما أصابهن من النشل المتوالي على مواصلة القتال ورفض الصلح بالشروط الوحيدة التي تراها فرنسا حافظة لكرامتها لم يكن على الظاهر والحالة هذه أن ينبذ بدناءة ثمرة معارك كثيرة ويضع حداً للحرب بتضحيته بمصالحه ومجده وكان نابوليون يمنحهم جميع أنواع التساهل المعقول فبعد ما نصب علمه المظفر في برلين وفرسوفيا اقترح وهو على ضفاف الفستول الشروط نفسها التي اقترحها قبل استيرائه زناد الحرب . واليك شيئاً مما كتبه في الرسالة التي أمضاها عن أستروود الى مجلس الشيوخ بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٠٧ « نحن مستعدون لعقد الصلح مع روسيا بالشروط عينها التي وقعها مندوبها والتي كانت بريطانيا العظمى بدسائسها وسيطرتها قد حملتها على نبذها ونحن مستعدون لاعادة الراحة ونضارة العيش الى الثمانية الملايين من الاقوام الذين استولت جنودنا على بلادهم والى ملك بروسيا عاصمته . ولكن اذا كانت هذه الدلائل المتعددة عن اعتدالنا والمتجددة غير مرة لا تقوى على معاكسة الاوهام التي تثيرها الاهواء والمطامع في فؤاد بريطانيا العظمى واذا كانت هذه الدولة لا تلقى السلام الا بتخفيض مقام فرنسا والغض من كرامتها فلا يبقى لنا الا الشكوى من ويلات الحرب والتظلم من غوائلها والقاء تبعاتها الوخيمة على هذه الامة التي تغزو احتكارها بدم القارة »

وكان قائماً في وجدان الامبراطور أن اقتراحاته السلمية لا تحل محل القبول الا حين ينزع من أيدي الروسيانيين مدينة دنزيك وهي آخر ملجأ لهم وينال على الروسيين انتصاراً فاصلاً نظير انتصاره في ايانا . وجعل وكده من ذلك الحين الرمي الى هذه الغاية المزدوجة

وأقام الحصار على دنزيك من أوائل شهر مارس ولكن دخلتها من جهة البحر عدة فصائل من الجيوش الروسية وقد تولى الجنرال كلكروث قيادة الحامية في ذلك الموقع والقيت مقاتلة قيادة الجيش المحاصر الى المارشال ليفيفر . وبعد خروج الحامية للقتال على غير جدوى عدة مرات جاء حين خيل لها فيه أنها موشكة أن تنقذ . وجاء الجنرال كامنسكي بنجل الفلد مارشال كامنسكي في ١٥ مايو لنجدة المدينة فحمل على الجيش الفرنسي حملة صادقة ولكن الامبراطور وقف على مقاصده في الحين الملاثم وسير لتعزيز قوة المارشال ليفيفر المارشال

نابوليون وامبراطور النمسا بعد معركة استرلنجر



لان والجنرال أودينو فاندحر الروس اندحارا فاضحا في معركة ويشلمند. ولما ألتجئوا الى الالتجاء الى حصون ذلك الموقع أسرعوا الى نقل جرحاهم في السفن التي قتلهم وأرسلوهم الى كنسبرغ على مرأى من المحصورين الذين كانوا يشاهدون من أعلى الاسوار المخربة فرار مخلصيهم المقرون بالعار

فتشجع الحاصرون بهذا الظفر وزادوا جراءة على مواصلة أعمالهم ونسفوا في ١٧ مايو بالانغام مرابط في موقع على الطريق المغطى ونزلوا في ١٩ منه في الساعة السابعة مساء في الخنادق وعبروها وأصدر المارشال ليفيفر الامر بالهجوم في ٢١ منه فابتدأ الجنود يتسلقون الاسوار واذا بالجنرال كلكروث يطلب التسليم على الشروط التي كان فيما مضى قد منحها هو ذاته في ماينس فقبلت شروطه . وكان نابوليون يعلق أهمية كبرى على أخذ دنزيك بحيث أنه لما وصل اليه أول خبر بذلك الصدد وهو في مركز أركان حربه في فنكنستن بادر الى اصدار الاوامر باقامة الصلوات العامة شكرا لله على ذلك واعطاء برهان واضح عن ارتياحه الى عمل المارشال ليفيفر . وقال في رسالة انفذها الى مجلس الشيوخ : « من المعلوم ان شعور الانسان بانه تم مايجب عليه والتحيرات المعلقة باحرامنا تسكني ولا جرم لان تجعل الفرنسي الحقيقي مثابراً على ملازمة خطة الشرف ولكن نظام الفتنة الاجتماعية مبني على انه مع الامتيازات الظاهرة والحظ الكبير معلق احترام وبهاء يزيد أن يزدان بحليتهما أفراد رعيقتنا المعتمرون كباراً بمواهبهم وخدمتهم واخلاقهم وهي خلال نعدنا أول منحة للانسان .

« ان الذي فاق غيره في مساعدتنا في أول يوم من ملكنا والذي بعدما أدى خدما جليلة في أثناء خطته الجندية على اختلاف أحوالها واشتهر في حصار نم فيه بما كمن فيه من أسرار المزايا السامية والشجاعة الباهرة يستوجب منا امتيازاً عظيماً . وقد أردنا أيضاً أن نخصص زماناً مكرماً لجيوشنا فبالمرسوم الامبراطوري الذي فوضنا فيه الى نسيبنا كبير مستشاري امبراطوريتنا ان يبلغكم اياه قدمنا نسيبنا المارشال ليفيفر عضو مجلس الشيوخ لقب دوق دنزيك . وليكن هذا اللقب الذي سيجعله أبنائوه وحفدته بعده دليلاً لهم على فضائل ابيهم وهم أنفسهم يعدون ذواتهم غير أحقاء به ان هم آثروا راحة دنيزة وبطالة المدينة العظمى على الاهوال وعثر المعسكرات الشريف . فياليت كلامهم لا يتعم خدمته

من دون أن يسفك دمه في سبيل بلادنا فرنسا الجميلة ونفخها وباليتمهم لا يلقون أدنى ميزة في الاسم الذي يحملونه ولكن ما يجب عليهم نحونا ونحو رعايانا . « ولولم يكن الامبراطور يريد أن يعظم بالالقب أولئك الذين كانوا عظماء بمواهبهم وخدمتهم وأخلاقهم لما كانت الفلسفة السليمة تقيم النكير على ارتفاع الرجال الشخصي وهم الذين استحقوا كثيرا من وطنهم وقد يكون ان الميزة الباهرة التي أجمعت الآراء على أنهم يستوجبونها مثلت الميزات القديمة أو استهزأت بها وهي ميزات الفاها روح العصر من زمان طويل اتنافرها مع عصر المساواة ولتعلق ذكرى الكبرياء الارسطقراطية والامتيازات بها .

الا أن نابوليون لا يقتصر هنا على البحث في الشعار الذي كان من عهد قريب مدعاة للسخرية عن السناء والاحترام للذين كان يبتغي أن يجعل عظماء الاشخاص المحققين بعرشه يلتحفون بطارفهما بل كان يروم ان يجعل ذينك السناء والاحترام موروئين وان يوارى ابطال الديمقراطية وذرايهم وراء أبهة الابطال الطريقة التي كانت الديمقراطية تتباهى بملاشاتها .

ولما كان هو نفسه عارفا بغرابة مثل هذا الزعم وانقصام عراه بادر الى ايجاد ملطف له بالغائه بصورة أدبية ما يمكن الانتفاع به من جهة الوراثة حين يفقد نسل ذلك الشجاع المنعم عليه بلقب الشرف وتضيع في استرخاء المدن وبطالتها ذكرى النبالة التي كانت منبعها لذلك الشرف : ولم يكن من وكذ نابوليون أن يعنى بنتائج التناقض الذي يمكن حدوثه بين الحق والعمل تاركا على هذا الوجه الى الاجيال المستقبلية العناية بالحكم على اعقاب النبلاء والعودة بمشقة الى شجب الاسرار المتلصص اليها الفساد . وكان علاوة على ذلك يطلب من ورثة الوطني العظيم المنتظم في سلك الجندي أن يسفكوا جميعهم حتى آخر فرد منهم دمهم في الحرب ليمتسى لهم أن يظلوا جديرين بميراثهم الارسطقراطي وهو كما انه يشير بذلك الى أن مهنة القتال ستظل في المستقبل كما كانت في الماضي شريفة دون سواها وهو ينكر بذلك الفتنة الكبرى الجارية أمام أعيننا والمميزة الهيئة الاجتماعية الجديدة عن الهيئة الاجتماعية التي كانت في القرون المتوسطة وذلك بان يستبدل بالتفوق الحربي الذي كان في عهد أصحاب الاقطاعات التفوق السلمي الذي عزز شأنه في العالمين العقلي والصناعي ،

الا أنه كان لنا بوليون مهمة خاصة تقضي الاحوال عليه بقضائها وهي إيجادها بقوة السلاح علاقة دائمة بين أوروبا والثورة الفرنسية سواء رضى أوروبا أو لم ترض . فانه وان يكن معظم الجندي باي طريقة كانت لا يزال سائرا على الخطه التي رسمها لنفسه لان الجندي هو الاداة الدالة على البسالة وعلى هبة العناية المعطاة له لتتيم عمله العظيم . ثم اننا لا يمكننا ان نكثر من تكرار هذا الامر وهو أنه أوجد نبلاء ليكافئ على الخدم المؤداة للثورة التي كانت ضربة قاضية على النبلاء من دون أمل العودة الي ترميم صرح مجدهم وسيادتهم على أن عدم الانتظام هذا لا يبعث ولكن يحجز على ذلك النظام القديم .

ولما سقط آخر موئل للمملكة البروسيمانية في دنزيك فتحت أبواب المفاوضات لعقد الصلح بين الروس والفرنسيين ولكن الحكومة البريطانية كانت تبغني تمديد أجل الحرب ولم يكن يهملها كثيرا نقاد قوة حلفائها بحيث تستطيع بذلك أن تمل فرنسا وتستنزف موارد قوتها . وفضلا عن ذلك كان يسهل دفع الامبراطور الاسكندر الى الاشتباك في القتال فلم يكن حتى ذلك العهد قد أصابته نكبة من تلك النكبات التي كان نابوليون قد تعود أن يختم بها حروبه وابتدأ الجيش الروسي يتحرك في ٥ يونيو وفي الحال ابتدأت الحركات العدائية . وافتتح الروس الحرب بهجومهم على جسر سبندن فعالت اثنتا عشرة فرقة أخذه فدحروا عنه بعنف ولكنهم أعادوا البكرة عليه سبع مرات نخلدوا في المرات السبع وقد صدمتهم فرقة واحدة من الدراغون وهي الفرقة السابعة عشرة من فيلق برنادوت عند هجمتهم السابعة فتزلزلت أقدامهم وتضعضع نظامهم وأركنوا الى الفراد . وقد جرى مثل هذا الأمر عند جسر لومتن فكانت له نتيجة مماثلة لهذه النتيجة وقتل القائد الروسي وكان المارشال سولت يدبر الحركات الحربية في تلك الناحية .

ولم يكن الحرس الامبراطوري الروسي المعضود بثلاث فرق والمتولي قيادته القائد العام المصحوب بالفرنودوق قسطنطين أسعد حظا في هجومه على المواقع التي كان المارشال ناي يشغلها في ألتكركن . وخسر الروس في موقعة دين التي نشبت في الغد الفتي قتل وثلاثة آلاف جريح وجاء في التقرير الرسمي ان الفضل في انتصار الجيش الفرنسي كان الى حركات المارشال ناي الحربية والى الجراء التي

أبداها وابلغ صداها الى جنوده والى ما أبداه الجنرال مرشان من الدهاء
وكان الجيشان يتهيآن في خلال ثمانية أيام بمناوشات افرادية لاضرام سعي
معركة عامة والتتقيا في آخر الامر عند فردلاندي في ١٤ حزيران وسمعت أصوات
المدافع في الساعة الثالثة صباحا فقال نابوليون : « ان هذا اليوم يوم هناء
وغبطة فهو تذكار معركة مارنغو »

وابتداً المارشال لان والمارشال مرتيه القتال بمناصرة فرسان غروشي
ومدرعي ننسوتي ولم يأت تصادم الجيشين بنتيجة فاصلة في مقبل الامر . وفي
الساعة الخامسة مساء حين عرف نابوليون مواقف الفريقين قرر الاستيلاء في
الحال على مدينة فردلاندي بتغييره فجأة موقف المقدمة فامر بالهجوم من
طرف الميمنة .

وأعطت علامة الهجوم بطارية مؤلفة من عشرين مدفعا في الساعة ٣٠ : ٥
فتحرك المارشال ناي وزحف الجنرال مرشان في الوقت عينه في مقدمة فرقته
والجسام وصلت في يده الى العدو ويم كنيسة القرية . وكان الهجوم الصادر عن
جراة والمعزود بالمدفعية المنزلة خسارة جسيمة بالروس فانه للظفر الذي أصابوه
في ذلك اليوم . الا ان العدو جعل فرسان الحرس الامبراطوري وشاته يقيمون
في كمين ولما أبصر فيلق المارشال ناي يسير الى غايته بجرأة عظيمة مجتازاً المواقع
الكثيرة المتصدية له في طريقه أمر ذلك الحرس الهائل بالهجوم على ميسرة
المارشال . وكانت الصدمة شديدة الا أن الجنرال دوبون وافى بفرقته وظل
النصر ميلا ميلا نهائياً الى الفرنسيين . وتقدم الروس على غير طائل بجميع
ما عندهم من القوة فلم يغن ذلك شيئاً عن سقوط فردلاندي بعد مجزرة استرخصت
فيها الارواح . وترك الروس في ساحة القتال عشرين ألفاً منهم خمسة عشر ألف
قتيل وخمسة آلاف جريح وبينهم ثلاثون قائداً . وكتب نابوليون لجوزفين
قائلاً : « ان أولادي احتملوا بتذكار معركة مارنغو احتمالا شائقا وان معركة
فردلاندي ستأثلها لدى شعبي في الشهرة والفخر . . . وهي شقينة كريمة لمارنغو
واسترتز وايانا »

وحالما بلغت أنباء هذا الانتصار الى كنسبرغ أسرع الروس والبروسيانيون
الى هجر هذا الموقع فدخله المارشال سولت في ١٦ يونيو وعثر فيه على كنوز

وفيرة ومؤن من الحبوب واكثر من عشرين الف حريج وذخائر من جميع الانواع ومن جملتها مئة وستون الف بندقية وصلت اليها حديثاً من بريطانيا العظمى وكانت باقية في السفن ونقل الامبراطور مركز اركان حربه الى تلست في ١٩ منه . على أن الحادث الذي كان الامبراطور الاسكندر ينتظره ليفتكر بالصباح بنوع جدي تم أخيراً : فقد كان للجيش الروسي يوم شقوم وانهمزام تام وانكسار نهائي فمهد القيصر وملك بروسيا هدنة مع الامبراطور في ٢١ يونيو وأذاع نابوليون النشرة الآتية على جيشه في ٢٢ منه :

« أيها الجنود ،

« أغار علينا الجيش الروسي في معسكرنا في ٥ يونيو وقد فات العدو سبب بقاءنا بغير عمل ولكنك علم فيما بعد ان راحتنا كانت تشبه راحة الاسد : فندم لذهوله عن هذا الامر .

« وقد وصلنا بسرعة النسر من ضفاف الفستول الى ضفاف النيمان ففي استرلنز احتفلتم بتذكار التتويج واحتفلتم في هذه السنة بتذكار معركة مارنغو التي كانت بها نهاية المحاففة الثانية .

« أيها القراسويون لقد كنتم أحقاء بانفسكم وبني وستعودون الى فرنسا حاملين فار النصر بعد حصولكم على صاحب مجيد يضمن بقاءه . »

وقرر الملوك الثلاثة قواعد الصالح في اجتماع عقدوه في النيمان .

وركب نابوليون مركباً في ٢٥ يونيو في الساعة الواحدة بعد الظهر ومعه مورات وبرتيه ودوروك وكولنكور وسار في نهر النيمان حيث كانوا قد القوا الارماث ونصبوا الاعلام لاستقبال العاهلين وملك بروسيا . وركب النهر في الوقت عينه من الضفة الاخرى الاسكندر ومعه الفرندوق قسطنطين والجنرال بنغزن والجنرال اوفاروف والبراس لابانوف والسكنت دي ليافن .

ووصل المركبان في وقت واحد ولما انهدر الاسكندر ونابوليون الى الرمت بادرا لاعطاء الجيشين الضاربين على ضفتي النهر علامة .

... اسما لجهة فانطرح كل منهما على عنق الآخر ثم قضيا معا عدة ساعات .

ولما فرغا من التباحث عاد كل من العاهلين الى مركبه وانفنى راجعا الى معسكره وعقد اجتماع ثان في الغد في ٢٦ منه في مضرب على ضفة النيمان شهده ملك روسيا . وكان الملوك الثلاثة في خلال عدة أيام يجتمعون مرات كثيرة ويقومون الاحتفالات الشائقة محتفين بعضهم ببعض . فكان أصفى المودة حلت بغثة محل العداوة الشديدة التي أجرت الدماء غدرا . وشرب نابوليون في احدى الولائم نخب ملكة روسيا التي كان قد أغلظ في الكلام عنها في نشراته .

ووصلت تلك الملكة الى تلست عند ظهر اليوم السادس من شهر يوليو وبعد ساعتين زارها نابوليون . ويقال أنها ألحت لتخفيف وطأة شروط الصلح على مملكتها ولكن جميع ما جادت به الطبيعة والتهذيب عليها من قوة الإغواء لم يستطع أن يغير شيئا من المقاصد المدبرة قبل وصولها ووقعت وثيقة الصلح في ٨ منه فجعلهم نابوليون يعترفون بالحصار البحري وإنشاء مملكة الساكس ومملكة هولندا ومملكة وستفاليا (أنشئت هذه الأخيرة لأجل جيروم وتألفت من قسم من روسيا وقسم من هانوفر وقسم من هيس) وغرندوقية فرسوفيا التي انتظمت في سلك محالفة الرين وألقت دول الشمال العظمى المنشأة تلك المحالفة خصيصا لأجل مناهضتهن مقاليد حمايتها الى نابوليون .

وقبل مغادرة نابوليون لتلست أمر بأشجع جنسدي من جنود الحرس الامبراطوري الروسي أن يمثل بين يديه فأنعم عليه بنشان جوقة الشرف الذهبي اعترافا منه بالاحترام لأولئك الجنود . وأهدى بلاتوف زعيم القوزاق صورته وجاء بعض الموسيقيين الموفدين من لدن القيصر وأقاموا لنابوليون حفلة موسيقية بحسب عادة بلادهم .

وتوجه نابوليون في ٩ يوليو في الساعة الحادية عشرة صباحا الى عاهل الروس وقد علق على صدره نشان القديس اندراوس الكبير فلقية في مقدمة حرسه وقد علق على صدره نشان جوقة الشرف الكبير . وبعد ما قضيا معا ثلاث ساعات ركبا فرسيهما وبما ضفة نهر النيمان وهناك ركب الاسكندر مركبا وظل نابوليون مرافقا اياه بعينيه حتى انتهى الى الضفة الاخرى دليلا على مودته له . وبعد قليل من الحين جاء ملك روسيا لزيارة امبراطور الفرنسيين فرد له نابوليون زيارته على الاثر ثم شخص الى كنسبرغ .

الفصل الحادي عشر

عودة نابوليون الى باريس — جلسات المجلس الاشتراعي

إلغاء المجلس الاعلى — رحلة الامبراطور الى ايطاليا

احتلال البرتغال — عودة نابوليون

بيان نجاح العلوم والفنون من سنة ١٧٨٩

ولم يطل الامبراطور مدة مكثه في عاصمة بروسيا القديمة فغادرها في ١٣ يوليو ووصل في ١٧ منه الى درسدن يصحبه ملك الساكس وكان قد خف الى لقائه في بوتزن عند حدود بلاده وعاد نابوليون الى سان كلود في ٢٧ منه

وبادر مجلس الشيوخ والمجلس الاعلى والمجلس الاشتراعي ومحكمة التمييز ورجال الدين والمجلس البلدي وجميع أصحاب المقامات الملكية والعسكرية والدينية الى القاء تهنئتهم عند قدمي الماهل المظفر . وأراد الماهل أن يجعل عودته مقرونة بمنحه بعض الترفيات والمكافآت فعين في مجلس الشيوخ القائدين كلين وبومون وعضوي المجلس الاعلى كوره وفار ورئيس أساقفة طورينو والمسيو دوبون أحد محافظي باريس . وسمى تاليران برنس دي بيفيان نائباً للنائب الاكبر وبرتييه برنس دي نوشاتل نائباً للقائد العام .

وتوجه بأبهة عظيمة في ١٥ أغسطس وهو عيده الى كنيسة نوتردام ليشهد صلاة الشكر لله على صلح تلست .

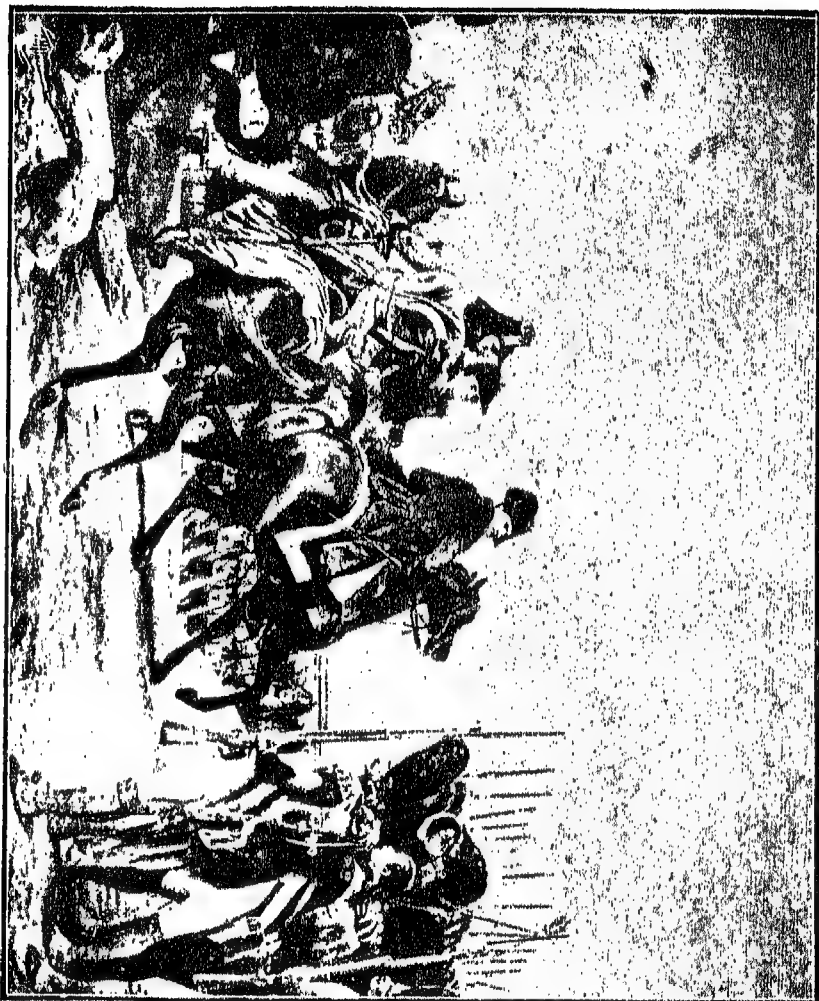
وقدم وفد من مملكة ايطاليا ليضم تهنئته الى تهنئ أصحاب المقامات في الامبراطورية فأبدى نابوليون ارتياحه الى ذلك الامر وقال لرجال الوفد : « اني سررت سروراً خاصاً في أثناء الحرب الاخيرة من تصرف جنودي الايطاليين الممتاز . فهذه هي المرة الاولى التي ظهر فيها الايطاليون من قرون سديدة بمظهر النبيل على ملعب العالم العظيم . وأنا آمل ان هذه البداية السعيدة تثير حب التنافس في أفئدة الامة بحيث ان النساء أنفسهن يبعدن عنهن أولئك

الشبان البطالين الذين يقضون معظم أوقاتهم في مخادعهم أو هلى الأقل لا يقبلهم عندهم الا حين يعودون من الحرب وقد غشتهم الندوب الشريفة . وفضلا عن ذلك لي الامل بالذهاب قبل الشتاء لتعهد بلادي الايطالية .

وافتح المجلس الاشتراعي في ١٦ أغسطس فتولى الامبراطور افتتاحه بذاته وفاه بالكلمات التالية الخالدة مختصرا بها جميع ما كانت فرنسا قد أصابته من العظمة والسؤدد : « أتباهى بكوفي الأول بينكم » ولكن لسوء الحظ جعل نابوليون الى جنب هذه العبارة النبيلة الدالة على عظمة سامية وشرعية عبارات مخالفة للرأي العام أراد بها تمهيد العذر لصوابية منحه الألقاب الامبراطورية التي أنشأها لتكون واسطة للافتخار على مثال ما كانوا يفتخرون به في ما مضى من الزمان وهو يزعم أنه أراد بهذه الألقاب أن يحول دون رجوع الألقاب الاقطاعية المنافية لمنشأته كأن إعادة الألقاب التي كانت في عهد أصحاب الاقطاعات والتي ورثت عنهم يمكن أن ينظر اليها بمقلة الجذ كحائل دون عودتها لأنهم لم يكونوا يجرؤون أن يضيفوا اليهم امتيازات لم يكن ممكناً التساهل بها ولا سيما حين تبعث من مدفنها مع ما كانوا ينفرون منه نفورا عظيما في القرن الثامن عشر وفي الثورة الفرنسية أي مع مبدأ الوراثة

بقي أن انشاء أسر شريفة تتوارث ألقابها خلفاً عن سلف لم يكن سوى نتيجة لانشاء أسرة مالكة وبعد ما أعلن نابوليون على رؤوس الأشهاد أنه مرسل من السماء لترميم صرح السلطة الهاوي الى وهدة العار والصغارة عاد فانقاد الى تلك الحركة الرجعية التي أوعز بوجوب تعزيزها اعلاء لشأن روح النظام والدستور . ولما كان معتقداً أنه انما يعمل في ضمن حدود موضوعه لاستدراك مشروع يضاد المبالغة في عضد مبدأ الحرية كان يباليغ غير مختار بتعزيز مبدأ السلطة كأنه يتباهى بأنه لا يعزز الا الارسطقراطية الاهلية بانشاءه رجالا عظاما بولادتهم ويستنفد الوسع لتوطيد أركان سلطنته الجديدة باسناده اياها الى الدعائم المنخورة التي كانت من نصف قرن تقرقع قرقة شديدة تحت أثقال مملكة شارلمان .

وقال الامبراطور في الخطاب الذي خطبه عند افتتاح المجلس أنه سيدخل بعض التغيير على الشرائع الدستورية وقد كان الانسان يستطيع أن يعلم أنه



میرکہ ایانا (۱۴ اکتوبر سنہ ۱۸۰۶)

سيكون من وراء تأملاته توسيع دائرة تصوره بالحكم المطلق وأنه أوشك أن يقلل أو يلاشي ما كان ينشئ تمثيلاً وهمياً ما خلا التمثيل الحقيقي المطلق الذي كان يحصره في ذاته . وألغى المجلس الأعلى مع ما بذله من العناية بالمبادأة بأبداء آرائه الملكية وكان اسمه وحده يكفي لأن يكون شؤماً عليه : فإن هيئة يذكر أصلها بالطريقة الجمهورية في كل حين لم يكن ممكناً اغضاء الطرف عنها في جوار الدورات والامراء الذين بعثهم السناء الامبراطوري باعجوبة حول عرشه فتمصوا بأشخاص أشهر محقري الشعار القديم وأشد خصومه سطوة وبأسا . وعلاوة على ذلك أظهر أعضاء المجلس الأعلى اذعاناً يضرب به المثل وقد زادوا اسرافاً في الزلف بشكرهم ومباركتهم لليد التي ضربتهم وكأنهم أرادوا بذلك الامر أن يتمحلوا عذراً للامبراطور باعلانهم لفرنسا أن الغاء مجلسهم لم يكن من شأنه أن يثير أدنى خوف على حرية الامة وان ليس لذلك الالغاء سوى الغاء خلل في دستور الحكومة وأدخل الامبراطور أيضاً شيئاً من التغيير على تنظيم المجلس الاشتراعي وطريقة مباحثاته وكان من جملة الشروط أن يكون عضو هذا المجلس بالغاً اربعين من العمر . وظلت أعمال المجلس السياسية محصورة في ثلاثة مقوضات يقضى عليها أن تفاوض مقوضات مجلس شورى الدولة عند كل مشروع شريعة يراد وضعه ويكون المشروع بوضعه محفوظاً للحكومة . وقرر في الجلسة التي عقدت وضع قانون التجارة

وظلت الحرب مشتعلة في الشمال بين فرنسا وأسوج فاستولى الفرنسيون على مدينة سترسلند في ١٧ أغسطس وسلمت جزيرة روجن في ٣ سبتمبر فتم بذلك فتح بوميرانيا الاسوجية ومع ذلك لم ينفصل ملك أسوج عن محالفته للبريطانيين .

وكان يشق على نابوليون أن ينظر بحر البلطيك مفتوحاً في وجه السفن البريطانية وإعراض حكومة أسوج عن ممالة فرنسا على الحصار البحري ولكن كان ثمة مملكة أخرى تناقض علاقتها المتواصلة ببريطانيا العظمى المبادئ الفرنسية كل المناقضة . وهي مملكة البرتغال فإن أسرة براغانس المرتبطة كل الارتباط بمصالحها التجارية والسياسية بالحكومة البريطانية كانت تنقاد بمجملتها الى رغائب هذه الحكومة غير مبالية بالشرية الصادرة عن برلين وان تكن أعلنت

رسمياً أنها معادية لبريطانيا العظمى ارادة أن تخدع نابوليون بموهة عليه الحقيقة
فهذه الخيانة المضمرة للمحاربة الفرنسية أعلنتها الامبراطور لاوروبا بتسييره
الى البرتوغال فيلقا بقيادة جونو بعد مفاوضاته لحكومة مدريد بشأن مرور
الجنود الامبراطورية بأرض أسبانيا

وبينا جونو يسير ناحيا نهر التاج كان نابوليون يعد أهبة الرحيل الى ضفاف
ألبو والادرياتيک لتفقد شؤونها واستقبل قبل انطلاقه استقبالا رسميا سفير
المعجم الذي قدم الى باريس حاملا هدايا ثمينة للامبراطور ومن حملها سيفها
تيمورلنك وطاماس خولي خان

وفصل نابوليون عن باريس في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٠٧ فاتته الى ميلانو
في ٢١ منه ، وبعد أيام قليلة دخل عاصمة فرنسا دخولا باهراً رجال الحرس
الامبراطوري وهم يجرّون مطارف الفخر الذي أصابوه في استرلز وإيانا وفردلان
وكان وصولهم مدعاة لاقامة الاحتفالات العظيمة فارادت حكومة باريس أن
تستقبلهم في قصر المجلس البلدي وشاء مجلس الشيوخ أن يستقبلهم في
قصره عينه

ولم يمكث الامبراطور زماناً طويلاً في ميلانو فقد كان ميالا الى التعرف
برعاياه الجدد الذين ادخلتهم وثيقة برسبورغ تحت ولايته . فوصل الى البندقية
في ٢٩ نوفمبر وهو اليوم نفسه الذي استولى فيه جونو على مدينة ابرنتس بعد
اجتيازه أسبانيا وهي المدينة الاولى التي وصل اليها في البرتوغال ودخل الجيش
الفرنسي مدينة ليشبونة في الغد وكانت العترة المالكة قد غادرتها بمراى من
الشعب الداخل عليه الذعر وركبت متن الاسطول البريطاني شاخصة الى البرازيل .
وبعدما طاف نابوليون ولايات البندقية ولمبرديا والتقى في مانطو باخيه
لوسيان الذي كان يبتغي أن يزف ابنته الى أميرالاستوريين عاد الى عاصمة مملكته
الاطالية . فاصدر مراسيم امبراطورية منح بموجبها النائب الملكي أوجين دي
بوهرنه لقب أميرالبندقية وكرّمته جوزفين لقب أميرة بولونيا وأنعم بلقب دوق
دي لودي على ملازي الرئيس السابق للجمهورية الالبية وبعد ما أمر الامبراطور
بقراءة هذه المراسيم على المجلس الاشتراعي الايطالي ألقى على الحضور
الكلام الآتي :

« يا حضرة الملاكة والعلماء والتجار يسرني أن أراكم ملتفين حول عرشي ويهيجني عند عودتي بعد غياب ثلاث سنوات أن اشاهد ما أصابه رطايبي من التقدم ولكن ما أكثر الاشياء الباقية لنسخ الهفوات التي أتاها آبائنا وتصييركم احقاء بالمنزلة التي أعدها لكم . ان اختلافات أسلافنا الداخلية وأنانية كل مدينة ساقطت الى فقدان جميع حقوقنا . فقد نزعت من الوطن منزلته وكرامته وهو الذي كان في القرون السالفة قد بلغ مدى بعيداً بآس جيوشه وبسوء فضائله . وستكون الغاية التي يرمي اليها مجدي استعادة ذلك السناء وتلك الفضائل . »

وكان لهذا الكلام وقع حسن على النواب الايطاليين الذين كان انقسامهم الى ملاكة وعلماء وتجار يفضل تنظيم المجلس الاشتراعي الفرانسوي المنقسم بحسب أنواع المصالح المختلفة والاهلية مما تحقق افضليته في الهيئة الاجتماعية ويستدعي التمثيل في السياسة . إلا أن الفرق في الطريقة الدستورية عند الشعبين الخاضعين لسلطة واحدة والمنحنيين لصولجان واحد يفسر بكون نابوليون رجل الثورة قد انتزع السلطة في إيطاليا من يد الحكومة القديمة أما في فرنسا فانه خلع عن منصة الحكم أبناء الثورة . ولا يخفى أن أعداء نابوليون الطبيعيين في ميلانو وفي بولونيا وفي البندقية وفي غيرها من أوروبا كانوا أبناء الارسطقراطية ورجال الدين الذين شيد قوة فرنسا على انقراض مجدهم وسيادتهم . وكاف الوطنيون الخارجون من الطبقات المتوسطة وهي طبقات المتعلمين والعملة أنصاره الذين يعمل عليهم وبهم يعتضد . وكان في باريس بعكس ذلك يذكر دائماً أنه أصاب العرش في سان كلود بمناهضته للجمهوريين وأنصار الفلسفة الحديثة وهذا ما كان يجعله يسوء الظن بأصحاب الاحلام الراجحة المتكلمين عن الحرية في كتاباتهم والمشتغلين بالنظريات السياسية مطلقاً عليهم لقب « وهميين » فابعد عقيلة دي ستال وأعرض بوجهه عن بليامين كنستان وحقر طراسي وفلني وكينيس النخ وألقى المجلس الاعلى وقسما مهما من الندوة العلمية ولم يكن علماء مملكة ايطاليا إلا من المشتغلين بالفكریات وكان لنا بوليون دوران يمثلها الاول حين يكون في الخارج والثاني حين يكون في فرنسا أي دور الاصلاح حين يقضى عليه تنظيم البلدان المفتوحة ودور المحافظة حين لا يرى بداً من النظر في الشؤون الداخلية في سلطنته . وكان موقفه المختلف في بلاده عنه في الخارج يدفعه الى ركوب مركب التناقض مما جعل

شاتوبريان يقول عنه : « أنه يخطو تارة خطوة مع العصر ويتقهقر تارة الى الماضي » .

ولم يكن القيصر الاسكندر ينفك منذ عقد الصلح في تلست عن إيجاد التقرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى إلا أن هذه الاخيرة ازدادت اصراراً وميلاً الى مناهضة حكومة نابوليون. وقد هاجها بموافقة دول الشمال العظمى موافقة رسمية على الحصار البحري فنبتت تدخل القيصر نبذ النواة ووجهت سبعا وعشرين سفينة حربية وعشرين الف مقاتل الى بحر البلطيك بقيادة اللورد كسكارث لاجبار ملك الدانمرك على تسليم أسطوله ضمناً فاني هذا الملك اجابة طلب البريطانيين فاطلق الاميرال البريطاني قنابله على كوبنهاغن عاصمة بلاد الدانمرك. فاستسلمت للحال هذه المدينة وحطم الاسطول الدانمركي. ولما انتهت الى نابوليون الانباء الدالة على هضم حقوق الامم والصادرة عن البريطانيين في كل ناحية وبكل شكل ضد الحياض الضعيف صمم على اتمام طريقة الاثارات التي توخاها بعد معركة ايانا. وجاء المرسوم الامبراطوري الصادر عن ميلانو معززاً بالمرسوم الامبراطوري الصادر عن برلين بحسب مقتضيات الاحوال. وأعلن الامبراطور فيه أن كل سفينة يجب ان تخضع للتدابير العنيفة التي اتخذها ملك بريطانيا العظمى بحق ثغور فرنسا وثغور حلفائها ووضعها تحت الحصار وأمر بتفتيش كل سفينة أوروبية يمر عليها الاسطول البريطاني في عرض البحر تعتبر غير منتمية لدولة من الدول وعقدت أيضاً اتفاقات جديدة في أثناء إقامة الامبراطور في ايطاليا فكانت تسكانيا وبعض الولايات الخاضعة للكرسي الرسولي في حكم البلدان الخاضعة للسلطنة الفرنسية. فبعد ما هيا كل شيء لهذا الانضمام قفل عائداً الى فرنسا وطاج على شمبيري وهو مجتاز جبال الالب. وكان ثمة شاب ينتظره ليلتمس منه الامر باعادة والدته من المنفى وكان هذا الشاب يدعى المسيو دي ستال فاكرم نابوليون وفادته ولكنه ظل مصراً على عدم العفو عن ابنة نكر وعن نكر ذاته وقال له : « ان أملك مسرورة باقامتها في فينا وستتعلم فيها اللغة الالمانية . . . أنا لا أقول أنها امرأة شريرة . . . فهي ذات عقل ثاقب وقد تكون ذات عقل كبير ولكنه عقل لا شكيمة له وغير مروض . وقد تربت في عهد مملكة متداعية وفي عهد الثورة وهي تخلط جميع ذلك ببعضه ببعض وقد يصير جميعه خطراً . فانها

تستطيع بما في رأسها من الهوس أن تستميل إليها الدخلاء ولا بد لي من التيقظ لذلك فهي لا تحبني واني حبا لمصلحة الذين تعرضهم للخطر لا ينبغي لي أن أدعها تعود الى باريس . . . فهي بمثابة علم يؤمه الناس في ناحية سان جرمان. . . وهي تصنع هرجا : ولا تعلق أهمية على ذلك الامر ولكنني اعلق عليه أهمية عظيمة . فليست حكومتي هرجا وأنا انظر الى كل شيء بعين الجدل فيجب أن يعلم الملاحظ أن ذلك وقل هذا الامر لجميع الناس . « فزعم دي ستال الشاب أن والدته لم تكن تعتمد السوء للحكومة الامبراطورية وأنها لم تكن تجتمع إلا ببعض نفر من الاصدقاء الذين لا يحاذر أن يقدم للامبراطور جدولا باسمائهم. ثم أنه قال : « ان بعضهم قال لي أن المؤلف الاخير الذي صنعه جدي هو الذي جعلك مستاء من والدتي فاقسم لجلالتك على أنها ليس لها أدنى علاقة بذلك . » فاجابه الامبراطور « أجل أن هذا المؤلف هو سبب استيائي فجذك يعد من الفكريين وهو احمق وقد جعلت الشيخوخة به مساك . أو هل يحلم وهو في الستين أن يهدم صرح الدستور الذي شيدته وأن يتوخى وضع رسوم جديدة لدستور آخر . ولعمري ان الحكومات لا تحسن ادارتها اذا تولاهها أشخاص من أصحاب الطرائق ومن المشتغلين بالنظريات والمصدرين أحكامهم على البشر في الكتب وعلى العالم في المصورات . . . وعندي أن علماء الاقتصاد يعتبرون من الوهميين الذين يحلمون بطرق مالية وهم مع ذلك يعجزون عن تولي جباية الضرائب في أحقر قرية في سلطنتي . فكتاب جدك عبارة عن نتاج فكرة شيخ تملك به العناد وقد قضى نحبه وهو يطيل لسان الثرثرة على حكومات الدول » فأثر هذا الكلام في حفيدنكر فحطم على الامبراطور حديثه زاعما ان جلالتة علم ما في الكتاب من أشخاص نفلت نياتهم وسقمت دخائلهم . وانه لم يقرأه بذاته فان جده أنصف نابوليون منوها بما أوتيته من الدهاء . فقال له نابوليون بحدة : « لقد ساء وهمك فانا قرأته بذاتي من أوله الى آخره . . . أجل انه ينصفني وهو يدعوني الرجل الضروري ويزي بموجب كتابه أن أول شيء يجب عمله هو قطع عنق هذا الرجل الضروري فانا كنت ضروريا لا استغنى عني لاصلاح ما كان من حماقة جدك ونشخ ماجره من الاذى على فرنسا . . . فهو مضرر سمير الثورة . . . فقد انقضى عهد حكم الفن وأنا أبتغي الخضوع . فاحترموا السلطة فهي من الله . . . أنت

شاب ولو كان لك مالي من الاختبار الطويل لكنك تحسن حكمك على الاشياء
خفية ضميرك تسرفني بدلا من أن تسؤني و يروفي أن أرى الابن يدافع عن
أمه ... ومع ذلك لأشأ أن أعلمك بأمال فارغة ولا أكنم عنك انك لاتصيب
غرضك في هذا الموضوع . « فخرج المسيو دي ستال من حضرة الامبراطور
وهو يتمتر بذلال الخيبة . والتفت نابوليون الى دوروك وقال له : « أو لم أكن
جافياً مع هذا الشاب ؟ ... أظن اني كنت كذلك ومع هذا كله أنا مسرور من
هذا الامر . فغيره لا يعيد علي الكرة من هذا القبيل فهو لاء القوم يعيبون علي
عملي وهم لا يفهموني . »

ووصل نابوليون الى باريس في أول يناير سنة ١٨٠٨ وزار بعد ثلاثة أيام
هو والامبراطورة جوزفين المصور داود المشهور في محله ليشاهد صورة
التتويج

ووضع نابوليون قوانين مقرر لمصرف فرنسا في غضون هذا الشهر وضم
فلسنغ وملحقاتها الى سلطنته ولم يكن حظ البرتوغال قد تقرر بعد فانها وان
تكن قد دلت للجيش الفرنسي لم يشأ نابوليون أن يعمل عملا معجلا في هذه
المملكة بل اكتفى بأن ينشئ فيها حكومة وقتية جعل جونورئيساً عليها وأطلق
عليه لقب حاكم بموجب مرسوم امبراطوري صدر في أول فبراير ومنح في الغد مثل
هذا اللقب ختنه البرنس برغيزي حاكم الولايات التي الى ما وراء الالب

وأتم المنتدى العلمي الوطني في ذلك الحين عملا في منتهى الاهمية أصار اليه
الامبراطور أمر النظر فيه في زمن يهتم فيه دهاء الانسان المخلص من قيود
الاهواء بمصالح الحضارة العامة قبل سواها من الامور فرفع كل فرع من الفروع
الثلاثة المؤلف منها ذلك المنتدى المشهور تقريراً عن تقدم الفرع العلمي الموكول
اليه أمر درسه والتدقيق فيه من جميع أطرافه . على أن الجدول التاريخي المشتمل
عليه مجموع تلك التقارير يتناول العلوم والفنون والاداب من سنة ١٧٨٩ وكان
شنيه مقدم الفرع الممثل الندوة العلمية الفرنسية الكبرى وبسط ديلا مبير
وكوفيه حالة تقدم العلوم الطبيعية والرياضية وتكلم داسيه باسم قسم الندوة
المؤلفة منها اليوم ندوة علم الادب وقدم لبرتون تقرير قسم الفنون الجميلة .
على أن عمل الندوة العلمية سيظل شاهداً ناطقا بعظمة الشعب الذي كان في أثناء

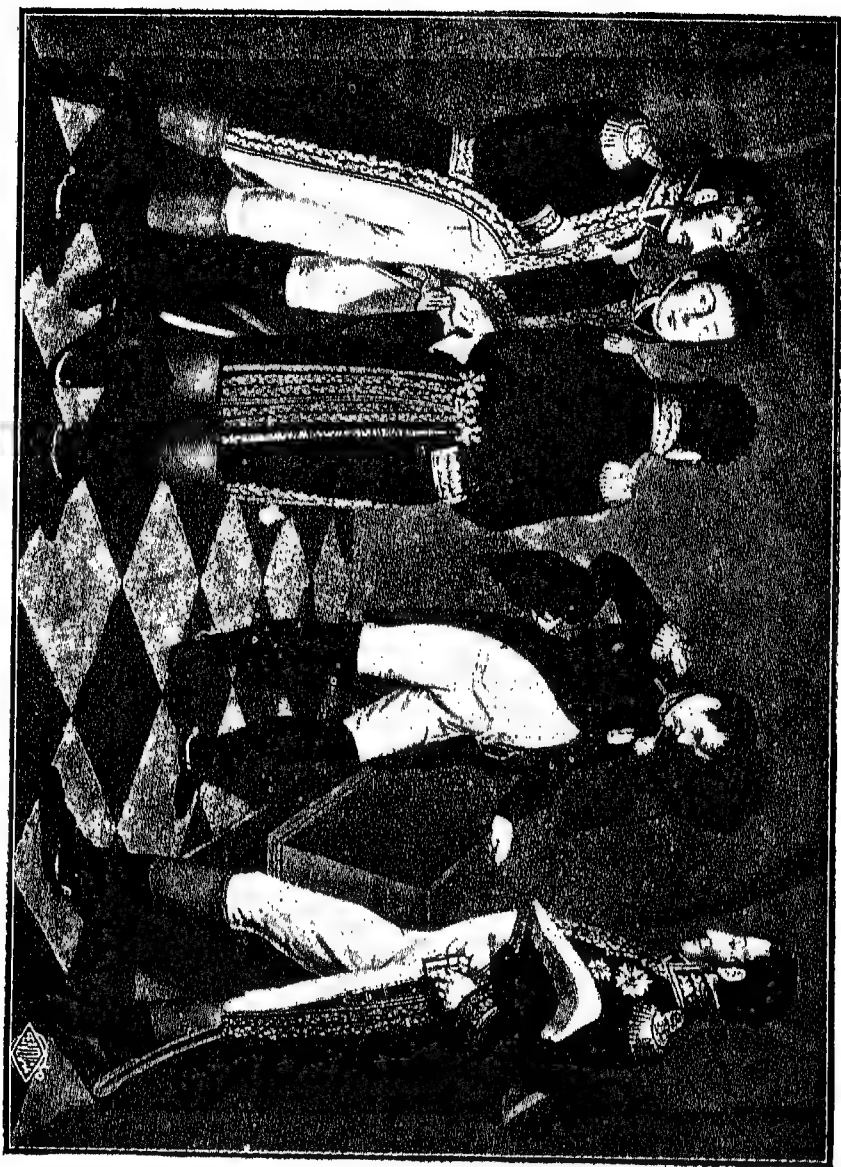
مشكلات الحروب المدنية والقلق الدائم الناجم عن الحرب الخارجية يشغل اشتغالا مثمراً في الامور الفكرية ويرتفع في الخطة المثلثة للعالم والاديب والصانع في حين كانت أوروبا والعالم يظنان فيه مقتصرأ على جلائل الاعمال الحربية وستكون هذه الحالة جراباً فصيحاً لهاذي صرح الثورة وبالتالي تبرئة غير موجهة رأساً لجميع الذين على مثال نكر ممن أساء الامبراطور معاملتهم قد عملوا بنظرياتهم الاقتصادية وطرقهم المالية على انفجار بركان تلك المعضلة العظمى لانه مهما قاله نابوليون عنهم فان المفكرين نهضوا باعباء مهمتهم نهوض الفاتحين وقد أفضى الامر بهؤلاء واولئك الى الجنوح عن فصد السبيل بعدما كانوا ردحا من الدهر أعلام عصرهم ونبراسا يستضاء به فتتخذ الهيئة الاجتماعية في غالب الاحيان في سيرها السريع هدأة جددأ ولكن لا ينبغي لها أن تحتقر الذين خلفتهم وراءها لانهم لم يقيض لهم أن يتمكنوا من اللحاق بها دائماً: فان نكرالذي كان نابوليون ممثل فرنسا سنة ١٨٠٨ يعتبره مستوجبا للاستهزاء به كان ممن يشار اليهم بالبنان في فرنسا في سنة ١٧٨٩ .

الفصل الثاني عشر

مسائل اسبانيا

وكان قد انقضى زمان طويل لم تقاثل فيه الثورة الفرنسية الا في أنحاء أوروبا الشمالية وأما أنماؤها الجنوبية فانها لم تتخذ مختارة مبادئها دستوراً لها بل أجبرت على الاعتراف بها . على أن نفور الناس منها في ريق أمرها عند جميع الحكومات التي اضطرت الى السكوت عنها مكرهة على ذلك بقوة السلاح لم تزل وشائجها ذاهبة في القلوب كل مذهب . فسواء كان في مدريد أو في ليشبونة وفي برلين أو في فيينا أو في بطرسبرج كان روح الفلسفة جاراً يخشى شره وعدواً ألد خصوصاً لديوان التفتيش ولم يخف ذلك الامر على نابوليون فقد كان عالماً أن الحكومة الاسبانيولية كانت كالحكومة النمساوية مستعدة للمجاهرة بمخالفة بروسيا وروسيا وبريطانيا العظمى الا أن معركة ايانا أحبطت مساعي المخالفة المنوية وكشف النقاب عن حقيقة أميال الحكومة الاسبانيولية لما أذيعت نشرة ديجتها يراعة أمير السلام (غودوي المشهور) . فكانت هذه النشرة الصادرة قبل أوانها باعثاً على زعزعة أركان الحكومة التي كان يرأسها الملك كارلوس الرابع . فقضت عليه الاحوال بقبول مقترحات نابوليون جميعها رجاء أن يصيب الصفع منه عن جميع التظاهرات التي أوقعت حكومته تحت طائلة الظنة . وكان من نتيجة ذلك الامر ارسال فيلق اسبانيولي الى ألمانيا بقيادة لاروماننا والسماح للجنود الفرنسية باجتياز الارض الاسبانيولية لغزو البرتوغال ووضعت على طول جبال البرنات فيالاق للمراقبة أطلقت عليها أسماء مختلفة وأشيع أن غايتها تعزيز حملة البرتوغال ولم يكن الامبراطور مقتصرأ على معاقبة الحكومة الاسبانيولية على ارادتها المتزعزعة وكلام العسداء الذي فاهت به في سنة ١٨٠٦ بل كان يبتغي التوقي في المستقبل من محاولة دول الجنوب مهاجمة بلاده اذا ما حدث خلاف شديد بينه وبين ممالك الشمال . وكان شديد الاهتمام بوضعه نشرات برلين وميلانو موضع الاجراء بصورة عنيفة . ووجهت شدته من هذا القبيل بنوع طبيعي وبنوع خاص الى البلدان البحرية كشبه جزيرة اسبانيا والبرتوغال

تالوون بزور ضريح فرديك الثاني الكبير



وكان قد اتخذ جميع التدابير اللازمة في نابولي ولبشونة ورومية كما سيجيء بيانه . وكان وكده أن يخضع للطريقة الفرنسية ببلاد اسبانيا المتكسرة على شواطئها أمواج بحرين والجالس على عرشها ملك من الاسرة البربونيه والمتهمه باطالة اللسان بالكلام البذيء بحق فرنسا فيما مضى من الزمان فعقد عروة عزمه على احتلال الولايات والمواقع الشمالية من تلك المملكة احتلالا عسكريا

وتلقت فيالق المراقبة في الجيرند والبرنات الاوامر بالزحف الى الامام فتوغل المارشال منسي في الولايات البسكية واحتل دوبون والادوليد ودوهم وأوغل متقدما في كاتالونيا . ولم يكن عدد الفرنسيين في اسبانيا يقل عن سبعين ألفا ماعدا جيش جونو . واستقبل جنود الفرنسيين بلا مقاومة في المواقع المحصنة .

ولو لم يكن الامبراطور مبتغيا الا ضمانا قويا على اخلاص حكومة مدريد للمحالفه الفرنسية لكان يكفيه احتلال الاماكن الحصينة في اسبانيا ولكن موقف هذه البلاد الداخلي والحوادث البيئية التي حدثت في قصر الاسكوريال غيرت خطته الاولى ومهدت لاطاعه ودهائه سبيلا لتصيير الامة الاسبانيولية مرتبطة بالشعب الفرنسي ليس فقط بغزوة متواصلة ولكن باحداث ثورة في تلك البلاد .

وكان الجالس على عرش مملكة شارل الخامس (شارل كان) رجلا من أولئك الرجال الذين يسلطهم الله على الممالك التي يسمح بسقوطها ليجدد مجدها وكانت العترة المالكة موسومة بسمة الانحطاط وقد فسد الدم المتصل اليها من لويس الرابع عشر الملك الكبير : فان وقاحة الدخيل وبذاءة الوغد نالتا اكراما من اصحاب الانفة الكستليانية . وكان تحقير السلطة المؤذن بهبوطها قد بلغ حده : فكان غودويني عشيق الملكة نديما للملك وطاقية لبلاد اسبانيا وأصبح فيها صاحب الامر والنهي وقد جر المهانة الى أسرة نبيلة وساق الدمار الى عترة قلبت لها الاقدار ظهر المجن . وقال كاتب من الكتبة المعتمدين بحبل البوربون : « ان تسلطه على الاسرة المالكة لم يكن له حد يقف عنده فكانت سلطته مطلقة تحاكي سلطة صاحب السلطان الاكبر وقد أطلقت يده في كنوز أميركا فكان

ينفقها عن سعة في سبيل الاستغواء القديم وقد صير بلاط مدريد مكاناً يأوي إليه الفسق والدعارة وتنفر منه الفضيلة والكرامة . « وكانت تلك الحال مما يشار إليها بما يدعونه : « علامة الازمنة » فكان الحماية الالهية أشاحت بوجهها عن مملكة بيلاج كما كانت قد أعرضت من قرن من الزمان عن عرش كلوفيس : فقد كان للمملكة اسبانيا أيضا كنفيل ، ولم يكن ختم الانحطاط يدع آثار الزيت المقدس منظورة على جباه ارضها ثقل تاج علاه صدا الصفارة والنقيصة . ولكن لم يعبت الهرم بالملكية وحدها فان قوة القرون المتوسطة نصبت مواردها من جميع طبقات الهيئته الاجتماعية في تلك البلاد : فالنبلاء ورجال الدين وهم العضد الطبيعي والمعين القوي للسلطة الملكية في ابان عظمها شاطروها الشقاء والضعف في أيام شيخوختها . وقد دنت الساعة الاخيرة لطريقة الحكم القديمة في ماوراء جبال البرينات فشعر نابوليون بانه مدعو لان يعطي العلامة عن ذلك وأن يقرع ناقوس الحزن للاحتفال بمناحتها

فلم يكن يهتم في بدء الامر إلا أن يتأكد بطريقة عسكرية أمانة حليف مشكوك بصدقه ولكنه لما رأى أن العثرة المالكة هاوية الى وهدة الدمار بما أتته من الشكوك والاختلافات وأن الشعب تتنازعه عوامل الاضطراب الصادر عن القصر الملكي وشاهد كلا من كارلوس الرابع وفردينان ينزلان الى ممرغين وجهبهما عند اعتابه وملتمسين منه حماية فرنسا وكل منهما يستمد مناصرته على الآخر وعلم أن الملك والمملكة يشكوان من ابهما وان الابن يسمى ثلخهما عن العرش مجرعا اياهما كؤوس المهانة استبان له أنه يقدر ان يفعل في اسبانيا غير احتلال الحصون وان الحين دنا لتغيير وجه تلك البلاد الشريفة الجميلة بثوثيق عرى ضمها الى سلطنته وجعله المبادئ الفرنسية سائدة فيها سواء كان باسم كارلوس الرابع او فردينان او غيرها ممن يدعون الحق بالعرش ويكون هو ميالا الى اختيارهم لذلك المنصب الرفيع . ووجه المارشال بسيار لهذه الغاية بخمسة وعشرين الف مقاتل الى الولايات البسكية لتعزيز ما عند منسي ودوبون من القوة والتي بمقابلة القيادة العامة لهذه الحملة الى مورات فاتخذ هذا برغوس محلا لاقامة اركان حربه ونزل فيها في اوائل شهر مارس

وحالما ذاع في مدريد نبأ قدوم الفرنسيين صاح القوم : يا للخيانة ! وفر البلاط هارباً الى ارانجويز . وأما غودوي الذي علل نفسه حيناً قصيراً بأنه قادر على خداع نابوليون واستمالته اليه فانه ما لبث أن عرف انه المنخدع فأشار على كارلوس الرابع بأن يسلك مسلك آل براغانس ويشخص الى الطواريء الاسبانيولية في أميركا . فلم يكن يسع الملك الا العمل بمشورة نديمه فصمم لساعته على الظعن الى اشبيلية الا أن إعداد أهبة الرحيل هاجت كبرياء الكستيليين فلقيت الظنون الموجهة الى أمير السلام مجالا فسيحاً بلغت فيه مدى بميدا . وفي ١٦ مارس انفجر بركان الخنق الوطني فهجم الشعب الهاجم على قصر ارانجويز طالباً الفتك بغودوي . واغتصبت دار النديم عنوة ونهبت ولم ينج هو ذاته من موت محتوم الا باختبائه في أحد الاهراء . وعالج الملك كارلوس الرابع تسكين هياج الشعب باعلانه على رؤوس الاشهاد ان أمير السلام رضي بأن يستقيل من منصبه ولكن لم يغن عنه ذلك شيئاً فاضطر هو في نوبته أن ينحدر عن العرش وأذاع نشرة رسمية يستقيل بها من الملك ويعين خلفاً له أمير الاستوريين فبادر هذا الى اتخاذ اسم فردينان السابع واقتتح ملكه بضبط أموال غودوي الملقى في السجن ريثما يصدر عليه ما يستوجبه من الحكم .

ولم تكد أنباء هذه الحوادث تصل الى برغوس حتى أسرع مورات الى الزحف الى مدريد فدخلها في ٢٣ مارس بستين الفاً من الحرس ومن جنود دوهون ومنسي بين شعب مدهوش وقليل الثقة بيد انه غير مدعور .

وبرح فردينان السابع ارانجويز في الغد ميمما عاصمة اسبانيا فتحول السكون المقرون بالانقباض الذي استقبل به الفرنسيون في أمس ذلك اليوم الى حماسة شديدة عند اقتراب الملك الجديد . تخف السكان برمتهم الى استقباله وقد عيل مصطبرهم لتحية الملك الذي أنقذهم من نير غودوي الجالب عليهم العار والذل . ووافق وكلاء الدول موافقة رسمية على حوادث ارانجويز ولم يأنفوا من الاعتراف بالملك الصاعد الى العرش على سلم الفتنة . وبقي سفير فرنسا ومورات متمنعين عن الاشتراك معهم بذلك الاعتراف . على ان القائد الأكبر الفرنسي انقذ رسولا الى كارلوس الرابع يضمن له حمايته ويعرض عليه مساعدته فلم يفكر

الملك الشيخ في مفتتح الامر الا بانقاذ نديمه وارحاه اليه . فكان يقول :
 « لا ذنب له الا تعلقه في مدة حياتي فوت صديقي التعس يحجب . وفي »
 فارجع اليه غودوي ثم ان كارلوس الرابع أقام النكير على تنازله عن العرش
 المكره عليه بهياج الشعب وبسط للامبراطور ما لقيه من العنف بكتاب خطه
 بيده وعهد الى مورات بارساله اليه . وبادر أمير الاستوريين من جهته الى
 الكتابة ل نابوليون أيضا وكان يخشى تدخله في الخلاف الناشئ بينه وبين أبيه
 والانتصار لهذا الاخير مبينا صواب عمله الذي رفعه الى العرش قبل الاجل
 المسمى وواضعا سلطته الحديثة النشأة تحت حماية الدولة الفرنسية . ولما انتهى
 للكتابان الى نابوليون عرف ان الشخصين المتنازعين عرش اسبانيا يضعان
 كلاهما العرس عند قدميا لمجزهما عن النهوض باعباء المملكة . الا ان أخلاق
 الشعب الاسبانيولي كانت تجعله يوجس خيفة وتلقية في وهذه الشك . فكتب
 في ٢٩ مارس الى مورات قائلا له : « لا يدورن في خلدك انه يكفيك أن يكون
 عندك جنود لتخضع اسبانيا بهم عند رؤيتها ايام ففتنة ٢٠ مارس تدل على ان
 للاسبانيولين سطوة وشدة بأس . . . فلا بناء الارسطقراطية ولرجال الدين
 انسيادة في اسبانيا . فان هم خافوا على امتيازاتهم وعلى كيانهم قاموا علينا قومة
 واحدة . . . »

« وعند الاسبانيولين أكثر من مئة الف جندي تحت السلاح وهذا أكثر
 مما يحتاجون اليه لشهر حرب داخلية تكون طاقبتها نصرا لهم . وحيث انهم
 منقسمون في عدة أماكن يمكنهم أن يكونوا مشيرين لحركة عامة في جميع أنحاء
 المملكة . . . فانا ابسط لك مجموع المصاعب التي لا يمكن تجنبها وهناك مصاعب
 آخر تشعر بها انت . ولا يخفى عليك أن بريطانيا العظمى لا تدع هذه الفرصة
 تفوتها فانها تبتغي تكثير المقبات في وجوهنا . . . وحيث ان العترة المالكة
 لم تهجر بعد اسبانيا شاخصة الى الهند للاقامة فيها فلم يبق والحالة هذه لتغيير
 وجه الاحوال في هذه البلاد إلا الثورة . ويترجح عندي انها البلاد الاوربية
 الاقل استعداءاً لقبولها . . . فأما خدمة لمصلحة سلطنتي يمكنني أن أصنع خيراً
 جداً لاسبانيا . فما هي أفضل الوسائل التي يحسن اتخاذها لادراك هذه الغاية ؟
 « الأمضي الى مدريد . . . ولكنني أرى أن إعادة كارلوس الرابع الى

العرش من المصاعب التي يعز تذليلها فالشعب نافر كل النفور من حكومته ومن نديمه بحيث أنهما لا يستطيعان أن يبقيا قابضين على أزمة الحكم ثلاثة أشهر . « أما فردينان فهو عدو ألد لفرنسا وهذا هو السبب الذي من أجله جعلوه ملكا فابقاؤه على العرش خدمة للأحزاب التي ترمي من خمس وعشرين سنة الى تقويض أركان فرنسا وعندى انه لا ينبغي لنا أن نعجل في مجرى الحوادث وانه من الموافق أن نجعل الحوادث الآتية هاديا لنا وقد أمرت سافاري بالتوجه الى الملك الجديد والوقوف على ما يقع عنده من الحوادث فهو سيفاوض سموك الامبراطوري وحذار أن تدع الاسبانيولين يسبغون الظن بالخطأ التي سأنتهجها . وهذا الامر لا يصعب عليك فأنا هنا لا أدري شيئا من ذلك فقل لهم ان الامبراطور راجب في إحكام الانظمة السياسية في اسبانيا رجا أن يجعلها مرتبطة بحالة التمدد في أوروبا فما أشد حاجة اسبانيا الى تجديد اداة الحكم فيها والى شرائع تعصم الوطنيين من الاستبداد واختلاس أصحاب الاقطاعات والى أنظمة تحيي موات الصناعة والزراعة والفنون . وهدف لهم حالة الراحة واليسر التي تتمتع بها فرنسا مع ما هي مشتبكة فيه من الحروب واشرح لهم عن بهاء الدين العائد تمزين مكانته الى الوثيقة التي عقدتها مع البابا . وبين لهم الفوائد المستطاع اجتناء ثمارها من الاصلاح السياسي : كالنظام والسلام في الداخل والاحترام والقوة في الخارج . فهذا الروح يحجب أن يتدخل جميع أقوالك وجميع كتاباتك وإياك والعجلة في مساعدك فعندي ان الانتظار في بايون وعهور جبال البرنات سيان وسأفكر في مصالحك الخاصة فلا تفكر بها أنت وقد تسرعت في الاخبار التي أعطيتها في ١٤ فاذا اشتعلت الحرب أضعنا كل شيء . فخط اسبانيا معلق بالسياسة والمفاوضات . »

وقبل ما جزم نابوليون بشيء من الاشياء أراد أن يشاهد عن كثب حالتها ويقتنع بذاته بمقتضيات ذلك الموقف وما يمكن أن يتعلق به فغادر باريس في ٢ بريل وبلغ بوردو في ٤ منه فأقام فيها ينتظر الامبراطورة جوزفين فوافته في ١٠ منه ، فسارا معاً الى بايون ودخلاها في ١٥ منه فنزلا في قصر ماراك المعد لان

يشهد حادثنا من أهم الحوادث السياسية في ذلك العهد ومكثا فيه عدة أشهر .
وبادر الامبراطور في غد اليوم الذي وصل فيه الى بايون الى مجاوبة أمير
الاستوريين وأرجأ ابراز حكمه على تنازل كارلوس الرابع عن العرش ولم يطلق
على ابنه إلا لقب السمو الملكي مبيناً له الخطر الذي يتوقعه الملوك الذين يعودون
شعوبهم الانتصاف لنفسها ولافتاً نظره الى الانتحار السياسي للذي أقدم عليه
والعار الذي يكلل جبينه ان هو انقاد الى عواطفه بالفض من كرامة والدته
باقامته على النديم دعوى تتسلسل عنها الشكوك . وأبدى الامبراطور في ختام
الكتاب رغبته بكلمتين في مشافهة الامير وكان يعتقد انه من الضروري أن
يشاهد عن قرب الذين يبتغي التعمق في معرفتهم . ولو كان سفر العترة المالكة
الى المكسيك قد تم لكانت المسألة قد أصبحت متناهية في البساطة ولكن
الموقف أقل تعقداً ولاصبح عمل الاصلاح في اسبانيا أسهل وأيسر ولكن هذا
الرحيل لم ينم ففاضت الفتنة وصار في البلاد ملكان بدلاً من ملك واحد وكانت
الحال تقتضي الاسراع في تقرير حظهما . وكان الجزم في الأمور متعلقاً بما يحول
في الوهم عن الأشخاص الذين لم يكن نابوليون يشاء ابراز الحكم عليهم إلا بعد
النظر اليهم بعينه النقادة وسبر غور نهامهم بمرجاس دهائه .

فتردد أمير الاستوريين في ريق الأمر في إجابة طلب نابوليون وكان فريق
مستشاريه يقول له إن المشافهة التي اقترحها الامبراطور هي ولا مراة فسخ نصبه
له وكان المستشارون الآخرون يزينون له وجوب المسارعة الى مفاوضة الامبراطور
واسمائه اليه قبل اجتماع أييه به فان التأثيرات الأولى المنطبعة في الذهن يصعب
محوها . فانقاد فردينان الى المشورة الاخيرة وخرج من مدريد على غير رضى
الشعب الاسبانيولي منطلقاً الى حدود فرنسا وعوامل الشك والقلق تتجاذبه .
ولما بلغ فتوريا صمم على انتظار الامبراطور فيها ولكن الامبراطور لم يأت
اليها . على ان الاعتبارات نفسها التي حملت ذلك الأمير الشاب على المجيء الى
الالافا حدثه على المضي الى بايون .

وذهب هو والدون كارلوس أخوه في ٢٠ ابريل الى قصر ماراك حيث كان
نابوليون نازلاً . وكان كارلوس الرابع يسير عن كشب وراء أمير الاستوريين
فانه لما خاف ان ينفسح له المجال في بايون خف اليها مع الملكة والنديم للاستغلال

تحت لواء الامبراطور فأبصر حينئذ ذلك الجندي الدخيل ومنتخب الشعب ووريث الثورة الفرنسية الكبرى اعقاب القديس لويس وورثة بيلاج وحفظة سيف السيد عند قدميه يضعون تحت تصرفه حظ المملكة القديمة الواسعة بعد ما كان امتلاكها قد جعل فيليب الثاني يقول بعجب وخيلاء : « ان الشمس لا تغيب عن أرضه . » ما أعظم الأمثلة لاوربا القديمة في هذا المشهد ! فأمام جبال البرنات التي عالج أحد ملوك البوربون على غير جدوى تمهيداً بتسوية طائفة كانت القرون المتوسطة العاث بها الفساد والملتخفة بثوب الصغار والنازل بها العجز والضعف تنجر بشقاء بين الشفقة والاحتقار العامين لتلتصم عند رتاج قصر مارك عيشة بضعة ساعات أو لتلقي فيه قبل انقضاء أجلها السمال عظمتها الماضية وسنائها الخامد ومجدها الدابل عند قدمي الممثل الاعظم لمجد العصر الحديث وعظمته .

وكان أمير الاستوريين يرغب في التقرب من أبيه رغبة في الاتفاق معه من دون أن يكون لتدخل الوسيط المرهوب الجانب الذي اختاراه تأثير فيهما فأراد ذات يوم أن يدرك هذه الغاية فدخل وراء كارلوس الرابع الى مخدعه إلا أن هذا الملك الشيخ قال له بمحبة : « قف أيها الأمير أولاً يكفيك ما أهنت به شيخوختي ؟ » قال هذا ودفعه الى خارج غرفته وأرسل اليه في الغد كتاباً ضمنه تعنيفاً مرأى على تصرفه ولم يكن نابوليون يجهل ما انطوى عليه ذلك الكتاب المختتم بالعمارات الآتية تلميحات عن فتنة أرانجويين . « كل شيء يتم للشعب وليس بواسطته فمن يذهل عن هذا المبدأ يقترب جميع الجرائم المتسلسلة عن هذا الدهول . »

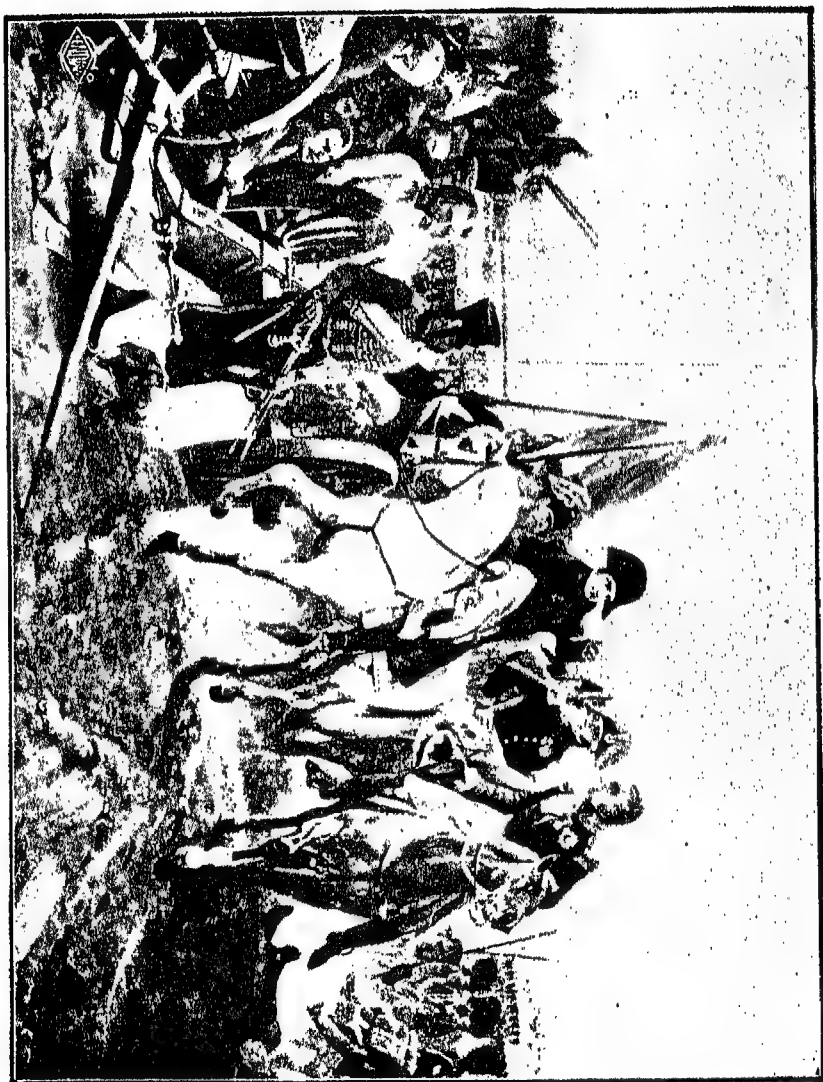
وكان نابوليون قد عرف في أيام قليلة ذينك الشخصين بعد ما درس أخلاقهما وقدرها حق قدرها . فانه عرفهما حق المعرفة من أول مرة اجتمع بهما واليك ما قاله في هذا الصدد « لما شاهدتهما عند قدمي وتمكنت بذاتي من الحكم على ضعفهما أدركتني رقة على حظ ذلك الشعب العظيم فاغتنمت في الحال الفرصة الوحيدة التي أوجدها لي الجدل لانهاض أسبانيا من عثارها وانتزاعها من بين مخالب بريطانيا العظمى وضمها الى طريقتنا ضماً وثيقاً وكان يحول في خاطري ان بذلك الأمر وضم أساس الراحة والامن في أوربا ولكنني لم أجد لنيل هذا

الامر الى اتخاذ طرق دنيئة وضعيفة كما زعم بعضهم واذا كنت قد أخطأت فالامر بعكس ذلك أي إني سرت على خطة حرية الافكار الجريئة وتطرفت في اظهار الشدة . فلم أنصب نكحاً في بايون ولكن وقع فيها حادث سياسي عظيم يخضب الألباب . . . فقد كنت أرفع عن انتهاج الطرق المعوجة العادية وكنت أراني نازلاً في مكانة عالية تجعلني ذا جرأة في العمل . وقد أردت أن أقتدي بالعناية في عملها فهي تعالج مصائب البشر بذرائع تراها ملائمة لمشيتها وتكون في غالب الأحيان عنيفة من دون ان تعبأ بما يبرزه البشر عليها من الاحكام .

وقد أبرز نابوليون الحكم على ذاته بطريقة عجبية في الكلمات الأخيرة المار ذكرها فوصف بحرية سامية وحقيقة تامة ما كان ينويه لاسبانيا فان ما كان يتعمده عمل سياسي عظيم يخلب الالباب .

وقد اقتدى بالعناية التي كثيرا ما تنزل ضرباتها بالألى تميل الى خلاصهم من دون أن تعبأ بما يبرزه البشر عليها من الاحكام . وهل يمكنه أن يفعل شيئاً غير الاقتداء بها فـا هو سوى الرجل الذي تخبرته للقيام بعمل الاصلاح العظيم في اسبانيا وكان خاضعا لتأثير الالهام الاعلى وفوق ما يهيئه الناس العاديون من التدابير ولذلك اندفع الى هذا المشروع مع ما كان يحف به من المصاعب التي كان يراها بعين بصيرته وقد ذكرها في كتاب أرسله الى مورات ورأى فيها خاتمة السناء الذي كان يجعله يفترض ان غاية مبادئه الادبية في أوروبا لاتبارى كما كان هو يعبر عن ذلك : فهل كانت نهاية قدرته مرتبطة بنهاية أسرته ؟ ولكن ماذا يهم العناية وماذا يهم الانسانية ختام جميع هذه الاشياء اذا كانت غاية العناية قد تمت واذا كان العقل البشري يحفظ سيادته ويوسعها كلما فقد أحد المولود سيادته ؟

أجل ان نابوليون كان يستطيع أن يقول يوما ما : « ان حرب اسبانيا كانت سببا لهلاكه وأن جميع الظروف المرافقة لنكباته تقترن بهذه العقدة المشؤومة . » ولكن تداعي صرح حظه العجيب وحبوط الآمال التي كانت يبنيها على بقاء عثرته ستتقدمها حرب تدوم ست سنوات يلتقي في اثنائها في أرض اسبانيا الشعبان المتفوقان في الحضارة في جميع أوروبا وهما الفرنسيون والبريطانيون فيحمل اليها الاولون الاخلاق الديمقراطية



معركة فريدلند (١٤ يونيو سنة ١٨٠٧)

والاخيرون الافكار الدستورية السائدة في بلادهم . وأنه وان تكن نتيجة هذه الحرب وبيلة على الجيوش الفرنسية فتكون الفلسفة الحديثة قد مكثت مدّة طويلة في الديار الاسبانية ولمية مستميلة القوم اليها ومزاجية ديوان التفتيش باستغلالها في مضارب حلفاء اسبانيا كاستغلالها في كنف غزاتها : فافكار لوك وبنّام رافقت ولتن الى ساحة القتال حين كانت مبادئ كنديلياك ومنسكيوتوف ضفاف الاير ومنسانارس والتاج سائرة وراء نابوليون . وحين تضطر الجيوش الامبراطورية الى التقهقر قاطعة جبال البرنات وتاركة البلاد التي فتحها بتجديرة الحكم القديمة ايان مرت في أثناء عودتها جرائيم المبادئ الحرة والبغض لديوان التفتيش والملكية والحب للحرية . وتكون حينئذ تلك الطريقة عنيفة بمقدار ما كانت ذليلة فتغمس يديها بدم أشهر منقذيهما لكونهم نظروا نظرة جديدة الى الدستور الضامن استقلالهم . الا أن كل ما أبدوه من الهمجية في نكرانهم الجليل لم يتمكن من الاستعباد بل أكثر من الشهداء . وليس من العيب أن يكون في قانس المضاهية للندرة منبر عام وطني للخطابة بدوم ست سنوات وأن تصبح مدريد وبعبلونة وبرشلونة مدناً فرنسية وأن تقتدي لاسي ببورليه وامباسينادو بمينا ثم يأتي كبروغا ورياغو واذا كان الحكم المطلق قد لقي في هذه المرة سنداً في فرنسا فيسكون لهذه المحالفة غير المنتظرة ما سيكون من النتائج المحالفة البريطانية وان ما بدأ به رجال نابوليون الذين شابت نواصبيهم في ميادين القتال انجزه رجال لويس الثامن عشر الفتيان فهو لاء يثابرون بمجاهرتهم بمأكسة دستور قانس على جر الشعب الاسبانيولي بمخالطته اياهم الى اقتباس العادات والآراء الدستورية بحيث أن مثير نفع الفتنة في اراجويوز بعد ما كافأ بالسجن أو بالنطع الاحرار الاسبانيولين الذين تمكنوا ببسالهم من استعادة العرش الذي هجره هو نفسه بذل لقي ذاته مضطراً وهو على سرير الموت الى وضع صولجان كستيليا وهو ميراث اولاده تحت حماية روح الاصلاح الذي اضطهد أنصاره الكرام اضطهاداً شديداً . واذا لم يكن قد بقي شيء من سلطة نابوليون الشخصية والمستقبل الذي أعده لعتريته فلا بأس من ذلك فان هذا الأمر لا يحول دون رفع اعلام المدنية في اسبانيا وسينشأ شعب اسبانيولي جديدي وسط الشدائد الحالة بالاجيال المعاصرة وقد تبقى مدة طويلة وهذه كانت الغاية التي رمى اليها نابوليون . وقد

ذكر ذلك الامر باسهاب ووضوح في كتابه للغرندوق دي برغ وكرره في جزيرة القديسة هيلانة قائلا: « في المعضلة العابثة بفرنسا وفي عراقك الأفكار الجديدة وفي الدعوى العظيمة التي أقامها العصر على أوروبا جمعا لم يكن يسعنا ان ندع اسبانيا متقهقرة »

وسيؤول كل شيء الى تصير مقاصد نابوليون أسرع وأثبت . فحدث هياج في مدريد على أنه وإن يكن قد سكن ذلك الهياج . باجراء غدران من الدم فانه ترك طاصمة اسبانيا في حالة اضطراب مالمث شيئا فشيئا ان بلغ المقاطعات . فلم يبق من وجه للتردد فبدأ عجز البوربون عن تولي شؤون الشعب الاسبانيولي بغير رضى أصحاب الفتنة المعادين للتفوق الفرنسي وتنازل كارلوس الرابع عن الملك لنابوليون في ٥ مايو ووافق على هذا التنازل أمير الاستوريين والأمراء دون كارلوس ودون انطونيو ودون فرنسيسكو بعد خمسة ايام وتخلوا عن كل حق لهم بعرش اسبانيا واعتزل الملك الشيخ والملكة في كيبانيه ومعهما غودوي الملازم لهما ملازمة ظلها . وذهب الأمر الى فالنسيي للإقامة فيها .

وكان لترك كارلوس الرابع وأولاده تاج الملك استياء شديد عند الامة الاسبانيولية فعمت الفتنة جميع البلاد وتألفت في كل ناحية مجالس لتنظيم الدفاع عن الوطن من غزوات الاجنبي . وكان مركز المجلس الرئيسي في اشبيلية . وتصرف الاسبانيوليون جميعهم كما يقول نابوليون تصرف انسان تهب نسجات لمروعة في صدره .

وكان ذلك الموقف الخطير محققا لظنون الامبراطور ولكنه لما كان قد خطا في تلك السبيل لم يكن مستطاعا له الاحجام وفضلا عن ذلك كان دائم الاتكال على تفوق حظه وقوة جيوشه . فعين من جهته مجلسا أصار اليه تولي الحكم في اسبانيا وأقام ختته مورات رئيسا عليه . ولم يكذب استتب الأمر لهذا المجلس حتى قرر طلب يوسف نابوليون شقيق الامبراطور وملك نابولي ملكا على اسبانيا .

وشرع نابوليون يذيع على الاسبانيولين حوادث بايون بنشرة ضمنها ما كان يسعى لعمله في سبيل مصلحتهم لما قبل تنازل الملك وابنائهم عن حقوقهم بالعرش في ٥ مايو . وهذا بعض ماجاء في تلك النشرة :

« ان أمتكم كادت تهلك بعد نزاع طويل فقد أبصرت مصائبكم وصرت ميالا الى معالجاتها . . . وقد شاخت مملكتكم و وكل الي تجديد شبابها فساهم جميع أنظمتكم وأجعلكم تتمتعون ان أنتم عضدتوني بخيرات اصلاح لا تخالطه معارضة ولا اضطراب ولا ارتعاش .

« أيها الاسبانيوليون عقدت مجلساً عاماً من وفود الولايات والمدن وأبتغي أن أتحقق بذاتي رغائبكم وحاجاتكم .

« فأنا أطرح جميع حقوقى وأضع تاجكم المجيد على رأس شخص آخر يمثلي ضمناً اكم دستوراً يوفق بين سلطة الملك المقدسة الملائمة لكم وحرية الشعب وامتيازاته .

« فكونوا شديدي الامل وثابتي الثقة بالأحوال الحاضرة فخل أمنيّ أن يحفظ أحفادكم ذكرى ويقولوا : هذا مجد شباب وطننا . »

وأذيعت هذه النشرة في بايون في ٢٥ مايو وصدر مرسوم امبراطوري عن تلك المدينة في ٦ يونيو يدعو يوسف نابوليون الى الجلوس على عرش البلاد الاسبانيولية وبلاد الهند . ولم يلبث الملك الجديد أن جاء وقضى مدة من الزمان عند الامبراطور قبل توجهه الى مدريد واستقبل في بايون الوفود المنتدبة مورات لتوجيهها اليه من جميع الولايات الخاضعة للفرنسيين والتأم المجلس العام الذي استدعاه نابوليون اليه في هذه المدينة في ٧ يوليو وبسط للمجلس دستور بنيت قواعده على دستور السنة الثامنة فبادر الى تقرير وضعه موضع الاجراء .

ولم يكن هذا المجلس سوى تمثيل وهمي للشعب الاسبانيولي وقد علق عليه القواد الفرنسيون أهمية عظمى وظنوه كافياً لاختضاع اسبانيا أو على الأقل لتصيير الهيجان العام الطارىء في جميع أنحاء شبه الجزيرة تمرداً بسيطاً يسهل قمعه . وكان ضلال الافسكار من هذه الجهة شؤماً على قائد من اولئك القواد . . فان الجنرال دوبون الذي امتاز في معركة فردلاندا انفصل عن الفيالق الفرنسية وزحف الى اندوجار متوغلاً في الاندلس المتسعة فيها دائرة الفتنة اتساعاً هائلاً . وكان لهذه الحركة المبنية على الطيش عواقب وخيمة . ولم يكد بيسار ينتصر في معركة ريوسيكو ومنسي يستولي على بلنسية حتى اندحر الفرنسيون

في بايلن واستسلموا لاعدائهم فكشفوا بذلك العمل بهاء شمس الراية الفرنسية وعلمت أوروبا أن جيوش نابوليون ممكن قهرها . وأحاط كستانوس بدوبون فألقى هذا سلاحه واستسلماً ومعه فيلقه المؤلف من ١٨ ألفاً الى ٢٠ ألف مقاتل فأخذهم الاسبانيوليون أسرى حرب . واستفجحت الفتنة في جميع ولايات المملكة الاسبانيولية على اثر استفاضة هذا الخبر . ورأى الملك يوسف أن الحكمة تقضي باصدار الاوامر الى الجيش الفرنسي بالانسحاب الى ماوراء الايبير .

وفصل نابوليون عن بايون في ٢٢ يوليوفانتهت اليه وهو في بوردو أنباء انكسار دوبون واستسلامه فاستشاط غضباً وقال لاحد وزرائه : « ان انكسار الجيش لايعتبر شيئاً مذكوراً عندي فالحرب تكون يوماً على الانسان ويوماً له ويمكن التعويض عن الانكسار ولكن استسلام الجيش استسلاماً تصحبه الخسيفة والصغارعة يعد وصمة تلصق بالاسم الفرنسي وبفخر جنديته . فخرج الشرف لايندمل أبداً وتأثيره الادبي هائل . فكيف يمكن والحالة هذه أن يبلغ الانحطاط بالفرنسوي الى خلع ثوبه الرسمي الفرنسي واستبدال ثوب رسمي من ثياب العدو به ! وكيف أطاقوا الذل بترك العدو يفتش حقائبهم كأهم لصوص ! أو مثل هذا كنت أنتظره من الجنرال دوبون بعد ما عنيت بأمره ورقيته في درجات المناصب العسكرية وكنت أنوي أن أجعله مارشالاً . . . أو يزعمون أنهم لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى لانقاذ الجيش وتخليص الجنود من طائلة الردى ؟ فلقد كان الاشبه بهم أن يهلكوا على بكرة أبيهم وسلاحهم بأيديهم وألا يكون قد عاد أحد منهم سالماً . ففوتهم على مثل هذه الحالة يجر اليهم المجد ويدعونا الى الانتقام لهم . ولا يخفى ان الجنود يمكن وجدان غيرهم ولكن الشرف لاسبيل الى الاستفاضة عنه . »

وأسلم الجنرال دوبون الى المجلس الامبراطوري الاعلى فكتب نابوليون بذاته في المونيطور بتاريخ ١٠ أغسطس السطور الآتية :

« في التاريخ امثلة قليلة لهذا العمل المخالف لجميع مبادئ الحرب فبعد ما بدا ضعف الجنرال دوبون في قيادة جيشه اظهر في المفاوضات قليلاً من الشجاعة الادبية والحكمة . فهو كساينوس طيطوريوس جره روح الخفة الى حتفه وقد انخدع بمخادعة واغواء من كانوا على امثال امبيوريكس إلا ان الجنود الرومانيين

كانوا اسعد حظا فقد ماتوا والسلاح بأيديهم . «
 واذا كان العار الناجم عن استسلام بايلن لا يحى فالحسارة المادية المسببة عن
 هذه النكبة لم يكن يسهل التعويض عنها . وبعدها حقر نابوليون هذا القائد صرف
 همامة النفس الى احياء آمال الجندي الفرنسي وانهاض همته في اسبانيا فامر
 بتجنيد فيالق وارسال نجدات ولكي يظهر ثقته بنتيجة الحرب الفاصلة ويبين ان
 قصده بتوثيق عرى الاتحاد بين الامة الاسبانيولية والسلطة الفرنسية لم يكن
 شيء من الاشياء يزعزه امر بمرسوم امبراطوري رقم ١٣ اوغسطس يقضي بفتح
 طريق سلطانية بين مدريد وباريس .

الفصل الثالث عشر

عودة الامبراطور الى سان كلود - مفاوضات سياسية - ارسال الجنود
 الى اسبانيا - مفاوضة ارفورت - العودة الى باريس - زيارة المتحف - انعقاد
 المجلس الاشتراعي - رحلة الامبراطور الى بايون - غزوة جديدة لاسبانيا -
 الاستيلاء على مدريد - الغاء ديوان التفتيش - دلائل العداوة مع النمسا -
 مغادرة نابوليون الفجائية لجيش اسبانيا - العودة الى باريس والانطلاق
 الى المانيا

وعاد الامبراطور الى سان كلود في يوم عيده فاستقبل استقبالاً رسمياً الكنت
 دي تليستوي سفير روسيا فقدم له هذا الهدايا الثمينة المرسله معه من القيصر
 الاسكندر فامر نابوليون بها ان تعرض للانظار في قصر التويلري .
 وكان من وكذ الامبراطور ان يححو آثار الاختلافات الداخلية في فرنسا
 ليسهل عليه تحقيق مبدأ الاتحاد الذي كان يحلم به . فاصدر الاوامر بتشديد
 منشآت عامة كثيرة مختلفة الانواع في الولايات التي كانت ميداناً للحرب الاهلية .
 وانتهت الى باريس في خلال ذلك الحين انباء معركة فيميرو الناشبة بين

اللورد ولنتن وجونو وفيها ان الفرنسيين انكسروا وانكساراً تاماً واضطروا الى التسليم واذعنوا الى الخروج من البرتغال والعودة الى فرنسا على متون السفن البريطانية . على ان هذا الفشل الثاني الذي اصابه الفرنسيون في ما وراء جبال البرنات مع ما يصحبه من التحقير لشرف الاسم الفرنسي لم يكن من شأنه ان يجعل عزائم نابوليون ترتخي لانه كان قد قرأ فكاره على ما ينبغي له ان يفعله في شبه الجزيرة الايبيرية وقال في هذا الشأن برسالة وجهها الى مجلس الشيوخ بتاريخ ٤ سبتمبر ما يأتي : « اني مصمم على البلوغ الى النهاية في الحوادث الاسبانية بهمة ما وراءها من مزيد وعلى إبادة الجيوش التي انزلتها بريطانيا العظمى في تلك البلاد... ولي ملء الثقة بان رعمتي لا تتردد طرفة عين في تقديم ما احتاجه في هذه الحرب فتتوفر عليهم ضحايا آخر اعظم . » ويلحق هذه الرسالة تقرير من اوضاع الوزير شامباني عن حوادث اسبانيا وألمعت الرسالة المومأ اليها الى اسف الامبراطور على فقد السلطان سليم الثالث حليفه وقد كان يدعو افضل سلطان من السلاطين العثمانيين فان اولاد اخي هذا السلطان ثاروا عليه وقتلوا به . وكان نابوليون يعمل نفسه بالاستعاضة عن هذه الفاجعة بتوثيق عرى المحالفة مع القيصر الاسكندر . وهذا ما قاله في هذا الصدد :

« ان تلك المحالفة لم تكن تترك لبريطانيا العظمى ادنى امل بقضاء لبانتها من تكديرها حياض السلم في القارة . » وأجاب مجلس الشيوخ على رسالة الامبراطور اليه بتقريره تجنيد ثمانين الف محارب وخاطبه بلسان لاسيبيد رئيسه بما يلي :

« يا مولاي ان ارادة الشعب الفرنسي هي ارادة جلالتك عينها فخر اسبانيا سياسية وهي عادلة وضرورية . »

وهناك حالة لا يحسن السكوت عنها وهي ان ذلك الخطيب جاهر في كلامه بأن مجلس الشيوخ وافق بالصوت الحلي على تلبية رغائب الامبراطور . إلا أنهم كانوا يشعرون يوماً بعد يوم بالحاجة الى ارسال مدد جديد الى اسبانيا وكان أصحاب الهيجان سائدين ومنتصرين في العاصمة وفي أهم ولايات تلك البلاد وعليه لم تكن النجذات المقرر ارسالها حديثاً تكفي لاستمالة النصر الى الاعلام الفرنسي فوجه الامبراطور حينئذ نظره الى كتابه القديمة التي تعودت خوض غمار الحرب والظفر بالاعداء في استرلنز وايانا وفردلاند وعرضت الجنود أمامه

في ١١ سبتمبر في التوبلري فأعلن الجنود الجيش العظيم انه سيزحف عن قريب بهم الى اسبانيا حيث كان الشعب العظيم قد أهين إهانة تقتضي انتقاماً وهذا ما خاطبهم به :
 « أيها الجنود انكم بعدما جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفسطول عدتم فعبثتم ألمانيا على جناح السرعة والآن أجعلكم تحتازون فرنسا من دون أن أمنحكم دقيقة واحدة تأخذون بها قسطكم من الراحة .

« أيها الجنود أنا محتاج اليكم فوجود الفهد القبيح في اسبانيا والبرتغال ينجس تربتهما . فليفر هارباً مذعوراً عند رؤيته إياكم : وهلم بنا نبليغ برايتنا المظفرة أحمدة هرقل ! وهناك أيضاً يكون أمامنا مجال فسيح للأنثار من الالهات التي أرادوا أن يجرعونا كؤوسها .

« أيها الجنود لقد فقم بشهركم الحيوش الحديثة ولكن مجدكم ضاهى مجد جيوش رومية التي أصابت الانتصار في وقت واحد على ضفاف الرين والفراة وايليريا والتاج .

« وستنالون جزاء على أعمالكم سلاماً طويلاً الأجل ويسراً مقبلاً وعندى ان الفرنسي الحقيقى لا يمكنه ولا ينبغي له ان يذوق طعم الراحة قبلما تفتح البحار في وجهه وتصبح حرة .

« أيها الجنود ان كل ما فعلتموه وكل ما تفعلونه في سبيل سعادة الشعب الفرنسي ومجدي سيدخر في قلبي الى ما شاء الله . »

وزاد هذا الكلام الحماسة في جنود جيش الشمال فقد كانوا يتشوقون بعد حروب كثيرة أصلاً حلفاء بريطانيا العظمى ناراها الحامية وبعد انتصارات باهرة نالوها ان يلتقوا وحماً لوجه مجنود الدولة المهدودة سيدة البحار والمصورة لهم دائماً بأنها وحدها عدوة القارة الأبدية .

وانطلق القليل الاول المؤلف من الكتائب الهائلة بقيادة المارشال فكتور في ٢٣ سبتمبر فاستقبله على الحدود حاكم ولاية السين وهيئة المجلس البلدي في اثناء مروره بالعاصمة . الا ان نابوليون قبل ان يسير في مقدمة الجنود الموجهين الى اسبانيا اراد ان يتحقق صحة وثيقة الصلح المنعقدة في تلست بتوثيقه في اجماع يعقده مع القيصر عرى الصداقة المتينة بينهما . ولم يكن يرى ندحة عن الاجتماع بذلك العاهل المعترف بعده اقوى سلطان في القارة ومفاوضته في جميع المسائل الحالية

المتعلقة بالسياسة الاوربية ولا سيما بمسائل اسبانيا . فاختيرت ارفورت محلا للاجتماع وانتهى اليها العاهلان في اوائل شهر اكتوبر : وجاءها ايضا الملوك والامراء المنتظمون في سلك المحالفة الريفية كأنهم يبتغون بذلك الامر ان يؤلفوا حول محاميتهم الاكبر حاشية من العطاء اصحاب التيجان . ولكي يوجد نابوليون جميع اسباب اللهو والسرور لصديقه عاهل الروس في ابان اقامته في ارفورت أمر بأن يصحبه اليها رجال الملعب الفرنسي وأظهر الاسكندر في خلال تمثيل احدى الروايات ارتياحه الى بيت من الشعر جاء في سياق الرواية وهذا تعريبه :
فصداقة الرجل المعظم نعمة من فضل آلهة السماء على البشر
ودامت الاحتفالات ثمانية أيام ولم تنس فيها السياسة فكانت المفاوضات الخاصة تتلو الولايم والتمثيل . وأبدى قيصر الروس رغبته في جر بريطانيا العظمى الى عقد الصلح مع فرنسا ووقع مع نابوليون على كتاب يتضمن الالحاح لادراك هذه الغاية ولكن المستقبل دل على مبلغ صدقه في عمله هذا . ثم انه وافق على حرب اسبانيا لاعتقاده أنها تلهي الفرنسيين عن دول الشمال وتكون سبباً لضعف البلادين اللتين كانت روسيا تخاف من معاداتهما أعني بهما فرنسا وبريطانيا العظمى

وافترق العاهلان في ١٤ اكتوبر وكل منهما راض كل الرضى من الآخر . وكان نابوليون معتقداً أن الاسكندر صديقه الحميم ولم يفكر قط بأنه سيأتي يوم وهو غير بعيد يقول فيه عنه « أنه أغريقي من أغارقة السلطنة السفلى »
وعاد الامبراطور الى سان كلود في ١٨ اكتوبر وذهب مع الامبراطورة بعد أربعة أيام لزيارة المتحف وحادث مدة طويلة الصناع والمتفنيين الذين وفدوا لتقديم اتاوة احترامهم لذلك الرجل العظيم الناشر لواء حمايته على الفنون واحتفلوا بافتتاح المجلس الاشتراعي في ٢٥ منه ولما كان الامبراطور معتقداً أنه آمن من جهة روسيا تكلم بثقة عن مقاصده وآماله فيما يتعلق باسبانيا فقال « انها نعمة خاصة من العناية التي لم تقتر عن حفظ جيوشنا فقد أعمت الاهواء بصائر المجالس البريطانية وجعلت تلك الامة تعرض عن حماية البحار وترسل جيوشها الى القارة . فسنأطلق بعد أيام قليلة في مقدمة جيشي وسأتوج بمعونته تعالى ملك اسبانيا في مدريد وسأرفع أعلاي فوق حصون ليشبونة . فقد



اجتماع الملوك الثلاثة ملك بروسيا وقصر روسيا وابوليون على اليمين في ٢٦ يونيو سنة ١٨٠٧

اجتمعت بقيصر الروس في أرفورت واتفقنا على أن نكون يداً واحدة في السلم والحرب . »

وغادر الامبراطور باريس في ٢٩ أكتوبر فوصل الى قصر ماراك في ٣ نوفمبر وجعل مقر أركان حربه في فتوريا في ٥ منه وفي برغوس في ٩ منه بعد انتصار المارشال سولت على جيش الاستريمادور . وظفر المارشال فكتور في اليوم عينه بجيش غاليس في اسبينوزا دي لوس منتيروس

وكانت خطة نابليون فصل ذينك الجيشين الواحد مهما عن الآخر ليتسنى له تحريك كل منهما على حدة : فوجه فكتور لمقاتلة بلاك وناي ومنسي لمحاربة كستانوس قائد جيش الاندلس وبقي هو وسولت في الوسط وعهد الى بشار بقيادة جيش احتياطي من الفرسان . وقد نجح كل النجاح بتوزيع قواه على مامر ييانه فتضعضت أركان جيش الاستريمادور وتبدد جيش غاليس . ولما أراد القارون من معركة اسبينوزا لم شعهم في رينوزا اضطرهم دنو المارشال سولت منهم الى ترك مؤونهم وذخائرهم والتوغل بلا انتظام في جبال لاون . وكانت ميمنة الجيش الفرنسي قد تملصت كل التملص من اعدائها ولكن بقي على ميسرتها بالافوكس القائد في الاراغون وكستانوس المنتصر في بايلن . وبينما سولت يطوف في ولاية سانطاندر ويعيث فيها فسادا أوغز الامبراطور الى المارشال لان أن يتعقب جيشي الاراغون والاندرلس وفصل المارشال ناي ووجهه الى سريرا وطارازون ليتوسط بين كستانوس ومدريد ويقطع على هذا القائد طريق العاصمة اذا ما اندحر ويدفعه الى بلنسية

واضطرت حركات لان القادة الاسبانيول الى الانسحاب بين طوديلاو كسكنت وهناك استندوا الى الايبر ولم يكن عندهم أقل من خمسة وأربعين الف مقاتل فظنوا أنهم يقدررون على مباشرة القتال ولكنهم اغتروا بالاعتداد بموقفهم وعدد جنودهم وشجاعتهم . فكسروهم الجنرال لان وفرقهم شذر مذر وأخذ بالثار من كستانوس ذاته منتقما للشرف الفرنسي المثلم حده في بايلن . وخسر الاسبانيول في معركة طوديلاو سبعة آلاف رجل وثلاثين مدفعا وسبع رايات . وتقهقر بالافوكس الى سرغوسه وكستانوس الى بلنسية . ولما رقيت تلك الانباء الى نابليون عقد عروة عزمه على الزحف توا الى مدريد مغلخا سولت الى الميمنة

لمراقبة حركات الولايات الغربية ولأن الى الميسرة للاجهاز على من بقوا من جيش الاراغون وظل ناي مراقباً لجيش الاندلس

الا أن الوطنية الاسبانيولية لم يقل حدها فتألف في الاسترعيادور جيش جديد قوامه عشرون ألف مقاتل وأسرع مبتغيا قطع الطريق على الامبراطور وسد مضيق صومو سيار في وجهه . وفي واقم الحال تمكنت بطاريات هذا الجيش المنصوبة عند مدخل هذا المضيق الضيق من توقيف الكتائب الفرنسية الاولى حينما من الزمان وقد اقتضى الامر حضور نابوليون ذاته وحملات فرسان الحرس التي لا تقاوم للتغلب على الاسبانيول الاشداء ولكن لما بدت طلعة الامبراطور وأعطيت علامة الهجوم شن فرسان البولونيين الغارة وبأسرع من ملح البصر تمهدت في وجوههم جميع العقبات فر الجيش الفرنسي على اشلء الاعداء وبطش بالمدفعين على مدافعهم ووصل الى أبواب مدريد من د ن أن يلقى من الجيش الاسبانيولي أدنى مقاومة بعد ما كان ذلك الجيش يبتغي صد الفرنسيين عن عبور مضيق صومو سيارا . ووقع هذا الحادث الحربي الخطير في ٢٩ نوفمبر بعد معركة طوديللا بسمعة أيام . وجعل الامبراطور مركز أركان حربه في سانب أوغسطينو بجوار العاصمة في أول ديسمبر وقد سلمت في ٤ منه في غد اليوم الذي فتح فيه المارشال ليفيغر سيفوفيا

وكانت مدريد في فاتحة الامر تنوي الدفاع فكان فيها أربعون ألفاً من الفلاحين المسلحين وثمانية آلاف جندي نظامي ما عدا المساكين غير المنظمة ومعهم مئة مدفع . وأقيمت المتاريس بسرعة : وكان كل شيء يدل على تصميم العاصمة على المقاومة مقاومة عنيفة بحيث ان الاخطارين المدين أنفذها اليها الامبراطور داعياً اياها بهما الى التسليم قوبلا بالاحتقار والحنق . فحينئذ ابتدأ الفرنسيون باطلاق المدافع على قصر بوبن ريتيرو المشرف على المدينة وحالما سقط هذا الموقع الحصين بعد هجوم المارشال فكتور عليه هددوا المدينة بالتدمير المعجل فلقى الهديد صدًى في جميع انحاء المدينة فخرج الجيش الاسبانيولي من مدريد وتقطع نظام الجنود غير المنظمة ووقعت الحكومة على شروط التسليم وأعلن نابوليون هذا الفتح بعمل عظيم منعه تهيج الشعب الاسبانيولي عن التنويه

به كما كان يفعل في غير هذه الحال . ففي اليوم الذي تم فيه التسليم ألغى ديوان التفتيش ونقص كثيراً عدد الديورة ثم أن نابوليون وجه الى الاسبانيوليين النشرة الآتية :

« لقد ضللكم أشخاص غدارون وورطوكم في حرب مقرونة بالخيانة . . . ولم تمض عليكم أشهر قليلة حتى عبثت بكم أيدي أصحاب الاحزاب . ولم يكن انهزام جيوشكم الا نتيجة سير جنودنا سيراً بسيطاً فقد دخلت مدريد وان حقوق الحرب تخولني أن أمثل تمثيلاً عظماً راحضاً بالدم الالهات الموجهة الي والى أمتي ولكنني لم أصخ الا الى صوت الشفقة . . . لقد قلت لكم في النشرة التي أذعتها عليكم في ٢ يونيو اني ابتغي أن أكون محبي مجدكم وأنتم أردتم أن أضيف حقوق الفتح الى الحقوق التي تنازل لي عنها أمراء عثرتمكم المالككة الاخيرة ولكن ذلك لا يغير شيئاً مما سمحت عليه عزيمتي . ويسرني أيضاً أن أنفي على ما بذلتموه من مكارم الاخلاق وأن أعلن على رؤوس الاشهاد أنهم كتموا عني مصالحكم الحقيقية . . . ايها الاسبانيوليون ان حظكم في قبضة ايديكم فانبدوا السم الزعاف الذي حاول البريطانيون ان ينفثوه بينكم فقد نقضت كل ما يعاكس راحتكم وعظمتكم وقد حطمت القيود المثلثة بها شعوبكم وسيمنحكم الدستور الحر ملكية مقيمة بدلاً من الملكية المطلقة وبكم وحدكم تتعلق صيرورة هذا الدستور قانوناً لكم .

« ولكن اذا ذهب سدى ما ابذله من الجهد واذا لم تلق ثقتي صدى في أودية قلوبكم فلا يبقى لي أن أعاملكم الا معاملة البلدان المفتتحة وأن أجلس أخي على عرش غير عرشكم فاضع حينئذ تاج اسبانيا على رأسي وأعلم كيف أذود عن حياضه من الاشرار فالله منحي القوة والارادة اللازمين للتدليل جميع المصاعب . »

وأغار الاسبانيوليون آذاناً صماء لهذا الكلام فلم يؤثر بهم وعد الامبراطور ولا وعيده الا أن كلمة دستوركم لم تلفظ سدى فان احلاف الاستقلال الكستيلياي تمسكوا بها وألغى زعماء الفتنة ذواتهم منقادين بدواعي الاحوال الى منح اسبانيا دستورا عليه مسحة الديمقراطية أكثر مما كان على الدستور الممنوح في بايون : وقدم وفد من مدينة مدريد يرأسه حاكم تلك المدينة فالتقوا عند قدمي

الفتح عواطف الشعب التي لم تكن صادرة عن القلوب بل كان احتلال المدينة العسكري قد ألجأهم الى المجاهرة بها . مخاطبهم الامبراطور بما يلي :

« يحزنني ما أصاب مدريد من النكبات ولكن يسرني من جهة أخرى أن أتمكن من تخليصي إياها ودفعي عنها شذائد أعظم .

« وقد بادرت الى اتخاذ تدابير من شأنها تسكين خواطر جميع طبقات الشعب لعلمي ما للتردد من ثقل الوطأة على جميع الشعوب وعلى جميع الناس .

« وقد حافظت على جميع الرهينات مع حصر عدد الرهبان وليس من انسان فيه ذرة من العقل الا ويرى أن عددهم كثير . ومن نوافل خيرات الاديان سددت حاجات الخوارنة وهم طبقة تفوق منفعتها منفعة سواها من رجال الدين وقد ألغيت الديوان الذي كان العصر وأوربا يطلبان الغاءه . أجل ان من واجبات السكينة ارشاد الضائير ولكنهم لا ينبغي لهم أن يزاولوا أدنى سلطة على الشعب سواء كانت خارجية أو بدنية

« وقد ألغيت أيضاً حقوق أصحاب الاقطاعات فصار كل انسان يستطيع أن يبني مطاعم وأفارنا ومطاحن وأما كن للصيد وأن يتصرف بصناعته على هواه . . . فالانانية والغنى واليسر المحصورة بعدد قليل من الناس كانت تضر زراعتكم أكثر مما كانت تضرها ربح السموم

« وحيث أنه ليس سوى اله واحد فيجب ألا يكون سوى عدالة واحدة : فجميع أنواع العدالة الافرادية مختلصة ومناقضة لحقوق الامم ولذلك اُلغيت .

« وقد جعلت كلا من الناس يعلم ما يجب عليه أن يوجس منه خيفة وما يمكنه أن يأمله . . .

وليس من مانع يقوى على ارجاء اجراء ارادتي وقتاً طويلاً . فالبوربون اصبحوا عاجزين عن تولي الملك في أوروبا . . .

« ان آراء هذا الجيل يمكنها ان تتضارب وتتباين من جراء ما يتجاذبها من الاميال الكثيرة ولكن أحفادكم سيباركوني كمجدد لشباب وطنكم وسيمعدون من جملة الايام المشهورة الايام التي قضيتها بين ظهرائكم . »

وفي أثناء اقامة نابوليون القصيرة المدة في عاصمة اسبانيا عني بتفتيش انتظام جنوده والمحافظة على الحالة الروحية بينهم فعرض في برادو فيلق المارشال

ليفيفر في ٩ ديسمبر وكتائب المحالفة الريفية في ١٠ منه والفرسان في ١١ منه وكان بينهم الرماحة البولونيون . واستلم كولونل هؤلاء الاخيرين من يد الامبراطور في هذا العرض نشان جوقة الشرف من درجة كومان دور .
وأرسل نابوليون من مدريد الى المونيطور رسالة كذب بها جوابا وجهته الامبراطورة الى وفد من المجلس الاشتراعي وقالت فيه ان لهذا المجلس الحق بأن يكون في مقدمة جميع المأمورين السياسيين وانه هو الممثل للأمة .
فأعلن الامبراطور في الجريدة الرسمية « بأن الامبراطور هو ممثل الامة الاول » .

وكان ذلك الزعم مدعاة للقليل والقال بيد انه كان موافقا للنظام الشرعي في ذلك العصر ومبنيا قبل كل شيء على مجرى الحوادث وما يصحبها من القوة .
فالشعب الذي دعا نابوليون الى الجلوس على العرش وأيد دعوته بالانتراع القانوني كان يرى أن ذلك الشخص هو ممثله الحقيقي وليس المجلس الذي لم يكن له يد في تسميته .

وعلاوة على ذلك هل كان المجلس الاشتراعي قادرا على إدارة شؤون فرنسا والقيام بمقتضيات موقفها في الاحوال التي صارت اليها أوروبيا كما كان نابوليون قادرا على ذلك لا جرم ان هذا الامر يستحيل حدوثه فان ممثليها الحقيقي كان ذلك القابض بيديه الجيدين القويتين على الحظ الحاضر والمستقبل لأمتهم وليس ذلك المجلس الخالي من القائدة الصادر عن السلطة الامبراطورية بالطريقة التي تجري فيها الانتخابات فلم يكن يحسن عمل ما تعمله ذراع الحاكم المطلق القوية وما يفعله دهاء ذلك الرجل العظيم .

وبينا الامبراطور يهتم وهو في مدريد بتنظيم شؤون اسبانيا من دون أن يمنعه شيء عن مراقبة أقوال وأعمال ممثليه في باريس كانت الحركات الحربية جارية في مجراها في الولايات الاسبانيولية حيث كانت نيران الفتنة المطبونة تحت الرماد تشب فيها من حين الى آخر .

وترك البريطانيون بلاد البرتغال مسرعين لنجدة عاصمة المملكة لاسبانيولية الا أن الجنرال مور لما قنط من الوصول الى غايته في الاجل

الملائم غير في الحال خطته الحربية وأزمع الزحف الى فالادوليد رجاء أن يقطع الصلات بين الجيوش الفرنسية وقد كان هذا العمل وخيم التبعة عليه . فهجموا عليه من الجهة الواحدة وقطعوا عليه خط الرجوع من الجهة الاخرى فاضطر أن ينسحب في المنسية انسحاباً جر اليه المصائب ويهرب أمام المارشال سولت حتى وصل الى الكورونيا وقد جرح جرحاً مميتاً بعد ما خسر عشرة آلاف رجل وكثيراً من الخيل والمدافع والذخائر على اختلاف أنواعها . وتمكنت فلول جيشه من الوصول بمشقة عظيمة الى البحر فتركوا الكورونيا المارشال بعد ما عالجوا على غير جدوى الدفاع عنها ثلاثة أيام . ومزق سولت شمل فيلق الرومانا الاسبانيولي اللاجئ الى جبال استوريا .

وحالما انتهى الى الامبراطور أن البريطانيين يتهيأون للزحف الى مدريد خف الى ملاقاتهم فبدأت الحركات في غاليس بأمره وبحضوره ونقل مركز أركان حربه في الايام الاولى من شهر يناير الى ستورشا فينافنتي وقد جمعه أيضاً في هذه الحملة في طورديلاس في البناء الخارجي من دير القديسة كلارا المتوفاة فيه حنة المموسة والدة شارل كان (شارل الخامس) وقد بني هذا الدير على أنقاض قصر قديم من قصور المغاربة الباقي منه حمام وردعتان لم تعبت بها يد الدمار . ومثلت الرئيسة البالغة من العمر خمسا وسبعين سنة أمام الامبراطور فأكرم وفانيتها ومنحها نعماً شتى .

وأصاب الفرنسيون نصراً مبيناً في كاتالونيا فدخل غوفيون سان سير مدينة برشلونة بعد ما استولى على الروز ونقم المجلس على المركز دي فيفس المكسور في كرداد .

وعليه يكون قد تغير وجه كل شيء بعد وصول الامبراطور الى اسبانيا وعاد النصر الى الاعلام الفرنسية مخادناً اياها كما كان عليه في ألمانيا وإيطاليا . وأصبح الجيش البريطاني أثراً بعد عين في أقل من شهرين وهلك جيش الرومانا واسترجعت العاصمة واحتلت الولايات المهمة وأصلح ما كان دوبون وجونو قد أفسداه . واذا ظل الاسبانيوليون على بعضهم للسلطة الفرنسية خشيت الحكومة البريطانية من أن تراهم مدحورين اندحاراً نهائياً وخاضعين للفرنسيين على انه وان كان خضوعهم وقتياً فان شرعيته تسقط في هذه الحرب وهي أول

حرب رأت فيها شيئاً من الظفر بالثورة الكبرى ومبادئها . وكانت الحال تقتضي حمل ذلك الداهية الذي لا يشق له غبار على مغادرة اسبانيا وكان قد غشيها لذلك حصون الآمال الكبيرة التي شيدها الاسبانيول بعد استسلام الفرنسيين في بايلن وسنتر . ودبرت السياسة البريطانية المضي به الى الشمال واضطرارها اياه الى تقسيم قواته . ولم تكن آله الحكومة البريطانية هذه المرة بروسيا التي لم تكن بعد قد ثابت اليها قوتها بعد معركة ايانا ولا روسيا التي لم تكن بعد قد اندملت الجروح التي أصابتها في فردلاند والتي لم تكن نجرؤ أن تظهر بمظهر الرياء بعد عهود الصداقة التي قطعها في ارفورت بل كانت النمسا التي عادت الى الشعور بما دهاها من النكبات في استرلنز وقد جرؤت على استنزال قاهرها الكريم بعد ما جعله التغفل يبقى عليها . فقد كفتها ثلاثة أعوام قضتها بالسلم والراحة أن تعيد تنظيم جيوشها وقد شعرت بأنها قادرة على مجاذبة فرنسا . وهب أصابت السياسة القديمة فوزاً فانها جاهرت بعدم رضاها بالتقيد في برلين وبطرسبرج بوثيقة تلت لاعتقادها انها لم تكن مرتبطة في فيينا بوثيقة برسبورغ وكيف كان الامر فان النمساويين كانوا متحققين انهم يلقون لهم ملجأ في كرم أخلاق الظافر واذا حل بهم القشل عادوا الى عقد وثيقة جديدة . فحسبهم أن يتنازلوا لقاهرهم عن بعض الاراضي بحيث يبقى عرشهم سليماً فتخلص الملكية القديمة في اسبانيا بجر خصمها الهائل الى أقصى البلاد الجرمانية .

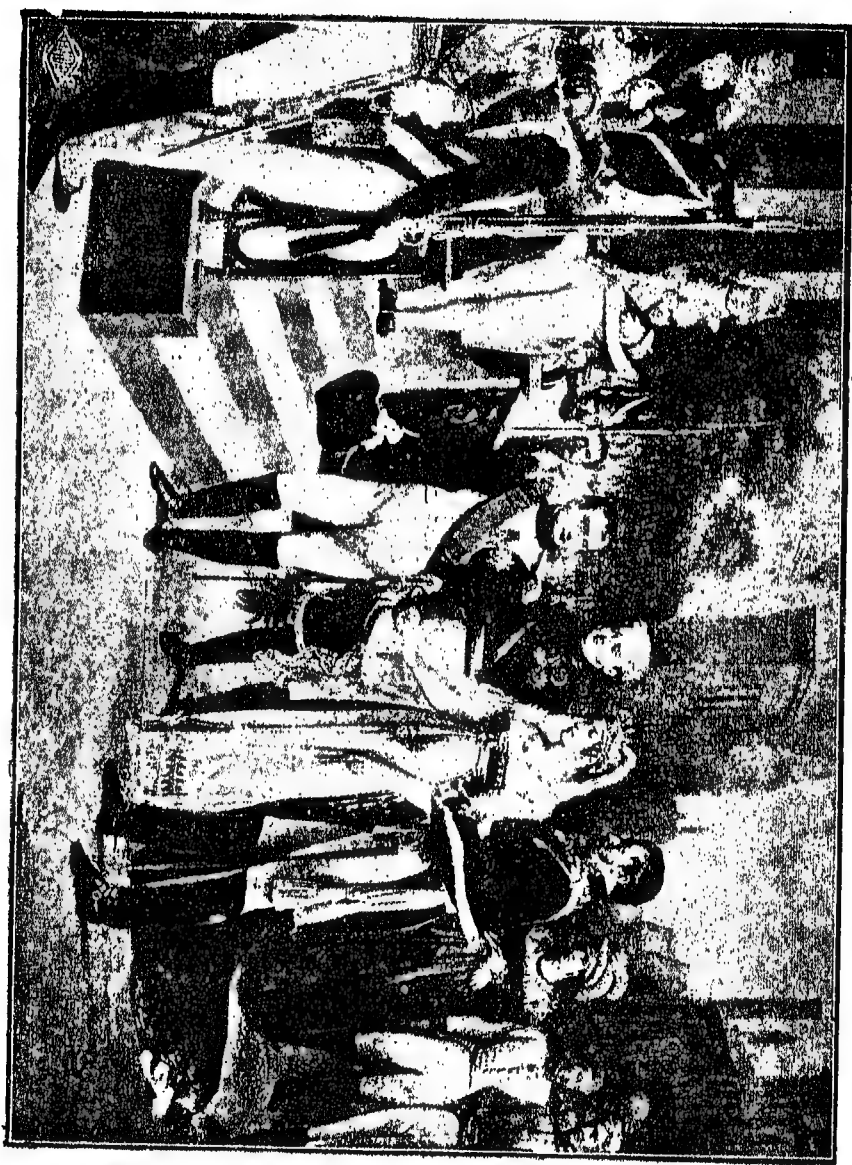
وكان نابوليون نازلاً في فالادوليد حين بلغه مجاهرة النمسا بالمعداة واستعدادها لمحاربتة . وبعد ما استقبل في هذه المدينة وفودا كثيرة قادمة من مدريد وأمر بالغاء دير من أديار الدومينيكيين لقتلهم جنديا فرنسيا فيه وأظهر عطفا على البندكتيين (رهبان القديس مبارك) الذين لم يكونوا يهتمون الا بالشؤون الروحية ومزاولة العلوم والذين أنقذوا حياة فرنسويين كثيرين بادر الى مزايلة الديار الاسبانيولية والعودة الى باريس فوصل اليها في ٢٣ يناير سنة ١٨٠٩ .

الفصل الرابع عشر

حرب سنة ١٨٠٩ مع النمسا

ولما عاد نابوليون من بايون في شهر أغسطس سنة ١٨٠٨ علم أن النمسا التي كان موقفها مبهما في أثناء حربه مع بروسيا ابتدأت تظهر استياءها من فرنسا وماتنويه من الشر لها . وبحث الامبراطور في هذا الموضوع المسيو دي مترنيخ سفير النمسا حين جاء هذا الى سان كلود مع سفراء الدول لتهنئة جلالته الامبراطورية والملوكية بعيدة فقال السفير ان دولته لم تكن تميل الا الى السلم وأن التسليح المتصل بخره بالحكومة الفرنسية لم يكن يراد به الا الدفاع . فقال له نابوليون ان هذا الكلام من الهراء لانه لم يكن ثمة من وجه للقلق ومن علامة لهجم أحد عليها ثم قال له : يقع في نفسي أن امبراطوركم لا يشاء الحرب وأنا واثق بالكلام الذي خاطبني به في اجتماعنا الاخير فهو غير حائق علي وقد احتلت عاصمته والقسم الاعظم من ولاياته ولكنني أرجعت اليه كل شيء على التقريب . . . فهل تظن أن قاهر الجيوش الفرنسية اذا تسنى له دخول باريس عنوة يتصرف باعتدال كما تصرف أنا ؟ . . . (ان المسيو دي مترنيخ وجميع أركان المؤامرة جاوبوا على هذا السؤال في سنة ١٨١٤) فهناك دسائس خاصة تجرّم على رغم من معاطسكم الى حيث لا يتنبهون الذهاب . . . وان البريطانيين وأحلافهم يهيئون جميع هذه التدابير الكاذبة وقد ابتدأوا يتهللون مؤملين أنهم سيشاهدون نار الحرب تملّظ في أوروبا . « وأصر المسيو دي مترنيخ على انكاره مقاصد حكومته العدائية .

ولما انتهى نابوليون قافلا من مدريد بمد ما تحقق قرب انقطاع العلاقات مع حكومة النمسا في أول مارس سنة ١٨٠٩ استعجراً السفير النمساوي على مخاطبة المسيو شامباني وزير خارجية فرنسا بما يأتي : « اذا كان الامبراطور يشعر بقلق من جهة التسليح المزعوم فلماذا يأنف من البحث معي في هذا الموضوع مؤثراً السكوت عنه واستدعاء جيوش الحلفاء للاستعداد للقتال ؟ فرمأ أدى بنا البحث الى التفاهم . « فاجابه الوزير الفرنسي بهذا الكلام : « ماهي الفائدة من ذلك



ناوليون يستقبل الملكة لوز البروسانية في تلست

وما هي المنفعة من المساعي الحكيمة لها التي عاجلناها من خمسة أشهر ؟ فلا يرضى
الامبراطور بمخاطبتك ياسيدي لئلا يكون حديثه معك عقيماً فقد فقدت عنده
بنوعائك الخداعة الثقة الممنوحة للسفراء . . . وفضلاً عن ذلك لا يطلب الامبراطور
الحرب ولا يبتغي منكم الا أن تدعوه يتمتع بالسلام ولكنه يحاربكم ان أنتم
أكرهتموه على ذلك . فهو لم يفتح أدنى سبيل لهذا الأمر . . . ولا أدري الى
أين تبلغ بكم مساعيكم ولكن اذا وقعت الحرب فما ذلك الا لكونكم اردتموها
خفاً دوره المسيو دي مترنيخ مضطرباً شاكياً من الاهانة اللاحقة به في دوائر
البلاط . فقال له المسيو شامباني : ان بلاط فيينا أهان كرامة نفسه بنقضه عهد
سفيره وبسط هذا الوزير في جلسة ١٤ ابريل لمجلس الشيوخ الحديثين اللذين
دارا بين الامبراطور وسفير النمسا وبين ذلك السفير وبسط له ايضاً
استعدادات الحكومة النمساوية للحرب ولما فرغ من تقريره قدم أخدم مستشاري
الحكومة صورة قرار لمجلس الشيوخ بتجهيز أربعين ألف جندي ووضعهم تحت
أمر وزير الحرب . فرضي المجلس بذلك القرار وأضاف اليه خطاباً مشتملاً على
كلمات شهيرة ذكرها نابوليون في كتاب انفضه الى اهل النمسا : « فليكن في
مساعي جلالتك ثقة تلقى صداها وان أفضل سياسة في هذه الايام هي سياسة
الصدق والاخلاص . فبح لي بمخاوفك حين تنتابك المخاوف فابادر الى ازالها . »
وكان فرانسوى الثاني قد استودع لندرة مخاوفه ولما قرر مجلس الشيوخ
الفرنسوي تجهيز الجنود ونهيئة عدة الحرب كانت أبواب القتال قد انفتحت
فكانت النمسا قد نشرت خططها وغزت بلدان المحالفة الرئيسية . وكان نابوليون
يقول كما قال وزيره أنه لم يعط أدنى سبيل لقطع العلاقات بحكومة فيينا وكان يقول
أيضاً كما كان يقول في معركة استرلنز وإيانا انه لم يكن يعلم ماذا كانوا يبتغون
منه ولا لماذا كان يتقاتل . بيد أن الوزارة النمساوية أزاحت عن العقول غشاء
الشك بأشعارها الناس بأن هذه الحرب لم تكن ناشئة عن أسباب خاسرة بل
عن أسباب عامة لقضية أوربية وهي القضية التي أوجدت جميع المحالفات السابقة
فان الوثيقة المبرمة في استرلنز والمعززة في برسمورغ أوشكت أن تنحل وكانت
تلك الخطة صورة عن خطط أوروبا القديمة من عهد خطة برنسويك وبمباراة
أخرى كانت حرباً دينية جديدة أثارها الحكومة النمساوية على العدو العام أي

على فرنسا وعلى العصر وعلى المبادئ الجديدة التي لم يكن نابوليون سوى لسان حالها

وأعلنت النمسا الحرب في ٩ ابريل واشتبكت جيوشها في القتال في ١٠ منه ونقل البرق الى الامبراطور في ١٢ منه أن العدو اجتاز الآن فانطلق لساعته من باريس ووصل الى ديلنجن في ١٦ منه فوعده ملك بافاريا بأن يرده في خمسة عشر يوماً الى عاصمته وكان البرنس شارل قد طرده منها وبلغ دوناورت في ١٧ منه فخاطب جنوده بالكلام التالي :

« أيها الجنود ان أرض المحالفة خرقت حرمتها وان القائد النمساوي يريد أن نفر هاربين من وجه جيوشه وان نعرض عن مناصرة حلفائنا ولكنني قدمت بسرعة البرق .

« أيها الجنود لقد كنتم تحفون بي حين جاء عاهل النمسا الي في مورافيا وقد سمعتموه يلهث شفقني ويقسم لي على أن يحفظ لي صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفرنا بالنمسا في ثلاث حروب فلما التفضل عليها في كل شيء وهي نقضت عهدنا ثلاث مرات متوالية على أن ما أصبناه من النصر في الماضي يضمن لنا ما يتوقعنا من النصر في المستقبل . سيروا بنا وليعلم العدو حالما تقع عينه علينا اننا نحن المنتصرون عليه . »

وقد جرأ النمسا على الاقدام على مواجهة الفرنسيين غياب نابوليون وحرسه وابتعاد كتائب مارنغو واسترلنز التي شابت نواصي رجالها في ميادين القتال . وكانت النمسا عالة أنه لم يبق من الفرنسيين في ألمانيا سوى ثمانين الف مقاتل متشتتين في جميع انحاءها وان جيشها المنقسم الى تسعة فيالق بقيادة الارشيدوق شارل لا يقل عدده عن خمس مئة الف مقاتل . وكانت حركاتهم الاولى تبشرهم بالظفر فهرب ملك بافاريا من مونيخ من وجه الارشيدوق الزاحف بسرعة من الآن الى الابر . وكان الجيش الفرنسي منتشرأ على خط طوله ستون فرسخا انتشارأ يجعله معرضاً لقطع خط الرجوع عليه وانكسار فرقه الواحدة منها بعد الاخرى . وأدرك القائد النمساوي حقيقة موقف الفرنسيين فضاءف نشاطه وأمله الا أن قدوم نابوليون غير وجه تلك الحال فانكسرت شوكة البرنس شارل ووهت عزائم جيشه واشتد بطش الجيوش الفرنسية وأصلح

في الحال ما كانوا قد ارتكبوه من الخطأ . واستأنف الامبراطور المسير على حطته العجيبة في الحركات الحربية وأنجز وعده لملك بافاريا فارجه باحتفال عظيم الى طاصمته قبل انقضاء عشرة أيام على اليوم المضروب له وعاد هذا الملك الى مونيخ في ٢٥ ابريل ونال نابوليون ستة انتصارات على الجيش النمساوي في ستة أيام . ولم يتمكن الفرنسيون من ادراك العدو الا في ١٩ منه وقد امتاز ذلك اليوم بانتصار مزدوج أصابوه في موقعة نيسافنوفن ومعركة طان . وفي موقعة بيسنغ وعملت الكتيبة السابعة والخمسون التي يقودها الكولونل شاريار الشجاع أعمالاً تعجز عنها الاسود فهجمت وحدها على الكتائب النمساوية ومزقتها أيدي سها . والتقى الفرقتان في ٢٠ منه في ابنسبرغ فدارت رحى معركة جديدة انتصر فيها الفرنسيون أيضاً . ولم يستطع النمساويون المقاومة أكثر من ساعة من الزمان فانهزسوا تاركين في حيازة خصومهم ثمانية أعلام واثني عشر مدفعا وثمانية عشر ألف أسير . وأنجز الفرنسيون في ٢١ منه في موقعة لاندشت ما كانوا قد بدأوا به في أمس ذلك اليوم من التتكيل باعدادهم وهجم الجنرال موطنون في هذا اليوم في مقدمة رجاله بين الالهيبي المندلع لسانه على حسر ممتد فوق الايزر وصاح بهم بصوت كالرعد القاصف : « تقدموا ولا تطلقوا بنادقكم . » ودخل المدينة بمد قليل من الحين وكانت قد أصبحت ميدانا للحرب طاحنة فلم يتمكن النمساويون من المقاومة مدة طويلة بل خلوا المدينة ونجوا بأرواحهم . وفاجأ الارشيدوق شارل برجاله البوهيميين فصيلة مؤلفة من ألف جندي وكل اليها أمر الدفاع عن جسر راتسن فحصرها وأسرها لانها لم تكن قد تلقت الامر بالانسحاب . ولما انتهى الى الامبراطور نبأ هذه الحادثة آلى على نفسه بأنه سيجري جداول من الدم النمساوي في أربع وعشرين ساعة في راتسن انتقاما للالهانة التي لحقت بمجيشه وزحف الى تلك المدينة في ٢٢ منه والتقى بالعدو البالغ عدده مئة وعشرة آلاف مقاتل كانوا متحصنين في اكمل . وكان ذلك فرصة للامبراطور لينتصر فيها انتصاراً باعراً وهجموا من كل جهة في مدة قصيرة على الجيش الكثير العدد فازاحوه من جميع مراكزه وكسروه شركرة فانهزم لايلوي على شيء تاركا قسما كبيرا من مدافعه وخمس عشرة راية وعشرين ألف أسير . وكان لسرعة جواد الارشيدوق شارل فضل عليه بنجاحاته من مخالب المنية

وجاء الجيش الظافر في ٢٣ منه الى راتسن وأقام الحصار عليها فلم يكن
الفرسان النمساويون المنهزمون من وجه لان قادرين على الدفاع عنها الا أن
الفصائل الست التي أبقاها الارشيدوق في ذلك الموقع عاجت المدافعة عنه فجاء
الامبراطور بذاته وامر بالهجوم فأصابته رصاصة في رجله اليمنى . فانتشر الخبر
بأسرع من لمح البصر في الجيش فهرول الجنود وقد توزعهم القلق ولكنهم لم
يكادوا يصلون الى حيث كانوا يضمّدون جرح الامبراطور بسرعة حتى أبصروه
ممتطياً صهوة جواده فطبقوا الفضاء بالتكبير والتهليل . وما عتَمُوا أن تسنموا
الاسوار وأخذوا المدينة وكل من قاومهم بطشوا به واستسلم اليهم ثمانية
آلاف رجل

وظل المارشال بيسار يتعقب الفارين من الفيالق النمساوية المكسورة في
ابنسبرغ ولاندشت فادركهم في ٢٤ منه في نومارك حين ضموا متفرق
شملهم وانضموا الى فيلق احتياطي كان قد وصل الى الان فظفر بهم وأسرمهم
الفأ وخمس مئة رجل

وأذاع الامبراطور النشرة الآتية في اليوم عينه في راتسن :
« أيها الجنود لقد حققتم آمالي فيكم وقد استعصمتم بشجاعتكم عن وفرة
العدد وميزتم بشكل مجيد الفرق بين جنود قيصر وجنود زركسيس .
« وانتصرنا في أيام قليلة في معارك طان وابنسبرغ واكمل ومواقع بيسنغ
ولاندشت وراتسن . وكان من نتيجة سرعة حركاتكم وشجاعتكم انا غنمنا
مئة مدفع وأربعين راية وأسرننا خمسين ألف رجل وأخذنا ثلاثة آلاف مركبة
موقرة أمتعة وجميع صناديق الجيش .

« وان العدو السكران بسلافة مواعيد حكومة ناقضة للعهد لم يبق حافظاً
أدنى ذكر لكم فقد كانت نهضته سريعة ولكنكم ظهرتم له أشد هولاً مما كنتم
عليه من قبل . ففي غابر الايام اجتاز الان وغزا بلاد حلفائنا وفي ماضي الحين
كان يحلم بمحاربتنا في وطننا وأما الآن فانه انكسر وقذف عليه الذعر وتبدد
حزائق وتمزق طرائق وقد عبرت ثلاثتنا نهر الان وستصل الى فينا قبل شهر »
وستتم هذه النبوءة التي أوحىها اليه الجرأة كما تمت نبؤته من قبل الملك بافاريا
وكان نابوليون يهيماً للزحف الى عاصمة النمسا ونقل مركز أركان حربه الى برغوسن

في ٣٠ ابريل لجأته كوثنة ارمنسبرغ وتوسلت اليه بأن يعيد اليها زوجها وكان النمساويون قد ساقوه أسيراً لاتهمهم إياه بالميل الى فرنسا وأذيعت هناك على الجيش الكبير النشرة الثالثة التي أغلظ فيها نابوليون في القول بحق شخص العاهل فرنسوى الثاني فقد كان ذهن نابوليون ممتلئاً من ذكرى اجتماع استرلنز وقد نسي أن ملوك الجنس القديم لا يعنون عهداً ولا ذماماً للحكومات الناشئة عن الفتنة الكبرى فقال : « برج طاهل النمسا فينا وقبل مزاييلته لها وقم على نشرة نسجت بردها براعة غنتر لجأته آية في الركافة والمحاورة . وانتجع شاردن وهو مكان اختاره لثلا يكون في غيره أي لثلا يكون في عاصمته فيحكم بلاده أو في ساحة القتال فيكون معرفة لحركات جيشه . ولعمر الحق أنه يندر أن يكون ملك متنسأ في الضعف والافك نظيره . » فلو كان نابوليون مصمماً على خلع العاهل الذي أهانه جهاراً بذلك الكلام لكان كلامه مقتصرأ على الالهة دون سواها ولكن اذا كان يريد أن تبقى بينهم علاقات متبادلة وكان يبتغي أن يبقيه جالسا على عرش تلك البلاد العظيمة فان لهجته هذه تنافي السياسة المبنية على الحكمة لانها تلقي في نفس العاهل المهان ضغينة شديدة تجعل فيما بعد الصلح والمخالفة مع بلاط فينا محفوفين بالريبة والخطر .

ونقل مركز اركان الحرب الى رباد في اول مايو فملغته الامبراطور في الليل ولجأ في ٣ منه الى ابرسبرغ فيلق قوامه ثلاثون الف حندي تألقوا من افلال الجيوش المقهورة في لاندشت فهاجمهم رماة البحر والرماة الكرسكيون واكلوا بهم تنكيلا وانضم بسيار واودينو الى ماسينا وزحفوا معا الى ابرسبرغ مهددين الجيش النمساوي بتطويقه والفتك به وكان الجنرال كلاباريد يسير في مقدمة فرقته وعددها لا يزيد عن سبعة آلاف وحالما برزوا لانظار عدوهم وكان محتلا مواقع ملائمة لم يشأ ذلك العدو ان ينتظر باقي الفيالق الفرنسية الا تية وراء فرقة كلاباريد فهاجمهم على هذه الفرقة بعد ما اضرم النار في المدينة المبنية مساكنها من الخشب والتهم لسان الليب في حين قصير كل ما لقيه في طريقه حتى انتهى الى الجسر . فاوقفت النار بسيار عن التقدم وكان مصمماً على عبور الجسر لنجدة كلاباريد فأكره هذا الاخير على الدفاع وحده ثلاث ساعات مقاتلا بسبعة آلاف مقاتل

ثلاثين ألفا ولكن فتح ممر بين اللهيبي فعبر الجنرالان ليغران ودورونل من جهتين مختلفتين . وابدئ الجندي الفرنسي من البسالة والشجاعة في هذه الواقعة ما يشيب الاطفال . واخذ الفرنسيون القصر واحرقوه بالنار وتراجع عدوهم باضطراب الى انس فاحرق الجسر ليضمن هربه الى جهة فينا . وخسر النمساويون في موقعة ابرسبرغ اثني عشر ألفا من المقاتلة بينهم سبعة آلاف وخمس مئة جريح . وذكرت النشرة الخامسة تفصيل موقعة ذلك اليوم بالكلام التالي :

« ان فرفة كلاباريد وهي جزء من فيلق اودينو جرت مطارف الفخر فقتل منها ثلاث مئة رجل وجرح ست مئة رجل وقد لفتت جرأة فصائل رماة اليو والرماة الكرسيكين انظار الجيش رومته . وسيظل الجسر والمدينة وموقع ابرسبرغ آثارا خالدة ناطقة بشجاعتهم : فالمار بذلك الموضع سيقف ويقول : في هذا المكان وفي هذا الموقف المنيع وعلى هذا الجسر الطويل وفي هذا القصر الحصين الموقع اندحر جيش نمساوي مؤلف من خمسة وثلاثين الف محارب امام سبعة آلاف فرنسوي . »

واستقبل الامبراطور في معسكره بابرسبرغ وفدا من ولايات النمسا العليا وتضى ليلة ٤ مايو في امس بقصر الكنت دوسبرغ ودخل دبر مولك الشهير في ٦ منه وكان قد عرج عاياه في اثناء حرب سنة ١٨٠٥ فوجد فيه هذه المرة عدة ملايين من قناني الخمر فشرب منها الجيش مقدارا كبيرا ولما مر الامبراطور امام انقاض قصر ديارنستين على رابية الى ما وراء مولك وفي جهة فينا قال للمارشال لان وكان الى جانبه : « هنا سيجن ريكاردوس قلب الاسد وهو ايضا ذهب كما ذهبنا الى سورية وفلسطين فقلب الاسد لم يكن يا لان الشجاع اشجع منك ولكنه كان اسعد جدا مني في عكاء . وقد باعه امير نمساوي لامبراطور المانيا فسجنه في هذا المكان . وكان عصره عصر الهمجية فما اعظم الفرق بينه وبين عصر حضارتنا وقد شاهد الناس معاملتي لامبراطور النمسا وقد كنت قادرا على القائه في السجن ومع ذلك سأعامله ايضا بالرفق كما عاماته قبلا . وليست هذه مشيئتي ولكن هي مشيئة العصر . » وكان نابوليون مصيبا في قوله هذا : فالعصر يجعله كريما وعظيما وجوادا وعالي الهمة بعد الانتصار والعصر يحركه حين يدل بتصرفه مع الملوك المقهورين على ما كان يميز التمدن الفرنسي عن الهمجية

ولكنه اذا ظهر بمظهر رجل التمدن تجاه الملكية القديمة فان هذه الملكية تظل في نوبتها جذيرة باصلها وتبين انها حارسة امينة لضلال الهمجية . فدهاء القرن التاسع عشر نزل ضيفاً خفيف الظل شديد المؤانسة في معسكر استرلنز ودهاء القرون المتوسطة صار فيما بعد سجاناً غليظ السكبد في جزيرة القديسة هيلانة . ونقل مركز اركان حرب الامبراطور في ٨ منه من مولك الى سان بلفن ووصل نابوليون بعد يومين الى فينا في الساعة التاسعة صباحاً .

وكان الارشيدوق مكسيمليان شقيق الامبراطورة متولياً القيادة في العاصمة فعالج الدفاع عنها ببسالة شديدة وجراً عظيمة ورفض باستعلاء اول إنذار أرسل اليه ليدعوه الى الاستسلام . وقد دفع الجهل هذا الامير الشاب الى الاحتفاء بزعم عصاة كان قد خرق حرمة الحقوق الدولية بأساءته الى حاجب المارشال لان الموفد لاجل المفاوضات فأمر بأن يطاف بحفلة باهرة بذلك المهوس في جميع أسواق فينا وشوارعها وهو راكب على جواد الضابط الفرنسي عينه بعد ما هجموا عليه بدناءة وأثخنوه جراحاً .

واستولى الامبراطور على ضواحي المدينة المأهولة بنحو ثلثي سكان العاصمة فأنشأ في ذلك المكان حرساً وطنياً ومجالس بلدية أرسلت الى الارشيدوق وفداً يتوسل اليه بأن يدفع الاذى عن مساكنهم . فلم يكن من وراء مسعاهم أدنى تأثير في الارشيدوق وظلت نار الحرب مستعرة استعماراً فلم يلق الامبراطور حينئذ بداً من اطلاق المدافع على المدينة اطلاقاً هائلاً فنصبت على مسافة مئتي متر على التقريب من الاسوار بطارية مؤلفة من عشرين مدفعاً من المدافع ذات القنابل المنفجرة وبدأت باطلاق النار على المدينة في الساعة التاسعة من مساء اليوم الحادي عشر منه وقذفت من تلك المدافع ألف وثمان مئة قنبلة في أقل من أربع ساعات ولم يكن يرى في المدينة سوى نيران مضطربة يخوض السكان عباها والاضطراب بالغ منهم مبلغه وبعد مساع عقيمة لاحباط أعمال الحاصرين علم الارشيدوق أن الفرنسيين عبروا فرعاً من نهر الدانوب وخشي من أن يقطعوا عليه خط الرجعة فخرج بسرعة من المدينة تحت جناح الدجى تاركاً للجنرال أوريلي الاهتمام بأمر التسليم وأذاع هذا الجنرال عند تباشير الصباح أن اطلاق القنابل سينقطع عن

قريب عن المدينة وأرسل الى نابوليون بعد قليل من الحين وفد كان من جملة أعضائه رئيس أساقفة فيينا فاستقبل الوفد في حديقة شبنرن . وأخذ ماسينا ليو بولدستاد عنوة في اليوم عينه ووقع على شروط استسلام فيينا في المساء واستولى أودينو ورجاله على موقع العاصمة في الساعة السادسة من صباح ١٣ منه وأذيعت النشرة التالية في الحال :

« أيها الجنود :

« بعد عبور العدو نهر الان بشهر من الزمان دخلنا فيينا في اليوم نفسه وفي الساعة عينها ولم يقو على احتمال أنظاركم نخبة قواده وجنوده والحصون التي شيدها عهال سلالة اللورين المملوءة أفئدتهم بغضاً لكم وحنقاً عليكم .

« ان أمراء هذه العترة لم يهجروا عاصمتهم كجنود شرفاء يذعنون لمقتضيات الاحوال ونكبات الحرب وويلاتها بل هجروها كناقضي اليمين غير مباين بوخن الضمير الذي يصحبهم ايان ساروا ولما فروا من فيينا كان وداعهم لسكانها بالاسراف في القتل والحريق وقد تصيروا ميده بنحوم أولادهم بأيديهم .

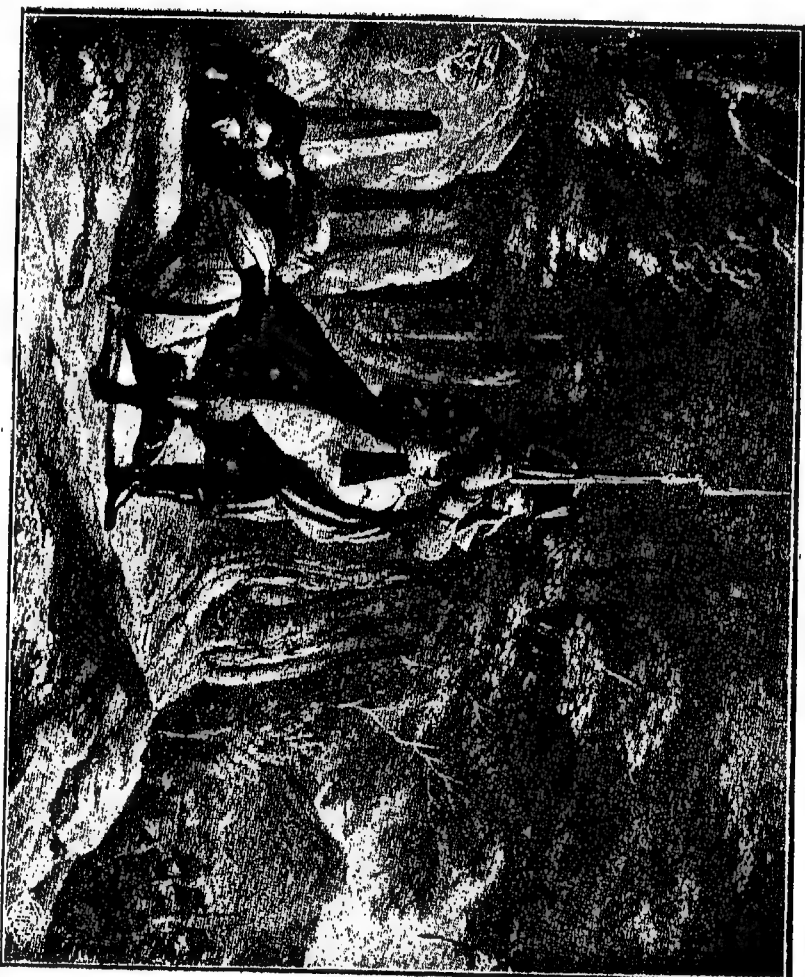
« ان شعب فيينا الذي وصفه مندوبو ضواحيها بكونه مهجوراً ومهملاً ومنبوذاً يجب عليكم أن تحرموه فقد اتخذت سكان هذه المدينة تحت حمايتي الخاصة . أما ذوو الدسائس وأحلاف الشر والفساد فاني سأجعلهم عبرة رادعة وعظة زاجرة .

« أيها الجنود احسنوا التصرف مع الفلاحين المساكين ومع الشعب التماس المستوجب احترامنا . فلا تفتخر بانتصارنا بل فلنعثره برهاناً عن العدالة الالهية التي تعاقب جاحد النعمة وناقض العهد .

نابوليون »

ولم يترك الجيش النمساوي الحرب عند خروجه من عاصمة الامبراطورية بل استند الى الدانوب بعد ما هدم جسورته في فيينا وما جاورها وجعل يترصد فرصة ملائمة للتوئب على الفرنسيين والانتقام منهم وكان جسر لنتر أول موقع باشر الهجوم عليه الا أن فندام قاومه مقاومة عنيفة وجاء برنادوت لنجدته فهزم النمساويين ومزق ثملهم تمزيقاً .

وكان نابوليون قد عيل مصطبره لاجتياز النهر عنوة وانجهاز هذه الحرب المجيدة فعني غناية خاصة باعادة بناء الجسر . وكان ماسينا قد بنى عدة جسورة



كان نابوليون يتفقد الجيش ليلا فوجد خفيراً نائماً في مراكبه فاختد نابوليون بنديقه الخفيرو وقف في مكانهولما استيقظ الخفيرو
وجد الامبراطور في ذلك الموقف طارت نفسه شعاعاً ولكن نابوليون سكن مخاوفه وأوصاه بالابهمل مايجب عليه في المستقبل

على فروع الدانوب عند جزيرة لوبو . فصمم نابوليون على الاستفادة منها لاجل عبور الجيش برمته واتخذت فيالق لان وبسيار وماسينا مراكز لها في تلك الجزيرة في خلال ثلاثة أيام . وكانت المواصلات مع الميمنة تتم بجسر مصنوع من المراكب طوله نحو الف متر يغطي ثلاثة فروع من النهر . وبني جسر آخر طوله نحو من مئة وعشرين مترا قصد به ضم الجزيرة الى الضفة اليسرى واستسهل المرور عليه خمسة وثلاثون الف مقاتل في اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو لمباشرة القتال من اسبرن واسلنغ وجاء الارشيدوق شارل في الساعة الرابعة مساء وقد جمع بقايا الفيالق النمساوية المنكسرة في بافاريا وألف منها ومن جنوده الاحتياطيين جيشاً قوامه مئة الف محارب وانقض على فيالق ماسينا وبسيارولان وهي الفيالق الوحيدة بين الجيش الفرنسي التي عبرت ضفة الدانوب اليسرى وكان ماسينا أول من هوجم في اسبرن فأبدى مع قلة عدد رجاله معجزات من البسالة والاقدام ولم تقل اصمال لان في اسلنغ عن أعمال ماسينا . أما بسيار فانه كان يهجم بفرسانه هجمات صادقة على العدو الضارب بين تينك القريتين

وانقطع اطلاق النار عند دخول الليل ولم يتمكن جنود الارشيدوق شارل المئمة الفاً من إزاحة الخمسة وثلاثين الف فرنسوي المتولي قيادتهم ماسينا ولان وبسيار شبرا واحداً عن مواقعهم . وقدمت مجندات لمعاونة الفرنسيين فكان الغد يوم شؤم على الارشيدوق وعبرت الجسورة في اثناء الليل رجال اودينو وفرقة سان هيلار وكوكتان من الفرسان وفصيالة من المدفعيين وانضموا الى الفيالق الفرنسية الثلاثة الآتفة الذكر . وكان نابوليون قد هباً كل شيء رجاء ان ينتصر انتصاراً باهراً وبدأ النمساويون بالهجوم على اسبرن في الساعة الرابعة صباحاً فكان ماسينا هناك مستعداً للدفاع عنها . فهذا القائد الهصور الهام الذي لم تكن بسالته ورباطه جأشه ومواهبه الحربية تظهر الا في المواطن المحفوفة بالمشاق لم يكتف برد هجمات النمساويين بل صمد الى اتخاذ خطة الهجوم عليهم وبدد شمل الفيالق التي كانت تحاربه وكان لان قد هجم في الوقت عينه بشبان الحرس على وسط الجيش النمساوي ارادة قطع المواصلات بين جناحيه وكان كل شيء يخشم امام هذا المارشال الشجاع وسار النصر في حكم المقرر للفرنسيين وقد جاؤوا في الساعة السابعة صباحاً واخبروا الامبراطور ان الدانوب طغى فجأة جاراً في

مجراد اشجارا وارمانا واشياء اخرى مختلفة وهدم الجسر الكبير الواصل جزيرة لوبو بالصفة اليمنى والمؤلف الطريق الوحيد للاتصال بين الفيالق المتوغلة في الضفة اليسرى وباقي الجيش الفرنسي . ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون ولم يكن معه سوى خمسين الف جندي لمحاربة مئة الف نمساوي امر بتوقيف الحركات الامامية واوعز الى المارشالية بان يكتفوا بالمحافظة على مراكزهم ليتسنى لهم التراجع بانتظام الى جزيرة لوبو . ففعلوا ما امرهم به ودافع القواد والجنود عن شرف الراية الفرنسية دفاع الابطال . ولما علم النمساويون ما كان من امر تهدم الجسورة وتوقف معظم الجيش الفرنسي عن العبور وتعذر ارسال القنابل والقذائف الى الذين اجتازوا منهم النهر تجمروا على الهجوم على الفرنسيين في جميع الجهات . وهجموا ايضا ثلاث مرات متوالية على اسبرن واسلنغ وكانوا يندحرون في المرات الثلاث وقد امتار في هذه المعركة الجنرال موطون ورجاله رماة الحرس ونهض المارشال لان الذي فوض اليه الامبراطور المحافظة على ساحة القتال باعباء مهمته خير نهوض . وكانت له اليد الطولى في انقاذ ذلك القسم من الجيش بعد ما كان قد اصبح على قاب قوسين من الهلاك . وكان هذا العمل الخطير آخر عمل اتاه هذا الجندي الجريء في سبيل خدمة وطنه وخدمة القائد الاكبر صديقه الحميم وسيده العظيم . فان فذيفة اصابت به في اخر النهار ذهبت بفخذه فعملت له عملية القطع في الحال بنجاح جعلهم يعللون النفس بنجاته من طائلة المنية الا ان بارقة الامل ما مكثت ان اضمحلت فوضع المارشال على تحمل وجيء به الى الامبراطور فلم يستطع هذا حبس عبراته عن الانحدار عند رؤيته رفيقه الامين وخله الوفي مجروحاً جرحاً مميتاً . فالتفت الى المحيطين به وقال لهم :

« لقد قضي على قلبي في هذا النهار بان يطعن هذه الطعنة النجلاء وهذا ما يجعلهم يشؤون غير شؤون جيشي » اما لان نانه بعد ما كان قد اُغمي عليه تاب اليه الروح في حضرة نابوليون فعانقه وقال له : « ستفقد بعد ساعة شخصاً يموت مفتخراً باعتقاده انه كان ولا يزال خير خلانك وأصفيائك » .

وظل المارشال حياً عشرة ايام حتى أنهم أملاوا حيناً من الزمان بانه سينجو من مخالب الحمام الا أن الحمى الحبيثة اشتدت وطأتها عليه فصرمت حبال حياته في ٣١ مايو بمدينة فينا ، وقال نابوليون : « ان الانسان حين يقترب من فقد

الحياة يعتصم بأهدابها بجميع قواه فلان وهو أشجع جميع البشر لم يكن بعد ما فقد تغذيه يشاء أن يموت... فكان ذلك العائر الجد يطلب كل دقيقة أن يشاهد الامبراطور. وكان يتعلق بي بكل ما بقي له من الحياة. ولم يكن يريد غيري ولم يفكر الا بي. فهي وأيم الحق غريزة تنشأ في الانسان منذ وجوده أجل أنه كان يحب زوجته وأولاده أكثر مني ولكنه لم يكن يذكرهم وما ذلك الا لانه لم يكن يتوقع منهم شيئاً فقد كان سنداً لهم وعناداً وأما أنا فاني كنت سنده وعتاده. فكنت في نظره شيئاً مبهماً سامياً وكنت عنايته: فكان يتوسل اليها.. وكان يتعذر وجود شخص أشجع من مورات ولان فورات بقي شجاعاً وهو حي يرزق وروح لان عظمت حتى صارت مساوية لشجاعته وقد أصبح جباراً... ولو بقي حياً الى هذا الزمن الاخير لما كان على ما أعتقد يقصر في الشرف والواجب عليه: فقد كان من عداد الاشخاص الذين يغيرون وجه الاحوال بذاتهم وتفوقهم الشخصي.

وأصيب الامبراطور بضربة أخرى في معركة اسلنغ فانه فقد فيها قائداً آخر من أشجع قادة جيشه وأمهرهم وهو الجنرال سان هيلار وقد جاء في مفكرات نابوليون ما يأتي: « في هذا اليوم قتل الجنرالان الدوق دي منتبلو وسان هيلار وهما بطلان مشهوران وصديقان حميمان لنابوليون فذرف عليهما الدموع ولم يكن يعوزهما الثبات على ولاء الامبراطور عند زول النوازل به ولم يخونا محمد الشعب الفرنسي. » وكانت هاتان الضربتان الشديدتان ثقيلتي الوطأة على الامبراطور فجعلته يتأمل في بطلان الاشياء العالمية وسرعة زوالها وكتب الى جوزفين في ١٣ مايو يدها حزنه على موت لان الذي صرعه المنية في صباح هذا اليوم وكان من جملة ما كتبه في رسالته هذه الكلمات: « وعلى هذه الصورة يزول كل شيء. » وقد ذهل في تلك الدقيقة عن عظمة العمل الذي باشره واتساع نطاق مجده الذي كان يعمل النفس بتصويره خالداً ونسي أيضاً ما كان يأمله من ابداء الاجيال المستقبلية آراءها فيه.

على أن يوم اسلنغ الذي جر المجد على الجيوش الفرنسية لم يكن ليضع حداً فاصلاً لتلك الحرب فبقي النصر متردداً بين الفريقين: وكان كل منهما يزعم أن النصر بجانبه. وكانت تلك الحرب في انظار المملأ الاوربي فشلاً لنابوليون

وقد كان متعمداً سحق أعدائه وتمزيقهم أيدي سبا ولكنه لم يتمكن في هذه المرة من اراحة النمساويين عن مواقفهم وقد اضطره حادث غير منتظر وقلة عدد رجاله الى المحافظة على موقفه . وأدرك الامبراطور أن وقفته هذه سيكون لها تأثير أدبي سيء في فرنسا وفي الخارج ولذلك كان يحاذر أن يزيد موقفه حرجاً بأقل حركة تقهقرية فعزم على البقاء في جزيرة لوبو ولم تكن في بدء الامر سوى مستودع لعبور الدانوب وقد أجبره تلغيان النهر وانهدام الجسورة على البقاء فيها محصوراً مع قسم من جيشه .

أما الارشيدوق شارل القلق البال من جراء حركات دافو الذي كان يطلق مدافعه على برسبورغ فإنه لم يجرؤ على الهجوم فصمم على تعزيز موقفه بين اسبرن وأنزسدرف

وكان نابوليون يعيد بأسرع ما يمكن بناء الجسورة المهتمة فلما لبثت المواصلات أن أعيدت بين الجزيرة وضفة النهر اليمنى . وجاءت أخبار تنبئ أن جيش ايطاليا المتولي قيادته البرنس اوجين ظفر في سان ميشال بفيلق يالاشيش النمساوي بعد معركة اسلنغ بثلاثة أيام وهزمه شر هزيمة وان جيش ايطاليا الفرنسي التحم بجيش ألمانيا عند مرتفعات سمرنغ فبادر حينئذ نابوليون الى اذاعة النشرة الآتية على جنوده

« يا جنود جيش ايطاليا

« لقد أدركت بفخر الغاية التي عينتها لكم وكان سمرنغ شاهداً على التزامكم

بالجيش العظيم

« أهلاً وسهلاً بكم فانا مسرور بكم لقد فاجأكم عدو غدار قبل انتظام شمل كتائبكم فلم تلقوا بدا من التقهقر حتى نهر الادبيج ولكنكم حين بلغكم الامر بالتقدم كنتم في البقعة التي جرت فيها معركة اركول الشهيرة قسمتم هناك بارواح ابطالنا على أن تنالوا النصر . فبرئتم بايمانكم في معركة بيافا ومواقع سان دانيال وطرفيس وغوريس ... على انكم قد احطتم في سان ميشال بفيلق يالاشيش الذي دخل مدينة مونيخ قبل سواه وأشار بالمذبح في الطيرول وأعملتم فيه نصالكم . وقد أسرتم بالاقتصاص من تلك البقايا الناجية من سحق الجيش الاكبر

« أيتها الجنود ان هذا الجيش النمساوي في إيطاليا دنس بلادي بمحضوره فيها زاعماً انه يبتغي تحطيم تاجي الحديدي فكسرتوه ومزقتم شمله وأهلكتموه وسيكون عملكم مؤيداً لهذه الآية . الله أعطانيه فذار ان يمسه أحد ! »

وتلا الالتهام الآنف الذكر انتصار جديد اصابه البرنس أوجين على الارشيدوق جان والارشيدوق البالاتيني في رعب في ١٤ يونيو وهو تذكاري معركتي مارنغو وفردلانندوبعدما انتصر مرمون في عدة أماكن في دلماسيا انضم في نوبته الى الجيش العظيم مؤمراً بأوامر الإمبراطور فرأى نابوليون ان الحين دنا ليضرب الضربة القاضية التي كان يستعد لها من أكثر من شهر فقد كان يلزمه بعد الدم المسفوك بفخر على غير جدوى في ايلو ان تشتعل نيران معركة فردلانند ولم يكن بد بعد اسلنغ من نشوب معركة وغرام واليك سرد أخبار هذه المعركة على ما جاء في النشرة الخامسة والعشرين المذكور فيها عبور نهر الدانوب في ٤ يوليو في الساعة العاشرة مساء وحريق انزرسدرف وعدة انتصارات جرت في اليوم الخامس منه .

معركة وهرام

« وكان الخوف الشديد قد دخل على العدو من انتصارات الجيش الفرنسي والنتائج العظيمة التي أصابها بلا عناء على التقريب فأمر الإمبراطور جميع جنوده بالسير وفي الساعة السادسة مساء احتل مواقعه . لجعل ميمينته من ستادلو الى جيراسدرف ووسطه من جيراسدرف الى وغرام وميسرته من وغرام الى نوسيدل . وكانت ميسرة الجيش الفرنسي في غرس أسبرن ووسطه في راشدرف وميمينته في غلنزندرف . وكان يظهر في ذلك الموقف ان النهار كاد ينتهي وكان ينتظر وقوع معركة عظيمة في الغد . ولكن تمكن الفرنسيون من تجنبها وقطعوا موقع العدو حائلين دون تدبيره خطة من الخطط الحربية اذا ما كان الفرنسيون يستولون ليلاً على قرية وغرام . وحينئذ يؤخذ خطه المتسع على غرة بمقتضى أحوال الحرب فيتقطع نظام فيالق الجيش وتضل عن غايتها ويتمكن منها دون

نشوب مواقع جديدة ووقعت موقعة وغرام فاستحوذت جنودنا على هذه القرية إلا أن كتيبة من السكسونيين وكتيبة من الفرنسيين توهمت كل واحدة منهما وهما تحت جنح الدجى ان الأخرى كانت من الأعداء ومن جراء ذلك حبط ما كانوا ينوون تديره .

« وهياًوا العدة حينئذ لمعركة وغرام . وكانت خطة كل من القائدين الفرنسي والنساي مخالفة لخطة الآخر فقضى الامبراطور ليلته في حشد قواه في الوسط حيث كان موقفه على مرمى قنبلة من وغرام . وحشد الدوق دي ريفولي قواه عند يسار أدركلا تاركا فرقة واحدة عند اسبرن بعد ما أمرها بالراجع عند الحاجة الى جزيرة لوبو . وتلقى الدوق دورستادت أمراً بتجاوز قرية غرسهوفن ليدنو من الوسط أما القائد النساي فانه جرى على ما يخالف هذه الخطة أي انه أضعف الوسط وعزز الطرفين بتمديد اياها .

« واحتل البرنس دي بلتي كرفو الميسرة في ٦ منه عند تباشير الصباح ووراءه الدوق دي ريفولي . وكان البرنس أوجين كصلة بينهما في الوسط حيث كان فيلق السكت أودينو وفيلق الدوق دي راغوزا والحرس الامبراطوري وفرق المدرعين وهي تؤلف سبعة خطوط أو ثمانية خطوط .

« وزحف الدوق دورستادت من الميمنة الى الوسط أما العدو فانه سير بعكس ذلك فيلق بلغارد على ستادلو وكانت فيالق كولوراث ولختنستين وهيل صلة بين هذه الميمنة وموقع وغرام حيث كان البرنس دي هوهنزولرن وطرف الميسرة عند نوزيدل حيث يبتدىء فيلق روزنبرغ لكي يهجم على الدوق دورستادت . ولما كان فيلقا روزنبرغ والدوق دورستادت يقومان بحركتين مختلفتين التقيا عند طلوع الشمس وباشرا القتال . ففي الحال خف الامبراطور الى ذلك المكان وعزز الدوق دورستادت بفرقة مدرعي الدوق دي بادو وهجم عل فيلق روزنبرغ من كسحه ببطارية مؤلفة من اثني عشر مدفعاً من فرقة الجنرال السكت نسوتي . وفي أقل من ثلاثة أرباع الساعة ظفر فيلق الدوق دورستادت بفيلق روزنبرغ وبدده ودحره الى ماوراء نوزيدل بعد ما نكل به تنكيلا .

« وأصبح اطلاق المدافع على الخط بطوله في خلال ذلك الحين وصار

موقف العدو يتقوى شيئاً فشيئاً فكانت المدافع منصوبة على ميسرته كلها وكان الناظر الى هذه الحركات يتوهم ان القائد النمساوي لم يكن يقاتل طمعاً بأصابة النصر بل وكان واضحاً نصب عينيه ادراك الوسيلة التي تمكنه من بلوغ غايته . وكان يظهر ان الجبل حمل العدو على تدبير موقفه بحيث ان الامبراطور خشي من أن يكونوا قد نصبوا له أحبولة فتردد حيناً من الزمان قبل اصداره الأمر باتخاذ التدابير لاحباط تدابير العدو وتصييرها شؤماً عليه . فأمر الدوق دي ريفولي بالهجوم على القرية النازل فيها العدو وكان هذا يضيق طرف وسط الجيش قليلاً وأمر الدوق دورستادت بأن يدور حول موقع نوزيدل ويزحف الى وغرام وأوعز الى رجال الدوق دي راغوزا والجنرال مكدونالد بأن يهجموا على وغرام عند هجوم الدوق دورستادت عليها .

« وذاع في أثناء ذلك الحين ان العدو هجم هجوماً شديداً على القرية المستولي عليها الدوق دي ريفولي وان ميسرة الجيش الفرنسي أحاط بها النمساويون على مسافة ستة آلاف متر على التقريب وان اطلاق المدافع بشدة كان صوته مسموعاً في غرس أسبرن وانه كان بين غرس اسبرن وغرام خط طويل من المدفعية . فلم يبق من وجه للشك بأن العدو كان قد ارتكب خطأ فاضحاً ولم يكن لهم الا الاستفادة منه . وأمر الامبراطور في الحال الجنرال مكدونالد بأن يهجم بفرقتي بروصيه ولامارك وأن يعززهما بفرقة الجنرال ننسوتي وفرسان الحرس وبطارية مؤلفة من ستين مدفعاً من مدافع الحرس وأربعين مدفعاً من مدافع الثقيل الاخرى . وجرى الجنرال الكنت دي لوريستون خبياً ومعه المدافع المئة يؤم العدو من دون أن يطلق مدفعاً واحداً منها حتى صار على نصف مرمى تلك المدافع فباشر حينئذ اطلاق القنابل اطلاقاً عجيبياً أسكت صوت مدافع العدو وقذف الموت على صفوفه . ثم أن الجنرال مكدونالد حمل حملة صادقة وعضده الجنرال ريل ورماة الحرس . وكان الحرس قد غيروا موقف مقدمتهم إرادة أن يجعلوا الحملة مضمونة النتيجة . وتقهقر وسط العدو فرسحاً الى الوراء في أقل من ملح البصر وذعرت ميمنته عند شعورها بخاطر موقعها وأسرعت الى التقهقر فصدتها الدوق دي ريفولي صدمة قوية . ولما كان انكسار الوسط يسوق الرعب ويضطر ميمنة العدو الى الانسحاب كان الدوق دورستادت

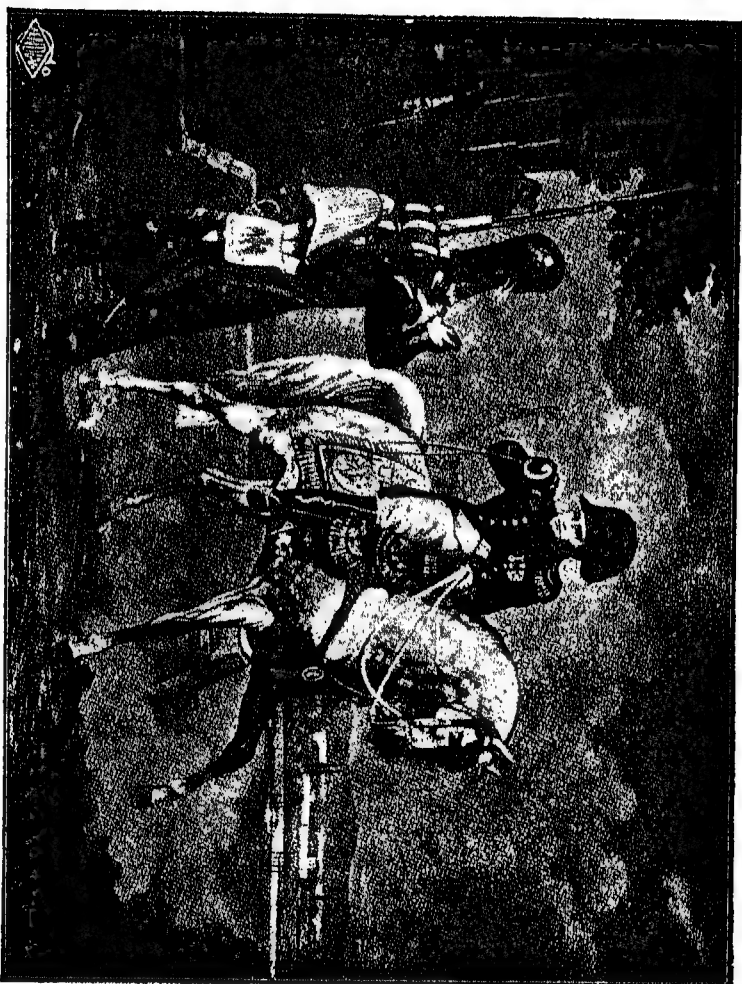
يهجم على الميسرة بعدما استولى على نوزيدل وزحف الى وغرام متسهما تلك الهضاب وقد التحفت فرقتا بروصيه وغودان بمطارف المجد والفخار .
« وكانت الساعة العاشرة صباحاً ومع ذلك كان الاشخاص الذين لم يؤثروا دهاء عظيمًا يعلمون أن النصر كان مقرراً لنا .

« وزحف الكنت أودينو عند الظهر الى وغرام ليقوم بنصر الدوق دورستادت فنال بغيته واستولى على ذلك الموقع المنيع ومن الساعة العاشرة لم يكن العدو يقاتل الا ليضمن تراجعهم وقد تقرر هذا التراجع منذ الظهر وتم باضطراب . وقبل دخول الليل بمدة طويلة توارى العدو عن الانظار . وكانت ميسرتنا في ياتلزه وابرسدرف ووسطنا على اوبرسدرف وفرسان ميمنتنا في مواقع ممتدة حتى سنكرخن .

« ونحرك الجيش زاحفاً الى كورنوبورغ في ٧ منه عند تبليج الفجر ولكرسدرف واتخذ له مراكز على نيكولسبورغ . وأصبح العدو المنفصل عن الحجر ومورافيا محصوراً في جهة بوهيميا .

« هذه أنباء معركة وغرام الشهيرة المعدودة حداثاً فاصلاً والمشتبك فيها ثلاث مئة ألف الى أربع مئة ألف مقاتل ومعهم ألف ومئتا مدفع الى ألف وخمس مئة مدفع من كلا الجانبين في حرب أوقدت نيرانها لاجل مصالح خطيرة في ميدان دبره وهياؤه وحصنه العدو من عدة أشهر . وغنم الفرنسيون في هذه المعركة عشر رايات وأربعين مدفعاً وأسروا عشرين ألف محارب بينهم ثلاث مئة ضابط الى أربع مئة ضابط وعدد كبير من القواد . وقد غطت جثث القتلى ساحة القتال وكان من جملتهم عدة قواد وبينهم قائد يدعى نورمان فرنسوي الاصل خان وطنه ووقف قواه العقلية على مناوراته . »

هذه المرة الثالثة التي ألقي فيها بن يدي نابوليون حظ أسرة لورين وقد كان يتهمها بنقض اليمين ونكران الجليل أمام أوربا وأمام التاريخ وهذه المرة الثالثة التي بادر فيها ذلك الظافر العنيف في تهديده والشديد اللهجة في تعنيفه الى القبول بما اقترحه عليه مثيرو نار الحرب من عقد الصلح بعد ما هدم يوم وغرام جميع ما شيدوه في أذهانهم من صروح الآمال واستنفد كل ما كان عندهم من الموارد . ولما طلب عاجل النمسا توقيف رحي القتال منحه نابوليون



كان نابوليون كآب للجنود فطش ذات مرة وتناول الارباق من آحد الجنود
وشرب فقال له الجندي : انى أشرب بعلك يا مولاي

سؤله فتم التوقيع على ذلك في ١٠ يوليو في زنايم ففتحت أبواب المفاوضات في الحال وظلت مفتوحة ثلاثة أشهر أقام نابوليون في أثناءها في قصر شنبرن . وانتهى اليه في خلال اقامته في هذا القصر نبأ نزول ثمانية عشر ألف بريطاني في جزيرة ولخيرين وتسليم فلسنغ ومحاولة البريطانيين فتح انفرس . فانقذ لساعته برنادوت والوزير دارو للدفاع عن المدينة الاخيرة فاضطر البريطانيون الى مغادرتها وركوب البحر للعودة الى بريطانيا العظمى بعد ما فتكت الامراض بنحو ثلاثة ارباع هذه البعثة .

وأمر الامبراطور بالجنرال مونه أن يحاكم على تقصيره في الدفاع عن فلسنغ . ولا يخفى أن ما كان نابوليون يبيديه من العنف نحو الدين لم يكونوا يفعلون كل ما كان في استطاعتهم أن يفعلوه للذود عن حياض الشرف الفرنسي كان يبدي مايعا كسه من الارتياح الى التنويه بأهلية الاشخاص المعدودين من أصحاب الدهاء والبسالة وكانوا يساعدونه مساعدة فعالة في المجالس وفي ميادين الوغى وكان يسر بأن يكافئهم على أعمالهم النبيلة وما أثرهم الجليلة . ولذلك رقى بعد معركة وغرام أودينو ومكدونالد ومرمون الى رتبة المارشالية

وكان الجيش الفرنسي قد احتل جميع المواقع الحصينة في المانيا من الدانوب الى الالب ومن الرين الى الاودر . ولما كان هذا الاحتلال محقراً للاهلين وشديد الوطأة عليهم اصاحوا الى ما كان العمال البريطانيون والتمساويون والبروسيانيون يحرشونهم به على فرنسا وزعيمها الاكبر وكان القوم في المانيا يجهلون مدار المفاوضات على الصلح ولذلك لم يمكنهم أن يقفوا على مخادعة حكومتهم ويكشفوا دخالها ومكتومات ضمايرها . وكل ما كانوا يعملونه هو أن الحرب ضربة شديدة عليهم فكانوا يلقون تبعاتها على غازي بلادهم زاعمين ان مطامعه لم تكن ترتوي من الفتوح . وكان ذلك بدء النفور الوطني من نابوليون وقد صارت جرائمه تختمر من ذلك الحين في ألمانيا وأوجدت اعداء جدداً وذوي بأس بين الشعوب لممثل المبدأ الشعبي وهو لم يكن يلقى حتى ذلك الحين الا أعداء عاجزين بين الملوك .

وقد ظهرت الدلائل الاولى على تلك العواطف التي نشأت في شنبرن وظهرت كالشمس في رائحة النهار فقد جاء من ارفرت الى فينا شاب منهوس يريد الايقاع

بنابوليون ففاجأوه وهو يوشك ان يضع مقصده موضع الاجراء فبقي ساكناً وغير متأثر ولم يبد ندامة ما بل تأسف على عدم تمكنه من الفتك بالامبراطور وقد شاء نابوليون ان يستنطقه بذاته عن بلاده واسرته وعلاقاته وعاداته فاجابه بان اسمه ستابس من ارفرت وانه ابن قس من اتباع لويروس ولم تتسن له معرفة شيل وشنيدر ولم ينتظم في سلك جمعية الماسون أو غيرها من الجمعيات السرية فسأله الامبراطور لماذا لم يقتله في ارفرت حين كان نازلاً فيها . فاجابه لانك تركت بلادي في ذلك الحين تتنفس الصعداء وقد كنت معتقداً ان السلام مضمون لها ولم يكن هذا الشاب يبتغي البطش بنابوليون الا لاعتقاده ان العاهل كان سبباً للحرب وفاتحاً لايعتره سأم ولا ملل ومكدرراً لحياض السلم في أوروبا . ولو كان الشعب الالماني عارفاً حق المعرفة أسرار تلك الاحوال ومحركي الحرب الحقيقيين لكان ولا مرأ قد وجه سهام سخطة على حكومته ورفع عليها يده . وادرك نابوليون من حديث الشاب مقدار التهوس الذي كانت سياسة اعدائه الكاذبة قد اقلت بذاره في رؤوس المملأ الالماني . وقيل انه كان يبتغي الصفع عن ستابس لتأثره من حرية افكاره وجرأته ولرؤيته فيه آلة عمياء تحررها الاهواء التي آثارها اصحاب الطريقة القديمة في الاحكام ولكن أوامره تأخرت عن الوصول في الحين الملام . وقد استقبل الشاب الالماني منيته برباطة جأش وهو يصبح بملء فيه :

« فلتحي السلم ! فلتحي الحرية ! فلتحي المانيا ! »

على أن الصالح الذي كان له انصار ومريدون في الديار الجرمانية عقد في فيينا في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩ وقد تنازل امبراطور النمسا بموجب هذه الوثيقة عن اراض جديدة لفرنسا وسكسونيا وغيرها . وان القيصر ذاته الذي لم يكن قلبه يميل الى فرنسا في اثناء الحرب ولم يكن يتمنى لها النصر اصاب حصته من اسلاب حلفائه السريين : فان نابوليون لاعتقاده صحة ما أظهره قيصر الروس من التودد اليه ايام كان في ارفرت اعطاه القسم الشرقي من غاليسيا البالغ عدد سكانه اربع مئة الف نسمة . ولما تم التوقيع على وثيقة الصالح برح نابوليون قصر شنبرن عائداً الى فرنسا فوصل في ١٢٦ أكتوبر الى فننبلو .

الفصل الخامس عشر

الخلاف مع البابا - ضم الولايات الرومانية الى فرنسا

وكان الملوك في جميع جهات القارة الاوربية قد اجمعوا عن واقعة نابوليون والتمرس به لاعتقادهم ان طالعه كان ميمونا وان سمعده مسعده له وقد ذلت له كبرياء الاسر القديمة الملكية والاسطوقراطية وتحاقت أمام المجد الشعبي المحلل للعرش الامبراطوري أو لجأت الى ما وراء البحار لتخبي صفاتها وخزبها . ففي الجنوب فرت اسرة براغانس الى البرازيل لاتلوي على شيء ويمت الاسرة المالكة في نابولي جزيرة صقلية عند رؤيتها الاعلام الفرنسية المنصورة واما بوربون اسبانيا فانهم تسابقوا الى بايون لالتماس مناصرة نابوليون والقاء تاجهم بين يديه . ولم تنج العر المتعجرفة في الشمال من تجرع كؤوس الذل والخسيفة فان عترتي اللورين وبرندبورغ اللتين كانتا فيما مضى على جانب عظيم من الفطرسه والبغضاء أكرهتا على التصاغر والتناس محالفة قاهرهما . وأما ذلك العاهل العظيم زعيم اسرة رومانوف فانه تظاهر بنبذه المهمة السامية المراد بها الدفاع عن الحق الالهي وأعلن في كل ناد انه من اصدقاء نابوليون الداهية ومن المعجبين بمن جعله المبدأ الثوري ولي الامر والنهي في فرنسا وكان يكثّر من ارسال الهدايا وايفاد السفراء الى بلاطه . وقد جرى صفار الامراء وحكام الجمهوريات بحكم الضرورة على سبيل الاقيال والمهال وكبار الملوك ونموا لذلك الفرد الممتاز باسرار خضوعهم له وانقيادهم الى مشيئته . فاستدري أصحاب السمو في المانيا بكنف الفاتح الذي لا يبارى بمضمار . والجمهوريون الهولنديون طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكا من اسرته وقدم له الجمهوريون الايطاليون التاج الحديدي ورضيت الجمهورية السويسرية بتوسطه الهائل .

الا انه مع ذلك الخضوع العام الناشئ عنه الاعجاب عند البعض والخوف عند البعض الآخر وفي ذلك المشهد الواسع المرسوم فيه اذعان الملكية والجمهورية معاً بقي نقصان لم يكن بد من اتمامه . ففي احدى زوايا اوربا وفي اقصى ايطاليا جرؤ اضعف شخص من اصحاب السلطان السياسي على معارضة صاحب السلطان

العالم الأكبر ولم يرعه بما أبداه من المعاكسة والملامة والتهديد ان يكدر صفو المدائح والتملق التي كانت اصواتها يردد صداها من طرف القارة الى طرفها الآخر . فهذا الملك العنيد وتلك الاداة الاخيرة المقاومة الماضي لمطالب رجل العصر كان البابا الذي جاء بذاته تاركا قصر الكويرينال ليتوج نابوليون في باريس .

فهل كان البابا وهو ليس بشديد الحول والطول كصاحب سلطان زمني يستطيع الاتكال على تأثير صواعقه الروحية ؟ وهل كانت العصور المتوسطة الهاوية المهدامة من كل جهة باقية في رومية مملوءة قوة وحياة ؟ وهل اصاب الانظمة والاعتقادات الدينية المتسلسلة عنها سيادة الباباوية وبهاؤها ضربات ذلك العصر القاضية اقل مما اصاب الانظمة والاعتقادات السياسية المبنية عليها صروح سيادة الملكية والارسطقراطية ؟

ان التاريخ يذكر لنا خلاف هذا الوهم فن اكثر من مئتي سنة كتبوا من فرنسا الى الكرسي الرسولي ان نشراته كانت تتجمد عند مرورها بجبال الالب . ومن ثلاثة قرون كان الروح الفلسفي والنظريات الحرة والبحث المطلق قد سلخت جميع الانحاء الشمالية الاوربية على التقريب عن السلطة الباباوية وقد ابتدأ العقل البشري يعالج اماله عن طريق المسائل الدينية في المانيا بتمرده على السلطات الباقية من القرون المتوسطة وانكاره سيادتها وقد جلبت الثورة في الكنيسة الثورة على الحكومة في بريطانيا العظمى اجل ان البدعة والانشقاق في فرنسا احترما عرش القديس لويس وانهم لم يتمكنوا من الاستواء عليه الا ان الايمان الروماني لم يستفد شيئا من المحافظة الرسمية في هذه المملكة المسيحية فبقطع النظر عن الضربات الموحشة الى تقاليد الفاتيكان بظهور الغاليكانية المبتغية اخضاع دهاء هلدبراند لدهاء بوصويه تسرب الى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية الفرنسية روح ثوري اشد جراءة من البدعة والانشقاق واغوى منهما وهو روح الفلسفة فان هذا الروح لم يعتمد معارضة مذهب بمذبح بل تهمد زعزعة اركان جميع الاديان بنشره لواء الشك فوق جميع العقائد وقد قضى لبائته من هذا السعي المقرون بالجرأة فقد كان منتانیه وديكارت وفلتيرو وروسو اشد عداوة للكرسي الرسولي من لوثيروس وكلفينوس .

ولم يكن البابا بيوس السابع يستطيع نكران الحقيقة التي اعلنها بدمه خلفاؤه

اعلاناً صريحاً يدمي القواد بيد انه كان مستودع سلطة دانت لها الملوك وانتادات اليها ضماثر الشعوب لان الكهنوت الحافظ الوحيد للعلوم والاداب والحارس للمدنية كان ايضا المحامي الوحيد للشعوب من تطرف اصحاب الاقطاعات في الهمجية وعليه لم يكن الخبر الروماني مع تباهيه بهذه الذكرى واستناده في الوقت عينه الى الايمان الذي كان يدلله على مصدر سلطته في السماء يعتبر التراخي في الاعتقادات سوى اضطراب عرضي يعبث بالفكر البشري ولا يلبث ان يزول وقد حدثه الانفة والفروض على رفضه الاعتراف بان سقوط منزلة مذهبه غير مبدأ سلطته السامية والمجاهرة بها .

الا ان هذه الدعوى من البابا لم تكن سوى وهم شريف أجل ان السلطة الروحية التي هذبت العالم الاقطاعي لم تسقط الى الدرجات التي سقطت اليها اصحاب الاقطاعات انفسهم وقد كان من الطبيعي ان الافكار الدينية التي خولت رجال الدين تفوقا على النبلاء أيام كانوا أصحاب الشدة والبأس والقوة والمراس صبرت وقتياً انهدام الثقة الاكيريكية أقل كمالاً وأقل عمقاً من عدم الثقة بصاحب السلطة العليا الدينية فان زوال الارسطقراطية لم يترك أدنى فراغ في الحكومة ولا يكون الامر على هذه الوتيرة عند فقدان السلطة الدينية لانه اذا سهل على الفلسفة الهادمة النظام السياسي ان تجعل نظاماً جديداً يحل محله وان تنشيء جمهورية أو ملكية وتضع دستوراً وتنظم حكومة وتسن نظاماً وتلقى اشخاصاً وتوجد شرائع لتستنقذ وقتياً وبشكل يتفاوت في الراحة والهناء الاشياء المادية للمجتمع الانساني في خلال الاضطراب الادبي الملم بأدوار الانتقال فليس شيء من ذلك ممكناً في النظام الديني . فليس ثمة من نظام معجل يرجى سنه أو اقتراع على العقائد أو ترقية أشخاص الى مناصب قد يرقون اليها بطريقة استبدادية . فتنبقى حينئذ المعتقدات القديمة مع ضعفها كانهماض مكرمة يلجأ اليها كل راغب في الصلاة والايمان وكل من يعيش على سبيل العادة عند فقد الايمان .

هذه هي المثابرة العادية التي يباشرها جمهور المؤمنين . وهي كافية لان تجذب الى المعابد فريقاً من الناس وان تحبىء عدم اكتراث النفوس الباطني تحت ظواهر ممارسة باطلة للدين . فالمثابرة على الدين في اثناء فساد المذاهب والمعتقدات تستطيع وحدها مخادعة السلطة الروحية في موقفها الحقيقي وجرها الى الظن

بانها لاتزال قادرة على مخاطبة الملوك والعهال باللهجة العاتية التي كان يخاطبهم بها راهب كلوني

واراد بيوس السابع من سنة ١٨٠٥ أي بعد تنويع الامبراطور بقليل من الحين ان يحقق الالاماني التي حملته على عبور الالب والشخوس الى باريس لتقديس الثورة الفرنسية بشخص نابوليون بونايرت . ولم يكن البابا يني عن طلب ارجاع ولايتي بولونه وفراري اليه وتوسيع دائرة املاكه الا ان نابوليون لم يكن ميالا الى اجابة سؤله في ما يتعلق بايطاليا فكان ينبذه كلما طلب منه . فندم الحبر الاعظم على معاضدته عملا يخلع عن عرش مملكة فرنسا « ابناء الكنيسة الابرار . » ولم يخف تأسفه واستياؤه في اقواله وكتابات وافعاله . فأبى الموافقة على تثبيت الايساققة الذين سماهم الامبراطور بموجب الوثيقة المعقودة بينه وبين الكرسي الرسولي وأصر على فتح ثغوره في وجه البريطانيين فاستاء نابوليون من هذا العمل وكتب الى البابا في ١٣ فبراير سنة ١٨٠٦ مايلي :

« ان الانسان يضحي بالنفوس في سبيل المصالح العالمية ... »

« ان قداسك ملك رومية وانا طاهل لها ويحب على جميع أعدائي أن يكونوا اعداء لها . »

فاجابه بيوس السابع بلهجة كان يفوه بمثلها بونيفاسيوس وغيغوريوس في ظاير الحين

« أن الحبر الاعظم لايعترف ابداً ولم يعترف قط بسلطة تفوق سلطته ... فامبراطور رومية هو كالعنقاء وان نائب اله السلام مقضي عليه بان يحفظ السلام مع الجميع من غير ما تميز بين الكاثوليك والمنشقين . »

ومعلوم ان مثل هذا الجواب الذي املاه الاستعلاء والتهيه لم يكن ليسكن هائج الامبراطور فأصر على مطالبه ولكن على غير طائل . وكان بيوس السابع يزعم ان في نص الوثيقة عدم تحديد مدة التثبيت القانوني فلم يشأ أن يترك ما كان يدعوه واسطة للعمل بيد الكرسي الرسولي نحو الحكومات ونحو الشعوب . ثم أن ادخال البريطانيين الى ثغور بلاده كانت تدعو اليه حاجة رعاياه ومبادؤه السلمية ومحبة العامة

وعالج مندوب نابوليون ان يفهم الخبر الاعظم ان مثل هذه اللهجة وهذا التعليل لم يبق لهما محل من الاعراب وانهما يجلبان الوليل على رومية فلم يفلح في مسماها وظل البابا مصراً على عناده وقال للممتمد الفرنسي : « وهب نزعني من الحياة فاني القى في ضربي شرفاً ائبلاً واصبح نقي الجيب في عينيه تعالى وعند البشر . . . وهب أجرى العاهل تهديده واني ان يعترف بي كملك فلا اعترف به كإمبراطور : وان اصابني شرف فهو لا يلقي خيراً . » وكان بيوس السابع معتقداً أن اللعنة الخارجة من فيه تصبح شؤماً على نابوليون وان للكرسي الرسولي جر مغنم من قطع العلاقات بينه وبين الحكومة الفرنسية على تلك الصورة فكان يقول : « ان الاضطهاد ينشأ عن الانشقاق وهو الذريعة الوحيدة لاستنقاذ الكنيسة »

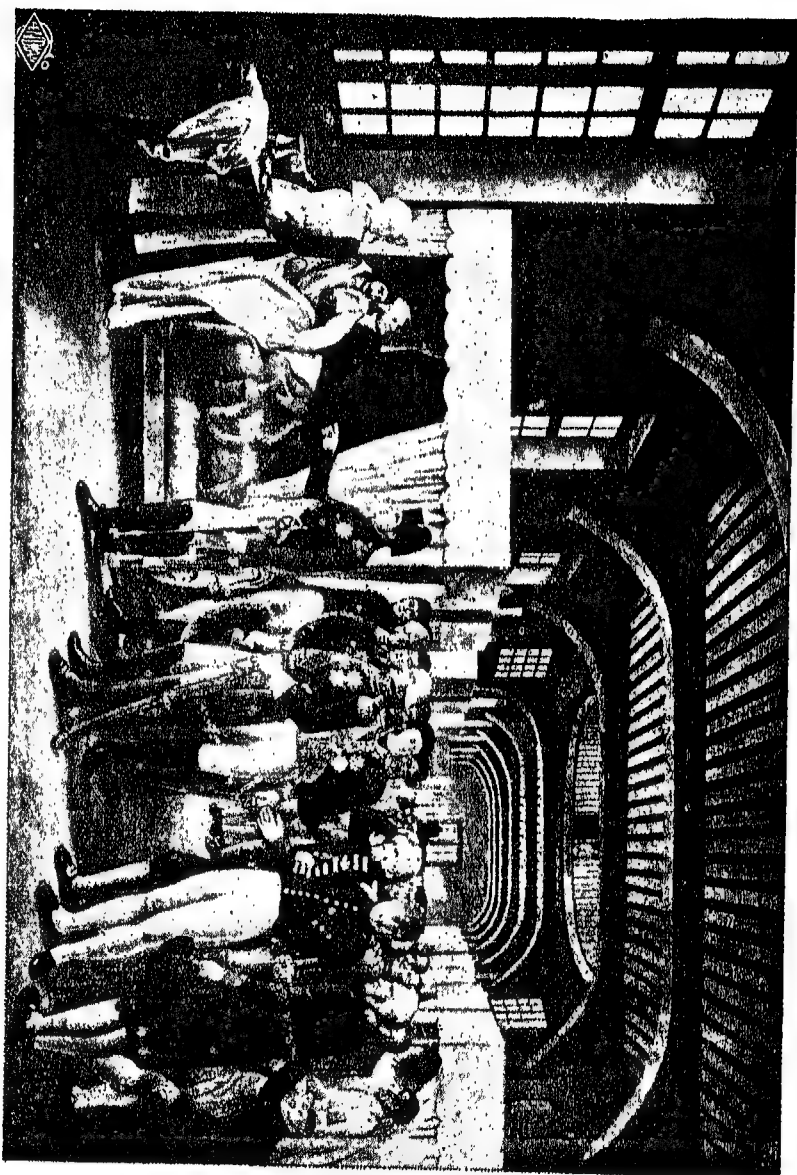
على ان جميع هذا الكلام المقرون بالانفة والعناد نقله الى العاهل مندوبه فدهش منه واعتهم واشتد سخطه وكتب في أول مايو سنة ١٨٠٧ من ضفاف الفستول الى البرنس اوحين نائبه في ايطاليا ما يأتي : « ان البابا لا يشاء ان يكون لي أساقفة في ايطاليا فاذا كان هو يعتبر هذا الامر خدمة للدين فكيف والحالة هذه يجب علي المقضي عليهم فقدانه أن يتصرفوا ؟ »

ولم تزعزع نتائج حروب روسيا وبولونيا عزائم بيوس السابع . وكان أن البابا تأثر قليلاً بعد تلمست من خضوع ملوك الشمال لمقاصد نابوليون فأصر على معارضة قاهر أعدائه في فردلاندي بسيادة الكرسي الرسولي على جميع دول الارض . ولما كان نابوليون على الطريق في أثناء عودته الى باريس ازمع أن يبعث من درسدن الى معتمده لدى الكرسي الرسولي برسالة طويلة أبرز فيها بلهجة جافية حكمه على مزاعم البابا وقال انه سيتوجه الى رومية بذاته اذا قضت الاحوال عليه بمجاوبة البابا شفهاً واليك بعض ما جاء في الرسالة :

« هل يعتقد قداسته أن حقوق الباباوية مفضلة على حقوق عرش الامبراطورية ؟ فالملوك كانوا قبل الباباوات . . . أيقولون أنهم سيبتطلعون مني الى جماعة المسيحيين ؟ . . . فالآن يوجد فرق في التاريخ قدره ألف سنة . . . وقد رقي الى علمي أن بلاط رومية يدعو الناس سراً من سنتين الى شق عصا طاعتي فأنا احتمل هذا الامر من البابا الحالي ولكنني لا أحتمله من غيره من الباباوات !

فماذا يقصد بتظلمه مني الى جماعة المسيحيين؟ أريد أن يرشقي ويرشق عرشي
بسهام الحرم؟ أيدور في خلده ان جنودي يلقون السلاح من أيديهم؟ أيقم
في نفسه أنه يضع المدي في أيدي الشعوب لتقتلني؟ لقد قام باباوات مهورون
وجاهروا بهذا المبدأ الممقوت ولكن يشق علي أن أعتقد أن ييوس السابع
مصمم على النسيج على منوالهم . فلم يبق لدي الا قص شعري والاعتزال في أحد
الأديار . . ان هنالك حماقة عظيمة تجعلني أرثي لروح الطيش الهابة نسجته في
صدر كردينالين أو ثلاثة كرادلة يديرون شؤون رومية . لقد عانى البابا الحالي
مشقة المجيء الى باريس لتتويجي وعرفت فيه رجلا من البررة ولكنه يتغني
مني أن أتنازل له عن ولايتي بولونه وفراري فأنا لا أستطيع ولا أشاء التنازل
عنهما . فالبابا شديد القدرة . . . والبابا يتوعد بأن يستنجد بالشعب فهل
هو عازم على الاستنجد بشعبي؟ فإذا يقولون؟ أنهم يقولون كما أقول أنا
أي أنهم يريدون الديانة ولكنهم لا يريدون أن يضعوا على مناكبهم نير سلطة
أجنبية . فأنا استلمت تاجي من الله ومن ارادة الشعب وسأكون دائماً في
نظر بلاط رومية كشارلمان وليس كلويس الحليم . فإذا كان كهنة رومية
يعتقدون أنهم يستطيعون بدسائسهم وحيلهم ان يصيبوا توسيعاً لدائرة سلطتهم
الزمنية فانهم في مهامهم الضلال هائمون وأنا لا أعطي الولايتين المار ذكرهما
ثمناً لتسوية المسألة . »

ان الموقف الثابت الذي ظهر فيه حبر أعزل امام فائح يرتجف كل شيء أمامه
في أوربا ويخضع له متطامناً كان ولا مرأ مشهداً جميلاً شريفاً إلا ان مزاعم
البابا وتهديده كان فيها كما قال نابوليون خطأ تاريخي قدره الف سنة فقد ذهب
عمل رومية سدى لأن القوة الأدبية وأخلاق أسقفها المطبوعة على الحزم
وشدة الصرامة لم تكن لتستطيع ان ترد اليها سطوتها القديمة وتفوقها الزائل
ولم تكن سوى واسطة لظهور صفات فرد عظيمة ومجيدة . فان لعنة المدينة
المتدسة أو بركتها أصبحتا من ذلك الحين سمين . ولم يكن أدنى ملك يحتفل
بهما لانه لم يكن شعب من الشعوب يتوقع من رومية علامة الخضوع أو
العصيان والاخلاص والنفور لرؤسائها وهي قد شاءت هذا الامر . فانها بعد
ما تسلطت على الملوك حبا لمصلحة الشعوب باسم التمدن المسيحي في هاتيك



الامبراطور يزور مستشفى الانفاليد متفقداً أحوال المرضى ولأن هذه العاطفة يستميل اليه القلوب

العصور حالقت الملوك على الشعوب تحت راية الاوهام وتجاوز حدود السلطة وقت ما عهد التمدن في أدوار تحوله المتواصل والمتقدم الى خلع ثوب السكان والالتفاف برداء الفيلسوف فنشر في العالم أفكاراً جديدة جريئة يستطيع تطبيقها على تعاليم الانجيل أكثر مما يستطيع تطبيقها على عادات الكهنوت المقبولة عند السلطة الزمنية لقسمة الامتيازات السياسية وملاذ الحياة العالمية . ولم تبق حينئذ لعنات الفاتيكان الرهيبة موجهة على مظالم وافراط الطاغية الاقطاعي بل على العقل غير سلس المقادة وعلى رغبة الشعوب المظلومة في التحرر: فتم التحالف بين تاج الملكية وتاج الباباوية من غير ماعين بين المعتقدات الدينية فعولمت في رومية الملكية المعتصمة باهداب البدعة او الجارية على طريق الانشقاق افضل مما عولمت به فيها الحرية الارثوذكسية . وانقضت الصاعقة في وقت واحد على دور الاساقفة وقصور الملوك فتصالحت القوات التي كانت متعادية في القرون المتوسطة وتقربت الواحدة منها من الاخرى تحت صدمات هذه العاصفة فكانت قد تجاوزت الحد معاً في عظمته وهذا هو السبب الذي من اجله أصيبت معا بالانحطاط . ولما كان تهكم الفيلسوف وكلام المحامي الروماني اللاذع يلطخان برودة الملك او يمزقانها نظرت ايضا طمول لا تزول وفتوق لا ترتق في الحلة الرومانية وشعر الكرسي الرسولي بتزعزع عنيف من جراء الصدمة التي قلبت العروش ودكتها دكا

على انه وان كان بيوس السابع يتقاضى ما كان لاسلافه من السيادة العامة مع عدم تمييزه فرق الازمنة فان هذا التقاضي السامي والجريء لم يكن معتبراً سوى خطأ تاريخي لا نتيجة له . وكان يتسم على غير جدوى ذروة العظمة التقليدية التي للفاتيكان ويهدد من الكويرينال برشق صواعقه الخامدة نيرانها على العاهل العارف بطلان هذا التهديد ، وكان هذا العاهل الكبير عالماً انه لم تكن تفتصب لمناهضته تلك الباباوية الهائلة التي كانت في القرون المتوسطة تهز المعمورة وانما كان المنبري لمواقفته شبيها الضعيف وانه لم يكن يلزمه جرأة عظيمة للازدراء بالحرم بين شعب كان سالكا مسلكه بعدم اعتقاده ببعث الماضي ولم يكن صوت زعيم المسيحيين الاكبر يحرك سوى نفوس بعض المعترلين في الاديوار والمعابد والمناسك . الا ان بيوس السابع مع هذه الحسام المثلوم الحد الذي كان يهزه

غريغوريوس السابع وسكستوس الخامس اظهرا استعداداه لآن يستقبل في قصره العدو الهائل الذي ارسل فانبأه بزيارته القريبة له وقد قال في هذا الصدد : « اذا تحقق ثلثا الامر فاننا لا نترك لاحد غيرنا شرف استقبال مثل هذا الضيف العظيم فان قصر الفاتيكان الذي سنهيئه سيعمد لاستقبال جلالتم وحاشيتكم . »

ولكن الامبراطور لم يتمكن من القيام بهذه الرحلة فان حوادث البرتغال واسبانيا كانت تضطره الى البقاء في باريس وكانت تجعله اشد ميلا الى الزحف الى الخفاء البرنات منه الى اجتياز الالب . ومع ذلك ظلت المفاوضات مع الكرسي الرسولي دائرة على ايدي مندوبين فوضت اليهم خصيصاً من دون ان ينتهوا الى غاية محمودة : فكان البابا يشتد تصلباً وعناداً لنبذ مطالب نابوليون وهذا يصر في نوبته على نبذ الموافقة على رغائب الحبر الاعظم وعليه اصبح قطع العلاقات امراً محتوماً . وكتب نابوليون الى « معتمده بتاريخ ٩ يناير سنة ١٨٠٨ : » اقطب اسباب المفاوضات فهذه هي مشيئة البابا ولا تدع بين بلاده وبلادنا ادنى علاقه سامية . « وكان ذلك الامر بمثابة اعلان احتلال الجيوش الفرنسية القريب للولايات الرومانية ولم يكن بيوس السابع لينخدع بذلك فقال للمعتمد الفرنسي عند مثوله لديه في غاية الشهر عينه « انا لا تقاوم مقاومة عسكرية فانا ساعزل في قصر سانطانج ونحن لا نطلق عياراً نارياً واحداً فليحطم قائدكم ابوابنا فيبصرني عند مدخل القلعة وتضطر الجنود الى العبور على جثتي وسيدري العالم طراً ان الامبراطور داس برجليه من توجه . وعلى الله انجاز مايبقى . »

أجل ان كل شيء في هذه اللهجة كان سامياً فالحبر الاعظم أظهر انه نبيل في إذعانه كما كان نبيلاً في آماله . الا ان ذلك الثبات وتلك الثقة لم يكونا مبنيين الا على الايمان المجرد الذي كان هذا الكاهن الاعظم يشعر به وكانا زينة أخلاقه فكان الله أعرض عن الاهتمام بالباباوية ولم يكن العالم لثقله استعداداً للتأثر من أجلها يشعر بالمخاطر المحدقة بها وتظلمها المرء .

وقد صمم نابوليون كما توهم بيوس السابع على الاحتلال الحربي لاملوك الكرسي الرسولي وأصدر أوامره بذلك . وكان يكفي ارسال بعض فرق من الجيوش الفرنسية لفتح مدينة نالت السيادة على العالم والوعد بالسيادة الخالدة . وكانت مقاومة كل قوة عسكرية تذهب سدى فان ملكة الشعوب

توارت ولم يبق دهاء العصور القديمة ذا سؤدد وتفوق في الكايتول ولفظ دهاء القرون الوسطى أنفاسه الممدودة في الفاتيكان وان العلامة التي أولت قسطنطين النصر انحنى بلا مقاومة أمام أعلام نابوليون وقد استطاع جنوده ان يقولوا عند استيلائهم بغير مشقة على العاصمة العظيمة أن المدينة الخالدة لم تكن من ذلك الحين سوى ضريح نغم غيب فيه رفات الاحبار العظام والقيصرة الكبار .

لم يكن هذا الحادث السياسي الخطير يقل في الاهمية عن حادث بايون وقد كان من مكملات الثورة الفرنسية ففي اثناء المفاوضات الدائرة بين بيوس السابع ونابوليون بونابرت عزز الدهاء الحديث سلطته وحدد نهاية العظمة الرومانية برفعه شارائه فوق قباب معهد الماضي الشامخ من دون ان يلقي معارضة ومن دون ان يستثير احتجاج الشعوب والملوك المسيحيين ومن دوق ان يقرع في العالم الكاثوليكي جرس الحزن استنهاضاً للهمم لشهر حرب دينية جديدة .

ومع ذلك لم يكن غزو أملاك البابا ليزدلل مصاعب عناده فان بيوس السابع رشق بسهام الحرم كما كان قد هدد بها سابقاً الامبراطور حين رأى ان هذا الاخير لم يكن اقل تصلباً منه في عزائمه وان احتلال رومية العسكري تطول مدته الى اجل غير محدود . وهذا ما فاه به الاب الاقدس في هذا الشأن . « نعلن بسلطة الاب الكلي القدرة والرسولين بطرس وبولس وسلطتنا على رؤوس الاشهاد انكم انتم وكل من لف لفكم استوجبتم الحرم من جراء الاعتداء الذي اقدمتم عليه ، الخ . الخ . »

وكان نابوليون في فيينا وقد تكلم باكاليل النصر حين انتهى اليه نبأ هذا الحرم . فمقد في الحال عروة العزم على الطلب من البابا أن تضم أملاك الكرسي لرسولي الى السلطنة الفرنسية واذا ما رفض طلبه اضطرته الاحوال الى سبي قداسته وقد فوضت هذه المهمة الشاقة الى الجنرال راده فجاء هذا الى قصر الكويرينال لتلك الغاية في ليل ٦ و٥ يوليو سنة ١٨٠٩ وطال الضغط على بيوس السابع ليرضى بتسليم املاكه الزمنية تقاديا من التدابير العنيفة التي تعرضه لها مقاومته الباطلة فاجابه الخبر الاعظم : « لا استطيع ذلك ولا يحسن بي أن افعل هذا الامر وانا لا اريده . فقد واثقته تعالى على ان احفظ للكنيسة المقدسة جميع املاكها وعليه

لا انقض ابدأ هذا العهد . « فقال له الجنرال : « أيها الاب الاقدس يسوئي نبذ قداستك لهذا الطلب فانت باقدامك على هذا الامر تجلب عليك مصائب جديدة » فقال البابا : « قد قلت ولا شيء على الارض يستطيع ان يجعلني اغير شيئاً من قولي فانا مستعد لسفك دمي حتى آخر قطرة منه وان فقد الحياة في الحال ولا احث في العهد الذي شاهدت الله عليه . « فقال الجنرال : « قد يجرب عليك العزم الذي عزمته مصائب شديدة . « فقال البابا : « لقد عزمت على ذلك ولا شيء يقوى على زعزعة عزمي » فقال الجنرال : « وحيث أن هذا العزم هو عزمك فانه ليسوءني مائلقية من الاوامر من مولاي الامبراطور والمهمة الموكل الي قضاؤها . « فقال البابا : « ان هذه المهمة لا تجلب عليكم يا ابني بركات السماء . « فقال الجنرال : « يجب علي أيها الأب الاقدس أن أنطلق بقداستك . « فقال البابا : « أهذا هو عرفان الجليل المدخر لي على كل ما فعلته لأجل امبراطورك ؟ أهذه هي المكافأة لي على تسامحي معه ومع الكنيسة الغاليكانية ؟ ولكن ربما كنت من هذه الجهة مخطئاً نحوه تعالى ولذلك يريد معاقبتي وأنا أذعن متصافراً . « فقال الجنرال : « هذه هي مهمتي ويسوئي أن أتممها فانا من الكاثوليك أبنائك . «

وطلب حينئذ الكردينال باكا أن يباح للاب الاقدس باستصحاب الاشخاص الذين يعينهم فأجاب الجنرال فيافته قائلاً له : « انه بحسب أوامر الامبراطور يستطيع هو دون سواه أن يصحب البابا . « فقال له الكردينال : « وكم من الوقت تمنحنا لتهيئة أهبة السفر ؟ « فأجابه الجنرال : « نصف ساعة . « فحند ذلك نهض الحبر الأعظم ولم يفهم بغير هذه الكلمات : « هيا بنا فلتكن مشيئته تعالى ! «

وكانت مركبة عند باب من أبواب القصر تنتظر البابا فصعد اليها بيوب السابج والكردينال باكا وسار امامهما الجنرال راده في مركبته وكانت عند « باب الشعب » مركبة أخرى تنتظرهم فاغتنم الجنرال الفرسة عند انتقال البابا والكردينال الى المركبة الثانية وكرر الحاحه على البابا بقوله له « لا يزال لقداستك وقت كاف للتخلي عن املاك الكنيسة » فاجابه البابا بنشوفة « لا » وفي الحال أطبق عليه باب المركبة . وبعد دقائق خرج من رومية على

طريق فلورنسة . ويزعم بعض المؤرخين ان الجنرال راده أوصى فيما بعد المصور بنفنونتي ألف يصنع صورة تمثل خروج البابا من منتي كالفو مع جميع الذين حضروا وداعه .

وقال المسيو دي بوريان : ان الحبر الاعظم التاعس الجدد كان تأمها من مدينة الى أخرى ولم يكن أحد من الناس يجرؤ على استقباله عنده . فارسله اليزا من فلورنسة الى طورينو وأرسله البرنس برغيزي من طورينو الى داخلية فرنسا وكانت فرقة من الجند تحفره في رحلته . وأرسله نابوليون أخيراً الى صافون في بلاد البرنس برغيزي وقد قصد بهذا الامر ولا مرأ أن يذكر ختنه بأنه قبلما صار من ذوي قرابته بالمصاهرة نال شرف مقامه من البابا بولس الخامس . وعلى كل حال لم يستنزل هذا الحادث الحزن مع ما استوجبه فاعله من الملامة صواعق السماء عليه حالا انتقاما لرئيس الكنيسة المقدسة الأكبر لانه في غد اليوم الذي أجبر فيه البابا على الخروج من عاصمته اصابته الجيوش الفرنسية انتصارا باهرا في وغرام .

وكان ان نابوليون وهو في قصر شنبرن في أثناء المفاوضات مع النمسا بشأن عقد الصلح أرسل الى الجنرال ميولي قائد الجيوش الفرنسية في رومية أمراً باجراء المرسوم الامبراطوري القاضي بضم أملاك الكرسي الرسولي الى السلطنة الفرنسية . واشعر الامبراطور المجلس الاشتراعي بذلك الامر عند افتتاح جلساته لسنة ١٨٠٩ على أثر عقد وثيقة الصلح في فيينا بانفاذه اليه الرسالة الآتية :

« ان التاريخ رسم لي الخطة المقضي علي انتهاجها مع رومية فالباباوات الذين تولوا السيادة على قسم من ايطاليا أظهروا في كل حين العداوة لكل دولة تسود في شبه الجزيرة واستخدموا سؤددهم الروحي لاقامة العقبات في وجهها والقاء الجنادل في طريقها . وقد ثبت لي أن التفوق الروحي الذي يستخدمه في بلادي ملك أجنبي يما كس مصلحة استقلال فرنسا وكرامة عرشي وضمانه . على اني لما كنت أعترف بضرورة التفوق الروحي لخلقاء زعيم الرسل لم أتمكن من التوفيق

بن هذه المصالح العظيمة الا بالغاء هبات المعال الفرنسيين « أسلافي » وبضم
الولايات الرومانية الى فرنسا .

وكان بيوس السابع منتظرا وقوع مثل دينك الاغتصاب والاضطهاد وعليه
لم يكن شيء من الاشياء يوهي نفسه الكبيرة . ولما تم ما كان يتوقعه ازداد ثباتا في
عزمه وفي أواخر سنة ١٨١٠ أبى تثبيت اسقف كات نابوليون قد اقامه في
أبرشية فلورنسة ونهى أيضا عن قبول مدبر لها . فطلب الامبراطور من مجلس
شورى الدولة اصدار تقرير عن هذه الامور وأمر بطبعه مع البراءة الباباوية
الصادرة بهذا الشأن ، وقد ذهبت على غير طائل مساعي المبشرين له عدم موافقة
اعلان مثل هذه الامور . فقال : « أرغب أن تعرف أوروبا جمعا طول اناتي
واستنزال البابا لي وأسباب التدابير التي سأخذها لمنع وتلافي حدوث مثل هذه
الحوادث من الآن فصاعدا فرئيس الكنيسة يرتكب جريمة بمواقفته هاهنا
يحترم عقائد الدين . ومن المقضي علي أن أدفع عن تاجي ورعيتي والعالم طرا
مثل هذه الاعمال الجريئة التي طالما أذلت الملوك وأقلقت راحة الانسانية . . .
فالبا الموهي التردد الى الرعية لا يكون رئيسا لكنيسة الله بل يكون بابا
الشیطان .

« وقد دنت الساعة لوضع حد لمثل هذه الجرأة الشديدة والاختلاس
والاضطراب . وعندي ان العناية انتدبني لاحصر في ضمن دائرة العدل
ما انتحله الباباوات من السلطة المؤذية وان اصون منها الجبل الحاضر واخلص
منها الاجيال الالية الى ماشاء الله . فلتتخذ في فرنسا على الاقل لمناواة هذه السلطة
الدائمة الازدياد والمطرودة الامتداد التحفظات تقسمها المتخذة عند غيرها من
الدول الاوربية . وسيسط من الان حتى ثمانية أيام لمجلس الشيوخ مشروع عمل يراد به
إعادة ما كان للمعال من الحقوق أي تثبيت تسمية الباباوات ويجب على البابا
قبل أن يرسخ قدمه في عرش الباباوية أن يقسم أمام امبراطور الفرنسيين على
أنه يخضع لمنطوق المواد الاربع المذكورة في الوثيقة الموضوعة لرجال الدين في
سنة ١٦٨٢ . فاذا كانت هذه المواد أرثوذكسية فلماذا ينبغيها الباباوات واذا
لم تكن موافقة لمعتقد الباباوات أو ليس البسا باوات والفرنسيون يدينون
بدين واحد ؟ »

ان الفرنسيين اصبحوا والحق يقال من عهد طويل لا يدينون بالدين عينه الذي يدين به الباباوات بصرف النظر عن المظاهر الخارجية لاستعماهم الطقس المشترك نفسه ولولا ذلك لما كان العاهل المحروم لا اعتدائه على ميراث القديس بطرس وسجنه خليفته قد استطاع أن يسوق تحت لوائه أمة مملوءة اخلاصا وحماساً حين كان أسيره العظيم يرى انتحابه وتدمره ونظامه تسقط في وهدة لاقرار ولا صدى لها اعني بذلك عدم الاكتراث .

الفصل السادس عشر

طلاق الامبراطور — تزوجه بارشيدوقة نمساوية

ولما عاد نابوليون من المانيا عرج على قصر فنتنبلو فاقام فيه ردها من الزمان وأصدر عنه عدة مراسيم ونشرات تتعلق بإدارة شؤون الامبراطورية ولما وصل الى عاصمته قدم اليه الملوك الذين أنشأ لهم ممالك وأجلسهم على عروشها ليهنؤه بانتصاراته وعقده الصلح وعوده بالسلامة . وأرسلت ميلانو وفلورنسة ورومية وفوداً لتلك الغاية وأنفذ السينودوس الاغريقي وفدأ استقبله الامبراطور في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٩ في حفلة شائقة . وكان قد قرب موعد الاحتفال بذكرى التتويج وبذلك معركة استرلنز فلم يدخر شيئاً لتصيير هذا الاحتفال فائقا في البهاء جميع ماتقدمه من الاحتفالات . وزادوا على هذا الاحتفال السنوي صلاة شكر على عقد الصلح ولم يقتصر في هذه المرة على حضور مجلس الشيوخ والمجالس الاخر الاحتفال في كنيسة نوتردام بل حضر أصحاب الجلالة وأصحاب السمة الذين كانوا يؤلفون في ذلك العهد بلاط الامبراطور وموكبه كملك الساكس وملك هولندا وملك وسستاليا وملك نابولي وملك رومبيرج وقدم بعد أيام نائب الملك في ايطاليا وملك بافاريا وملكتهما فازداد بهم عدداً أصحاب الرؤوس المتوجة . وكان نابوليون يستطيع الزعم أنه احتل اعمى ذروة من ذرى العظمة والمجد وحيث لم يتسن له نصب اعلامه فوق برج لندرة لم يبق له شيء آخر يفعله في أوروبا بما يزيد قوته ونفخه ومع ذلك لم تكن مهمته قد تمت بعد . أجل ان الثورة رسخت

قدمها بواسطته وعلى يده في نابولي ومدريد ورومية وميلانو وفيينا ومونيخ وستغارت وكاسل وماينس ودرسد وهامبورغ وبرلين وفرسوفيا الا ان الثورة المقضي عليها أن تبدو متنكرة بشكل الوشاح الامبراطوري لم تكن قادرة على استمالة الشعوب اليها بطريقة سريعة تضمن لها الانتشار بجمراً وقد كان يهمها أن تقيم مدة طويلة في الخارج لتتمكن من بث أفكارها وأخلاقها بثا بطيئاً خفياً فترسخ في الازهان وتختبر فيها .

وكان نابوليون من أشد الناس غيرة عليها واحرصهم على خدمتها فالجميلته الى انشاء اسرة والحصول له ولذريته على شرف مؤاخاة الملوك والعهال والاقبال اصحاب السلطان في الدول العظمى في القارة الاوربية وشاء بعد انتصاراته الباهرة خطب مودة الملوك المغلوبين وعقد المحالفات معهم . وكانت افرقت قد بلغت ما شاء من القيصير الاسكندر فاذا تمكن من توثيق عرى التحالف بينه وبين النمسا فلا تقدم بروسيا وحدها على مناوآته ؛ ويتقلص حينئذ ظل التفوق البريطاني من الشمال ولا تبقى وثائق الصالح اسباباً للهدن وطرح السلاح ، واذا كان في عرف بعض الناس انه من باب الوهم ان يأمل نابوليون ان يلقي السلام الدائم في اوربا ويستميل اليه الاسرتين المالكتين العريقتين في الشرف في بطرسبرج وفيينا فتميل اليه ميلاً مطبوعاً بطابع الصدق والاخلاص فلا بأس من ذلك اذا لم يقو دهاء هذا الرجل العظيم على دفع الضعف عنه لان ما بذله نابوليون من المساعي لتعزيز السلم ستكون له نتيجة حسنة اي انه سيرجى الى حين آخر ثوران بركان الحرب ويمكن الجندي الفرنسي من غشيان الاقاليم الالمانية وقسم من بولونيا سنين اخرى واظهاره لشعوب تلك الاقطار بالعلاقات اليومية والحياة المشتركة ما كان للثورة من الآداب والعادات الديمقراطية

ان رغبة نابوليون في انشاء اسرة مالكة وانتظامه في سلك اسر الاقبال والملوك والعهال جميلته يسعى لالقاء السلام في أوربا . الا انه كان وهو يبحث عن اصدقاء وحلفاء لاسرته عند الحكومات الاجنبية يفكر في أن يجعل لها في فرنسا قاعدة جديدة . فظن أنه يستطيع ادراك هذه الغاية المزدوجة باقتراحه الطلاق على جوزفين وعقده زواجاً جديداً يأمل أن يكون له منه ورثة من صلبه وعقد محالقات مبنية على القرابة ولم يكن تبنيه للبرنس اوجين ناقماً لغلته . أجل



مقتل لان (۲۹ مایو ۱۸۰۹)

انه كان والحق يقال جديرا بأن يكون خليفة له لا يحول شيء من الاشياء دون قبضه على أزمة الحكم وتولييه بذاته الا انه لم يكن قد تربي ليجلس على العرش وكان ينقصه في عيني نابوليون شرف المحدث مع ان نابوليون كان قد استغنى عن ذلك وصار من ذلك الحين يفكر في أن لقاء الامبراطورية في مهاد ولد يلدشاً اميرا امبراطوريا أفضل من القائه اياها الى شخص ذي خلق كريم واستحقاق مؤكد ومقدرة معروفة قد نضج دماغه بتمرسه به . وبناء عليه اصبح طلاق جوزفين امراً مجزوماً به . وكانت هي تنتظر ذلك مع انها كما يقول نابوليون ذاته في مفكرات القديسة هيلانة كانت تمهد في وجهه سبيل الهناء وتعالنه صداقة شديدة . بيد ان الاعتبار المتعلقة بالدولة تغلبت في الامبراطور على عواطفه الشخصية فقد كان قبل كل شيء موصوفاً بكونه رجلاً سياسياً . وكانت جوزفين منذ حقبة من الزمن تقرأ على جبين زوجها العظيم الحظ المقيض لها عند رؤيتها اياه يبتعد عنها شيئاً فشيئاً كلما ارتقى في سلم العظمة والعلو وحدث أخيراً ما كانت تتوقعه فان السر المشؤوم الذي استشفته في اصماق نفس نابوليون وكان شعورها به يمزق نفسها تمزيقاً باح لها به قرينها في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٩ ففي هذا اليوم تغدى الامبراطور والامبراطورة على مائدة واحدة وكان نابوليون كاسف البال باسر الوجه وكانت جوزفين مكتئبة واجمة . فبعد الغداء صرف جميع الحضور . وقالت جوزفين فيما بعد اني كنت أقرأ على جبينه ما كان يدور في باطنه من العراك الادبي وكنت أيضاً أرى أن ساعتي دنت فكان يرتجف منتفضاً انتفاض عصفور بلله القطر وكنت أشعر بقشعريرة تمشي في جميع مفاصلي . فدنا مني وتناول يدي ووضعها على قلبه وحقق في بياصرتيه هنيهة من الزمان من دون أن ينبس ببنت شفة ثم انه لفظ هذه الكلمات المشؤومة « يا جوزفين يا جوزفين الفاضلة أنت تعلمين مقدار حبي لك ... فانت وحدك سبب هنائي في هذه الدنيا يا جوزفين ان حظي أقوى من ارادتي ولا تلقى أعز عواطفني مندوحة عن الصمت بازاء مصالح فرنسا ... »

فلم تشأ جوزفين أن تسمع اكثر من هذا الكلام فقاطعتها الامبراطورة بشدة وقالت له : « حسبك ماقلتة فقد كنت متوقعة هذا الامر وقد فهمت مغزى كلامك وأدركت مرماه ... » وكانت حسراتها تخنقها في نوبتها ، ولم يبق في

وسمعها النطق بكلمة ما ووهنت حواسها فنقلت الى غرفتها . ولما ثاب اليها الحس ابصرت حولها ابنتها هورتنس وكرفيزار وناوليون .
الا ان هذه الصدمة العنيفة الاولى التي كان الامبراطور ينتظرها حل محلها حزن مقرون بالسكينة والتأثر فأظهرت جوزفين التجلد ورضيت بكل ما يطلبونه منها من تنميم المعاملات القانونية . فثلث المأساة الرسمية في التويلري في ١٥ ديسمبر مساء في سنة ١٨٠٩ في اجتماع طائلي حضره كمباساريس المستشار الاكبر الامبراطوري ومستشار الدولة . وكان نابوليون قد أعد كل شيء لابرار مقاصده الى حيز العمل فقال :

« ان سياسة سلطنتي ومصلحة رعيتي وحاجاتها وقد كانت دائماً مرشداً لي في جميع أعمالي تقتضي مني أن أخلف بعدي الى أولادي وارثي محبتي لرعيتي هذا العرش الذي أجلسني عليه العناية ومع ذلك فقدت من عدة سنوات الامل بالحصول على أولاد من اقترافي بزوجتي الحبيبة الامبراطورة جوزفين : وهذا ما يجعلني أضحي بأعذب عواطف قلبي وأصم أذني عن سماع صوت غير صوت مصلحة بلادي وأرضى بنقض أسباب زواجنا... وحيث اني الآن في الاربعين من العمر فلا أزال أعلل النفس بأن أعيش زماناً أتمكن فيه من أن أربي بحسب فكري وعقلي الاولاد الذين تشاء العناية أن ترزقنيهم . والله يعلم مقدار ما تحبشمته من الالم من جراء هذا الامر ولكن لا تعز علي التضحية بشيء حين يستبين لي أن هذا الشيء يأول الى خير فرنسا . وأضيف على قولي هذا اني بدلا من أن أتذمر من زوجتي المحبوبة لا يسعني الا الثناء عليها لما أبدته لي من التعلق والحنان فقد كانت زينة حياتي مدة خمس عشرة سنة وستظل ذكراها مرسومة على صفحات قلبي الى الابد . لقد توجتها بيدي وأريد أن تظل حافظة رتبة ولقب امبراطورة وأريد بنوع خاص ألا ترتاب البتة بصديق عواطفني نحوها وأن تعتبرني دائما أفضل وأعز صديق لها » .

فتجلدت جوزفين وتغلبت على تأثرها ولعبت بعزة نفس الدور المؤلم المعد لها تمثيله وفاقت بالكلمات الرسمية التي كان المستشار الاكبر ينتظرها منها لينقلها الى مجلس الشيوخ وهذا ما قالته :

« اني أستاذن من زوجي العزيز العظيم أن اصرح علانية بأنني إذ لم يبق لي

أمل بالحصول على أولاد يسدون حاجة سياسته ومصصلحة فرنسا أسر بأن أقدم له أكبر برهان على التعلق والاخلاص الموجودين على الارض . فكل مالي هو من كرمه واحسانه : فيده توجتني ولم أحصل من ذروة هذا العرش الا على علامات الود والحب من الشعب الفرنسي . ولست بمجاهلة عاطفة من هذه العواطف واني لأرضى بحل عقد الزواج وقد أصبح حائلا دون خير فرنسا وحارماً ايها أن يتولى شؤونها يوماً من الايام أعقاب رجل عظيم أوجدته العناية لينزل ما أحدثته الثورة الهائلة من المفسد والشور ويرم ما تداعى من صرح الدين والملك والنظام الاجتماعي . على أن فسخ زواجنا لا يغير شيئاً من عواطف قلبي وسيلقى الامبراطور في أفضل صديقة له . ولا يخفى علي مقدار ما يلم بقلبه من التأثير من جراء هذا الامر الداعية اليه السياسة والمصالح الخطيرة وكلانا يفتخر واهم الحق بما نضحي به في سبيل مصلحة الوطن » .

وقد ضم هذا الاجتماع عدداً كبيراً من الناس فتأثر جميع الحضور من المشهد وذرفوا العبرات . ولما كان من الغد رفع المستشار الاكبر الى مجلس الشيوخ خلاصة ما جرى فبادر المجلس الى اصدار قرار يقضي بطلاق نابوليون لجوزفين ولما تم هذا العمل العظيم صرف الامبراطور هامة النفس الى انتقاء زوجة جديدة فجعله الاسكندر يعني النفس بالاقتران بالفرنديقة حنة احدى شقيقاته . ففتحت أبواب المفاوضات بهذا الشأن مع روسيا ولكن نابوليون ما لبث أن عرف من المسيو دي نابون سفيره في فيينا ان عترة لورين تطمع بمصاهرته وانها تسر برؤيتها اياه يقرن بأميرة نمساوية وهي الارشيدوقة ماري لوي . أفيمكن التصديق ان التفاهت على مصاهرة نابوليون كان يدل على نبذ الملوك الاجانب معارضة مبادئ الحكومة وهي لم تكن في عرفهم سوى واثرة الفتنة الفرنسية الكبرى وممثلتها وميلهم الى سياسة الملاينة والاعتدال معها ؟ فالانكسارات المتوالية سنة بعد سنة غيرت ولا جرم عواطف عطفهم على نكبات الملوك الشرعيين . وقد ظهر بعد معارك استرلنز وايانا وفردلاند ووغرام ان ملوك الشمال ابتدأوا يتبرمون من الاستمرار على الحرب واستنزاف موارد المالية وري نصف أوربا بدماء نخبة رجالهم دفاعاً عن عترة ساقطة ولا سيما ونابوليون لم يكن يألو جهداً عن إقناعهم بأن الخطر العام الذي هددتهم به الجمهورية لم يكن

له من أثر وان هذا التبرم لم يكن ليجلب قط مسالمة حقيقية . فكان تنكر
 الاقدار على نابوليون يكفي لأن يثير مع شدة ارتباطه بصلة الرحم الحقد الكامن
 والبغضاء القديمة اللذين كان الملاء الأوربي يشعر بهما نحو الثورة ونحوه . وقد
 جاءت الحوادث مصداقاً لهذا الأمر من جهة النساء ولم تكن مسألة الزواج لتجعل
 روسيا أشد ميلاً من النساء الى مصادقة نابوليون . أو لا نرى أن صلات الرحم
 لا تأتي في السياسة الا بعد المصالح الدولية ؛ ومن الممكن أن ابن الحم الجالس
 على عرش القيصرية لا يفضل حاكماً جالساً على عرش ماري تريزا في المحافظة على
 سلامة السلطنة الفرنسية والاسرة النابوليونية . وفي كلتا الحالتين يكون هذا
 الرجل العظيم كما يقول هو عن نفسه قد وضع قدمه على وهدة مغطاة بالازهار .
 ولا يخفى ان تهافت العثر المملوكة الشديدة الالباء والواسعة الحول والطول
 في أوروبا على مصاهرة نابوليون سيظل في التاريخ أكبر شاهد على ما وصلت
 اليه فرنسا من العظمة وما أصابه زعيمها وما ناله المجد التليد من التفوق الباهر
 على المجد الطارف . فما أعظم انتصار الديمقراطية الفرنسية ! فلم يكن يكفي أن
 تفضي مؤامراتهم الطويلة المقرونة بالعناد لملاشاة روح الفتنة الى تنوير الثورة
 ومنحها أجمل أكليل بدلا من القبعة الحمراء : فقد كان ينقص كبرياء أصحاب
 الاسر اهانة أخيرة وكان مدخرا لأصحاب أوهم النسب ضربة قاضية على أن
 الاوهم التي صاحبها احتقار الفيلسوف وقذفها الشعب بلعنة أخى عليها في فرنسا
 النبلاء أنفسهم ولكن ليلة ٤ أغسطس المشهورة في سنة ١٧٨٩ لم تكن لأوروبا
 الملكية سوى افراط مشروع جر الى اعتراض الحكومات الأجنبية عليه كاذاعة
 برنسيوك وعلان بلنيز . وكان تمام انتصار مبدأ المساواة يقتضي أن يضاف
 الى اسكار المنمرسمين الجهادي على منبر المجلس الدستوري التضحية بمزاعم الجنس
 ونبذ طريقة الزواج الحالي من التكافؤ وتدنيس العبادة النسبية من لدن العتر
 المملوكة أنفسهم وقد أجرى موقعو اعلان بلنيز هذا التدنيس وذلك الانكار
 وتلك التضحية : فان اعقاب طرس الاكبر المتشاكخين وورثة شارل الخامس
 (شارل كان) المتعظمين أوفدوا من قبلهم سفراء قرعوا أبواب التويلري ليعرضوا
 أخت المعال وابنتهم على قائد المدفعية الذي دك في طولون الملكية القديمة باسم
 قاتلي ملكهم . ولقد قضى على كرامة الشرف الموروث ولم يبق للمبدأ الثوري

ان يزيد شيئاً على انتصار حقوق الدهاء والجدارة الشخصية على أوهام النسب حين شاهدت أسرة لورين المتحدة بشخص ماري انطوانت بأسرة البوربون زعيمها الا كبريقود ابنته باحتفال شائق فوق ضريح الدوق دنغان الى مضجع الجندي الذي قضى بالغاء الملكية في ١٨ فركتيدور وبذلك صرحها في ١٣ فنديميار. وكان لنا بوليون الخيار في انتقاء أميرة من بين الاميرات الكثيرات المتحدرات من الاصول الشريفة الا أنه بعد ما وقف على آراء أعوانه وأنصاره قرر فكره على الارشيدوقة ماري لويز كريمة امبراطور النمسا وفوض الى المارشال برتيه أمر الانطلاق الى فيناليطلب بصفة رسمية يد الارشيدوقة لمولاه الامبراطور فوصل الى العاصمة النمساوية في أوائل شهر مارس سنة ١٨١٠ وبعد ما قدم صورة نابوليون استقبله امبراطور النمسا في حفلة شائقة أقامها اكراماً له وأجاب سؤاله فيها .

نخطب المارشال برتيه في هذه الحفلة الخطاب الآتي :

« مولاي ، ان مولاي الامبراطور أوفدني لاطلب له من جلالته يد الارشيدوقة ماري لويز كريمةك النبيلة

« فالصفات الكريمة المزدانة بها هذه الاميرة أعدها للجلوس على عرش عظيم وستجبر الهناء الى شعب كبير ورجل خطير

« وان سياسة مولاي العاهل جاءت موافقة لاميل فؤاده

« يامولاي ان اتحاد عترتين شديدي الحول والطول سيولي أمتين كريمتين ضماناً جديداً للراحة وللنهاء .»

فاجابه امبراطور النمسا بما يلي :

« اني اعتبر طلب الاقتران بابنتي ضماناً لمواطني امبراطور الفرنسيين الذي أقدره حق قدره

« ولا يسعني التعبير باكثر جلاء عن تمنياتي لسعادة العروسين فان هذه السعادة ستكون صدى لسعادتي

« وسألتقى في صداقة العاهل الذي تمثله أسبانيا ثمينة لسواني عن فراق ابنتي العزيزة وسترى شعوبنا في هذا الامر ضماناً مؤكداً لها في المتبادل

« وبناء عليه أمنح يد كريمة لامبراطور الفرنسيين .»

ثم ان المارشال برتیه خاطب الارشيدوقه ماري لويز بما يأتي :
 « يا سيدتي انت والديك العظيمين وافقا على أماني مولاي الامبراطور
 وقد يكون ثمة اعتبارات سياسية أثرت بما قرره العاهلان الا أن اول أمر
 يجب علينا النظر اليه هو هناؤك : فمولاي العاهل يبتغي بنوع خاص الحصول
 على قلبك

« ويحمل أن نري على عرش عظيم اقتران دهاء القوة بمحاسن اللطف والجمال
 وسيمعده مولاي العاهل هذا اليوم سعيدا ان كنت يا صاحبة السمو الامبراطوري
 تأمريني بأن أقول له انك تشاطرين آماله وتغنيات قلبه وعواطفه .
 لجوابته الاميرة على الأثر بالكلام الذي لقنوها اياه :

« ان ارادني مشتقة من ارادة أبي وسيظل هنائي صورة عن هنائه وان
 جلالة الامبراطور نابوليون يمكنه أن يجد في هذه المبادئ ضمانا ثابتا للمواطف
 التي سأقفها على زوجي وسأكون سعيدة ان أنا قدرت على جلب الهناء اليه
 والى شعبه العظيم واني باذن أبي أصرح برضاي بالاقتران بالعاهل نابوليون .
 ووجه خطاب ثالث الى الامبراطورة فاجابت عليه مظهرة على التقريب الاماني
 عينها التي أظهرها زوجها النبيل . ثم ان السفير الفرنسي أنبا البرنس شارل بأن
 الامبراطور نابوليون يرغب من سموه بان يرضى بوكالته لاجراء حفلة الزواج
 فاجاب الارشيدوق بهذا الكلام : « اقبل بارتياح اقترح عاهل الفرنسيين الذي
 بلغته اياها وافتخر باختياره اياي كما اني ارتاح الى تعليلي النفس بان هذا القران
 سينسخ جميع الاختلافات السياسية ويصلح ما أفسدته الحرب ويهيئ مستقبل
 سعيدا لامتني وجدنا لتبادل الاحترام ولا تنصباف الواحدة منهما من الاخرى
 واني اعتبر من أهم ساعات حياتي الساعة التي سأندفع فيها بعاطفة تقرب حر
 وشريف الى تقديم يدي الى مولاي الارشيدوقه ماري لويز باسم العاهل العظيم
 الذي أوفدك . وأرجو منك يا حضرة الامير (كان المارشال برتیه قد نال لقب
 أمير نوشاتل ووغرام) أن تكون مترجما لفرنسا برمتها عن أماني الحارة لرؤية
 فضائل مولاي الارشيدوقه صلة لصداقة عاهلينا ومدعاة لسعادة شعوبهما .
 وتمت حفلة القران في فينا في ١٤ مارس سنة ١٨١٠ وفي ١٥ منه شخصت
 امبراطورة الفرنسيين الجديدة الى فرنسا فانهت في ٢٧ منه الى كومبيانيه حيث

كان نابوليون قد خف، الى لقاءها . واعدت حفلة شائقة للمواجهة الاولى الا ان نابوليون لما لم يعد في قوس صبره منزع تجاوز حدود القانون الذي كان هو نفسه قد وضعه . فخرج سرا من كومبيانيه ليصحبه ملك نابولي تحت هطل الامطار وأقام ينتظر عروسه الامبراطورة في رواق كنيسة صغيرة في إحدى القرى . وحالما وصلت ماري لويز بادر الى الصعود الى مركبتها وعادا معاً في الحال الى قصر كومبيانيه . ثم ان العروسين مضيا الى سانس كلود وجرت حفلة الزواج المدني في أول ابريل وفي الغد دخلا العاصمة . وتمت حفلة الزواج الديني في اليوم عينه بمشهد من جميع أهل البلاط بأبهة الطقس الكاثوليكي في معبد من معابد الوفير لبس جميع ضروب الزينة لتلك الحفلة . واقتبل الامبراطور والامبراطورة بركة الزواج من يد الكردينال فش المرشد الاكبر بحضور جميع افراد العائلة الامبراطورية والكرادلة ورؤساء الاساقفة والاساقفة وكبار رجال الامبراطورية ووفود من قبل جميع مجالس الحكومة . وكانت الحفلة شعبية بكل معنى الكلمة فاقامت مدينة باريس حفلات باهرة أديرت فيها كؤوس المسرات ولم تقتصر الاحتفالات على جميع أنحاء فرنسا بل اتصلت الى جميع شعوب القارة الأوروبية المعتقد بان زواج نابوليون بارشيدوقة نمساوية سيكون أفضل ضامن لبقاء السلام نحيا بين ظهرائها .

وجاء مجلس شيوخ فرنسا ومجلس شيوخ ايطاليا ومجلس شوري الدولة والمجلس الاشتراعي والوزراء والكرادلة ومجلس النقض والابرام الخ في ١٣ ابريل لتقديم التهانى للامبراطور وعروسه فاستقبلاهما وجالسا على العرش بحفهما الموكب الباهر المؤلف من بلاطي الامبراطورية الفرنسية والمملكة الايطالية وتوجه نابوليون وماري تيريز بعد يومين الى كومبيانيه فمكثا فيها حتى اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر . ثم انهما انطلقا لتفقد الشؤون في بلجيكا والولايات الشمالية من دنكرك الى الهافر وروان . وعاد الماهلان في أول يونيو الى العاصمة ولم تتمد نار الحماسة التي اضطربت في أفئدة الشعب الفرنسي عند اقامة حفلات الزواج فاقامت مدينة باريس حفلة شائقة لنابوليون وماري لويز وقد شهدا المأدبة والمرقص المقامين لهما في قصر البلدية وأراد رجال الحرس الامبراطوري أن يحتفلوا أيضاً بقران زعيمهم الاكبر

بأبنة الامبراطور الذي قهره وأذله غير مرة فاقبمت الحفلة في شاف دي مارس (ساحة اله الحرب) اكراماً لنابوليون وماري لوز بالنيابة عن جميع الجيش :

وكان السفير النمساوي في وسط الافراح العامة والاحتفالات الباهرة يريد في نوبته ان يظهر فرحه وابهته السياسية فاختر اليوم الاول من شهر يوليو لاقامة حفلة شائقة الا أن هذه الحفلة وسمت بسمة حادث فاجع فان النارالتهمت في ردهة الرقص وتوفيت في السعيرزوجة الوزير النمساوي وغيرها من المدعوين فلم يدع نابوليون لغيره من الناس أمر انقاذ زوجته لحملها بذاته واخرجها من المكان المشتعل . ويذكر المؤرخون انه في أثناء الحفلة المقامة عند اقتران الملك لويس السادس عشر بالارشيدوقة ماري آنطوانت وقع حادث محزن اضطربت له الافكار والتاعت له القلوب .





معركة وخرام (٦ يوليو سنة ١٨٠٩)

الفصل السابع عشر

انتداب برنادوت للجلوس على عرش اسوج - ضم هولندا الى فرنسا
وبعد انقضاء قليل من الحين على اقامة الاحتفالات اكراما لاقتران نابوليون
بماري لويز وقع حادث من الحوادث الخطيرة في انحاء اوربا الشمالية فان برنادوت
انتخب وليا لعهد مملكة اسوج وانتدب ليخلف شارل الثالث عشر محافظة على
مبدأ حرمان عترة واصدا حق الملك كما أذيع ذلك عند جلوس دوق سودرمان
على العرش .

وظن مندوبو الامة الاسوجية انهم يسرون ولا مراة نابوليون بهذا الانتخاب
ويتخدمون مصالح سياسته . وربما كانوا قد سبروا غور مقاصد الامبراطور من
هذه الجهة وان يكن بعض الكتبة قد زعم أن ذلك الانتخاب كان اختياريا وان
السفير الفرنسي في استوكهلم عمل على معاكسته . وقال نابوليون : « انتخب
برنادوت لان قرينته كانت شقيقة قرينة أخي يوسف ملك اسبانيا في ذلك العهد .
ولما كان برنادوت شديد التعلق بي جاء الي يطلب مني ابداء ارادي بذلك زاعما
انه لا يقبل المنصب الجديد المقدم له الا اذا كان هذا الامر يرضيني .

« ولما كنت ملكا بانتخاب الشعب اجبته انه لا يسعني بوجه من الوجوه
الاعتراض على انتخاب الشعوب الاخرى . هذا ماقلته لبرنادوت وقد كانت هيئته تنم
بالقلق الناشئ عن انتظار جوابي له . وعقبت على ذلك بقولي له انه يجب عليه
أن يفتنم الفرصة من ميل الشعب الاسوجي اليه واني كنت أود لو لم يكن
لي أدنى ضلع في انتخابه ومع ذلك كنت راضيا عنه ومتمنيا تحقيق هذا الامر
على اني كنت أشعر بعاطفة داخلية تجعل هذا الانتخاب مكروها عندي »

ولا يخفى ان هذه العاطفة كانت طبيعية في الامبراطور فانه لم يكن يستطيع
أن ينسى ما كان بينه وبين برنادوت من الحزازات المضمرة ولم يكن أحد منهما
يميل الى الآخر ميلا صادقا . بيد أنه كان جنديا فرنسويا من ابناء الثورة وقد
أصاب المناصب العالية في عهد الامبراطورية وكان رابطا وثيقا العرى يفوق في
متانته النفور الشخصي كان يربط بحظ فرنسا الجديدة هذا الجندي العظيم

المدعو للجلوس يوما ما على عرش أسوج . ولم يقف نابوليون عند حدس ضميره الذي كان يسترشد به دهاؤه الشخصي فاذن لبرنادوت بأن يجيب سؤال الاسوجيين ويقبل رغائبهم وان كان قد تغلب على آمياله الخصوصية فذلك سبب للاعتراف بان المتسلط العام كانت متسلطة عليه قوة تفوق قوته . وكان مكتوبا انه في وسط الحركة الواسعة الموجهة الى النهضة الاوربية سينهض أحد أبناء الثورة بعد ما كان آخر سليل من عترة واصا من أشد الناس معارضة لها في القارة الاوربية ويجلس على عرشهم ويصير عاصمتهم مدينة فرنسوية . واذا كان الملك الجديد قد نسي اصله فيما بعد وانضم الى أوروبا القديمة فان عمله هذا أصبح ضاراً بمجده القديم وشوماً وبيلاً على حظ نابوليون الا ان اسوج ما عتمت أن صارت من جملة البلدان التي فتحها أوروبا الحديثة وجعلتها تعصم بمبادئ العصر الجديد . ولا يعتبر عبثاً وضعها الفلسفة والديمقراطية جنباً الى جنب في قصورها ورؤيتها نسمة الحرية وروح الحضارة الفرنسية تحلان عليها من سماء الادارة وجوار العرش .

وحين كان احد قواده المشهورين موشكا أن يلبس تاج الملك ويجلس على العرش في استوكهلم كان احد اخوته يلقي التاج عن رأسه في امستردام : ولا يخفى ان لويس بوناپرت كان رجلاً عاقلاً ذا مقاصد نبيلة ونيات حسنة الا ان صولجان هولندا كان يفوق قوته من جراء الحصار البحري فاضطر الى القائه من يده .

وكان الامبراطور ينحي عليه باللائمة من عهد طويل لما كان يديه من الوهن الشديد في اجراء أوامره الصادرة عن برلين وميلانو . وذكرت صحيفة المونيطور شيئاً عما كانت هولندا تأتية في كل يوم من المخالفات للبدء بالنابوليوني واتفق ان الملك لويس تدمر من هذه الحالة فأجابه الامبراطور وهو في شنبرن : « لفرنسا دون سواها الحق بأن تشكو من الروح الشريرة السائدة بين ظهرائكم وان شئت سهل علي أن اذكر لك أسماء جميع المحلات الهولندية التي صارت نقيراً توصل به صوت بريطانيا العظمى فقوانين المكس عندكم لا تجري بغاية الدقة ومن جراء ذلك صبح يريد بريطانيا العظمى يصل الى القارة الاوربية بطريق هولندا . فهولندا معتبرة عندي ولاية بريطانية . »

ولبت هذه الشكاوي عقيمة فان الملك لويس أثرت به مصائب هولندا الحالية أكثر مما أثرت به النتائج البعيدة التي كان الحصار البحري يعني نابوليون بنيل وطره منها . وكان اجراء طريقة الامبراطور يقتضي وجود أشخاص ذوي صريحة شديدة يشاكلونه في صدق العزيمة . وكان اخوته أول العمال الذين انتقمهم حين عقد عروة العزم على انشاء أسرة مالكة فكان من وكده أن يقربهم الى أفسكاره وأمانيه بتقريبه اياهم منه في درجة المراتب السياسية واعطائه اياهم مناصب تماثل المنصب المتربع هو في منصبه ووضعهم التيجان على مفارقهم الا انه كما قال هو عن أخيه لويس لم يصنع الا « ملوكا ولاة » انصفوا بجميع الصفات اللازمة المؤهلهم الى حلول المقام الثاني في عصر غير العصر الحالي ولم يحرزوا صفة من الصفات التي تقتضيها الاحوال الحاضرة .

واذا كان قد سهل على الامبراطور أن يجد وليجة من أصحاب التيجان فلم يسهل عليه وجدان معاونين أذكاء يشاطرونه حمل اعباء المهمة الخطيرة الملقاة على منكبه . أجل ان العرش نصب بين حاشية محفوفة بالعظمة الا أن دهاء بقي وحيداً .

ولم يهيج لويس بوناپرت المنهاج الذي رسمه له أخوه ولم يسع لتصيير هولندا بلاداً فرنسوية مع ما كان يلقي في ذلك الامر من المعاكسات الوقتية بل ترك مملكته مستظلة بكنف المصالح التجارية البريطانية . فاستاء نابوليون من تصرف أخيه وتساهله وعدم انقياده الى آرائه وأنفذ اليه رسالة أخرى تكفي لان تثبت في التاريخ ان الامبراطور من جراء اندماجه كل الاندماج بالشعب المستسلم اليه لم يكن يعيش الا لفرنسا واليكم فقرات من هذه الرسالة المشهورة :

« ان جلالتك عند ارتقائك الى عرش هولندا ذهلت عن كونك فرنسويًا وأرهفت حسام عقلك وأبرمت أسباب ضميرك معتقداً انك صرت هولنديًا فالهولنديون الجانحون الى خطب موالاته فرنسا أهمل أمرهم وأعرض عنهم وأذيقوا مر الاضطهاد والهولنديون المعتصمون بمجبل بريطانيا العظمى منحو الاثرة عليهم . والفرنسيون من الضباط حتى آخر جندي طردوا من هولندا وجرعوا كؤوس الدل والصفارة . ويؤلمني أن أشاهد في هولندا في عهد ملك متحدر من الدم المتحدر أنا منه الاسم الفرنسي مستهدفاً لنبال العار والخزاية

على اني أحمل في قلبي وأستطيع أن أرفع على رؤوس حراب جنودي احترام الاسم الفرنسي وكرامته بحيث لا تستطيع هولندا ولا سواها التمس به من درن أن تنالها طائلة العقاب ... فمن يقدر على تزكية ما أتته جلالته من العمل المحقر للأمة والمهين لي؟ ويجب عليك أن تعلم اني لا أجنح عن جادة أسلافي واني من عهد كلوفيس حتى عهد لجنة الامن العام أظل ضامنا كل شيء ... وأنا أدري أن بعض الناس تعودوا أن يسهبوا في اطرائي وينتقدوا فرنسا بالسنة حداد على أن الذين لا يحبون فرنسا لا يمكنهم أن يحبوني والذين يطلقون ألسنتهم في قول السوء عن رعيتي اعتبرهم من أعدائي الكاشحين . وفي الخطاب الذي خطبته في المجلس الاشراعي بحث لهم بأسرار استياثي فأنا لا أخفي عليك اني مصمم على ضم هولندا الى فرنسا كتنمة لأراضيها وكضربة قاضية على بريطانيا العظمى تنكفي مؤونة الاهانات المتواصلة التي لا يني زعماء حكومتك عن ابدائها لي فينبغي أن يكون لي مصب نهر الرين ومصب نهر الموز وأن يعتبر القوم في فرنسا مبدأ أساسياً منحدر الماء الى الرين حداً لبسلادهم ... ويمكنني والحالة هذه أن أترك لهولندا ضفة نهر الرين الجني وأن ألغي ما قضيت به من المنع على دوائر المكس كلما رأيت ان الوثائق المبرمة والمجددة توضع موضع الاجراء وهذه هي مقاصدي :

- ١ — منع كل تجارة وكل علاقة مع بريطانيا العظمى .
 - ٢ — انشاء اسطول مؤلف من أربع عشرة سفينة حربية كبيرة وسبعة مراكب وسبع سفن حربية صغيرة مسلحة ومجهزة .
 - ٣ — تجهيز جيش بري قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل .
 - ٤ — الغاء منصب المارشالية .
 - ٥ — الغاء جميع امتيازات النبلاء المخالفة للدستور الذي منحه والذي اضمنه وتستطيع جلالته أن تفاوض بموجب الشروط المار ذكرها دوق كادور بواسطة وزيره ولكن تأكد اني عند دخول أول سفينة الى هولندا أعيد المنع الموضوع على المكس وعند أول اهانة توجه الى رايتي التي القبض بالقوة على القائد الهولندي المتجاسر على اهانة علمي واعلقه على السارية الكبرى ... »
- ولم يؤثر في ملك هولندا هذا الكلام الصادر عن صاحب السلطان الاكبر

فقد كانت افكاره منصرفة بجمليتها الى حاجة الصناعة الهولندية الحالية ومصالحها وكان معتقداً انه من المقضي عليه أن يحافظ على مصالح الشعب الهولندي وانه يمنح عن الجادة المثلى ان هو سار على غير الخطة المرسومة له لتعزيز شؤون البلاد المتفوض اليه أمر ادارتها . وحيث لم يكن يرى نصب عينيه سوى هواندا وخبرها نسي انه لم يجلس على عرشها الا للعمل لتعزيز مبدأ أعم يأول لخدمة السلطنة الفرنسية وسلامتها واعلاء منارها

وكان لويس يأنف من هذا الامر من ذات طبعه فقد كان من عداد الألى ينظرون الى السياسة عملة الأحرار كما يقول دي ميستر . وان وساوسه التي كانت من بعض الوجوه محدودة لم تكن تجعله يرى أن الحصار البحري لم يكن للامبراطور الا ما كانت الحكومة الثورية للجمهورية أي ضرورة محزنة وهائلة وفضلا عن ذلك لم يكن لويس بونابرت يعتقد أن الحصار المقرر وضعه لناوأة بريطانيا العظمى تكون له النتائج المشؤومة على المصالح البريطانية كما كان الامبراطور يزعم ذلك .

وكتب لويس الى نابوليون ما يلي : « ان تدمير هولندا بدلا من أن يكون واسطة لخسارة بريطانيا العظمى يكون واسطة لكسبها ونجاحها بجميع الصنائع والاموال التي يلجأ اصحابها الى الربوع البريطانية . فليس لك سوى ثلاث وسائل تضرب بها بريطانيا العظمى ضربة قاضية : اما بسلخ ارلندا عنها واما بائزاع الهند الشرقية من يدها واما بنشيان ارضها . على أن الوسيلتين الاخيرتين لا يمكن وضعهما موضع الاجراء بدون اسطول وإن كانتا أشد تأثيرا من غيرها وانا اقضي العجب من العدول عن الوسيلة الاولى . »

ولم تؤثر كثيراً شكاوي لويس بالامبراطور العارف بحق المعرفة انه لا يستطيع القضاء على هولندا بتحميله اياها ائقال الخسارة المادية وغير المعتقد ان الصناعة البريطانية تستفيد من المعاملة الملبسة بالصناعة في القارة الاوربية . ولما زار نابوليون بلجيكا وجه الى أخيه رسالة عن استند ضمنها كثيراً من العتاب والملامة واليكم بعض ما جاء فيها .

« اذا كانت هولندا الخاضعة لأخي لا تلقى فيه صورتي ومثالي فقد فقدت

انت كل ثقة عند ادارة حكومتي وقد حطمت صولجانك بيدك . غلب فرنسا وحب مجدي : هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع ملك هولندا أن يتخذي بها .

« فلو فعلت مايجب عليك أن تفعله لكانت هولندا المعتبرة جزءاً من سلطنتي عزيزة جداً لدي ولا سيما وقد اعطيها ملكاً كنت اعتبره ابناً لي . ولما اجلسك على عرش هولندا اعتقدت اني وضعت عليه وطنياً فرنسياً ولكنك سرت على منهاج يخالف كل المخالفة الطريق الواجب عليك المسير عليه... فارجع الى الصراط المستقيم وكن فرنسياً قلباً وقالباً والا اضطرت رعيتك الى طردك من ظهرانيها ولا يخفى عليك أن الانسان يتولى الحكم في الدولة بالعقل والسياسة . »

وافضى الامر بملك هولندا المصير على بقائه هولندياً اجابة لنداء الحالة الحاضرة وحاجات الشعب الهولندي وليس مجازاة لمقاصد وآراء الامبراطور البعيدة الى التبرم من مناهضة شقيقه مناهضة لم يكن له قبل بهافهجر بلاده ميمما ألمانيا بعد ما ارسل الى باريس كتاباً ضمنه استقالته . فساء عمله هذا نابوليون كثيراً واصدر الامبراطور مرسوماً بتاريخ ٩ يوليو سنة ١٨١٠ بناء على تقرير رفعه اليه وزير خارجيته ضم بموجبه هولندا الى السلطنة الفرنسية فاحتل المارشال اودينو مدينة أمستردام في الحال .

ولم يستطيع الامبراطور كتمان ما شعر به من الاستياء من جراء تصرف أخيه ولما كان هذا الاخير قد قصد بتنازله عن العرش وفراره ان يشكو من أخيه الى أوروبا والاجيال الآتية بأنه صير التاج على رأسه ثقيل جداً بما كان يطلبه منه من الاعمال الباهظة لم يسع نابوليون البقاء صامتاً . ولما كان كل شيء عندهذا الرجل الداهية ممتازاً وفائقاً سواء وجد طريقة لا يستطيع غيره أن يتصورها وقد أراد بها أن يبالغ في ضرب لويس المنكود الطالع ضربة مؤلمة وأن يذيع عمله المنكر اذاعة باهرة فانه باظهار حنانه الشديد نحو الابن ضرب الاب ضربة شديدة فالكلمة الواحدة ينجم عنها حياة الواحد وموت الآخري في العالم السياسي والشعب الذي يقيس حبه وبغضه على حب بطله وبغضه نسي في شدة تعلقه بالاسرة الامبراطورية الاخ المتعمد الافتراق عن الامبراطور وصرف اهتمامه الى الغلام

وقد أعلن عمه انه سيكون له أبا وعنادا . ودعا اليه نابوليون في ٢٠ يوليو في حفلة شائعة بقصر سان كلود البرنس نابوليون لويس نجل أخيه وقال له بلهفة: « تعال يا ابني فانا سأكون لك أبا وانت لا تفقد شيئا بذلك . ان تصرف والدك يحزن فؤادي ولكن مرضه يوضح سر عمله . وحين تكبر تؤدي لي ما يحق لي عليه وعليك . ولا تنس في أي مركز ساقطك اليه السياسة ومصصلحة سلطتي ان اول واجب عليك هو لي ثم لفرنسا وجميع ما يجب عليك في ماسوى ذلك يكون للشعوب التي سأكل اليك أمر تدبيرها وستجعل لها المحل الثاني . »

فلو كان ملك عادي جالس على غير عرش فرنسا يفوه بمثل هذا الكلام لكانوا ينحون عليه باللائمة بحق لتطرفه في التكبر بوضعه نفسه قبل الوطن وتطرفه في الانانية الوطنية بتضحيمته في سبيل سياسته بمصالح الشعوب المخالفة والمقهورة ولكن نابوليون لم يكن يعتبر ما يجب على الناس له قبل ما يجب عليهم لفرنسا الا لاعتباره ذاته رأس فرنسا وقلبها . ولم يكن يعتبر ما يجب على الملوك عماله للشعوب الموكل بهم أمر تدبيرها بعد ما يجب عليهم لفرنسا الا لاعتباره فرنسا رأس وقلب أوروبا والعالم المتمدن .

وتلا ضم فالة الى السلطنة الفرنسية ضم هولندا اليها . وابلغ الامبراطور مجلس الشيوخ ذينك الامر بن الخطيرين برسالة واحدة قرئت في جلسة ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٠ وهذه خلاصتها :

« ان القرارات التي نشرها المجلس البريطاني في سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٠٧ مزقت الحق العام في أوروبا فصار نظام جديد يدير العالم . ولما رأيتني محتاجا الى ضمان جديد بدا لي ان اضمن هو ضم الامكنة الدافعة فيها انهار الاسكو والموز والرين والامس والوزر والالب مياها في البحر الى السلطنة الفرنسية وانشاء ملاحية داخلية تتصل ببحر البلطيك

« وقد وضعت رسم قناة يتم عملها بعد خمس سنوات فتصل البلجيكيك بالسين على ان ضم الفالة هو نتيجة مستدركة للأعمال العظيمة التي اجريتها من عشرينين في تلك الناحية من جبال الالب . وحين تدخلت في امر الخلاف الطارىء في تلك الجهة فصلت الفالة عن جمهورية سويسرا مفكراً من ذلك الحين باتخاذ تدابير مفيدة لفرنسا وايطاليا .

فلم يبد مدير الشحنة مقاومة لاوامر ذبنك السجينين المقضي عليه التشديد في المراقبة عليهما .

ولم يمترض ناظر الشحنة على القاء القبض عليه وعلى كل ما أخبره اياه غيدال ولاهوري من تلقيقات مالاي ففاجأاه في سريره وأطاعهما بذهابه الى سجن الفرس حيث حل محلها هو ومدير الشحنة .

وأظهر فروشو مدير السنين الثقة نفسها والانقياد نفسه وظن أن المنية تخزمت العاهل فأعد الردهة لاقامة الحكومة الجديدة .

ولم يصب مالاي من الانقياد عند حاكم باريس ما أصابه عند غيره فان هولان بدلا من أن يدعهم يلقون القبض عليه بدون استيضاح طلب أن يرى الاوامر التي يريدون بموجبها ايقافه ودخل غرفة عمله . وشار مالاي وراءه ولما التفت الحاكم وكرر طلبه ابراز الاوراق المستنديين اليها في أمر القبض عليه أطلق عليه المؤامر الجريء غدارته فجرحه في وجهه وصصره على الارض من دون أن يقتله . وكان ضابط من ضباط الفرقة العاشرة حاضراً فلم يسمي الظن بشيء عند رؤيته هيئة الحاكم ولم ينتبه الى انخداعه هو وفرقته على أثر تصديق السكولونل تلك القرية .

وبعد ماجرح مالاي هولان وصصره مضى الى دوسه النائب العام فلقى عنده مفتشاً من مفتشي الشحنة فعرفه هذا وانهره بشدة وفي الحال أصدر الامر بالقاء القبض عليه . ولما رأى مالاي انه لم يبق له أمل بالنجاة طالع الفرار من الورطة الناشب فيها بالتجائه الى غدارة ثمانية مخبئة في جيبه . ولكنه لم يظفر بمحاجته من غدارته فانهم انزعوها في الحال من يده وهجم عليه الحاضرون فاوثقوه . ولم تمض دقائق حتي عاد المتآمرون الى السجن بعد ساعتين قضوها في الامر والنهي في العاصمة الفارقة في لجة الكرى . وكان ناظر الشحنة الذي عينه مالاي مهتماً في بيته بتفصيل بزة تلائمه حين جاؤوا والقوا القبض عليه

وهكذا انتهت المؤامرة المبنية على الطيش والحماقة وكانت كأضغاث أحلام أو كمشهد من مشاهد الروايات أو كحادث من حوادث الجولان في النوم لبعض



الاستيلاء على فينا (١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩)

الفصل الثامن عشر

قانون المطبوعات — تعيين الميسو دي شاتوبريان خلفاً لشبيهه في الندوة العلمية ولادة ملك رومية وعماده — احتفالات عامة في العاصمة والسلطنة — مجمع الاساقفة الوطني — البابا في فينتنبلو .

ولم يكن من جملة اسباب الملامة الموجهة الى نابوليون سبب اشد واقوى من رغبته في خنق الحرية في مباحثات المجالس وصحف الاخبار السيارة . فلو كان قد اقتصر على وضع المراقبة على المطبوعات وكم افواه الخطباء على المنابر وفي المنتديات لكفى بعض غلاة السياسيين ان يستندوا الى ذلك ويسودوا صحيفة حياته ويطلقوا عليه لقب « الجائر » . ومعاذ الله ان نضيع الوقت في بيان منافع الصحافة فانه من باب تحصيل الحاصل وقد اصبح كالشمس في رابعة النهار . فنحن اول من يعلن على رؤوس الاشهاد ان الصحافة تعتبر في مقدمة القوى الممهدة سبل العمران وافضل مؤثر في القرون الحديثة وانفع وسيلة استخدمتها العناية لتحرير الشعوب من ربة العبودية والاستبداد وممهدة الطريق للقنصل بوناپرت لابرار اسباب الثورة واتمامها والدفاع عنها والوارثة الوحيدة لثغور الامبراطور نابوليون ونيله السؤدد امام الرأي العام في فرنسا وفي جميع البلدان المنتشرة في ربوعها الوية الحضارة .

ولما قبض نابوليون على عنان السلطة كانت الصحافة قد بدأت تميل الى الانحطاط والسآمة بعد عراك عنيف دام نحواً من عشر سنوات . ولما كانت قد اصبحت آلة بيد الاحزاب المختلفة الممزقة الامة كل ممزق لم تصبح خادمة الا للفوضى ونفرت الناس من الفتنة فأنفوا منها بعدما كانوا يصبون اليها ويكرمونها . فقد كانت محتاجة الى الراحة لتتقوى كما كانت الثورة محتاجة الى محام جديد يحسن المدافعة عنها من اعدائها الشديدي العداوة واصدقائها الهائمين على وجوههم في مجاهل الضلال . وكانت قد ازفت الساعة لوجود حاكم مطلق : فظهر نابوليون . فنبذت الديمقراطية اقوال خطبائها في المنتديات والمجالس والصحف تلك الاقوال السامية في غالب الاحيان والشديدة الفعل في ابان المتآلف النازلة بفرنسا وقد افضت بها الاحوال الى ان تصير سبباً دائماً للتفريق والاضطراب في البلاد

وواسطة لاضعاف السلطة وتحقيرها . وابتدأ عصر الصمت او بعبارة اخرى تلت عواصف الساحات العامة مناجاة عجيبة لم تكن فرنسا فيها اصغر بما كانت عليه في عنقوان مجدها البرلماني . فان ميراث المشاهير من خطباء الجمعية الدستورية والسكنفنسيون اغتصبه خلفاء جهلة وغير جديرين به . وارتفعت الوف من الاصوات المختلفة تريد ان تأول على هواها حاجات البلاد وامانيها بيد انه لم يكن من وراء هذا العمل سوى زيادة التفريق واستفحال امر المهالك والمذابات وظهر في اثناء هذه الجلبة انسان جروء على ان يقول في نوبته : « انا فرنسا وانا اكثر علما من معبري عواطفها الادعياء بما تحتاجه وبما ترغب فيه . » ولما كان هذا الرجل يفوه بكلام الحق صدقته فرنسا ورضيت بان يكون لسان حالها .

وخفتت من ذلك الحين الاصوات المختلطة الداعية الى الاختلاف والتفرق ولم يسمع فيما بعد سوى صوت ممثل فرنسا الاعظم : وكان هذا شرطا محتوماً للخطبة التي توخى انتهاجها بحيث تصبح الثورة ساكنة في الداخل ومرهوبة الجانب في الخارج . ومع ذلك لم تخنق حرية الصحافة بل أُلقي فوقها ستار وعزلت حتى زال الارتجاع المحتوم المقضي عليها به وقضت الاحوال باعادتها الى ما كانت عليه قبلا وتسلسلها على الافكار . وادركت الصحافة ولا مرأه انه حان الوقت لها للازواء لتندع المجال مفتوحاً في وجه الحاكم المطلق الداهية ليعمل ويقول لانها وجدت الصمت خيراً لها وابقى فيتمسك لها ان تجعل الناس ينسون تطرفها وتستجمع قواها لتتمكن من الظهور يوماً ما بمظهر يفوق سواء بالنشاط والتفوق واذا كانت حرية الكتابة والصحافة ضرورية في ذلك العصر فلم يكن احد ليخرق حريتها من دون ان تناله طائلة العقاب واذا كانت الصحافة التي عصت فيما بعد اوامر الملك شارل العاشر قد انقادت خاضعة لاوامر نابوليون فما ذلك الا لان المواطنين وحاجات القوم لم تكن في سنة ١٨١٠ مماثلة للمواطنين والحاجات في سنة ١٨٣٠ وكانت الصحافة تسير بموجب الروح الوطني وتخدم روح العصر سواء كان ذلك حين تحاذر ان تعصي اوامر ممثل الثورة او حين اوعزت الى الناس بوجوب التمرد على ممثل الملكية القديمة .

ولم يكد نابوليون يصدر مرسوماً جديداً قاضياً باتخاذ تدابير رادعة متعلقة بالصحافة وغير مرخصة بنشر اكثر من صحيفة واحدة في كل مقاطعة حتى طرأ

حادث غير منتظر جعله مثابرا كل المثابرة على الخطة القاضية عليه الاحوال بالمسير على منهاجها وهي ان يراقب كل مجاهرة عامة للافكار والآراء السياسية .

وكان المسيودي شاتوبريان قد جعل خلفا لشنيه في الندوة العلمية وكانت العادة الجارية تقضي بان يخطب المنتخب الجديد خطابا يضمه الثناء على سلفه .

فأراد المسيودي شاتوبريان ان يخلع عنه نير التقليد ولم يخش ان يلتحل لنفسه دورا ثوريا في وسط المجمع العلمي نفسه ليتسنى له ان يسهب في الكلام منتقدا الثورة الفرنسية ومنحيا بالوم المر على الشاعر الوطني الذي نظم لبلاده عقد النشيد المشهور الذي عنوانه : « نشيد الرحيل » ، الا ان خطابه عرض على مفوض خاص لم يوافق على القائه فلم يلق قط . وكان فريق من اعضاء المفوض يذهبون خلاف مذهب صاحب الخطاب ومن جملتهم رجل من الرجال المقربين من نابوليون الذين لم يكن يهمهم سوى نيل الحظوة لديه . ولما تم الخبر الى الامبراطور أمر بأن يأتوه بخطاب المسيودي شاتوبريان ليقراه ولما رأى فيه لهجة الاستعلاء والشدة وما كان يرمي اليه من تحقير الحاضر والاطراء على الماضي فأمر فآثره وانهر عضو المجمع العلمي الجديد بالكلام التالي :

« أأنت يا حضرة السيد نسجت بردة هذا القدح ؟ فتي صارت الندوة العلمية جمعية سياسية ؟ فلتنظم هذه الجمعية عقد الشعر ما شئت نظمه ولتصلح أغلاط اللغة ما وجدت لهذا الاصلاح سبيلا ولكن فلتحاذر كل المحاذرة الخروج من دائرة علم الادب وتخطي حدوده والا اضطرت الى إرجاعها اليها . واذا كان المسيودي شاتوبريان مختل الشعور أو ناغل الدخيلة فلدينا معقلات (بيارستانات) نزجه فيها أو عقوبات ننزلها به ومن المحتمل أن يكون هذا الرأي رأيها فلا ينبغي لها ان تضحي به في سبيل سياسي التي تجهلها هي كما تتجاهلها أنت مع معرفتك إياها حق المعرفة وقد تكون هي معذورة ولكنك أنت لا وجه لتتصلك من الملامة مع اقامتك على مقربة مني ومعرفتك ما أعمله وما أريده . يا حضرة السيد اني أعتبرك مجرماً وجانياً وأنت لا ترمي الا الى إلقاء بذور الشقاق والشغب والفوضى والتحريض على القتل . . . فهل نحن في نظرك سفاحون أو لست عندك سوى مختلس ؟ اني لم أخلع أحداً عن العرش يا حضرة السيد فأنا وجدت التاج ملقى في التيار فالتقطته ووضعته للشعب على

رأسي : فلتحترم أعماله .

« ان تحليل الامور جهاذا او بسطها للبحث والمداولة في حوادث قريبة العهد في مثل الاحوال الحاضرة مدعاة الى اثار اضطرابات جديدة ومجاهرة بمناوأة الراحة العامة وان ترميم صرح الملكية المتداعي سر ولا ندحة عن بقاءه سرا وفضلا عن ذلك ما هذه التدابير العنيفة الجديدة المزعومة اتخاذها بحق اعضاء الكنفنسيون والمتهمين بقتل الملك ؟ وكيف تستجري على بعث مثل هذه المسائل الدقيقة من رمسها ؟ فلندع لله الحكم في ما لم يبق جائزا للبشر الحكم فيه . فهل انت اشد تمسكا برأيك من الامبراطورة برأيها ؟ فلها مصالح خطيرة خاصة تحافظ عليها كما تحافظ انت على مصالحك وبحسن بك ان تقتدي باعتدالها وعزة نفسها فهي لم تشأ ان تعلم او ان تعرف شيئا .

« ما هذه الحال ؟ أفقد موضوع عنايتي وثمره جميع ما أنفقته من الجهد ؟ أعني اني اذا ما فقدتموني غداً عهدتم الى القتال والتطاحن ؟ ما أشقالك يا فرنسا ! فانك ستظلين مدة طويلة مفتقرة الى وصي . »

وكان الكلام الاخير الذي فاه به الامبراطور مبعراً عن الفكر السياسي لدرة أعماله على راحه منذ جلوسه وكان لا يزال متسلطاً على كل حركة من حركاته في أثناء ملكه . فكان يزعم انه ألقيت اليه مقاليد الوصاية على فرنسا وفوض اليه أمر حفظها من عودة الاحزاب الى اللعب بها وأصير اليه أن يحول دون استنزاف موارد قواها باختلافات لا طائل تحتها أو بمخاضات تخرج الى سفك الدم على ان روح الحزبية كان يرشده الى اتيان أعماله وقد دفعته اليها عوامل الطمع المفرط والكبرياء الممقوتة وان ما كان خصومه المتعمدون الغض من كرامته يمدونه ضرباً من الظلم كان هو يدعوهم « وصاية سامية » . ولما كان الشعب قاضيه الاكبر المعصوم من الخطأ لا يرى في حكومته إلا القوة والعظمة مع السير على الجادة المرسومة له بدهاء هذا الرجل العظيم كان بعض معارضيه وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين وقد اعتزلوا عن معاشر البشر يرون في حكومته آثار العسف والاستبداد . وكان يدنو الحين الموشك فيه الحظ ان يمن على نابوليون باسمي وآخر نعمة كان يتوقعها منه . فشعرت الامبراطورة ماري لويز في ١٩ مارس سنة ١٨١١ باعراض الخاض الاولى تخافوا في بدء الامر أن تكون

ولادتها متمسرة وكان دوبروي المشهور قد استدرك تلك الحالة وسأل عما يجب عليه ان يفعله لو قضي عليه بعمل عملية جراحية وخير بين سلامة الام وسلامة الطفل : فقال له نابوليون بلهفة : « ابذل جهدك لاتقاذ الام » . فان عواطفه كرجل انتصرت في هذه الدقيقة الرهيبة على جميع المصالح التي كانت بتوخاها كإمبراطور ويعمل النفس باصابتها وفي الساعة التاسعة صباحاً من ٢٠ مارس زالت جميع مخاوفه وتمت جميع رغائبه فان ماري لويز وضعت غلاماً فتناوله نابوليون في الحال بيديه وبادر الى عرضه على أنظار عظماء بلاطه وهو يصبح بعلء فيه وقد ثمل بنخمة الفرح : « هذا ملك رومية ! »

وما عزم صوت المدفع ان بشر العاصمة بنبأ الحادث السار المتعم رغائب رئيس الحكومة الامبراطورية الاكبر . فكانت الاحتفالات والمسرات العامة تنبئ عن مشاطرة الشعب رئيسه ذلك الهناء الشديد . وسلكت مسلك باريس نابولي وميلانو وجميع المدن المرفوعة فوقها الراية القراسوية وقدمت جميع مجالس الحكومة وسفراء الدول الاجنبية تهانئها لوالد ملك رومية السعيد الجدد . وقد ناب عن ملك بروسيا في تقديم التهاني البرانس دتزلند وهو الذي صفع عنه نابوليون في برلين اكراماً لزواجه المذرفة الدموع أمامه

واحتفل في كنيسة نوتردام في ٩ يونيو بمعمودية ملك رومية فخرجت جميع باريس لمشاهدة الحفلة الشائقة وكان الشعب يريد أن يقرأ على جبين نابوليون ما كان يخامر فؤاده من سرور الملك وغبطة الاب وكان يريد أيضاً أن يبدي له ما كان يساوره من الابتهاج . على أن ابتسامه نابوليون وان تكن نادرة ولا تسكد تظهر على ثغره حتى تتوارى كان الناس يرونها في هذه المرة واضحة كل الوضوح على وجهه بحيث انها كانت تنعكس على جميع وجوه المحيطين به . وكان ذلك المشهد حافلاً وقد شاطرت السماء فيه الارض فكانت الشمس ساطعة والجو صافياً بحيث أن الشعراء تغزلوا بذلك المشهد وقالوا : « ان السماء تظل واقية له . »

واقبل الامير الطفل سر العهاد من يد الكردينال فش خال والده وكان عرابه جده امبراطور النمسا وأطلق عليه اسم نابوليون فرانسوي شارل جوزف . وكانت معمديته واسطة لاقامة الاحتفالات الشائقة في جميع الاقاليم الخاضعة

لسلطة والده وأكرم والي السين ومجلس بلدية باريس وفادة جميع حكام مدن السلطنة الفرنسية والمملكة الإيطالية . وكان الميسو دي بوريان المشنع بحق نابوليون أكثر من غيره قد اضطر الى الاعتراف بأن ولادة ملك رومية استقبلت بحماسة عامة وانه لم يلد طفل بين مجالي العظمة والمجد نظير هذا الطفل . وكان نابوليون يري في خلال ذينك الابتهاج والحماسة العامين الروح الاكبريكي يدبر سراً حركة ترمي الى تقويض عرش الامبراطورية فان بيوس السابع ظل مصرأ على رفضه تثبيت الاساقفة الذين سماهم الامبراطور وبعبارة أخرى لم يكن يرضى بعمل أدنى تسوية قبل أن ترجع اليه عاصمته وبلاده . وقد ذهبت على غير جدوى تسمية نابوليون رئيساً لأساقفة باريس زعيم حزب اليمين في المجلس الدستوري فان الحبر الاعظم لم يرض بتسميته . مع ما كان الاب موري المشهور المنتدب لهذا المنصب الديني السامي من المكانة العالية لدى الخاص والعام فقد كان هذا الاب يجاهر على رؤوس الاشهاد بأنه لم ينضم الى الامبراطورية الجديدة الا لرؤيته فيها تكريس مبدأ الملكية وقد كان هو من أشد المناضلين عنه . وأصدر البابا حرماً على هذا الاب الفاضل المدافع بكل قواه عن الملكية والكرسي الرسولي إلا أن هذا الحرم بقي سرياً . ولما علم نابوليون ان مأموراً من كبار مأموري الامبراطورية وهو برتاليس مدير المكتبة علم ما كان من أمر الحرم السري ولم يعارضه اتمره بلهجة عنيفة في إحدى جلسات مجلس شورى الدولة وهذا ما خاطبه به الامبراطور : « ما الداعي الى صملك هذا ؟ أهو مبدأك الديني ؟ فاذا كان هو الداعي الى ذلك فلماذا أنت باق في هذا المكان ؟ أنا لا أضغط على ضمير أحد فهل جعلتك بالعنف مستشاراً لي ؟ ان هذه نعمة كبرى التمت أنت إصابتها وأنت في هذا المجلس أحدثهم سناً وقد تكون الوحيد بينهم الخالي من الالقاب الشخصية وأنا لم أنظر إلا الى خدم أبيك لأ كافئك عليها . . . فعلى مستشار الدولة واجبات كثيرة نحوي : وأنت دستها برجليك وعليه فصلتك من هذا المنصب فاخرج واغرب عن عيني . . . وانه وايم الحق يؤمني هذا الامر كثيراً لان فضائل والدك وخدمه لا تزال ممثلة في ذهني . »

فخرج المستشار الشاب من المجلس وعاد الامبراطور فقال :

« أو مل أن مثل هذا المشهد لا يتكرر أبداً فقد جلب علي غمّاً شديداً . »
ولم يقتصر نابوليون على إبعاد الأشخاص المعتمدين بمجبل الباباوية بل أراد المجاهرة بمعاكسة ما كان يضمه فريق كبير من رجال الدين لسوق الأذي إليه وصمم على بسط مزاعم الحبر الأعظم للأساقفة الفرنسيين المستمسكين بغرض المبادئ الغاليكانية . فأمر بعقد مجمع أساقفة وطني وجعل الكردينال فوش رئيساً له وصرف جل عنايته إلى إدخال الأساقفة الإيطاليين فيه وكان يظنهم بمالئين له على مقاصده . وهذه صورة الدعوة التي وجهها إلى الأساقفة :

« إن الكنائس الفاتكة سواها في الشهرة وكثرة الرعية في سلطنتنا خلت من رؤسائها وإن أحد الفريقين العاقدين الوثيقة (الكنكردا) تجاهل هذه الحالة . على أن المسلك الذي سلكوه في المانيا من عشر سنوات كاد يقضي على الأسقفية في تلك البلاد المسيحية : فلم يبق فيها اليوم سوى ثمانية أساقفة والقسم الأكبر من الأبرشيات يتولى نواب رسولون تدبير شؤونهم فكان من وراء ذلك إدخال الاضطراب على المجالس الدينية بتعريضهم بما لها من الحق لتولي إدارة شؤون الأبرشيات عند فراغها من رؤسائها وسعوا سعيًا خفياً لالقاء الشغب والفتن بين الرعية فلم تر هذه المجالس مندوحة عن نبذ البراءات المخالفة لحقوقها وللقوانين المقدسة . »

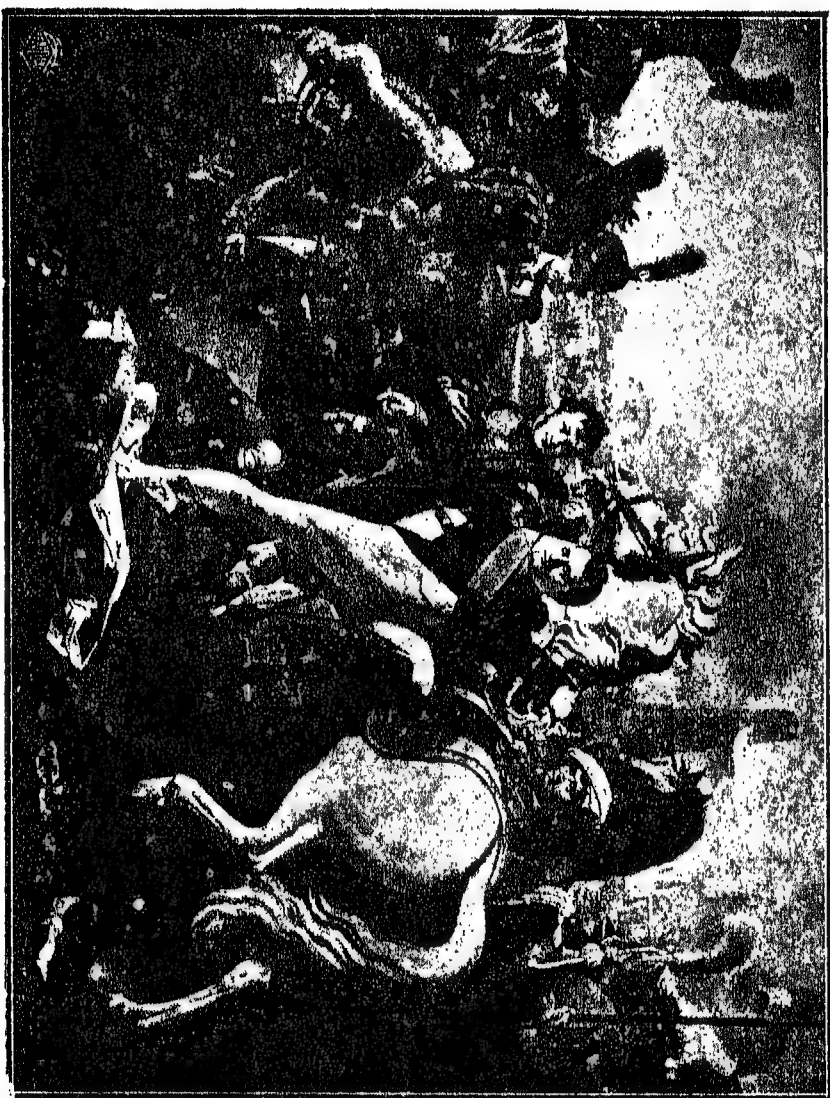
« ومع ذلك نمر الاعوام وتفرغ الأبرشيات عندنا من رؤسائها في كل يوم فاذا لم يبادر إلى النظر في أمرها في القريب العاجل قضي على الأسقفيات في فرنسا وإيطاليا وأصابها ما أصاب الأسقفيات في المانيا . ولما كنا نرمي إلى تلافي الأمور المخالفة لخبر ديانتنا ومبادئ الكنيسة الغاليكانية ومصالح الدولة فقد صحت عزيمتنا على أن نجتمع في ٩ يونيو القادم في كنيسة نوتردام بباريس جميع أساقفة فرنسا وإيطاليا لعقد مجمع وطني . »

« وعليه نرغب منكم أن تبادروا فور وصول رسالتنا هذه إليكم إلى اخذ طريقكم إلينا لتصلوا إلى باريس في الأسبوع الأول من شهر يونيو . »
« وليس لنا غاية غير الغاية المبينة في هذه الرسالة فنسأله تعالى أن يكلاًكم بعين عنايته المقدسة . »

ولم يتمكن الأساقفة من عقد الجلسة الأولى لجمعهم إلا في ٢٠ يونيو على

أن الامبراطور وان يكن قد عني باختيار رئيس المجمع من أسرته فلم يجده منقاداً كل الانقياد الى رغائبه كما كان يبتغي فان الكردينال فش كان أول من جنح عن الجادة التي كان نابوليون يريد أن يرسمها له فأظهر في المجمع انه خاضع للكنيسة الرومانية أكثر مما كان خاضعاً للامبراطورية الفرنسية . ولم يسع الا ساقفة أن ينهجوا غير المنهاج الذي تخير الكردينال فش نهجه لأن عهد الغاليكانية كان قد انقضى . وكان القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية الكبرى اللذان جاء بعده بوصويه قد زعزعا مذهب هذا الرجل العظيم وسلطته من أساسهما عند رجال الدين في فرنسا : فان هؤلاء الرجال استأثروا من نهكم فلتير على الدين والاضطهاد السياسي لهم فأجمعت كلمتهم على وجوب توثيق عرى ارتباطهم بالكرسي الرسولي ومناصرة زعيم الكنيسة الاكبر المحصور فيه مبدأ الكهنة الحيوي . وكان الاساقفة يخشون من ان يجهزوا على الكنيسة الرومانية في فرنسا فيكونون كالباحث عن حتفه بظلمه بما كسبهم لمزاعم الحبر الروماني وسعيهم وراء الذرائع الآيلة الى اصعاف علاقتهم بالسلطة الروحية المستمدين قوتهم منها . فبعد ما ركبوا مركب الغرور . وذهبوا كل مذهب في الجدالات الدينية وأعلنوا حرية الكنيسة الغاليكانية في عهد الملك لويس الرابع عشر ردهم الى تقاليد الجبلين المتطرفين ما جرى من الحوادث في السنين الاخيرة لملك لويس السادس عشر . وكلما كانوا يشعرون بخطر يهددهم من جراء روح الازمنة الجديدة كانوا يسعون للالتجاء الى دهاء المصور القديمة والعودة الى مصدر قوتهم وحياتهم . على انه اذا كان مجموع الاساقفة ينتمي بحكم الضرورة الى الماضي فان زعماء الكنيسة اذا أخذ كل منهم على حدة كانوا عصريين وغير ميالين الى مناهضة موزع الزمنية الشديد الحول والطول . فانحل المجمع وتمكن الامبراطور من الحصول من كل أسقف فرنسوي وإيطالياني على تصريح شخصي ملائم كل الملائمة لمقاصده .

وكان البابا في ذلك الحين في سافون وهو لا يزعم عزمه شيء من الاشياء فناجى نابوليون النفس أن البابا قريب من رومية أو أن البريطانيين قد يحتطفونه فأمر به أن يقدم الى فينتنباو . على أن نابوليون مع مسامحته البابا بيوس السابع بهاءه المعاملة العنيفة لم يذهل قط عما يجب عليه ان يبديه من الاحترام والاکرام



ٲابوليون بحرج في راسدين

لاسيره العظيم . وقد شاء أن يخفف عنه وطأة المنفى ظمراً أن يكون ملازماً له العالم دينون وهذا خفف والحق يقال بلطف أحاديثه وعنايته المشهورة . انقال المحموم عن الاب الاقدس فتعلق به ييوس السابع كل التعلق وكان في أحاديثه معه يسأله في غالب الاحيان عن بعثة مصر ورغب في الاطلاع على المؤلف الذي صنقه هذا العالم في عاديات تلك البلاد . بيد أن المسيو دينون لعله أن كتابه يتضمن بضع صفحات لا تنطبق على الكتاب المقدس في ما يتعلق بأصل العالم خاف في بدء الامر أن يجرح عواطف قداسة الخبر الاعظم بتلك الشروح والمزاعم المخالفة لما جاء في سفر التكوين الا ان البابا لم يقف عنده هذه الامور المبينة الاختلاف بين المباحث العلمية وقضايا الوحي وحين شعر بان دينون يجهد بكتمانها عنه سكن خاطره بقوله له : « لا بأس من ذلك يا ابني فان جميع هذه الامور في غاية الغرابة واني والحق يقال لم أكن أعلم هذا الامر . »

واخبر العالم الفرنسي حينئذ قداسة الخبر الاعظم ان الكتاب الذي قرظه رشق هو ومؤلفه بسهام الحرم من قداسته . فقال له البابا : « هل انت محروم يا ابني وهل انا حرمتك ؟ فاني وايم الحق مستاء جداً من هذا الامر واؤك ذلك اني كنت جاهلاً بذلك كل الجهل . »

الفصل التاسع عشر

نظرة عامة في مجرى الحوادث الحربية في اسبانيا والبرتغال

من سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١٢

- وكانت تنشئة الشعب الاسبانيولي على الطريقة الفرنسية نيجوري في أثناء تلك الحروب الهائلة ومن خروج الامبراطور من شبه الجزيرة الالبرية لم يكن نوابه يرون بدأ من اطاقة المناوشات ومحاربة الجنود المنظمة المؤلفة من البريطانيين والاسبانيول الا انه من جراء نتائج تلك المصادمات اليومية الدموية وبعد معارك هائلة وجصاصات طويلة رسمت أركان سلطة الملك يوسف في جميع انحاء المملكة الاسبانيولية . ومن اوائل سنة ١٨٠٩ وبعد عودة نابوليون الى فرنسا محمد بالافوكس الذي غشي سرغوسة على أثر انكسار تودولا الى الدفاع عن عاصمة

الاراغون بجرأة الكنتبرين القدماء . ولبت الفرنسيون شهورا كثيرة أمام اسوار سرغوسة ولما تمكن الجنود ببساتهم والقواد بمعارفهم وبما أصابوه من فن الحرب ورجال المدفعية والمهندسون بما استخدموه من الذرائع التي رأوها ملائمة من هدم الاعمال المشيدة في ظاهر الموقع واسوار المدينة قضت عليهم الاحوال بمواصلة القتال الهائل في الشوارع ومحاصرة بيوت المدينة بيتا بيتا وفي آخر الامر ذل العناد الاسبانيولي للبسالة الفرنسية

واستسلمت المدينة للهارشال لان في ٢١ فبراير سنة ١٨٠٩ وحلف ماريانو دومنغر رئيس المجلس البلدي يمين الامانة للملك يوسف فقال للهارشال .

« لقد نهضنا باعباء واجباتنا في محاربتكم مستنفدين مجهودنا في هذا الامر وانا سنحافظ من الآن على عهدنا الجديدة بالثبات نفسه الذي أظهرناه فيما مضى . »

ويصعب علينا أن نستوفي وصف حالة الفظاعة والدمار التي صارت اليها عاصمة الاراغون : فقد انتشر وباء هائل زاد ويلات الحرب شقاء وقيل ان المستشفيات غصت بالمرضى والجرحى ولم تكن الجبانات تسع الجثث فصاروا يضعونها في اكياس ويلقون مئات منها عند ابواب الكنائس .

وسقطت مدينتا جاكوموزون في أيدي الفرنسيين بعد سرغوسة ومع ذلك لم تكن جميع هذه النكبات لتوهي عزائم الاسبانيول الثائرين . وعبر قسم من الجيش الفرنسي في الاراغون الى قسطيلة ليتخذ له مركزا فيها بعد مترك للفيلق الثالث أمر المحافظة على الفتح الذي كلمهم ثمانية آلاف قتيل . ولما انتهى الى الجنرال بلاك النازل في كيلونيه ان قاهري بالافوكس انقسموا وان الفيلق الخامس ابتعد عن الايبر متوجها الى ناحية نهر التاج برح طرلوز باربعين الف مقاتل وتوغل في الاراغون عازما على استرجاع سرغوسة

واصاب الجنرال بلاك في بدء الامر فوزا يسيرا في الكنتز الا أن الفيلق الثالث كان يتولى قيادته الجنرال سوشه المشهور ببسالته وشدة صريمته وهذا الرجل ارتقى الى منصبه بما اتاه من الاعمال العظيمة في حروب ايطاليا والمانيا وهو الذي قال عنه نابوليون ذات مرة : « لو كان عندي مارشالان نظيره في اسبانيا لسكنت جميع هذه البلاد قد فتحت ولكننا قد بقينا حتى الآن مستولين

عليها . « فقد كان سوشه ذا نهية ثابتة ورأي صائب وإدارة حسنة وشجاعة نادرة وقد نال نصراً مبيناً بصفاته العالية هذه فاستدعي سوشه للقيام مقام جونو في الاراغون فما مكث أن رحض وصمة العار الالاصقة بالجيش الفرنسي واستمال النصر الى الاعلام الفرنسية . وكانت معارك ماريا وبلشيت هادمة لآمال بلاك فاضطرته الى العودة الى كتلونيه . ولقي الجنرال سوشه مناصرة في أركان حربه الجنرال هارسب وقائد المدفعية فآله وقد أهله أعماله الحربية فيما بعد الى الارتقاء الى درجة المارشالية .

ولما تمزق شمل الجيش الاسبانيولي على مامر بنا بيانه عاد قائد الفيلق الثالث الى سرغوسة وعني بتضميد الكاوم وتسكين هائج الشعب فلم يذهب سعيه عبثاً . لم يمض غير قليل من الحين حتى استعادت سرغوسة في اثناء الدمار الملم بها اعيادها واحتفالاتها الدينية فاقامت الحفلة الكبرى منها في كنيسة بيلار تحت حماية القائد الفرنسي وقد رأى هذا من باب اللياقة والمجاملة أن يشاطرهم الاحتفال قارنا الابهة الجندي بفضامة الدين

فيمثل هذه الاعمال وبالحكمة والمعاملة الحسنة وبالحفاظة الشديدة على النظام الجندي أصبحت المدينة الفاتكة سواها في مناوأة السيادة الفرنسية بين جميع المدن الاسبانيولية خاضعة على غير شعور منها لنير تلك السيادة بعد اصرارها الشديد على خلعها

وكانت السكينة قد أوشكت أن تنتشر في جميع انحاء الاراغون واذا بزعم جديد لعصابات العصاة الثائرين يقال له مينا قد ظهر فيها فهذا الشاب أثار في ذلك الاقليم ساكن الفتنة الا ان الجنرال سوشه لم يعمل النار أن يندلع لسانها فتلتهم كل ما تعثر عليه . فشد وراء مينا ومزق شمل عصاباتة وأسره

ولم يصب الجيش الفرنسي في كتلونيه مثل ما أصابه من النصر في الاراغون فان قواده لم يكونوا يفترون عن مقاتلة جيوش كثيرة العدد من العصابات الكثيرة العدد المؤلفة من الشعب الكتلاني أو الجيوش المنظمة المتولي قيادتها كارو وبلاك وأودونل . على أن نيل الجيوش الفرنسية مثل ما نالته من التفوق في الاراغون كان يقتضي تمزيق قوة سوشه وانحداره من جبال سرغوسة الى سهول طرغونة وبلنسية .

وقبل أن يقوم قائد الفيلق الثالث بهذه الحركة غني بضمان طاعة الولاية التي أزمع مغادرتها باستيلائه على الحصون المعتبرة حداً بين الاراغون وكتلونيه من الشمال الى الجنوب وكان هذا العمل يقتضي أشهراً ودوخ بالاغوير في ٤ ابريل سنة ١٨١٠ وسقطت في حيازته لريدا ومكنزا ومورلا في ١٣ يونيو من السنة عينها فانفتح في وجهه طريقان احدهما يؤدي الى بلنسية والاخر الى طرطوز فسار على طريق طرطوز

وكان الجنرال كارو الاسبانيولي قد وطن النفس في بدء الامر على تعرضه لمحاصرة هذا الموقع ولكنه غير عزمه عند اقتراب سوشه واسرع في التراجع فانظر سوشه قبل مهاجمة طرطوز وصول النجيدات المنتظر ارسالها اليه من الفيلق السابع . فوصلت اليه النجيدات في خلال شهر ديسمبر سنة ١٨١٠ وصارت الراية الفرنسية تخفق فوق الموقع المذكور في أول يناير سنة ١٨١١

ولما أخضع سوشه طرطوز لم يشأ أن يتوغل في كتلونيه قبل تطهيره الاراغون من العصابات التي عاجلت دخولها بقيادة فيلاكها والاميسينادو ومينا الكبير وشغل سوشه شهوراً باخراج الزعماء الثلاثة من بلاد الاراغون : فراجع فيلاكها والاميسينادو الى ولاية كوانسا واعتصم مينا بجبال نافار فعاد سوشه الى كتلونيه أمام اسوار طرغونة

وكانت هذه المدينة مركزاً للفتنة في شمال شبه الجزيرة فالتجأت اليها حامية مؤلفة من ثمانية آلاف مقاتل كانت تعلل النفس بالحصول على مدد من جهة البحر فحاصر الجنرال سوشه المدينة بأربعين ألف محارب وفتحها عنوة بعد شهرين في ٢١ يونيو سنة ١٨١١

وأفعم الفتح الجديد الخطير قلب الامبراطور بهجة لانه كان يعلق أهمية كبرى على انتصارات جيوشه في أسبانيا فقد كانت أندر من انتصارات جيوشه الاخرى في سائر البلدان الاوربية فما كان قائماً في وجدانه من تقدير الجنرال سوشه حق قدره جعله يبادر الى ترفيته الى درجة المارشالية .

وتلا احتلال مون سرا فتح طرغونة فان الجيوش الفرنسية المظفرة استعادت ما كان لها من التفوق على أعدائها في حروب المانيا وإيطاليا . وخاف الاسبانيول أن يصيب بلنسية ما أصاب المواقع المحصنة في كتلونيه فبادر الى

إلقاء مقاليد قيادة عشرة آلاف جندي الى الجنرال بلاك ليتصدى لسوشه الطافر . فخصنت قلعتنا أوربزا وصاغت لكنهما لم تستطعا الوقوف في وجه الفرنسيين الجريئين ففتحت قلعة أوربزا بسهولة وأما قلعة صاغت فلما وان يك الجنرال بلاك قد أنجدها بخمسة وعشرين ألف جندي أكرهت على التسليم في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨١١ بعد هجمات صادقة ومعركة هائلة فقد فيها الجنرال الاسبانيولي خمسة آلاف رجل بعد ما تقطع نظام رجاله

ولم يبق شيء من الاشياء يحول دون مهاجمة الفرنسيين لبلنسية فعالج الاميسينادو ومينا الانضمام الى بلاك في جبال الاراغون ليحفظوا ذلك الموقع من السقوط أو ليوثروا سقوطه ؟ وكان هذان الرجلان في مقدمة أبطال الاستقلال الوطني . فلما درى المارشال سوشه ما كانوا مصممين على عمله سعى لتوقي خطر قد ينشأ من تلك الجهة فطلب مددا ولما جاءه المدد المطلوب عبر نهر الوادي الكبير وهزم قسما من الجيش الاسبانيولي الى مملكة مرسية وحصر القسم الآخر في بلنسية . وكانت هذه المدينة تسمعهم بدون خوف يلفظون اسم ملقي السلام في سرغوسة ولكن راعها توقع وقوع مصائب فيها ومحاصرة الاعداء اياها وفتحتها عنوة فطلب سكان المدينة الاستسلام حالما نجم بعض الدمار عن قنابل المدافع فأسرت الحامية وعددها ثمانية عشر الف رجل ومعها قائدها الجنرال بلاك .

وفتحت مدينة بلنسية أبوابها في وجه الجيش الفرنسي في ١٠ يناير سنة ١٨١٢ وأصدر الامبراطور مرسوما ساميا في ٢٤ منه أنشأ بموجبه في مملكة بلنسية رأس مال قدره مئتا مليون فرنك أرصده للتوزيع على قواد جيش الاراغون وضباطه وجنوده وانعم بموجب هذا المرسوم على المارشال سوشه بلقب دوق البوفيرا وترك له الربيع المخصص لهذه الدوقية فقد كان الامبراطور يكافئ دائما من يأتون أعمالا خطيرة .

وفي خلال السنوات الثلاث التي انقضت بين فتح سرغوسة وفتح بلنسية وتخللها حوادث يومية كان من نتيجتها توطيد أركان السيادة الفرنسية في الولايات

التي في الشمال الشرقي من تلك البلاد أصاب الفرنسيون انتصارات متوالية على أيدي القواد المفوض اليهم الامبراطور قيادة كتائبه في الولايات الجنوبية الاسبانيولية والبرتوغالية . على أن الحظ لم يخدم الملك يوسف في الغرب والجنوب كما خدم جنود الامبراطور في الانحاء التي مر ذكرها .

وبعد فتح الكورونيا في شهر يناير سنة ١٨٠٩ غزا المارشال سولت مملكة البرتوغال وواصل المارشال ناي فتح غاليسية واستوريا واعاد الامن اليهما وكسر المارشال فيكتور في مدلين جيش الاستريمادور المتولي قيادته الجنرال كوستا . وأصاب المارشال سولت نصرا مبينا في البرتوغال في وقت قصير ولكن لم يستمر هذا النصر مدة طويلة ، وظفر بالرومانا في ٦ مارس على ضفاف نهر الطامينا واستولى على شافيس فبراغا فغبارانس فأوبرتو . وهذه المدينة الاخيرة التي لها المقام الثاني في البرتوغال دافعت على غير جدوى دفاعا شديدا ولكنها سلمت بعد ما هجموا عليها في ٢٩ مارس سنة ١٨٠٩ وهو غد اليوم الذي جرت فيه معركة مدلين وبعد معركة سيودال ريال بيومين . وانتصر الجنرال سباستيان في على الدوق دنفنتادو في هذه المعركة الاخيرة وبدد رجاله أيدي سبا .

على ان الانتصارات التي أصابها الفرنسيون في وقت واحد على التقريب ظلت عقيمة وبدلا من أن يكون من ورائها الارهاب للسكان كان من نتيجتها تنفيرهم من الغزاة . فهبت في الاستريمادور عاصفة فتنة عامة ورفض المجلس البلدي في باداجوز رفضا عنيفادعوة الظافر في مدلين سكان المدينة الى الخضوع له . وزحف ولنن في اثناء ذلك الحين بثلاثين الف مقاتل من ليشبونة الى اورتو لينزعها من يد المارشال سولت وكانت فتنة الاستريمادور قد حالت دون انضمام المارشال فيكتور اليه وكان الجنرال سلفيرا البرتوغالي المنتظر المدد من برسنفرد يهدده من جهة نهر الطامينا . وأوشك الجيش الفرنسي في ذلك الموقف المحفوف بالمخاطر أن يصاب بمثل ما أصيب به في بايلن وسنترنا ولكنه كان يتولى قيادته في ذلك الحين قائد من أشهر قواد ال . بر وقد قال مؤلف كتاب « حروب الثورة » : « ان سولت خلصه بما أوتيته من الدهاء والاقدام . فلم يحجم عن إتلاف كل ما كان عنده من الذخائر والمؤن وعدد الحرب واسرع في التوجه الى غبارانس ثم انه ترك براغا الى يساره وكان ولنن عازما على سبقه اليها وتوغل في الجبال

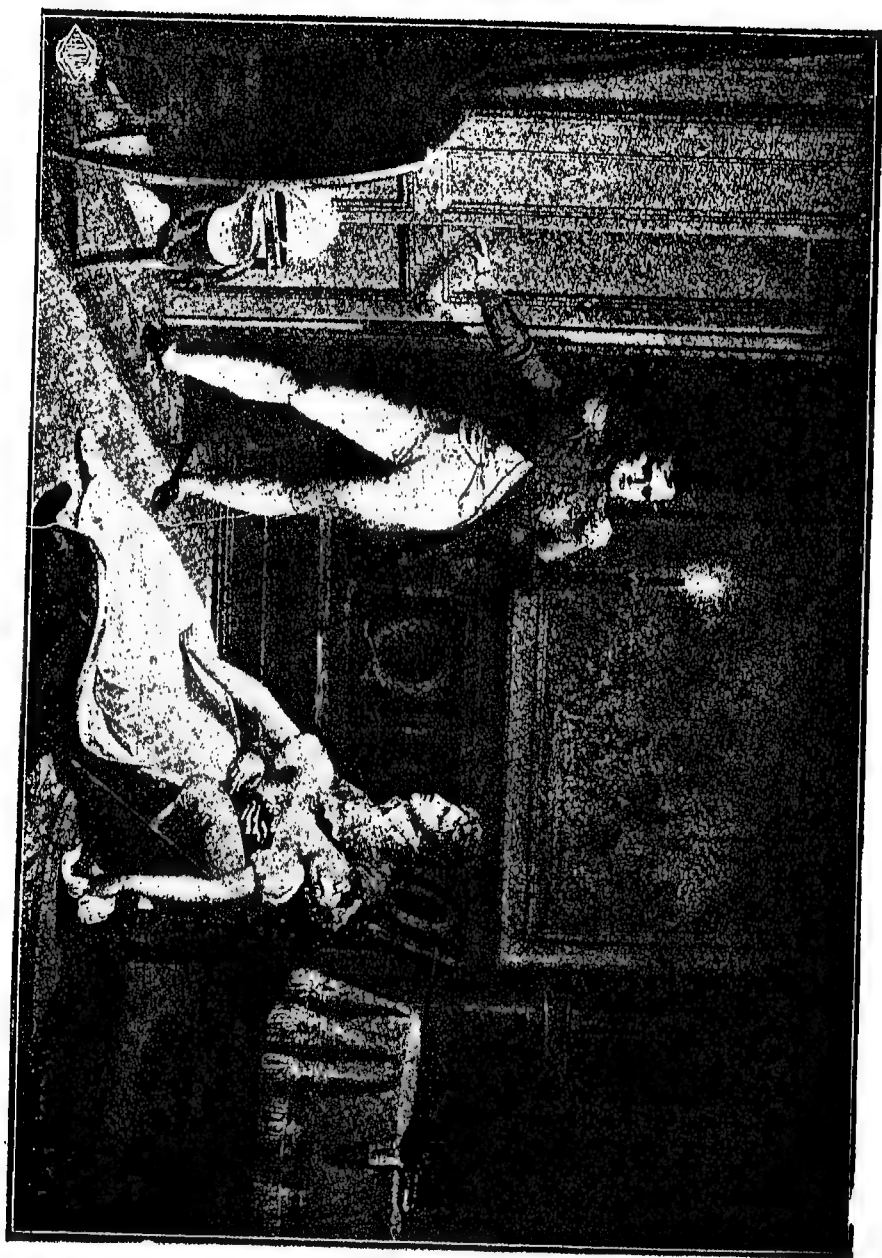
المنحدر منها نهر الكافادو . وبعد يومين بلغ رويغانس المتشعب منها طريق يؤدي الى شافيس النازل فيها سلفيرا والمتصل بها مضيق عميق ينتهي عند متنايفر بعد امتداده عند عقيق النهر . وسار الجيش برمته في طرقات ضيقة لم يكن يسهل على رجلين معا المسير عليها جنبا الى جنب . وكان نهر الكافادو يجري عند سفح المضيق وقد طغى على أثر سقوط الامطار الغزيرة المتجمعة فيه . وكان عند اعلى المضيق صخور كبيرة استدرى بها العدو وقذف الفرنسيون بنيران بنادقه . وكانت جداول المياه الكثيرة تثبطهم عن التقدم في طريقهم الوعر بيد أن سولت تغلب على جميع المصاعب وتمكن من كتمان سيره عن قائدي أعدائه ووصل الى الحدود ومنها انتهى الى أورنز . ولم يفقد سوى النزر من رجاله عند دخوله مضيق الكافادو حافظ الفرسان على جيادهم والمشاة على سلاحهم . وبعد هذا التراجع المخالف لتراجع مور نغراً للمارشال سولت فانه لما التقى ذاته نظيره محصورا بين جيشين يفوقان جيشه في العدد تمكن من تجنب التمرس بهما وممر سالما بين شعب ثائر . وقد استطاع أن يجعل جنوده واثقين بأنفسهم بحيث انهم احتملوا بصبر عجيب شظف المعيشة والمواصف ومشاق السير على طريق تخطر سليمهم فيه أمطار النيران من دون ان يتيسر لهم مقابلة قاذفها بالمثل .

ونجا المارشال سولت باعجوبة من ولتن ولنس وبرسford وسلفيرا المعلمين نفوسهم بحصره في مضائق البرتوغال وظهر بقتة في اسبانيا فأغار على الرومانا واضطره الى رفع الحصار عن لوغو . وانضم ناي الى سولت بعد ما أصاب في أستوريا ما أصابه سوشه في الاراغون واتفق معه على ضرب فيلق الرومانا ضربة قاضية وإخضاع ثأري فاليسه بيد ان ما كان يدبره العدو من الحركات الحربية في وسط شبه الجزيرة الايبيرية اضطرت ذيك المارشالين الى تغيير خططهما وما كانا قد عقدوا عليه عروة العزم .

ولما أخفقت مساعي ولتن في بمثته ضد سولت انثنى راجعا الى الاستريمادور وهو يؤمل أن يمزق فيلق المارشال فكتورنغزيقا . ولما برح معسكره في ابرنتس بأربعة وعشرين الف مقاتل كانت ميمنته مستندة الى جيش كواستا الاسبانيولي المؤلف من ستة وثلاثين الف محارب وميسرته الى جنود روبرت ولسن البالغ عددهم أربعة آلاف فضلا عن ذلك كان يمكنه التعويل على مناصرة فيلق قوامه

اثنان وعشرون الفا بقيادة فنغاس كان موشكا أن يغشى سهول المانش . وكان الدوق دل بارك في أثناء ذلك الحين يقوم بحركات حربية في الشمال بالاتفاق مع بقايا جيش الرومانا . وكان برسفرد يقاتل عند حدد الاستريما دور بفيلق مؤلف من خمسة عشر الف برتوغالي من الاحتياطيين . وكانت جميع الجيوش البريطانية والاسبانية والبرتوغالية تنهياً للهجوم على المارشال فكتور وغزو العاصمة وتخليصها من الملك يوسف .

وأدرك هذا الاخير ما كان يهدده من الخطر فأمر بحشد الفيالق الفرنسية على نهر التاج عند تالافيرا رينا . وقبل أن يعطي سولت ومزتيه مهلة للانضمام أثر رأي فيكتور على رأي جوردان ولم ينتظر وصول سياسيتاني القادم من طليطلة بل باشر القتال . وكان عمله هذا واقيا لجيش أعدائه من كسرة عظيمة فان البريطانيين والاسبانيين دافعوا عن موقعهم دافع الابطال وحافظوا عليه ، وبلغت خسارتهم نحو ثمانية آلاف رجل بين قتيل وجريح ولم تقل خسارة الفرنسيين عن هذا العدد . وعد البريطانيون والاسبانيون يوم تالافيرا يوم انتصار لهم فاحتفلوا بالاعياد الباهرة في اسبانيا وبريطانيا المعظمي وجميع البلدان الاوربية المضمرة الحسد والقليل لفرنسا . الا ان سولت ما عثم أن جاء واقلق راحة أعدائه فاحتل بلاسنسيا وكان ولتن المسندة اليه القيادة انباسة للجيوش البريطانية والاسبانية والبرتوغالية على أثر معركة تالافيرا يعتقد أن سولت لا يزال في ضراحي بنافتي . وانضم سولت الى مرتيه ثم الى فكتور في أرويزا وأغار على جيش الاعداء في ٨ أغسطس سنة ١٨٠٩ عند جسر الارزوبسو ولم يظل النصر في هذه المرة متردداً بين الفريقين وكان المارشال سولت في أثناء اشتداد وطيس الهيجاء قد ارتاب هنية من الزمان في نتيجة القتال فارتفع قسطل الحرب ومنعه عن تمييز الفيالق المتحاربة وحيث لم يكن يبصر كتائب الفرسان التي وجهها لمقاتلة مشاة البريطانيين والاسبانيين وظن انها هلكت بهجوم الدوق دلبوكرك المنتظم تحت لوائه رجال يفوقون أولئك الفرسان في العدد خطر له أن يطلق المدافع على ذلك القسطل لاعتقاده ان فرسان الاعداء المظفرة محجوبة وراءه ولكن ما عثم أن زال غروره فان الاسبانيين كانوا قد انكسروا وكانت النار قد اضطربت في حقول الحنطة وبلغت



مشهد الطلاق

«لأخراج فانهم من وجهها جيش ولتنن ونهرب لا يلوي على شيء
وكان من نتيجة موقعة الارزوبسبو انهزام كواستا الى جبال المانش
والاستريمادور واضطر الجنرال البريطاني الى الاسراع في التراجع الى باداجوز.
وعاد المارشال ناي الى غاليصة فقهز عند مضيق بانوس فصيلة ولسن بعد ثلاثة
أيام مضت على موقعة الالموناسيد التي نشبت في غد اليوم الذي احتدمت فيه
نيران موقعة الارزوبسبو واتفق فيها الجنرال سباستيان فيليق فنفاس بعد ما
لجأ الذين نجوا منه الى مضايق سيارا مورينا .

الا ان عناد الاسبانيولين جعلهم يواظبون على محاربة الفرنسيين مع ما أصابهم
من القتل وظهر رجل يقال له بالستروس التف حوله رجال كثيرون في استوريا
لجاء بهم الى دوق دل بارك وكان هذا قد استولى على سالامنك بعدئذ انتصاراً
يسيراً على فصيلة من فيلق المارشال ناي وكان الامبراطور قد دعا اليه هذا
المارشال الى المانيا وأقام الجنرال مرشان خلفاً له في قيادة جيش غاليصة
وسكر الاسبانيولين بسلافة الفوز اليسير الذي أصابوه وكانوا يملئون شعهم
بعد كل موقعة ينكسرون فيها فأرادوا الاغارة على اقليم المانش ومعالجة فتح
مدريد . فزحف اريزاغا بستين الف مقاتل من دسبنا بروس الى العاصمة سائراً
الى ناحية طليطلة وارانجوز وكان دوق دل بارك يزحف الى طريق برغوس في
أثناء ذلك الحين .

وكان المارشال سولت متولياً للقيادة العامة للجيش الفرنسي خلفاً للمارشال
جوردان فدعا اليه فكتور ومرتيه وسباستيان وسار بهم توجاً للقاء العدو
فهمزهم حتى بلغ اوقانا وانكسر الجيش الاسبانيولي انكساراً هائلاً في ١٨
نوفمبر ١٨٠٩ وقيل ان اريزاغا ترك قيادة جيشه في خلال هذه المعركة المشهورة واختبأ
في قبة احدى الكنائس ليشهد كمتفرج بسيط تقطع نظام جنوده وتزلزل
اقدام رجاله ففقد مدفعيته وعدده وأعلامه وترك ثلاثين الف أسير في حيازة
أعدائه المنتصرين .

وكان من نتيجة انكسار اريزاغا تراجع دوق البورك النازل في
الاستريمادور لعصد ميسرته وهربه الى تروكسيو. وأثر فشل الاسبانيولين في
أوقانا بدوق دل بارك فتراجع الى سيوداد رودريغو ولم يتمكن من الوصول

اليها الا بعد انكساره عند جسر البا وفقدانه ثلاثة آلاف رجل ومدافعه وعدده .

وكان قد آن الاوان لضرب الثورة الاسبانيولية والتدخل البريطاني ضربة قاضية فكان ذلك الامر ميسوراً للامبراطور لان انتصاراته في المانيا وعقد الصلح مع دول الشمال كانت تمكنه من سوق جيوشه المظفرة الى شبه جزيرة ايبريا .

وعليه بلغ عدد الجنود الفرنسية في اسبانيا في الاشهر الاولى من سنة ١٨١٠ ثلاث مئة الف مقاتل وكانت القيادة الاسمية لهذه الجيوش ملقاة الى الملك يوسف والقيادة الفعلية الى المارشال سولت .

وكانت غاية الحركات الحربية الاولى مهاجمة سيادامورينا المبتوثة الالغام في مضائقها فأخذوها عنوة في يوم واحد (٢٠ يناير سنة ١٨١٠) مع ما أبداه الاسبانيوليون من المقاومة العنيفة ومن ذلك الحين أصبحت الجهات الجنوبية من شبه الجزيرة مفتوحة جميعها في وجه الجيش الفرنسي فسقطت الواحدة بعد الاخرى : غرناطة فاشيلية فلقة فرسية فاليفنزا فباداجوز في أيدي الفرنسيين الا أن قادس ظلت مقاومة وكانت هذه المدينة مركزاً لتلك الجمعية المشهورة التي وضعت دستوراً ديمقراطياً واثارت حرباً اهلية تحت قصف مدافع فرنسا الثورية باسم ملك لم يكن مبدأه سوى مبدأ الارسطقراطية والملكية . وحوصر برا هذا الموقع الاخير الممتصم به الاستقلال الاسبانيولي ولكن بقي باب البحر مفتوحاً له جلب المؤن والذخائر الحربية والرجال والتدابير .

وبينا سولت يجوب الأندلس ظافراً ويتعقب بقايا الجيش الأسبانيولي ويحاصر المدن ويفتحها جاء ماسينا الى اسبانيا وهو يرغل بذلال النصر الذي أصابه في اسلنغ فغزا البرتوغال زاحفاً الى ليشبونة . وكان متسكلاً على مناصرة جيش الأندلس له ولكن تخلف ذلك الجيش عن مناصرته لاضطرار سولت الى البقاء مكانه لمقاتلة الجيش البريطاني الاسبانيولي في الجزيرة وحبل طارق وقد كان هذا الجيش يهدد دائماً الاندلس والاقليم الممتدة على شاطئ البحر الشرقي . ولما وجد ماسينا انه لا يستطيع مقاومة ولنن لتأخر النجيدات عن الوصول اليه اضطر الى العودة الى اسبانيا . وكان تراجعها اليها مقروناً بالانكسار فان

ولنن طارد الجيش الفرنسي حتى انتهى الى أرض أسبانيا ففتح أوليفنزا وحاصر باداجوز . فأنعش حضوره موات الآمال في قلوب الاسبانيولين ورم ما كان متداعياً من صروح شجاعة مريدي الثورة وأنصارها . تخف سولت الى محاربة برسفرد في البويرة ووصل الى سفح الجبال وأقام ينتظر المدد ليتسنى له تخليص باداجوز الا أن حركات بلاك وبالسروس أجبرته على الرجوع الى اشبيلية ووجه منها حملة لاختضاع ثائري سيارا دي رندا وبعثة عقيمة الى طريف ولما خلا ولنن الجو عند ابتعاد سولت عنه شدد في محاصرة باداجوز فاستولى عليها في ٦ ابريل سنة ١٨١٢ . وأسرع سولت مرة ثانية الى نجدة المدينة فلم يصل اليها الا في غد اليوم الذي تم فيه استسلامها ولم يشأ الظافر أن يتعرض لفقدان غنيمته الجديدة فأبى محاربة القائد الفرنسي .

وقفل سولت راجعاً الى اشبيلية وعمل على إعادة الامن والسكينة الى بلاد الاندلس ومعاينة أنصار الرندا وسان روك ولكن البريطانيين والاسبانيولين استأنفوا حركاتهم الحربية فالتصروا انتصارات متوالية وزحفوا من الاستريمادور الى المانش وكسروا جيش الوسط واحتلوا مدريد وأجأوا الملك يوسف الى التراجع الى بلنسية ليحتمي بظل جيش سوشه . وأصبح من ذلك الحين احتلال الاندلس متعذراً فرفع الحصار عن قادس وتراجع المارشال سولت بطريق غرناطة ومرسية وانضم الى سوشه عند المكان ثم انضم الى جيش الوسط ليحلف الى مدريد ويسترجعها

الفصل العشرون

انقطاع العلاقات مع روسيا

وكان الاسكندر قد غير من عهد بعيد اعتقاده بأن صداقة الرجل العظيم نعمة منه تعالى . ولم يبق في نفسه من المودة العلنية التي نم بأسرارها في تلمست وذكري افررت المبنية على الولاء سوى الاستياء والضغينة الناشئين عن مودة خامدة وأمل خائب .

فانه لما رأى دول القارة الاوربية قدرات على مناهضة الثورة الفرنسية المجسمة بشخص نابوليون بونابرت أعار الحكومة البريطانية اذناً سمعية وتهافت على الدخول في المحادثات المؤلفة لمواقعة فرنسا في سنتي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ فكان يسير تارة وراء النمسا وتارة وراء بروسيا . الا أن معركتي استرلنز وفردلاند جعلتاها ينبذ ما كان قد عقد عليه عروة العزم لمناوأة الفتنة الفرنسية الكبرى . ولما علم الاسكندر أن الاشياء المستاءة منها أوروبا القديمة كان وجودها ضرورياً طبقاً لمشيشة العناية أعرض مؤقتاً عن الماضي وانفصل في مفاوضة النيمن عن المحالفة البريطانية وسار على منهاج سياسة الرجل الجديد المعلن الحصار البحري على الديار البريطانية . ولو لم يكن مفضياً على نجم فرنسا بالأفول ولو كان حظ نابوليون بونابرت قد بقي ثابتاً وسامياً لوجب الاتحاد معه لاجل اقتسام السيادة الاوربية فذلك أفضل من الاصرار على مواقعه والتعرض للاندحار أمام كتائبه التي لا تجارى بمضمار . وجعلت هذه الافكار الاسكندر سلس المقادة في تلمست ومغالياً في صداقته في افررت من دون أن ينبذ بتأناً اغتنام الفرص للاستفادة من انقلاب سياسي وإمكان الرجوع الى الاعتصام بحبل الطريقة الاوربية القديمة .

على أن نابوليون مع اعتقاده صدق العواطف التي كان يظهرها الاسكندر له والتي كان هو ذاته يشعر بها ثابر على إتمام مقاصده والانتفاع من الحوادث

رغبة في تعزيز السيادة الفرنسية من دون أن يعبا بما كان عاهل الروس يشعر به من الاستياء من جراء اتساع دائرة تفوق الدولة الفرنسية . وكان من نتيجة اعتماد النمسا في سنة ١٨٠٩ الناجم عنه تعريض العاهل فرنسوى لانكسارات جديدة تجزئة سلطنته وتقريب حدود السلطنة الفرنسية من حدود السلطنة الروسية وهذا الجوار لم يجزىء عنه إعطاء قيصر الروس جزءاً من غاليسيا على ما تقرر في مادة من مواد وثيقة فيينا . وأما ما كان يعاكس مقاصد القيصر وبحرج عواطفه فوق كل شيء فهو إنشاء غرندوقية فرسوفيا بعد ما عجز عن عرفلة إنشائها في تلس و قد كان يرى في إنشائها تمهيداً لاعادة مملكة بولونيا وبعثها من رمسها . وكان يوالي المفاوضات مع الحكومة الفرنسية رغبة منه في الحصول من نابوليون على وعد صريح بأنه لا يسعى أبداً الى إرجاع القومية البولونية . وقد كان حين اعتقد فيه ان هذه الأمانى تمت : ففي ٥ يناير سنة ١٨١٠ وقع كولنكور دوق فيسنس وسفير فرنسا في بطرسبرج على وثيقة تتضمن ما يأتي :

- ١ — تعذر إعادة مملكة بولونيا
- ٢ — نسخ اسم بولونيا والبولونيين من المعاملات الرسمية
- ٣ — عدم توسيع نطاق دوقية فرسوفيا باضافة أراض إليها من مملكة بولونيا القديمة
- ٤ — إعلان هذه الوثيقة بصورة عامة .

ولم يكن كولنكور من خريجي المدرسة السياسية التي قال أستاذها : « لم نخرج الانسان الكلام الا ليستعين به على كتمان فكره . » فان مقدرته على العمل ومهارته في المفاوضات كانتا مقرونتين فيه الى أخلاق عالية كريمة وكانت مهمته الثاقبة خاضعة لجودة قلبه . فتذكر انه لما دار البحث على اقتران العاهل نابوليون بالغرندوقة حنة فوض اليه أن يعد باذاعة تماثل الاذاعة التي كان يطلبها الاسكندر الآن وقد رضي بأن يوقع على صورة الاتفاق المقدمة اليه من دون أن يفكر بالتغيير الناجم عن انقطاع أسباب الاتفاق العائلي ومجرى الحوادث في مناصد عاهل الفرنسيين وآرائه . ولا بد من القول أيضاً ان دوق فيسنس المتخدد بنيله الخطوة لدى القيصر وبما أوتيته من كرم الاخلاق وحسن التصرف

بعض الانخداع في نوبته في علاقته الودية بالاسكندر وأبي نابوليون الموافقة على ما وافق عليه سفيره فانه لاستيائه من الاسكندر لتهاونه في أمر الحصار البحري ولفقدان أسباب التضحية بمبدأ من أقدم وأعز المبادئ المعتمد هو بها من جهة السياسة الأوروبية ظل متمسكا كل التمسك بالرأي الذي كان قد أبداه من مدة طويلة والذي لم يكن يني عن الاستمسك به وهو : « ان جميع دول الغرب يرغب في إعادة مملكة بولونيا وانه ما دامت هذه المملكة غير موجودة تظل أوروبا بغير حدود من جهة آسيا . » وألح القيصير بوضع طلبه هذا موضع الاجراء وأنفذ سفيراً لهذا الغرض فأصر العاهل نابوليون على نبد طلبه فحينئذ ذهب البرانس كورا كين بناء على ما تلقاه من الاوامر من بطرسبرج وقال لامبراطور الفرنسيين : ان رفضه يعد مساعدة لبولونيا على بلاده فاستاء نابوليون من هذا الكلام أكثر مماخاف منه وقال له بلهجة عنيفة : « ماذا تقصد روسيا بمثل هذه اللهجة ؟ فهل تريد الحرب ؟ ... ولو كنت أريد إعادة مملكة بولونيا لكنت قد فعلت ذلك ولما كنت قد سحبت جنودي من المانيا ... لكنني لا أريد أن اركب مركب العار باذاعي ان مملكة [بولونيا] لا تعاد أبداً فان تكلمي بلغة الآلهة يجعل الناس يمزأون بي ويوسم اسمي بسمة العار ان انا عززت سياسة الغدر هذه فأعلان منع إعادة مملكة بولونيا يكون أكثر من الاعتراف بتقسيمها . وانا لا أستطيع المعاهدة على محاربي أناساً أحسنوا خدمتي وأظهروا لي ارادة حسنة ثابتة واخلصاً عظيماً ... فلا أقول للفرنسيين : يجب ان تسفكوا دمكم لتخضعوا بولونيا لنيروسيا . فان انا وقمت على صدك يقضي بعدم إعادة مملكة بولونيا فأكون قد قصدت اعادتها وان عار مثل هذه الاذاعة يمحوه الفعل الذي يكذبه . »

ولم يكن الوقت قد دنا للاسكندر ليتخذ خطة عدائية ولما لم يبق للاسكندر ان ينتظر شيئاً من المحالفة الفرنسية لان نابوليون كان من الجهة الواحدة يأبى أن يجاهر بعدم إعادة مملكة بولونيا ومن الجهة الاخرى يتقرب من السياسة التساوية في المسألة الشرقية بحصره الامتيازات المعطاة في ارفرت لامتلاك ملدا فيا وفلاخيا واستثناء ضفة الدانوب اليمنى ومصا به لم يكن القيصير مع اغضاء الطرف حتى ذلك الحين عن التهريب في الحصار البحري يخاف من مخالفته جهاراً

الحصار بأعماله عينها وأصدر مرسوماً عالياً في ١٥ يناير سنة ١٨١١ يقضي بمنع جلب البضاعة الفرنسية كأدوات الزينة والخمور وجلب الغلال من الطواريء البريطانية بتخفيض الرسوم الموضوعة عليها . وإذا خالفوا القوانين حُرقت البضاعة الفرنسية وأما الغلال المذكورة فيكتفى بضبطها

ولما اطلع العاهل نابوليون على هذا الامر استشاط غضباً وقال للسفير الروسي : « ان الحقد وحده أملى المرسوم الصادر في ١٥ يناير أو هل يظن الناس انا لا نبالي بالشرف فالامة الفرنسية أمة حادة الطباع وهي تعتبر ذاتها محترمة حين تعلم ان حاصلاتها ستحرق في الشغور الروسية وان الحاصلات البريطانية يقتصر على ضبطها . ولا أكتف عنك يا حضرة السفير اني أفضل صفع خدي على رؤيتي مصنوعات رعييتي تحرق عندهم . وأي مضره أعظم من هذه تستطيع روسيا ان تسوقها الى فرنسا ؟ فانها لتعذر غزو أرضنا عليها عمدت الى مناهضة تجارتنا وصناعتنا . »

ولم يكتف العاهل نابوليون باظهار استيائه بهذه العبارات الشديدة اللهجة بل أصدر أمره الى دوق فيسنس بأن يطلب استرجاع المرسوم وإلغاءه الا أن الاسكندر لم يقدم على هذا العمل الجريء ليتقنع بالعار برجوعه عنه بمجانة عند أول احتجاج من فرنسا عليه ولم يتخذ هذا التدبير الخطير الا بعد ان درسه درساً مدقّقاً مدة طويلة وعلمت الحكومة الروسية قبل إعلانه ماسيكون له من التأثير والنتائج في الحكومة الفرنسية . ولم يكن في جوابها ما يدعو الى الريبة فان القوم في روسيا عادوا الى الاعتصام بمحمل السياسة البريطانية لما رفضت فرنسا بلسان العاهل نابوليون القضاء المبرم على بولونيا وتمكين الاطماع الروسية من اجتياز الدانوب والوصول الى القسطنطينية . وان إثارة نابوليون الأسيرة النمساوية في انتقاء زوجة له كان له علاقة بفصل الاسكندر عن محالفة نابوليون السياسية .

ولما لم يبق الاسكندر قادراً على مشاطرته السيادة على القارة الاوربية ووضع السياسة الروسية تحت ضمان فرنسا الهائل من جراء قضيتي تركيا وبولونيا لم يبق لديه من وجه لبقائه ناهجاً منهج بطل الديمقراطية وتضحيتها في سبيله بأمياله ومبادئه الحقيقية . ولما صار معتقداً كل الاعتقاد انه لم يكن يكسب

شيئاً من رجل الثورة جاد بالطبع الى المبادئ المعاكسة لها التي جرت فيها مضى سوفاروف حتى أوصلته الى حدود فرنسا وجرت الاسكندر ذاته الى استرلنر وفردلاندر . وقد سهلت على الاسكندر العودة الى محالفة البريطانيين فانها لم تكن متصورة على إرضاء الآراء السياسية عند الطبقة العليا من الشعب الروسي بل كانت مؤاتية لمصالح رعيته المادية وللتجارة والصناعة في جميع أنحاء السلطنة الروسية .

وقد ظل والحالة هذه المرسوم القيصري على ما كان عليه واستؤنف إعداد عدة الحرب وكان نابوليون في نوبته يتهيأ للقتال فعزيزت حامية دنزيك واجتازت الارض الالمانية فيالق كثيرة من القربسويين . فحينئذ طلب الاسكندر الايضاح عن هذه الحركة فأجابوه انهم انما لجأوا الى إعداد عدة الحرب اتقاء للعقاصد العدائية التي استشفوها من وراء استعداده للحرب فاقام النكير على ذلك بقوله ان مقاصده سلمية وكان يكرر دائماً شكواه بخصوص بولونيا واعادة دوقية ألدنبورغ اليه وكان نابوليون قد احتلها لزمه أنها أصبحت مثابة للتشريب في أوروبا بما كان يخالف قواعد الحصار البحري

ويمكن القول ان انقطاع العلاقات بدأ في الحقيقة في سنة ١٨١١ في ذهن العاهلين فلم يكن مستطاعاً اتفاقهما على أهم الاغراض في سياستيهما الخاصتين وكانت الحال تقضي باشتباكهما في الحرب عاجلاً أو آجلاً . بيد أن نابوليون الساعي دائماً لالقاء تبعة الحرب على خصومه والمظهر اضطراره الى النزول الى ميدان النزاع على رغم منه مع ان الحرب كانت تزيد في مجده لم يشأ محاربة صديق ربطته به عرى المصافاة في ارفرت وحاذر مقاطعته قبل ان يسعى لايجاد طريقة للتسوية بينهما تتعلق بها راحة أوروبا . فكتب اليه مرات متوالية في هذا الموضوع وهذه خلاصة ما تضمنته إحدى رسائله :

« ان هذا الامر تكرر لما شاهدته في بروسيا في سنة ١٨٠٦ وفي فيينا في سنة ١٨٠٩ . وسأظل صديقاً صدوقاً لشخص جلالته ولو قصت الأقدار المتسلطة على أوروبا بوضع السلاح يوماً ما في أيدي أمتينا . وأنا أقيس أعمالي على أعمال جلالته فلا أبدأ أبداً بالهجوم ولا تباهر جيوشي الزحف إلا حين تمزق جلالته وثيقة تلست . وأكون أول من يلقي السلاح ان كنتم جلالته



شارل الرابع وفريدنان السابع ملكا اسبانيا في بايون

.

تعودون الى ماضي ثقتكم بي . وهل ندمتم على ما أظهرتموه من الثقة بي ؟
 فظن الاسكندر لما قرأ في رسالة نابوليون لهجته المعتدلة انه يخشى انقطاع
 العلاقات بينهما وانه غير مستعد للقتال . وقد زاد اعتقاده رسوخاً ما كان يصل
 الى المسيو دي رومانزوف من التقارير من باريس مما يمثل هائل الفرنسيين
 مستعداً للتضحية بكل ما عز وهان في سبيل اجتناب حرب جديدة في القارة
 الاوربية فقال السياسي الروسي : « ان هذه الفرصة ملائمة فيلنبيخنا لانا نغتنمها
 ويكفي أن نبرز ونتكلم بلهجة جازمة فترد الينا دوقية ألدنبورغ ونصيب
 دنزيك وحينئذ تنال روسيا مكانة عالية في أوربا . »

فأثر هذا الاغراء وهذه المشورات العدائية بالقيصر لموافقتها لأمياله
 الشخصية ومن جراء ذلك الامر لقيت صداها في فؤاده . واعتقد بسهولة ان
 نابوليون لم يكن ميالاً الى الحرب وانه لم يكن يأمل نيل النصر من مباشرتها
 فوجه والحالة هذه فيالق جديدة الى الفستول وأردفها بمذكرة عهد الى سفيره
 في باريس في تقديمها الى هائل الفرنسيين وقد أضاف فيها الى مطالبه القديمة
 ترك دنزيك وإخلاء دوقية فرسوفيا .

وقال نابوليون : « ظننت ان الحرب أعلنت لاني لم أكن متعوداً من عهد
 طويل سماع مثل هذه الالهجة . ولم يكن من عاذني ان ادعهم يذهبوني الى مثل
 ذلك فقد كنت قادراً على الزحف الى روسيا في مقدمة جيوش جميع بلدان
 القارة الاوربية فالمشروع كان الشعب ميالاً اليه والمسألة أوربية وقد كان هذا
 الامر آخر جهد تستطيع فرنسا بذله لان حظها وحظ الطريقة الاوربية الجديدة
 معلقان بنهاية الحرب . »

أجل ان الارتجاع المقرون بالعناية الذي كانت تزاوله فرنسا الجديدة بقوة
 جنودها في مقاتلتها أوربا القديمة أوشك أن ينتهي الى غايته لكن فرنسا قبل
 انحصارها في ضمن حدودها وتركها زرع الحرية يشر بفضل السلم وهو الزرع الذي
 بذرنه الحرب في أوربا جمعاء أتمت عملها ونالت مجدها . ولم يكن يكفياً ان
 تعاقب في فيينا وبرلين الموقعين على وثيقة بلنتر وان تتمزج جنود الثورة بالفتح
 بشعوب بروسيا والنمسا المستعبدة فقد كان ينقص شيء ما وهو تعليم الشعوب
 بواسطة الامة العظيمة : فالخوف التي ساقها ذات يوم سوفاروف الى حدود

فرنسا قضي عليها بأن تساق الى قلب السلطنة الروسية الى مدينة القياصرة القديمة الى موسكو نفسها المدينة المقدسة وقد قيل ان التمدن الفرنسي الذي استنزله المحالفات التي أنشأها احلاف الماضي المتعظمون سيسير بانتصار لا يساً الهزة العسكرية وراء دهاء الفتح لزيارة الهمجية في وسط قمارها ويحمل القوم المنحنية رقابهم تحت نير العبودية يغبطون حظه ويعجبون بأشعة الذكاء والاثقة اللامعة فوق جبين أبناء فرنسا النبلاء . وسينم ما هو مقدر : فتأتي الثورة وتحل في الديار المأهولة بفلاحى الروس . وكما يخلف آثاراً أولئك الاشخاص السريون المنسوبة لحضورهم قوة مضمرة لا تظهرها الا الايام تبقي الثورة آثاراً في كل مكان تمر به وتكون في بدء الامر غير منظورة من دون أن يستطيع الهرد القارس أن يحجوها وتظهرها الحوادث عاجلاً أو آجلاً . فلتتم المقادير ... « فان نابوليون موشك أن يزحف الى روسيا في مقدمة أوروبا جمعاء . »

وقد عينت الأكلمة قصر الكرملين غاية فتوحه وقد دعاه الاسكندر اليها بمذكراته التي استنزله الى القتال وبمخالفته مخالفة صريحة للحصار البحري وبمزايمه ان له حقوقاً بدنتريك وبولونيا .



الفصل الحادي والعشرون

حرب روسيا سنة ١٨١٢

وقبل ما فادرا نابوليون بارس وأذاع رسمياً في فرنسا ان أقسام ارفرت لم تكن سوى الاعيب ملوك وان الاسكندر يضطره الى العودة الى الحرب في شمال أوروبا واستئناف القتال المنفتحة أبوابه من عشرين سنة بين المذهبين السياسيين القديم والجديد حمل المجالس العالية في سلطنته على اتخاذ تدابير شتى لاشعار رعاياه بالحملة العظيمة التي دبرها والحرب البعيدة الموشكة أن يحتدم سعيها .

وصدر قرار من مجلس الشيوخ في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨١١ يفوض به الى وزير الحرب تجهيد مئة وعشرين الف مقاتل يؤخذون من قرعة سنة ١٨١٢ . وصدر قرار آخر من المجلس المشار اليه في ١٣ مارس من تلك السنة لتنظيم الحرس الوطني وقسمته الى ثلاثة أقسام .

وتقرر بعد ايام قليلة في ١٧ منه أن يخصص ستون ألفاً من القرعة الاولى لتأليف جيش داخلي يوكل اليه الدفاع عن الوطن وتقرر ماعدا ذلك سحب القرعة العسكرية بحسب العادات المرعية .

ولما لم يكتف نابوليون باعداد كل شيء لاجل الحرب في قلب السلطنة وكان يبتغي الزحف الى روسيا بأوروبا جماء غبي بتأليف محالفات قوية في الخارج : فعقد لهذه الغاية وثيقة مع روسيا في ٢٤ فبراير سنة ١٨١٢ . ووثيقة أخرى مع النمسا في ١٤ مارس من السنة عينها . وأبدت حكومتا هاتين الدولتين عواطف ودية نحو العاهل المنصور الذي لم تسكد الأقدار قد جافته بعد وقلبت له ظهر المجن .

فن وسط فرنسا التي صيرها نابوليون قلعة منيعة وفي وسط المانيا التي جاءت ملوكها تعفر جباهها عند قدميه يم العاهل حدود السلطنة الروسية ليتولى قيادة أعظم جيش سيق الى ساحة القتال

وانطلق من باريس ومعه الامبراطورة ماري لويز في ٩ مايو سنة ١٨١٢ فاجتاز بسرعة متز ومايانس وفرنسكفور ووصل الى درسد في ١٧ منه . وكانت حاصمة الساكس مثابة لاصحاب التيجان فكان أصحاب السمو وأصحاب الجلالة عينوا ذلك المكان مجتمعا يتسابقون فيه للمبالغة في إكرام زعيم السلطنة الفرنسية الا كبر والتزلف اليه . وقد ذلت له على السواء كبرياء الأسر القديمة وعجب الاسر الحديثة . وكل من رأى تسابق العظماء القادمين من جميع الانحاء والمنحدرين من أعالي عروشهم ليشتركوا في تعفير وجوههم أمام أعتاب الامبراطور الكبير كان يرى لأول وهلة أنهم يعتقدون ان فيه قوة لا تنزعزع وان سلطته مقرونة بالخلود الممد لمقارنة اسمه .

واليك ما فاه به المسيو دي برادت من الكلام في هذا الصدد :
« يا أيها الذين أردتم أن تدركوا كنه السيادة العليا التي كانت للعاهل نابوليون بونابرت في أوروبا انتقلوا بأفكاركم الى درسد وتعالوا وتأملوا في هذا العاهل في عنقوان مجده .

« فقد كان نابوليون نازلا في رده القصر الكبرى ومعه شطر كبير من حاشيته وقد احتشد عنده الضيوف العظام الذين ضمهم قصر ملك الساكس .
« وكان نابوليون ينهض عادة من الرقاد في الساعة التاسعة فكان يحب عليكم حينئذ أن تنتظروا نزاحم جمهور أصحاب التيجان على إبداء التزلف اليه (وكان من جملةهم امبراطور النمسا وملك بروسيا ومعهما وزيراهما مترنيخ وهردينبرغ وهم مختلفون بأهل البلاط ومنتظرون إشراق شمس طلعتهم عليهم
« ولاجرم ان نابليون كان ملك الملوك وقد تحولت اليه جميع الانظار وكنت ترى ثمة إقبال الاجانب ورجال الحرب ورجال البلاط وذهاب السعاة وابابهم وتهافت القوم على أبواب القصر عند أقل حركة من حركات الامبراطور فيتسارعون الى النظر اليه بدهش وتعجب وكأنهم جميعهم ينتظرون الحوادث ... على أن مجموع هذه المشاهد يمثل صورة كبيرة وأثرا عظيما لا يمكن انشاء أفضل منهما للاطراء على عظمة نابليون . »

وفي حديث دار في درسد بين أصحاب التيجان المار ذكرهم أراد امبراطور النمسا أن يتملق صهره فقال له ان أسرة بونابرت كانت حكمة في

تريفيز وأراد أن يخبر ابنته ماري لويز ذلك الامر لاعتقاده أنه يسرها . وقال البارون فان : ان امبراطور النمسا لم يستطع كتمان عواطفه فعانق صهره وكرر له أنه يمكنه الاتكال على النمسا لاجل انتصار المبدأ العام . وحذا ملك بروسيا حذوه في تأكيده الامر عينه فكرر شفاها لنا بوليون تأكيده تعلقه بالمبدأ الذي يمسهم ولم يطل نابوليون مدة اقامته في درسد بل فضل عنها وأسرع في الوصول الى ضفاف النيمن ماراً ببراغ وهناك افترق عن ماري لويز . وقبل مباشرة القتال زار كنكسبرغ ودنزيك وكان قائد هذا الموقع الاخير الجنرال راب وهو قائد من القواد الذين كان نابوليون يقدر شجاعتهم وحرية أفكارهم حق قدرهما . وكان مورات وبرتيه يصحبان الامبراطور وعلامات الاكتئاب بادية على وجه ملك نابولي . فلفت نابوليون نظر راب الى هذا الامر قائلاً له : « ألا ترى في مورات شيئاً غريباً ؟ فاني أراه متغيراً هل هو مريض ؟ » فاجاب حاكم دنزيك : « ليس مورات مريضاً انه كئيب » فقال الامبراطور بحدة : « ولماذا هو كئيب ؟ أفلا يسره أن يكون ملكاً ؟ فقال راب : « يامولاي يقول مورات انه غير مسرور بكونه ملكاً » . فقال نابوليون : « انه هو المخطيء لماذا صار نابوليتانيا ولم يبق فرنسويًا ؟ . . . وحين يكون في مملكته لا يزال يأتي أموراً منكراً فهو يساعد الاتجار مع البريطانيين مع معرفته اني لا أشاء هذا الامر » .

وأمر الامبراطور راب وبرتيه ومورات في غد اليوم الذي جرت فيه تلك المحاورة بأن يتناولوا العشاء معه وخيل له عند رؤيته تحفظ ضيوفه أنهم يحاذرون أن يبدوا آراءهم في الحرب التي كان موشكا أن يباشرها : وقد كان هذا التحفظ بمثابة احتجاج مضمحل عليها . فقال لهم نابوليون : « أرى يا حضرة السادة أنه لم يبق فيكم ميل الى القتال فملك نابولي يريد البقاء في مملكته الجيدة الهواة وبرتيه يميل الى الصيد والقنص في أرض غروبوى التي تخضعه وراب نقد صهره للتمتع بالسكنى في قصره بباريس » . وكان نابوليون مصيباً في وهمه هذا إلا أن برتيه ومورات لم يجسرا على المجاهرة بما كان يحول في خاطرهما وقد تجرأ راب وحده على البوح بما كان يهيج في ضميره . ولم يكن الامبراطور يلقي الا على نفسه نبعة مائراً من التغير على بعض قواده : ففي خفخة البلاط وتهيج حب الملاذ

بالتحكك برجال وسيدات الملكية والتمتع بالمعظمة والجنوح الى الراحة لم يبق ملك نابولي وبرنس نوشاتل حافظين تلك الصفات الجندية والحماسة التي لم يكن حدها ينفل وعدم المبالاة المقرون بالجرأة بما امتاز به مورات وبرتيه الجنديين في جيش ايطاليا بمعارك منتنوت ولودي

إلا أن المخاوف التي لم يكن هذان الجنديان القديمان يستطيعان نبذها عند دنو حرب كانت نتيجه تفيب عن كل استدراك بشري لم تكن تمنعهما عن إظهار تحفزهما لمواصلة المسير على الخطة التي سارا عليها على أثر الرجل العظيم الذي كان في حين واحد رفيقهما ومرشدهما وسيدهما . فقالا : « نحن نأسف على السلم بيد أن الحرب اليوم أفضل من سلم غير ثابتة في الغد لاضطرارنا حينئذ الى العودة الى إضرام سميعر الهيجاء » . ونهض راب وقال : « يامولاي ان راب لا يزال يحسن قيادة جواده وإصالات حسامه ولذلك لا يحسن به أن يظل مقبلا في هذا المكان كمن اقمده الضرورة عن القتال حين تنطلق جلالتك الى الروع : فأثدني أن أعود الى ما كنت عليه عند جلالتك أي معاونا »

وكان راب في أثناء توليه القيادة في دنترك قد استمال اليه محبة البروسيانين واحترامهم بما أبداه من التساهل فيما يتعلق بالحصار البحري فان مقتضيات الاحوال السياسية كانت متنافرة مع عادات هذا الجندي الحر وأخلاقه وان نابوليون الذي كان يقدره حق قدره لم ينح عليه باللائمة على تصرفه . ولما دخل نابوليون الردهة وأبصر تمثال ملكة بروسيا اكتفى بأن يقول له مبتسما « ياراب أنذكرك باني سأكتب الى ماري لوز وأخبرها عن خيانتك »

وبرح العاهل نابوليون دنترك في ١١ يونيو آخذاً طريق كنكسبرغ فأنتهى اليها في ١٢ منه بعدما عرض في أثناء مسيره فيلق دافو . وقد كان يهتم بنوع خاص براحة الجيش وحسن ترتيبه . وكان يسرف في التوصية واصدار الاوامر بهذا الشأن وكتبه تشهد على ذلك . وكان يقضي النهار باملاء تعليماته في هذا الصدد وكان في الليل ينهض لهذا الغرض . ويقال ان قائداً واحداً وصل اليه منه في يوم واحد ست رسائل تتضمن جميعها الحض على العناية بالجنود

على أن نابوليون أراد قبل الشروع بالحركات العدائية أن يباشر مع الاسكندر مفاوضات ترمي الى السلم ففوض الى لورستون حاجبه أن يسمي لبلوغ

مقر القيصر ذاته لينم اليه برغبته الشديدة في تجنب قطع العلاقات مع صديقه القديم الذي خطب مودته في تلس وتلفت وارفرت . ولكن لم يتسن للورستون الدنو من القيصر أو من وزرائه . ولما انتهى الى اهل الفرنسويين نبأ من بريغو مستشار السفارة في بطرسبرج ان مندوبه لم تحسن وفادته أصدر أمره في الحال بالرحف وعبور نهر النيمن فقال بلهجة الظافر : « ان الاقدار متسلطة على المغلوبين فلتتم الاقدار ! »

ثم انه ماعتم أن أصدر النشرة الآتية عن المعسكر العام في ولكووسكي :
« أيها الجنود

« لقد عادت حرب بولونيا الثانية الى النشوب فالحرب الاولى انتهت في فردلاندا وتلست فني تلست أقسمت روسيا على أن تظل حليفة لفرنسا الى الابد وحرباً لبريطانيا العظمى وهي الآن تنقض ما أبرمته من الاقسام ولا تشاء أن تفصح عن تصرفها الغريب قبل أن تعبر الاعلام الفرنسية نهر الرين تاركة حلفاءنا تحت رحمتها

« ان الاقدار جرت روسيا الى هذا المأزق وعليه كان حدوث مثل هذه الامور محتوماً فهل تتوهم أن الفساد تلصص اليها أو لسنا جنوداً أشداء كما كنا عليه في يوم استرلنز ؟ فهي تخبرنا بين العار والنار ومثلنا لا يحتاج الى الردد في الاختيار . هلم بنا الى الامام !

« فلنمبر نهر النيمن ولنقاتلها في أرضها . وستكون حرب بولونيا الثانية مؤانسة لنا كما كانت لنا الحرب الاولى إلا أن الصلح الذي سنعقده سيصعبه ضمان عليه وسيضع حداً لذلك التفوق الكبريائي الذي تزاوله روسيا من خمسين سنة في الشؤون الاوربية »

وكان الجيش الفرنسي المؤلف من ثلاث مئة ألف مقاتل مقسوماً الى ثلاثة عشر فيلقاً ما عدا الجنود المنتقاة والحرس :

وألتيه مقاليد قيادة الفيلق الاول الى دافو والثاني الى اودينو والثالث الى ناي والرابع الى البرنس اوجين والخامس الى بونيا تسكي والسادس الى غوفيون سان سير والسابع الى رينيه والثامن الى جيروم نابوليون ملك وستفالي والتاسع الى فيكتور والعاشر الى مكدونال والحادي عشر الى اوجيرو والثاني عشر الى

مورات والثالث عشر الى البرنس شوارتزنبرغ . وكانت فيالق الحرس يتولى شؤونها ثلاثة قواد وهم المارشالية ليفيفر ومرتيه وبسيار .

وعند دنو هذا الجيش الهائل جعل الروس يتراجعون الى الوراء تاركين خط النيمان ليحتصموا بالدنيابر والدوينا . وكان نابوليون يتعقبهم عن كسب ووصل في الساعة الثانية من صباح ٢٣ يونيو الى المكان النازلة فيه طلائع الروس في ضواحي كونو ولبس رداء بولونيا من الاردية التي يلبسها فرسانهم . وتمكن وهو متذكر بهذا الزي من ارتياد ضفاف النيمان واكتشاف موضع يفضل سواء لعبور الجنود . وكان الجنرال هكسو يصحبه في هذا الارتياح .

وابصر الامبراطور شكل دائرة مؤلفة من النهر على مقربة من قرية بونيمان فوق كونو فعين هذا الموضع لعبور الجيش الى الضفة الاخرى . وابتدأ الجيش يتحرك في المساء فقصى الجنرال ألبه ساعتين في مد ثلاثة جسور فوق النهر وقد مر الجيش عليها طول الليل بثلاثة صفوف . وكانت سعة النيمان في هذا الموضع نحو مئتي متر . ولما انبثق الفجر كان الجيش الفرنسي قد عبر الى ما وراء النهر . فكان مشهد من اعظم المشاهد فان العين كانت تقع من مرتفعات الكسستن على نخبة جيوش اوربا المحتشدة في ذلك المكان والمهيئة لغزو البلاد الروسية ونابوليون يدلهم عليها باصبعه .

ولما استحوذ الامبراطور على كونو اتخذها مركزا حربيًا تستند اليه مؤخرة جيشه فترك فيه حامية ونظم فيه شؤون المستشفيات .

ويصب نهر الفيلبا بنهر النيمان عند اسوار هذه المدينة ولما تراجع الروس حرقوا الجسر الممتد فوق النهر الا ان هذا الحاجز لم يتمكن من صد فرسان البولونيين البسل الخفاف الحركة فاندفعوا الى نهر الفيلبا واجتازوه سباحة . ولم يكن الروس على التقريب يبدون لهم ادنى مقاومة فسكاهم كانوا يتجنبون الاشتباك مع الجيش الفرنسي . وكان يظهر في الخفاء مختلفة بعض القوزاق ولكنهم لا يلبثون ان يتمزق شملهم بسرعة .

ووصل الفرنسيون على تلك الصورة الى امام اسوار فيلنا . وفي الساعة الثانية بعد الظهر في ٢٧ منه وصل الامبراطور الى ذلك المكان وفي الغد عند طلوع الصباح جعل يستعد استعداداً جدياً لهجوم كبير وهو غير دار ان العدو



تسلیم مدرید

ترك بغير دفاع موقفاً منيعاً بحمي خطاً مثلثاً من المخازن . ولم يكن نابوليون عارفاً حقيقة المقاصد الروسية فان الروس بعدما بادلوا الفرنسيين إطلاق المدافع وفسفوا جسر الفيلباوا حرقوا مؤنهم وذخائرهم تراجعوا بسرعة عند دنو أعدائهم وكان الاسكندر ذاته المشير بالانسحاب . فقد كان في فيلنا من ربح من الزمان ومعه بلاطه وبينما هو في مرقص في قصر زكرست عند الجبل بنفغزن انتهى اليه نبأ اجتياز الفرنسيين لنهر النيمان وتوغل نابوليون في بولونيا الروسية . فاصبح كالمزول به في خلال تلك الحفلات والمسرات وجعل يفكر في أمر التراجع من ذلك المكان على ان تراجع منه كان ضرباً من الانهزام والفرار . وجعل الفرنسيون الخفاف الحركة يتعقبون الروس ودخل نابوليون في اثناء ذلك الحين في ٢٨ منه عند الظهر مدينة فيلنا محفوفاً بالبولونيين الذين كان يقودهم البرنس رديويل بين هتاف شعب كان يعتبره مخلصاً له .

وكان اول امر اثناء نابوليون عند احتلاله لعاصمة ليطوانيا تأليفه حكومة وقتية لهذا الاقليم . وأقيم المسيو بينيون معتمداً امبراطورياً لدى تلك الحكومة وعرف من جهة اخرى ان جمعية تألفت في فرسوفيا ورضها انشاء محالفة عامة بزعم الامير آدم كراتورسكي ليرميم ما تداعى من صرح المملكة البولونية . واوفدت هذه الجمعية مندوبين من قبلها الى العاهل نابوليون ليضعوا تحت حمايته جنسيتهم المبعوثة . فقال لهم العاهل : « لو كنت صاحب السلطان لما قسموا بولونيا اولا وثانيا وثالثا لكنت قد جندت أممي جمعاً لمناصرتك والاخذ بيدكم . . . ولو كنتم مجتمعي الكلمة لكنتم تعلمون النفس بالظفر باعدائكم واضطراركم ايام الى الاعتراف بحقوقكم على انكم في بلادكم الشاسعة المتراخية . الاطراف لا تلقون لكم ندحة عن بناء آمالكم بالنجاح على تعاضد وتضافر الشعب الخميم فيها . »

وكان ذاك التعاضد والتضافر موثقي العرى في بولونيا وقد جاء في النشرة السادسة ما كان من الوقع في ليطوانيا لاجتياز الجيش الفرنسي لنهر النيمان وعبر عنه بالكلمات التالية :

« فيلنا في ١٢ يوليو سنة ١٨١٢ »

« لقد تحرك شعب بولونيا في كل ناحية ورفع النسر الأبيض في كل مكان »

فالكهنة والنبلاء والفلاحون والنساء يطلبون جميعهم استقلال امتهم ... »
 ووجد الجنود الفرنسيون نصيراً قوياً في ما أظهره من الحماسة الوطنية ذلك
 الشعب الذي احتلوا بلاده وانتشروا في جميع جهاتها للوصول الى الروس والتمكن
 من منازلهم ولكن نابوليون لم يسعه مع تقويته لتلك العواطف الكريمة أن
 يتم جميع رغائبهم على ما يشتهون : فان بعثة الشعب البولوني تعرقل مصالح
 ملكين يعتبرهما حليفين له وهما اهل النمسا وملك روسيا ولذلك امتنع عن
 المجاهرة بإعادة مملكة بولونيا .

ولما طلب منه مندوبو الجمعية الفرنسية إعادة مملكتهم أجابهم انه يجب
 على البولونيين أن يعملوا على أنفسهم في قضية استقلالهم فبلادهم شاسعة الجوانب
 متراخية الأطراف وهو لم ينشأ الحكومة الوقتية الا لاقليم ليطوانيا أو
 بولونيا الروسية وقال أيضاً :

« لا ينبغي لي أن أدع الفيرة تستغويني عن طيش المناصرة البولونيين
 فالمصالح الفرنسية مفضلة على سواها وهي الغاية الرامية اليها سياسيي . »
 أجل ان هذه السياسة مبينة ولا جرم على أسس التروي والتعقل ولكن
 نابوليون لم ينظر اليها في غير هذه الأحوال بالملقة التي ينظر اليها بها في
 هذا الأوان .

وبقي مركز أركان حرب العاهل نابوليون في فيلنا الا أن الجيش الفرنسي
 كان يسير جاراً ذلذل النصر في كل مكان يمر به . وأصبح الجنرالان بفراسيون
 وبلاتوف منفصلين عن بركلي وطولي من جراء سرعة حركات العاهل نابوليون
 وأعمال جيشه الباهرة وصار موقفهما مخفوفاً بالمتالف . فدرى الاسكندر بحالة
 ذينك القاددين وبادر الى إرسال حاجبه الجنرال بالا كوف الى نابوليون مبدئاً
 في الظاهر رغبته بفتح أبواب المفاوضات السلمية ولكن كانت غايته الحقيقية
 توقيف حركات الفرنسيين وتمكين بفراسيون من الانضمام الى باقي الجيش
 الروسي . فأكرم نابوليون وفادة سفير الاسكندر وأبدى له أسفه لاضطراره
 الى قطع حبال علاقات يود من صميم فؤاده توثيق عراها بينه وبين قيصر
 الروس . فأجابه المندوب الروسي ان مولاه العاهل ميال بجملمته الى تعزيز مبدأ

الحصار البحري وانه ممالئ لجلالته عليه على شريطة أن يعود الفرنسيون
أدراجهم ويخلوا الارض الروسية مجتازين نهر النيمن .

فقال نابوليون : « وهل يريد مولايك أن أراجع الى ما وراء النيمن ؟ »
ثم انه تجلد وكظم غضبه وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً موسعاً الخطى وهو
يعمل الفكرة لايجاد جواب ملائم ولم يكثرث للسألة الجارحة عواطفه بل عاد
الى المسألة الجوهرية وقال : « فلنبت القضية في الحال وفي هذا المكان من دون
أن نبقي شيئاً ما وراءنا فالسياسة لا تعلم كيف تنهي شيئاً من الاشياء ان لم
تكن الظروف هادية إياها . فلنوقع الوثيقة وحالما يتم التوقيع على الصلح اجتاز
نهر النيمن عائداً من حيث أتيت . »

فلو كان القيصر راغباً في الحقيقة في الصلح لكان هذا الاقتراح مؤاتياً
لمقاصده ولكن كان للمسيو دي بالا كوف مهمة غير المهمة التي قدم في الظاهر
لاجلها فلم يتخط مارسمه له مولاه من الحدود وقال ان مهمته قبل كل شيء
الالحاح بسرعة مغادرة الفرنسيين للارض الروسية . فصاح به نابوليون قائلاً :
« أعلى مثل هذا الكلام يبني الصلح ؟ أعلى هذه الطريقة يحجرون حين
يميلون ميلاً حقيقياً الى المسألة ؟ ٠٠٠٠ وهل تصرفوا مثل هذا التصرف في
تلست ؟ فلست منخدعاً فهؤلاء القوم يبتغون مهلة أيام ليتسنى لهم تخليص
بغراسيون ولا يهمهم دوس ما هو مقدس ومكرس . وعليه فلا نهم الا بالاجاز
ما باشرناه ولا بد من أن يكون موقفهم الحرج قد أجبر عاهلهم على مباشرة
المفاوضة معي . »

وبرح العاهل نابوليون فيلنا في ١٦ يوليو قاصداً دخول روسيا القديمة
لجعل مركز حركاته بين الدوينا والبورستين . وزحف الى وتبسك وسمولنسك
معرضاً عن تعقب باركلي الفار الى جهة بطرسبرج وفوض الى دافو وجيروم
وشوارتزنبرغ المتولين الحركات الحربية عند ميمنة الجيش الفرنسي أن يحولوا
دون وصول بغراسيون الى معاقل دريسا حيث يقيم الاسكندر على حبل انتظاره
وقد تمت هذه الحركة من دون أن يقف أحد غيره على كنهها . وقال المسيو فان
في هذا الصدد :

« ودبر الامبراطور حركات الحرب مصدراً بذاته الاوامر لاجرائها ولم يشمر

أحداً من قواده بغير المهمة الواجب عليه قضاؤها . وبقي مجموع الخططة في ذهنه على أن تدابير الحربية تشبه الكتابة السرية التي لا تظهر الا بالنار فقد ظلت غير منظورة حتى أظهرتها نار الحرب . »

الا أن جهل أسرار الدهاء فتح سبيلا للقييل والقال فشاء كل أن يحزن ويثول على هواه مقاصد الامبراطور . وظهر روح الانتقاد في مركز أركان الحرب كما ظهر فيه في سنة ١٨٠٧ فلم يكثر نابوليون لذلك الامر ولم يهمه انخداع القوم المحيطين به ومخاوفهم وتذمرهم لعله أن خطته صحيحة وانها مصيبة المرمى ولتحقيقه أنه يدعو الى الصمت الألسنة المنتقدة في المعرسات حين يطبق خطته على مقتضيات النصر . فليقتصر قواده على إنجاز مقاصده وإجراء أوامره بالتدقيق فيمحو النصر جميع آثار المخاوف من الازدهان . ولكن لسوء الحظ لم تكن سرعة أعمال قواده مطابقة لسرعة تصوراته . وقد فوض الى البرنس جيروم شقيق الامبراطور تعقب بفراسيون وإعمال السيف في قفاه الا ان بطء حركته مكن القائد الروسي من سبقه مسافة ثلاثة أيام قضاها بفراسيون في نزويغ لاقامة عشار قواه الراححة تحت اعباء الاعياء . فكتب نابوليون الى أخيه يحرضه بكلمات عنيفة على الاندفاع بجيشه الى الامام بكل قواه .

وقد بقيت هذه الكتابة عقيمة فان الجنرال الروسي تمكن وهو ناعم البال من إجراء حركاته كما أنه لا يتعمقه أحد . وكتب حينئذ نابوليون الى ملك وستفالي كتاباً ضمنه استياءه الشديد من عمله وهذا شيء مما جاء في كتابه :
« يتعذر على المرء إجراء حركات حربية بمثل ما أجريتها من الجهالة فأنت سبب لاعطاء بفراسيون مهلة للراجع . وستفقدني بملك هذا ثمرة ما هيأته من التدابير وستجعلني أضيع فرصة من أحسن الفرص العارضة لي في هذه الحرب . »

ولم يكتف الامبراطور بهذا التعنيف لانه كان ينتظر مناصرة قوية من الفيلق الوستفالي . فأمر أخاه جيروم على الاثر بالتقييد بأوامر دافو . فظن جيروم ان لقبه الملكي يمنعه من قبول التقييد بتلك الاوامر فراجع من الجيش وكتب في هذا الشأن رسالة الى الملكة هذه خلاصتها :

« بعد ما تعقبت بفراسيون وهزمته دفعته الى حيث كان البرنس اكمل

مرابطاً وقد حملت عليه بطلائع جيشي وأمس انتهت الي رسالة من البرنس اكهل يخبرني بها أن أتقيد بأوامره عند التحام فيلقي بفيلقه ... ولا يخفى عليك اني أرى في هذا الامر أمراً من الامبراطور أو على الاقل رغبة منه في تركي قيادة الميمنة وقد فعلت ذلك .

فدست الملكة هذه الرسالة بين تضاعيف مفكراتها وذيلتها بهذه الكلمات :
 « مهما جنح الامبراطور عن محجة العدالة في معاملته للملك فقد كان من المقضي على هذا الاخير أن يذعن لمقتضيات الاحوال : فلا يكسب أحد شيئاً بمعاندة الامبراطور . »

واثمر الوستفاليون في مفتتح الامر على أثر تراجع جيروم من الجيش بأوامر الجنرال طوروثم بأوامر جونو دوق برنتس . ومع ذلك بقي الفيلق الثامن خاضعاً لارادة المارشال دافو . ولم يخطئ العاهل نابوليون موقع الصواب في اتخاذ مثل هذه التدابير . وأدرك دافو بغراسيون على مقربة من موهيلوف وظفر بالروس مع أنه لم يكن معه سوى فرقتين أنضاهما السير الطويل الا أن ابتعاد الفيلق الوستفالي عنه بعد ما هجره قائده لم يمكنه من اجتناء ما يستطيع اجتناءه من ثمار المنافع .

وبينا دافو يخلص ميمنة الفرنسيين بدفعه أمامه بغراسيون على سمولنسك تعقب مكدونال وأودينو فيلق وتجنستين وقد فصله بركلي للتحرش بميسرة الفرنسيين وردهم عن بطرشبرج بعد ما اضطر هو والقيصر الاسكندر الى مغادرة مخيم دريسا والسير على طريق وتبسك المؤدية الى الجهة السائر اليها نابوليون .

وأمل بركلي أن ينجو بغراسيون من دافو وينضم اليه فلما لم يلتق به في وتبسك خف الى لقائه في ناحية أرخا بعد ما عهد الى فيلق أسترمان في العناية بالمحافظة على خط تراجع دكتورف قائد المؤخرة وتأخير زحف كتائب الجيش الفرنسي الاولى

وهذا هو الفيلق المنفصل من جيش بركلي وقد لقيه مورات وأوجين في أوسترونو وظهر ا عليه في معركتين متواليتين وقعتا في ٢٦ و ٢٥ يوليو . وكان الفضل في انتصار الفرنسيين في اليوم الاول لفصيلة دلزون القادمة

لنجدهم فأكبرهم مشاة الروس على التراجع مع موالاة فرسان ملك نابولي
الهجوم عليهم على غير جدوى
ولما كان من الغد جعل الروس يتهيئون لاستئناف القتال وقد وصل اليهم
المدد ليلا وصار الفرنسيون أوفر عدداً مما كانوا عليه من قبل فان البرنس
أوجين وافى مورات منضماً اليه .

وكان القائد الروسي خلف أسترمان يشغل موقعاً حصيناً اقتضى اخراجه
منه كل ما عرف به الجنود الفرنسيون من البسالة والاقدام : فكان امامه
واذ عميق والى يساره حرجة كثيفة والى يمينه نهر الدوينا . وعليه ظلت هجمات
الفرنسيين الاولى عقيمة . واغتم الروس الفرصة من افضلية موقعهم ودافعوا
عن نفوسهم دفاعاً لا يطاق فتوهموا هزيمة من الزمان أنهم اوشكوا ان يتخذوا
خطة الهجوم ولكن ما عتبت هذه الحركة ان صارت سبباً لانكسارهم . ولما
شعر القواد الفرنسيون بالحركة الهجومية علموا انه لم يبق لهم الا ان يبرزوا
مكتومات جهد فائق العادة وما اتصفوا به من الجرأة ليتمكنوا من دفع العطب
الويلع عنهم واستمالة النصر الى اعلامهم . وكان مورات واوجين قدوة لغيرهما في
الشجاعة وشدة الصrice فتصيرهما جونو ونازوتي وغيرهما من القواد وهجموا في
مقدمة كتائبهم فكان للجرأة السارية منهم الى جنودهم نتيجة قريبة بحيث ان الروس
أزبحوا عن مواقعهم بعد ساعات قليلة وتقهقروا الى الورا حتى انتهوا الى كوما رخي
حيث لقوا حرجة اعتصموا بها ومجدة وافتهم من رجال الجنرال طوطشكوف .
وعيل مصطبر الجيش الفرنسي لاجتياز الفاصل الاخير الحائل دون دخوله
وتبسك الا ان قواده لم يشاؤوا التوغل على غير هدى في حرجة واسعة خيل
اليهم ان العدو حشد فيها جنوداً جدد لا يعرفون مقدار عددهم ولا حقيقة
قوتهم . وكان مورات واوجين مترددين لما اطلع عليهما نابوليون فلم تكدا انوار
طلعت تشرق فيهما حتى بدت امارات الثقة والحماسة على وجهيهما ووجوه هجم
القواد والجنود . وقال رجل ممن شهدوا هذه المعركة ما يأتي « ظن قواد الجيش
الفرنسي وجنوده حالما وقعت عيونهم عليه انه آت لاجتئاء ثمار النصر من ذلك
اليوم العظيم تخف على القور ملك نابولي والبرنس اوجين الى لقاءه ووقوفه على
كل ما جرى من الحوادث وعلى ما اتخذاه من التدابير . واراد نابوليون ان يوقف

بذاته على حقيقة الحالة فاسرع في التقدم الى خطوط جيوشه الامامية ووقف على يفاع من الارض سرح منه باز طرفه على الموضع النازل فيه اعداؤه واستعرف طبيعة الارض وكان دهاءه اخترق معسكر الروس وعرف ماينوون عمله . فاتخذت في الحال تدابير جديدة برباطة جأش وترتيب وسرعة وسار الجيش الى قلب الحرجة فوصل الى مرتفعات وتسبك وقد كاد النهار ينهار . »

واستأنف الجيش المظفر مسيره عند تباشير صباح اليوم السابع والعشرين إلا أن الروس المتقهقرين بانتظام وصلوا الى معظم جيش بركلي والضموا اليه واستعدوا للقتال

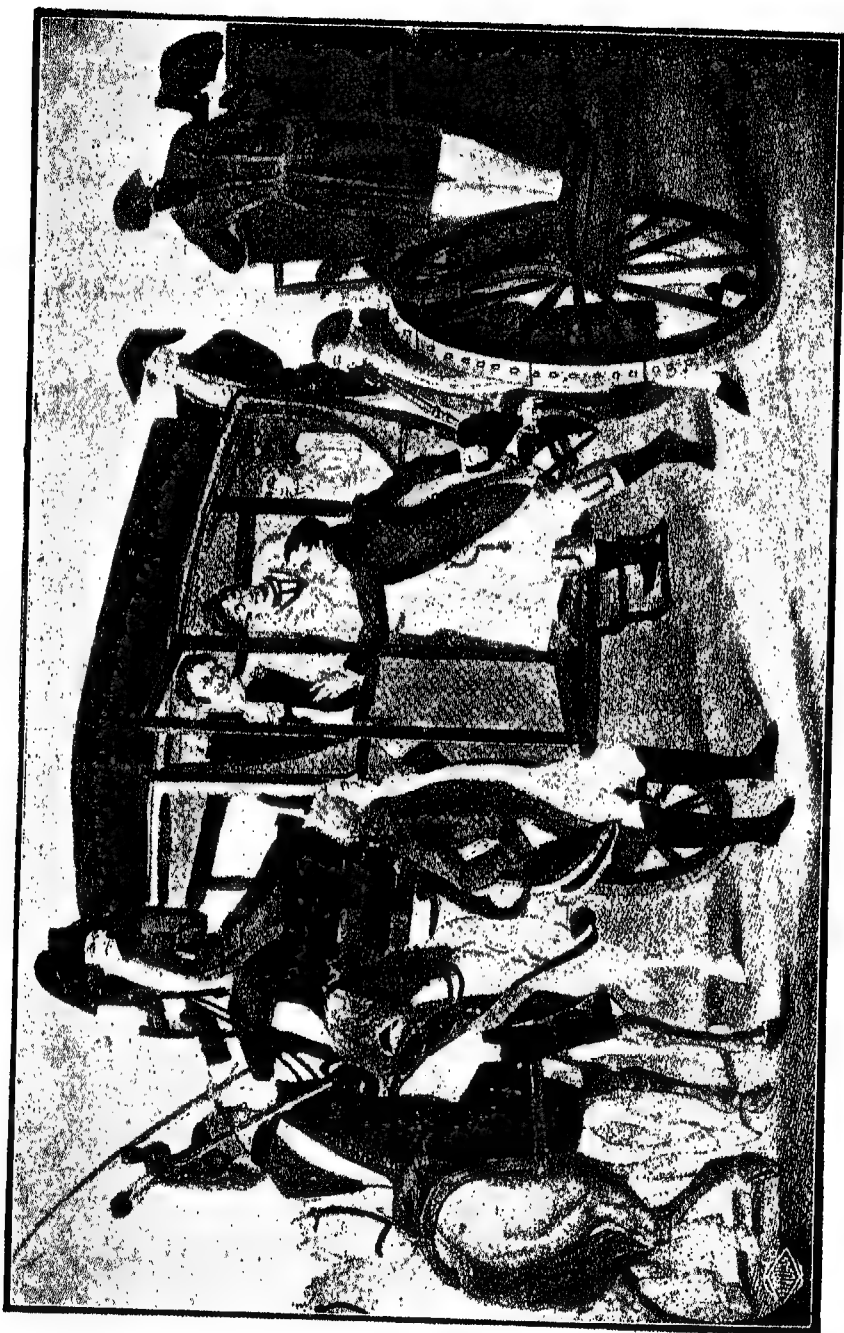
وكان نهر لتخيسا يفصل بين الجيشين فابصر نابوليون جسرا صغيراً ممتداً فوق واد يصلح لعبور جيشه واسكنه يحتاج الى الاصلاح . فعهد العاهل الى الجنرال بروصيه في مباشرة الاصلاح المطلوب في أثناء مسيره في المقدمة ليبلغ الى يفاع من الارض كان يؤمه . وأبصر من ذلك الموضع فصيلة مؤلفة من مئتي جندي من الكتبية التاسعة انفردت عن سائر الجيش فاحاط بها فرسان الروس من كل جانب فضاعت بينهم ثم انها ماغتمت أن بدت لانظاره سالمة من كل عطب وساحبة أذيال النصر وقد ظنّها العاهل هالكة ولا محالة . فسأل العاهل بشدة قائلاً : « من أي فيلق هذه الفصيلة . وأنفذ لساعته أحد الضباط المقيدين بخدمته ليستخبر عنها ويخبرها أن العاهل يمنح كل فرد من أفرادها نشان جوقة الشرف لأنهم استحقوه : فاجابه اولئك الجنود : نحن من أبناء باريس . . ثم انهم وضعوا قبعاتهم على رؤوس الحراب ورفعوها صائحين بملء أفواههم : ليحي الامبراطور !

إلا أن المعركة التي انتظرها نابوليون بنافذ الصبر وصمم الروس على اضرام موقدها قضت الاحوال بارجائها وعلم بركلي في مساء اليوم السابع والعشرين أن بفراسيون الجيء الى عبور نهر الدنيابر ميمها السوج فجعله ذلك الحادث يغير فجأة خطته فغادر معسكره تحت جنح الدجى وأسرع في التراجع الى ماوراء وتسبك زاحفاً تواء الى البوريستين وهو يأمل أن يلتقي بفراسيون . ولما طلع النهار قضى الفرنسيون العجب لعدم رؤيتهم جيش أعدائهم في مكانه وقد كان من ساغات يوقد النار على ضفاف نهر لتخيسا فاحتلوا الاماكن التي كان الروس

نازلين فيها ودخلوا مدينة وتبسك من دون أن يلقوا أدنى مقاومة في وجوههم لان بركلي استصحب سكانها معه حين لجأ الى القرار ولبت أركان الحرب أياماً في المدينة وانتهت الى الامبراطور على التوالي أنباء الانتصارات الكثيرة التي أصابها قواده فظفر الجنرال لغران في ٢٠ يوليو بالجنرال كولنباغ الروسي في جاكوبوفو وقهر أودينو وتجنستين في أول اوغسطس في أوبوارزينا في معركة ظل النصر فيها مترددا مدة طويلة بين الفريقين وبيننا كان نابوليون يزحف في ١٢ منه الى راساسنا وبيننا كانت جنوده تلقى فشلاً أمام الجنود البريطانية والبرتغالية وتفقد مدينة مدريد انكسر الروس في ثلاث معارك في أماكن مختلفة : فظهر شوارزنبرغ على طورماسوف في غورودكرنا وغلب ناي بركلي في كراسنوي وانتصر أودينو انتصاراً جديداً على وتجنستين في ضواحي بولسك

إلا أن السياسة انتصرت للروس في أثناء انكساراتهم اليومية المتوالية قبل مانصرم جو بلادهم فان محمودا سلطان العثمانيين شددت الحكومة البريطانية الضغط عليه وأكرهته على مسالمة قيصر الروس وعقد برنادوت الوثائق مع أعداء فرنسا فكانه تعمد حرمان نابوليون ما كان يأمل إصابته من القوائد بالهائه أعداءه قبل نشوب الحرب بينه وبينهم . وانتهى الى نابوليون هذا النبأ السيء وهو في وتبسك فقال : « سيندم الترك قريباً على خطأهم فهو فظيع بحيث لا سبيل لي الى تلافيه » ولما علم أن أسوج أبرمت أسباب وثيقة مع القيصر الاسكندر في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس صاح قائلاً : « ٢٤ مارس ٢٩ ما يوا ! أولم يرسل الي برنادوت المسيو سينيول ليفاوضني في درسد وإذا أتهمني أحد بتسعين نار هذه الحرب فليعتبر لاجل تبرئة ساحتي تفاهة ارتباطي بالترك وما كان بيني وبين أسوج من الامور الداعية الى قلق الخواطر »

وثابر نابوليون مع مائراً عليه من المعارك السياسية على الرمي إلى غايته وهو يأمل أن يصيب في ساحة القتال تعريضاً عماجرته عليه المفاوضات الوخيمة المنعبة من الحسائر الفادحة . وواصل الجيش الفرنسي الى . برنجن ، بنورستين والتوغل في قلب البلاد الروسية وخيم أركان حرب الامبراطور في راساسنا



مقابلة الامبراطور الاولى للارشيدوقه مارى لوى النمساوية فى سواسون وهى قادمة من فينا

في ١٤ أغسطس على مسافة قريبة من سمولنسك النازل فيها بركلي وبغراسيون وكان منتظراً أن تنشب ثمة معركة هائلة ونشبت المعركة في ١٧ أغسطس أمام مدينة سمولنسك وبلغ عدد المشتبكين فيها مئتي ألف رجل من كلا الفريقين بقيادة نابوليون من الجهة الواحدة وبركلي دي ماولي وبغراسيون من الجهة الأخرى وكان الروس استحصين في مقدمة سمولنسك فاستولت فيالق دافو وناي وبنياتسكي على حصونهم وعلى أرباض المدينة ولم تستطع الحصون الداخلية مقاومة عساكر الفرنسيين فان فرق فريان وغودان وموران وقد عضدها سوربيه قائد المدفعيين فتحت ثلثة في الاسوار واضطرت الروس الى اخلاء الابراج المتحصنين فيها بقذف القنابل المنفجرة عليها لمساعدة ما أضرمه الروس أنفسهم من النار في المدينة . وذكر في النشرة الثالثة عشرة ان المشهد المنبسط أمام الفرنسيين في تلك الليلة الجميلة من ليالي شهر أغسطس بمائل المشهد المنبسط أمام أنظار القوم في نابولي عند هيجان بركان يزوف

ولما علم الروس في الساعة الواحدة بعد نصف الليل أنه لم يبق لهم قبل بالمقاومة أجهزوا على احراق المدينة وعبروا النهر وأحرقوا الجسور ، ودخل الفرنسيون المدينة في الساعة الثانية فوجدوها خالية من السكان والجنود ولم يترك الروس فيها سوى القتلى والجرحى المحتضرين بين ألسنة اللهب المتدللة والانقاض . وكان المشهد فظيما فعني العاهل قبل كل شيء بقطع ألسنة النيران وإغاثة الجرحى . وقال الجنرال غورغو : « ان نابوليون فريد بين القواد الاقدمين والحديثين باهتمامه بالجرحى اهتماما ماوراءه من مزيد . ولم تكن سكرة الانتصار تجعله يذهل عما يجب عليه نحوهم بل كان يصرف اليهم فكره قبل كل شيء بعدما تضع الحرب أوزارها »

وبعد ما طاف نابوليون في ظاهر المدينة وتفقد المواقع المحصنة بعدما أخرجت منها جنوده الشجعان جنود الروس اراد ان يستعرف بنفسه موقف أعدائه الجديد في ما وراء البوريستين . فوقف على قمة برج قديم وأطلق باز بصره وبيده المنظار في الجو الفسيح فوقع على المسكان المخيمة فيه رجال بركلي وبغراسيون وابصر ذينك القائدين ينسحبان انسحاباً تاماً فاخذ الاول منهما طريق بطرسبرج والثاني طريق موسكو . وعلم نابوليون ان انفصالها الاختياري

بعد ما كانا قد استنفدا المجهود لانضمام الواحد منهما الى الآخر لم يكن سوى حركة يراد بها التويه : فجاء رواده بعد ذلك وانباؤه انه مصيب في ظنه وان بركلي اوقف مسيره نحو الشمال وشخص الى ناحية موسكو ينبغي الانضمام الى بغراسيون فاصدر أوامره من ذلك الحين بتعقب اعدائه بشدة رجاء ان يدركوهم ويسحقوهم قبل بلوغهم الى عاصمتهم القديمة . وقد أصر الى المارشال ناي ان يسير في مقدمة الجيش ويباشر القتال فصعد المارشال بالامر وحقق آمال العاهل نابوليون بما ابداه من البسالة والذكاء في يوم فالوتينا العصيب .

وكانت هذه المعركة من أشد الممارك الدموية هولاً فالروس بعد ما أزيحوا أربع مرات عن مواقعهم طادوا اليها وانهمزوا أخيراً انهزاماً نهائياً أمام غودان الهمام فهذا حمل على الروس حملة صادقة في مقدمة رجاله بحيث خيل اليهم عند رؤيتهم جرأة الهاجمين واقدامهم انهم واقفون أمام الحرس الامبراطوري الفرنسي وعضد رازو ولدرو ومرشان بفرقهم المنفصلة عن فيلق المارشال ناي غودان في هجومه وهجم على الجنرال طوشكوف الروسي وهو بين رجاله ضابط من الفرقة الثانية عشرة يقال له اسطفان وأجبره على تسليم سلاحه والاستسلام اليه . وأصيب نابوليون والجيش الفرنسي في هذا اليوم بخسارة أليمة فان غودان بعد ما أبلى بالروس بلاء حسناً خر صريعاً فنقل الى سمولنسك وما لبث ان فاضت روحه فأمر العاهل نابوليون بدفنه في القلعة .

وكان في الامكان أن تكون معركة فالوتينا فاصلة لو أجرى جونو بالتدقيق الأوامر الواردة اليه ووصل في الحين الملائم ليفصل بين فيلق بركلي المتفرق عن فيلق بغراسيون عند خروجهما من سمولنسك ومسير الأول منهما الى ناحية بطرسبرج ومعالجته فيما بعد الانضمام الى الثاني عن طريق موسكو : إلا ان دوق برنتس بعد ما اجتاز البوريستين في الموضع المعين له لبث في مكانه غير مبال بالحاح ملك نابولي ومشورة الجنرال غورغو الذي كان يخاطبه باسم الامبراطور . ولما انتهى الى نابوليون ما كان من تقصير جونو استاء كل الاستياء وقال لبرتيه : « ترى ان جونو لا ينفع شيئاً ولا يسعني ان أبقى قيادة فيلقه بيده فليحل راب محله فهو يتكلم بالالمانية ويحسن والحالة هذه قيادة الوستفاليين . » ويذكر القراء ان جونو هو ذلك الجندي الذي لفت اليه أنظار

بونابرت قائد المدفعيين في حصار طولون فمال اليه لما رآه فيه من رباطة الجأش وجرأة الفؤاد . إلا ان هذا الجندي الجمهوري لما صار في عهد الامبراطورية دوق ابرنتس جعل يشعر بالداء الذي جر اليه منيته وقد دفع عمله هذا انكساراً محتوماً عن الجيش الروسي .

على أن خطأ جونو مع إفعامه قواد نابوليون مرارة لم يثبط العاهل العظيم عن اظهار سروره من الابطال الصناديد الذين كان النصر في معركة فالوتينا على أيديهم فذهب في الحال الى ساحة القتال وعرض فيالق جيشه الممتازة في الهيجاء وقال الجنرال غورغو : لما وصل العاهل الى الفرقة السابعة من المشاة الخفاف الحركة دعا اليه جميع القواد فلبوا دعوته واصطفوا حوله على شكل نصف دائرة فقال لهم : « دلوني على أفضل ضابط في هذه الفرقة . » فجابوه : أنهم جميعهم من الشجعان . فقال لهم : « ليس هذا الجواب مقنعاً فحسبكم أن تقولوا لي ما قاله تمستوكل : انا هو الاول ورفيقي هو الثاني . . . » حينئذ ذكروا له اسم منسي قائد المئة وكانت جروحه تحول دون حضوره فقال الامبراطور : « وهل هو منسي ذاته الذي كان مقيداً بخدمتي هل هو نجل المارشال منسي ؟ فمما لي غيره . فقالوا له : هو أفضل الجميع . فقال : بناء عليه أمنحه النشان . »

ولما دخل نابوليون سمولنسك توالث عليه الافكار المزعجة من جراء إفلات الفرصة من يده وقد كان يستطيع ان يلاشي الجيش الروسي ويقصر أجل الحرب فساوره حينئذ الشك وصار شديد الرغبة في انجاز هذه الحرب البعيدة . على ان كل ما انتهى اليه من أميال الحكومة البروسيانية وبلاد بولونيا وحركات طورمازوف وكل ما أبصره وسمعه في مركز أركان حربه وقد عاد الى الظهور أصحاب القن في برن وابرسدرف وبلطسك وابلوجعله يميل الى البقاء في سمولنسك ولكنه ما عثم ان علم ماناله قواده من الانتصار على اعدائه في ١٢ منه على ايدي شوارتزبرغ ولفران وأودينو وغوفيون سانت سير . فزال مخاوفه أو كادت . وكان الروس يتقهقرون أمام جيش الفرنسيين وهم لا يلوون على شيء فرجعت عنده كفة الامل باصابة ظفر فاصل على كفة التردد الذي كانت الحكمة توحيه اليه . ولما وصل نابوليون الى أوجيا قال : « لقد توغلنا في هذا المكان توغلاً يصعب علينا معه التقهقرو لو لم يكن من وكدي إلا الافتخار

بالاعمال الحربية لرجعت الى سمولنسك لنصب اعلامي فيها والاكتفاء بعدي الى
البحرين والى اليسار أيدياً تسحق وتجنستين وطرمازوف فثقل هذه الاعمال تدهش
العقول وتنجز الحرب على ما نرغب ولكننا لا تقطع أذانها . . . فالسلم أمامنا
ولم يبق بيننا وبينها سوى ثمانية أيام . ووجودنا في جوار الغرض لا يبقى لنا
سبيلاً للباحثة . فلنرحف الى موسكو ! »

فلنرحف الى موسكو ! هذا ما قاله الرجل العظيم . وهذه مشيئته : فان يدأ
سرية تدفعه نحوها فلا يغني حذر من قدر !

الفصل الثاني والعشرون

الاسكندر في موسكو - الحاكم رستبشين - القصد النهائي

معركة موسكو

ولما غادر الاسكندر معسكر دريسا تراجع الى موسكو . واغتنم الحاكم
رستبشين الفرصة من حضور القيصر لجمع النبلاء والتجار في قصر كرملين
طالباً منهم ضحايا جديدة من الرجال والمال وأراهم العدو في قلب البلاد وصور لهم
نابوليون ذاهية حلت بهم لتدمير بلادهم وتصييرها أترأ بعد عين وملاشاة
استقلالهم الوطني والقضاء على ديانتهم . وقد كفى ذلك التحريض لاثارة الهمم
للمناهضة الفاتح الغازي فخل كلامه محل القبول عند النبلاء والتجار ولم يكتف الحاكم
الذاهية بهذا الكلام بل عمد الى تحريك ساكنات الوسائس في الصدور . ولكي
يبلغ بحماسة سكان موسكو غاية ما وراءها من مزيد أشار على القيصر وهو في
الوقت عينه صاحب الساطة الدينية الاكبر بأن يأتي بذاته ويحرض الاهلين بما له
من الكلمة المسموعة والمقدرة على الهبوب هبة واحدة . ولما كان قد بلغ الهياج
في المجلس الوطني درجة عالية جداً على أثر استنهاض رستبشين لهفته دخل
الاسكندر فجأة من باب سري في القصر وخاطب الحضور بحدة داعياً اياهم الى
الدود عن حياض الوطن والدين وقد جاء لتكديرها الطاغية الذي لا يروى ظناً
مطامعه . وختم خطابه بقوله لهم : ان ما يتوعدكم من النكبات يجب عليكم أن

تعتبروه ذريعة ضرورية تتمكنون بها من القضاء على أعدائكم .
ولما فاه الاسكندر بهذه الكلمات الاخيرة كان في صوته وهيئة ونظراته شيء غريب موحش ولم يستطع في مثل هذا الموقف الحرج ان يظهر بغير هذا المظهر مراعاة لمركزه الديني والمدني معاً . فاتخذت السياسة حينئذ عند الروس شكلاً جديداً عنيفاً واصبحت الحرب عندهم هائلة .
ولم يكن نابوليون في نظرم عدواً عادياً يكتفى بمحاربته بحسب قواعد الحرب المألوفة بل كان في اعتقادهم الزعيم الأكبر للامة الفرنسية وقاهر ملوك القارة الاوربية وزعم القيصراً أن الملوك يمكنهم أن يحطموا النير الباهظ كواهلهم بتسبيهم بغير الاسباب الجائزة في قوانين الحرب فبدلاً من الاقتصار على تفويض الدفاع عن سلطنته الى مهارة قواده وبنائهم وبراعتهم في فن الحرب والى شجاعة جنوده وجرأة مقدمهم وبدلاً من توجيه النشرات الى رعاياه مستصرخاً بهم لاتقاذ الوطن من العطب الويل المتوعده اختار من بين رجاله الشديدي الاخلاص له والتعلق به أشخاصاً معروفين بشدة الصرامة وصلابة العود وأوقفهم على دخائله وما انتوى اتيانه من المقاومة الشديدة المدفوع بعامل القنوط الى ركوب مركبها الخشن . وفكر الاسكندر في ان لسلطة العليا شريعة سامية تستعين بها على درء الاغوال عن البلاد اما بالتصدي للفرقة واما بتصيير غزوتهم شؤماً عليهم . واذا لم يدفعه الفكر الى الاكثار من السجائين والجلادين والاسراف في القاء المتهمين في غيايات السجون وإرسال من تلتصق بهم الظنة الى النطع فما ذلك إلا لأن حالة السلطنة الروسية لم تكن تقتضي ذلك الامر : فليس فيها أشخاص مشتبه فيهم أو محكوم عليهم بالموت لأن أمثال هؤلاء لا يكونون إلا حيث يكثر العصاة والخنوة والمهاجرون . ولكنهم لم يحجموا عن التضحية بأشياء كثيرة ثمينة جرت الخسائر الفادحة على بعض الولايات العامرة والمدن الزاهرة في البلاد الروسية مما ترامى صداه الى جميع أنحاء المعمورة . فبعد ما أحرق الجيش الروسي كل ما عثر عليه في طريقه من فيلنا الى صمولنسك انتهى باضرام النار في المدينة المقدسة فجاء عمله الفظيع نتيجة الكلمات الاخيرة التي فاه بها القيصير في قصر كرملين . فسيعلم سكان موسكو ان مولاهم استعان بالنار لاتقاذ سلطنته .

وصمم نابوليون على الزحف الى موسكو فاستأنف القتال بشدة معللاً النفس بأن انتصاره سيلجئ القيصر الى إقفال أبواب الحرب وإبرام أسباب الصلح ولكن الاسكندر لم ينتظره في قصر كرملين ولم يخف للملاقاته في مقدمة جيشه فيم بطرسبرج وهو لا يلوي على شيء، وقد كوتوزوف قيادة جيشه بدلا من بركلي وطولي .

ولما وصل كوتوزوف الى الجيش وجد بركلي مخبأ بين فيازما وغجات ومتهيباً للقتال في الغد . ولم يشأ القائد الجديد ان يدع الجيش يعتقد ان القائد المفضول أصاب في انتقائه ذلك المكان للقتال فأمر جيشه بالتراجع أمام الفرنسيين . ونزل بين الموسكوف وكالوكرا حيث جرت في ٧ سبتمبر الموقعة الكبرى وكان نابوليون ينتظرها بفارغ الصبر

وكان العاهل نابوليون قبل يوم المعركة وفي صباحه ممتطياً جواده ولا بأس رداءه الرمادي المشهور . واستصحب راب وكولانكور سائراً بهما لاستعراف المواقع النازلة فيها طلائع أعدائه وتفقد المواقع المخيمة فيها العساكر الفرنسية وقد لمعت على محياه بوارق الثقة والامل فجعل يتغنى بهذا البيت :

والنصر يندد وهو يفتح بابه لا تلبثوا أن تدخلوه بالعجل
وفي خلال ذلك الحين وصل الى المعسكر الكولونل فابفيه حاملاً من أقصى اسبانيا نبأ انكسار الفرنسيين في ساهنكة ووصل أيضاً المسيو دي بوصه قادماً من سان كلود ومعه رسائل الى الامبراطور من ماري لويز وصورة ملك رومانية وأغلظ نابوليون في الكلام للكولونل فابفيه عن المارشال مرمون الذي كان من وراء انكساره تسليم مدينة مدريد لولتين فدافع فابفيه عن قائده بمجراة وقوة عارضة

واستقبل الامبراطور المسيو دي بوصه استقبالا مؤثراً للغاية فانه ابتهج كل الابتهاج بحصوله على أخبار سارة عن أعز الناس لديه وشعر عند رؤيته بصورة ابنه بفرح ماوراء من مزيد . وبعدما أرى الاشخاص المحدثين به الصورة دفعها الى كاتبه الخاص قائلاً له : «خذها واحفظها فقد شاهد منذ نعومة أظفاره ساحة القتال» . على أن الموضع النازل فيه أركان الحرب في ٦ منه أصبح ميداناً للوغى في ٧ منه

معركة الموسكوف

(ملخصة عن النشرة الثامنة عشرة)

وأحاطت المارشالية بالامبراطور في الساعة الثانية من صباح اليوم السابع من شهر سبتمبر في موقع اختاره في اليوم السابق وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين طلعت الشمس وقد خلت السماء من الغيوم وكان المطر قد نزل في اليوم السابق : فقال الامبراطور : « هذه شمس استرلنز » وكان البرد شديداً فانهم وان كانوا في شهر سبتمبر شعروا ببرد يحاكي ما شعروا به من البرد في شهر ديسمبر في مورافيا . وتفاءل الجيش بحالة الجو هذه وقرأوا النشرة التالية : « أيها الجنود هذه هي الموقعة التي طالما تقم إلى افتتاح غمارها ١ فن الآن يتعلق النصر بكم فالنصر ضروري لنا وهو يولينا اليسر وأماكن حسنة نقضي فيها فصل الشتاء وسرعة العودة إلى الوطن . فتصرفوا كما تصرفتم في استرلنز وفردلانند ووتبسك وسمولنسك ولتذكر الاجيال الآتية بافتخار تصرفكم في هذا اليوم العصيب ولتقل عن كل فرد منكم : لقد شهد المعركة الكبرى أمام أسوار موسكو »

صدر عن المعسكر الامبراطوري في مرتفعات بورودينو في ٧ سبتمبر في الساعة الثانية صباحاً .

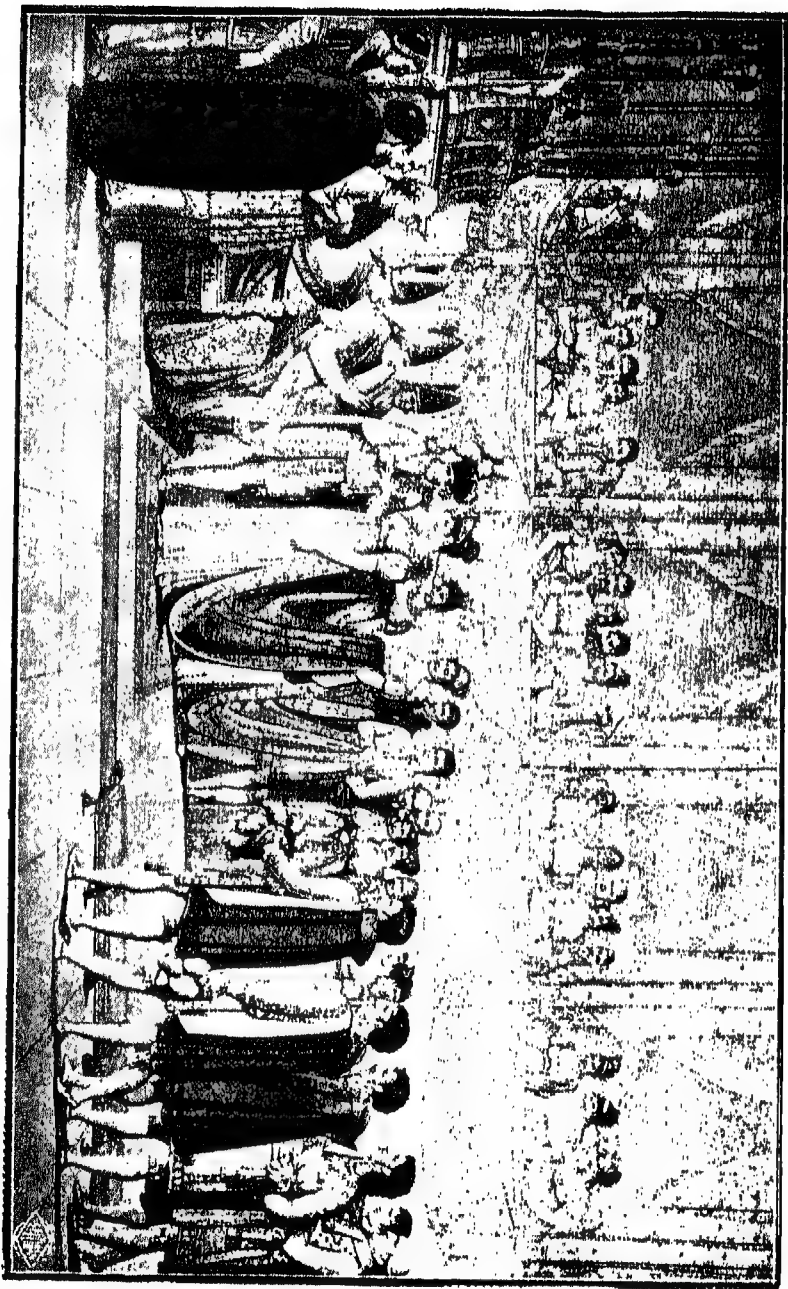
فطبق الجيش القضاء بأصوات النهيل والتكبير وتغطت الأرض النازل فيها جيش الفرنسيين بمجثت الروس الساقطين قتلى في المعركة الأخيرة وتحرك البرنس بنياتسكي قائد الميمنة ليدور حول الحرجة المستندة إليها ميسرة الروس وسار البرنس أكهمل برجاله على طول الحرجة وأمامه فرقة كيبان ونصبت في الليل بطاريتان مؤلفتان من مئة وعشرين مدفعاً وجعلتا تقذفان الموت على مواقع الاعداء

وبأثر إطلاق النار الجنرال الكنت صربيه في الساعة السادسة وقذفه ز البطارية الجني بما غنمه من مدافع احتياطي الحرس . وسار الجنرال برني ومعه ثلاثون مدفعاً في مقدمة فرقة كيبان (وهي الفرقة الرابعة من الفيلق الاول) على طول الحرجة ليدور حول مركز العدو وجرح الجنرال كيبان في الساعة ٣٠ : ٦

وقتل جواد البرنس المهل في الساعة ٧ وحمي وطيست الهيجاء فهجم البرنس أوجين قائد
الميسرة على قرية بورودينو وأخذها من دون أن يتمكن العدو من الدفاع عنها
لوقوعها على ضفة نهر كولوغا اليسرى ونحرك المارشال دوق الشنجن في الساعة
السابعة وسار تحت ظل ستين مدفعا كان الجنرال فوشه قد نصبها في اليوم
السابق لقذف القنابل على وسط العدو وهجم على ذلك الوسط . وقذف الف
مدفع من كلا الفريقين الحمام الاحمر على صفوف المقاتلين وأخذت جميع مواقع
الروس وحصونهم في الساعة الثامنة فاصبح في مدة ساعتين في أيدي الفرنسيين
ما أحرزه الروس من المرا كز الحصينة وصار في أيديهم أيضاً ما كان يعاكسهم
من المواقى في أثناء الهجوم . ولم يكد الروس يشاهدون ابتداء المعركة حتى
انكسروا ففقدوا قسما من مدافعهم وسحبوا القسم الآخر الى الوراء فازمعا
العودة الى الكر والقتال والهجوم على المواقع الحصينة بعدما عجزوا عن الدفاع
عنها والحفاظة عليها . وكانت ثلاث مئة مدفع نصبها الفرنسيون على المرتفعات
تخطر الموت الزؤام على الفيالق الروسية فتجند لهم عند المواقى وقد صرفوا جل
عنايتهم الى تشييدها في الايام السابقة ابتغاء التحصن بها

وهجم ملك نابولي بفرسانه هجمات صادقة وجرد دوق الشنجن ذبول الفخر
مبديا من البسالة مالا يقل عن رباطة الجأش . وأمر الامبراطور بالتقدم وتقديم
الميمنة أمام الجيش فاستولى الفرنسيون بتلك الحركة على ثلاثة أرباع ساحة
القتال وانتصر البرنس بنياتسكي انتصاراً عظيماً في الحرجة

وبقي للروس ما لهم من الحصون في الجهة اليمنى فحمل عليها الجنرال الكنت
موران وأخذها ولكن هجموا عليه في الساعة التاسعة من كل ناحية فلم يستطع
الثبات فيها فاجترأ الروس بهذا الظفر وقدموا جيشهم الاحتياطي وما بقي عندهم
من الجنود وباشروا الهجوم لعلهم يصيبون فوزاً وشاطرهم الحرس القيصري
هجومهم . فهجموا على وسط الفرنسيين وقد أحاطت به ميمنتهم واوجسوا
خيفة من سقوط القرية المحروقة في أيديهم فخفت فرقة فريان الى نجدتها وصب
ثمانون مدفعا من مدافع الفرنسيين النيران على كتائب الروس فبقي هؤلاء
ساعتين من الزمان مستذرين لا يجسرون على التقدم ولا يتيسر لهم التقهقر وقا
فقدوا كل أمل بنيل الظفر . وهجم ملك نابولي في آخر الامر بالفيالق الرابع من



حفلة زواج الامبراطور نابوليون والارشيذوقه ماري لوزي في ٢ ابريل سنة ١٨١٠

الفرسان فدخل من الثلثة التي فتحتها مدافع الفرنسيين في كتائب الروس وما لبث أن مزقهم أيدي سبا . وهجم الجنرال الكنت كولانكور في مقدمة فصيلة المدرعين الخامسة وهزم كل من لقيه في طريقه ودخل الحصن الايسر ولم يبق حينئذ أدنى ريب في نتيجة المعركة فان النصر مال بمجملته الى الفرنسيين وصارت المدافع المئة والعشرون المنصوبة في الحصن ترمي الروس بالهلاك والبنار . على أن الجنرال الكنت كولانكور بعدما امتاز في الهجوم العنيف خر صريعاً وقد ختمت حياته بفخر غبطه عليه كثيرون من رفاقه

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر فتقلص ظل آمال الروس وانتهت المعركة . ومع ذلك بقي اطلاق المدافع متواصلاً وظل الروس يقاقلون رغبة بضمان تراجعهم وخلصهم وليس طمعاً باصابة النصر وأصيب الروس بخسارة كبيرة تقدر باثني عشر ألفاً الى ثلاثة عشر ألف قتيل وجدوا مجندين في ساحة الروع وثمانية آلاف الى تسعة آلاف فرس وستين مدفعا وخمسة آلاف أسير

وبلغ عدد قتلى الفرنسيين الفين وخمس مئة وجرحاهم نحو ثلاثة أضعاف هذا العدد وتقدر خسارتهم بعشرة آلاف رجل وخسارة الروس بأربعين ألفاً الى خمسين ألفاً . ولم يسبق لاحد من الناس أن يبصر ميداناً للحرب مثل هذا المديدان : فبين كل ست جثث من القتلى خمس من الروس وواحدة من الفرنسيين وفقد الروس أيضاً أربعين قائداً بين قتيل وجريح وأسير . وكان الجنرال بفراسيون من عداد الجرحى

وفقد الفرنسيون الجنرال الكنت منبرون فقد أصابته قنبلة ذهبت بحياته وخلفه الجنرال الكنت كولانكور فكان حفظه كحفظ سلفه

وقتل القواد كبير وبلوزون وماريون هوار وجرح نحو ثمانية قواد بجروح خفيفة ولم يصب البرنس اكهل بأذى . والتحففت عما كر الفرنسيون بمطارد الفخر وظهرت أفضليتهم على الجنود الروس . هذا وصف موجز لمعركة الموسكوف الناشبة على مسافة فرسخين من موجايسك الى ماوراءها وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخاً من موسكوف على مقربة من نهر الموسكوف . وقد أطلق الفرنسيون ستين ألف قذيفة من مدافعهم وجاءهم ذخائر بدلا منها تقلها ثمان مئة مركبة

اجتازت سمولنسك قبل نشوب المعركة . وغطت جثث القتلى وجسوم الجرحى الاحراج والقرى الممتدة من ميدان الحرب الى هذا المكان . ووجد هنا الفا روسي بين قتيل وجريح وأسرو عدد كبير من القواد ،

ولم يستهدف العاهل قط لنبال العطب ولم يفقد أحد من الحرس الامبراطوري سواء كان من الفرسان أو من المشاة ولم يتردد النصر هنيئة من الزمان قط . على ان الروس المهاجمين في مواقعهم لم يشاؤوا استرجاعها لفاقت خسارة الفرنسيين خسارتهم ولكنهم أهلكوا عساكرهم بإبقائهم ايام من الساعة الثامنة الى الساعة الثانية تحت نيران البطاريات الفرنسية وباصرارهم على استرداد ما فقدوه . وهذا هو السبب الذي من أجله اصابتهم هذه الخسارة الفادحة . . .

ومهما عظم فوز الفرنسيين في هذا اليوم فقد كانوا يستطيعون ان ينالوا أعظم منه لو لم يوقف نابوليون رحي القتال في الساعة الرابعة بعد الظهر ولو دفع العاهل الحرس الى ميدان الوغى وظل يقاتل حتى آخر ذلك النهار لتحول الهزام الروس الى كسرة هائلة . وقد اختلفت الروايات عما دنا نابوليون الى الاكتفاء بما كان من فشل أعدائه : فيروي بعض الكتبة ان أركان حرب الامبراطور تدمروا وقالوا للمارشال ناي : « حيث ان الامبراطور لا يحارب بنفسه ولا يتولى القيادة الفعلية بذاته بل يريد أن يكون عاهلا في كل مكان فليرجع الى التويلري وليتركنا نتولى قيادة الجيش عنه . » ويقول المسيودي سيفور : « يزعم مورات ان أول حلول اعتدال الليل والنهار أثر بمزاج العاهل الضعيف وان انحطاط جسمه الناشئ عن التعب والحى وداء آخر ترزح تحته القوى العقلية والبدنية أثر بدهائه تأثيراً شديداً . . . » ويقول الواقفون على الحقائق : ان الامبراطور في هاتيك الاقطار السحيقة ومع جيش من الأجانب لا تربطه به إلا اسباب الانتصار رأى انه مقضى عليه بأن يحافظ على نخبة رجاله لعدم استغنائه عنهم .

ولم يصب قواد نابوليون المرمى في انتقاده بأنه يبتني الظهور بعظم العاهل في كل مكان وانه لم يكن ميالا الى تولي قيادة جهافله بنفسه ولا سيما في زمن لم يدبر فيه احد غيره معدات هذه المعركة المشهورة . اما رغبته في ابقاء جيش احتياطي غير مثلوم الحد يتألف من جنود مختارين ومخلصين على شاكلة حرسه

فقد قال في هذا الصدد ما يأتي : « وهب نشبت معركة جديدة غداً فبأي شيء أوقد سعيها ؟ » حينئذ قال الجنرال غورغو : لو تثلم حد الحرس الامبراطوري في معركة الموسكوا لكان الجيش الفرنسي المؤلف اولئك الحرس ام جزء منه والدائد عنه عند تراجعه قد تعذر عليه عبور نهر النيمن .

وكيفما كان الامر فان نابوليون بالنظر الى مجاة جيشه من المهالك وجره اذبال الفخر او طمعاً بمقد صلح قريب حبا لمصلحة فرنسا والانسانية جماء لم يصير معركة الموسكوا مجزرة هائلة بتدخل حرسه . واذا خطر لاحد ان يقول ان حب البقاء والحفاظ على الحياة تسلط على نابوليون وانه استسلم الى امياله هذه اجنباء ان نابوليون من طولون الى وائرلو كذب مثل هذا الوم الفاسد . فثل دهاثه المقرون بالجرأة وهو الذي جعله بجهر مثل هذه الحملة العظيمة لم يحمله وايم الحق على التذبذب والتقاعد لثلا يفقد بميله هذا ما يطمع به من الفوائد الكبيرة . واذا قيل ان الداء ألم به وأضعفه كما يلم بغيره من بني الطينة ويضعفهم فليس في ذلك شيء من الغرابة او من المستحيل . ومن المرجح ان سرعة خاطره وإبرام اسباب عزائه وقوة ارادته جعلته يتأثر من هذه الحال فابتدأ يتردد في الجزم باعماله وهو في سمولنسك . واذا كان عند دنوه من غاية سعده ولم يبق له ان يزيد شيئاً على بهاء اسمه وعند رؤيته نفسه مرتقيا الى اعلى درجة من درجات المجد بحيث لم يبق لديه الا الانحدار عنها قد شعر بتلصص التردد والقلق الى نفسه فان هذا الريب الوقي يجعله بمساعدة حظه له عند دنوه من افول نجم سعده يفقد شيئاً من قوة عارضته وإقدامه على وضع مقاصده موضع الاجراء ومن الجرأة التي كانت فيما مضى كأنها متسلطة على الاقدار من دون ان يطرأ ادنى تغير على نفسه الكبيرة ومن دون ان توحى اليه الانانية روح التحفظ فيقصي عنه ما يشعر به من الاهتمام المتواصل بوطنه فرنسا منذ القاء مقاليد شؤونها بين يديه . وهل يستطيع احد ان يجعل الناس يعتقدون ان جندي اركول ولودني المعروف بجرأة مقدمه وان جنرال اسلنخ المشهور ببسالته وباقتحامه المتالف جعل الجبانة تحمل فيه محل الشجاعة ؟ على ان دي بوريان ذاته الباذل جل عنايته للفض من كرامة نابوليون والقابض على البراعة ليخط تاريخه مصورا اياه بشكل ينفر منه الناس ينكر ما عزي الى نابوليون من الضعف والخوف

عند عودته من موسكو . وهذا ما قاله عنه في هذا الصدد : « أو مثله يدخل عليه الخوف أو مثله يمد جباناً انكم وايم الحق لا تعرفونه حق معرفة وهو لا يتسم نفراً وبثلج صدرأ الا في ساحة القتال حين تحف به الهلكات من كل جانب . » ولا بد لنا من ان نكرر مع الجنرال غورغو والبارون فان وغبرها ان الامبراطور لم يوفر رجال الحرس في معركة موسكو الا حبا لمصلحة الجيش برهته وتلافيا لما يمكن وقوعه من استئفاف القتال أو للتحويل على العدو لاجل عقد صلح معجل . وعلاوة على ذلك مهما ساوره من الضعف لا يتمكن الضعف من الدنو من دهائه او التمرس بهمه فالامبراطور دبر بذاته مقتضيات المعركة الهائلة ومع ذلك نسب الفضل في الانتصار فيها الى قواده انفسهم الذين سلقوه بألسنة حداد . واليكم بعض فقرات مما دونه في هذا الشأن في مفكراته قال :

« سقيا لكم من ابطال صناديد يامورات وناي وبنياتسكي فرجع الفضل اليكم في إصابة الفخر الذي أصبناه وسيد خرتاريخ ذكر ما تركم العالية وما تيكم الخطيرة وسيد ذكر كيف حملتم على الحصون فدكتموها دكا وهجتم على المدفعيين وهم على ما افهمهم ففتكتهم بهم فتسكا وسيد ذكر ايضاً جرأة منبرون وكولا نكور اللذين لقيا حمامهما في ميدان القتال واعمال مدفعيينا العجيبة ومشائنا وقد كانوا عند اشتداد الخطوب عليهم يلتفتون الى قائدهم ويقولون له : قر عيناً وطب نفساً لجميع جنودك آلا على نفوسهم اليوم واعدين بالانتصار على اعدائهم وسينتصرون . » فهل تفتتل انباء مثل هذه الافعال الكبيرة الى الاجيال الآتية وتتغلب عليها الوشاية والسعاية والجناية

الفصل الثالث والعشرون

الزحف الى موسكو - احتلال الفرنسيين لهذه المدينة .

ولما انكسر كوتوزوف في موسكو مع ما كان عنده من الجيوش الكثيرة ومع ما كان عليه موقفه من المناعة لم يحجم عن الكذب على الشعب الروسي وعلى مولاه القيصر باذاعته في كل جهة وبكتابته للاسكندر ان النصر مال الى اعلامه . على ان تقهره لم ينطبق على هذه الدعوى فانه بعدما فر بعجلة من ميدان الحرب ناحياً موجائسك وبعده ما تظاهر بهيئة معسكات جديدة للدفاع ترك المدينة للفرنسيين في ٩ سبتمبر وسار مهولاً نحو موسكو وقد ترك في قبضة اعدائه عدداً كبيراً من الجرحى غير مضطهدة جراحهم . ونقل جرحى الفرنسيين الى الكنائس والاماكن العامة وجميع جرحى الروس الى بيوت التجار . ولما أخبر نابوليون ان بلاطوف قائد مؤخرة كوتوزوف يستعد للدفاع عن موجائسك قال : « فليفعل ما يشاء فانا نتأخر من جراء ذلك بضع ساعات مع جرحانا . » وانتهت الى الفرنسيين انباء عن امل كوتوزوف بتخليص موسكو وعن تشييده على بعد عدة فراسخ عن هذه العاصمة استحکامات يدفع بها هجمات الاعداء . وحاول رستيشين في نشرة اصدرها بتاريخ ١١ سبتمبر أن يشعر الشعب الروسي بان هذه الغاية كان يري اليها القائد الاكبر وهذه خلاصة نشرته : « انه سيدافع عن موسكو حتى آخر قطرة من دمه وهو مستعد للقتال حتى في شوارع المدينة . لقد أقفلت ابواب المحاكم فلا يقلقنكم هذا الامر يا قوم فيجب علينا ان نضم كل شيء في موضعه . فلسنا محتاجين الى محاكم لمحكمة السفاح واذا اضطررنا اليه ألقت من شبان المدينة وضواحيها هيئة حاكمة . فبعد يومين أو ثلاثة أيام أعطي العلامة فتسلحوا بالفتوس والمعاول واذا شئتم فخذوا معكم مذارى ذات ثلاثة رؤوس فليس الفرنسيون بأثقل من حزمة الحنطة . » وقال رستيشين في الغد : « سأطلق غداً للانضمام الى حضرة صاحب السمو البرنس كوتوزوف لاشاطره اتخاذ التدابير المساعدة لنا على إهلاك اعدائنا . وسنرسل ضيوفنا الى

حيث ... ونزق ارواحهم . وسأعود لتناول الغذاء وسنشرع في سحق هؤلاء
الخنوة . »

تخاطب حاكم موسكو وخطيب الكرملين الشعب الروسي بمثل هذه الالهيعة قبل إقدامه على العمل الفظيع الذي انذر به القيصر ذاته . الا أن كوتوزوف لا يسفك دمه حتى آخر قطرة منه للدفاع عن المدينة المقدسة من غزوة الاجنبي والمحافظة عليها فلم يخطر قط ببال ذلك الحاكم الشيخ مثل هذا الفكر وهذا الامر لم يخف على رسله بنين نفسه . فمقدوا عرى العزام على اجراء امر آخر وقد دنت الساعة لمباشرة فترك كوتوزوف في الليل بين ١٣ و ١٤ سبتمبر جميع المواقع امام موسكو وتراجع مسرعاً الى جهة الشرق ماراً بالسهم في المدينة العظيمة بعدما عزم على الدفاع عنها دفاعاً نسترخص في جنبه النفوس . وهانحن ننشر ما قاله كاتب من كتاب الروس في ذلك العهد : « كان اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر يوم حداد ابدى عند الروس الحقيقية فان الجيش غادر معسكر فيلي في الساعة الثالثة صباحاً ودخل المدينة من سد دوراغوميلوف واجتازها طولا وخرج من سد كولومنا ... وكان منظر موسكو يثير الاشجان من ربضتها ... فكأن الجيش الروسي كان يسير في جنازة بدلا من السير الى الحرب ... وكان الضباط والجنود يبكون من فرط الحزن وشدة اليأس . » ولما ابصر الفرنسيون ان الروس يرحلون معسكر فيلي على غرة شدوا وراءهم فانفذ امام الجميع مورات الشديدة الانتباه لوقوع الخطر والسريع التوثب متعقبا العدو . ووصل الى شوارع موسكو عند الظهر ومعه بعض نفر من الفرسان فلم يتبطه ذلك عن تعقب مؤخرة كوتوزوف . وما عثم ان كثر عدد رفاقه فأخذ اليه نابوليون غورغولا سماعه . وكان القوزاق يتباحثون في ذلك الحين وقد اشتد اللجاج بينهم فاحاطوا بالقائد الجريء المقدام وجعلوا يمتعجون من ملابسه الفاخرة وشجاعته النادرة ، وقد عرفوه حق معرفة في تلتست حين جاد عليهم بهدايا سنية ولما دنوا منه هذا المرة لم يرضن عليهم بالمعطايا فوهب زعيمهم ساعته وتبرع عليهم ايضا بساعة غورغو وبعض تحف كانت مع الضباط . ولما احرز اولئك الرابرة هذه الهدايا النفيسة بادروا الى مغادرة موسكو واللاحاق بالجيش الروسي . وبينما القوزاق يتراجعون وصل الى ابواب المدينة نابوليون وفريق من طلائع حرسه على ان انطلاق كوتوزوف الفجائي

بعد إذاعته على الملأ طرا انه مستعد كل الاستعداد للمقاومة ومفادته مدينة
متير مستودعا لغنى اوربا واسيا وفعله بسمولنسك ما فعله بها وإضرامه النار
في اجل الولايات الروسية بايدي الروس انفسهم جعلت نابوليون كثير التحفظ
والتردد فكان يسير على مهل للاستيلاء على فتحه الجديد . فوقف عند الحاجز
وامر بتفقد المدينة من الخارج وامر اوجين بان يحيط بها من جهة الشمال وبنياتسكي
من جهة الجنوب ودافو من الوسط ثم انه دفع الحرس في المقدمة بقيادة ليفيفر
وهذا دخل المدينة بانتصار باهر وحل في قصر الكرملين .

واجتاز نابوليون السد في نوبته وكان صوتاً داخلها ناجاه محذراً اياه من
السقوط في الوهدة الفاعرة فاها تحت قدميه وقائلاً له ان في موسكو الغاية التي
تقف عندها انتصارات الجيش الفرنسي والعلامة الاولى لهبوط السلطنة الفرنسية
العظمى . وخاف من توغله في المدينة نخطا فيها خطوات ونزل في فندق حقير
ولما كان من الغد لم تظهر ادنى علامة تدعو الى القلق فسكن مخاوفه وركن
الى حظه ونصيب فرنسا المتقارنين عنده ومشى بجرأة الى قصر الكرملين
ونزل فيه .

فهل أدرك نابوليون الغاية التي كان يرمي اليها في هذه الحرب ؟ وهل يلجىء
احتلال موسكو القيصر الاسكندر الى عقد الصلح ؟ هذا هو الرأي السائد في
الجيش الفرنسي وقد علل زعماءه النفس بادراكه فكانوا عند دخولهم موسكو
يصيحون بملء أفواههم : « هذه موسكو المدينة العظيمة وقد نسينا فيها كل
ما تمرسنا به من المهالك وكابدناه من العذاب » . فيا حبذا لو صحت الاحلام ولم
يعقب هذه الحماسة ماعقبها من الغرور المر . وكان الامبراطور يقول : « سنرى
ما يفعله الروس »

الفصل الرابع والعشرون

حريق موسكو — نتائج هذه النكبة — انتظار نابوليون
الفارغ اقتراح الصلح — تراجع الفرنسيين — نفس
المارشال مرتبه لقصر الكرملين

وماذا يبقى الآن على الثورة الفرنسية أن تفعله لتنجز ارتجاعها الخارجي
وتنقلها بانتصار من قطر الى آخر في القادة الاوربية لمعاقبة الارسطقراطية
والملكىة القديمة على مناوأتها لفرنسا الجديدة ؟
واذا كانت فيما مضى قد جعلتهما تكفران عن فشار برنسيك فهي الآن
تلتقم من عجرفة سوفاروف . وهي بعدما طافت بمثلها الاكبر في جميع العواصم
وأدخلت ابن الشعب العظيم الى جميع القصور الاوية اليها كبرياء العصور الغابرة
أنزلته في قصر الكرملين مقر القياصرة فصار الآن بطرس الاكبر يئن في نوبته
لوطء الدخيل كما أن من قبله لوطئه فريدريك الكبير وشارلكان
وهل أوشك أن يزول ما قضي على الثورة بأن عمله تحت كنف الراية
الامبراطورية وبذراع الرجل العظيم لتذليل الملوك ونشر مبادئ الديمقراطية
بين الشعوب ؟ وهل دنت مهمة نابوليون من النهاية ؟
سنجد الجواب على هذين السؤالين في الحوادث الآتي بيانها :
لابزال نابوليون مجسماً للذعر من المبادئ الثورية في أنظار الملوك الاجانب
وسيمثل الشعب الفرنسي معتبراً إياه ممثلاً لمبدأ المساواة . إلا أن هذا الشعب
لا تستغويه أميال زعيمه حين يراه ذاهلاً عما للمقدرة والدهاء من الحق الالهي
وهو ممثلاً الاعظم ولاهياً يبعث سيادات وهمية ثمة ثقل بالولادة وان الشعوب
الاوربية المتروكة بعد استرلتز وايانا ووغرام تحت رحمة حكوماتها القديمة
الرازحة تحت أثقال الضيق تنفثي بالملام على من كانت تفتقر الخلاص على يده
لاحجامة غير مرة عن وضعه موضع الاجراء مبادئ جعلته قوة الاحوال
والدهاء لسان حالها . وما عدا البولونيين الموضوع حظه تحت رحمة المستقبل



زواج نابوليون الاول وماري لويز

نجد الروس أنفسهم ينتقدون نابوليون لهاونه في نشر مبادئه بين ظهرانيهم . وقال نابوليون فيما بعد في مجلس الشيوخ : « لو أعلنت الحرية للارقاء لتيسر لي أن أهيج السواد الاعظم من الشعب الروسي على نفسه وقد طلبوا مني في كثير من القرى إعلان هذا التحرير بيد أن الحرب المعلنة على الروس سياسية وفضلا عن ذلك جعلتني حالة الانحطاط المقيم عليها هذا الشعب الكثير العدد أوجس خيفة من صيرورة إطلاق عقاب أولئك الارقاء وخيم المغبة على كثير من الأسر الكريمة . . . فالملاحظة الاخيرة تكفي لنبذي مثل هذه الاعمال ضد أعدائي » . وقال روبرت ولسن الكاتب الانكليزي : « لا يمتري أحد في أن اضرام سمبر الحرب الاهلية في روسيا أمر هين إلا أن بونا برت نبذ وهو في موسكو ما اقترحوه عليه من إثارة هذه الحرب » .

ومهما كانت حميدة الاسباب التي حدثت الماهل نابوليون على القاء مقترحات الارقاء الروس دبر أذنيه فقد أصبح مؤكداً الآن أن سقوط نابوليون لا يجر وراءه سقوط الثورة وتراخي أسباب المبادئ الشعبية . ففي خلقه وموقفه نفور لا بد منه مقضي على التاريخ أن يقدره حق قدره . فقد أصابت الديمقراطية على يده كل ما أملت اصابته وذلك بمخالطة أبنائها الأشداء لجميع الشعوب في الشمال والجنوب من قادس الى موسكو

ولكن اذا كان نابوليون قد أوشك أن يفرغ من تمثيل دوره السياسي واذا كان قد دنا من غايته الثورية فكيف تكون حال دور الفتوح الذي يمثله ولما كانت العناية حافظة لنابوليون ومعتنية بحظه فانها لم تفعل ذلك الامر رغبة في اصابة الفتوح الكثيرة بل رغبة في تعزيزه أركان الحضارة وال عمران وقد صانت في شخصه آلة النهضة الاوربية اكثر مما صانت فيه منشئ الاسرة المالكة والظافر في عدة معارك ، وقد تكون قد أعوزته معونة السماء حين لم يبق عليه أن يفعل شيئاً في سبيل العناية لتحقير الملوك وتهذيب الشعوب . على أن السماء بعد ما صافته ردحا من الدهر لاجل التحرير العام أزمعت أن تجعله يتخذ خطة الحياد بين الماهل الحاكم بموجب طريقة الحكم الجديدة والملوك أصحاب الطريقة القديمة فألم الوهن بدهاء الرجل المعجيب ومرت أيام شؤم على سيادته وأذنت بتغير الاقدار عليه .

وها نحن نذكر ما فعله الروس :

قال كاتب من شهدوا تلك الحوادث : « توهم نابوليون أنه فعل كل شيء لتلافي نزول النوازل وإلزام الملمات : فكان ينتظر نشوب معارك دموية وطول الإقامة في تلك الديار الشاسعة وشتاء شديد الزمهرير ونكبات شتى . . . وكان استيلاءه على موسكو وما تركه خلفه من الجنود البالغ عددهم مئتين وستين ألفاً جعله يهزأ بما قد يطرأ عليه من المصائب . . . ولكنه لم يكد يستقر به المقام في الكرملين حتى شب حريق هائل : فان ما لم يستدركه وما لم يستطع تداركه كان إحراق الروس أنفسهم لمدينة موسكو فخرمه ذلك الامر العنيد المستندة اليه جميع تدابيرهم .

وحدثت فور وصول الفرنسيين حرائق افراذية فنسبت أسبابها الى تففل الجنود . ولكن هبت الريح بعنف شديد في ١٦ منه فعم الحريق . وكان قسم كبير من المدينة مبنية مساكنه بالخشب وفيه مخازن كثيرة تحتوي خيراً وزيتاً ومواد ملتهبة . ولم يكن للمضخات من أثر فعالج الفرنسيون على غير جدوى قطع ألسنة اللهب .

وارتفعت أعمامير من الدخان على مناكب الريح وكان ابتداء النار في الجهة الشرقية من المدينة فامتدت الى جميع انحاءها ناشرة في كل مكان روائح كريهة من الزفت والكبريت . وكان اللهب يسير وراءها بسرعة متنقلا من بيت الى بيت ويزداد قوة بالتهامه ما يعثر عليه ويمجري من أقصى المدينة الى أقصاها . وبينما ألسنة النيران تندلع بشكل هائل كانت حرائق أخرى جديدة تحدث فتجري منها جداول من السعير وتقصدها الريح الهابة فتذهب بها الى حيث لم تكن النيران السابقة قد انتهت اليها . فكان الأرض انشقت وأخرجت من أحشائها كل ما فيها من النيران . وانتشر الحريق بشدة ما وراءها من مزيد ولم تسكن النار تعرف جهة تنحوها او حدوداً تقف عندها فزارت وزجرت كأنها امواج البحر الهاتجة في ابان هبوب العواصف وافضت الحال بتلك المدينة الشقية الى الغوص في محيط من اللظى .

ولم يبق في الاماكن المشيدة فيها المنازل والقصور سوى رسوم تدل

جدران الأجر على موقعها وكانت الجدران بمثابة هيكل عظام الجسم مدينة موسكو العابثة بها أيدي النيران .

وشاهد نابوليون من نوافذ قصر الكرملين النكبة الهائلة .. ويروي التاريخ أن سيديوز. لما شاهد النار المضطربة تلهم قرطاجة ساوره غم شديد لتصوره انه قد يصيب رومية يوماً من الايام ما أصاب تلك المدينة المحترقة. وكان نابوليون كثير التفكير واجماً... وبات الجيش كالمنزل به وكانوا يصيحون في قصر الكرملين « انظروا كيف يحاربون فقد ساء ما توهمناه عن حضارة القوم في بطرسبرج فهم لا يزالون من البربر المتسكعين في ظلمات الهمجية . »

وتحلى لنابوليون حينئذ ما صحت عزائم الروس على عمله فانه بدلا من أن يقدم اليه مندوبون يطلبون منه عقد الصلح القى في موسكو عصابة عهد اليها في احراق المدينة وتطويقها بنطاق من السمير . ويمكنه الآن أن يكرر ما قالته عقيلة ستال وهو : « انه ليس عند أمة من الامم المتمدنة مقدار ما عند الروس من المتوحشين . » وكان عدد الذين فوض اليهم رستبشين إجراء مقاصده نحو تسع مئة موزعين في الأقبية ومأمورين باضرام النار في أوقات معينة . وقد فوجئ بعضهم والمشاعل في أيديهم فاعترفوا بكل شيء مما دل على اشتراك رستبشين في الجريمة الفظيعة بيد أنه لم يقدم على اقرارها الا بايعاز من مولاه القيصر فلا يقل أن أحداً من الروس يجترأ على تحمل أعباء المسؤولية الكبرى من دون أن يستند في عمله هذا الى أمر سام .

ودنا اللظى من قصر الكرملين فتشقق زجاج النوافذ ولم ير العاهل نابوليون بدا من النظر في أمر سلامته والفرار من العطب الذي يهدده . فتردد في بدء الامر في التراجع لئلا يكون ذلك شؤماً يتطير منه . وقد شعر بذلك ولم يشأ أن يتقهقر أمام تلك الهمجية بعد ما قهرها في أكثر من عشرين معركة وهزمها أمامه مسافة تقرب من مئتي فرسخ وتعقبها مجتازاً أوجل الولايات الروسية . ودلوه على غير طائل على الالهيب المتصلة أسننته بساحة المسلحة وقالوا له على غير جدوى ان المخاطر المخوف بها شخصه تقذف الذعر على المدفعيين والجيش برمته فلم يحسن سوى الخيبة لاريبوا سيار وليفير وبسيار واوجين من بسط واقع الحال له وتوسلهم اليه بالابتعاد عن مكان أصبح فيه الخطر أدنى من حبل

الوريد منه . وبلغ نابوليون في الكرملين أعلى ذروة من ذرى المجد ووصل اليه بعد ماداس جث مئة ألف مقاتل من جنود كوتوزوف وأنف من أن يقال عنه أن عصابات من الصعاليك المخربين هزموه وظهروا عليه واضطروه الى الحرب . وهل يصدق أنه بعد مارفعه النصر الى المنزلة العالية يهوي الى الوهدة البعيدة القرار ويتقهقر الى الوداء من دون أن يظفر به الاعداء . فلم يطق صبراً على هذه الحال وابتغى استئزال الهمجية في ابان تخدم مواقعها ومصارعة الاقدار حتى النهاية واطهاره بالبرهان لاعدائه المتوحشين ان في نفسه الكبيرة قوة تفوق ما في مكايدهم الشيطانية من القوة . وظل عدة ساعات في قصر الكرملين وعوامل الافكار تتجاذبه من دون أن يرق جانبه أو تطير نفسه شعاعاً . . . الا أن حياته التي عرضها للمتالف لم تكن ملصكا له بل للجيش وفرنسا فاذا أصر على البقاء في القصر غير مبال بالسنة النار المندلعة استهدفت تلك الحياة لنبال العطب . وقد أفضى الامر به الى الخضوع لاحكام الضرورة والانتقاد لمقتضياتها . وجاء برتيه وكان قد تسنم سطحاً من سطوح الكرملين وأخبر العاهل أنه لم يبق له دقيقة واحدة يضيعها سدى لان السعير يحيط بالقصر من جميع جهاته فلم يلقي نابوليون مندوحة عن اتمام رغائب المقرين اليه : ففصل عن القصر مارا بين اللظى وعم قصر بروسكوي في ضواحي موسكو على طريق بطرسبرج .

وكان خروج نابوليون من موسكو بعد ظهر اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر ولم يكد يستقر به المقام في مقره الجديد حتى أطلق لافسكاره العنان في مجال التأمل بالنكبة الفادحة التي دهته وأفسدت عليه كل ماهيأه من التدابير فكان أول شيء خطر له الزحف الى بطرسبرج رجاء أن يصيب فيها صلحاً لم يتمكن من اصابته في موسكو . وقضى ليلته وهو يخطط على المصور الجغرافي الطريق المتقضي عليه انتهاجه ولكنه قبل اقدامه على العمل فكر في سبر أفكار حاشيته واستطلاع طلع آرائهم في الامر فرأى النذر منهم بوافقونه على مبتغاه . ورأى البرنس أوجين وحده رأيه في هذه القضية واستعد للزحف بطلائع الجيش وحدته شجاعته التي لا يفل حدها على التهليل لما صمم عليه نابوليون بمزعة لا يدنو منها الوهن . الا أن القواد الآخري الذين لم تكن عزائمهم أضعف من عزيمة أوجين أصبحوا شديدي التروي في الامور من جراء النوازل الاخيرة

المهمة بهم . فالذين هالتهم في بدء الامر الحرب في هاتيك الاقطار السحيقة لم يرقهم تمديد أجلها والتوغل في الاقاليم الشمالية لمسكافة الزمهرير فماد اليهم ما ساورهم من المخاوف في دننزيك ومرس بهم من الذعر في سمولفسك . ولو كانوا في غير هذه الاحوال لما قويت الاهوال على معارضة اغراض المولى الاكبر ولكنها تغلبت في بتروسكويي على عزائم نابوليون . وقال المسيو فان في هذا الصدد . « تمكنوا من حمله على الارتياح للمرة الاولى في حياته بتفوق نظرائه الصائبة . » وفضلا عن ذلك شعر بثقل أوقار المسؤولية الناجمة عن اضراره مواعد حرب ثانية هائلة . على انه لم يقنعه القائلون انهم لم يعرضوا عن الزحف الى بطرسبرج الا أملا بعقد الصلح في موسكو فقال لهم : « لا يخطرن على بالكم ان الذين شبوا النار في موسكو يضطرون الى المجيء اليها بعد أيام لاجل عقد الصلح . فاذا كان الحزب الذي أقدم على هذا العمل لا يزال ذا سطوة في حكومة الاسكندر كان كل ما نعملون النفس به من الآمال برقا خلبا » ومع بعد نظره في المستقبل وصدقه كما حققته الاحوال جعل ماله من الافضلية المتسلطة على كل شيء تدعن لاراء قواده . وقد قال مؤلف مخطوطات سنة ١٨١٢ : « ياليت لا يسقط من ذاته بعد قبوله الهبوط ومجاعة كبار رجاله على آرائهم فقد خطا الخطوة الاولى وقضي الامر . »

وبقي نابوليون في ضواحي موسكو . ولو كان في شهر أغسطس لظل مصراً على رأيه وسير الجيش على بطرسبرج ولكن كان فصل الصيف قد أوشك أن ينتهي فجعلته هذه الملاحظة يجاري رفقاءه الاقدمين في القتال على آرائهم . وخذت أنفاس النار في موسكو ونجا قصر الكرملين بعد ما كان الدمار يهدده وعاد اليه الامبراطور في صباح اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر . وغضت المدينة بالنهايين على اختلاف جنسياتهم فاعادت عودة العاهل النظام والسكينة اليها . وبينما هو مار برصيف الموسكوف ابصر مأوى اللقطاء فقال لترجانه الخناص : « امض من قبلي وانظر ماذا جرى لاولئك المساكين الصغار . » فاطاع الترجان الامر ولما وصل الى المأوى علم ان الاولاد الذين فوق الثانية

عشرة من العمر أبعدهوا الى نرني تغورود وان الذين دون الثانية عشرة تركوا تحت رحمة النيران ولولا عناية الامبراطور حين ارسل اليهم في الليل الذي بين ١٤ و ١٥ من الشهر فصيلة من الجنود لهلكوا على بكرة ايهم . فقال له مدير المأوى : « حماية مولاكم لنا نعمة من السماء فلولا عطفه علينا مع ضعف أملنا بذلك لاصبح مأوانا طعمة للنار وفريسة للنهابين . »

وسار الشيخ الروسي بالترجمان الى الرده وعرف الاولاد به قائلهم : « ان الامبراطور أرسل الينا هذا الفرنسي . » فكان هذا الكلام كافيا لتحريك ساكنات الشكر في أفئدة أولئك الاحداث المنكودي الطالع فتسابقوا الى الوقوع على مندوب نابوليون وعانقوه وهم يصيحون قائلين : « ان امبراطوركم عنايتنا . »

ولما سمع نابوليون من فم مندوبه تفصيل استقبالهم له تحركت أوتار شفقتة وامر لساعته بمدير المأوى والسمه طوطمين أن يمثل لديه . فاستأذن منه المدير بأن يبعث الى والدة جلالتة برسالة يخبرها بها كيف سلم مأواه من النار . وفي أثناء محادثة الساحل للمدير اندلعت ألسنة اللهب في ضفة النهر الاخرى نخشي نابوليون ألا تكون النار قد خدت بثة . فتاب اليه حنقه عند ذلك المشهد فذكر اسم رستبشين وقال : « لحا الله هذا التعاس فانه اجترأ أن يضيف الى ولايات الحرب الفظيعة حريقا هائلا دبره على مهل وأضرمه بيده ! قبح الله هذا البربري فانه لم يكفه أن يهمل أمر الاحداث المساكين الموكل اليه أمر العناية بهم والوصاية عليهم وعشرين ألفا من الجرحى وجميعهم مقضي عليهم بالهلاك بلا رحمة ولا رأفة . وهو مع ذلك يزعم انه يسلك مسلك الرومانيين الاقدمين . فتبا له من وحش ضار بليد ! »

ولما كان من الغد جاء المسيو دي طوطمين ودفع الى الامبراطور الكتاب الذي استأذن منه أن يكتبه الى محامية اللقطاء النبيلة . وقد تضمن ذلك الكتاب تمهيدا للصالح وختم بالعبارات التالية : « مولائي ان الساحل نابوليون يتن لرؤيته حاصمتنا تكاد تدمر برمتها بوسائل ليست على زعمه من الوسائل المستعملة في حرب أصولية . وهو معتقد انه اذا ما تدخل أحد بينه وبين طاهلنا

العظيم الاسكندر عادت صداقتهما القديمة الى ما كانت عليه من قبل وتقلص ظل نكباتنا وشدائدنا . »

ولم يكتف نابوليون بهذه التظاهرات التهديدية للسلم الموجهة بمعرفته بل كتب هو نفسه الى العاهل الاسكندر في ٢٤ سبتمبر مع الميسو جا كوليف المنطلق الى بطرسبرج . وفي ١٤ أكتوبر صمم على فتح أبواب المفاوضات السلمية بطريقة رسمية سرية فأرسل حاجبه لوريستون الى محل أركان حرب كوتوزوف . الا ان هذا أعلن انه لا يستطيع الدخول في المفاوضات ولا السماح للهندوب الفرنسي بالتقدم الى الامام قبلما ينهي اليه تفويض بذلك الشأن من مولاه فأرسل البرنس ولكنسي الى القيصر لذلك الغرض .

وفي أثناء المفاوضات التهديدية وتسيير الرسائل الى أما كن بعيدة مما يقتضي وقتاً طويلاً أو شك أن ينفذ ما تمكنوا من تخليصه من النار من المؤن الوفيرة التي كانت عندهم وعمل الجيش الروسي أعمالاً كانت يعتمد من ورائها حصر الفرنسيين في موسكو ولم ين فرسان القوزاق عن مضايقتهم من كل جهة ودنا دخول فصل الشتاء قبل أن يتيسر لهم فتح أبواب المفاوضات .

وتحقق لنابوليون ما أنبأ به قواده أي أن الذين شبوا النار في موسكو لم يضطروا الى الهجاء اليها بعد أيام لعقد الصلح . على انه أطال مدة اقامته في قصر الكرملين وجعل يعنى بادارة الشؤون الداخلية في موسكو والبلاد المفتوحة ويتدخل في الشؤون العسكرية الطفيفة ويدبر حركات الجيش كبيرها وصغيرها ويتولى بذاته ادارة سلطنته وهو بين تلك المشاغل المختلفة وفي تلك الاقاليم السحيقة . ومضى شهر من الزمان على دخوله عاصمة القياصرة القديمة من دون أن يصيب نتيجة من كتاب الميسو دي طوطامين والرسالة المفوض الى الميسو دي جا كوليف أمر ابلاغها والرقم الذي حمله البرنس ولكنسي الى القيصر وحضور لوريستون الى معسكر كوتوزوف .

وأصم العاهل الاسكندر أذنيه عن سماع المقترحات السلمية وذهل عن كون القسم الافضل من سلطنته قد غزاه الاعداء ودمروه تدميراً وحول أنظاره من قصر الكرملين الى ندوة سان جيمس بلندرة الواردة اليه منها ترى الهنشات والتشجيمات . وفضلاً عن ذلك بنى الاسكندر تصرفه على التعقل : فانه أراد

الحرب واستعد لقبول كل أهوائها وآفاتنا رغبة بسيادة الطريقة الاوربية القديمة أعني بها الطريقة البريطانية على سياسة الثورة وزعيمها . ولم ينبذ المسير الى الغاية التي قصدها بسبب ما جرت اليه الحرب من البلايا فان أوروبا القديمة التي كان هو لسان حالها لم تطلب منه الا البقاء صامتا بازاء الغزاة المخيمين في أرض موسكو المنبعث منها الدخان ومنتظراً بقلق اقتراح الصلح في وسط ذلك الانتصار . ولم يتردد الاسكندر في الامر فان رفضه تولي المفاوضات مع الفرنسيين بشأن الصلح كان كاسلري قد أوعز اليه به على يد رستمشين .

وكانت حالة الجو تشدد والزمهرير يتعاظم والحكومة الروسية تماطل في ارسال الجواب الى نابوليون عن الصلح وتتمادى في معاداته . وغشى الثلج في ١٣ اكتوبر جميع تلك الاشياء فقال نابوليون : « اسرعوا في تهيئة معدات الشتاء فيجب أن نحمل مراكرنا الشتوية في عشرين يوماً » . وفي الغد كتب الى مورات موعزاً اليه باستكشاف طريق موجايسك وأرسل الاسلاب في ١٥ منه بخفارة الجنرال كلاباريد وقت ما كانوا يسبرون المضى والجرحى الى سمولنسك ولم يكن ثمة بد من اعطاء علامة الرحيل . وقال نابوليون في مفكراته : « لا يسمى هذا الفعل تراجعاً فالجيش كان منتصراً وكان يستطيع الزحف الى بطرسبرج وكالوغا وطولا بعد ما سمى كوتوزوف على غير جدوى أن يصدنا عنهم . . . ولم يعد جيشنا الى سمولنسك لانكساره أمام أعدائه ولكنه نوى أن يقضي فصل الشتاء في بولونيا » .

وكان الجيش الفرنسي في واقع الحال منتصراً وقد بقي منتصراً حتى آخر دقيقة من احتلاله لموسكو فظفر ملك نابولي بالروس في ونكوفو في ١٧ اكتوبر وفي الوقت عينه دفع غوفيون سان سير هجمات وتجنستين على بولوتسك . ولم يجهل نابوليون انه سيكون لتقهقره وقع سيء في أوروبا من جهة سؤدده الادبي ومن جهة التفوق الذي أصابه بفوزه ودهائه حتى ذلك العهد على أصدقائه وأعدائه على السواء وعلى الحكومات والشعوب وقد خذله حلفاؤه في القسطنطينية واستكهم وان حلفاءه في فيينا وفي برلين ما عدا تقاعدهم عن مناصرته سيزداد تخلفهم عن معاضدته حين ينتهي اليهم ان الفرنسيين تركوا فتوحهم في روسيا ليعودوا الى بولونيا . ومع ذلك لم يكن له الخيار في المسألة ولم يبق له أدنى أمل



الامبراطورة ماري لويز

بالصلح . وابتدأ برد الشمال ينذر بمحلوله وخرج نابوليون من موسكو في ١٩ أكتوبر سائراً على طريق كالوغا بعد ما وكل الى المارشال مرتيه قائد المؤخرة نصف الكرملين .

وتلقى المارشال من العاهل أوامر أخرى أقل عنفاً فان نابوليون قال له . « لا ينبغي الا أن أوصيك بمن بقوا عندنا من الجرحى فأركبهم مركبات الحرس الفتيان ومركبات الفرسان وكل ما تجده من المركبات . وقد كان الرومانيون ينجحون أ كليل السلام لمن يخلصون الوطن فأنت ستستوجب مكافأة عظيمة على إنقاذ المنكودي الطالع . فيجب عليكم أن تركبهم جيادكم عينها وحياد جميع الناس الذين عندكم . وهكذا فعلت في عكاء . فابتدئوا بالضباط فعاونهم وفضلوا الفرنسيين على غيرهم . واجمع القواد والضباط واجعلهم يشعرون بكل ما تقتضيه الانسانية في مثل هذه الحال » .

على أن هذا التراجع وان لم يكن يدل على شيء من الشؤم جعل الجيش الفرنسي يظهر بمظهر جديد وجعل الناس يتطيرون من مصيره ويعملون الروية في قلب الاقدار وتحول وجوه المعالي البشرية . ان نابوليون لا يزال ظافراً ولكنه يتراجع أمام المغلوبين وقد دخل عليه الاضطراب في سيره بما اضطر الى أخذه معه من المواد وجره معه مخازنه ومستشفياته على مركبات كثيرة . وقال المسيو فان في هذا الصدد : « كنت ترى خطأ طويلاً من المركبات المحتشدة حولها كل فرقة . وقد استخدموا كل ما وجدوه من وسائل النقل في موسكو وضواحيها : فوضع فيها كل واحد منهم حصته من المؤن والملابس ظاناً انه يبقيا لنفسه حتى يصل الى غاية تراجعه . وكانت النساء والاولاد وبعض الفرنسيين والروس أنفسهم والالمان المقيمون في موسكو يفضلون الانطلاق معنا على البقاء في موسكو وانتظار عودة القوزاق اليها فأصابوا ملجأ بين أمتعتنا » .

وبرحت موسكو القصائل الاخيرة من الجيش الفرنسي في ٢٣ أكتوبر في الساعة الثانية صباحاً ونسف قصر الكرملين بعد ساعة من الزمان وقد فوض أمر إشعال الذبالة المتصلة بالبراميل الى المسيو أوطون زعيم فصيلة من فصائل المدفعية البحرية . وكان من وراء الانفجار الناشئ عن اشتعال تسعين

ألف كيلو غرام من البارود تهدم جميع أبراج القصر والمسلحة والجسر ومستودع
البنادق وجميع مواد المدفعية الروسية . وكان الجنرال ونزنجيرود قد أسرع في
اليوم السابق في المجيء لعله يدخل موسكو زاعماً على غير طائل انه موفد
للبحث في شروط الصلح فلم يصب من اسرعه الا التحرق لمشاهدته وهو
أسير دمار مقر القياصرة القديم . على أن هذه المدينة المقدسة لم تلتته من
مشاهدة الفرنسيين المحتلين يهجرونها حتى سقطت فريسة في أيدي القوزاق
والنهابين .



الفصل الخامس والعشرون

نتائج تراجع الفرنسيين — نابوليون في سمولنسك
مؤامرة مالاي

وعلى نابوليون نفسه بقضاء فصل الشتاء عند حدود ليطوانيا فكتب الى
الدوق دي باصانو الباقي في فيلنا ما يأتي : « حوالي الاسبوعين الاولين من شهر
نوفمبر أصل بمجيشي الى المربع الذي بين سمولنسك وموهيلوف ومنسك
وويتبسك . . . وهذا الموقع الجديد يقربني في وقت واحد من بطرسبرج ومن
فيلنا . وسأصير في المعركة القادمة أقرب من الوسائط والغاية التي وصلت اليها
الآن بمشرين مرحلة . . . وفضلاً عن ذلك تختلف في مثل هذه الحوادث الوقائع
كثيراً عما كان مقدراً وقوعه »

ولسوء الحظ ستحقق الحوادث في زمان متأخر جداً الحكمة المبني عليها
هذا الفكر . ولما انتهى الى كوتوزوف خبر حركات الجيش الفرنسي غادر بمجيشه
طاروتينو وخف الى مالوجاروسلاو وتزليسبق اليها الجيش الفرنسي إلا أن البرنس
أوجين كان قد خيم فيها . فأراد القائد الروسي أن يستفيد من تفوقه في العدد
على أعدائه وأمر بالهجوم عليهم وكان ذلك في صباح اليوم الرابع والعشرين من

شهر أكتوبر واتفق أن فرقة دلزون كانت أول فرقة من الفرنسيين هجموا عليها فثبتت في موقعها ودافعت دفاع الاسود ولكنها أصيبت بفقد قائدها فبادر غلمينو رئيس أركان حرب الفرقة الى تولي القيادة خلفاً له . وكان الفريقان يتقاتلان تقاتلاً شديداً بحيث أن المدينة سقطت سبع مرات وكل مرة كانوا يسترجعونها . ووقف الماهل على دفاع من الارض أبصر منه جميع الحركات الحربية . فوقمت رحى القتال عند وصول فرقتي جيوار وكبان . ولما قنط كوتوزوف من الاستيلاء استيلاء نهائياً على مالوجاروسلاوتز والنزول فيها تراجع ليحتمي طريق كالوفا وقد عزم على سدها في وجه الفرنسيين ولو ساهم ذلك شهر معركة جديدة

وعاد نابوليون في المساء الى مركز أركان حربه في غوردينا فلم يلق غير كوخ يأوي اليه . ولما انتهى اليه مانوى كوتوزوف صممه وكان هو يهيمه المضي الى كالوفا عقد عروة العزم على القتال في الغد والعبور على جثث أعدائه ولكن قواده رأوا غير رأيه فقد كانت معركة اليوم السابق هائلة وخيم أوجين ودافو فوق اكاداس من جثث القتلى في الموضع المبنية عليه مالوجاروسلاوتز التي باتت طعمة للنار ولم يبق منها سوى الانقاض . وقضت الحكمة بالاسراع في الوصول الى المحلات المعينة لقضاء فصل الشتاء وتجنب كل ما من شأنه إضعاف الجيش . فيجب والحالة هذه المبادرة الى أخذ طريق سمولنسك المارة بويازما والباقية مفتوحة وترك الجبرال الروسي يستعد على غير طائل لقطع طريق كالوفا وسدها في وجه الفرنسيين . هذه كانت لهجة المقربين من نابوليون . فاستشاط الماهل غيظاً عند سماعه مثل هذا الكلام وصاح قائلاً: « انتقهتر أمام كوتوزوف؟ انتقهتر أمام عدوقه رناه وبات وهو لا ينتظر إلا علامة للتقهتر؟ »

ودلت الاخبار الواردة الى مركز أركان الحرب على أن كوتوزوف يؤثر التصدي للجيش الفرنسي ومحاربتة على ترك مواقعه والطريق الذي نوى سده في وجه الفرنسيين

ولم يقتنع نابوليون بهذه الاخبار فشاء أن يتحقق كل شيء بذاته وامتنع جواده في ٢٥ منه عند بزوغ الفجر وسار لتفقد ساحة القتال ومعرفة المكان النازل فيه العدو وما هيأه فيه من معدات الحرب . ولما وصل الى جواد

مالوجاروسلاوتز وقف مبهوتاً حين سمع نجاة صياح القوزاق الحربي . ولكنه ما علم ان ثابت اليه رباطة الجأش وقد هال رجاله خبر قدوم بلاتوف اليهم . وكانت الحال تقضي بان يتخذ العاهل وحاشيته تدابير الدفاع . وكان أمام الجنرال راب في ذلك الموقف فرصة جديدة يتم بها عن أسرار شجاعته فقهر وانهمزم وجاء الى نابوليون وقد أثخن جراحا . وقال راب فيما بعد في مفكراته :

« ولما شاهد نابوليون جوادي ملطخاً بالدم سألتني هل جرحت فقلت له اني أصبت ببعض رضوض . حينئذ قهقه ضاحكاً ممساً أصابعه » . وكفى وصول المارشال بيسار ببعض فصائل من فرسان الحرس لاعادة النظام الى عساكر الفرنسيين وتزيق شمل القوزاق . واستأنف العاهل حينئذ مسيره بكل سكينه فانهى الى الموضع الذي اشتبك فيه القتال في اليوم السابق . فاستقبله البطل الشاب الذي تعلم منه نيل النصر فتأثر جداً من الخسارة الفادحة النازلة به وكانت ثمناً لانتصاره . فماتقه العاهل وقال له : « يا أوجين ان هذه الممركة تعد من أفضل أعمالك الحربية » .

وجاءت زيارة نابوليون لساحة الحرب مصداقاً للآراء المبسوطة لديه فعمل الروس على تشييد المعازل وصحت عزائمهم على سد الطريق في وجه الفرنسيين . وعلاوة على ذلك كان دم الجندي الفرنسي يزداد قيمة يوماً بعد يوم بعدما جرى غدراناً في أرض مالوجاروسلاوتز . وكان عند نابوليون دلائل كثيرة على هذا الامر ولم يجد مندوحة عن الانتقال الى آراء الملحنين عليه بالتراجع في القريب العاجل الى سمولنسك بطريق موجايسك وويازما المتفق على سلامتها . إلا أنه لم يقرر فكره على هذا الامر إلا في الغد في ٢٦ منه حين نجا اليه ان كوتوزوف تقهر فلم يخش حينئذ نابوليون من أن ينسب اليه التقهر من وجه أعدائه وقد صار يستطيع من الآن أن يعدل عن الزحف الى كالوغا من دون أن يعرض شرف جيشه لسهام العدل

وتقهر من غوردينا الى بوروسك ونزل في فيريا في ٢٧ منه ووصل في الغد مساء الى قصر اوبنسكوي ووقف في ٢٩ منه على مقربة من دير كولتسكوي فلقى جرحى لم يتمكنوا من نقلهم لقلّة وجود مركبات للنقل مع انه كان قد أصدر في هذا الشأن أوامر معجلة وصريحة فصاح حينئذ بصوت جهوري : « فلتنقل

كل مركبة واحداً من هؤلاء العائري الجسد . ولم يكتف باصداره الامر .
بالابتداء بمركبته بل أراد أن يتولى ريب ولرمينيه طبيبه وجراحه الخاصان
مشاركة نقل الجرحى بموجب الاصول الصحية

ووصل الى فجوات في مساء ذلك اليوم فقضى فيها أربعاً وعشرين ساعة ودخل
ويازما في ٣١ منه فلقني فيها رسائل واردة اليه من باريس وفيلنا وتقرين من
المارشالين فكتور وسان سير .

على أن نابليون المعلن النفس بأمل الالتحام بدوق دي بلون في هولنسك
والمعتمد على حركات هذا القائد الحربية على مثال اعتماده على حركات مكدونال
وسان سير وشوارتزنبرغ للمحافظة على حرية مؤخرته وجناحيه ودحر
وتجنستين في جهة الشمال واضطراره الى المسير نحو بطرسبرج وصد أمير البحر
طشيطشاغوف في الجنوب وكان أمير البحر هذا قد خف من ضفاف الدانوب الى
الديابر بعد عقد الصلح مع الدولة العثمانية فلم أن فكتور لم يكن في هولنسك
وان سان سير لم يكن في بولوتسك وأن مكدونال اضطر الى التقهقر الى كورلاند
ولم يكن ميسورا له أن يفاوض الافيلنا وأن شوارتزنبرغ ترك أمير البحر الروسي
يمربينه وبين الجيش الفرنسي . فترى والحالة هذه أن الحظ بعد ما كس سير
الجيش الفرنسي على أثر حوادث سياسية لا استطاع تداركها ما كس أيضاً
تراجعته بحوادث حربية غير منتظرة . فقد راقه أن يفسد على الرجل العظيم
تدابيره ويحبط آماله بعد ما كان في غابر الحين يغمره بالآثمة ونعمائه ولكن لم
يذن عناؤه فتملأ فانه ولو تمكن يوماً من الايام من نزع السلطة من قبضته فلا
يستطيع أبد أن يمس دهاءه ومجده .

وأقام الماهل يومين في ويازما وفصل عنها في ٢ نوفمبر عند الظهر ونقل مركز
أركان حربه في ٣ منه الى سلوكوفو وكان أوجين ودافو وناي في ذلك الحين
يدفعون في ويازما وعلى طريق مدين هجمات ميلورادتز ورفسكوي ويحافظون
على النظام في القياقي الاخيرة الفرنسية المتراجعة . فلو هجم كوتوزوف على
الفرنسيين في ويازما لصبر موقفهم محفوفاً بالمطب الا أن بوترلين يقول أن
تباطؤ القائد مارشال الروسي ناشئ عن خوفه من حمل الفرنسيين على
القتال قتالا غنياً يدفعهم الى القنوط ويلجئهم الى رد هجائهم رداً هائلاً

وقد سبق لهم أن ردوا مثل هذه الهجمات مرات كثيرة فلقوا في خلالها النصر او الموت .

وكان من نتيجة معركة ويازما للفرنسيين ابطاء حركات الروس الذين كانوا يتعقبونهم فلم تعالج المساكير المنظمة التصدي للجيش الفرنسي المنتهق . وظل القوزاق من دون سواهم يزعمون المؤخرة المؤتمرة بأوامر المارشال ناي . وقد اخترعوا طريقة لا بعمادهم وفت بالفرض المقصود . وقال الجنرال غورغو : لما كنا نفرغ المركبات ونهم بتركها كنا نترك فيها ذبالة طويلة موقدة فيبصر القوزاق الدخان خارجا من الصناديق ولا يجسرون على الدنو منها خوف وصول الاذى اليهم على أثر الانفجار ويضطرون الى التأخر .

وانتهت الى نابوليون وهو في ميكا ليوسكا رسالة من الدوق دي بلون يخبره فيها انه بعد التعامه بفيلق غوفيون سان سير انسحب الى جهة صنو ولم يزحف الى وتمنستين لاسترجاع بولوتسك . فكان لهذا النبأ وقع سيء على الامبراطور فكتب الى المارشال فكتور موعزاً اليه بالاسراع في الزحف الى وتمنستين . وفتح بولوتسك .

ولم يصب نابوليون غرضه من الاوامر الصادرة منه الى فكتور في هذه المرة . أيضاً فظل ماسيره اليه من التعليمات عقيماً . وعلق عليها أهمية عظيمة وأصر على وضعها موضع الاجراء بكل تدقيق بحيث أنه كررها في الليلة عينها على يد حاجبه الاكبر . الا أن المعين الهائل الذي عول عليه الروس وسخرته الاقدار لتذليل الاعلام الفرنسية شن في تلك الليلة غارة شعواء على معسكر الفرنسيين فهبت عليهم ريح صرصر سافت أمامها العذاب والموت الاحمر . ولما طلع النهار وهماوا باستئناف المسير وجدوا ألوفاً من الخيل ميتة من شدة البرد وأجهز الجند على من نجوا من زمهرير الليل فضلت مركبة الامبراطور الخاصة عن قصد السبيل في مجاهل تلك الثلوج .

ودنوا من سمبولنسك فقال شاهد عياني : « ما أفظع الحالة التي دفعت بها ربح الشمال الجيش نحو تلك المدينة افزالت من الثغور ابتسامة المدهانين المتعودين التلحق للامبراطور وأكفهرت جميع الوجوه ولم تبق على هيئتها الا النفوس الكبيرة التي لم تلتحف بمطارف الرياء ولم تبالي بالبرد والارق . أما نابوليون

١٣٣٣

فكان من جراء هذه النكبة الشديدة يصارع بنفسه الكبيرة حدثان الدهر
وتصاريفه .

ودخل نابوليون همولنسك وقد وعد عساكره بان يجعلهم يستريحون فيها
فلم يجد فيها فكتور ليعضد السحاب جيش كان الشتاء القارس يفتك به فتكا
ذريعا ولم يبق منه سوى النذر القليل . وكان الرزايا النازلة بهميشه تحت أنظاره
غير كافية حتى وافته أخبار من باريس جعلته واجف القلب على تزعزع
أركان سلطته وأركان أسرته وقد كان يزعم أنه وقاها من كل تهجم وطمعها
بسمه الخلود

وكان سجين سياسي محصورا في معقل وهو عضو خامل الذكر من أعضاء
جمعية جمهورية تكاد تكون مجهولة وضابط لاشهرة له ولا أنصار ولا وسائل له
غير تصوره وجراته يقال له الجنرال مالاي فصمم باخبار ملفقة وأوامر كاذبة على
هدم السلطة الضخمة المرتحفة أمامها والخاضع لها كل شيء في أوروبا والمتوهمها
الناس راسخة الأركان .

وفي ١٩ أكتوبر وهو اليوم الذي خرج فيه نابوليون من قصر الكرملين
فر مالاي من المعقل المتولي رجال الشحنة حراسته وانتحل اسم الجنرال لاموط
وجاء بعد قليل من الحين الى الكولونل سوليه قائد الفرقة العاشرة من الحرس
الوطني ونعى اليه الامبراطور وأخبره أنه تألفت حكومة جديدة وأمره بان يسلمه
قيادة فرقته . وكانت الساعة الثانية صباحا والكولونل في سريره يشكو من
مرض أصابه . فلما سمع خبر وفاة نابوليون أجهش في البكاء واعتذر عن عدم
تمكنه من النهوض من فراشه ولكنه أوعز الى معاونيه بجمع الفرقة والقاء
مقايلد قيادتها الى الجنرال لاموط فأجرى منطوق أمره في الحال . وحينئذ قرأ
مالاي على نور المصباح على مسمع من الجنود قبل أن يثوب اليهم الروح الملقية
من الجرائد والنشرات والاوامر فتبعته تلك الفرقة المؤلفة من الف ومئتي جندي
الى حيث مضى بها مؤتمرة باوامره

فتوجه في بدء الامر الى سجن الفرس فأخرج منه شريكه لاهوري وغيدال
وقوض اليهما اللقاء القبض على سافاري وبسكيه مديري الشحنة .

فلم يبد مدير الشحنة مقاومة لاوامر ذبلك السجينين المقضي عليه التشديد في المراقبة عليهما .

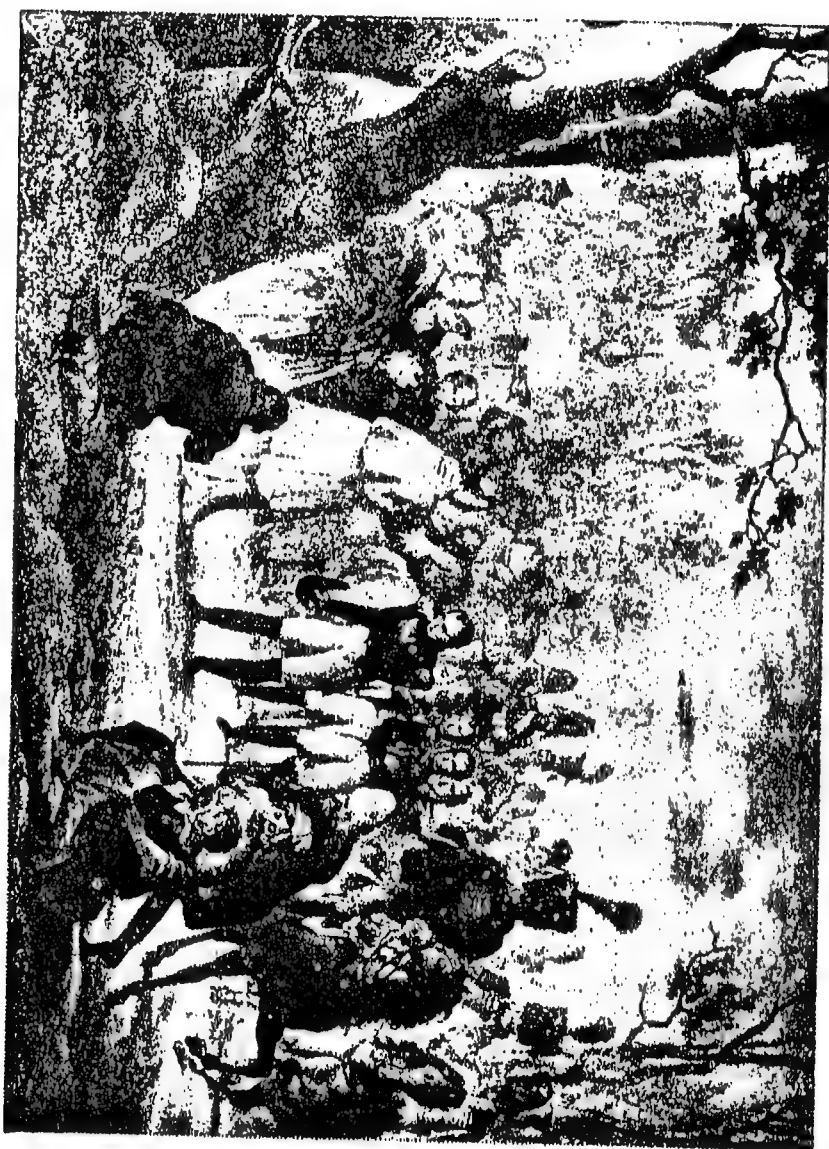
ولم يعترض ناظر الشحنة على القاء القبض عليه وعلى كل ما أخبره اياه غيدال ولاهوري من تلقيمات مالاي ففاجأاه في سريره وأطاعهما بذهابه الى سجن الفرس حيث حل محلهما هو ومدير الشحنة .

وأظهر فروشو مدير السين الثقة نفسها والانقياد نفسه وظن أن المنية تخزمت العاهل فأعد الردهة لاقامة الحكومة الجديدة .

ولم يصب مالاي من الانقياد عند حاكم باريس ما أصابه عند غيره فان هولان بدلا من أن يدعمهم يلقون القبض عليه بدون استيضاح طلب أن يرى الاوامر التي يريدون بموجبها ايقافه ودخل غرفة عمله . وشار مالاي وراءه ولما التفت الحاكم وكرر طلبه ابراز الاوراق المستندين اليها في أمر القبض عليه أطلق عليه المؤامر الجريء غدارته فجرحه في وجهه وصصره على الارض من دون أن يقتله . وكان ضابط من ضباط الفرقة العاشرة حاضراً فلم يسيء الظن بشيء عند رؤيته هيئة الحاكم ولم ينتبه الى الخداعه هو وفرقته على أثر تصديق الكولونل تلك القرية .

وبعد ماجرح مالاي هولان وصصره مضى الى دوسه النائب العام فلمقي عنده مفتشاً من مفتشي الشحنة فعرفه هذا وانهره بشدة وفي الحال أصدر الامر بالقاء القبض عليه . ولما رأى مالاي انه لم يبق له أمل بالنجاة طالج الفرار من الورطة الناشب فيها بالتجائه الى غدارة ثانية مخبوءة في جيبه . ولكنه لم يظفر بمحاجته من غدارته فانهم انزعوها في الحال من يده وهجم عليه الحاضرون فاوثقوه . ولم تمض دقائق حتي عاد المتآمرون الى السجن بعد ساعتين قضوها في الامر والنهي في العاصمة الفارقة في لجة الكرى . وكان ناظر الشحنة الذي عينه مالاي مهتماً في بيته بتفصيل بزة تلامه حين جاؤوا والقوا القبض عليه

وهكذا انتهت المؤامرة المبنية على الطيش والحماقة وكانت كأضغاث أحلام أو كشهد من مشاهد الروايات أو كحادث من حوادث الجولان في النوم لبعض



الإمبراطور والابا في غاب فتيلو

كبار الموظفين أما الشعب الباريسي فإنه لم يدر شيئاً مما جرى لاستغراقه في النوم . وعند هبوطه من الرقاد وجد السكينة ضاربة أطناها في المدينة . ولو لم تفتر صحيفة المونيطور أنباء هذا الحادث الليلي لبقى مجهولاً عند الجميع . ولم يؤثر بهم إلا إجراء الاحكام المعجلة بحق أربعة عشر شخصاً لهم علاقة بالحادث

ولما قرأ نابوليون الرسالة المبينة حقيقة الحادثة لم يتعجب من جرأة المتآمرين بمقدار تعجبه مما لقوه من التساهل من بعض أصحاب السلطة العليا المنتظر منهم مقاومة شديدة وتكديباً عنيفاً للاراجيف التي أذاعها المتآمرون وصداً لمحاولتهم التهميم على السلطة السامية . وأطلق العنان لافكاره المؤلمة والحزنة فقال : « أهذا ما أتوقعه من رسوخ أركان سلطتي فهي سلطة مبنية على الرمل . . . وإذا كفى لتعريضها للخطر رجل واحد محصور في السجن فلا يكون تاجي ثابتاً على رأسي إذ يستطيع في عاصمتي عينها ثلاثة من العيارين أن يلقوه عن رأسي . فبعد حكم اثني عشرة سنة وبعد زواجي وبعد ولادة ابني وبعد أقسام مكررة يكون موتي سبباً لاضرام نيران الفتنة . . . ولا يفكر أحد بنابوليون الثاني »

أجل انه لم يفكر أحد بنابوليون الثاني ولم يهجم في ضمير أحد ان الكلمة المشهورة التي كانت تقال في عهد الملكية القديمة يمكن أن تقال في عهد الحكومة الامبراطورية أي أن يقال لمالاي وأنصاره : « مات الامبراطور فليحي الامبراطور »

ومع ذلك ضمن الدستور السامية ونظام الوراثة ولكن ماهو مبلغ قيمة انظمة دستورية لم يقر عليها روح العصر ولم تتخذ صبغة سامية مقدسة على أن نابوليون يفاخر على غير جدوى بأنه أمهر وأقدر وأعظم مؤسس من مؤسسي الاسر الممالك فقد شعر بأن عمله زائل كالظل . وقد باح بالكلمات التي فاه بها بما تمثل في نفسه من المخاوف . وهل اعتقدوا انهم باذاعتهم نبأ موته يقضون على حكومته وأسرته وان ماشيده من السلطة يهوي معه . انهم وaim الحق لم يخطئوا في اعتقادهم هذا ولم يفكر أحد بانه . فهذا النسيان ساء جداً وكان طعنة أصابت فؤاده . فلا ينبغي له أن يشدد التكبر على كبار أصحاب المناصب وعظماء رجال الامبراطورية لذهولهم عن الاعتصام باهداب المبدأ

المبنية عليه عظمة ومستقبل أسرهم عينا . واذا هم لم يفكروا بنابوليون الثاني فليس الذنب ذنبهم انما هو ذنب العصر المتسلط فيه الدهاء على جميعهم على غير معرفة منهم والمتراخية عرى ارتباطه بالاسر المالكة

والتفت نابوليون الى اشجع قواده وقال وهو يلمع الى حوادث باريس : « ياراب لا يأتي المصاب وحده فهذا تنمة ما هو جار هنا . ولا يمكنني ان اكون حاضراً في وقت واحد في كل مكان ولكنني لا أرى مندوحة عن العودة الى ماصمتي : ولا يمكنني الاستغناء عن وجودي فيها رجاء عودة الرأي العام الى الميل الي . وأنا محتاج الى الرجال والمال . فالظفر العظيم والنصر المبين يصلحان كل شيء » .

وكان لديه أمور كثيرة تحتاج الى الاصلاح فان النكبات كان بعضها آخذاً برقاب بعض وكانت النوازل تتوالى ساعة بعد ساعة . ولا يمكننا ان نسمي ارتجاع عساكر الفرنسيين تراجعاً بل انكساراً فظيماً . . .



الفصل السادس والعشرون

الانطلاق من سمولنسك - موقف الجيش الهائل

معركة البرسينا - عودة الامبراطور الى باريس

ولم يستطع نابوليون إطالة المكث في سمولنسك فان جميع الجنود الاحتياطيين الذين أقامهم على الطريق لتأمين تراجعهم وصيافته غيروا مواقعهم لاسباب لم تكن في الحسبان وان المؤن التي عول عليها نقصته أو نفذت بسرعة أو نهبت في أثناء الاضطراب وحاجة الجيش . وكانت في كل ساعة تلمتهي اليه أنباء عما يصيبه من الخسارة الجديدة وعن الحوادث المحزنة : فتارة يحبرونه ان الفصيلة المسيرة على كالوغا دخلت سمولنسك بعد ما تركت في قبضة كوتوزوف قسماً كبيراً من رجالها وتارة يقولون له ان أوجين خسر في عبوره نهر الوب ألفاً ومئتي جواد وستين مدفعاً وكل ما كان معه من المؤن والذخائر ودنا طشيطشاغوف منهم في أثناء تلك الملمات ولم يبق بينه وبين الجيش الفرنسي سوى بضعة مراحل . وكان عدوهم الألد أعني البرد قد أنزل الحرارة في المقياس المئوي الى عشرين درجة تحت الصفر .

وقلب كل شيء الآن ظهر المجن نابوليون كما كان من قبل يفتر ثغر كل شيء له . وبقي لشجاعته الثابتة عضد واحد وهو شجاعة قواده وجنوده الراسخة وأظهر المقاتلون الفرنسيون في جميع المواقع أنهم أحقاء بالشعب العظيم الموكل اليه وديمة مجده وجديرون بالرجل العظيم الذي شاطروه بوائقه كما شاطروه انتصاراته . ولم يسبق لهم أن يبدوا في وقت من أوقات الاقبال من الجرأة بمقدار ما أبدوه في هذه الاحوال . فان ولسن البريطاني أطلق اسم « معركة الجبابرة » على وقعة أضمرت نيرانها مؤخرتهم بقيادة المارشال ناي . فبعد هذه المعركة العظيمة تمكن أشجع الشجعان وقد أحاط به مئة ألف روسي من النجاة من الوقوع في أيديهم والانضمام الى الجيش الفرنسي بعد اجتيازه بلاداً مجهولة وعبوره على الجمد في نهر البوريستين ولما علم نابوليون بوصوله وكان يظن انه

هلك صباح بفرح لا يوصف . « عندي في أقبية التويلري مئتا مليون من الفرنكات وأفضل أن أعطيها فداء عن المارشال ناي » .

الا أن البسالة معينة الدهاء وان تكن قادرة على ابقاء المجد ملازما للاعلام الفرنسية لم تستطع شيئا لمناوأة القدر المبتعد عنها شيئا فشيئا فقد خانها وبالغ في ارهاقها يوما بعد يوم . اجل أن الفرنسيين أصيبوا بشدائد هائلة تستوجب أن يرثي الناس لمن حلت بهم ولكنها لم تكن شيئا مذكورا . على أن اسقاط رجل هائل ك نابوليون يقتضي صدمة عنيفة عامة تحرش عليه المصالح والمواطن والعناصر ويقتضي أيضا تألب الارض والسما عليه تألبا تبدو نتائجها بحادث عظيم . وقد جرى هذا الحادث وسيذكر تفصيله ذلك الذي أصابه الدمار من جرائه . واذا كان العاهل يشعر بضربات الحدثان تسقط عليه وعلى ذويه وعلى فرنسا بنوع خاص فانه لا يزال متسلطا على الرزايا بحيث انه يستطيع ان يلاقيها غير وكل ولاهش العود ويتكلم عنها باذعان سام لا ينفي الامل . على أن رقم النشرة المذكورة فيها روايته الحزنة المحفوظة بين تقاليد الشعوب لا يكفي للدلالة بكلمة واحدة على عهد وجسامة نكبات الجيش ويدل عن بعد على أول سقوط أصابه ذلك القائد الكبير :

النشرة التاسعة والعشرون

« وظلت حالة الجو لطيفة حتى اليوم السادس من شهر سبتمبر وتمت حركات الجيش على غاية مايرام . وابتدأ البرد في ٧ منه وصرنا من ذلك الحين نفقد في كل ليلة بضع مئات من الخيل تموت في معرنا ولما وصلنا الى سمولنسك كنا قد فقدنا عدداً كبير من خيل الفرسان والمدفعية .

وعارض جيش فلهينيا الروسي ميمنتنا فبرحت هذه الميمنة خط الحركات الحربية في منسك واتخذت خط فرسوفيا محوراً لأعمالها . وفي ٩ منه علم العاهل وهو في سمولنسك ما كان من تغيير خط الاعمال وخمن ما يحجبه العدو ومهما ظهر له من صعوبة التحرك في مثل حالة الجو الشديدة فقد رأى ان الحالة الجديدة تقتضي ذلك . فأمل البلوغ قبل العدو الى منسك أو على الاقل الى البرسينا . فانطلق في ١٣ منه من سمولنسك وبات في ١٦ منه في كراسنوم

على أن البرد الذي ابتداءً في ٧ منه ازداد فجأة وقد بلغت الحرارة في المقياس المئوي من ١٤ الى ١٦ منه ست عشرة درجة الى ثمانية عشرة درجة تحت الصفر . وغشى الجمد الطرقات وهلك خيل الفرسان المدفعية اولا الوفا في كل ليلة ولا سيما الخيل الفرنسية والالمانية : وبلغ ثلاثين ألفاً ونيماً عدد الخيل التي نفقت في بضعة أيام فأصبح معظم فرساننا مشاة ولم يبق لدينا خيل تكفي لجر مدفيعتنا وأثقالنا : ولم يكن لنا بد حينئذ من ترك أو اتلاف قسم كبير من مدافعنا وذخائرنا الحربية ومؤونتنا .

على أن الجيش الذي كان في ٦ منه جيشاً لجباً أصبح في ١٤ منه متغيراً كل التغير عما كان عليه من قبل فكاد يخلو من الفرسان والمدفعية والاتقال . ولم نستطع بدون فرسان أن نستطلع طلح أعدائنا على مسافة ربع فرسخ وبدون مدفعية أن نباهر حركة أو نثبت في مواقعنا . ومع ذلك أجبرنا على المسير لثلاثين يوماً على مباشرة معركة يدعونا نقص الذخائر الى نهجها . وقضت الحال علينا بأن نحتل مساحة واسعة لثلاثين يوماً بننا العدو وليس عندنا فرسان نستطلع طلعه وتتمولى المواصلات بين فيالقنا . وقد صيرت هذه المصاعب موقفنا شاقاً مع البرد القارس الطاريء فجأة وخشعت أبصار الرجال الذين لم تمنحهم الطبيعة صلابة كافية تجعلهم فوق أهواء الاقدار وزايلتهم بهجتهم وولت سلاسة طباعهم وأصبحوا وهم لا يرون أمامهم الا البلى والخطوب . أما الذين أوجدتهم الطبيعة اسمى من سواهم فانهم حفظوا بهجتهم وعاداتهم المألوفة ورأوا أمامهم مجداً جديداً في تغلبهم على الشدائد المتوالية عليهم

وكان العدو الناظر الى هذه النوازل الملهمة بالجيش الفرنسي في أثناء سيره يسعى للاستفادة منها لجعل القوزاق يطوقون فيالقنا ويختطفون على مثال الاعراب في البادية القطرات والمركبات الجانحة عن قصد السبيل . وأصبح أولئك الفرسان المحتقرون والمقرقرون والعاجزون عن مناهضة رجالنا يقذفون الدعر أمامهم مفتنمين الفرصة من الحال التي صرنا اليها ولكن ندم أولئك الاعداء على عمرسهم بنا لان البرنس أوجين ارتد عليهم وأهلك منهم خلقاً كثيراً .

ونسف الدوق دلشنجن (باي) اسوار سمولنسك وكان ينزل المؤخرة
بالثلاثة الآلاف الذين معه فأحاطوا به وجعلوا موقفه مستهدفاً لنبال
المطرب ولكنّه تمكن من التخلص من موقفه الحرج بما أوتيّه من الجرأة الممتازة
هو بها . وبعد ما أكره العدو على البقاء بعيداً عنه سحابة اليوم الثامن عشر
من شهر سبتمبر وواظب على دحره قام في الليل بحركة بكشفه الايمن وعبر
البوريستين معاكسا تداير أعدائه . وعبر الجيش البوريستين في ١٩ منه عند
أرزا بعد ما رزح الجيش الروسي تحت أعباء التعب وفقد عدداً وفيراً من رجاله
فعدل عن التمس بالفرنسويين .

وزحف جيش فلهينيا في اليوم السادس عشر من سبتمبر الى منسك ومنها
الى بوريسوف فدافع الجنرال دميرسكي بثلاثة آلاف رجل عن رأس جسر
بوريسوف واضطر في ٢٣ منه الى إخلاء الموقع عنوة فمهر العدو حيثنذ البرسينا
زاحفاً الى بوير وفرقة لمير تؤولف المقدمة . وكان الفيلق الثاني في تشيرين يقوده
الدوق دي ريجيو فانتهى اليه أمر بالزحف الى بوريسوف ليضمن للجيش عبور
البرسينا ، ولقي الدوق دي ريجيو في ٢٤ منه فرقة لمير على بعد أربعة فراسخ
عن بوريسوف فاغار عليها وقهرها واسر منها الفتي مقاتل وغنم منها ستة مدافع
وخمس مئة مركبة شحن من مركبات جيش فلهينيا ورد العدو الى ضفة البرسينا
التي . واشتهر في هذه الموقعة الجنرال بركيم بفرقته الرابعة من فرق المدرعين .
ولم ينج العدو الا باحراقه الجسر البالغ طوله أكثر من ست مئة متر .

واحتل العدو جميع معابر البرسينا . ويبلغ عرض هذا النهر نحو ثمانين متراً
وهو يجرف كثيراً من الجمد . وعلى ضفافه مستنقعات طولها نحو ست مئة متر
تصير الدنو من النهر في غاية الصعوبة .

وأقام قائد العدو فرقة الاربع عند منافذ النهر متوها ان الجيش الفرنسي
يمر بها .

وزحف الامبراطور الى قرية ستديانكا في ٢٦ منه عند افراط الصباح
بعد ما خادع العدو بحركات مختلفة في اليوم الخامس والعشرين منه . ومد
جسرين في الحال على النهر أمام فرقة من العدو لم يكثر لها . فمهر الدوق دي ريجيو
وهجم على العدو وظل يتعقبه ساعتين فتهقمر العدو الى رأس جسر بوريسوف

وجرح الجنرال لفران جرا بالنا بيد انه غير مميت . وهذا الجنرال من المعروفين بقوة البأس وشدة المراس . وظل الجيش يعبر يومي ٢٦ و ٢٧ بكاملهما .

وصدر الامر الى الدوق دي بلون قائد الفيلق التاسع باتباع حركات الدوق دي ريجيو وتأليفه المؤخرة والوقوف في وجه جيش دويونا الروسي السائر وراءه وكانت فرقة برتونو تؤلف مؤخرة هذا الفيلق ووصل الدوق دي بلون بفرقتين الى جسر ستندزبانكا في ٢٧ منه عند الظهر .

ولما دخل الليل انطلقت فرقة برتونو من بوريزوف وفي الساعة السابعة مساء زحفت فصيلة من الفرقة المؤلفة المؤخرة وقد عهد اليها في احراق الجسورة : فوصلت بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة وجعلت تبحث عن الفصيلة الاولى وعن قائدها وكانا قد ذهبا قبلها بساعتين فلم تبصرهما على الطريق فذهب البحث عنهما باطلا فاضطربت الافكار حينئذ من جراء ذلك الامر . وكل ما عرف عنها فيما بعد انها بعد ما انطلقت في الساعة الخامسة ضلت عن الطريق في الساعة السادسة فسارت الى جهة اليمين بدلا من جهة اليسار وقطعت نحو ثلاثة فراسخ في تلك الجهة . وانضمت الى الاعداء في الليل وقد بلغ منها البرد وهي تظنهم من الجيش الفرنسي : فأسروها بعد ما أحاطوا بها . وفقدنا بهذا الانحداع المؤلم الذي رجل من المشاة وثلاث مئة جواد وثلاث بطاريات . ويقال ان قائد الفرقة لم يكن معها بل كان يسير منفردا عنها .

وعبر جميع الجيش النهر في ٢٨ منه وكان الدوق دي بلون محافظا على رأس الجسر عند الضفة اليسرى وعلى الضفة اليمنى الدوق دي ريجيو وجميع الجيش .

ولما أخليت بوريزوف تم الاتصال بين جيشي الدويونا وقاهينيا فدبرا الهجوم على الفرنسيين وأنبا الدوق دي ريجيو الامبراطور عند بزوع فجر ٢٨ منه ان الاعداء يهاجمونه . وهوجم الدوق دي بلون بعد نصف ساعة على الضفة اليسرى حينئذ تقلد الجيش السلاح . فزحف الدوق دلشجن وراء الدوق دي ريجيو والدوق ري ترينيز وراء الدوق دلشجن . وحجى وطيس القتال فاراد العدو أن يحيط بهم فممنعتنا الا ان الجنرال دومرك قائد فرقة المدرعين الخامسة وهو من الفيلق الثاني الباقي على الدويونا أمر فرسان فرقي المدرعين الراجعة والخامسة

بالهجوم حين كانت فرقة الفستول تتوغل في الاحراج لتخرق وسط العدو المنكسر والمهزوم . وخرق هؤلاء المدرعون والشجعان ستة مربعات من المشاة على التوالي وهزموا فرسان العدو القادمين لنجدة مشاتهم . فسقط في أيدينا ستة آلاف أسير ورايتان وستة مدافع

وهجم الدوق دي بلون على العدو هجوما شديداً فكسره وأسر منه نحو ست مئة مقاتل واضطره الى البقاء بعيداً عن الجسر رمية مدفع وهجم أيضاً الجنرال فورنيه بفرسانه هجمات صادقة

وأصيب جيش فلهينيا بخسارة فادحة في معركة البرسينا . وجرح الدوق دي ريجيو جرحاً غير خطير فان رصاصة أصابته في كسجه

ولما كان من الغد في ٢٩ منه بقينا في ساحة القتال ولم نلق لنا بداً من اختيار طريق من طريقتين وهما طريق منسك وطريق فيلنا : فطريق منسك تمر في وسط حرجة ومستنقعات غير مزروعة ويتعذر على الجيش وجود شيء فيها يفتذي به وطريق فيلنا تمر في بلاد جميلة للغاية . وكان الجيش مضطراً الى الوصول الى مخازنه بعد ما فقد فرسانه وقتل مؤنه واشتدت عليه وطأة التعب بعد مسيرة خمسين يوماً وهو يحمر وراءه مرضاه وجرحاه .

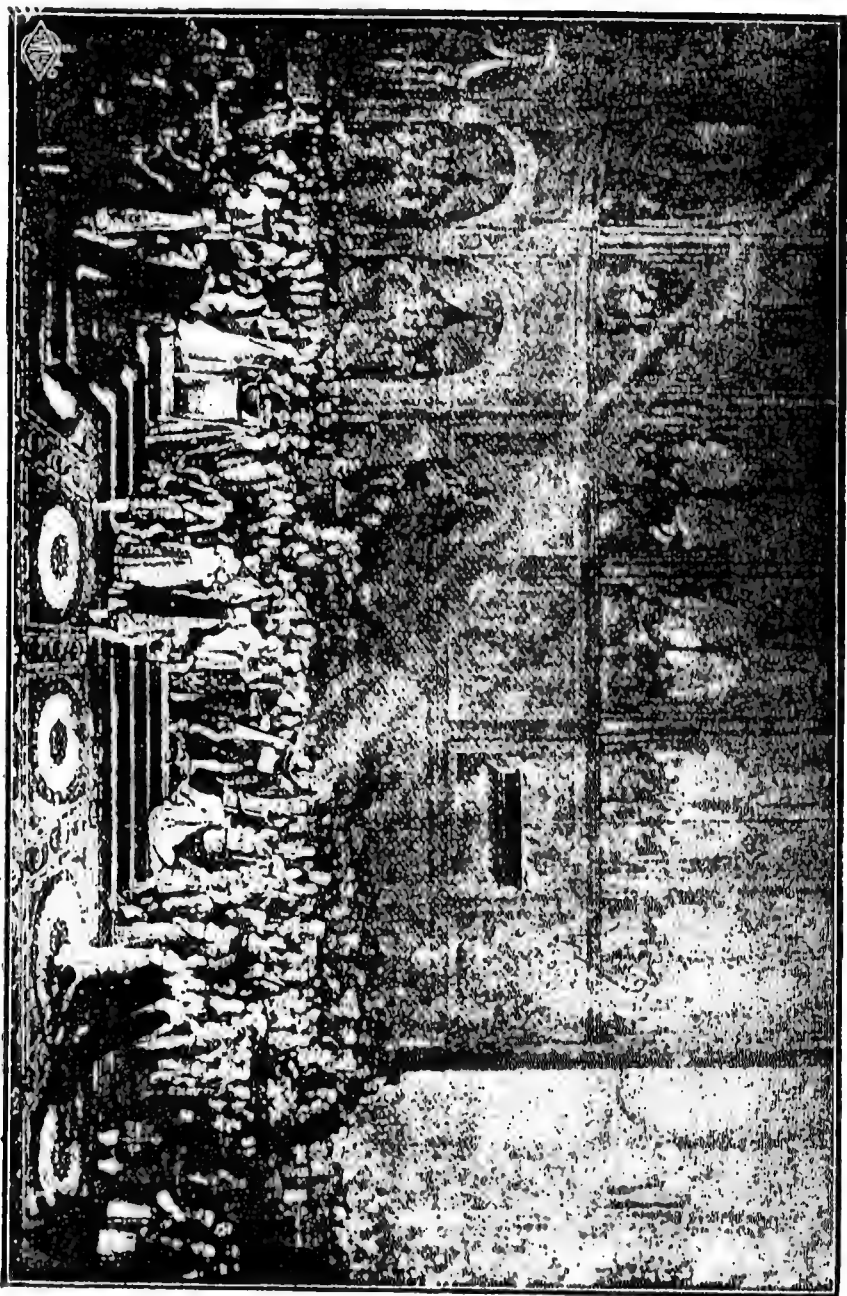
وجعلوا محل أركان الحرب في ٣٠ منه في بلخنزي وفي سلايكي في أول ديسمبر وفي مولود تشينو في ٣ منه حيث وصل الى الجيش الارساليات الاولى الآتية من فيلنا .

ووجه الى فيلنا جميع الضباط والجنود الجرحى وكل ما كان يعوق الحركات كالامتعة وما شا كل ذلك

على ان القول ان الجيش محتاج الى استعادة النظام ولم شعثه وجمع شمل فرسانه واصلاح ماطرأ على مدفعيته وأدواته من الفساد يعتبر نتيجة ماتقدم بسطه . فالراحة كانت أول أمر يحتاج اليه

وكان الامبراطور في أثناء جميع هذه الحركات يسير دائماً بين حرسه والمارشال الدوق دسري يقود الفرسان والدوق دي دنزيك يقود المشاة . . .

وتضعفت أحوال فرساننا بحيث أنهم لم يلقوا لهم بداً من جمع الضباط الباقي للواحد منهم جواد والقوا من هذه الجياد أربع كوكبات في كل منها مئة



حفلة عشاء ملك رومانيا ولي عهد الامبراطورية الفرنسية

وخسئون فارساً. وكان القواد الكبار يشغلون فيها منصب قواد المئة والسكرولونلون منصب الضباط فهذه الكوكبات المقدسة المتولي قيادتها الجنرال غروشي بامرة ملك نابولي لم تغفل طرفة عين عن حركات الامبراطور

ولم يسبق لصحة الامبراطور ان تكون على مثل ما كانت عليه من الجودة « وكان أشخاص معتسفون عن محجة العدل قد جعلوا لسانهم مبرداً على نابوليون لذكركه العبارة الاخيرة في النشرة المار بيانها معتبرين ذلك الامراهانة لاحزان أسر عديدة كانت تلك النشرة تملأها مخاوف وتجعلها نكبات الجيوش الفرنسية ترتدي بلايس الحداد

فهل ينبغي له أن يذبل النشرة بعبارة تزيد القلق في جميع أنحاء سلطنته مهدداً السبيل في وجه المرجفين لتجديد الاشاعة الخالية من الصحة التي يخشى من ورائها ان يززع ثلاثة من العيارين دعائم عرشه ؟ أو لم يخاطب فرنسا بكلام التعزية والامل حين قال لها بعد ما بسط لها بيان خسارته ان الاقدار والبرد مع تألبها عليه أبقيا على ذلك الرجل العظيم الذي جرت فرنسا على يده مطارف المجد أيام هادنتها الاحداث والذي أصبحت حياته أئمن ودهاؤه أعز لتتمكن من قضاء أيام الشؤم والبؤس

وما السبب الداعي نابوليون الى التخوف من بسطه لفرنسا ولاوريا طراً الشدائد الحالة به ؟ ولماذا يشعر بتحقاق من جراء اقراره بما أصابه من الرزايا ؟ فلم يكن لقلبه ورأسه علاقة بشيء من ذلك ولم يخذلاه في أخرج الاحوال . فالاجانب والروس أنفسهم شهدوا له بذلك ولما حصر في طولوزيا في بقعة من الارض لا تزيد مساحتها على خمسة عشر فرسخاً بين كوتوزوف وونجنستين وطشيطشاغوف وأحاط به ثلاثة فيالق مؤلفة من مئة وخمسين ألفاً من المقاتلة ولم يبصر حوله إلا وجوهاً باسرة ولم يسمع إلا تدمراً مقروناً بالجبن مما يدل على يأس النفوس وقد عهد لها شديدة الصرامة عند نزول النوازل وإلزام الملمات ظل محافظاً على ثبات جنانه ورباطة جأشه وجديراً بالشعب العظيم وب نفسه بحيث أن حنوده قالوا : « انه يستطيع أن يخلصنا من الورطة التي نشبنا فيها » . وقد اضطر أعداؤه أنفسهم أن ينصفوه فقال بوطرلان : « لم تضعف عزائم القائد العظيم في الموقف الحرج الذي قلما وجد انسان في مثله فانه لم يدع فواح

الخطب تبلغ منه بل اجترأ على مقايستها بعين دهائه وتمكن من استنباط وسائل يستعين بها على النجاة من ذلك المأزق في أحوال لا يستطيع قائد أقل جرأة ومهارة منه أن يتصور امكان استنباطها .

ولكن هل للدهاء قبل بمناهضة العناصر ؟ فان نابوليون لم ينج بفضل شجاعته وشدة صميمته من القواد الروس إلا ليشاهد جيشه يخر صريعاً أمام نفحات الزمهرير وقد اشتدت وطأته بعد إرساله النشرة التاسعة والعشرين الآتفة الذكر . وقال شاهد عياني ان اليد كانت تتجمد على الحديد والدموع تجمد على الحدود . وصارت تلك الكتائب الرجاجة التي ارتعدت أوصال أوروبا منها مدة طويلة الى حال يدعى لها القواد . وقال الدكتور لاري . « رزحنا جميعنا تحت أوقار القنوط والفشل بحيث تعذر على الواحد منا معرفة رفيقه : فكانوا يسبرون وكان على رؤوسهم الطير . . . وقد ضعفت الابصار والقوى العضلية بحيث صعب عليهم استطراد المسير مع المحافظة على الموازنة . . . وكان رائد الموت اصفرار الوجوه والبله وصعوبة النطق وضعف البصر »

فهل قضي على نابوليون أن يظل مقبلاً بين بقايا جيشه العظيم وأن يعرض لمثل تلك البلايا الذهن والذراع المستندة اليهما فرنسا . ان مثل هذا الامر لم يجسر أحد على افتراضه أو المجاهرة به . وبعد إرساله النشرة المشؤومة بيومين جمع قواده الكبار في مركز أركان حربه بمغرني وأخبرهم انه عازم على مغادرتهم والشخص بأسرع ما يمكن الى عاصمته حيث تقتضي الحوادث الخطيرة وجوده فقال لهم : « أأفركم ولكن لا عود اليكم بثلاث مئة ألف محارب . ولا بد لنا من اتخاذ التدابير اللازمة لمباشرة حرب ثانية فاننا لم نتمكن من انجاز الحرب الاولى ومع ذلك بأي شيء تتعلق هذه الحال . . . فانتم لا تخفى عليكم حقيقة مصائبنا وتفاهة مافعله الروس للاضرار بنا . ويمكنهم أن يرددوا ماقاله رجال تمستوكل الاينيون :

« ولولم نهلك فقد كان مقضيا علينا بالهلاك . » وأما قاهرنا الوحيد فهو البرد فان شدة وطأته التي أقبلت قبل ميعادها خدعت الاهلين انفسهم وعضدها تراجع شوارتز نبرغ . وعليه وجدنا أنفسنا في الموضع الذي ابتدأنا فيه أعمالنا على أثر جرأة شخص أضرم النار وشتاء لم يسبق له مثيل ودسائس مقرونة باللؤم ومطامع

مبنية على الحماقة وبضع هفوات وخيانة على الأرجح . وهل سبق لأحد أن رأى مثل هذه المعارك غير المنتظرة تفسد التداير الصائبة؟ على أن حرب روسيا ستكون أعظم وأصعب وأشرف حرب يذكرها التاريخ الحديث .
وأخذ العاهل طريق باريس في اليوم عينه (٥ ديسمبر) ملقياً مقاليد القيادة للعامية الى ملك نابولي وسافر في مزلة باسم الدوق دي فيسنس أحد رفاقه ولما مر بفيلنا حادث الدوق دي باصانو بضع ساعات وحادث السكونت بوطوكي في فرسوفيا وتفقّد حصون براغا . ووصل الى درسد في ١٤ ديسمبر في جوف الليل . وبعد محاولة طويلة مع ملك الساكس حليفه الأمين الجليل استأنف المسير الى باريس فوصل اليها في ١٨ منه .

..... (* * *)

الفصل السابع والعشرون

تأمل في نتيجة حملة روسيا الجارة المصائب — تهنة مجالس الحكومة

الكبرى لنابوليون — تعبئة جيش قوامه ثلاث مئة وخمسون

الفا — خيانة الجنرال ديورك البروسياني — ترك

مورات الجيش — افتتاح المجلس الاشتراعي

وخابت آمال نابوليون في موسكو فانه بنصبه أعلامه فوق قصر الكرملين علل النفس باصابته صلحاً مجيداً ثابتاً ونهاية حملاته الحربية وتمكين دعايم سياسته وسطوته . وقد قال فيما بعد : « فعلت ذلك رغبة بتأييد المبدأ العظيم وبلوغ نهاية أهواء الافئدة وبداءة توطيد الأمن . وكان ينتظر حدوث أمور جديدة تتعلق بهامساعدة الجميع ورفاهيتهم فان الطريقة الاوربية بنيت على الأسس الموضوعية لها ولم يبق الا تنظيمها . . . ولو كنت راضياً عن هذه الامور العظيمة وناعم البال في كل مكان لعقدت مؤتمراً وأبرمت أسباب محالفة مقدسة : هذه أفكار سرقوها مني . ففي الاجتماع المحتشد فيه جميع الملوك يمكننا أن ندبر شؤوننا

تديرا عائليا وتتصرف مع الشعوب تصرف العبد مع مولاه . . . فقد أصبنا مبدأ العصر وتمت الثورة ولم يبق الا التوفيق بينها وبين ما لم تكن بعد قد أثلفته . فهذا العمل يخصني وقد هيأته من زمان طويل وربما ضحيت في سبيله بميل الشعب الي . فلا بأس من ذلك فاني صرت تابوت العهد العتيق والعهد الجديد والوسيط الطبيعي بين النظام القديم والنظام الحديث . وسرت بموجب مبادئ الواحد واستملت الي ثقتي بي واتحدت بالآخر وخصصت الفريقين وأمكنني أن أكون حصة أحدهما . »

لماذا أبت العناية أن تساعد على اجراء مثل هذه الخطة الجميلة ؟ ولماذا احتفرت وهدة في الموضوع الذي عينه نابوليون غاية لجميع مساعيه ولا تنصار عصره ولتتميم أعمال الثورة ؟ ولماذا كانت النكبة الجسيمة جزاء على الغرض الكبير وفي مقابل النتيجة الكبرى ؟

وقال المسيو دي ميستر : « اذ الذين كتبوا التاريخ أو صرفوا اليه جل عنايتهم قضوا المعجب المعجب من القوة السرية العابثة بمشورات البشر وآرائهم . » واذا صح ما قاله نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة من أن المدنية والهمجية ستفرغان في وقت قريب من عرا كهما واننا سنسير مع واحدة منهما تلتنصر على الاخرى انتصارا تاما تحقق لنا أيضا أن مبدأ العصر لا يتسنى له أن يظفر به ظفراً كاملا تقديس طريقة متوسطة تجعل كلا من اوربا القديمة والحديثة تعيشان عيشة مختلطة مع محافظتهما على شكل احدهما القديم وأنظمتها الارسطراطية وأسرها القديمة من بعض الوجوه وبايصالها الى الاخرى أفكارها الجديدة وأميالها الحرة ومبادئ الديمقراطية .

على أن الثورة وطريقة الاحكام القديمة حفظتنا اختلافاًهما الاصلية وتنافرهما المضمر تحت ظواهر الاعتدال بحسب مقتضيات الاحوال . وهب كان تقرب بينهما فان هذا التقرب سطحي ووقتي . ولما حالج نابوليون التوفيق بينهما وقرن الواحدة منهما بالآخرى مع ما بينهما من التنافر المطلق لم يباشر الا أمراً يراد به الانتقال من حالة الى أخرى انتقالاً جوهرياً وكان سعيه هذا سبباً لفقدانه تعلق الناس به فن الجهة الواحدة حملت الهيئة الاجتماعية القديمة الضعيفة والنفور والحذر من الرجل الحاصل على مبادئ الهيئة الاجتماعية الجديدة وثقتها به ومن الجهة الاخرى

ظلت الهيئة الاجتماعية الجديدة مصرة على دعواها وقد حملت على الخوف من عدم تمكن مبادئها من ارسال وشا مجها كل مذهب في فؤاد الرجل العامل على الاتحاد بالهيئة الاجتماعية القديمة .

ان نابوليون في تعمده دور الانتقال النهائي من النظام القديم الى النظام الجديد وفي سعيه وراء عقد محالفة مقدسة بين الملوك على مثال ما فعله على التقريب اعداؤه فيما بعد على انقراض سطوته وليس وراء عقد محالفة مقدسة بين الشعوب على ما أنشده برانجه في اشعاره المبتوثة فيها روح النبوة وفي انبرائه للتوسط بين القرون المتوسطة والقرن التاسع عشر لم يمثل والحق يقال الدور الذي اختصته به العناية وهو دور يراد به نشر المبادئ الحديثة لتعزيز المستقبل وليس دور حكم المحكمين الخالين من التفرض لمداواة الماضي . وانه بهذا التصور الذي سهل عليه أن يستميل به دهاء وضع هذه الآلة : « ما وراءه زيادة لمستزيد » روح الاصلاح وان لم تكن الاعمال الناشئة عنه قد تمت بعد . وان كلمة الديمقراطية الفرنسية سواء كانت ميالة الى المصالحة والنظام أو محتاجة الى الدعة والاثبات صبحت واقفة في مركزها وقد تبادر الى الذهن أن تصور السياسة الحديثة والغرض الذي توخاه بطل الازمنة المتأخرة يرميان الى حصر التيار الثوري بيد قوية في المجرى الضيق وبين الحواجز المهدومة حيث لم تستطع يد أوروبا القديمة الضعيفة أن تحصره على أنه كيف كان الامر من تحسن الغاية المقصودة من وراء هذا السعي فانها تعتبره نفيًا جريئًا لتحسين اللاحق والاساسي الذي يحق لأوروبا الحديثة ان تأمل ادراكه من وراء تنظيم شؤونها السياسية . فقد كان السعي للتوفيق بين الثورة وما لم تتلقه بعد بقاء الملكية والارسطقراطية الاوربية المهددة عبارة عن توقيف نماء التجديد العام . وكان ذلك ايضا ابقاء الطريقة القديمة على قاعدة تضع حداً نهائياً لليسر الاجتماعي وكما أن العناية وعدت الشعوب بتححرر حر اوسع وأرضن من التحرر الذي تمن به عليها محالفة الملوك المقدسة دبرت العناية أيضا كل شيء لاجل اتمام مواعيدها .

وألقت العناية الباب العالي بين يدي بريطانيا العظمى وسلطت ارادتها عليه وأغوت برنادوت في مؤتمر ابو ونفخت في صدر البعض روح الكبرياء وفي صدر البعض الآخر روح الكسل والحسد وحملت شوارتزنبرغ على التباطؤ

في زحفه وجعلت جونو يشمل بخمرة الظفر في فالوتينا ووضعت المشعل في يد رستبشين وجعلت الاسكندر يصم أذنيه عن سماع المقترحات السلمية واستمات نابوليون الى اعتبار مخاوف قواده وزعزعت في نفس هذا البطل الداهية ماله من الثقة الراسخة بذاته وحدث فائح موسكو على المكث في قصر الكرملين ثلاثة ايام واطقت عليه قبل الاجل المعين عقال الزمهرير في شتاء من أشد فصول الشتاء برداً ووارت في الثلج افضل جيش في العالم واستبدلت بالحماسة والاعجاب فشلا وشكوى ونشرت في كل مكان نسيان ما اتاه ذلك الرجل العظيم من المعجزات وما جاد به من النعم وادخلت نكران الجميل قصور الملوك الخلفاء الذين زاد عن ذمارهم وقصور الأنساء الذين وضع التيجان على مفارقهم وهاجت عليه العالمين الذين زعم انه الوسيط الطبيعي بينهما وأهابت في وقت واحد بالشعوب على العصيان والملوك على الخيانة

وكان ثمة مشهد هائل رسمته العناية بضمها جميع الحوادث وإطلاقها عقال جميع المواطنين . ولما لم تعرض لها صدف وكانت قد استدركت كل شيء ودبرته لاجل إتمام اغراضها لم يتمثل لها والحالة هذه ادنى اضطراب لأن يدها القوية اخضعت للقانون والجاته الى العمل لادراك الضالة المنشودة

ان الملوك أوشكوا ان يخونوا والشعوب ان تثور ودونكم ما كتبه بنيامين كنستان في هذا الصدد : « مادامت الايام مهادنة لنابوليون لم تكن بفضاء للشعوب المضمرة معتبرة شيئاً مذكوراً ولكن حين تغير عليه الدهر وقلبت له الاقدار ظهر المجن انفجر بركان البغضاء انفجاراً شديداً وكان الشتاء بين سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ ضربة شديدة الوطأة على الجيش الفرنسي اهلك السواد الاعظم منه . وقد ابصرت بولونيا وبروسيا وبافاريا والرين نابوليون هارباً يقوم فرنسا وهو لا يلوي على شيء . . . وارتفعت اصوات الشعوب المقيمة بين القستول والرين فاصمت الملوك آذانها حيناً من الزمان عن سماع هذه الاصوات الا أن الجيوش المأخوذة أفرادها من الشعب مالأت الشعوب على أميالها وأمانها وجاھرت بطلب تحرير أبناء وطنها فغلب التيار الشعبي مقاومة الملوك واضطرت الرعية موالها الى استعادة حريتها . »

على أن هذا الكاتب الشهير لم يؤد الشهادة لاولئك الشعوب عن شدة

حرصها على وطنيتها من دون أن يزعم أن ملوكهم حافظوا على موالاتهم ل نابوليون بمعارضتهم أميال شعوبهم بيد أن معارضتهم لم تكن جدية وكانت غير منطبقة على أفكارهم الخاصة . ويستنتج من كلامه : « إن حلفاء سيد العالم الاكبر خدموه خدمة صادقة وحين تباهاوا بأنهم خانوه كان صملهم هذا نوعاً من التبجح باقائهم القدر . »

ولا يعتمد التاريخ على هذا الرأي فان الملوك لم يخدموا نابوليون الا مدفوعين على رغم منهم باحكام الضرورة : فلم يصفحوا عن أصل سلطته ولا عما جره اليهم من الذل وساقه اليهم من المخاطر . ولم تصدر قط مخالفتهم له عن صدق واخلاص : ولم يخفت وقتاً صوت بغضهم المكتوم والداثم الا على أثر ما أصابه من السؤدد والبأس . أما الشعوب فلما كانت صادقة في اعجابها بدهاء ذلك الرجل المتسلط على فرنسا ولما عرضت لهم أسباب الشكوى منه لم يعمدوا الى نصب الاشرار السياسية له ولم يخونوه بمفاوضات سرية أو بأعمال حربية كاذبة بل قاتلوه جهاراً في ميادين الوغى

لقد قضي الامر وحرشت العناية الشعوب على نابوليون لانه صار من الآن ينظر الى المصالح الشعبية بمقلة زعيم الاسرة المالكة وليس بمقلة الحاكم الاول لبلاد حرة . وسمعوا ما جواب به وفدي مجلس الشيوخ ومجلس الشورى الموفدين لتهنئته بعوده سالماً من روسيا فانه لم يسترشد بروح العصر لتثبيت دعائم الوراثة في أسرته ولم يستشر روح المستقبل لكبت أصحاب الاحزاب المريدن سوءاً بمرشه بل وجه أنظاره الى الماضي وذكر أعضاء مجلس الشيوخ بالتقاليد السرية المأثورة عن طريقة الحكم القديمة ليجعل للحكومة التي يريد أن يعطي فرنسا اياها صفة فارقة وقال لهم وهو يلح الى نسيانهم ابنه في أثناء الدسيسة التي دبرها ملاي : « كان آباؤنا ينضمون تحت لواء واحد عند سماعهم هذه الكلمة : مات الملك فليحي الملك ! وهذه الكلمات القليلة تتضمن أفضلية طريقة الحكومة الملكية . » وأسهب في ايضاح فكره لمستشاري حكومته فانتقد طريقة حزب الاحرار مطلقاً عليها اسم طريقة الفكرين وانتقد أيضاً طريقة الباحثين في علم المعقولات الرامين بعملهم الى هدم الانظمة القديمة في فرنسا

وأنهم بأنهم علة لجيم بلایا بلادهم : واستشهد بالقرن الثامن عشر قائلًا لهم : « يجب أن يعزى ماحل من النكبات بفرنسا الى طريقة التفكيرين الى طريقة الباحثين في علم المعقولات المبهمة التي يراد مع الاستعانة بها للبحث بحذق عن الاسباب الاولى أن تبني على قواعد شرائع الام بدلا من أن تطبق الشرائع على معرفة القلب البشري ودروس التاريخ . وهذه الاضاليل من شأنها أن تعيد حكم أبناء الاسر القديمة . فن ياترى أعلن مبدأ الثورة كواجب يقضى عليه القيام به ؟ ومن تملق الشعب بانتدابه اياه لمزاولة سيادة لا يقدر على موازاتها ؟ »

وأطال العاهل بمثل هذا الكلام لسان العتاب على الاعمال التي فعلوها لتحويل ميل الشعب عنه ولا جرم أن هذه الاعمال لا يبقى لها من أثر في التاريخ في جنب السطور القليلة المذكورة فيها هفوات ذلك الرجل العظيم بأزاء الصفحات الكثيرة المتضمنة ذكر عجائب ومحاسن ملكه وحياته وستستحق هذه الصفحات من دون سواها أن يقرأها الشعب في الاجيال التالية . الا أن الجيل الحاضر لا يتيسر له أن يبرز أحكامه وهو مستهدف لنبال النكبات . فان تأثيره الحالي يفوق تعلقه به بالامس ولا يدعه يفتكراً أنه سيعود في الغد الى الاعجاب بذلك الرجل العجيب ويقاسي هذا الجيل من طول مدة الحرب أشكالاً وألواناً وهو يسمع الناس من كل ناحية يقولون له ان علة الحرب هو ذلك الفانخ المشيد صرح سيادته والمبتغي توطيد أركانها في أوروبا قاطبة على ما يناله من المجد على اكتاف جنوده . وان الشعب الذي لم يكن في سنة ١٨١٣ يعرف سر الوزارات لا يدري ان نابوليون لم يكن متمدياً في جميع الحروب التي باشرها ولم يجعلوه يعلم أن الارسطقراطية البريطانية وحزب الملكية في القارة يصران على تذليل ممثل الثورة الفرنسية الكبري في شخص العاهل نابوليون . على أن الدول المتألمات عليه سيقطن له بعكس ذلك انهن انما يهاجمنه طمعاً بانقاذ الشعوب من شره وانهن لم يمدن الا الى كبت الاستبداد الثقيل الوطأة على أوروبا وهن سيجاهرن بأنهن معتمدات بحبل الحرية رجاء أن يستلمن الشعوب اليهن . أما نابوليون فانه بدلا من أن ينبه الشعب الفرنسي مشعراً اياه بأن أعداءه يترسون به لهدم المبدأ الديمقراطي وملاشاة ميراث الثورة يتهم الملوك في مجلس الشيوخ بنكران الجيل مذكراً اياهم بأنه أقدم من تيار الثورة الجارف وأخذ البركان الذي كان يتوعدم بالحريق .



مارى لويز وملك روميه

الا أن وقت المجاهرة بالمداوة لم يكن قد دنا في القارة للدول المظلمى اللواتي جرهن نابوليون معه الى الديار الروسية فالجيش الفرنسوي لا يزال نجيبا في جميع أنحاء المانيا

ولما عاد نابوليون من روسيا أبدى استياءه من تصرف بعض أرباب الخطط في سلطنته على أثر ما أجراه مالي من التهميم على سلطته وذكر في جوابه لمجلسي الشيوخ والشورى انه مقضي على الحاكم بأن يستعد دائما لبذل مهجته على مثال هارلي ومولاي في سبيل الدفاع عن العاهل والعرش والشرعية وقال فيما بعد : « عند وصولي جعل كل انسان يخبرني ببساطة وتفصيل كل ما يتعلق به مما يلقيه تحت طائلة التبعة . واعترفوا بانهم فوجئوا وانهم اعتقدوا تخري... فقلت لهم: أو لم يبق عندكم ملك رومية ؟ فإذا غلتم بأقسامكم ومبادئكم ومذاهبكم ؟ وانكم والحق يقال تجهلون فرائضي ترتعد خوفا على المستقبل... وأردت حينئذ أن أريهم عبرة أنبه بها الافكار من غفلتها واجعلها تسير على مشكاة الهدى . فكان فروشو حاكما بباريس غرضاً أصابته سهام هذه المعبرة وهو من المتعلقين في كل التعلق » .

وبعد مافصل فروشو من منصبه وونب كبار رجال الامبراطورية على حملهم وفرغت مجالس الحكومة الكبرى من تأدية اتاوة التهانء فكرر العاهل في اتخاذ التدابير المعجلة الداعية اليها حالة البلاد الحربية : فلم يجد القرعة العسكرية العادية كافية فطلب من مجلس الشيوخ - وهذا المجلس يادر الى اجابة طلبه - تقرير تعبئة ثلاث مئة وخمسين الف مقاتل

وأُسِّرعت بقايا الحملة الروسية في اجتياز بولونيا فانضم عند حدود المانيا ما تمزق من شملها وتمكن الفرنسيون مع تبدد جموعهم وانكسارهم وخشوعهم أمام العناصر المنيفة من مقاتلة الروس والانتصار عليهم في معركة نشبت عند المؤخرة في كونا بقيادة المارشال ناي ولم يكن بلا توف ورجاله القوزاق يتجرأون من ذلك الحين على التشكك باولئك الابطال القليلي العدد المحصور فيهم شرف ومجد وشجاعة الجيش العظيم . وقد وصلنا الآن الى زمن لم يبق فيه دهاء الانسان وبأسه مستطيعين ان يتقيا على غير طائل ما تنزله عليه يد خفية من الضربات الهائلة . وهب لازم النصر الفرنسيين في أنشاء حلول

المصائب بهم فقد راق الحظ أن يظهر بمظهر المعاكسة لهم متغبراً عليهم . وقد أوجد لهم الحظ حلفاء يرتاب بصدقهم وهو الآن يبعد عنهم أولئك الحلفاء الواحد بعد الآخر ويصيرهم من أشد الناس عداوة لهم : وكان الفيلق البروسياني المساعد أول المجاهرين بالعداوة فان قائد الجنرال يورك فاوض الروس في أمر الصلح ولم يفعل ولا مراء شيئاً من الأشياء من تلقاء نفسه بل عمل بموجب الاوامر الواردة اليه من حكومة برلين . وان الملك فريدريك غليوم الموضوعه بلاده تحت رحمة الفرنسيين أنكر في بدء الامر بطريقة رسمية ما أمر به سراً . ولكنه حقق فيما بعد ما كان من خيانتة العظيمة المشهورة ما أتهموه به من العمل خفية .

واستسلم الجنرال يورك الى الجنرال ديابتش في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨١٢ وأسرع مورات في ٨ يناير سنة ١٨١٣ — وكان نابوليون قد أقامه وكيله الاكبر — الى ترك الجيش الفرنسي حائداً الى نابولي وتاركا القيادة العامة الى البرنس اوجين . ولما انتهى الى نابوليون خير انطلاق مورات الفجائي عد عمله فراراً من الجندية تتلوه اثاره الشكوك فكتب الى شقيقته كارولين ما يأتي : « ان زوجك بطل مجرب في ساحة القتال ولكنه أضعف من امرأة حين يصبح ولا عدو أمامه فليس له أدنى شجاعة أدبية » . وكتب الى مورات ذاته مايلي : « أظن انك لست من الالئى يعتقدون ان الاسد مات فان أنت اعتقدت ذلك كنت من الخاسرين . وقد سببت لي بعد مزاييتي لفيلنا كل مايمكنك أن تسببه من الاذى فان لقب ملك جملك تفضل عن طريق الهدى » .

وكان هذا الملام مبدياً على الحقيقة فان مورات لما هجر الموقف الذي تركه فيه الامبراطور جعل اهتمامه بتاجه فوق اهتمامه بمجده وكان من نتيجة ذلك انه فقد الاول من دون أن يتمكن من المحافظة على الثاني . ما أسرع مسير الحوادث ! فان نابوليون لا يزال في مفتتح عهد تنكر الاقدار عليه ومع ذلك استطاع الشعور بما تدخره له من الخيانة والمعاكسة .

وتسرب نكران الجميل الى نفوس المدنيين له بكل شيء : بمناصبهم وشهرتهم . وثروتهم وذهب وشائجه في فؤاد أحد أنسابه الادين فنمت فيه دوحة الخيانة ؟ وهل يمكنه بعد هذا العمل الفظيع أن ينتظر غير وقوع الرزايا وحلول النكبات

وافتح المجلس الاشتراعي جلساته في ١٤ فبراير في احوال سيئة جداً . على ان نابوليون مع علمه بما صار اليه المجلس من سقوط المنزلة ظل يرى فيه شبح الديمقراطية التي عمل فيما مضى على كم فيها في سان كلود وقد انتقد في الخطاب الذي خطبه عند افتتاح المجلس المبادئ النظرية للحرية التي لم يعن بممارستها في خطابه لوفدي مجلس الشيوخ ومجلس الشورى . ولم يهتم الحكومة البريطانية بسيرها على ما رسمه لها بت من الخطة لتحريرش الملوك المتحدرين من اسر قديمة على الشعوب الممتقة من نيرهم أو النافذ صبرها للتخلص من هذا النير بل اتهمها بنشرها بين ظهرا في الشعوب روح المصيان على ملوكها وكان يعتبر أو يتظاهر بأن يعتبر أن الجوائح النازلة به تعد نوعاً من مداعبة الحظ له مداعبة بسيطة فأغضى طرفه عن خذل حلفائه له وتقاعدهم عن مناصرته رجاء أن يمنهم عن التمادي في الانحراف عنه والخيانة له بما يبديه لهم من الانتصارات الجديدة الباهرة وقهر أعدائه . وكان شديد الثقة بالمستقبل بحيث أنه لم يحجم عن القول بمباهاة وشدة : « ان الاسرة الفرنسية تملك وستملك في اسبانيا ، » ولم تكف تعبئة الجيوش لتحقيق الثقة وتمهيد السبيل لنيل النصر المبين الجديد الذي كان نابوليون يطمع به بل أعوزه إيجاد موارد مالية جديدة فلم يكتم شيئاً من أغراضه وحاجاته عن المجلس الاشتراعي ، فقال له : « اني راغب في السلم وهي ضرورة للعالم ولما خربت حرمة اليهود على أن تعقد وثيقة أميان اقترحت السلم اربع مرات ساعياً وراء ادراك هذه الغاية سعياً حثيثاً بطريقة رسمية . وأحاذر أن أعقد صلحاً لا يكون مكرماً وملائماً لمصالح سلطنتي وعظمتها . »

الفصل الثامن والعشرون

حرب سنة ١٨١٣

ولم يظهر نابوليون في عنفوان حياته العجيبة المستوجبة أن تعد من الإخبار الدائرة عليها رحي الملاحم أكثر مما تعد من الحوادث المدونة في أسفار التاريخ أعظم مما أظهره في العراك العنيف الذي اضطر الى مباشرته في مواجهة الحظ الغليظ الكبد . فما كان أمضى ذلك المشهد وأحزنه ! وقد أحرز نابوليون كل ما يستطيع احرازه من القوة والثبات وعلو الهمة والدهاء ولم يكتف باحرازها بل نهم باسرارها فان قامه الجبار الادبية كانت تلتصب كلها كان جثمان الماهل ينحني . فهي ولامرء العظيمة الانسانية بجميع مجلاتها وقوتها وسببها العالية تناهض القوى الفائقة الطبيعة المحاولة الغض من منزلتها من دون أن تتمكن من تذليلها .

وبسط الماهل لفرنسا نكباته وارادته وآماله فتعرك الشعب عند سماعه صوته ونسي شكواه وجاد عليه بانثائه : فتألف في أشهر جيش جديد وتهيأ لمباشرة القتال . وأقامت بقايا الجيش العظيم تلتظره على ضفاف نهر الألب . وقبل أن يبرح نابوليون باريس تذكر عمل مالاى فعمد الى صيانة حكومته من الفوائل الممكن حلوها بها في أبواب تنفيه فألقى بمقاليد الحكم الى الامبراطورة ماري لويز وأقام الى جانبها مجلس وكالة وقد شاء أيضاً أن يكون خالي الذرع من جهة الشعب الممكن حدوثه من جراء الخلاف الناشئ بينه وبين الكرسي الرسولي فعالج تسوية المسائل مع بيوس السابع وتمكن من حمل البابا على التوقيع على وثيقة جديدة أذيعت على أثر توقيعها مع رغبة الخبر الاعظم الخاضع على رغم منه لاحكام الضرورة في تقضها .

واعتقد نابوليون في أثناء تهيئة المعدات الهائلة انه عند وصوله الى نهر الالب لا يكون أمامه من الاعداء جيوش القيصر فقط بل يكون أمامه أيضاً خلفاؤه البروسيانيون والنمساويون الذين يضمرون له العداوة ويترصدون الفرصة للملاعة للمجاهرة بها . فبان له ان تعبئة جيش مؤلف من ثلاث مئة

وخمسين ألف محارب لا يكفي للغاية التي يرمي اليها . فأمر بتجنيد جيش جديد يتألف من مئة وثمانين ألف مقاتل . فأذعن الشعب الى مقتضيات الاحوال وان لم يعد يشعر بما كان يشعر به من الحماسة في الزمان القريب من مارنفو واسترلنز . بيد أن أبناء طبقة الموسرين وان كان يهمهم الدفاع عن الوطن أكثر مما يهم سواهم سعوا بواسطة المال للفرار من الخدمة الجندية تخشيت كل أسرة من مصير الجندي الفرنسي وبذلت ما تيسر عندها من النقود لتخليص أبنائها من الخدمة العسكرية . ولم يجهد نابوليون أن نفور القوم من الجندية كان يزداد مع ازدياد المخاطر والحاجات في سلطنته وقد أصبح وباء يتعذر استئصال جراثيمه من الافة ولكنه أمل أن يتمكن من تخفيف وطأته : فاذا دفع أبناء البيوتات المبالغ الطائلة طمعاً بالتخلص من المتاعب التي يقاسمها المنتظمون في سلك الجندية استطاع هو حين تدعو سلامة الدولة الى المساعدة أن يحول دون تباطؤ الشبان الاغنياء تباطؤاً تاماً عن افائة وطنهم بدفعهم المبالغ الوفيرة من التضار فانهم يضطرون الى انشاء فيلق خاص قوامه عشرة آلاف جندي تتألف منهم أربع فرق لحرس الشرف فلا يتسنى لأحد من أبناء الاسر النبيلة الغنية أن يعفى من الخدمة التي تعينها له الحكومة . وقد صدر في ٣ ابريل سنة ١٨١٣ قرار من مجلس الشيوخ بالموافقة على هذا الاقتراح .

وأيقظت أصوات المدافع في البرسينا زعيم اسرة البوربون المقيم في هرتول وجعلته يعلل النفس بالآمال : فان معارضة الثورة وان يكن قد نالها بعضا بعنف وشدة أصحاب الجرأة في الشعب والجيش بانت اللويس الثامن عشر بمكنة للفوز بالألماني . وانه وان تكن بسالة الجندي الفرنسي عند المام الملمات ونزول النوازل لا يعترها أدنى تغير ظن أن حماسة الامة الوطنية خمدت نيرانها بحيث ان الاجنبي صار يأمل ألا يلتقى في فرنسا النهضة العامة التي صيرت جميع المؤامرات السابقة عقيمة . وملأت هذه الافكار دماغ الدعي فأذاع نشرة في بريطانيا العظمى وفي القارة حرك فيها بنوع خاص نفور الناس من الحرب وتبرمهم من طول مدتها ناسبا الى نابوليون الاسباب الباعثة عليها وواعد الشعب بأن ينيله أشياء كثيرة من جملتها الغاء القرعة العسكرية . فلم يعلق الامبراطور أهمية

كبرى على هذه النشرة ولم يعن بأمر مراقبة أو ابعاد المالكين الكثيرين الذين أسند اليهم المناصب المختلفة في حكومته فان ما وقع في ألمانيا لفت نظره وعنايته .

وهبت عاصفة الفتنة في المدن المتحالفة فانتظر القوم انفجار بركان الخلق في الارض الألمانية انفجاراً هائلاً على أيدي جمعيات سرية . وأدت الثورة الشعبية الى الغاء النظام في الفرقة الثانية والثلاثين الحربية (همبورغ) وكان فتیان الجامعات في مقدمة الحركة فأذاعوا أسرار بغضائهم للأسم الفرنسي واستثقلهم لنير الاجنبي وجأهروا باعتصامهم بأهداب الافكار الحرة المنبثق منها خلاص فرنسا ومجدها . على أن الامراء الذين ناصبوا من عهد بعيد هذه الافكار شجعوا سرّاً أو عضدوا علانية ما صاروا يسمونه فيما بعد « دسائس المتحزبين للشعب » .

ما أغرب هذا الموقف ! فان حرب سنة ١٨١٣ لم تكن في نظر المملك سوى تنمة لحرب سنة ١٧٩٢ فهي مناهضة الثورة ومع ذلك خالفت لهجتهم كل المخالفة لهجة بلنزر وكبلنزر . وبدلاً من أن يثابروا على استنصارهم الاوهام السياسية والدينية عند الشعوب على الديمقراطية الفرنسية صاروا يستثيرون الذكاء والعقل الفلسفي ووطنية الشعوب باسم الحرية على استبداد فرنسا . ولم تنكف الحرية بغلبها المملك بل جعلتهم يظهرون بمظهر الرياء وهدت الامم وحدث هذا التغير العظيم في روسيا خصيصاً . وأدرك نابوليون فيما بعد ان انتشاراً حراً هياً له مساعدين أقوياء حين أوجدت له نكباته أعداء شديدي العداوة فقال متأسفاً : « لقد ارتكبت خطأ عظيماً بعدم خلعي ملك روسيا عن عرشه حين كان يسهل عليّ ذلك وقد كان ينبغي لي بعد معركة فردلاند أن أسلخ سيمليزيا عن روسيا وألحقها بمملكة الساكس . فلك روسيا والبروسيانيون تجمروا كدؤوس المهانة بحيث أنهم عملوا على الانتقام لأنفسهم في أول فرصة عرضت لهم . فلو منحهم دستوراً حراً وحررت الفلاحين من عبودية أصحاب الاقطاعات لسرت الامة بهذا العمل » .

وعليه ادخرت روسيا العداوة لفرنسا ولم تصدر العداوة عن الامة التي أبقاها نابوليون بتغفله راسفة في قيود العبودية بل عن الملك الذي أبقاء بكرم

أخلاقه جالساً على عرشه . ولم يظل عمل الجنرال يورك المتلقي الأوامر من مولاء بأجراء هذا العمل مموهاً على الناس وقتاً طويلاً فكانت حكومة برلين تبدي يوماً فيوماً أعمالاً تدل على فساد دخليتها ومعاداتها لفرنسا . ففني صبر العاهل للانتقام منها على خيانتها ومعاقبتها على رياء تمكنت من القاء الستار عليه مدة شهرين من الزمان ، وأعلن نابوليون في الايام الاولى من شهر ابريل حرباً عاجل ملك بروسيا متقريب أجلها من دون أن يتجرأ على اعلانها وتأهب للزحف الى الالب .

وظهر لنابوليون عدو جديد في دول الشمال : فلم يكتف برنادوت بتولي العلاقات مع الروس بل طمع بمقاتلة الفرنسيين . وفي شهر أغسطس سنة ١٨١٢ قال للاسكندر المصمم كل التصميم على رفض الاقتراحات السلمية في اجتماع ابو المشهور . « ان ثباتك على عزمك يحرر أوروبا » . فأثر في القيصر كلام جندي الجمهورية الفرنسية ومجاملته له فضمن له الاستيلاء على عرش اسوج وعلله أيضاً بلبس تاج فرنسا . وبعد ما نزل بالفرنسيين من الارزاء في معركة موسكو ظن برنادوت ان الحين أوف للسير الى الغاية التي أثاروا مطامعه لأجل ادراكها فتظاهر بالغيرة على مصالح وطنه الجديد وسعى لارواء غليل الحسد الذي كان يتأكله في ١٨ برومير ولتحقيق الآمال الوهمية التي كان طاهل داهية قد جعله يعني النفس بها . وقال نابوليون في هذا الصدد : « لو كان ذا حكم صائب وذا نفس عالية تحكي علو مقامه ولو كان اسوجياً حقيقياً كما يزعم لاستطاع أن يعيد الى وطنه الجديد بهاء وسطوته وأن يسترجع فنلندا أو يستولي على بطرسبرج قبل وصولي الى موسكو . ولكنه انقاد الى حقد شخصي والى عجب مقرون بالحقارة وعواطف حقيرة وقد استهواه وهو من أبناء الثورة تقرب الملوك العريقين في الشرف منه وعقده المؤتمرات وخطبه صداقة طاهل الروس وهذا لم يدخر شيئاً من التملق له » .

وقبل أن يصطف برنادوت تحت ألوية أعداء فرنسا أراد أن يتمحّل لدى الملأ الاوربي ولدى الاجيال الآتية عذراً له ببسطه للجميع ان الحصار البحري مضر بمصالح اسوج التجارية . فكتب الى نابوليون كتاباً يعتبر مقدمة لتبرئة ساحته من الملامة والعتاب وضمنه الشكوى ممن كان تارة خصمه وتارة

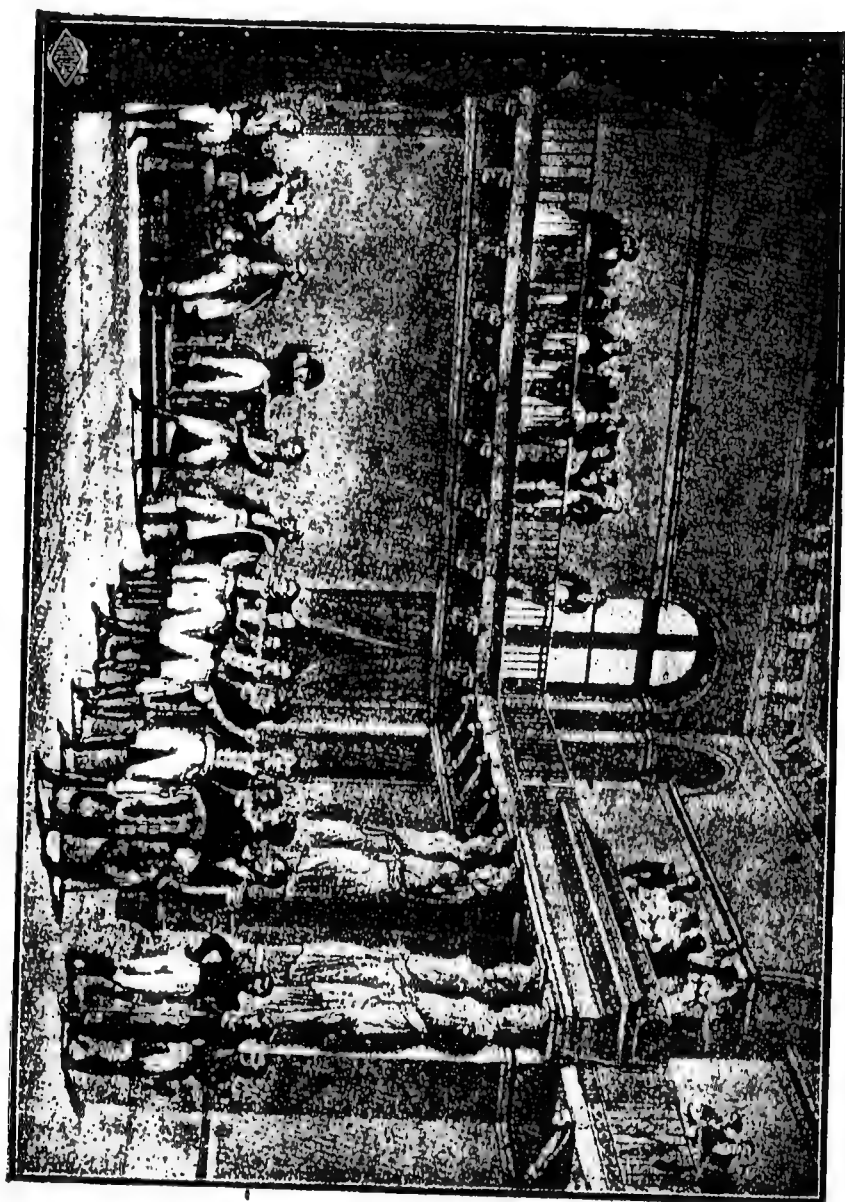
مولاه منهما اياه بكونه سبباً لاضرار نيران الحروب السابقة ولسفك دماء مليون من البشر في سبيل طريقة تناوب الحقوق وتلف تجارة الشعوب . وختم رسالته بهذه الكلمات : « ان نكبات القارة تقتضي السلم فيجب على جلالتك ألا تنبذ هذه السلم » .

ولم ينبذ نابوليون السلم بل نشدها مع منازل به من المصائب كما كان يطلبها وهو يجر ذللاً الانتصار أي شيء ان تكون مبنية على قواعد اليهود المبرمة في تلست . على ان برنادوت ذاته وقد هنا الاسكندر بثباته على الحرب علم حق العلم أن إطالة مدة القتال غير مسيبة عن حكومة التويلري ولكن ضمن لا يكثرئون لليهود المقطوعة في تلست والصدقة الموطدة اركانها في ارفرت . . ولم يستطع نابوليون في غير ساحة القتال ان يجاوب على الملام المر والعتاب المقرون بالسفاهة الموجهين اليه من قائد من قواده الاقدمين وقد قال في مفكراته التي املاها في جزيرة القديسة هيلانة ان هذا القائد أوشك ان يسلم اعداء فرنسا مفتاح سياستها وخطة جيوشها الحربية ويدلهم على طريقها وبرح العاهل سان كلود في اواسط شهر ابريل . سرعاً الى الملتنى الجديد الذي عينته له دول الشمال في المانيا .

واضطر الجيش الفرنسي الى ابقاء حاميات كثيرة في المواقع المحصنة التي تركها وراءه بين دننزيك ومغدبورغ وخيم هذا الجيش على ضفاف السال بقيادة البرنس أوجين . وكانت درسد وليبنزيك قد سقطتا في حيازة البروسيانين والروس فألجئ ملك الساكس الى الانزطاج عن بلاده والتفتيش عن ملجأ تحت ظل المدافع الفرنسية . واغتم اعداء نابوليون في كل جهة الفرصة من تغيبه عن جيشه وتقدموا الى الامام .

وأوشك نابوليون أن يظهر بين جنوده ووصل الى ارفرت في ٢٥ ابريل بعدما استولى المارشال ناي على ويسنفلس بعد معركة قال عنها : « انه لم يرقط أ كثر مما رأى فيها من الحماسة ورباطة الجأش في المشاة » . وقد افتتح ناي الحرب الجديدة وكان من نتيجة ظفره هذا دحر العدو على ضفة السال النجنى والتحام الجيش العائد به البرنس أوجين من بولونيا بالجيش القادم به العاهل من فرنسا .

حلف الرشالية



ونقل نابوليون مركز أركان حربه الى ويسنفلس ومد ثلاثة جسود على نهر السال وانتهى اليه وهو هناك نبأ حادثة من الحوادث الدالة على الشجاعة والجرأة المتصف بها الجندي الفرنسي والمذكورتين في تاريخ الحروب الفرنسية وقد تمكن من التحقق بان النكبات لم تغير شيئا من أفضلية الجندي الفرنسي وشدة صميمته وجرأة مقدمه . وتحرير الخبر أن كولونلا من البروسيين أحاط معه مئة فارس من فرسانه بخمسة عشر فارساً من فرسان الفصيلة الثالثة عشرة بين سالفند واينا وانهرهم داعياً اياهم الى التسليم . فاجابه جاويش الفصيلة باطلاقة النار عليه وقتله واندفع رفاقه يرمون القذائف على البروسيين فقتلوا منهم سبعة واضطروا الباقين الى الفرار .

واستأنف المارشال ناي أعماله في أول مايو مطرداً أعماله المتوالية أمام انظار نابوليون وهجم بفرقة سو هام وقد أُلّف منها أربعة مربعات وهو يصيح بملء فيه : فليحي الامبراطور ! فاجتاز مضيق بوزرنا وكان يدافع عنه ثلاث كوكبات من الفرسان ومعهم ستة مدافع . وجرت وراء ناي فرق جبرار ومرشان وبرنيه وريكار وانهمزم في بضع ساعات خمسة عشر الف فارس يتقدم وتنحجورود أمام خمسة عشر الف مقاتل من المشاة الفرنسيين في السهل المنحصب الممتد من مرتفعات ويسنفلس الى الالب . وكان فرسان الحرس بقيادة المارشال بسيار يعصدون المشاة ومع أنهم لم يشتبكوا في المعركة أصابهم خسارة شديدة في ذلك اليوم . وقال نابوليون في تقرير ارسله الى الامبراطورة : « ان الاقدار المملوء منها تاريخ الحرب جعلت أول قذيفة تطلق في ذلك اليوم من المدافع تقطع معهم دوق استريا (بسيار) وتخرق صدره وتصرعه على الدقواء وكان قد تقدم نحو خمس مئة خطوة من جهة الرماة لاستكشاف السهل . وهذا المارشال الذي يصبح أن يطلق عليه لقب شجاع وعادل اشتهر باصابة نظره الحربي وبسعة اختباره بشؤون الفرسان كما اشتهر بصفاته الادبية وتعلقه بالامبراطور وحرك موته في ساحة الهيجاء عوامل الاغتياب له في افئدة الناس وكان سريعا بحيث أنه لم يجعله يشعر بأذى ألم . ويقل وقوع خسارة تؤثر بفؤاد العاهل كما أثرت به هذه الخسارة وسيدشاطر الجيش وفرسانا الامبراطور الحزن على فقده . »

وجعل نابوليون مركز أركان حربه في لوزن في ليل اليوم الاول الى اليوم

الثاني من شهر مايو وقد استولوا عليها بعد معركة اليوم السابق. واحدق رجال الحرس الشبان والكهول بالامبراطور وألفوا ميمنة الجيش. وكان ناي في الوسط فاحتل كايا. وكان البرنس أوجين يقود الميسرة المستندة إلى اليسار.

وتحرك الجيش في ٢ منه في الساعة العاشرة صباحا في السهل المشهور بنصرة غستاف أدلف تحت أنظار عاهل روسيا وملك بروسيا القادمين لينعشا بحضورهما همهجنودهما. وهجم عساكر الحلفاء هجمات صادقة على وسط الجيش الفرنسي وزحفت فيالق هائلة من الروس والبروسيين بصفوف متلازمة إلى كايا فاضطر المارشال ناي إلى الوقوف في وجهها بثبات شديد وكان موقف أعداء الفرنسيين وعددهم الكثير يجهلهم يأملون باصابة النصر فكان عندهم فرسان بسل أما فرسان الفرنسيين فقد دفنوا تحت الجمد والثلج في روسيا وقال العاهل في ابتداء المعركة لجنوده: « هذه معركة نظير معارك مصر فالمشاة الشجعان يجب عليهم أن يعلموا كيف يسدون حاجاتهم ». وعيل صبر الجنود لتحقيق كلمة قائدهم العظيم فاستولوا على قرية كايا وفقدوها ثم استرجعوها مرات متوالية وبقيت في آخر الامر في حيازة الجنرال جيرار وهذا وان يكن قد أصيب بعدة رصاصات لم يشأ أن يبرح ساحة القتال فقال ان الوقت دنا لكل فرنسوي هام لينتصر أو يموت.

وظل النصر متردداً بين الفريقين مع ما أصابه الفرنسيون من الظفر ومع ما أبدته فرق المارشال ناي الخمس من الجرأة والاقدام : فلم يبلغ الاعياء من الروس ولم يقعدهم عن القتال فكانوا يهجمون هجمات صادقة على وسط الجيش الفرنسي مؤملين ثم حده واختراقه . وقد توهموا حيناً من الزمان أن النصر جنىح اليهم فان بعض الفرق في الجيش الفرنسي كثر عليها عدد المهاجمين فتراجعت إلى الوراء وكادت أجزاءها تتفكك . وعادت قرية كايا فسقطت في أيدي الروس ولكن اتفق في تلك الاثناء أن قدم نابوليون فانضم ما تبدد من شمل رجاله وزحفوا إلى الامام وهم يصيحون بملء أفواههم : « فليحي الامبراطور ! » أجل ان التصدي للروس في هجومهم لم يكن في ذلك الحين بالامر السهل ولكن الفرنسيين لم يكتفوا بذلك بل صحت عزائمهم على نيل الغلبة بطريقة جازمة .

وبينا البرنس أوجين والمارشال مكدونال يهجمان على جناحي الروس وجيشهم

الاحتياطي والجنرال برتران يخف للاصطفاف في ساحة الهيجاء أمر نابوليون
المارشال مرتيه بأن يهجم بالحرس الفتيان على قرية كايا ويستولي عليها ويبطش بكل
من يتصدى له . وقوض الى الجنرال دروو حاجبه أن ينصب بطارية مؤلفة من
ثمانين مدفعا في مقدمة الحرس القدماء الموكول اليهم عضد وسط الجيش
والاستناد الى فرسانه المصطفين للقتال الى الوداء . فاجريت أوامر العاهل بكل
تدقيق وكان أن البطارية التي دبر أمرها الجنرال دولولوى والجنرال دروو
والجنرال ديفو قذفت أمامها الذعر والموت على صفوف الاعداء وجاءت نوبة
الروس والبروسيانين للانهمزام والتبدد ولكن هذا التبدد لم يكن هذه المرة
وقتيا وجزئيا كما كان في بعض فرق الفرنسيين على ماسبق بيانه فانه ما عثم أن
أصبح في الجيوش الروسية والبروسيانية عامكا ونهائيا : فأخذ مرتيه كايا بلا
قتال ووصل الجنرال برتران في الحين الملائم لاكمال قهر الاعداء وتزريقهم
أيدي سبا .

وملا هذا الانتصار نفس نابوليون بهجة وسرورا فانه التقى في جنوده
الفتيان ما كان يلفيه من البسالة في رفاقه القدماء فقال : « لقد مضى على
عشرون سنة وأنا أتولى قيادة الجيوش الفرنسية ومع ذلك لم أنظر مثل ما نظرت
في هؤلاء من البسالة وبذل النفس » . فقد انبعث الجيش العظيم ليزول غرور
الراصمين أنه دفن الى الابد في مجاهل الاقاليم الشمالية . وقد علل الامبراطور
نفسه بانه سيسهل عليه أن يستعيد بهذا الجيش أهبة اسمه وتفوق منزلته الادبية
في أوربا فقال : « لو شهد الملوك والوزراء مدبرو شؤون حكوماتهم هذه
الحرب لعدلوا عن سعيهم لجعل نجم فرنسا يأفل » . فان جيشا مؤلفا من مئة
وخمسين الفا الى مئتي الف مقاتل انهزم انهزاما تاما أمام جيش لا يزيد عدد
رجاله عن نصف عددهم . وبلغ عدد قتلى الروس والبروسيانين وجرحاهم ثلاثين
الفا وبلغت خسارة الفرنسيين عشرة آلاف رجل

وعمد نابوليون في غد اليوم الذي نشبت فيه هذه المعركة المشهورة الى أمر
شديد التأثير في رجاله فانه التقى عليهم الكلمات التالية التي انتشرت في ٣ مايو في
مركز أركان الحرب الامبراطوري في لنزن :

أيها الجنود :

« اني مسرور منكم فقد حققتم آمالي بكم وعوضتموني من كل شيء بارادتكم وبسالتكم . فقهرتم في يوم ٢ مايو المشهور وهزتم الجيش الروسي البروسياني الذي يقوده العاهل الاسكندر وملك بروسيا . وقد أضفتم بهاء جديداً الى مجد أعلامي وأظهرتم كل ما يستطيع الدم الفرنسي إظهاره . وسيكون مقام معركة لنزن فوق مقام معارك استرلنز وايانا وفردلانند والموسكوف . . . »

— * * * —

الفصل التاسع والعشرون

تابع حرب سنة ١٨١٣

ولما انهزم في لنزن جيش الاسكندر وفريدريك غليوم المختلط بأدر هذا الجيش الى العبور الى ضفة الالب المني . واستولى نابوليون في ١١ مايو على درسد وخف في الفد الى لقاء ملك الساكس . فدخل هذا باحتفال عظيم عاصمته بين قرع الاجراس وهتاف الجماهير الفقيرة . وظل الامبراطور راكبا جواده الى جانب هذا الملك الجليل ورافقه على هذه الصورة الى قصره بين قصف المدافع .

وبعد ما أعاد نابوليون حليفه الامين بانتصار باهر الى عاصمته كان أول أمر فكر به بعد قهره أعداءه اقتراحه عليهم عقد مؤتمر في براغ لتقرير شروط الصلح العام . إلا أن اقتراحات الظافر في لنزن لم تحل محل القبول فكان نصيبها نصيب اقتراحات الظافر في موسكو . وعلم نابوليون من الاخبار الواردة اليه من وكلائه السياسيين ان « الوهدة المغطاة بالازهار التي داسها عند عقد قرانه موشكة أن تغر فاها أمامه وقد دنت ساعة خيانة حميه » . إلا أنه كتم شكواه وقلقه واكتفى بارسال البرنس أوجين الى ايطاليا مفوضاً اليه تعبئة جيش لمواقعة النمسا اذا ما خطر لها أن تهاجم البلاد الفرنسية .

ولما افترق نابوليون عن البرنس أوجين لم يذهل عن ابداء سروره منه بشكل علني ورضاه عما أداه من الخدم الجليلة للجيش من ابتداء الحرب الاخيرة فرفع الى درجة دوقية قصر بولون وأرض غاليليا الجارية على ملكه الخاص وجاد بها على أميرة بولون كريمة أوجين البكر

وكان الامبراطور في درسد لما بلغه خبر استسلام سبندو فغلي جوفه لذلك الحادث متفزعاً من تأثيره تأثيراً سيئاً بالحاميات الاخر وفي الحال أمر بالجنرال المتولي قيادة حامية ذلك الموقع أن يوقف ويساق أمام مجلس مؤلف من المارشالية وأمر باعضاء مجلس الدفاع أن ياملوا بنفس هذه المعاملة لانهم لم يعترضوا على عمل القائد . وقد قال نابوليون : « لو سلمت حامية سبندو بلا حصار موقعا حصيناً تحيط به المستنقعات ووقعت شروط تسليم صار موضوعا للتحقيق والحكم لكان تصرف حامية ويتمرغ مخالفاً لتصرفها . وقد أحسن الجنرال لا بويب التصرف ودافع عن شرف الجيش في الذود عن ذلك الموقع الحصين مع كونه غير محصن تحصيناً كافياً وقد هدم نصف سورده ولم يتمكن من المقاومة إلا بفضل المدافعين عنه الشجعان »

ولما لم يبق نابوليون منتظراً شيئاً من وراء مقترحاته السلمية خرج من درسد في ١٨ مايو ميمما اللوزاس لاستئناف حركاته الحربية فنال في بضعة أيام انتصارات جديدة باهرة وقهر لوريستون الجنرال يورك في ١٩ منه في ويسبي . وانتصر الماهل بذاته في ٢٠ و ٢١ منه في موقعي بوتزن وورنجن . وتعقب الجنرال رينيه مؤخرة الروس في ٢٢ منه فأدركها وظهر عليها في مرتفعات ريخنباخ . ولكن جرى في آخر ذلك اليوم حادث مؤلم جديد فاق تأثيره بنابوليون جيم ما ألم به من الحوادث المؤلمة الماضية على أثر فقدان قواده الابطال واخذانه الاصفياء كبسيارولان وغيرها فكان دوروك مارشال البلاط الامبراطوري الا كبر واقفاً على يقاع من الارض في الساعة السابعة مساء وفي مكان بعيد عن رمى القنابل يحادث المارشال مرتبه والجنرال كرجنر ومثرجلون فرت على مقربة منهم قنبلة جرفت الدوق دي تريفيزا وبقرت بطن دوروك وصرعت الجنرال كرجنر وقطعت أنفاسه

ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون خف الى المكان المضطجع فيه دوروك فوجد انه لا يزال فيه رمق من الحياة وأنه لا يزال حافظاً رباطه جأشه. فضغط دوروك يد العاهل وأدناها من فيه قائلاً له : « لقد وقتت جميع حياتي على خدمتك ولا أتأسف الا على الفائدة التي يمكنني أن أقفها عليك ». فأجابه الامبراطور : « يادوروك ثمة حياة أخرى فانتظري فنلتقي يوماً من الايام. — « أجل يامولاي ولكن سيتم ذلك بعد ثلاثين سنة بعد قهرك جميع أعدائك وتحقيقك أماني وطننا . . . لقد عشت رجلاً شريفاً ولا أنحي على نفسي بشيء من اللوم من جراء ذلك . فانا أترك ابنة أوئل أن تنوب جلالتك عني بأن تكون أباً لها . »

فتأثر نابوليون كل التأثر من ذلك السلام وقبض على يد دوروك اليمنى وظل نحو ربع ساعة سائداً رأسه الى يده اليسرى من دون أن يستطيع التفوه بكلمة واحدة . وحينئذ أراد دوروك أن يبدأ بالسلام رجاء أن يكفي نفس ذلك الرجل العظيم مؤونة الحزن ولم يذهل أنه مع كونه مولاه كان صديقه الحميم فقال : « بعيشك يامولاي اذهب فهذا المشهد يثير الشجن في قوادك ، « فاجاب نابوليون طلبه وغادره من دون أن يتمكن من أن يقول له غير هاتين الكلمتين : « الوداع يا صديقي . » واضطر العاهل الى الاستناد الى المارشال سولت وكولا تكور وقت ما عاد الى مضربه ولم يشأ أن يستقبل أحداً في ذلك الليل بطوله .

وأصاب الجنرال رينيه في الغد انتصاراً جديداً على الروس في وقعة غرلنز واجتاز المارشال ناي نهر نيس في ٢٤ منه ووصل في ٢٥ منه في الصباح الى ما وراء كيس فدخل بنزل ووصل الامبراطور اليها في المساء . ولقي كوتوزوف الشيخ حمامه في هذه المدينة من بضعة أسابيع .

على ان ما لقيه الجنرال ميزون من الفشل اليسير في ٢٦ منه أمام مدينة هاينو لم يثبط الجيش الفرنسي مدة طويلة عن المسير وعن نيل الانتصار .

واستولى الجنرال سباستياني بعد يومين في سبروطو على ذخائر وفيرة وظفر المارشال اودينو في الوقت عينه في هويرسفرديا بفيلق دي بولوف البروسياني ووصل الذعر المنتشر في برلين الى برسلو التي هدها لوريستون . على ان الملكين

المتحالفين وان صمما على مواصلة القتال ما دامت الحقوق العامة في أوروبا القديمة غير حالة محل الطريقة الفرنسية الحديثة شعرا بضرورة ايقاف رضى الحرب إما للم شعنهما على اثر الانكسارات اليومية المتوالية عليها من شهر من الزمان وإما ليهللا النمساويين البطيئين ليدبروا ما كانوا يتوخونه من الخيانة طمعا بتحويل جميع أهواء الحرب ضد نابوليون . وفي ٢٩ منه في الساعة العاشرة صباحا جاء الى مركز طلائع الجيش الفرنسي الكنت شوفالوف حاجب قيصر الروس والجنرال كليست البروساني ليقترحا هدنة كان قد فاوضهما الدوق دي فيسنس في شأنها في مفتتح الامر في دير واتلستادت قراب لينينز ثم في قرية بيدشروث المتحايدة حيث عقدت تلك الهدنة في ٤ يونيو ووقعت بعد دخول لوريستون عاصمة سيليزيا بثلاثة أيام .

وعين اليوم العشرون من شهر يوليو موعداً لنهاية الهدنة فألح نابوليون ليجعلهما يرضيان بعقد مؤتمر في براغ واقترح طلب وساطة الماهل النمساوي رغبة في عرقلة مساعي المجلس النمساوي .

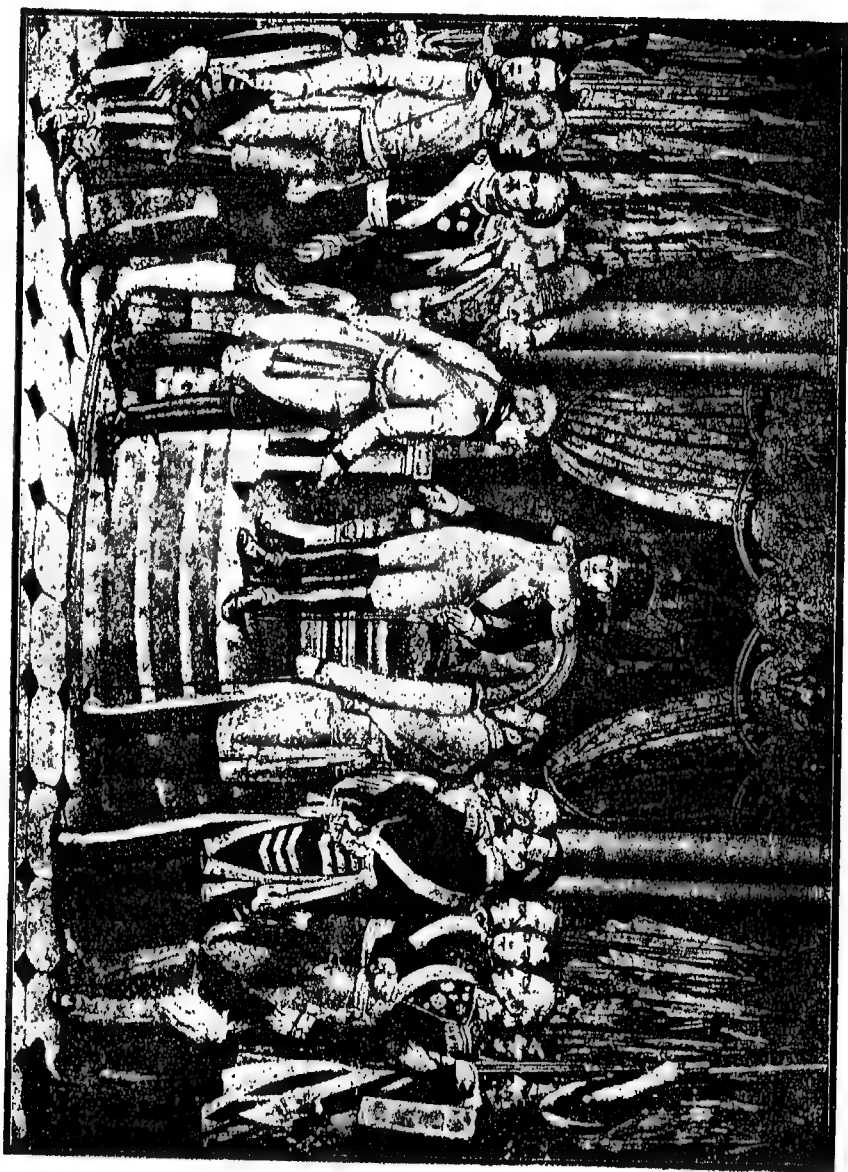
وتحاشى الساسة الاجانب البت في القضية متعمدين الماطلة فاغتم الميسو دي مترنيخ الفرصة من احترام نابوليون لحيه وسعى لدى الظافر في اترن وبترن لتديد أجل الهدنة الى ١٠ أغسطس . ولما انقضى الاجل المعين ورأت روسيا وروسيا ما طراً من الضعف على الحالة الروحية في الجيش الفرنسي على اثر انتصاراته الاولى واتخذت النمسا على مهل جميع التدابير لحياتها وتصيير هذه الخيانة وبيلة ومشؤومة على الجيش الفرنسي أعلن قواد الاسكندر وفريدريك غليوم انقضاء أجل الهدنة في ١١ أغسطس عند الظهر وقت ما كان وزير الماهل فرنسوى يبالغ الميسو دي تربون السفير الفرنسي في فينا اعلان النمسا الحرب على فرنسا . فاكشف نابوليون عمق الوحدة التي وضع فوقها رجله باتحاده بأسرة اللورين وسعيه لقرن نخر اسرته الحديثة النشأة بكبرياء العتر المالكة القديمة .

وطراً حادث فضائي كان من ورائه شكوك عظيمة في جميع أنحاء الامبراطورية الفرنسية فان مأموري المكوس في أنقرض أنهموا بالاختلاس وثبتت عليهم التهمة ولكنهم نجوا من طائلة العقاب الذي استوجبوه بعدل برشوم أعضاء مجلس

الاتهام . ولما انتهى الى العاهل ما كان من أمر تبرئتهم استشاط غضبا وبادر الى الكتابة الى القاضي الاكبر وزير المدلية بأمره باجراء التحقيق عن الاسباب الداعية الى انتقاد المجرمين من طائفة العقاب وانتصار الباطل على الحق . ودونكم ما كتبه في هذا الشأن :

« بناء على الفقرة الرابعة من المادة الخامسة والخمسين من الكتاب الخامس من دستور الامبراطورية نريد أن تقدموا لنا في مجلس خاص صورة قرار من مجلس الشيوخ يقضي بالغاء الحكم الصادر من محكمة الجنايات في بروسيل وبارسال هذه الدعوى الى محكمة النقض والابرار فهذه تعين مجلسا امبراطوريا تجدد لديه رؤية الدعوى ويحكم بها المجلسان المجتمعان من دون أن يكون لمجلس الاتهام تدخل فيها . ونزغب أن يعلم الراشون اذا قويت الرشوة على نسخ قوة القوانين أن حكمة واضعي الشريعة استدركت كل شيء . »

ودل هذا الامر على اعطاء نابوليون السلطة الامبراطورية المطلقة معظم ما لها من القوة فان ارادة المولى الاكبر لم تعتبر شيئا أعلى منها سواء كان في الامور المدلية أو في الامور السياسية . واذا ما دعت الآداب العمومية الى إثارة الشكوك والريب فلا يلقي له بدا من اصلاح ما فسد ولو قصت الحال باجراء ما يلزم اجراؤه من العنف تجاه النصوص الدستورية . على انه وان لم يكن لذلك الاحتقار لضمانة الصور الشرعية من غاية سوى ضمان قوة الشريعة ومعاينة الرشوة والخيانة فالمشتغلون بمنع الاستبداد عن الاستفحال والناظرون ان في ذلك العمل الدمار التام لاستقلال السلطة القضائية يضجون وقد استندوا الى مبادئ منتسكيو المستفاد منها انه حيث تتدخل السلطة الاجرائية في الاحكام ترتكب الحكومة فظائع منكرة . وكان من عداد أولئك الحكام حاكم انفرس فوايه درجنسون النزبه فانه أثر الاستقالة من منصبه على موافقته على ضبط أموال المتهمين المبرأة ساحتهم عند اعادة النظر في الدعوى المسوقة عليهم



معركة روسيا (الملوك المقيمون بالامبراطور نابليون)

الفصل الثلاثون

تنمة حرب سنة ١٨١٣

وتهاقت ملوك الشمال وامراء الالمان من كل جهة على انتجاع درسد ولكنهم لم يتهافتوا اليها هذه المرة تهاقتهم في سنة ١٨١٢ لتأليف حاشية من الرؤوس المتوجة حول ذلك الرجل العظيم بل جاؤوا بجيوشهم الجرارة لمقاتلته .

وكان مثمنا الف من الروس والبروسيانين والنمساويين بقيادة عاهل روسيا وملك بروسيا والبرنس شوارتزنبرغ يسرعون في اجتياز بوهيميا الغزو الساكس والتخيم على عدوة الالب اليسرى . وكان مئة الف محارب بقيادة بلوخر وساكن يقومون بالحركات الحربية في سيليزيا ومئة وعشرة آلاف مقاتل بينهم فيالق المتطوعين الكثيرين الملبين نداء الوطنية الجرمانية يزحفون على طول الخط بين همبورغ وبرلين للقاء الفرنسيين .

ورجحت أفضلية العدد ولامشاحة الى جهة الدول المتحالقات اللواتي ألقين لهم مساعداً قويا في روح الثورة المنتشر بين الشعوب الالمانية . على ان القرص الملائمة والعناصر المؤملة بنيل الظفر لم تكف لتجعل الحلفاء يعملون النفس بغلبة الثورة الفرنسية بشخص اعظم ابنائها . فاقبضت الحال أن يستميلوا اليهم اثنين من ابنائها ليصيبوا بواسطتهما سر الفن الحربي والتفوق العسكري وهما سبب عظمة وطنهما وعلة رفعة شأنه: فان مورو آثر مؤالفة سلطان مطلق على ضيافة شعب حر وهجر أرض وشنطن السعيدة ميمابلاذ العاهل الاسكندر ليكون مستشاره وخرج الى الحرب مع جيش بوهيميا العظيم تحت الراية الروسية بازاء الراية الفرنسية . أما برنادوت فانه على ماجاء في مفكرات القديسة هيلانة سلم اعداء فرنسا مفتاح سياستها وخطة جيوشها الحربية ودلهم على طريق أرضها المقدسة وكان هو المتولي القيادة أمام برلين .

وقد أنصف الشعب الفرنسي بابداء اعجابه واحترامه وثقته عند دنو ١٨ برومير وفي عهد القنصلية حين أبى أن يربط حظ الثورة بغير اسم بوناپرت وأعلن أن هذا الاسم مقدم على سواه بين أسماء جميع الوطنيين من دون أن

ينخضع بتصرف بعض الجمهوريين المعروفين بتطرفهم وتصلب آرائهم ومن دون أن يبالي باعتراضات بعض الافراد الميالين الى حمل مورو وبرنادوت على السير في ذلك العصر على الطريق الذي سار عليه بروتوس وكاتون وأمثالهما في العصور الخالية . فليبادر قدماء نادي مانيج وأعضاء جمعية الفيلادلفيين الاقدمين الى النكار تفضيلهم واعترافهم بأفضلية الميل الوطني الطبيعي وعصمته . فقد قام الآن متولي زعامة المعارضين في السنة الثامنة مقام برنسويك وخلف زعيم المحالفين في سنة ١٨٠٤ سوفاروف . . . وقد شاء الحق سبحانه وتعالى هذا الامر ليتحقق فكر الشعب العظيم وحماسته في الذي انتخبه واللذين رذلها .

ولا بأس من استعمال مورو وبرنادوت خبرتهما واستخدام ذراعهما المشؤومة لمناهضة حظ نابوليون فان هو هوى فسيظل في سقوطه على ما كان عليه يوم ارتفاهه أي سيقطع رجل فرنسا وداهيتهما أما خصماه القديمان فلا يلقيان من انتصارهما سوى الخزي ووخز الضمير اللاصقين الى ما شاء الله بقلب خدام الاجانب والفارين من الوطن . على انه لا بد من التمييز بين برنادوت ومورو فالاول يتردد بين ما يجب عليه أن يقوم به بين فرنسا وطنه الاصلي واسوج وطنه الجديد مع جهله حقيقة مصالح كل من البلدين أما مورو فانه لم يكن له من عذر يتنصل به .

وتوهم الناس أن مورات سيركب مركب الخيانة ويخرق بردة مجده . . . وقد كتب في احدى صفحات حظه أنه سينكر ويخون المحسن اليه وصديقه وختنه ولكن لم تكن قد دنت ساعة غدره والتخافه بمبذل الهوان والصغار . لجاء مورات في ١٤ أغسطس الى معسكر درسد لمحاربة خصوم نابوليون وأعداء فرنسا .

وافتتحت الحرب افتتاحاً موافقاً لموقف الجيش الفرنسي فخف نابوليون الى ملاقاته الاسكندر وملك روسيا واقتحم منافذ بوهيميا وفتح فوبل ورمبورغ وجرجنتال . وبعد ما وصل الى موضع يبعد عشرين فرسخاً عن براغ عاد الى زيتو ومنها أسرع الى موافاة جيش سيليزيا المحتاج الى حضوره بين ظهرانيه . ووصل الى لوزبرغ في ٢١ منه عند بزوغ الفجر فد الجسورة على البوبر وعبره في بحر النهار غير مكترث لنيران العدو ودحر العدو حتى أوصله الى

غولديرغ وهجم هجوماً جديداً في ٢٣ منه فكسر الجنرال جيرار القادم من جهة الميسرة فيلقاً من البروسيين قوامه خمسة وعشرون ألفاً وبدد شملهم وأخذ فلنسبرغ عند الميمنة واكمل انهزام الحلفاء هجمة صادقة قامت بها التفصيلة المئة والخامسة والثلاثون .

الا أن جميع ما ناله الفرنسيون من الانتصار في سيليزيا لم يؤثر بزحف جيش بوهيميا وقد ظل سائراً نحو عاصمة الساكس . ولما انتهت الى نابوليون أنباء هذه الحركات ترك للمارشال مكدونال قيادة جيش سيليزيا وخف ومعه ناي الى نجدة درسد ولكن هل يصل اليها في الاجل الملائم ؟ وأحاطت العساكر الكثيرة بالمدينة من كل جهة لتسحق جيش المارشال سان سير الضعيف المتحصن وراء الاستحكامات الخشبية في ضواحي المدينة وأرباضها . وشهد الملك الشيخ من نوافذ قصره دمار الأراضي الخصيبة المحذقة بعاصمته وقرن حزنه بذعر رعيته . وأنذر كل شيء بأن درسد أوشكت أن تسقط في حيازة النمساويين والروس وان المارشال سان سير لا يستطيع مقاومة شوارتزبرغ مدة طويلة فان بعض الفيالق الالمانية المنضمة الى الفيالق الفرنسية لتقاتل تحت ألويتها لم تثبت على مواالها للفرنسيين فأنحازت الى أعدائهم كوكبتان من فرسان الوستفاليين وما غم الاهلون أن أبدوا ميلهم الى الاستسلام .

ولسكن ما أبطأ نابوليون أن ظهر فاجتاز في ٢٦ منه في الساعة العاشرة صباحاً جسر درسد سائراً سيراً حثيثاً وجنوده وراءه . وحينئذ تقلص ظل الفشل وبدأت طلائع الثقة . ولما أبصر القوم في درسد مدرعي لاتور موبورغ يعمرون طبقوا الفضاء بأصوات الفرح كأنهم يقرأون على وجوه أولئك الابطال آيات خلاص المدينة .

ولما وصل الامبراطور صمد في فاتحة الامر الى استعراف ما أجروه من معدات الدفاع فما مكث أن تلج صدره حين عرف أن جميع ما فعله سان سير يستوجب أن ينال موافقته . ولما هداً باله من هذه الجهة صعد الى القصر فسكن بحضوره جأش الاسرة المالكة بعد ما كانت تم بالهرب .

ولم تدم زيارته سوى مدة قصيرة فكان قد نصب معين اصطباره لان يشاهد بذاته عدد العدو وموقفه وحركاته وسار مسرماً لهذه الغاية نحو باب من أبواب

المدينة ماراً بين جمهور من السكّات الموالين وهم ينظرون الى جبينه لعلمهم يستدلون من رباطة جأشه وثبات جناحه على الامن والدعة . ووصل نابوليون في الساعة الواحدة الى طرف دسكرة بلنزر فترجل وتفقّد أسوار المدينة الخارجية واقترب من طلائع أعدائه بحيث وقعت رصاصة باردة على خادمه على مقربة منه .

وأعطيت علامة الهجوم في الساعة الثالثة باطلاق ثلاثة مدافع من بطاريات الجيش النمساوي الروسي وعند إعطاء هذه العلامة شرع الجيش المغشي المرتفعات المحيطة بالمدينة ينحدر الى السهل ويحمل حملات شعواء على استحکامات الفرنسيين وحرك حضور ملكيه ساكنات الشجاعة فيه . وبينما هو ثمل بسلافة ذلك الحماس ومعتقد أنه أصاب نصراً مبيناً جعل يصبح مطبقاً القضاء ويقول : الى باريس الى باريس !

ولكن لم يلبث الجندي الفرنسي أن جعله يشعر بثقل ضرباته وكان طاهله معه يراقب أعلامه ويحاذر أن يدع الهوان والخسيفة يدنوان منها . ولم يمض حين طويل حتى عمت المعركة وأصبحت هائلة وقد اشترك فيها الجنود الاحتياطيون وصارت القنابل والقذائف المنفجرة تتساقط على المدينة كالوابل المندرار . فأدرك نابوليون أنه لايسعه أن يضيع دقيقة واحدة في سبيل تقرير حفظ القتال وانقاذ طاصمة حليفه الوحيد الذي بقي دون سواء من بين جميع الحلفاء معتمداً بمجمل موالاته . فسير مورات وفرسانه للوقوع على ميمنة أعدائه ووجه فيلق الدوق دي ترينيز للتمرس بميسرتهم ثم اخرج من بابي بيرنا وبلاون أربع فرق من الحرس القتيان بقيادة الجنرال ديموتيه وباروي ودكوز وروغه الأشداء وأمرهم بأن يجرؤا على مارسمه لهم البرنس دي لاموسكوفا الشجاع . وكان من وراء هجوم ذينك القليلين تغير وجه الحزب في الحال : نخشع كل شيء أمام الحرس القتيان الصناديد ولاذ بالفرار . وأصبح المهاجمون المتأخرون يجرأهم متشتتين في كل جهة وهاربين من وجه أعدائهم ومفادين السهل الذي شنوا عليه الغارة الشعواء . وقد طردهم منه المدرعون من دون أن يبدوا لهم أدنى مقاومة .

وصاح البرنس دي شوارتنبيرغ بصوت جهوري : ان الامبراطور في درسد

ولا مرأ وقد أضعنا الفرصة الملائمة للاستيلاء على المدينة فلانفكر والحالة هذه إلا بضم متفرق شملنا .

ولم يكن الامبراطور والحق يقال قد أثبت وجوده بما أمر بأجرائه من التدابير الصائبة والحركات الحربية المحكمة بل باشتراكه في المخاطر المحدقة برجاله اشتراكاً فعلياً . وهذا ما قاله في هذا الصدد الماجور دودلبن السكسوني :

« وكان نابوليون تحت سيل جود من القذائف والقنابل راكباً جواده وماراً بسرعة في سيكلوس غاس يبتغي الوصول الى مدخل البحيرة وسد لبوديسلد . وبعد ما وقف ثمة هنيهة من الزمان كر عائداً الى ساحة القتال فقتل ضابط من ضباط حاشيته الى جانبه وجرح كثيرون من حبابه . »

ولم ينقطع صوت المدافع الا في الساعة التاسعة مساء وكان الامبراطور في الساعة الحادية عشرة لا يزال واقفاً على رجلبيه يتفقد معرس جنوده ويعمل لاستكشاف خط أعدائه ويدير الخطة المقضي عليه المسير عليها في الغد . ولما انتصف الليل دخل القصر ولكنه قبل أن يرقد دعا اليه برتيه وأملى عليه أوامر أنفذت في الحال الى جميع قواد فيالق جيشه ليكون كل منهم عند طلوع الفجر مستعداً لمناصرة دهاء الامبراطور في المعركة المنتظر تسع نيرانها .

وكان فيلق من النمساويين قد ثابت اليه قواه وانتعش بشربه مقداراً من الخمر ونفض عنه ما جره اليه انكسار البراس دي شوارتزبرغ من الخمول فمالج مفاجأة الفرنسيين تحت ضحج الطلام مد باب بلاون ولكنه ألقى ثمة الجنرال دوموتيه واليكولونل كهرن : وكان دوموتيه يريد النزول غير مبال بفخذه المكسورة وجعل كهرن المهاجمين يندسون على حرائمهم بأحذه منهم راية وأسرهم فرقة كاملة .

ودل ذلك الهجوم الليلي على أن الحلفاء مع انهزامهم انهزاماً تاماً في اليوم السادس والعشرين لم يمكسروا انكساراً نهائياً وانه لابد من عودتهم الى القتال . وعرف نابوليون هذا الأمر حين أنفذ ليلاً الى جميع قواده أوامر معجلة وفي الساعة السادسة صباحاً ركب برسه غير مكترث للوحل والمطر وخرج من باب فريبيرغ لتفقد الاماكن المنتظر اشوب الحرب فيها . وأبصر ثغرة في المراتعات

أمامه ولم يكن فيلق الجنرال كلينو النمساوي قد شغل الموقع المعين له فأمر العاهل
مورات وفكتور بأن يحتلوا في الحال ذلك الموقع ويسبقوا العدو اليه . فقام ملك
نابولي والدوق دي بلون بهذه الحركة بسرعة وأخذوا الموقع في الساعة التاسعة صباحاً
ولكن مع اطلاق المدافع بشدة آتياً من الوسط فكانت المدفعية تقوم بأصعب
عمل في المعركة . وجاء في مفكرة سنة ١٨١٣ أن الجندي الفرنسي تحمل في
ذلك الموقف عنف قوانين الخطط الحربية الحديثة فظل ساعات يقضم شكيمة
الاورام الضابطة حماسه وهو مستهدف للقنابل المقذوفة من الجانبين .

ووصل مورات في الساعة الحادية عشرة الى ماوراء مضائق بلاون فابصروه
شاهراً سيفه وثانياً على كتفه رداءه الموشى بالذهب وهو يهجم في مقدمة المدرعين
على مشاة النمساويين . وانتصر انتصاراً كاملاً بمكافحة فكتور ولاتورموبورغ
فسحق ميسرة الحلفاء .

ولم تكن ميمنتهم أسعد حظاً من ميسرتهم فانها فرت من وجه الحرس الفتيان
وقد انضم اليهم العاهل نفسه وشاطرهم المهالك والنصر .

وبدت البسالة الفرنسية في كل جهة بأعظم مجالها كما بدت في الايام المأثورة
في التاريخ فاشتركت فصيلتان من الحرس القدماء في المعركة ولم تقا تلا الا بالنصال
فقلبتا كل ما تصدى لهما ظهرا لبطن . ولم تكن أفعال مرتيه وسان سير ونسوتي
دون أفعال مورات وفكتور ولاتورموبورغ . وقد بلغ بهم ما أبدوه من الشجاعة
والاقدام تحت ظل الدهاء الى نتيجة جازمة : فلم تدن الساعة الثالثة حتى نال
نابوليون نصراً مبيناً في معركة درسد . وخشي الملوك المتحالفون أن يفقدوا
اتصالهم ببوهيميا فاضطروا الى استدراك أمر سلامتهم وصمموا على التراجع
تاركين في حيازة الظافر خمسة وعشرين ألفاً الى ثلاثين ألفاً من الأسرى وأربعين
راية وستين مدفعا . وجرح الجنرال مورو جرحاً مميتاً بأول قذيفة رميت عن
بطاريات الحرس الامبراطوري . فكان الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يفسح
في أجل قاهر هو هنلدن ليزيد في مآثمه ويخلد طاره في ميادين القتال بل قطع
أسباب الشكوك بوجود مثل هذا الرجل مع الروس .

وتوهم العاهل أن العناية الالهية عادت الى حمايته بكنفها وشاءت راقبة
الخطئين . ولكن لم يكن ذلك التوهم سوى برق خلب فان نابوليون صار الى

حال لا تستطيع معها الانتصارات الباهرة أن تدفع عنه مقدوراً وتبعد عنه سقوطه القريب : فإنه بانفصاله عن الروح الحر الناهض بمجب لمناواته من بين الناشئة الألمانية ألغى نفسه بعيداً عن مهمته الأصلية : فأوشك الرجل السياسي أن تنقطع أنفاسه في شخص نابوليون ولكن لما كلف دهاؤه قد ظل مقبلاً على موالاته وكانت الجنسية الفرنسية باقية متجسمة فيه فإنه ولو سقط عن العرش لا يفقد شيئاً من مجده : فهو سيسقط ولكنه سيعظم في أنظار الاجيال الآتية بتجديده حتى آخر نسمة من حياته السامية المعجزات عينها التي أدهش العالم بها وهو يسعى لنيل عظمته أو أتاها عند حلوله في أعلى ذروة من ذرى المجد

وهرب هذه المرة أيضاً القيصر وملك روسيا والبرنس دي شوارتنبيرغ أمام النسر الفرنسي ومعهم مورو وهو يجود بنفسه وأسرعوا للوصول الى مضائق بوهيميا . فشد نابوليون وراءهم شداً عنيفاً الا أن واحداً من قواده يدعى فندام كان كثير الدعوى والتبجح ببسالة جنوده وجراته الشخصية فعالج بعدد يسير من الجنود الاشداء أن يقف سداً منيعاً في وجه أعدائه وقد ذهل عما قاله نابوليون غير مرة : « انه يلزم أن نجد جسراً من الذهب أو أن نقيم سداً من الفولاذ في وجه الجيش الهارب » وعن كونه غير قادر على اقامة مثل هذا السد فاندفع في مضائق كالمعالج التصدي للجيش العظيم المنكسر في درسد وقوي خصومه عليه بكثرة عددهم بعد جهد فاقده النظر ومقاومة مقرونة بالقنوط كان من وراءها إصابة العدو بخسارة فادحة فاختلف في المعركة فظنوا أنه قتل وأسر رجاله على بكرة أبيهم . وعرف بعد حين من الزمان أنه سقط أسيراً في أيدي النمساويين والروس

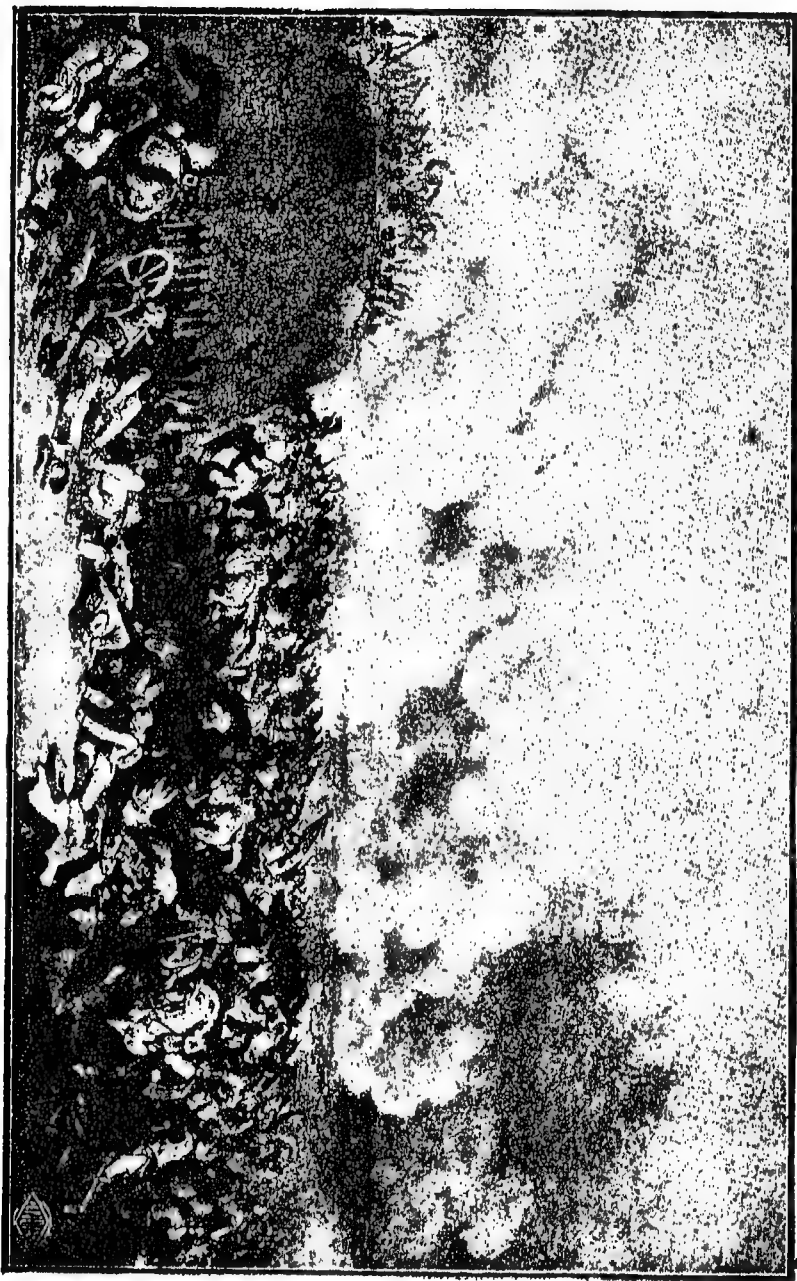
ولا يخفى ان هذا الانكسار الذي فقد فيه أكثر من عشرة آلاف مقاتل من الفرنسيين خفف من تأثير معركة درسد . ووقعت في الوقت عينه حوادث فاجعة لجيش سيليزيا : فطغت الأنهار على أثر سقوط الأمطار الغزيرة وغمر الماء جميع الطرقات وجرفت الجسورة وانقطعت المواصلات بين الفيالق الفرنسية واضطر المارشال مكدونال في ذلك الموقف الحرج الى عبور البوبر والسكيس والنيس بعد ما فقد القسم الأكبر من فرقة بوطود في لونبرغ ونجا الباقون منها سباحة .

ولما ترك نابوليون جيوش أعدائه العظيمة محصورة بين جبال بوهيميايم سيليزيا فالتقى بفيلق مكدونال عند مرتفعات هوخكرخ في ٤ سبتمبر وأمر هذا الفيلق في اليوم عينه بالهجوم على العدو ففعل واكرهه على مزايلة مرتفعات وولنبرغ وظل سحابة اليوم الخامس منه يتعقبه حتى وصل الى غرلنز وأجبره على عبور نهري الكيس والنيس بسرعة ودخل درسد في الساعة السابعة من مساء اليوم السادس منه فأخبروه أن المجلس الحربي في الفيلق الثالث حكم بالموت على الجنرال جوميني السويسري الاصل رئيس أركان حرب هذا الفيلق لفراده من الجيش وانضمامه الى الاعداء عند انفتاح أبواب القتال .

ولم يكن المارشال أودينو الزاحف الى برلين أسعد حظاً من مكدونال المقاتل في سيليزيا فانه انكسر في غروس بيرين في ٢٤ أغسطس فأخذ ناي القيادة منه وبعد ما أصاب هذا الاخير شيئاً من النصر في ١٥ سبتمبر على الجنرال طنزين انكسر في الغد في جوطربوك في محاربتة برنادوت وبولوف .

وتوالى الانكسار على الفرنسيين في الاماكن المتغيب عنها الامبراطور فكان نابوليون أول من شعر بهذا الامر فاتخذ درسد مركزاً لحركاته الحربية وصار يخف منها الى المسكان المتعرض جنوده فيه لنبال المتألف . وقضى على تلك الحال شهر سبتمبر والنصف الاول من شهر اكتوبر وهو يزحف تارة الى شوارتزنبرغ وتارة الى ساكن وطوراً الى بلوخر وبرنادوت فيدحر أولئك عند جبرسبرغ ويهزم هؤلاء عند ديسو ويحجم جميع أعدائه يرهبون الترس بالذراع القوية الحاصلة على امتياز الوجود في كل مكان . إلا أن هذه الانتصارات كانت تحصد جنوده حصداً بعد ما أضعفتهم نكبات الحرب السابقة من دون أن تتلف موارد الجيوش المتحالفة غير الناضبة . وكانت النجدة متواصلة تنرى الى العدو ووقعت خيانات شتى كانت له معيناً قوياً فان ملك بافاريا سلك مسلك عاهل النمسا وداس حرمة المواثيق وحطم القيود العائلية . ثم ان الفتنة احتدمت موافقها وراء الجيش الفرنسي فتألفت فيالقي من المعارضين في الساكس ووستفاليا . وهجر الجنرال ظيلمان السكسوني الجيش الفرنسي فالتف حوله ثلاثة آلاف رجل من الروس والبروسيين العيارين وطجاً في هومبورغ ثلاث مئة مريض الى أربع مئة مريض إلا ان الجنرال ليفنر دينوت

معركة الميسكوفا ومقتل الجنرال كولانكور



استخلصهم منه في فريبورغ . وكان في أثناء الحركة العامة التي أبدتها الالمانيون ضد السلطة الفرنسية ان جيروم بوناپرت ملك وستفاليا طرد من عاصمته واضطر الى التراجع الى الرين .

ولما انتهى الى نابوليون نبأ خيانة بافاريا وما نوى الالمانيون من الانتفاض على سلطته في المانيا الوسطى علم انه يصعب عليه المحافظة على موقفه في الالب فعزم على التقرب من حدود فرنسا مع المحافظة بقدر الامكان على الموقف الذي أصابه على أثر انتصاره . وكان نابوليون بازاء الجيوش الجرارة التي لم يذلها ما لقيته من الفشل لانضمام جنود كثيرين اليها قادمين من جميع أنحاء أوروبا يشعر بأن تعبئة جيش عظيم ضروري له . فطلب من مجلس الشيوخ اصدار قرار بتجهيز مئتين وثمانين ألف جندي وقد تولت الامبراطورة الوكيله إبلاغ المجلس المشار اليه هذا الطلب بالقائها عليه خطاباً في ١٧ أكتوبر كان نابوليون قد أرسل اليها صورته من مركز أركان حربه العام .

وكان من وكده مجلس الشيوخ المبادرة الى اجابة طلب العاهل بحسب مقتضيات الاحوال وحاجة البلاد ولا سيما لان موقف الجيش الفرنسي في الخارج كان يقتضي نجدة عاجلة فقرر مجلس الشيوخ بالاجماع تعبئة جيش مؤلف من مئتين وثمانين ألف مقاتل .

وكان نابوليون على نهر الالب مستولياً على جسورة ديسو وآكن ووارتنبورغ التي استولى عليها الجنرالان رينيه وبرتران والمارشال ناي وقد عقد عروة العزم على عبور النهر والقيام بحركة حربية على ضفته اليمنى من هبورغ الى درسد وتهديد بتسدام وبرلين واختيار مغدبورغ قاعدة لاعماله الحربية إلا انه لما بلغه ما كان من أمر خيانة البافاريين عدل عما كان يفتويه وصمم على العودة الى ليبزيك .

فسر لهذا المقصد منتقدو مركز أركان الحرب فانهم شق عليهم ان يروا نابوليون ينوي الاغارة على برلين وينقل الحرب الى البقعة التي بين الالب والاودر مع انهم لم يرغبوا إلا الاسراع في العودة الى الرين .

ووصل العاهل في ١٥ أكتوبر الى ليبزيك وقد احتشدت فيها فيالق فكتور وأوجيرو ولوريستون . وكان الحلفاء يجردون وراءهم عن قرب فقاموا بحركة

مشتركة بكل ما تجمع عندهم من القوات وتمكنوا من الانضمام في ١٦ منه والاحاطة بالجيش الفرنسي فاضطر هذا الى الوقوف عن المسير لتصدي شوارتزنبرغ وجيولي له في جهة الجنوب وجهة الغرب وإغارة بنغزون وكولوريدو وبلوخر وبرنادوت عليه من الشرق والشمال .



الفصل الحادي والثلاثون

معركة فاشو وليبزيك — خيانة السكسونيين — نتيجة تلك الحرب
المشؤومة — عودة العاهل الى باريس

وكان خمس مئة ألف مقاتل محتشدين وواقفين بعضهم بازاء بعض أمام أسوار مدينة ليبزيك وفي ضواحيها فأصبح اشتبا بهم معركة عظيمة أمراً محتوماً . ومنذ اليوم الخامس عشر بعد ما سكن نابوليون خاطر ملك وملكه الساكس الوافدين عليه في ليبزيك جعل يستكشف ظاهر المدينة ويتفقد شؤون الفياق الخيمة في أرباضها . وقضى ما بقي من النهار وقسماً من الليل في تهيئة معدات الحرب المتوقع حدوثها في الغد .

وأعطى البرنس دي شوارتزنبرغ علامة القتال في جنوب ليبزيك في ١٦ منه في الساعة التاسعة صباحاً وما أبطأ الهجوم ان أصبح عاماً وقد عضده مئتا مدفع . وجنح النصر في مستقبل الامر الى الحلفاء فهددوا قريتي مركليبرغ ودولتزنخشت أمامهم ميمنة الفرنسيين إلا ان مشاة بنياثسكي وأوجيرو وفرسان الجنرال ميلهو تمكنوا من التصدي لاعدائهم وتوقيفهم عن التقدم في تلك الجهة . وتمكن فكتور ولوريستون في الوسط من المحافظة على فاشو وليبر ولكتونز مع ما أبداه البرنس دي ورتمبرج والقائدان غورزا كوف وكلينو من الجرأة والاقدام .

ولم يكف نابوليون ان يتمكن من المقاومة والمحافظة على مواقفه فقد قضت الاحوال بأن يصيب نصراً مبيناً ويدرك ظفراً باهراً يكون فيه فصل الخطاب .

وحين فشل أعداؤه في هجبتهم الاولى كان يجب عليه ان يشدد في الهجوم عليهم في نوبته من دون ان يترك لهم فرصة يلعبون فيها شعنهم ويسدون ثلثهم ويجعلون الجنود الجدد يحلون محل الجنود الواهنة عزائمهم وهذا ما فعله نابوليون فسير مكدونال وسباستيانى على كايينو الى جهة الميسرة وأمر مرتيه بالاسراع الى مناصرة لوريستون بفرقتين من الحرس الثقتيان وأرسل أودينو الى الميمنة لمظاهرة فكتور اما كوريال فانه زحف الى دولتز لنجدة بنياتسكي . وكانت تحميمهم مئة خمسون مدفعا من بطاريات الحرس المتولي ادارتها الجنرال دروو ونهض الجيش كله من القواد والجنود باعباء المهمة الموكولة اليهم بحسب رغائب القائد الاكبر فشد فكتور وأودينو وراء أمير ورتمبرج فانهمزم أمامهما حتى وصل إلى غوسا . ولم تقل معاملة مرتيه ولوريستون لفيالق كليزو في العنف عن معاملة فكتور ورفيقه لجيش أمير ورتمبرج . ونال مكدونال وسباستيانى نصراً تاماً وصير بنياتسكي جميع مساعي البروسيانين والروس والنساويين عقيمة وقد صمموا على اجباره على اخلاء موقفه على ضفاف نهر بليس

ولما رأى العاهل الاسكندر انه أوشك أن ينكسر في معركة فاشو صحت عزيمته على عدم الاكتفاء باصدار الاوامر الى الجنود الاحتياطيين بالنزول إلى ميدان القتال بل على دفع حاميته عينها على النزول الى الميدان غير مهبال بالمحافظة على سلامة شخصه نجف الى الموضع المتهددم فيه الخطر الجسيم وأمر قوزاق الحرس بشن الاغارة على الفرسان الفرنسيين . وكان من وراء عمله هذا الدافعة اليه الحاجة القصوى إنقاذ جيش الحلفاء من الانكسار التام وان يكن فيه تعريض شخص القيصر لسهام المتألف . فتمكن القوزاق من استرجاع أربعة وعشرين مدفعا من الستة والعشرين مدفعا التي غنمها الفرنسيون من الروس وعقب ذلك ظهور الجنود النساويين الاحتياطيين . وجاء في مفكرات جزيرة القديسة هيلانة ما يأتي : « وكان عدد الحلفاء كبيراً بحيث أنه لما كانت جنودهم المحاربة تشمر بالتمب كانوا يستبدلون بها جنوداً جدداً » . ولم يخشوا بتفوقهم على خصومهم بكثرة العدد من الانكسار انكساراً نهائياً . ومع كل ما أتاه الجيش الفرنسي من معجزات البأس والشجاعة ظل النصر متردداً بينه وبين جيش الحلفاء .

ولم تنسمر نيران القتال في فاشو وحدها بل سمعت أصوات المدافع في البارتا وفي ناحية لندنو . ففي البارتا تقهقر فيلق مرمون أمام بلوخر الذي كان معه من العساكر أكثر مما كان مع قرنه وفي لندنو لم يكن جيولي سعيد الجند بمقدار ما كان الجنرال برتران بمدافعته عن طريق فرنسا وحمايته لها .

وفقد الحلفاء في فاشو عشرين ألف رجل وهوى الجنرال مرفلد النمساوي عن صهوة جواده بين حراب الفرنسيين فسلم سيفه لقائد المئة بلينسلف من فرقة كوريال ، وبلغ عدد القتلى والجرحى الفرنسيين ألفين وخمس مئة رجل وأطارت قنبلة نخذ الجنرال لا توريومبورغ . وأثنى نابوليون على بسالة قواده فكتور ورمون وناي وأودينو ومكدونال وأوجيرو الخ . وخص بالتقريظ شجاعة لوريستون وإقدام بنياتسكي ورفاها الى درجة المارشالية

وقد أصبحت عقيمة الممارك التي كان العاهل نابوليون يأمل أن تكون جازمة فان حماسة أعدائه اشتدت أمام لوتزن وبوتزن ودرسد وكثر عددهم . وماذا يستطيع أن يأمله من يوم لم يجعله فيه انكسار أعدائه أو تراجعتهم أمامه يعلل النفس بذيل الانتصار الباهر الفاصل وعند عودته الى مضربه التي ذاته مضطراً الى الاستعداد للحرب في الغد

وجاؤوه في المساء بأسير الجنرال دي مرفلد وكان قد عرفه في ليون فبادر الى ارجاع سيفه اليه . ثم انه أطلق سراحه بعد أخذ الموائيق عليه وكلفه بأن يبسط اقتراحات الصلح لعاهل النمسا ولما فصل عنه خاطبه نابوليون بما يأتي :

« لقد ساءت ظنونه في فلاشيء اشبهى عندي من الاستراحة في ظل السلم والتفكير في جر السعادة الى فرنسا بعد ما فكرت في جر المجد اليها ... »

« أجل انه لا يخفى علي اني مضطر الى بذل بعض التضحيات ومع ذلك لاشيء يجعاني أحجم عن هذا الامر ... الوداع يا حضرة الجنرال وحين تخاطب من قبلي الامبراطورين عن عقد هدنة لا اشك بأن الصوت الذي يطرق مسامعهما سيكون فصيحاً باعاداته عليهما ذكرى الماضي . »

وعاد الجنرال مرفلد الى ذويه فزاد دهشهم على سرورهم ببقياه ولكن لم يلق ماحمله من كلام الصلح سوى آذان صماء فكانت عواطف العاهلين الشخصية وما ذكرهما به نابوليون خاضعة كل الخضوع لمقتضيات سياسة طامة لا تلين

صلايتها . فان المحالفة لم تشأ أن تقطع نظام صفوفها وتعديل مزاعمها وتخفف ضرباتها مادام مجرى الحوادث مؤاتياً لها

وكان استئناف القتال ممكناً حدوثه في ١٧ منه لولا انهمار الامطار الغزيرة ووعورة الطرقات مما أدى الى تأخير وصول الجنرال بنشغزن واضطرار الحلفاء الى ارجاء المحاربة الى الغد . وقد ضل سبهم ظن نابوليون بافتسكاره بانهم يتباحثون في معسكر أعدائه في المقترحات السلمية التي فوض الى المسيو دي مرفلد أمر إبلاغهم إياها فباشرا الحلفاء التحرك في ١٨ منه منذ بزوغ الفجر . إلا أن العاهل استدرك كل شيء ففضى ليلته باعداد العدد اللازمة فكان يسير من مضربه الى خيام قواده فيوقف ناي في ريدنتز ويتمهد برتران في لندنو ويصدر أوامره في كل مكان بوجوب الاستعداد للغد

وبوشر إطلاق المدافع على طول الخط في الساعة العاشرة ووجه الحلفاء جهدهم بنوع خاص على قريتي كونوتز وبروبستيد وقد علقوا آمالهم بالنصر على الاستيلاء عليهما وعالجوا أربع مرات أخذ بروبستيد ففشلوا في المرات الأربع . ودافع الجيش الفرنسي عن مواقفه في جميع الجهات مدافعة الاسود للمحافظة عليها . وسمى جيش سيليزيا على غير طائل لاخذ قرية هال واحتلال الضفة اليسرى . وبعد ما تمكن مرات متوالية من عبور النهر اكرهه البرنس دي لاموسكوف على الرجوع ادراجه الى الضفة الاخرى

وكان النصر في الساعة الثالثة قد مال الى الفرنسيين إلا أنه طرأ حادث من الحوادث التي لا يستطيع فن الحرب تلافيها أو تداركها والتي ضللت غير مرة منذ سنة من الزمان حسبان نابوليون فتغير في الحال وجه الامور : فان الجيش السكسوني وفرسان الورتمبرجيين انحازوا الى الحلفاء ولم يتمكن القائد زيشو المحافظ على ولائه للفرنسيين من ابقاء أكثر من خمس مئة رجل تحت قيادته .

وقد صوب مدفعيو هذا الجيش مدافعهم الاربعين على فرقة الجنرال دوروط على أن هذه الخيانة التي لم يسبق لها نظير والتي جرت في ساحة الحرب عينها جعلت فراغا في الصفوف الفرنسية . والقت الى الحلفاء بمقاليد الموقع المهم المقضي على السكسونيين بالمدافعة عنه . وعبر برنادوت في مدة قصيرة نهر البارتا واحتل ريدنتز . وكان بينه وبين ليزريك نصف فرسخ حين اطلع نابوليون ذاته

بفرقة من فرق الحرس فانهش حضور العاهل قوى جنوده وأضرهم في أفئدتهم نيران الحماسة فما مكثت ريدنتر ان عادت الى حيازة الفرنسيين. ولما دخل الليل كان هؤلاء يبحرون ذلاذل الانتصار كما فعلوا في اليوم السابق ولسكنهم أجبروا أن يكرروا كل يوم المعارك الدموية التي لم يكن من نتيجتها سوى إضعافهم والتي لم يستفيدوا منها مع نيلهم الظفر فيها غير فتح الطريق في وجوههم للعودة الى مواطنهم .

ولم يلق نابوليون بدا بعد أعمال جيشه العظيمة في ميادين ليبنزيك كما أنه لم يلق بعد أعمالهم الخطيرة في يوم فاشو بدا من الاستعداد للاشتباك في موقعة جديدة في الغد وجاء الجنرالان صورييه ودولولوى في الساعة السابعة مساء وأخبراه أن الذخائر الحربية نفدت من عندهم وان مالدیهم منها يكاد لا يكفهم الا ساعتين . وقد أطلق الجيش الفرنسي من خمسة أيام أكثر من مئتين وعشرين ألفاً من قذائف المدافع ولم يبق لهم أن يختاروا مكاناً يجددون فيه ذخائرهم الا مغدبورغ وارفرت .

ولم يمكنهم التردد في مثل هذه الحال فأثر نابوليون ارفرت فأمر في الحال بالتراجع مضايق لندنو وكان الجنرال برتران محافظاً عليها ببسالة وقد سد طريق المرور بها في وجه فيلق جيولي النمساوي .

وغادر العاهل مضربه في الساعة الثامنة مساء فدخل ليبنزيك ونزل في نزل فأخبره الدوق دي باصانو مادار بينه وبين ملك الساكس من الحديث فقعد كان هذا الملك الجليل شديد الاسف على ما كان من تصرف جيشه ولم يشأ أن يفترق عن العاهل بل رغب في مشاطرته ما يصيبه من الحظ . فقال نابوليون : « ان هذا الملك كريم فاضل فهو لا يزال على ما كان عليه من قبل ولم يتغير عما كان عليه في سنة ١٨٠٧ حين كتب على أقواس النصر : الى نابوليون من فريديريك أوغسطس المعترف بالجميل . »

وقضى العاهل ليلته وهو يملي أوامره على الدوق دي باصانو والدوق دي فيسنس وكان معظم الجيش قد جلا عن الاماكن التي كان نازلاً فيها في ١٩ منه عند طلوع الصباح فرفكتور واوجيرو في المقدمة . وفوض الى مرمون أن يدافع ما أمكنه عن دسكرة هال ورينيه عن دسكرة روزنتال وناي عن الدساكر

في الناحية الشرقية. وأمر لوريستون ومكدونال وبنياتسكي متولي قيادة الساقة بأن يظلوا في الجهة الجنوبية للمحافظة على الاستر ريثما يتمكن فيلقا ناي ورميون من عبور النهر. وتلقى بنياتسكي الامر من العاهل ذاته فقال له نابوليون: « يا أيها الامير دافع عن الدسكرة الجنوبية . » فأجابه : « يا مولاي معي عدد قليل من الجنود . » فقال نابوليون : « يمكنك الدفاع بمن معك . » فقال بنياتسكي : « آه يا مولاي سنثبت في مواقعنا ونحن مستعدون للموت في سبيل حب جلالتك . » وقد حافظ هذا البولوني النبيل المنكود الطالع على كلامه ولم يعد من ذلك الحين يبصر الامبراطور .

واقترحوا على نابوليون أن يجعل ليزيك رأساً للمضيّق وأن يحرق أرباضها الواسعة فيحول دون اقامة أعدائه فيها ويفسح المجال للجيش الفرنسي للتراجع والخروج من مضيّق لندنو .

وجاء في التقرير الرسمي أنه مع ما في خيانة الجيش السكسوني من الفظاعة لم يرض العاهل بأن يتلف مدينة من أجل مدني المانيا وفضل فقدان بضع مئات من المركبات على اتيان مثل هذا العمل الدال على الهمجية .

ولما شعر الحلفاء بحركة الفرنسيين التقهقرية أغارت جميع فرقهم على ليزيك وقد انحلت عقدة صبرهم لدخولها واهلاك مؤخرة الفرنسيين فيذيعوا على الملأ طرا ان المانيا عادت الى الحلفاء .

ولقي الحلفاء في ضواحي المدينة مقاومة عنيفة وغير منتظرة فان مكدونال وبنياتسكي الموكول اليهما أمر خلاص الجيش نهضا حق نهوض باعباء المهمة الخطيرة الشريفة المنتبدين لها . وبيناهما عند أبواب المدينة يصدان العدو عن دخولها كان العاهل في قصر ملك الساكس يبت لهذا الشيخ ما يشمر به من السكابة بتركه اياه بين أعدائه وكان يطيل الحديث معه ويؤخر الوداع رجاء أن يبعد ساعة الفراق ، ولما سمع قصف المدافع في ناحية هال نهض الملك وألح على العاهل بمغادرة ليزيك بأسرع ما يمكن قائلا له : « حسبك ما فعلت فأنت تبالغ في اظهار مكارم أخلاقك بتعريضك ذاتك للعطب ببقائك دقائق أخر تجاذبنا في اثناها أطراف الحديث . » فأبى نابوليون في مؤتلف الامر اجابة طلبه ولكن لما اقتربت أصوات المدافع اتحدت الملكة والاميرة اوغسطا مع الملك في الحاحهما

على العاهل بالانصراف . فأذعن نابوليون لالحاحهما وقال : « لا أشاء أن أفرق عنكم الا عند دخول العدو المدينة ومن المقضي علي أن أظهر لكم هذا الدليل الساطع على اخلاصي لكم وأرى ان بقائي هنا يضاعف مخاوفكم فلا أصر على البقاء . أودعكم وأؤكد لكم أنه مهما طرأ من الحوادث فان فرنسا ستؤدي لكم دين الصداقة الذي عقدته معكم . » ورافق الملك العاهل الى الدرج فتعانقا وكان ذلك آخر العهد بهما .

ولم يكن خوف حلفاء نابوليون في محله فان مرمون وناي ورينييه ومكدونال ولوريستون وبنياتسكي كانوا قابضين بأيديهم على أزمة المواقع المفوض اليهم أمر حراسها وقد تمكنوا من رد هجمات بلوخر وغيره من قواد أعدائهم ردا عنيفاً فتمكن العاهل من الخروج من لينزيك والوصول الى لندنو بلا مشقة . الا أنه طرأت حوادث جديدة لا يتسنى للدهاء تداركها تجرت وراءها نكبات جديدة على الفرنسيين : وتحرير الخبر أنه في أثناء مدافعة ساقاة الفرنسيين عن ضواحي المدينة والجلاء شيئاً فشيئاً عنها هبت عواصف الخيانة في صدور السكسونيين المرابطين في المدينة فأطاقوا من أعلى الاسوار القذائف على الفرنسيين فأسرع هؤلاء في التراجع الى الجسر الكبير الممتد فوق الالستر عند مدخل مضيق لندنو . وكان هذا الجسر ملغوما . وقد أمر الكولونل منفور بنفسه حالما تبلغ ساقاة الجيش الضفة الاخرى ارادة أن يتأخر زحف العدو . وقد جدت غلظ فاضح كانت له نتيجة وخيمة فان الجندي المجهود اليه في أمر نسف الجسر والمعطى الذبالة اللازمة لذلك ظن أن جميع الفرنسيين مروا وان الحلفاء وصلوا عند رؤيته القذائف ترمى من الاسوار على ساقاة جيش الفرنسيين فأضرم النار في الالغام فحدث انفجار هائل أيقظ الامبراطور النائم في مطبخة لندنو والرازح تحت أوقار التعب والنعاس . ولما نسف جسر الالستر الكبير كانت أربعة فيالق من الفرنسيين باقية في المدينة وضواحيها ومعهم اثنا مدفع ونيف . فأبي مصير كان مقدراً لاولئك الشجعان المتولي قيادتهم مكدونال ورينييه ولوريستون وبنياتسكي ؟ فقد كان عددهم يقل عن عدد أعدائهم ولم تكن المقاومة ميسورة لهم وقد سدت في وجوههم طرق التراجع يد فرنسوية بغير قصد فقذف مكدونال بنفسه الى الالستر ونجا سباحة . ودفع بنياتسكي جواده



نابوليون في سمولانسك . تدخل عليه امرأة حامله طفلا وتخبره أن زوجها قتل في الحرب فيرق لها الاله بطور
ويطلق اسمه علي الطفل ويجري عليه رزاق خاصا

الى النهر فسقط في وهدة لم يخرج منها ، واختفى رينيه ولوريستون أيضاً فظن
أنهما قتلا أو غرقا . وبلغ عدد الذين وردوا مورد الهلكة أو سقطوا في أيدي
الحلفاء في ذلك الحادث الاليم اثني عشر ألفاً .

واستولى الحلفاء على ليبزيك فسيق ملك الساكس الى برلين ليكفر فيها عن
أمانته نحو نابوليون وقد رذلته دول أوروبا العظمى . وشاطر برنادوت أعداء
الاسم الفرنسي في ليبزيك انتصارهم وسكرهم بخمرة الظفر وجلس على مائدة
الملوك الساعين لاعادة الحق الالهي بتقليصهم أظفار مجد نابوليون وسؤدده .

وكان الملوك العريقون في الشرف يشعرون بأنهم محتاجون إلى كتمان تفوقهم
ومقاصدم السرية وأغراضهم الخفية عن الملك الخامل الأصل كما كتموها عن
الحزب الحر في ألمانيا مع انتصار الملك والحزب لهم لمناهضة العاهل العظيم
ومواقفته . وستنهض أوروبا القديمة نهضة مقرونة بالعظمة أمام مساعديها
المغفلين وتنكر عليهما ما وعدتهما به حين تباع قصوى أمانيتها وتقضي لبانها
من العدو العام

وأدرك نابوليون لما نزلت به الضربة الاخيرة أن ثمة قوة لا تقهر وقدره
لا يقل لها حد تعبثان بجميع تدابره وتضللان جميع أغراضه ومساغيه وتجرائه
الى وهدة الدمار وهو ينتقل من انتصار الى انتصار

وبعد ما أبدى العاهل أسفه الشديد على الذين نشبت بهم مغالب المنية في
ذلك اليوم المشؤوم أمر بالسكولونل منفور والجندي الذي نسف جسر الالستر
قبل الاجل المضروب أن يمثل أمام مجلس حربي . ثم أنه استأنف السير الى ارفرت .
فاتخذها مركزاً لاركان حربه في ٢٣ منه وكتب منها للامبراطورة أن الجيش
الفرنسوي الظافر وصل اليها كما يصل الجيش المكسور .

وبرح نابوليون ارفرت في ٢٥ منه زاحفاً الى الرين نخف النمساويون
والبافاريون الى ملاقاته معالجين سدد طريق المرور في وجهه عند هانو . الا أن
ما أصاب الجيش الفرنسي من النكبات في ليبزيك لم يبلغ من ذلك الجيش ولم
يضعفه لانه لم يلبث أن جعل المتجربين على التمرس به وموآثته يندمون على
تطويحهم بنفوسهم في ذلك المأزق الحرج . ولم يحتفل بالسنتين ألفاً من النمساويين
والبافاريين الذين يقودهم دي ريد ومعهم ثمانون مدفعا . وكان فرسانهم يشنون

الغارة على الفرنسيين مبرقين ومرعدين الا أن المدفعيين الفرنسيين حين أحاط بهم أعداؤهم من جميع الجهات وعللوا نفوسهم بالظفر بهم تناولوا بنادقهم ودافعوا بها عن مدافعهم . وشهر دروو الشجاع حسامه وحرص رجاله على الثبات ريثما يصل نفسوتي بفرسان الحرس لنجدتهم .

وفقد البافاريون عشرة آلاف جندي في وقعة هانو وجرح وقتل ستة من قوادهم وتركوا كثيراً من المدافع والرايات في قبضة الفرنسيين وذكر نابوليون أن فرقتين من حرس الشرف شاطرنا المدرعين والدراغون والفرسان الاخطار والفخار في ذلك اليوم العصيب .

ووصل العاهل الى فرنكفور في أول نوفمبر فكتب منها الى ماري لويز ينبئها أنه مرسل اليها عشرين راية غنمها في فاشو وليزيك وهانو . وكانت هذه الاسلاب قد اشترت بالدم الغزير . ودخل نابوليون في الغد مايانس في الساعة الخامسة صباحاً . فعني أياماً بتنظيم الجيش الموكول اليه أمر المراقبة على خط الرين وعاد ليلا الى فرنسا في ٨ منه فوصل الى سان كلود في ٩ منه في الساعة الخامسة مساء .

— * * * —

الفصل الثاني والثلاثون

تقريظ مجلس الشيوخ للامبراطور — تعبئة ثلاث مئة ألف مقاتل
عقد المجلس الاشتراعي ونحله

وعاد نابوليون الى عاصمته مرة ثانية في خلال سنة بعد ما خانته حلفاؤه وقلب له الجذ ظهر المحن وتمقبتهم جميع الجيوش الاوربية ولم يكن لديه مايقاومها به الا بقايا جيشه الساقط في ساحة القتال سقوطاً مجيداً تحت ضربات الغدر والخيانة وتقلبات الاقدار . وقد عود نابوليون الباريسيين سماع هتاف النصر وتهليل الظفر .

فهل نؤوا أن يطالبوه في هذه المرة بتأدية الحساب عن تغير الحظ عليه والخيانات النازلة به ؟ وهل نسيت فرنسا أنه لم يشتبك في الحرب الا لأجلها « وأزمنت أن تقول له ما قاله في غابر الحين صاحب رومية لفاروس : « رد علي كتابي » ؟

كلا ان الشعب العظيم لا يسود صحيفة مجده بهذه المظلمة وبجحد فضل الرجل الكبير : فلا ينزل اليه كما فعل محاس الشيوخ ولا يسلقه بالسنة حداد كما فعل المجلس الاشتراعي بل يرثي للنفقات السياسية المرتكبة في أبن اقبال الدنيا عليه وبخاذه أن يتخذها حجة للشكوى والتذمر في أو ان تذكر الحظ عليه ويكتشف غريزه المعصومة من الخطأ وراء الستار الملكي الذي سدله دهاء الثورة بشكل منحوس ويصر على تسخير مساعدته بدمه وأمانيه لذلك الجبار الذي كان وهو لابس الحلة القنصلية ومزين بفار النصر في مصر وإيطاليا يحتفل في سنة ١٨٠٠ في الميدان الكبير بتذكار ١٤ يوليو وبحيي بحماسة الشعب الفرنسي داعياً إياه باسم مولاه . وإذا لم تعبر مجالس الحكومة الكبرى عن أفكاره فإنه يبحث في العزلة عن وطني شهير ويتخذ ترجمانه . وهذا الوطني الجريء الذي أقام النكير دون سواء على انشاء الامبراطورية جاء وقدم ذاته لخدمة العاهل فجاء عمله هذا بمثابة شكوى من الحكام الذين جسدوا لسنهم مدة طويلة وانتظروا ليظهروا ارادتهم الضعيفة في المقاومة تشجيعاً من أصوات مدافع الاجنبي وعضداً في المعاطب الجسيمة المتكيفة الامبراطورية

وكان هذا الوطني العظيم يدعى كارنو وقد اعتزل المناصب العالية والتدخل في الشؤون العامة ولم يحجر من لسانه كلام التملق حين كان نابوليون يرى كبراء فرنسا وملوك أوربا المتعجرفين يتزاحون على تعقير جباههم عند أعتابه فيكتب كارنو الى الامبراطور ببسط له استعداداته لخدمته فانه مع ما كان يرى في أعماله من المعاكسة لروح العصر كان يرى فيه دائماً ممثل الجنسية الفرنسية ولسان حالها . فاجابه العاهل منموضاً اليه أمر الدفاع عن انقرس

وبادر مجلس الشيوخ الى المشول أمام العاهل مكرراً تعلقه المعروف فاجابه نابوليون قائلاً : « من سنة من الزمان كانت أوربا قاطبة تسير معنا واليوم تسير أوربا جمعاء ضدنا : وهذا دليل على أن رأي العالم كله صدى لتفوق فرنسا

أو لتفوق بريطانيا العظمى وإذا خذلتنا الامة ولم تسندنا بآسها وقوتها خشينا
من سوء المصير
« وستقول الاجيال الآتية أنه طرأت أحوال كبيرة خطيرة بيد أنها لم تكن
فوق مقدرة فرنسا ومقدرتي » .

وطلبت الحكومة في الغد في ١٦ نوفمبر تجنيد ثلاث مئة ألف محارب فقرر
مجلس الشيوخ إجابة طلبها .

ولما كان نابوليون في غوتا في ٢٥ أكتوبر أصدر أمره باجتماع المجلس
الاشتراعي وحين وصل الى باريس علم أن يبدأ معادية تسمى للقبض على زعامة
المجلس والتسلط على أفكار أعضائه وآرائهم فاستعان بما له من السلطة السامية
وكان يعلم كيف يستخدمها عند الحاجة وأصدر أمراً عالياً قاضياً بأن يسمى هو
زعيم المجلس الاشتراعي وفي الوقت عينه سمى في الحال الدوق دي ماسا القاضي
الاكبر رئيساً لذلك المجلس وأقام موله مستشار الدولة وزيراً للعدلية بدلاً منه
وجعل نابوليون من وكده نهضة جميع معدات الدفاع عن السلطنة الفرنسية
فأصدر أمراً في ١٦ ديسمبر يقضي بإنشاء ثلاثين فرقة من الحرس الوطني وتخصيصها
للمدافعة عن الحصون

وافتمتحت جلسات المجلس الاشتراعي في ١٩ منه
وأحال العاهل الى مجلسي النواب والشيوخ الاوراق السياسية المتضمنة سر
المفاوضات في خلال الحرب الاخيرة والمبينة التدابير الحالية التي اتخذتها الدول
للعظمى . فعين كل مجلس من المجلسين مفوضاً للتدقيق في الاوراق وجعل المسيو
دي فنتان زعيماً لمفوض مجلس الشيوخ والمسيو لينه نائب الجيروند رئيساً لمفوض
المجلس الاشتراعي

وظل المسيو دي فنتان مقيماً على ميله الى الامبراطورية وصدق خدمته
لنابوليون فقال أنه يقضي المعجب من تصريح الملوك المتحالفين القائلين أنهم لا
يتعمدون الغض من كرامة الشعب الفرنسي وانما يقصدون تذليل العاهل .
وقال ذلك الخطيب في مجلس الشيوخ : « ان هذا التصريح لم يسبق له مثال في
سياسة الملوك فلا ينبغي لهم أن يبسطوا شكواهم بعضهم للبعض بل يجب عليهم
أن يذيعوها بين الشعوب . أو لا يكون مثل عملهم هذا وخيم التبعة المراجعتي ؟

فهل يحسن بهم أن ينشروا في مثل هذه الايام التي تلقى فيها الافكار العابثة بها أمراض الكبرياء مشقة عظمى للخضوع لسلطة تحميتها بخضد شوكة جرأتها؟ ومن هو الموجه اليه هذا التهمج؟ هو رجل عظيم يستوجب معرفة الجميل من جميع الملوك فانه بإعادته عرش فرنسا سد فوهة بركان كان يتوعدهم جميعهم» .

على أن هذا الكلام المبين ما فطر عليه اولئك الملوك من التنفل والجحود أوضح بصورة جلية ما يحتاج اليه العامل في مثل هذه الاحوال لنسخ ما يريد نسخه من اذهان الشعوب . وكان نابوليون قد ظفر غير مرة باعداء فرنسا بقوة الديمقراطية العظيمة وبقوة الحركات الثورية الشديدة وجعل الناس يعتقدون أنه لا يشق له غبار ولا يحارى بمضمار . ولما مال الى اعادة الانظمة القديمة وتحرير أوروبا العتيقة فقد ما له من المزية الاصلية والطبيعة الشعبية وهما التعميدتان اللتان كانتا خير معين له على اجراء ما أجراه من المعجزات في حياته ولم يبق داهية ذلك العصر القارن النصر بأعلام الثورة الفرنسية ، على أن ذلك الجبار الشعبي الذي جعل دهاء الماضي يخضع له في خلال سنين طويلة أفضى به الأمر الى الخضوع في نوبته لذلك الدهاء حين جاهر بالحماماة عن الملكية والارسطوقراطية .

فذكره متملقوه بمجنوحه اليهما وهنأوه على ذلك الفعل جهاراً إلا أنهم معجهاهم بهذا الامر وبذكرهم شكر أوروبا الملكية حركوا ساكنات الاستياء في أفئدة الاحرار الاوربيين الناشرين ألويتهم في ألمانيا من الطرف الواحد الى الطرف الآخر والواعدين بوضع دستور في برلين بعدما شرعوا بوضع دستور في قادس . ودما ذلك الامر أيضاً الى إثارة روح الاحزاب في الداخل بالتهجم على مبادئ الديمقراطية في ذلك العصر وبتصوير نابوليون عدوا لهذه المبادئ . ومما بعث على الخوف والحذر ما بسطه المسيودي فنتان مما لم يكن يخلو من الحقيقة .

وكان نابوليون ولا مشاحة يسمى لتوفيق ما وضعه من الأنظمة الجديدة مع الانظمة القديمة . ولو لم يرم الى هذه الغاية لما خذله أنصار المبادئ الجديدة ولما ولاه الحظ صفحه ولما خانته أحلافه ولما دهش الملأ من سرعة هبوطه بعد اصابته في حرب واحدة انتصارات كثيرة متوالية ،

ولم يبسط الميسودي فنتان سوى حجة واحدة من حياة نابوليون السياسية وهي الجهة التي عملت أكثر من سواها على زيادة برودة البعض ونفور البعض الآخر . ولم يتذمر العاهل من النوع الذي ترى فيه أعماله وموقفه تجاه الشعوب والملوك فان زعيم الاسرة الرابعة وجد فكره ممثلا في خطاب ذلك الملكي القديم الذي عهد اليه مجلس الشيوخ في التعبير عن عواطفه . فشكر نابوليون لوفد المجلس عواطفه ووصف بعد ذلك موقف فرنسا بالكلمات الاتية التي لم يكن من ورائها تسكين للخواطر :

« لقد اطلعتم على الاوراق المبسوطة لكم وعلمتم ما بذلته في سبيل السلم فسأجري بغير تأسف ما اقترحه علي أعدائي من التصحيحات التي تقتضيها قواعد السلم المقبولة عندي . وليس لي من غرض في الحياة سوى سعادة فرنسا .
« فالبيان والالزاس والفرنش كنتم والبرابان اصطلعت ومزقت أحشائي أصوات هذه الناحية من بلادتي واني استصرخ بالفرنسيين لنجدة الفرنسيين . »

وأصاب نابوليون في قوله ان جزءاً من فرنسا اصطلت فان الجيوش الفرنسية المخيمة في اسبانيا اكرهت على اخلاء تلك الديار واجتياز جبال البرنات عائدة إلى مواطنها ومنهزمة أمام الجيش البريطاني الاسبانيولي الجاد في أثرها والمحتل بعض الاراضي الفرنسية وعبر الحلفاء في الشمال نهر الرين في جهات كثيرة . وكان يشق على البرنس أوجين المحافظة على موقفه في ما وراء الألب . ودخلت الحصون التي على ضفاف الألب والاودر في حيازة الحلفاء وسلمت مدينة دنزبك . وصارت الفرصة ملائمة للحزب المعاكس للثورة الذي لم يكن قد بلغ منه القنوط وعضده الحزب الملكي في بريطانيا العظمى بما تيسر له من الوسائل وهو الذي استمال اليه جميع المحالفات المؤلفة لخصم شوكة نابوليون وتذليله . وان البوربون الذين نسيت الأجيال الحاضرة اسمهم ظهروا عند الحدود الاسبانيولية ووزعوا نشرات كثيرة في الولايات الفرنسية الجنوبية ونسجوا على منوال حلفائهم في ما وراء الرين باستنصارهم الاحرار ولم يخشوا من الظهور بذلك المظهر وسلوك ذلك المسلك واتهام نابوليون بأنه يسعى لاعادة العرش والمذبح فيكون والحالة هذه أعداء الثورة أنفسهم قد اعترفوا بأفضليتها وجأهروا بأنها أعرضت عن

الامبراطور رجاء ألا يعود القوم يتوهمون أن الامبراطور لا يقهر
وهب أنصار البوربون ومريدوم في غربي فرنسا وجنوبها بنوع خاص وحمد
بعض الجنود القارين من الجندية وفي بعض الجهات الى عقد اجتماعات قرروا
فيها بمؤازرة فريق من المتأثرين ففتح أبواب العداء وأنشئت جمعية في باريس
انتسب اليها أفراد من غلاة الدستوريين فكانوا صلة بين المؤتمرين في الداخل
والمؤتمرين في الخارج .

واختار مفوض المجلس الاشتراعي تلك الفرصة ليجاهر بأن حكم الاستبداد
خلف حكم الشريعة وان تمديد أجل الحرب تعزى أسبابه الى الامبراطور والى
أفكاره الرامية الى التوسع والسيادة مما يعتبر عقبة كؤودا في وجه السلم العامة .
وكأن الرزايا والاحطار العامة جرأت المفوض فرأى أن يضع شروطا لما طلبه
نابوليون من نواب الامة من المساعدة للذود عن حياض البلاد ودفع غزوات
الاجانب عنها . فاغتاظ العاهل من هذه الجرأة المتأخرة عن حينها واقترح أربعة
أشخاص المجلس على طبع تقرير المسيو لينه وتوزيعه الا أن ارادة المولى الاكبر
ألغت قوة الاقتراع وأوقف الطبع في ٣٠ ديسمبر وضبطت المسودات وجاء
نابوليون الى مجلس شورى الدولة وكشف له اسرار قلبه بالكلام الآتي :

« يا حضرة السادة تعلمون حقيقة الاحوال وكنه الاخطار التي تهدد الوطن
وقد ظننت من دون أن اضطر الى ذلك أنه يجب علي أن أوقف عليها بلطف
أعضاء المجلس الاشتراعي ولكنهم اتخذوا من عملي هذا الدال على ثقتي بهم
سلاحا لمقاتلتي أي لمناهضة الوطن . فالمجلس الاشتراعي بدلا من أن يعمل
على خلاص فرنسا يعمل على تعجيل خرابها فهو يخون ما يجب عليه الذود عن
ذماره وأنا أفعل ما يجب علي أن أفعله وعليه اني أحله . »

ان أعضاء المجلس الاشتراعي مع ما اتخذته نابوليون من التدابير لانكار عملهم
جاءوا في أول يناير الى التويلري ليرفعوا اليه تهنيتهم بدخول العام الجديد . وحالما
مثلوا في حضرته شعر بأنه عاد اليه ما شعر به من الغضب عند ما انتهى اليه لأول
مرة ما عقدوا عليه عرى العزائم فانتهرهم بشدة بهذا الكلام :

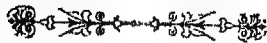
« أمرت بالغاء طبع قراراتكم فهو مهييج للأفكار . ان أحد عشر جزءا من
اثنى عشر جزءا من المجلس الاشتراعي تتألف من كرام القوم وأنا أعلم ذلك

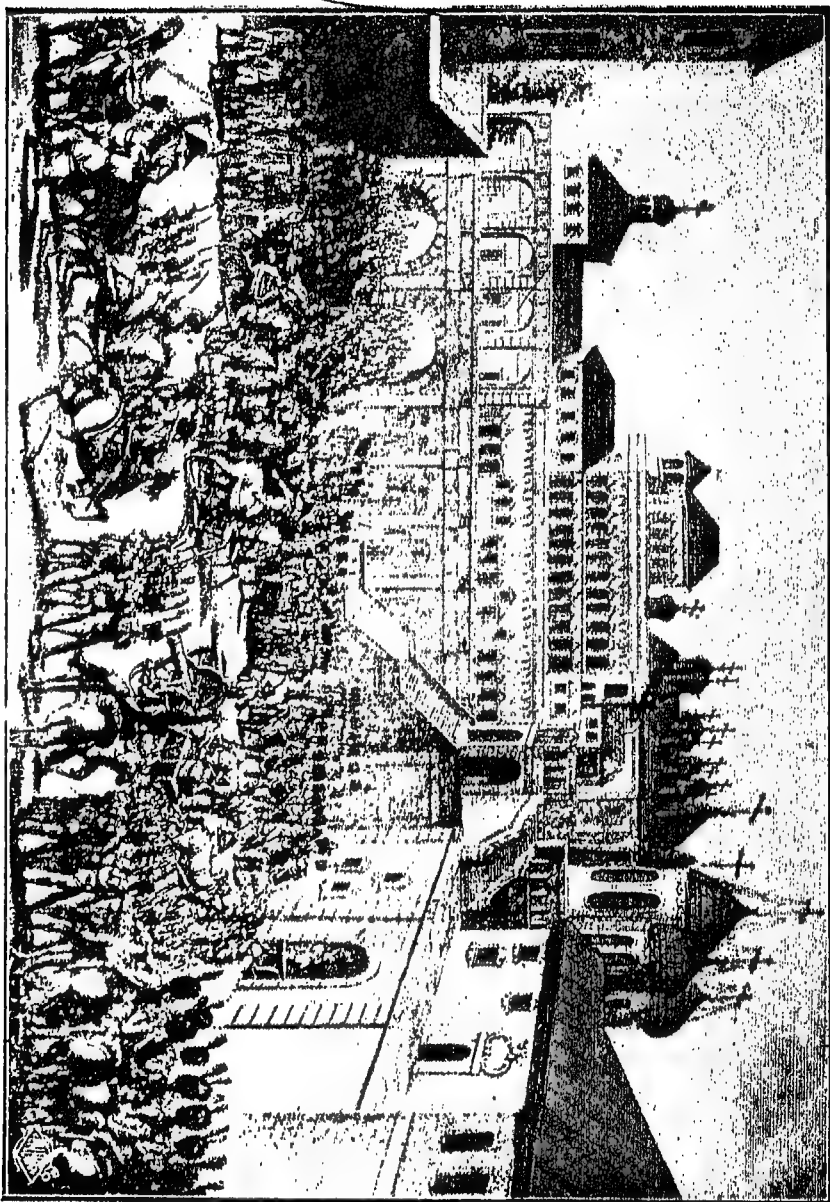
وأجلهم وأما الجزء الآخر الباقي فإنه ليس فيه سوى مشاغبين ويعد أعضاء المفوض الذي انتخبتموه من هذا الجزء (وكان ذلك المفوض مؤلفاً من لينه ورينوار ومين دي بيران وفلوجرغ) فالمسيو لينه خائن وله علاقات بوكيل المملكة في بريطانيا العظمى بواسطة دي ديسيز وأنا أعرف ذلك ولي عليه أدلة مقنعة والباقون مشاغبون .

« تتوسلون في قراركم لفصل العاهل عن الأمة فأنا وحدي ممثل الشعب ومن منكم يستطيع أن يأخذ على حاتقه مثل هذا الحل ؟
 « ليس العرش سوى خشبة تفسحها القطيفة . ولو أردت تصديتكم لأعطيت العدو فوق ما يطلب مني ولأصبتكم السلم في مدي ثلاثة أشهر أو هلكت .
 « فالاعداء يشتدون علي أكثر مما يشتدون على فرنسا ولكن هل ينبغي لي من جراء هذا الأمر أن ادعهم يجهزون دولتي ؟

« أو لاتروني أضحي بكبريائي وأنفقي في سبيل الصالح ؟ أجل اني أنوف لأني شعجاع ولأني فعلت أموراً خطيرة لأجل فرنسا فقراركم غير جدير بي وبالمجلس الاشتراعي وسأطبعه يوماً من الأيام لكي يكون مجلبة للعار والخزي على مجلسكم وقد شئتم أن تقنعوني بالخسيفة والمضاضة ولكنني من الذين يقولون :
 المنايا ولا الدنيا !

« ارجعوا الى منازلكم ... وهب كنت مخطئاً فلا يحسن بكم أن توجهوا الى ملامة علنية فالناس يفسلون الملابس القذرة في البيت . وفضلاً عن ذلك أرى ان حاجة فرنسا الي أشد من حاجتي اليها ! »





دخول الفرنسيين الى موسكو في سبتمبر ١٨١٢

الفصل الثالث والثلاثون

ابتداء حرب سنة ١٨١٤

« ان حاجة فرنسا الي أشد من حاجتي اليها ! » ما أقوى هذا الكلام الصادر عن كبرياء شديدة في ذلك الداهية الصليب العود الشاعر بقدرته والعارف بمبلغ قوة ذراعه . إلا أن الداهية لا يخلو في غالب الاحيان من الاوهام بأزاء سرفوته أجل ان نابوليون كفرد وكرجل تاريخي لا يحتاج ولا جرم الى فرنسا ليتمتع بمجده وينتقل الى الأجيال الآتية ولكنه كإمبراطور وزير دولة عظيمة لا يستطيع الاستغناء عن فرنسا وكيف يتسنى له أن يدافع بدونها عن تاجه فواسرته ؟ وكيف يقدر أن ينجو من الموت السياسي الذي تتوعده أوروبا جمعاء بانزاله به ؟

فاذا صح من وجه آخر أن فرنسا تحتاج أكثر مما كانت عليه من قبل الى سيف نابوليون لمقاومة جيوش الملوك المتحالفين وتخليص أرضها العاثت فيها الهمدو أفلا يكون عمقاً أن نجاح الغزوة قد يحجر وراءه دمار السلطنة وسقوط ذلك الرجل المقدم سقوطاً لا يرجى له من قيام بعده وألا يكون سوى انكسار وقتي وحادث عرضي في حياة شعب عظيم . وقد قال عنه الشاعر فيما بعد انه اذا سقط فيكون سقوطه « كصاعقة تهوي على الارض من عل » ولا ينبغي لنا أن نذهل عما قيل مرات كثيرة من أن الصدمات والنكبات التي تحتاج الملوك الأسر والانظمة جرفاً من دون أن تمس الأمة يجب أن يطلق على فرنسا ون سواها .

وكان نابوليون حين فاه في حنقه بتلك الالفاظ الصادرة عن الكبرياء والموجهة الى نواب فرنسا نسي هذا المبدأ المأثور . فالجلس الاشتراعي وان يكن قد انقاد الى أفكار وبيلة المغية وأما في مبنية على الحماقة وان لم يكن محبوباً عند الشعب من جراء أعماله الماضية لم يكن من الحكمة أن يعامل بمثل هذا الاحتقار وهذه الغلظة فانه مع ما كان لموقفه الدستوري من قلة الاهمية ومع

شدة انقياده الأعمى كان مصوناً باللقب الفخم الذي يحمله وقد تعود الناس أن يروا فيه ثمالة الديمقراطية وظل الطريقة الانتخابية . وكفى هذا الأمر أن يجعل كل من يتهجم عليه مستهدفاً لنبال العطب الويل . ومعلوم أنه يحدث غير مرة أن الملوك الذين يزعمون أنهم راسخو القدم على عروشهم يكونون قد خبروا بأنفسهم أن الإرادة الفردية مهما قويت لا يمكنها التمسك بالمجالس النيابية ولولم يكن تمثيلها للأمة كاملاً من دون أن يصيبها من هذا التمسك ما لا تحمد عقابه . وقد تحطم الصولجان غير مرة في يد القابض عليه المرید التحكك بصورة التمثيل الوطني .

أجل ان المجلس الاشتراعي ركب مركب الخطأ بما توخاه من العمل لمعاكسة أفكار نابوليون في زمن كان زعيم الامبراطورية الفرنسية محتاجاً فيه الى ثقة الامة به ليتيسر له وقاية أرض الوطن من تهجم الاجنبي عليه . إلا أنه يرجح أن العاهل زاد ذلك الموقف حرجاً باعارته أهمية كبرى لمعارضة النواب غير المنتظرة وتحقيره إياهم تحقيراً علنياً : وكان بعد ذلك أن الاحزاب في الداخل ووكلاء الدول الأوروبية استغنموا الفرصة من الخلاف الناشئ بين العاهل ومجلس مجالسه الكبرى واستفادوا منها فائدة عظيمة وسر أعداء فرنسا بأن يفرقوا نابوليون وبلاده ليسهل عليهم بلوغ ما ربههم منه وأن يسمعوا نابوليون يصبر به باتفصالة عن الامة بعد اندغامه بها كل الاندغام وبزعمه أن احتياجها اليه يفوق احتياجه اليها ولكن الشعب الفرنسي لم ينقم عليه من جراء دعواه المقرونا بالمعجزة بل اندفع ابتأؤه وراء ذلك القائد الكبير الى الاثراس واللورين وشمبانيا ليساعده على الدفاع عن أرض الوطن وشرفه .

وقبل انطلاق نابوليون من باريس أقام في ٢٤ يناير الامبراطورة ماري لويز وكيلاً للامبراطورية فأقسمت الامبراطورة التمسك بالمألوفة في اليوم عينه أما الامبراطور في مجلس شهبه الأراء وأصحاب الخطط العالية في الامبراطورية والوزراء .

ودعا اليه نابوليون قواد الحرس الوطني الباريسي في اليوم نفسه في قصر التويلري وأعلن أنه زعيمهم فقال لهم : « اني منطلق والثقة بملء أهائي لمحاربة العدو وأترك عندكم أعز ما عندي في هذا العالم أعني الامبراطورة وابني . »

وكان المسيو دي برنكا والمسيو دي بريفان من جملة القواد الذين حلقوا على
الوديعة الموكول اليهم أمر المحافظة عليها .
وانتهى إلى نابوليون كتاب كارنو الآتف ذكره في هذا اليوم أيضاً
فما أشد المناقضة التي بدت حينئذ لنا بوليون فان كارنو أشد الناس تمسكاً بالمبادئ
الجمهورية بعد ما أعرض بجملته عن زخارف الملكية الجديدة وبها رجها تقرب
عند تقلب الأقدار من ذلك الذي كان هو من أكبر المعارضين لجلوسه على العرش
ومورات أول أمير من أمراء الامبراطورية وختن العاهل وصديقه ورفيقه
القديم والحاصل منه على أممي المناصب والمعالي والنائل منه تاج مملكة اختار الحين
الذي قلب فيه الحظ ظهر الحين للمحسن اليه ليخونه وينحاز الى النمساويين
والروس وينجدهم بتلك البسالة الفرسوية التي طالما كانت شؤماً عليهم ... فقد
رقي إلى علم نابوليون أن ملك نابولي سلك مسلك ولي عهد أسوج وان ختنه
عقد مع حيه في ١١ يناير بايماز من البريطانيين وثيقة تقضي عليه بمعاربة
العاهل الفرنسي بحيث ان البرنس أوجين الذي كان يناجز النمساويين اضطر
أيضاً الى مكافحة جيش نابولي ومملكة المعبر من أشجع القواد في الجيش الفرنسي .
واقضى موقف نابوليون في ذلك الحين أن يكون في ذلك الرجل الهام
شدة صريمة نادرة تجعله رابط الجأش ثبت الجنان عند رؤيته ما نزل به من
المنكبات وما أبداه نحوه أصدقاؤه من الغدر واللؤم . وكانت الطبيعة قد جادت
عليه بعزيمة لا يقل غرارها فاستاء من الاعمال الدنيئة الصادرة عن ذويه والمقربين
اليه لكنه لم يدعها تنال من أجلاده وتفت في عضده .
فتجهد وظهر على عواطفه ولم يعبأ بالعاصفة الهابة على جميع أنحاء فرنسا
وزحف للملاقة الحلفاء الذين خرقوا حرمة حياد سويسرا لغزو الولايات الشرقية
فغادر باريس في ٢٥ منه في الساعة الثالثة صباحاً بعد ما أحرق أوراقه السرية
وعانق زوجته وابنه ... للمرة الاخيرة . وجعل في ٢٦ منه فترتي مركزاً لأركان
حربه ووصل الى سان ديزيه في ٢٧ منه فطرد أعداءه منها وكانوا قد ارتكبوا فيها منذ
يومين فظائع شتى . فابتهج السكان بحضور العاهل وجاء أحد الجنود القدماء
الكولونل بولان والطرح على قدميه معفراً جبينه ورافعاً اليه شكر الأهلين

المزدحمين حول مخلصهم كالبنين المرصوص واستخلص نابوليون مدينة بريان وقلعتها من بلوخر بعد يومين وحمله خسارة تقدر بأربعة آلاف رجل وأسرع عند أسفل درج القلعة قائداً اسمه هردنبرغ وهو ابن أخي مستشار دولة بروسيا . على أن بلوخر الذي لم يكن يظن أن العاهل في الجيش على مقربة منه أو شك أن يصيبه ما أصاب الضابط البروسياني وهو نازل من القصر ماشياً في مقدمة أركان حربه . وأضرم البروسانيون النار في المدينة رجاء أن يحموا ساقه جيشهم في أثناء جلائهم عنها .

وانضم بلوخر الى شوارتزنبيرغ في أول فبراير للهجوم على الروتياروديانفيل حيث كانت ساقه الجيش الفرنسي وكانا يتباهيان بوفرة عدد رجالهما ويؤملان اصابة ظفر داني المنال الا أن الجنرالين دوهم وجيرار لم يمكنهما من تحقيق امانيهما: فدافع دوهم عن الروتيار وجيرار عن ديانفيل . وكان المارشال فكتور مخميا في مزرعه جيبري فظل سحابة ذلك النهار محافظاً فيها على موقعه . ولما جن الظلام ضلت بطارية من الحرس عن سواء السبيل فسقطت في كهن وأسرها العدو وقد تمكن المدفعيون من القرار بخيولهم فألقوا فصيلة وجعلوا يقاتلون بشدة حين رأوا أنهم لا يستطيعون استرجاع مدافعهم .

وقد افتتحت تلك الحرب باليمن والنصر في موقعة بريان والدفاع عن الروتيار وديانفيل وجيبري إلا انه كان مع بلوخر وشوارتزنبيرغ قوات هائلة بحيث ان نابوليون خشي أن يطوق أو يقطع خط الاتصال بينه وبين عاصمته ان هو أصر على البقاء في مواقفه في ضواحي بريان وفضلاً عن ذلك زحفت فصائل من أعدائه الى سانس بطريق بارسور اوب واوكسبر .

فاضطر العاهل الى الاسراع للدفاع عن باريس لئلا يفاجئه خصومه فتراجع الى طروي ودخلها في ٣ فبراير ثم تراجع الى نوجان وأقام فيها مركز أركان حربه في ٧ منه . ونوى ان يقوم بحركات حربية سريعة تدل على الدهاء للتفريق بين الجيشين البروسياني والنمساوي لانه كان يتعذر عليه قهرها متحدتين وكان لخطته بداية حسنة فانه نال النصر في ١٠ فبراير في شمبوبر ولكن ضرباته وقعت هذه المرة على الروس فان قائدهم الاكبر أوسويف المقاتل بانثني عشرة فرقة انكسر انكساراً تاماً وأسر هو وستة آلاف من ذويه ومات الباقون

غرقا في المستنقع أو قتلا في ساحة القتال . وغنم الظافر منهم أربعين مدفعا وكثيراً من الدخائر والاسلاب

ولما كان من الغد كانت نوبة بلوخر في الانكسار فان نابوليون أدركه في منميراي وجمه في ساعتين من الزمان خسارة فادحة بحيث أن فيلقه أوشك أن يفتى على بكرة أبيه وأصاب الفرنسيون في الغد انتصارات جديدة فان فصيلة من الحلفاء كانت تسمى لتأمين تراجع بلوخر فشلت في شاتوتيارى فدخلها الفرنسيون والبروسيانون والروس مختلطين بعضهم ببعض . وكان من جملة الاسرى الساقطين في أيدي الفرنسيين خمسة قواد من البروسيانين والروس . وقضى العاهل الفرنسي ليلته في قصر نيسل فعجل بقايا جيش أعدائه في التقهقر بحيث أن الناظر الى عملهم هذا توهم أنهم منهزمون . وكان جنود بلوخر وساكين في أثناء زحفهم الى باريس وهم مملؤون آمالا وافتخاراً بأنون كثيراً من الفظائع والمخظورات فلم يطق فلاحو شيمانيا هذه الاعمال المنكرة فهبوا هبة واحدة وهجموا عليهم في الاحراج وأسروا منهم كثيرين وجاؤوا بهم بمعجب الى مركز الجيش الفرنسي

إلا أن جيوش الحلفاء وان فقدت كل يوم عدداً غفيراً من رجالها كانت تعود الى القتال بهمة جديدة فقد تألبت أوروبا جماء على فرنسا وأنت بجنود جدد ليقوموا مقام الجنود القتلى والجرحى أو الفارين : فان بلوخر بعدما انكسر جيشه في ١٢ منه في شاتوتيارى استطاع في ١٤ منه أن يعود الى القتال في فوشان وهي قرية هجم عليها الدوق دي راغوزا وأخذها من أعدائه ثم استرجعوها ثم عاد فأخذها منهم مرة ثانية . وبينما وطيس الحرب حام فيها وقع الجبرالغروشي على ساقه أعدائه فزق شمل مربعاتهم كل ممزق واغتم العاهل الفرصة فأمر الفرق الاربع المقيدة بخدمته بأن تهجم فهجمت ودحرت مربعا مؤلفا من ألفي رجل وأسرههم . وجاء فرسان الحرس على أثرها وكان العدو قد انكسر فعجل في التقهقر من أمامهم ولكنهم تعقبوه وأعملوا السيف في قفاه حتى دخل الليل فلم يدعوا له فرصة تمكنه من وجدان أما كن يلجأ اليها في ذلك الليل البهيم بل شدوا وراءه وقطعوا نظام مربعاته وغطوا وجه الارض بجثث قتلاه وأسروا منه عدداً كبيراً وغنموا منه مدافع كثيرة . وكانت ساقه جيش

الاعداء مؤلفة من فرقة الجنرال أوروسوف الروسية فأغارت عليها الفرقة البحرية الأولى بالطراب وضععت أركانها وأسرت منها ألف مقاتل كان من جملتهم قائدهم الأكبر

وفقد الحلفاء في يوم فوشان عشرة آلاف أسير وعشر رايات وعشرة مدافع وكثيراً من القتلى والجرحى .

وعهد العاهل الى قواده في أن يوقفوا في وجه شوارتزنبرغ ويصدوه عن اجتياز الاوب والسين ليتسنى له أن يزحف لملاقاة الجيوش العائثة فساداً عند المارن والمتهددة باريس من جهة رأس وسواسون ولكن القائد النمساوي لما لم يبق معه سوى قوات أدنى من قواته تقدم الى الامام بعدما جاء الجنرال بورمون الى التوقف مدة يومين كاملين أمام أسوار نوجان . ولم ير المارشالان فكتور وأودينو من الحكمة أن يشتبكوا في معركة لتوقيف الفلد مارشال النمساوي عن الزحف ولما علما أنه لا يتيسر لها سد الطريق في وجهه تراجع الاول منهما الى نانجي والثاني الى نهر اليسار وأمر أودينو بنفسه جسر من منطرو وميلون .

ولما انتهى الى العاهل ما كان من فوز شوارتزنبرغ ترك حرمون ومرتيه على المارن وخف بسرعة البرق الى الجهة التي كان الجيش النمساوي يهددها ووصل الى اليار في ١٦ فبراير وحمل مركز أركان حربه في غينيه وتوجه في ١٧ منه الى نانجي حيث كان فيلق وتجنستين الروسي القادم لعضد النمساويين والبافارين وكان في مورمان فيلق آخر روسي بقيادة الجنرال باهلن فهجم العاهل على دينك القائدين وكسرها شر كسرة . واستولى الجنرال جيرار على قرية مورمان فدخلتها الفرقة الثانية والثلاثون دخولا سريعاً . ثم أن الفرسان الذين يتوهم الجنرالان دي فلمي وميلهو وتعاضدهم مدفعية الجنرال دروو مزقوا في دقيقتين من الزمان مربعات مشاة الروس الذين سقطوا جميعهم في الاسر من قواد وضباط وجنود ويبلغ عددهم ستة آلاف محارب . وقد تمكن الجنرال وتجنستين بعد شق النفس من الفرار والوصول الى نوجان . ولما مر يروفان أعلن أنه سيدخل باريس في ١٨ منه . ولما اضطر الى المرور بهذه المدينة وهو هارب اعترف بأنه أصاب الفشل بدلا من الظفر الذي أمل الحصول عليه . وكان من

جملة ما قاله : « اني انكسرت ووقعت فرقتان من جنودي في ربة الاسر وستبصرون الفرنسيين بعد ساعتين »

وقد تحقق إنذار القائد الروسي هذه المرة فان الكنت دي فلمي والمارشال أودينو زحفا الى بروغان واحتلاها وزحف الجنرال جبرار الى فيلنوف ليكنتم وهجم على الفرق البافارية وكسرها . ولو لم يرتكب أحد قواد الفرنسيين الكبار خطأ بتأخره عن الهجوم في طليعة فرقة من الدراغون منتظمة تحت لوائه لاندحر فيلق الجنرال دي ريد كل الاندحار ،

وقضى العاهل ليلة ١٧ الى ليلة ١٨ منه في قصر نانجي وهو مصمم على الزحف في الغد الى منطيرو وسير اليها المارشال فكتور ليسبق الجيش النمساوي ويهيء موقفه فيها في ١٧ منه مساء .

ولما وصل الجنرال شانو الى منطيرو في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن عشر من فبراير وجد ان الجنرال بيانكي قد احتلها من ساعة من الزمان ونزلت فرقة في الاماكن المرتفعة المشرفة على جسورة المدينة . على أن الجنرال شانو وان يكن عدد رجاله أدنى من عدد رجال أعدائه لم يسمع الا لصوت شجاعته وحمل عليهم حملة صادقة . ولما كان بين الفريقين تفاضل في القوة من جراء الفرق في العدد ولم يكن قد وصل اليه في مساء اليوم السابق النجيدات المنتظرة انهزم في بدء الامر الا ان المقاومة العنيفة التي أبداهم مكنت أنصاره من الوصول والاصطفاف في ميدان الحرب . وكان جبرار في مقدمة القادمين فأوجد موازنة في القوى ووافى الامبراطور مسرعاً فضاعف محيطه النشاط والشجاعة عند جنوده فاندفع الى وسط المعركة حيث كانت تتساقط القذائف والقنابل ولما سمع الجنود يتذمرون من تعرضه للعتائف قال لهم : « لا تخافوا يا أصحابي فان القذيفة المعدة لقتلي لم تصب بعد » . وتقهقر أعداؤه الى هضاب سورفيل واذا بالجنرال باجول قد ظهر فجأة وراءهم آتياً على طريق ميلون فاضطروهم الى القذف بأنفسهم في السين وآليون . ولم يجبر الحرس الى الاشتباك في المعركة فلم يظهروا الا ليشاهدوا العدو ينهزم في جميع الجهات ويشهدوا انتصار فيلتي جبرار وباجول . واشترك سكان منطيرو في هذا الانتصار باطلاقهم النار من نوافذهم على النمساويين والورتمبرجيين . وأصيب الجيش الفرنسي

بخسارة اشتد وقمها على الامبراطور فان الجنرال شاتو لقي منيته على جسر منطيرو على أثر ما أبداه من البسالة في ذلك اليوم العظيم . واشترك أيضاً في معركة الحرس الوطني واستولوا على قرية ملون . ولما عرضهم العاهل قال لهم : « اظهروا مبلغ مقدرة رجال الغرب فقد اشتهروا في كل عصر بمدافعهم باخلاص عن بلادهم وكانوا العمد القوي للملكية » .

وبعد ما أسرف نابوليون في الثناء على القواد الذين ساعدوا على نيل الظفر في المعركة وكافأهم بما يستوجبونه من المكافأة فكر في الذين تباطأوا في الزحف أو تماهوا في النهوض بأعباء القيادة الملقاة مقابليدها اليهم . فعنفت الجنرال غيو أمام الجنود على تركه العدو يغتم منه بعض مدافع من معرسته . وذكر في النشرة الرسمية ان الجنرال منبرون ترك للقوزاق غاب فنتنبلو بلا مدافعة وأحيل الجنرال ديجون الى مجلس حربي لاستجوابه عن نقص الذخائر عند المدفعيين عند هجوم الاعداء عليهم في هضاب صورفيل . وكان العاهل يلقي في حرج موقفه مسوغاً لبدء العنف والشدة الا انه ألغى ما اتخذته من التدابير الشديدة بحق الجنرال ديجون احابة لالتماس الجنرال صوربيه حين ذكره هذا بما أتاه رفاقه القديم من الخدم الكبيرة الجليلة .

وكان أشد تعنيف خرج من فم نابوليون ورن صدهاء في جميع الاقطار الاوربية فكان له تأثير عظيم التعنيف الموجه الى المارشال فكتور وقد جاء في التقرير الرسمي ما يأتي في هذا الصدد : « كان مقضياً على الدوق دي بلون أن يصل الى منطيرو في اليوم السابع عشر من شهر فبراير عند المساء فتوقف في سالان وقد ارتكب بعمله هذا خطأ جسيماً فان احتلال جسورة منطيرو يجعل الامبراطور يكسب يوماً ويمكنه من مفاجأة الجيش النمساوي على غرة » . ولم يكتب العاهل بهذا الملام العلني بل أرسل الى المارشال الاجازة بترك الجيش وأقام الجنرال جيرار قائداً للفيق المتولي هو قيادته .

وتأثر المارشال فكتور من مصرع صهره الجنرال شاتو المقدام فلم يفض الطرف على القذى بل جاء الى الامبراطور وبسط له أسباب تأخره زاعماً أنه لم يأت ذلك الامر الا لأن الاعياء كان قد قطع من رجاله . وقال انه اذا كان قد اقترف جناحاً نزل بأسرته من النكبة العنيفة يعتبر تكفيرا عن ذلك الجناح .



نابليون يغادر موسكو المحروقة في ١٩ أكتوبر ١٨١٢

فحينئذ تمثل للعاهل مصرع شاتو فرق فؤاده فاستغنى المارشال الفرصة من تأثر العاهل وقال : « اني عازم على حمل البندقية فلم أنس مهنتي القديمة وسينتظم فكتور في صف الحرس » . فأثرت هذه الكلمات النبيلة بالعاهل فدیده لمصاحته وقال : « يا فكتور ابق . أجل اني لا أستطيع أن أعيد اليك فيلقك فقد أعطيت جيران قيادته ولكنني أعطيتك فرقتين من الحرس فتول قيادتهما واطو كشحا عن كل ما حدث بيننا » .

وكانت نتيجة معركة مورمان ومنطيرو على شوارتنبيرغ مماثلة لنتيجة معارك منبر ايل وفوشان وشيمبوير وشاتوتباري على بلوخر فان النمساويين أصيبوا بمثل ما أصيب به أحلافهم البروسيانيون والروس في زحفهم الى باريس وقد أفضى بهم الامر في نوبتهم الى التقهقر مارين بين قوم استاؤوا من مظالمهم فشدوا وراءهم وأذاقوهم من النكال أشكالا وألوانا ودخل نابوليون طرقي في ٢١ فبراير وكان حضور الاعداء قد أثار دفين الحماسة في أفئدة أنصار البوربون فجاهروا بأميائهم ومذاهبهم السياسية غير هيابين وقد بلغ الحماسة بمهاجر من المهاجرين وخفير من الخفراء القدماء فعلقا نشان القديس لويس فأمر العاهل بهما أن يمثلا أمام مجلس حربي فحكم عليهما بالموت وأجري الحكم بحق المهاجر أما الخفير فانه تمكن من الفرار .

ولما انكسر الحلفاء على ضفاف نهري السين والمارن وأبصروا جيوشهم الجرارة ممزقة الشمل لم يشاؤوا التقهقر من وجه جيوش نابوليون المظفرة فعقد الملوك المتحالون عرى المزائم على الماطلة رجاء أن يثوب الروع الى عساكرهم وتصل اليهم الجيوش الاحتياطية المنتظر وصولها واتفقوا على استئناف المفاوضات العقيمة التي كانت أبوابها قد انفتحت في فرنكفور في شهر نوفمبر السابق وفوضوا الى طاهل النمسا حي العاهل الفرنسي مباشرة المفاوضات الاولى رغبة بأن يجعلوا نابوليون يثق بأقوالهم وينبذ الارتياب بمقتراحاتهم السلمية .

الفصل الرابع والثلاثون

مؤتمر شاتيون - نهاية حرب سنة ١٨١٤ - دخول الحلفاء مدينة باريس

ورقد نابوليون في مزرعة شار في ٢٢ فبراير في كوخ نجار عربات وفي صباح ٢٣ منه بينا هويتهياً للزحف الى طروى أدخل عليه البرنس دي لختنستين حاجب عاهل النمسا وكانت مهمة هذا الامير الظاهرة مجيئه بجواب من العاهل فرنسوى على كتاب سيره اليه صهره من نانجي فافتتح السفير النمساوي كلامه بعبارات مزوقة قائلاً ان مولاه الجليل وحلفاءه العظام عرفوا قوة ذراع نابوليون من الضربات الهائلة التي أصابتهم وهم يأسفون على مواصلة مثل هذه الحرب الفظيعة التي لا يأملون أن يجنوا منها كل يوم غير الفشل والاندحار هذا ماتكم به الأمير . فقضى نابوليون المعجب من سماعه كلامه المناقض كل المناقضة للأراجيف المستفيضة في كل جهة تحت ظل سياسة غير متكتمة . وقد عبر كلام السفير النمساوي تعبيراً جلياً عن موقف مولاه وحلفائه . فسأله نابوليون قائلاً : «أو لا تعتمد المحالفة تحقير شخصي وإبادة ذريتي وإعادة البوربون الى عرش فرنسا وفقاً لمبتغى الحكومة البريطانية ؟ » فلم يتردد البرنس دي لختنستين في التصريح بأن مثل هذا القصد لم يخطر قط على بال ملوك القارة وانهم لم يحركوا البوربون وحزبهم إلا لاثارة الفتن في فرنسا وإلهاء الحكومة بها . فلم يقتنع العاهل كل الاقتناع بهذا الجواب : فلو لم يمثل البوربون في معسكر الحلفاء سوى أشخاص خاملي الذكر لاحتل كلام البرنس دي لختنستين التصديق ولكن أركان الأسرة البوربونية كانوا أنفسهم مع الأجني : فالكونت درطوى كان في سويسرا والدوق دنغوليم في البرنات والامراء الآخرون تحت راية المتحالفين . فكيف والحالة هذه تعتمد المحالفة المستمدة الآراء والأعمال من بريطانيا العظمى والرامية من خمس وعشرين سنة الى انتصار الحق الالهي على المبدأ الشمبي إلى الهزء بالاشخاص العظام ممثلي الحقوق الملكية الشرعية ونباله محتد الأسر المالكة في أوروبا ؟ وهب رأينا فرنسا الثورية تستذل أحفاد لويس الرابع عشر الكبير

وتقصيهم عن أرضها فلا بأس من ذلك . ولكن ما قولكم في عمل أصحاب
لمبادئ الملكية الاوربية الذين فكروا في نبذ أولئك الاحفاد وتعريضهم
سخرية الناس وقد أوشكوا أن يحتتموا بالنصر حرباً عواناً بأشروها وظلوا
وقدون نارها نحو ربع قرن . فثل هذا الأمر لا يأول الى مصلحة أصحاب تلك
لمبادئ أو الى ضمان حقوقهم بل يتعذر وايم الحق تحقيقه اذ أنه لو حدث أن
الملوك المتحالفين لم يفكروا بالنتيجة التي لاندحة لهم عن إصابتها من وراء انتصارهم
لتقي المبدأ السياسي الناشئة عنه تلك المحالفة رجالا اعتلاء في الحكومات يمررون
عن أفكارها ويجمعون الملوك أنفسهم خاضعين لسيادة العقل .

ولم يكن غير النصر من واق لفرنسا من إعادة البوربون اليها في مثل تلك
الاحوال الحرجة بيد أن نابوليون أصاخ لكلام البرنس دي لختنستين
ومقترحاته السلمية فوعده بأن يرسل في الغد أحد قواده الى طلائع الحلفاء
ليفتاحهم في أمر الهدنة .

ولم يكد السفير النمساوي يخرج حتى دخل على العاهل المسيو دي سانت اتيان
وهو الذي فوض اليه أمر المفاوضات السلمية في فرنكفور وكان قادماً من باريس فبسط
له ما أبصره وصمعه وقال : ان الحالة الحاضرة تقتضي أن تضع الحرب أوزارها لان
القوم سئمت نفوسهم منها وتجاهس المسيو دي سانت اتيان على القول للعاهل
ان الشعب الفرنسي راغب في عقد الصلح على أي وجه كان . وختم مقاله بهذا
الكلام : يا صاحب الجلالة يكون الصلح حسناً اذا تم بسرعة . فقال نابوليون
بحدة : « اذا تم الصلح بسرعة جر وراءه العار والخسيفة . » ونظر بعين الغضب
الى المسيو دي سانت اتيان فراجع هذا حتى وصل الى الباب .

قلنا ان الحلفاء لم يطلبوا الا هدنة ليتسنى لهم ضم نشرهم وجهر كسرهم وتعزيز
قوتهم وقطع مجرى الظفر السريع الذي أصابه نابوليون وإضعاف السيادة
الادبية والتفوق للذين منحته الحوادث الحربية اياها من ثمانية أيام أكثر
مما منحته اياها من قبل . وقد تمكن العاهل بما أوتي من الدهاء أن يستشف سر
الحلفاء من وراء كلام السفير النمساوي فطلب أن تكون قواعد الصلح من جملة
شروط الهدنة بين تلك القواعد : ومن جملتها ابقاء انفرس وسواحل البلجيك في
أحيائهم . وكان نابوليون المتوقع من البريطانيين معارضة شديدة على مطالبه

المهددة مصالحهم يصر على النظر قبل كل شيء في هذا الامر عند البحث عن شروط الهدنة وأبى أن يحال ذلك الى مؤتمر شاتيون الموكل اليه أمر النظر في انجاز المفاوضات المبتدأ بها في فرنكفور. ورأى في ذلك الاقتراح ذريعة وحيدة لاتملص من الشروط والقيود التي يخشى من وضعها بتدخل السياسة البريطانية . الا أن ملوك الحلفاء في القارة نبذوا الاقتراح المعاكس لمقاصدهم وأبوا الانفصال عن حليف يعتبرونه محركاً لأعمالهم ومولى لهم وأصرءا على إحالة كل مفاوضة بشأن الصلح الى مؤتمر شاتيون

ولم يلق نابوليون بدأ من مواصلة القتال مع بقاء مندوبين يفوضون مندوبي الحلفاء في أمر الهدنة في لوزيني وفي قضية الصلح في شاتيون وبينما النمساويون المخيمون على ضفاف السين والايوب يبدون ميلهم الى السلم ويسعون لابقاء نابوليون في موقفه أملاً بتوقيف رضى القتال في أجل قريب كان البروسانيون المدحورون من عشرة أيام والمسرعون لاصلاح ما فسد من أمورهم يجددون الهجوم على المارن وقد انتهز بلوخر الفرصة من غياب القائد العظيم وحال إعادة الزحف إلى باريس .

ولما بلغ نابوليون وهو في طروى في ليل ٢٦ الى ٢٧ فبراير ما كان من حركة الجيش البروسياني عقد في الحال عروة عزمه على الأمر الذي ابتغى اجراءه تخف إلى نهضة عاصمته ووصل بالسرعة المعهودة فيه الى ساقية جيش بلوخر وكان أمام القائد الروسياني جنود مرمون ومرتيه

وعلم شوارتزبرغ أن العاهل انطلق وأنه لم يبق أمامه سوى فيلق مكدونال واودينو وقد أظهر الفرنسيون على طول خطهم حماسة شديدة كما كانوا يفعلون في كل مرة يظهر الامبراطور في المعسكر .

وابتعد العاهل عنهم كثيراً فذهب من طروى في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير ووصل في المساء الى حدود ولايتي الاوب والمارن وقضى ليلته في هريس في منزل خوري البلدة ولم يكن هذا المنزل يتألف الا من غرفة واحدة وفرن .

وعلم في ٢٨ منه وهو في سيزان أن مرتيه ومرمون بعد ما انضم الواحد منهما الى الآخر في ٢٦ منه في فرته سوجوار وجدا أن عدد درجائهما يقل كثيراً عن

عدد رجال بلوخر فتراجعا أمامه الى ناحية مو . فتوجه نابوليون في الحال الى تلك الجهة وجعل مركز أركان حربه في قصر استرني حيث قضى ليلة ٢٨ فبراير الى أول مارس .

وجاء الى العاهل ضباط أوفدم اليه مكدونال واودينو فاخبروه ان النمساويين باسروا الهجوم في يوم مغادرته لطروى وعلموا بعد معركة هائلة نشبت على مرتفعات بارسوراوب انهم لم يكونوا يقاتلون الجيش العظيم وأن قائده الا كبر لم يكن معه . وقد أدت معرفتهم ذلك الامر الى بحث دفائن الجناة في أفئدتهم فاوفدوا البرنس دي هس همبورغ والجنرال بيانكي الى ليون ليحولوا دون محاولة المارشال أوجيرو إلقاء اعدائه في وادي الصون ولينزعا منه الموقع المنيع النازل فيه في تلك المدينة التي لها المقام الثاني في الامبراطورية . وظن شوارتزنبيرغ ووتجنستين ان جيشهما وان يكن قد انفصل عنه فيلقا البرنس دي هس همبورغ والجنرال بيانكي لا يزال كثير العدد يستطيعان به العودة الى طروى حيث كان الدوق دي طرانت والدوق دي ريجيو وليس معهما قوات كافية تمكنهما من المقاومة .

ولم يتردد نابوليون بين الخطر المحدق بعاصمة امبراطوريته والخطر المطيف بمحاصرة ولاية من ولاياتها : ففكر في فاتحة الأمر في أن يصد عن التقدم أعداءه المقترين من باريس والمعرضين لضربات يده الهائلة . وأمل أن يفرغ في القريب العاجل من بلوخر ليسرع في العودة الى مناهضة شوارتزنبيرغ فيجعل على غرة على النمساويين قبل ان يصيبوا انتصارات تقلق باله . فكان الداهية نفسه الذي جعل العالم يعجب من «حرب الخمسة الايام» بيد أنه كرر هذه المرة في بضعة أشهر ما فعله في بضعة أيام وكأنه وزع ذاته ليتيسر له ان يكون في كل مكان يدنو الخطر فيه من الجيوش الفرنسية . وان يقاتل على مسافات بعيدة وفي الوقت عينه على التقريب فيالق اعدائه الكثيرة

ولما عرف بلوخر ان العاهل يقترب منه عمل على الفرار من وجهه ولم يسهل على الجيش البروسياني الزحف الى باريس بسرعة كما خشي نابوليون فان مرتبه ومروم لم يخليا مواقعهما الا بقرع السيف وقد أصابا في أثناء تقهقرهما بعض

الاتصارات في ضواحي مو في وقتي غي آتريم وليزي.

ولم يعلم الامبراطور ما كان من حركة بلوخرالتقهقرية الا في أول مارس عند وصوله الى المرتفعات المشرفة على القرية . فعلم نفسه بمحصر القائد البروسياني بينه وبين المارشالين دي راغوز ودي تريفيز الا انه أبصره يعجل في ابتعاده نحو جهة سواسون بعد ما تحصن وراء المارن بهدمه الجسورة الممدودة فوقه .

فاصدر نابوليون الاوامر في الحال الى مرمون ومرتيه بتعقب البروسيانين من دون أن يضيما الوقت ووجه باكله دلب الى باريس ورومياني الى شاتيون ليبشرا بتقهقر البروسيانين . واقتضى ترميم جسر القرية يوما كاملا وقد تمكن جيش العاهل من عبور المارن في ليل ٢ الى ٣ مارس والزحف الى شاتوتاري ومنها سار على طريق سواسون . وأمل نابوليون أن يحصر بلوخر في ذلك المكان تحت مطر من قنابل المدافع المنصبة عليه من الموقع المنيع الحصون والمؤلفة حاميته من الف وأربع مئة بولوني .

وأجرى مرتيه ومرمون بكل سرعة ودقة الاوامر التي تلقياها وكان سيرها الى سواسون المخاذي لسير العاهل يضطر بلوخر الى البقاء محصورا بين الجيشين الفرنسيين . وظن الناس أن البروسيانين اشرفوا على الهلاك وان هربهم سيفضي بهم اما الى الاستسلام وأما الى الهلاك أمام أسوار سواسون .

الا أن العناية لم تشأ هلاك البروسيانين فقد كان لها مقاصد أخرى .. ولما أوشك بلوخر أن يسقط تحت ضربات الفرنسيين الذين ضاقوه وأحاطوا به فتحت سواسون ابوابها في وجهه وأجارتها وقد كان مقضيا عليها أن تقاومه : وتحرير الخبر ان البولونيين الامناء الاشداء لم يكونوا يؤلفون حامية المدينة فان جنود ونزحجبرود الروس ورجال بولوف البروسيانين استولوا عليها بمساعدة قائد من القواد الفرنسيين الخائنين .

وكان نابوليون في قيم وقت ما انتهى اليه ماجرى في سواسون فكان حنقه مضارما لدهشه من ذلك الأمر ولم يلق مندوحة عن استخدام العنف لابقاء الضعفاء العزائم تحت الراية والضرب على أيدي الناعلي النية فاصدر في ٤ مارس مرسومين ماليين : احدهما يقضي على كل فرنسوي يحمل السلاح عند اقتراب العدو

والآخر يقضي بالموت على كل ذي منصب يعالج التخفيف من حماسة الوطنيين
وفل حد عزائمهم .

ولم تبق السياسة الاجنبية بغير عمل فان المندوبين البريطانيين عقدوا في
شومون في أول مارس وثيقة مع جميع دول القارة ما لها المشاركة على القتال حتى
تعود فرنسا الى حدودها القديمة . ومالبث نابوليون ان علم من روميني ان هذه
الوثيقة أصبحت في شاتيون بلاغا اخيرا صادراً عن الحلفاء ولم يخف عليهم أنهم
يلقون الجنادل في الطريق المؤدي الى الصلح بوضعهم شروطاً لا يمكن التسليم بها
مع اظهارهم الميل الى اخذ نار الحرب وابرار اسباب السلم .

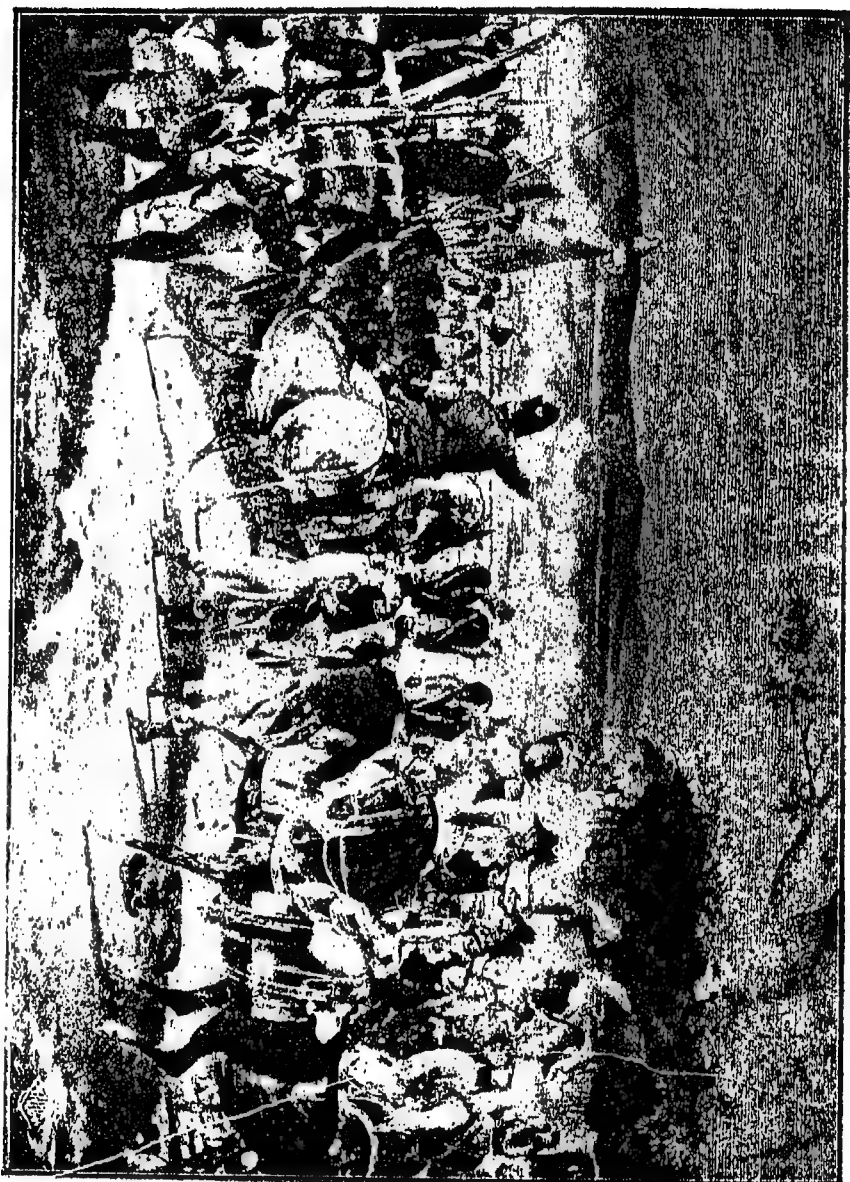
وادر ك الجيش الفرنسي في كران جيش بلوخ في ٧ مارس وكسره شر كسرة
ولسكن بلوخ ظل يتراجع الى الأين بدلا من أن يدخل سواسون للتحصن
فيها وانتهت رسالة في تلك الاثناء من الدوق فيسنس الى نابوليون قلميته
ان الحلفاء لم يكتفوا بأن يطلبوا منه ترك الاراضي التي استولى عليها الفرنسيون
في عهد الجمهورية وعهد الامبراطورية بل يطلبون أن يكون تركهم لها بمثابة
مقدمة للمفاوضات على أن يضمها المندوبون الفرنسيون أنفسهم المحظور عليهم
اقترح ما يخالف أغراض الحلفاء التي لا تحتل النقض والرد ولا يخفى ان مثل
هذا التحقير وهذه التضحية يعتبران شديدي الوطأة على نابوليون لو كان هو
مقهوراً فما ظنك بهما وقد اقترحا عليه وهو في ساحة الحرب يحجر ذل الناصر
المبين ؟ فلما وقف نابوليون على مطالب الحلفاء صاح بملء فيه : « اذا خطر لهم
تحقير أحد من الناس فليقتلوا عن غيري ولا يتوهم أحد منهم أنهم يهولون
علي بمثل هذا الامر . »

وكان مندوبو أوروبا القديمة يتوقعون مثل هذا الجواب الموافق لرغائبهم
لعلمهم ان الرجل الذي ارتفع فوق جميع العظماء الاقدمين والنبلاء المحدثين كممثل
فرنسا الجديدة لا يرضى بوجه من الوجوه أن ينحدر عن ذروة مجده ويقترح
على الملوك الباقية آثار قدمه على جباههم المتشاحضة ومفارقهم المتعالية أن يتحارق
متجرعاً كؤوس الصغار ويدل الشعب العظيم الملقى بمقاليد حظه بين يديه فيحسن
أن يعرض مثل هذا الاقتراح على رجال فرنسا القديمة ومع ذلك لا يظن أن
هؤلاء أنفسهم يرضون به ولا سيما بأن يقترحوه هم على أعدائهم . ولان يطلب

من نابوليون أن يضع هو ذاته قاعدة للصلح شرطا يجرح فيما بعد عواطف الوطنيين الصادقين والمهاكسين للثورة والامبراطورية أنفسهم المهاجرين لمواطنهم يعتبر اعلانا جديداً للحرب وطريقة من طرائق الاهانة ونوعا من أنواع تنفير العدو غير المسالم وقد أظهروا للملأطرا انهم يبتغون مفاتيحه بأمر السلم .

وعليه لم ينقل الميسودي روميني الى شاتيواف الاقتراح الجديد الذي أجمعت عليه كلمة الحلفاء وبعد أيام قليلة انتشر عقد المؤتمر الملتئم للنظر في أمر الهدنة وأقفلت أبواب المفاوضات السلمية في شاتيون . وكان نابوليون كلما فكر في مطالب الحلفاء وهو في جزيرة القديسة هيلانة يقول : « لقد اضطررت الى رفض مطالبهم ولم أخطئ في رفضي اياها . والآن وأنا ملقى على صخور هذه الجزيرة الجرداء أقاسي من شظف المعيشة ما أقاسي لا أندم البتة على ما فعلت . أجل ان القليلين يدركون مرعى الغاية التي انتحيتها الا ان عامة الناس مع ما طرأ علي من النكبات المتوالية لا يسعهم الا الاعتراف بأن الواجب والشرف لم يتركا لي الخيار في عملي . وهب بلغ الحلفاء مني ما ربههم فهل يقفون عند هذا الحد ؟ وهل كان ما يقترحونه علي من الصلح صحيحاً ؟ وهل كانت مصالحهم صادرة عن نية صادقة ؟ انه لضرب من الحماقة أن يصدق الانسان مثل هذا الامر وينقاد اليه . أئنا كنا يا يفتنمون الفرصة من الفوز الباهر الذي ينالونه بفضل وثيقة الصلح ليعودوا بدسائسهم الى اجراء ما باشره بقوة السلاح ؟ وكيف يكون والحالة هذه مصير الامن في فرنسا واستقلال تلك الربوع ومستقبلها ؟ ولقد فضلت على ذلك التمس حتى النهاية بحظوظ القتال والانحدار عن العرش عند ميسس الحاجة » .

وقد تمس نابوليون بحظوظ القتال كما قال : ففي ٧ منه بعد انتصاره في كران زحف الى لان وقد خيم الجيش البروسياني على مرتفعاتها . وكان بلوخر مع ما ألم به من النكبات قد ضم الى أفضلية موقفه كثرة العدد فانه منذ يوم الفرته لم ين عن تعزيز قوته بضمه اليه وهو ينسحب ونزحجبرود وبولوف وساكين ولنجبيرون وغيرهم من القواد ولكن جاءته نهضة أخرى أهم من جميع النجداث التي أتته فصار معه مئة ألف مقاتل بحيث انه آنس من نفسه في هذه الحال المقدرة على انتظار نابوليون والاشتباك معه في معركة يكون فيها فصل الخطاب :



معركة آusterlitz في ٣ مايو ١٨١٣ بين الفرنسيين والحلفاء بقيادة إمبراطور روسيا وملك بروسيا

وتحرير الخبر ان برنادوت بعد ما تردد في اجتياز نهر الرين وأظهر انه مكره على السير مع جيوش الحلفاء ألف برجاله جيشاً احتياطياً لبلوخر وقد بهرت عينيه المواعيد التي علله بها قيصر الروس في ابو بحضور البوربون .

على ان العاهل صمم على مقاتلة البروسيانين فاستعد للحرب في ١٠ منه وفي الساعة الرابعة صباحاً بينا هو يلبس حذاءه ويأمر بإعداد فرسه أدخلوا عليه جنديين من الدراغون قدما مشياً على أقدامهما من ناحية كرني فأخبراه أن العدو فاجاً في الليل فيلق الدوق دي راغوز وهزمه بعد ما مزق ثملته . فلما جمع نابوليون ذلك الخبر ألغى ما أصدره من الاوامر لقواده بمباشرة القتال ولكن أعداءه لما وقفوا من روادهم على ما جرى في الليلة المنقضية عمدوا الى الهجوم وبعد عراك عنيف أبدت فيه فرقة شربنتيه جرأة نادرة ودفعت الغوائل عن الجيش الفرنسي وذادت عن حياض شرفه فكر العاهل في وجوب التراجع . ففصل عن شافنيوب في ١١ منه عند الصباح وقضى اليوم الثاني عشر في سواسون . ثم انه ترك الدوق دي ترينيز في المدينة وأصار اليه أن يقف سداً منيعاً في وجه بلوخر في تلك الناحية وتوجه الى رنس وقد استولى عليها الجنرال سان بريست وهذا القائد فرنسوي الاصل متقيد في خدمة الروس فما أبطأ نابوليون أن استرجع المدينة ودخلها في ليل ١٣ الى ١٤ منه . وبعد ما ضم مرمون متفرق جنوده انضم الى العاهل وشاطره الهجوم عليها ففي مفتتح الامر عنفه نابوليون تعنيفاً مرأ على تركه العدو يفاجئه وإفساده بذلك الالهال ما أصابوه من النصر في ١٠ منه أمام لان ولكنه ما لبث أن عاد الى الحديث معه بلهجة اللطف والحب التي تعود مخاطبته بها .

ومكث نابوليون ثلاثة أيام في رنس قضاها في اتخاذ التدابير الحربية وتنظيم الشؤون الادارية .

وكانت الحوادث تتوالى آخذاً بعضها برقاب بعض . وبينما الجنرال ميزون يحافظ على الحدود الشمالية على المواقع الموكول اليه الدفاع عنها وكانو يحبط مساعي البريطانيين ومحاولتهم فتح انقرس والجنرال بيزانه يحصر أربعة آلاف بريطاني في برغ أب زوم ويبطش بهم بعد ما تمكنوا من دخول المكان ليلاً وأملوا أن يستولوا عليه بغير قتال لما كان بينهم وبين

بعض الخونة فيه من العلاقات السرية كانت التدابير السياسية تجعل الحركات الحربية وصدفها وخيمة التبعية على نابوليون في جميع أنحاء الامبراطورية : فانكسر سولت في أرتيز وتراجع الى طارب وطولوز ولم يتمكن أوجيرو من البقاء في ليون الا بشق النفس وقد تهيأ لمغادرتها ليؤم الايزر ويتحصن وراءه وفتحت بوردو أبوابها في وجه البريطانيين وكان القوم فيها ينتظرون قدوم الدوق دنفوليم . ووصل الدوق درطوى الى برغونية . وأخيراً كان شوارتزنبرغ — ولم يقدم مكدونال واودينو على التصدي له — يهدد باريس بفتحها وقد هب فيها أنصار البوربون من رقدتهم هبوب النار من سنة الكرى وجاهروا بمبادئهم على رؤوس الاشهاد .

وكان العاهل في الموقف الحرج الذي صار اليه وعرف خطورته في لحظة عين يشعر بأنه لا يتمكن من النجاة الا بمحادث عظيم وضربة شديدة جازمة فلم يتردد في توجيه تلك الضربة الى شوارتزنبرغ الناجم عن دنوه من العاصمة ذعر شديد في أفئدة القوم فيها . ففوض الى مرمون ومرتيه مناصبة بلوخر والدفاع عن باريس من جهة الين والمارن وكان يخشى من أنهما لا يضطلعا على حق الاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة وانه ربما أفلت منهما بعض فيالق من العدو وشتت الغارة على العاصمة فأمر أخاه يوسف الذي أقامه نائباً عاماً بالألا يدع الفرصة تمر عند حلول الخطر قبل أن يسير الامبراطورة وملك رومية الى مكان تخفق فوقه ألوية الامان . ثم انه شخص الى ابرني وسار على طريق فيرشمينواز وميري ليفاجيء النمساويين من أقميتهم وكان يظن انهم وصلوا الى نوجان .

وبرح العاهل رنس في صباح ١٧ منه فوصل في ١٩ منه الى طروى وكسر ساقه جيش أعدائه في شاتر وهي القرية التي استقبل فيها البرنس دي لختنستين والمسيو دي سانت انيان الا ان النمساويين لم يزحفوا الى باريس كما اتصل به فانهم بعد ما تقدموا حتى بلغوا بروفان عادوا فتهقروا لجأه فان العاهل الاسكندر لما وقف على ما أصابه نابوليون من الغلب في كران ورنس خشي من أن يصاب شوارتزنبرغ بالانكسار منفرداً عند تقدمه وحده من العاصمة وان تقضي الانكسارات اليومية المتوالية الافرادية الى الفت من عزائم الحلفاء الداخل

عليهم الفرق والطائرة نفوسهم شعاعاً من جلاء تظاهرات الاهلين في الشمبانيا واللورين والالزاس بالمعاداة لهم .

وألح القيصر في مجلس حربي عقد في طروى بوجوب معالجة الجيشين العظيمين المتحالفين لانضمام احدهما الى الآخر في ضواحي شالون لينحرفا منها الى باريس ويسحقا كل من يتصدى لهما في طريقهما . فانقاد الحلفاء الى رأي القيصر وعملوا بموجبه ولقي نابوليون في ٢٠ منه جيش شوارتنبيرغ برمته عند ارسيس وكان زاحفاً الى هذه المدينة ليحبر نهر الاوب ويصل بسرعة الى سهول الشمبانيا المعينة لانتحام الجيشين المتحالفين . وحدث من وراء التغيير المفجائي المدخل على حركات الحلفاء الحربية بلبلة الخطة التي رسمها العاهل الفرنسي . وما عم نابوليون ان أدرك صعوبة الموقف الذي صار اليه عند التقائه بجيش يفوق في عدده ثلاثة اضعاف جيشه ولم يكن متوقعاً أن يلقي ثمة غير ساقاة ذلك الجيش إلا أنه لم يدع الفشل يبلغ منه . وكما كان يفعل في المواقف المخوفة بالشدائد والمهالك صمم على الاتكال على البسالة لتقوم مقام وفرة العدد ويستغني بها عنها فاندفع الى ساحة الوغى غير مبالي بما يحف به من المتالف وحذا جميع رجاله حذوه وجاء في النشرة المكتوبة في سنة ١٨١٤ ان العنبر الثائر من سنابل خيل الفرسان ارتفع فغشاه فاستل حسامه واخترق طريقاً في وسط العنبر وجعل يقاتل في مقدمة حرسه وبدلاً من أن يتجنب المهالك كان يقتحمها . فسقطت قنبلة على مقربة منه فانتظر ريثما تم انفجارها وما ابطأ ان غاب في غمامة من الدخان والغبار . فظنوا انه قتل ولكنه نهض وامطى جواداً آخر وعاد فوقف في مكان تخطر عليه فيه قنابل البطاريات . . . ولكن المنية لم تشأ صرم جبال حياته .

إلا أن وقعة ارسيس مع ما بذله فيها الجيش الفرنسي وزعيمه الأكبر من الجرأة والاقدام لم تثبط المتساوين عن اجتياز نهر الاوب . وتراجع العاهل بانتظام بعد ما نكل باعدائه تشكيلاً واضطرم الى تأخر تقدمهم يوماً واحداً . بيد ان شوارتنبيرغ تمكن في آخر الامر من فتح الطريق المؤدي الى المكان المعين لانضمامه الى بلوخر . وترك أوجيرو مدينة ليون لبياكي وبوبنا في اليوم عينه .

ولما أصبح نابوليون عاجزاً عن معاكسة اجراء الخطة التي دبرها القيصر الاسكندر ومنعه انضمام جيوش الحلفاء فكر في نوبته في أن يسوق القلق والاضطراب الى أعدائه في أثناء التجمام بعضهم البعض الآخر بحربه ايام على رغم منهم الى أما كن تجري فيها حركات حربية خطيرة وبزوله عند حدود الشمبانيا واللورين حيث يتمم بحسب مجرى الحوادث من ضم الحاميات الكثيرة في الانحاء الشرقية وإثارة الاهلين وكسر كل فيلق على حدة وإتيان حركات حربية وراء عساكر شوارتزبيرغ وبلوخر وقطع الصلات بينهما وبين الحدود أو الدنو منهما اذا ما كانت الآفات المهددة باريس تقتضي ذلك الامر فيجعلهما بين جيشه الذي لا يدنو منه الملل ورجال مرمون ومرتيه الذين لا ينقصهم شيء من الجرأة والاقدام

ونحاه العاهل سان ديزيه وهو يريد إدراك تلك الغاية وقضى فيها ليلة ٢٣ منه . ووافاه كولانكور اليها وأخبره ان أسباب مفاوضات الصلح انقطعت بته . وقد كان نابوليون منتظراً ذلك النبأ لأن مزاعم الحلفاء وتبجحاتهم لم تكن مكتومة عن أحد . واغتم المستأوون في مركز أركان حربه الفرصة ورفعوا أصواتهم متذمرين منه واتخذوا اللهجة عنها التي اتخذها أعداؤه أنفسهم من مثل اتهامهم اياه بشدة الميل الى تمديد أجل الحرب . وقال أحد كتاب نابوليون ما يأتي : « وكان مع نابوليون ذاته كثيرون من الذين لم يريدوا الاعتماد عن باريس إلا مكرهين وجاهروا بما يتوزعهم من القلق وشرعوا يتذمرون . وفي الردهة الملاصقة للغرفة النازل فيها نابوليون فاه بعض قواد الجيش بكلام يوهي صرح العزائم فتألب حولهم الضباط الفتيان وابتغوا أن يطرحوا عنهم عادة الثقة التامة به وسعوا لاظهار امكان حدوث فتنة . فكان كل انسان يتكلم وجعلوا يتساءلون قائلين : « الى أين نذهب ؟ وما هو مصيرنا ؟ واذا سقط فهل نسقط معه ؟ »

ويعم العاهل دولنان في ٢٤ منه فقضى فيها ليل ٢٥ منه وعاد في الغد الى سان ديزيه لعرض ساقه جيشه وقد هجم عليها فيلق من العدو ظنه من جيش شوارتزبيرغ ولكنه كان فيلقاً منفصلاً عن جيش بلوخر بقيادة ونزنجبرود

فنجبت بحضوره ساقه جديده وانكسر ونزحبرود وانهمز فتعقبه الفرنسويون على طريقتي فثري وبارليدوق

على أن هذا الظفر الضعيف لم يسد ثلثة انكسار الدوق دي راغوز والدوق دي تريفيز في اليوم السابق في فيرشمبنواز . وقد أصبح الآن طريق باريس مفتوحا في وجه الحلفاء ولم تقم في وجههم أدنى عقبة كؤود . فساروا عليه ودفعوا أمامهم بقايا الجيش المتضعضع الاركان

وحالما انتهى الى نابوليون نبأ انكسار قائديه وما يحيط بالعاصمة من الرزايا صمم في الحال على الرجوع الى باريس ففصل عن دولقان لما انبثق فجر اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس . وسير الجنرال دييجان حاجبه ليبشر الباريسيين بأنه قادم على جناح السرعة لنجدتهم وفي مساء اليوم الثلاثين منه لم يبق بينه وبين عاصمته سوى خمسة فراسخ وكان قد استراح في فرومنتو ليبدل مطيته ويحتاز المرحلة الأخيرة الفاصلة بينه وبين مدينته باريس الفخمة واذا بهم قد جاؤوا وأخبروه أنه قضي الامر وأن المدينة العظيمة استسلمت وأن العدو سيدخلها في الغد فتخير المضي الى فنتنبلو . واستسلمت باريس بعدما استنفد الدوق دي راغوز والدوق دي تريفيز كل مجهودهما لصد العدو عن التقدم ولكنهما فشلا عند فيرشمبنواز ولما اقترب الاعداء من العاصمة امثل يوسف بوناپوت لاوامر شقيقه وطلب من الامبراطورة أن تعجل في الخروج منها بانها ملك رومية غير محتفل بما أقامه مجلس وكالة الملك من التكبر على عمله ولما خرج تاليران من المجلس وعلم ما كانت الامبراطورة تنوي عمله قال : « فليهرب من يستطيع الهرب ! »

ويقال أن الملكة هرتنس استاءت من رؤيتها الامبراطورة وابنها يفادران المدينة ويتركانها للمتآمرين والمشاعيين . فأكثرت من الالحاح عليها بالبقاء وقالت لها :

« ان أنت تركت التويلري فلا يبقى لك مطيع برؤيته أبداً ! » وكانت تلك الكلمة كأنها نبؤة ولكن يوسف الذي عضده كيباساريس وكلاارك المخالفان برأيهما أعضاء المجلس الآخرين اقنع ماري لويز بالفرار . ويقول مؤرخ معركة باريس واستسلامها أنه وقع أمر غريب جداً في ذلك الحين وهو أن ملك رومية

أبى الانطلاق مظهرأ عناداً شديداً بحيث أنهم اضطروا الى استخدام العنف لحل الامر الحدث . وكان صياح الغلام يفتت الاكباد فكان يقول غير مرة : « أبي قال لي ان ابقى هنا . . . » وذرف جميع الحضور الدموع عند سماعهم كلامه . ولا يتوهم أحد ان هذه الرواية مفتعلة يراد بها إرضاء القراء فان هذا المشهد المؤلم جرى أمام شهود لا يستطيع الطعن بشهادتهم . فقد يكونون قد لقنوا الامر الحدث مايقوله ولكنه خلب الالباب باختياره تلك الكلمات وطريقة تقوّه بها .

وبعد انطلاق ماري لويز وابنها عمدوا الى الدفاع عن باريس إلا أن الاضطراب كان سائداً جميع فروع الادارة ولا سيما إدارة الحربية فان زعيمها الدوق دي فلتر تصرف تصرفاً غريباً جعل الناس يرمونه بكل تهمة : فالاسلحة نقصت المدافع من الجهة الواحدة والدخائر من الجهة الاخرى وكأن بدأ خفية عرقلت في كل مكان أعمال الدفاع وساعدت الغزاة . على أن الحرس الوطني المتولي قيادته منسي الشجاع كان مع مايلقونه في طريقه من المصاعب السرية يأتي بمعجزات من البسالة في اليوم الثلاثين من مارس . وقد شاطرهم هذه المأثر الجلييلة طلبة أفرت والحرس الامبراطوري ومدرسة العلوم والفنون . ولقي الحلفاء مقاومة شديدة عند حدود كليشي بنوع خاص . وكان عميد الجنود الفرنسيين المدعي منسي واقفاً ومعه ابنه ورئيسه آلن رئيس أركان الحرب ومعهم فريق من مشاهير الصناع والمثمنين والكتبة بشاطروهم المعاطب . فقال لهم لقد أحسن البداة فيجب علينا أن نحسن النهاية وهذا آخر حصن لنا فلنبذل كل ما في وسعنا للدفاع عنه فالشرف والوطن يقتضيان منا هذا الامر »

إلا أن الشجاعة لم تلق لها ندحة في آخر الامر عن الخشوع أمام وفرة العدد وقد خشعت في كل مكان بين اللؤم والغدر والخيانة . واذا كان منسي قد وفق في ضواحي باريس الى وجدان شبان هب في صدورهم لمحات الوطنية فان غيره ممن نسجوا على منواله لم ينتهوا الى الغاية نفسها التي انتهى هو اليها : فرمون أحاط به أنصار الحزب الملكي وطوق الدوق دي راغوز من كل جهة أحلاف البرنس دي بنيفاز (تاليران) فهذا أظهر أنه ميال الى الارتحال مع رصفائه الوزراء ولكنه بقي في باريس . فأقنموه بان العاصمة لا تيسر لها النجاة إلا

بالاستسلام فاسلم الامبراطورية في سبيل انقاذ العاصمة ودخل الاجنبي مدينة باريس في ٣١ مارس سنة ١٨١٤ دخول الظافر ليذك عرش نابوليون . وكان الذين فتحو له أبواب العاصمة الاشخاص ذواتهم الذين جعلتهم الانظمة الامبراطورية الموضوعة في ٣٠ مارس سنة ١٨٠٦ أعضاء للسلطة الجديدة يتوارثون مناصبهم خلفاً عن سلف



ذيل للجزء الثاني

صممنا على ضم هذا الدليل للجزء الثاني من تاريخ نابوليون الاول وتضمينه
لمحة عن تاريخ الاسرة البونابرتية وبيان حقيقة حالها والدور الذي مثله في
حياة الامبراطور الكبير

الاسرة البونابرتية

هي اسرة ايطالية الاصل مقيمة في جزيرة كورسيكا وقد تنازلت حكومة
جنوى لفرنسا عن هذه الجزيرة في سنة ١٧٦٨ واشتهرت هذه الاسرة بظهور
الامبراطور نابوليون الاول فيها . ومن تدبر تاريخ هذه الاسرة وجد انه لم يكن
لذلك الرجل العظيم من وجه للامتداح منها فانه اضطر الى النظر في أمر حالتهم في
الهيئة الاجتماعية والعناية بثروتهم ولم يكن يرى بدأ في كل حياته من مقاومة انانيتهم
وحسدكم وفي غالب الاحيان من مناوأة عداوتهم . ولم يؤيد أحد منهم قط خطة
سياسته بوجه صريح ولم يجز بوجه من الوجوه على الخطة التي رسمها له ، ويمكن
القول ان اخوته واخواته أضروا به ولم ينفعوه بشيء من الاشياء وقد أذاع
على رؤوس الاشهاد في جزيرة القديسة هيلانة بانه لو ولد ولادة غير شرعية
لبكان ذلك أفضل له فانه كان يتخلص بذلك من مقتضيات القرابة المرهقة .
وكان لنابوليون أربعة اخوة وهم يوسف ولوسيان ولويس وجيروم وثلاث
اخوات وهن اليزا وبولين وكارولين ،
وها نحن نذكر مختصر ترجمة كل من والديه واخوته واخواته باسطين أمم
كما يحسن بسطه :



موت البرنس یونا توسکی بعد معركة لیزفیلد ۱۸۱۳

شارل بوناپرت والد نابوليون

ولد شارل ماري بوناپرت في أجا كسيو في سنة ١٧٤٦ ولما كان له من العمر أربع عشرة سنة فقد والده فرباه عمه لوسيان بوناپرت رئيس كهنة الكاتدرائية في أجا كسيو وكان شارل بوناپرت صديقاً حميماً لبابولي القائد الكورسيكي الهمام الذي كان في ذلك الحين يناضل عن استقلال الجزيرة وأبلى بلاءً حسناً في قتال الفرنسيين في سنة ١٧٦٨ ولما دُخِلَ الفرنسيون الجزيرة لم يلق شارل بوناپرت بداً من الخضوع واليكم ما قاله في هذا الصدد : « كنت وطنياً شديداً التمسك بغرز بلادي وكنت من أشد أنصار بابولي حين كانت الحكومة وطنية أما وقد تقلص ظل هذه الحكومة فاننا أصبحنا خاضعين للحكومة الجديدة وهي الحكومة الفرنسية فليحي الملك ولتحي حكومته ! »

وكان شارل بوناپرت دكتوراً في الحقوق من جامعة ييزا وقد أسند إليه منصب معاون الرئيس في القضاء الملكي في أجا كسيو وهو منصب جديد انشأته حكومة لويس الخامس عشر . وانحاز شارل بوناپرت الى حزب الكونت دي مروف حاكم كورسيكا فضمن بذلك الامر مستقبل أسرته

وتوفي شارل بوناپرت في سنة ١٧٨٥ وله من العمر ثمانية وثلاثون عاماً وبضعة أشهر على أثر علة السرطان في معدته . وهذا الداء اتصل منه الى ابنه نابوليون . وكان شارل بوناپرت قد قصد الى منبلياي ليتداوى فيها إلا أن داءه لم ينجح فيه دواء ولم تنجح فيه حيل الاطباء

ولما اشتد عليه المرض وكان الى جانبه يوسف بكر أولاده وابن حميه فش كان يفكر دائماً في نابوليون ثاني أنجاله وكان هذا في ذلك الحين في المدرسة الحربية بباريس . فقال وقد دخل في دور النزاع : « أين نابوليون ؟ أين ابني نابوليون ؟ ان سيفه سيجعل فرائص الملوك ترتعد وسيغير وجه العالم ! وهو سيدافع عني من أعدائي ويخلص حياتي » . وكان نابوليون في ذلك الحين في الخامسة عشرة من عمره

وكانت هذه الرؤيا الشبيهة بالنبوة كل ما عرفه بالفكر ذلك النبيل الكورسيكي

الخالل المنزل عن المستقبل وكان وهو لا يدري أباً لامبراطور وثلاثة ملوك .
ولكن هل كانت زوجه أسعد منه حظاً وقد أسعدها الدهر بأن تشاهد أشياء
جدة كالثورة الطاحنة ومجد القنصلية والامبراطورية ونكبات سني ١٨١٤ و ١٨١٥
ومنفى جزيرة القديسة هيلانة ؟ فقد عاشت إحدى وخمسين سنة بعد وفاة زوجها
ومن الانباء التاريخية ان شارل بونابرت كان من النبلاء وأصله من تسكانا
ويقال ان أسرة البونابرتيين كانت صاحبة السيادة في تريفيز ولم يكن شارل
بونابرت من أصحاب الثروة فلم يزد ريع أملاكه في اجا كسيو عن ألف وخمسمئة
فرنك وكان يقضى عليه بان يقوم بها بأود عائلة مؤلفة من زوجته واولاده الثمانية
وكانت له مطاعم كبيرة فلم يطق بان يبقى أولاده بغير تعلم ولذلك حرك جميع
عوامل دهائه للحصول على مساعدة لتعليمهم فاصاب امنيته بمساعدة الكونت
دي مروف حاكم الجزيرة . ولما كان لقب الشرف في ذلك العهد يمهذ لحامله
سبيل التقدم لم يحجم شارل بونابرت عن الاستفادة مما اتصل اليه من اسلافه
من الالقاب النبيلة فوكت ما أخذ اولاده يوسف ونابوليون واليزا من اجا كسيو
وسافر بهم في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ الى باريس لإدخالهم في المدرسة عرج
على فلورنسة لآخذ الاوراق المثبتة شرف محتده ليقدمها مع ابنه نابوليون وقد
اراد ان يعده للمدرسة الحربية . وبعد ما ادخل ولديه يوسف ونابوليون
مدرسة اوتان توجه الى فرساي ليمهد لدخول نابوليون مدرسة بريان . فدفع
الاوراق التي جاء بها من فلورنسة الى المسيو دوزياني دي سريني المعين لفحص
مثل تلك الاوراق .

فنال شارل بونابرت من مكارم الملك لويس السادس عشر مبلغ الف فرنك
مساعدة على تعليم اولاده ونال الاوراق المساعدة له على مبتغاه وتوجه الى
بريان وبعد ثلاثة ايام وافاه اليها نابوليون قادما من اوتان فادخله المدرسة
الحربية .

وذهب شارل بونابرت الى فرساي نائبا عن نبلاء الجزيرة ليمثلها مع زميلين
له في المجلس الاعلى . ولكن لم يتم في تلك المدينة مدة طويلة لاشتداد المرض
عليه ولاضطرابه الى الشخص الى منبلياي للتداوي وهناك استوفى حظه من
الدنيا .

لاتيسيا رامولينو والدلة نابوليون

وأصاب نابوليون بعد صلح تلمست منزلة لم يسبق لها نظير في أوروبا . ولقائل ان يقول وكيف أصبحت في ذلك الحين والدته وأخوته وأخواته الذين لجأ معهم في سنة ١٧٩٣ الى مقاطعة البروفانس ؟ وماذا جرى للمرأة التي اقترن بها قبل معارك ايطاليا بمدة قصيرة ؟ ان كتابة تراجم أولئك الأشخاص الذين يمتون بصلة الرحم والنسب الى العاهل وبيان علاقاتهم به يقتضيان تحجير فصول نبين فيها ما بكل صورة ذلك الداهية الذي تسلط على حظ فرنسا وقبض بيده على ميزان السياسة في أوروبا .

أم الملك : — كانت أم نابوليون تدعى أم الملك فاعدا كونها والدلة نابوليون العاهل كانت والدلة يوسف الأول نابوليون ملك نابولي ثم ملك أسبانيا ووالدة لوسيان أمير كانينو ووالدة لويس الأول نابوليون ملك هولندا ووالدة جيروم الأول نابوليون ملك وستفاليا ووالدة اليزا باتشيوشي أميرة لوك ويومبينو وغرندوقة تسكانا ووالدة بولين برغيزي أميرة غواستالا ووالدة كارولين مورات غرندوقة برغ وملكة نابولي .

وتزوجت والدلة نابوليون قبل ما أكملت الرابعة عشرة من عمرها وأصبحت أيمًا في الخامسة والثلاثين منه وتوفيت وقد شيعت من الأيام بعد ما قضت ٨٥ سنة من العمر . وهذه المرأة متحدرة من أسرة كريمة تقيم في مدينة صغيرة بجيزة تسكاد تكون مجهزة وتزوجت رجلا من صغار السادة في كورسيكا وقد توفي تاركا إياها بلا مال وحوها ثمانية أولاد تقضي عليها حالها بأن تعولهم وتربهم فنهضت بتلك الاعباء الملقاة على عاتقها وأصبحت بعد مدة غير طويلة محتلة منزلة سامية في تاريخ العالم تشع حولها أنوار ساطعة منبعثة من ثاني أنجائها الذي أصبح صاحب السلطان في فرنسا بحيث أصبح تاريخ المرأة وأولادها مماثلا للتواريخ المذكورة في أساطير الأولين أو في حوادث الف ليلة وليلة . ولكن رزانتها لم يهرها ما كان يجري حوالها وقد تمكنت من احتمال المصائب التي توالى عليها في آونة الضراء فانها أبصرت بعينها أولادها ينحدرون عن العروش التي تسنموها وصهرها ينصب هدفاً للبنادق وعاشت خمس عشرة

سنة بعد تخرم نجلها نابوليون وقد ضن عليها جلادوه بمرافقته الى منفاه ولبست حداده متباهية به ومات في حياتها حفيدها وقد حظروا عليها مشاهدته وتوفيت هي ذاتها مقعدة وعمياء في قصر بمدينة الباباوات . ولم يتمكن بلوتارك ولا شكسبير من ان يطلقا على غيرها تلك الكلمة التي فاه بها لابرويار وهي : « لا يستطيع الانسان أن يرى في الحلم امرأة عاشت نظيرها »

أسرة لايسيا — ولدت ماريا لايسيا رامولينو في أجا كسيو بكورسيكا في ٢٤ أغسطس سنة ١٧٥٠ وكان لأسرة والدها مكانة مكرمة بين أعيان الجزيرة فان أباهما انتظم في خدمة جنوى الخاضعة لها كورسيكا في ذلك العهد . ووالدتها فتاة من فتيات بياتراسانتا من أسرة سرينية الاصل . ومات والد لايسيا حين كانت والدتها في ميعة الشباب فتزوجت هذه برمان سفينة جنوبية اسمها فرانسوي فحس وأصله من مدينة بال بسويسرا وولدها منه ابن سموه يوسف وأحبت لايسيا اخاها يوسف حباً شديداً وهو أصغر منها بثلاث عشرة سنة وقد قضت معه الشطر الأكبر من حياتها في باريس ورومية . وهو ايضا اصاب قسطة من المجد المتصل اليه من أسرة اخته فان ثاني اولادها غمره بنمائه وجعله رئيسا لاساقفة ليون وكرديناو وسفيراً لجلالته الامبراطورية لدى الكرسي الرسولي وكنتا وعضوا في مجلس الشيوخ ومعاوناً لرئيس اساقفة راتسن .

حادثة لايسيا : — لايعرف الناس شيئاً عن حادثة لايسيا رامولينو وتربيتها فانها لم تتعلم في المدرسة الا بعض المبادئ الاولى وذلك لأنها من جنس النساء وكورسيكية . ففي تلك الجزيرة السائد فيها نوع من الهمجية وخشونة الاخلاق لم يكونوا يعلمون الغلمان القراءة وبالتالي لم يكن للفتيات حظ من التعلم ومع ذلك اسعد الطالع الميمون لايسيا بأن تتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب .

وتزوجت تلك الفتاة في ٢١ يونيو سنة ١٧٦٤ قبل ما أتمت السنة الرابعة عشرة من عمرها وقد يكون سبب ذلك الزواج الباكر ناجما عن جمال صورتها ولكن ثمة سبباً آخر وهو أن الكورسيكيين يبادرون الى التلمس من بناتهم حين يجدون سبيلا الى ذلك فالزواج الباكر عادة من العادات الجارية في تلك الجزيرة على انه من المظنون ان تلك الفتاة التي لم تكن قد أكملت الرابعة عشرة من العمر كانت ذات جمال مقرون بالقوة مما يرى غالباً في فتيات تلك الجزيرة . وقد قال نابوليون

مرة : « ان والدتي وان تك قد جاوزت الثلاثين من عمرها لا تزال في ريعان الصبا » والناظر الى صورتها يتمثلها صغيرة القامة كستنائية الشعر سوداء العينين طويلة الاهداب والحاجبين المتقوسين اللذين يزداد بهما جمال الكورسيكيات متناسبة تقاطيع الوجه مستقيمة الانف صغيرة الفم معتدلة الاذنين بارزة الدقن قليلا. وذلك دليل على قوة الارادة . وقد ذكرت أشكالها في الجواز الذي أعينوها اياه في ٩ ابريل سنة ١٨١٤ في اورليان حين أخذت لأول مرة طريق المنفى وهذا ما جاء عن تلك الاشكال في الجواز الذي دفعت ثمنه فرنكين :

العمر : أربع وستون سنة — القامة : متر وخمسون سنتيمترا — الشعر : رخطه المشيب — الجبهة : بارزة — الحاجبان : كستنائيان — العينان : موداوان — الانف : معتدل — الفم صغير — الذقن : مستدير — الوجه : يضي الشكل — اللون : أبيض — علامات فارقة : لا يوجد .

زواجها : — وقالت لاتيسيا : تزوجت بشارل بونابرت وكان جميل الطلعة كبير الجسم كمورات .

وكان زوج تلك الفتاة في الثامنة عشرة من عمره وهو فارس تام الخلق كبير القامة جميل الصورة فصيح اللسان — لانه كان محاميا — يحسن اللغة الفرنسية ويتفنن في الاساليب الضامنة لهوائه وهناء أسرته . ولكن هل خطر على باله وهو الشديد الميل الى العلم والادب أن يزين عقل امرأته بالعلم ؟ انه لم يكن له متسع من الوقت لذلك لانصرافه كل الانصراف الى الجهاد في سبيل استقلال وطنه . ثم انه انضم الى الحكومة الفرنسية وجعل يتنقل بين كورسيكا والقارة لاصابة مطالبه الكثيرة . فضلا عن ذلك لم تكن صحة لاتيسيا تمكنها من احراز الثقافة التي تنقصها ففي خلال تسع عشرة سنة قضتها مع زوجها ولد لها منه ثلاثة عشر ولدًا مات منهم ثلاثة وهم أطفال وتوفي اثنان منهم حين ولادتهم .

وكانت نيران الحرب مشتعلة في كورسيكا فان الحزب الوطني المنتمي اليه البونابرتيون كان ملتقا حول باولي لمقاتلة الفرنسيين بعد ما ابتاع هؤلاء الجزيرة من الجنوبيين . وكانت مدينة كورتي مركز المقاومة فتبعت تلك المرأة

الفتية زوجها الى ساحة الروع تارة ماشية على قدميها وتارة راكبة بغلا وطورا متسلقة الصخور ومتوغلة في الآجام وطورا عابرة الانهر وهي تسمع أزيز الرصاص حول أذنيها ولا هم لها الا الدفاع عن الحرية غير مبالية بسنها وجنسها وحالتها . وقد قال عنها مرة نابوليون : « انها تحتل مشاق الحياة وشغف العيش غير محتلة بشيء فلها رأس رجل على جسم امرأة » . ولم يساورها الخوف قط على الولد الذي في أحشائها أو لم تكن قد خصصته قبل ولادته للعذراء القديسة ملكة اجا كسيو ومحاميتها ؟ فانها في يوم عيد انتقال السيدة في ١٥ اوغسطس سنة ١٧٦٩ ولدت ثاني أنجبالها وقد كادت تنجز السنة التاسعة عشرة من عمرها .

عقيلة بونابرت أم اسرة : — لنذع الآن والدة نابوليون تخبرنا عما كان لها من الشأن في حياتها :

« لما صرت والدة خصصت جميع حياتي لتسيير بيتي وتربية أولادي فلم أكن أخرج من البيت الا لأذهب الى الكنيسة لسماع القداس ولم يذهب عني قط انه يجب على المسيحي الحقيقي أن يذهب كل يوم الى الكنيسة ولا سيما أيام الاعياد ولكن أظن ان الكنيسة لا توجب على الناس المتقلدين زمام الاعمال أن يضيعوا القسم الاكبر من اليوم في أيام الشغل خارج منازلهم . . وما عدا ذلك أرى وجودي في البيت ضرورياً لأضع حداً لهلبة أولادي واعتداء بعضهم على البعض الآخر وهم صغار . أما حماتي وزوجي فقد كانا كثيري التساهل معهم بحيث كانا عند جماعهما أذني صراخ منهم وأذني توبيخ مني يبادران الى مساعدتهم بابدائهما لهم كثيراً من الحنان . أما أنا فكنت قاسية أو متساهلة تبعاً للأحوال ولذلك كان أولادي يطيعونني ويحبونني معاً مع تأنيبي لهم .

« وكان نابوليون أجراً من جميع أولادي وقد أبدى تلك المرأة من صغره . وأذكر اني لكي أعلم مقدار همة ونشاط كل منهم فرس . غرفة من رياضها وخصصتها لهم لكي يلعبوا فيها في آونة التزه والمطر مثله أم الحرية في عمل كل ما يروقهم عمله فكان جيروم واخوته الثلاثة يقفزون أو يصورون على الجدار صورا مضحكة أما نابوليون وكنت قد اشتريت له طبلأ صغيراً وسيفاً من

الخشب فانه لم يصور الا جنوداً مصطفين ومستعدين للقتال .
 شدة صريمة عقيلة بونايرت : — وكانت عقيلة بونايرت شديدة في تربية
 أولادها على مثال التربية في كورسيكا فلم تغفل عند تربيتها اياهم عن استعمال
 الضرب اذا اقتضت الحاجة ذلك فنابوليون كاخوته شعر غير مرة بثقل ذراع
 والدته وقال عنها وهو امبراطور : انها كانت تمزج القساوة بالحنان فتعاقب
 وتكافئ من غير ما تميز وتحسب لنا كل شيء الخير والشر . فذات مرة لم يرد نابوليون
 أن يذهب الى الكنيسة يوم الاحد فصنعتة صنفعتين دلتاه على طريق الكنيسة .
 وذات يوم ذهبت والدته لزيارة صديقة لها فتبعها نابوليون بغير اذن منها
 فاندفعت عليه بغضب وصنعتة صنفعة شديدة ألقتة على الارض وتركته يبكي
 ويفرك عينيه بيديه .

وحدث مرة أخرى أن ذهب نابوليون الى شجرة تين فقطف منها مقداراً
 كبيراً وأكله وكانت والدته قد نهته عن ذلك ولما جاءت لتقطف التين وجدته
 مسروقاً فسألت أولادها عن ذلك وحين عرفت أن نابوليون السارق
 عاقبته بالسوط .

واستهزأ بمجدته مقلداً مشيتها بتوكأه على عصا وبتسميته اياها بالجنية المعجوز
 فحملت فيه والدته مقطبة الجبين فشعر بخطأه وأراد أن يقبلها فدفعته مقصية
 اياه عنها وبعد بضعة دقائق دخلت عليه في غرفته وقبضت عليه بيد قوية
 وأوجعته ضرباً .

وكان نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة يلمح كثيراً الى تذكارات
 حبيبته هذه ويتكلم عن أمه لانيسيا فانها كانت تطفئ شدة حداثها مازجة الحنان
 بالشدة الا ان تلك الشدة والدية لجميعنا نشأنا وكبرنا على ركب والدتنا ولم
 يذهب هذا الامر عن نابوليون ولذلك جاهر به على رؤوس الاشهاد قائلاً :
 الفضل لو الدتي ولما داتها الصالحة في سعادتي وكل ما صنعتة من الاشياء الحسنة
 مرجعه لوالدتي الجديرة بكل ضروب الاحترام . وقال لطبيبه انطومرخي
 الذي أرسلته اليه والدته الى جزيرة القديسة هيلانة : « انك شديد التعلق بي
 ولا تدخر شيئاً لتخفيف كربتي ولكن جميع ذلك لا يشبهه بحنان الأم . آه
 يا أمي لانيسيا ! يا أمي لانيسيا ! » .

عقيلة بونابرت اسم : — نزلت مصيبة دهاء بعقيلة بونابرت وأولادها فان زوجها رب العائلة توفي في سنة ١٧٨٥ وهو لم ينجز التاسعة والثلاثين من عمره فقضى علي ايمه بأن تمنى بحياة أولادها الثمانية وتهتم بتعليمهم فيوسف البالغ من العمر نحو سبع عشر سنة كان في مدرسة اوتان ونابوليون الذي كان في الخامسة عشرة من عمره كان في المدرسة الحربية بباريس واليزا التي لم يمض من عمرها الا تسع سنوات كانت من بضعة أشهر قد دخلت مدرسة سان سير الملكية وكان هؤلاء الاولاد الثلاثة يتعلمون على نفقة الملك فالمستقبل وان لم يكن مضمونا لهم فتح في وجه والدتهم باب الامل فكان موقفهم على الاقل في ذلك الوقت يخفف شيئا من قلق الام ولكن كيف السبيل الى تهذيب الاولاد الخمسة الباقين وتربيتهم فلموسيان ١٠ سنوات من العمر ولويس ٧ ولولين ٥ ولكارولين ٣ ولجبروم ثلاثة أشهر ونصف شهر .

ولم تر لها بدا من تربية ثمانية اولاد وتعليمهم وكان خمسة منهم باقين في حجرها اما دخلها فكان من نتاج بعض المواشي وريع بعض كروم غنب والمزارع وذلك مبلغ يسير فكانت الحال تقتضي همه تلك الایم التي لا تتجاوز خمسا وثلاثين سنة من عمرها للقيام باعباء المهمة الملقة على منكبيها . وقد قال يوسف عند عودته الى اجا كسيو : «ان والدتي عاجت كتمان حزنها مخافة أن تهيج في ذكرى اللوعة فهي امرأة شديدة الصريمة فاضلة ومثال صالح للامهات فما أحسن المثال الذي اعطتهن اياه ! »

وكانت ثلاث نساء يساعدن عقيلة بونابرت في الاهتمام بتدبير شؤون المنزل وهن كاترينا خادمتهم المعجوز التي شهدت ولادة نابوليون ولم تبق لها قوة على العمل وكاميليا ايلاري التي ارضعت نابوليون وقد جاءت فيما بعد الى باريس لتشهد حفلة التتويج وسافيريا وهي تسكانية الاصل وقد جاء بها اليها ابنها يوسف في اثناء تلقيه العلم في جامعة بيزا فان والدته كتبت اليه حينئذ أن يأتيها من ايطاليا بمخادمة في نحو الاربعين من عمرها لكي تزاوّل الطباخة والخياطة وكي الثياب بحيث ترواح أجرتها بين ثلاثة فرنسكات وأربعة فرنسكات في الشهر .

اقتصادها : — واشتهرت عقيلة بونابرت بالاقتصاد وبمعرفة قيمة كل شيء وقد نهىها امرا ف زوجها الى حب الاقتصاد الى معرفة طريقة الادخار وهي فضيلة



نابليون وملك روميه قبل زحف الابدراطور الى موسكو

خلصت بها اسرتها مرتين: في سني الضيق التي تلت وفاة زوجها وفي سني الشقاء التي عقيبت تداعي صرح الامبراطورية في سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ .

واستندت مدة من الزمان في تدبير شؤون الاسرة الى يوسف بكرها والى رئيس الكهنة عم زوجها. ومات رئيس الكهنة ولكن قبلما لفظ انفاسه المعدودة نبأه حدسه ماسيكون من حظ ثاني اولاد ابن أخيه فقال لنا بوليون انه سيكون رجلا عظيما وكرسه لان يكون زعيم الاسرة . فعقيلة بونايرت كامرأة كورسيكية لم يسعها الا الاعتراف بسيادة الرجال في اسرتها وان بك اولئك الرجال أولادها . وقد شعرت شيئا فشيئا بان احترامها يزداد لزعيم اسرتها الصغير الخفيف القبضة .

الثورة في كورسيكا : — ونشبت الثورة الفرنسوية الكبرى فاصبحت في كورسيكا كما في غيرها من الانحاء الفرنسوية مشيرة للقوم بعضهم على بعض وتألف ثمة حزب جعله نفوره من مظالم الثورة يميل الى سلخ كورسيكا عن فرنسا الا ان هؤلاء الكورسيكيين المتطرفين الملتفين حول باولي بطل الاستقلال الوطني القديم أصبحوا عمالا يخدمون المصلحة البريطانية وبالتالي باتوا من أشد الناس عداوة لفرنسا . فلم تتردد عقيلة بونايرت فان زوجها كان فيما مضى من أنصار باولي يقاتل في سبيل حرية الجزيرة وهي ذاتها اشتهرت بشدة اعتصامها باهداب الوطنية الا ان البونايرتيين مالوا جميعهم منذ دخول الجزيرة في حيازة فرنسا الى هذه الدولة واستسلموا اليها بغير قيد ولا شرط وقد قضى عليهم موقعتهم بأن يظلوا مخلصين لفرنسا حتى وفرنسا الثورية ولو ساء لهم ذلك ثروتهم وحريتهم وحياتهم . هذا ما شعرت به تلك المرأة الاجاكسية التي أصبحت فرنسوية بجمالها .

وضبط احلاف باولي أملاك عقيلة بونايرت مع ان ريعها لم يكف لسد نفقاتها ونفقات أولادها وأوشك البوليون أن يستولوا على الجزيرة برمتها . وذهب اليها رسول من لدن باولي يقترح عليها أمورا يرد اليها بموجبها أموالها في الحال فقالت له : « ارجع الى باولي وقل له انه يعرفني كل المعرفة وسيعلم اني أنا أوعزت الى اولادي بأن ينهجوا المنهج الذي يسرون عليه الآن واذا اقتضت الحال ظاني أعود الى الامر عينه فانا فرنسوية وسأظل فرنسوية » فالامر الذي عزم عليه عقيلة بونايرت وعزم عليه جميع أولادها — كانت جميع الاسرة مجتمعة

في أجاكسيو — جعل حياة الجميع مستهدفة لنبال العطب فان باولي أمر بافراد تلك الاسرة أن ينجسوا اليه جميعهم أحياء أم أمواتا . فأكبر الاولادوم يوسف و نابوليون ولوسيان فروا متنكرين وتمكن نابوليون من الوصول الى شاطئ البحر والفرار في زورق صيد ولسكن ماذا جرى لوالدته واخويه الصغيرين وشقيقاته الذين تركهم .

هرب عقيلة بونايرت وأولادها: — وعرفت عقيلة بونايرت في ليلة من ليالي شهر مايو سنة ١٧٩٣ ان رجال باولي اوشكوا ان يصلوا اليها فاسرعت في ايقاظ أولادها والباسهم ثيابهم وجمعت في كيس بعض اطهار للأسرة وقليل من الخبز وبعض المؤونة وانطلقت بأولادها هاربة معهم من الخطر الذي يهددهم في وطنهم ولم تكن بولين الصغيرة تفارق امها وكان الخال فش يسير والى أحد جانيه لوييس والى الآخر اليزا ووصل الجميع الى الجبل فالتفتت الى ورائها وشاهدت منظرا محزنا فان غما ثم كثيفة من الدخان كانت ترتفع من اجاكسيو فقال احد الاولاد: ان بيتنا يحترق . فقالت له أمه : لا بأس من ذلك سنعيد بناءه جيلا فلتحي فرنسا ! »

وكان حادث هرب الاسرة وفي مقدمتها امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها من الحوادث المؤثرة فوصلوا الى ضفة نهر طاغ ولم يلقوا منتدحا عن عبوره فعبروا على جواد في مزرعة قريبة فركبت الام ومعها بنتاها الصغيرتان واجتازت النهر وتكررا العمل حتى عبر الجميع . فاستأنفوا السير في تلك الاراضي الصخرية ولم يبق لاليزا حذاء تلبسه فتهشم رجلاها وسال الدم منهما فقالت لها امها: « لا تبكي يا بنية فلنسنا وحدنا منكودي الطالع افعلي مثلي فانا أتمذب واصمت وقد بقي لنا أصدقاء يهتمون بنا وماعدا ذلك لا يهملنا الفرنسيون . »

ووصل الهاربون الى شاطئ البحر بعد ايام أي بعدما اجتازوا طرقا لا يمر عليها الا المعز فابصروا زورقا وكان فيه نابوليون فاسرعوا الى ركوب الزورق والابتعاد به عن البر وساقتهم الى كلبي ريح مؤاتية وقد اجتمعت الاسرة كلها على بعض أخشاب ملافية على وجه البحر بين الماء والسماء وبينهم من أسعدهم الحظ فيما بعد ان يعصبوا جباههم بتاج الامبراطورية والملكية وأن تصبح اسماؤهم

المجهولة حينئذ مشهورة فيما بعد في مشارق الارض ومغاربها فكان في ذلك الزورق قيصر واسرته وحظه .

وذاقوا في كلقي طعم الراحة بضعة أيام عند أصدقائهم ولكن لم يفكروا في إطالة المكث هناك اذ لم يكن لهم من ملجأ أمين الا في فرنسا فركبوا سفينة تجارية وقد دخل عليهم الخوف من السقوط في أيدي القراصين البريطانيين المنتشرين عند سواحل البروفانس ولم يخطر على بال قائد المدفعية الخامل الذكر في ذلك الحين ان في اسطول الاعداء ربان سفينة اسمه نلسن وهو اسم خامل أيضاً كاسمه . وأخيراً تمكنت الاسرة كلها من الوصول الى طولون .

عقيلة بونابرت في مرسيليا:— وفي بدء الامر سكنت عقيلة بونابرت واولادها في ضواحي طولون ثم انها انتقلت بهم الى مرسيليا واقامت فيها معهم . ولم يكن لها من أسباب المعيشة الا الوثائق التي كان يدفعها اليها ابنها نابوليون بصفة كونه قائداً في المدفعية ولكن ما لبث ذلك القائد أن انتزع طولون من أيدي البريطانيين فرقي الى رتبة جنرال مكافأة له على ذلك الانتصار الباهر الذي خلص فرنسا والجمهورية معاً . وكان ذلك الظفر فاتحة المجد الذي أصابه وهو المجد الذي تسكر أوائله ولا يعتبر عند عدم وجود الثروة ذا أهمية كبرى لهناء العيش ولكن يعد منقذاً من ضيق الحال وشظف المعيشة .

وأخذ كل من الاولاد يتخذ له مركزاً فيوسف تزوج جوليا كلاري ابنة تاجر مثر في مرسيليا ولويس لحق أخاه الى ايطاليا ولوسيان دخل في دوائر الاعاشة العسكرية واليزا خطبها السكايتان باتشيوتشي أما بولين فلم يلقوا من جهة مستقبلها فقبها طوت اربعة عشر ربيعاً من عمرها تهافت عليها الطلاب وبقي الصغيران كارولين وجيروم وهذان أيضاً لم يكن من سبيل للخوف عليهما . وكان نابوليون يوسع الخطى في المسير على الطريق المؤدي الى المجد والسلطة وقد قالت له والدته : « يا نابوليون ليست كورسيكا سوى صخرة صماء فهي زاوية صغيرة من الارض تكاد تكون غير منظورة وهي موطن الشقاء أما فرنسا فانها كبيرة وغنية وكثيرة السكان والثورة فيها مضطربة اضطراباً وناورها شريفة فلا بد من الاندفاع اليها والتقلي على جمرها » وكانت تلك الايام تتحقق في كل يوم عقيلة بونابرت في مبلو :— وعفرت ايطاليا والنمسا خديهما عند قدمي الظافر

الشاب فمن قصر ممبلو على مقربة من ميلان حيث اتخذ محل أركان حربه نظر
بحمد اسمه وبلاده يلمع في أوربا جمعاء وبصفة كونه ابنا معترفا بالجميل لم ينس
امه فطلب منها أن تأتي اليه في ممبلو ف جاءت مع بناتها ببساطة ملابسها السوداء
على الزي الكورسيكي وظهرت بقامتها الصغيرة كأنها حورية من حور الجنان
أو لم تلد رب ذلك العصر وتربيته وتلق في خلده الالهامات السامية ؟

وقال الامبراطور : « أقبلت علي والدتي والفرح يتدفق من وجهها والخيلاء
تصغر خدها فقالت لي وهي تضميني الى صدرها : « يانا بوليون أنا اليوم أسعد
الامهات » . وتلك الكلمة أفضل مكافأة أصبتها على ما أتيت به من الاعمال
الكبيرة ثم أنها جعلت تنظر الي متفحصة فوجدتني نحيل الجسم طاري الاشاجع
فاكتأبت من جراء ذلك وقالت لي : « انك تفني صحتك . فقلت لها ضاحكا :
اني بمكس ذلك أعيش . فقالت : قل انك تعيش في الاجيال المستقبلة أما الآن ...
فقلت لها . وهل أنا أموت الآن ؟ »

عقيلة بونارت عند العودة من مصر : — وانطلق نابوليون الى مصر فبعد
تخطيط نلسن لاسطول برويكس وحصره بونارت في أرض القرانة جعل الناس
يتساءلون قائلين : وهل يعود بونارت ؟ أما والدته فأنها لم تفقد دقيقة واحدة
الامل برجوعه وقد جعلت اقامتها في باريس مع كنبها جوزفين ولم تكن تحبها
كثيراً . وأقامت في باريس لثلاث تنسى فرنسا اسم ابنها فأنها ظلت ساهرة على
حفظ الامانة لذكرى فرنسا . وما لبث الناس ان انتهى اليهم خبر وصول الجنرال
بونارت وصعوده الى البر في فرينجوش . وبعد وصوله بثلاثة أيام أي في صباح
١٦ أكتوبر وصل الى باريس فذهب تواً الى بيته بشارع النصر فلم يجد زوجته
لأنها ذهبت لملاقاته ولكنها لم تلتق به . وكان اخوته وأخواته متشتتين ولم يجد
من جميع أفراد أسرته سوى شخص واحد ينتظره من دون أن يدهش مما أتاه
من الاعمال الكبيرة وكان ذلك الشخص والدته . وكما ضمت الى صدرها منذ
مدة غير بعيدة نابوليون الايطالي ضمت هذه المرة نابوليون المصري .

ونشرت الصحف في الفد هذا البلاغ : « عاد الجنرال بونارت الى بيته
بشارع النصر فلقني والدته تنتظره وهي في التاسعة والاربعين من عمرها »
عقيلة بونارت مساء برومير : — ووقعت حادثة برومير بعد شهر على أن

تلك المرأة وان لم تطلع على جميع أسرار الانقلاب الذي طرأ شعرت بما يدبرونه من الاعمال ولكن أين كانت في مساء اليوم الذي كان فيه نابوليون في سان كلود مستعداً للاقدام على العمل العظيم ؟ كانت في ملعب فيدوني في مقصورة في مقدمة الملعب تصحبها بولين الحسنة التي كانت قد أصبحت عقيلة لكارك وعقيلة جونو الفتاة وهي التي صارت فيما بعد دوقة دارتس ووالدتها . وكانت اولئك السيدات يتحدثن ريثما يبتدئون بالتمثيل وجميع الابصار شاخصة اليهن ولنترك الآن عقيلة جونو تسرد ذلك المشهد قالت : « لم تكن عقيلة بونايرت تقول شيئاً لكنها كانت تذكر من التلفت الى باب المقصورة وقد شعرت أنا ووالدي بأنها تنتظر أحداً ورفع الستار وبدأوا بالتمثيل بكل سכיئة وتقدم مدير الملعب بعد دقائق الى وسط الدكة وصاح بصوت جهوري بعد ما حيا الحضور :

« أيها الوطنيون لقد أوشك خائنو الوطن أن يفتكوا بالجنرال بونايرت في سان كلود » . فعند سماع هذا الكلام صاحت عقيلة لكارك بصوت شديد واضطربت اضطراباً عظيماً والدتها فعالجت تسكين روعها وهي ممتعة اللون كأنها تمثال من رخام . ومع كل ما ساورها من الخوف والهم لم يبس على عيائها الباقية عليه لمحة من الجمال إلا انقباض حول شفقتها وانحنى على ابنتها وتناولت يديها وضغطتهما بشدة قائلة لها بلهجة التأنيب :

« يا بوليت لماذا هذا الانتحاب ؟ اصمتي أو لم تسمعي ان شقيقك لم يصب بأذى ؟ اصمتي وانهمضي فيجب ان نغضي لنعلم ماذا حدث » .

« وكان لصوت والدتها تأثير فيها أكثر من كل كلمات التأسيه التي فنها بها . ثم خرجنا وخرج جمهور كبير من الملعب ليتسقطوا الاخبار وهم يقولون : هذه أم الجنرال بونايرت وهذه أخته . وسارتا الى شارع النصر وبعد ساعات وصل اليه الجنرال بونايرت ذاته قادماً من سان كلود وكان قنصلاً وقتيا للجمهورية الفرنسية . »

عرض الجيش في التويلري : — واتخذ القنصل الاول في شهر فبراير من السنة التالية قصر التويلري قصر الملوك مركزاً له . وعرض الجيش في ساحة كاروسل فكانت الاصوات ترتفع من كل جهة مطبقة الفضاء : « فليحي القنصل

الاول ! » ولما انتهى العرض مرت الكتائب أمام القنصل الاول ولما مرت أمامه الاعلام الممزقة والمصطبغة بلون البارود والباقية آثار الرصاص فيها كان الجنرال الشاب الذي لم يطلو من عمره أكثر من ثلاثين سنة يرفع قبعته وينحني أمامها احتراماً وتجلّة ووقفت وراء ذلك الرجل الصغير الشاحب اللون الازرق العينين المسترسل الشعر الى جانب زوجته وشقيقاته الجميلات امرأة جذبت اليها جميع الابصار وهي تلك المرأة الفتية لانيسيا رامولينو الاجاكسية وابنة بياراسانتا المرتينية وايم ذلك المحامي الصغير الاجاكسي ووالدة الجنرال بونابرت .

حفلات سنني ١٨٠٢ و ١٨٠٤ : — وبعد ما قاست تلك المرأة في بدء حياتها ما قاسته من شظف العيش ونالها ما نالها من الشدائد والمسكاره بلغت ذروة المجد والشرف فشهدت يوماً عظيماً وهو اليوم الاحد الموافق لعيد الفصح في ١٨ ابريل سنة ١٨٠٢ وقد احتفل فيه في كاتدرائية نوتردام في باريس بتصلح فرنسا والكنيسة وجاء في صحيفة الديبا الصادرة في ذلك الحين ما يأتي : « وجلست الى يمين عقيلة بونابرت حماتها فكانت تجيل نظرها في أولادها الخمسة المجتمعين في تلك الحفلة وخيل اليها انها بينهم في السماء التي جادت بهم عليها . » وبحث القوم عنها على غير جدوى في كنيسة نوتردام في الحفلة التي أقيمت في ٢ يناير سنة ١٨٠٤ فانهم لم تشهد تلك الحفلة الفاقدة المثال والسبب في ذلك هو أنه حدث خصام عنيف عائلي بين القنصل الاول وأخيه لوسيان بسبب رفض هذا الاخير تطبيق المرأة التي اختارها له زوجة وأحبها محبة شديدة . فصمم لوسيان على مغادرة باريس مع زوجته والانطلاق الى رومية . ولم يفهم القنصل الاول معنى الميل الحبي الذي جاهرت به والدته لوسيان مع ما أبداه من التمرد على أخيه . وبعدما بذلت عقيلة بونابرت مجهودها لتحول دون انفصام عرى المحبة بين الشقيقين منعت لوسيان عن الاجتماع بنابوليون ومعاتبته إياه قائلة له : « لا ينبغي لك ان تجتمع به يا ابني... فكلما حاد الطبع ونابوليون صاحب حول وظول أكثر منك يا لوسيان المسكين فالفضل لك ان تذهب من دون أن تشاهده » . وقال لوسيان : « وبقينا مدة من الزمان حتى انتصف الليل فاخذت زوجتي بيدها وخررنا جائئين أمام والدتنا فقالت لي

« أؤمل أن أشاهدكما بعد وقت قصير في رومية ». هذه كلمات والدني الأخير:
التي طاعت بها وهي تباعد عنا . وقبلما ذهبت الى غرفتها صعدت لتقبل
أولادنا الراقدين ... فما أشد ما شعرت به من السكابة تلك الام المسكينة في
ذلك الحين !

فأنحى عليها نابوليون باللائمة لانها منحت لوسيان الاثرة عليه فاجابته بكلمات
لا تخرج إلا من فم أم وقالت : « ان الذي أحبه أكثر من سواء بين أولادي
هو الذي يتعذب أكثر من غيره ». وقد جاء يوم شعر فيه نابوليون المسكين
بان حب والدته له يفوق حبها لباقي اخوته . وذهبت الى رومية لئلا وفاة لوسيان
وتسكين غضبه وارجاعه الى الخطيرة لكنها لم توفق الى ذلك ولم ترجع الى باريس
إلا في ٢٠ ديسمبر من تلك السنة

ولم يخف على نابوليون ان التاريخ يقتضي حضور والدته في حفلة التتويج .
ولذلك أوعز الى المصور دافيد بان يضع رسم والدته في الصورة التي صنعها
لتخليد ذكرى التتويج فرسمها الى يمين المذبح في منصة عالية فوق المارشالية كأنها
تشرف من كرسيها على الحفلة الجارية أمامها .

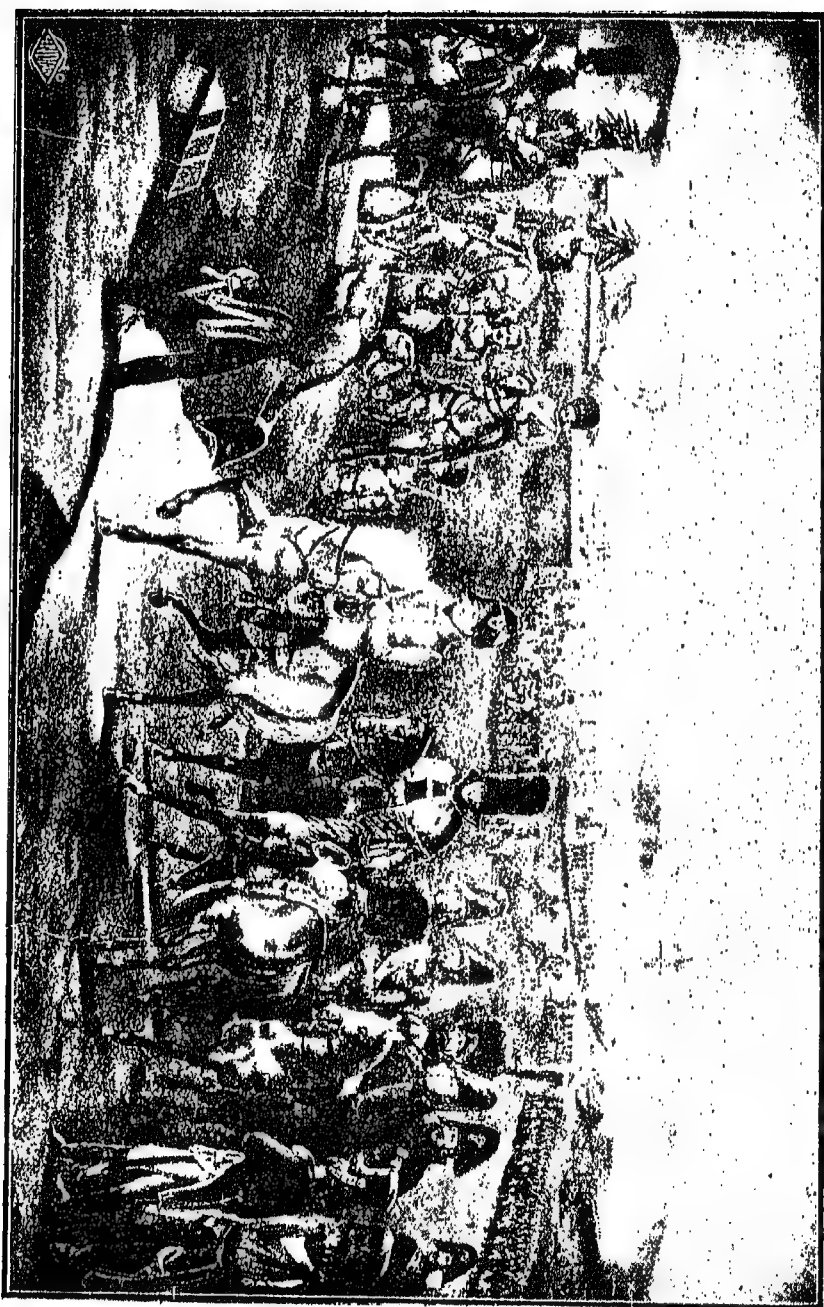
السيدة الوالدة : — ولم يشأ نابوليون صاحب السلطان في فرنسا ومنظم
البلاط الامبراطوري ان تظل والدته في حالة من الخمول كما كانت عليه من قبل
فأوجد لها لقبا جديدا وهو «السيدة الوالدة» وخصص لها قصراً اسوة بجميع
افراد الاسرة فقد كان لكل منهم قصر . وقد ذكر في التقويم الامبراطوري
الصادر في كل سنة تأليف هيئة المقيدين في خدمتها تحت اسم «قصر السيدة والدة»
الامبراطور والملك . فكان ثمة الوكيل الديني وهو اسقف فرسيل الحاصل
على نشان جوقة الشرف من درجة فارس وحاجباه وسيدة شرف وأربع سيدات
لمرافقتها (ومن حملتهن دوقه دابرتس) وقيم وناظر الاسطبل ورئيس نظار الاسطبل
وسكريتير وهو الذي صار فيما بعد دوق ديكاز

وكان المال المعين لنفقات قصر السيدة الوالدة مناسباً لحالته فاصلح ابنها لها
قصر التريانون الكبير الذي بناه لويس الرابع عشر لعقيلة منتسبان وانزلها في
باريس في دار من انخم الدور في حي سان جرمان وهو قصر بريان في شارع سان
دومينيك وهو اليوم قصر وزارة الحرب . وخصص لها عملا في دوائر الحكومة

الامبراطورية لان القانون يقضي بان تكون المكافأة مطابقة للعمل فاسند اليها رئاسة جميع دوائر الاسعاف العام ومنحها هذا اللقب « المحامية العامة لمؤسسات الاحسان والمحبة في الامبراطورية . »

بساطة معيشتها : — ولم تقم النكير على ذلك لعلها انها مشيئة ابنها ثم ان هذا الامر كان سببا من الاسباب الداعية الى اظهار عظمة البونا برتين لكنها بقيت كما كانت عليه مقتصد ومحببة للترتيب والبساطة ومراقبة لجري الحوادث. وكانت تفعل من كل ما يطلبه ابنها منها ما لا تستطيع رفضه فشهدت جميع الحفلات التي اقيمت في قصر التويلري كزواج جبروم وزواج أوجين دي بوهرنه وزواج استغاني دي بوهرنه وزواج نابوليون بابنة امرة اهل بسبورغ فترى في تلك الحفلات امرأة صغيرة الجسم لابسة ثيابا بسيطة بالنسبة الى التائق الباهر الظاهرة به السيدات الاخريات وتلك المرأة هي السيدة الوالدة التي لم يدهشها قط أن تصبح حماة الارشيدوقة ماري لويز . ونهضت باعباء المهمة التي فوضها اليها لمجملها اي اعمال الرحمة والمحبة ويؤيد ذلك ما كان جاريا من الحركة في شارع سان دومينيك والمراسلات بينها وبين المؤسسات الخيرية المختلفة .

ولم تشأ أن تفعل غير ذلك الامر وبقيت عائشة على هواها أي عيشة بسيطة كما في اجاكسيو اي ان خزائنها لم يكن فيها من الثياب سوى بضعة ملابس من النسيج الخشن وشال اسود تضعه على كتفيها . وكان غداء الاسرة مؤلفا من السمك والتين وجبن المعز ولم ترد أن تغير تلك المعيشة . ولم يهمها قط أن يكون قصر بريان مضارعا في الفخفة لقصر التويلري وفنتنبلو فكانت تستقبل في بيتها بعض الكهنة الذين يحومون حول شقيقها الكردينال فش وتقضي سهراتها بمزاولة بعض ألعاب بورق اللعب ، وكان النور ضعيفا في الردهة والنار قليلة في الموقد . وقد دعت بساطة المعيشة في ذلك البيت الى جهل بعض الناس مقام صاحبته . فذات مساء دخل سيد ردهة قصر بريان وهو لابس ثوبا موشى بالنفضة وهذا السيد ساكن المقاطعة وهو ذاهب الى السهرة فلم ينتبه الى وجود امرأتين جالستين في احدى زوايا الردهة تتحدثان بصوت منخفض على ضوء ضئيل فدنا من الموقد ليصطلي . فتعجبت احدى المرأتين من عمل ذلك الرجل الذي لم يحترم حرمة المقام ونهضت وكانت البارونة دي فلوريو احدى نساء الشرف عند والده



نابليون في شمبرلير ١ فبراير ١٨١٤

الامبراطور وقالت له : هل تعلم يا حضرة السيد عند من أنت ؟ فقال : أولست عند الامير رئيس المستشارين ؟ فقالت : لا يا حضرة السيد انت عند حضرة السيدة . فقال وأي سيدة هي ؟ فقالت : هي السيدة الوالدة . فقال : ووالدة من هي ؟ فقالت وهي تشير الى والدة نابوليون : انت عند حضرة صاحبة السمو الامبراطوري والملكي السيدة والدة جلالة مولانا الامبراطور والملك .. فكان اضطراب ذلك الرجل عظيما وبالنسبة في الاعتذار .

بشرط أن يدوم هذا : — وكان يقلق خاطر والدة نابوليون خوفها من أن تلتقي هي وأولادها في شيخوختها بالقيمتة من المصاعب في السنوات التي تلت فقدان زوجها كأن ذوقها السليم يناجيها بان البنانية الفخمة التي شيدها على شكل سحري ذلك الولد الذي تمخضت به كانت كقصص من الورق مع أنها كانت تنتمي اليها أخبار الانتصارات التي تملو الانتصارات والمعاهدات التي تعقب المعاهدات والمؤسسات التي تأتي على تهيئة المؤسسات والتيجان التي تأتي على اثر التيجان فتعز رأسها وتقول . بشرط ان يدوم هذا

وقد فكرت في ادخار المال فكان بنوها وبناتها يستودعونها أموالهم ويبيعون جواهرهم ويلقون أثمانها بين يديها . وهي مشهورة ببراعتها في المسائل المالية فتضع مال كل منهم على حدة وكثيراً ما استشاطت غضباً على بولين التي كانت تحبها فهذه الاخيرة كانت تنفق بغير حساب

شكوى السيدة الوالدة : — وعبرت أيدي الخلاف بين أفراد الأسرة فان مثال نابوليون واراثة التي لا تقبل المعارضة جعلهم جميعهم كالجنانين ولم يكن ثمة من سبيل لجعل يوسف ملك أسبانيا ولويس ملك هولندا وجيروم ملك وستفاليا وكارولين ملكة نابولي يسلسون قيادهم لزعم الأسرة . ويستدل من مكاتباتها أنها كانت دائماً كحكم بين أبنائها وبناتها وأصهارها وهي لم تحلم إلا بأمر واحد وهو اتحاد جميع البونابرتيين كباراً وصغاراً فهي بونابرتية أكثر منها نابوليونية .

وقد استاءت كل الاستياء من تصرف أولادها ومجاهرتهم بالعداوة بعضهم لبعض فقالت ذات يوم للجبرال ستانسلاس دي جيراردان بعد تناول العشاء في مرتفتين « مالي أراك كثيراً ؟ » فقال : « يا حضرة السيدة لا سبيل لدخول

البهجة فؤادي». فقالت: «أصبحت وهل تظنني سميدة؟ فليست سميدة وإن
أكن أم أربعة ملوك فلم يبق أحد من أولادي الكثيرين في حيزي فتارة
يضطرب بالي من جهة هذا وتارة من جهة ذاك فلويس المسكين الذي كان ساكن
البال جاءت الآن ثوبته في العذاب لقد جاء لمشاهدتي في أكس لاشابل فسررت
برؤيته بضعة أيام. ووذات صباح دخل علي في غرفتي وقال: أو لا تعلمين يأ أماء؟
فقلت: لا وماذا جرى؟ فقال: جاء في الليلة ثلاثة سماء. وكان البريطانيون
الممقوتون عنده فاضطر إلى الذهاب بسرعة. مسكين لويس! انه رجل كريم
ولكنه كثير الهموم لوعلت ما يشعر به وإنما تعزيتيه في معرفته بأن الجميع يحبونه
فقد أصبح هولندياً — ولم يبق فرنسويًا قط. وأنا أحب أولادي حباً شديداً
وهم يحبوني ولست راضية عن يوسف». فقال الجنرال: «ولماذا يا حضرة
السيدة؟» فقالت: «لانه لا يكتب الي اجل انه يحترمني ويجلني ويرسل الي
هدايا لا حاجة لي بها فانا اغني من اولادي وقد خصص لي مليون في السنة فلا
انفقه كله بل ادخر اكثر من نصفه. يقولون اني بخيلة ولكنني لا ابالي بهذا
القول فليس علي دين وانا اضع دائماً مئة الف فرنك تحت طلب اولادي. ومن
يدري ربما يأتي يوم يسرون فيه باصا به هذا المبلغ. ولا انسى ابدأ اني بقيت
مدة طويلة اقوهم بما يجرونه علي من الرزق من لدن الحكومة

» وقال لي الامبراطور اني بخيلة فلم اكنثر لكلامه وهو يقول اني لا اطعم
كثيرا فاذا اراد ان افتح منزلا فليعطني بيتاً كما يجب ان يكون لوالدة امبراطور
وثلاثة ملوك يكون فيه خدام وموظفون ومراقبون لحينئذ يرى اني استطيع
القيام بتلك المهمة. فبالمليون المخصص لي لا ينظرون الي كما ينظرون الي والدة
الامبراطور بل كما ينظرون الي امرأة غنية. فأولادي لا يعرفون الا ان قيمتي
ولكنهم سيمرفونها بعد موتي

وقبل سفر الامبراطور شكا الي من جميع اخوته قائلاً: سألقي القبض
على هذا وازج ذاك في السجن. فقلت له انت مصيب ومخطيء يا ابني
انت آية من آيات الدهر لا يستطيع احد ادراك كنهها. ولماذا يكون الملوك
مغفلين بحيث يتوهم الناس ان علي اعينهم برقما وان وقت سقوطهم دنا
لكي يحل اولادي محلهم؟ ولما سمع الامبراطور هذا الكلام قال. يا سيدة

لاتيسيا (وهو يضحك) وانت ايضا تتملقيني . فقلت : وهل اتملك انا ؟
انك لا تنصف والدتك فالام لا تتملق ولدها وانت تعرف ذلك يا صاحب الجلالة
فامام الناس أبدي لك كل ما يمكنني ابداءه من الاحترام لاني من جملة رعاياك
ولم يكن حين اخلو بك أعتبر نفسي والدتك وأعتبرك ابني وحينئذ حين تقول : اريد
أقول انا في دوري : وأنا لا أريد . فلي أنفة وعزة نفس . والآن أنا متوجهة
الى باريس فن المقضي على الامبراطورة أن تأتي لزيارتي فاننا حماها وان هي
لم تتم ما يجب عليها فلا أذهب لزيارتها هذه هي أطواري . «

السيدة الوالدة في سنتي ١٨١٤ و ١٨١٥ : — ان الوقت الذي أظهرت فيه
عقيلة بونا برت رباطة جاش وصدق عزيمة وبعد نظر هو في السنين الاخيرة من
سني الامبراطورية فهي الوحيدة التي ظهرت بمظهر الحزم والعزم والشدّة .
وكيف لا نبدي العجب حين نقرأ ما كتبتة في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨١٣ الى
أخيها الكردينال فش لما أثار الاعداء على فرنسا وأوشك كل ما شيد فيها ان
يتداعى فقد قالت له : « يا اخي العزيز لم يبق وقت للمحافظة على الرسميات فالبوربون
تضعضت أحوالهم لانهم لم يعرفوا كيف يموتون والسلاح بأيديهم . «

وكيف لا نبدي العجب أيضا من ذلك المشهد الرائع الذي يشبه المشاهد
المبسوطة في روايات شكسبير وكورنيل وتجرب الخبر أنه في أثناء اقامة
الامبراطور في جزيرة البسا قدمت عليه والدته فساء يوم من أيام فبراير سنة
١٨١٥ بعد ما لعبت معه ومع شقيقته بولين بالورق خرج وهو مشرد الافكار
وجمل يتمشى على السطح المشرف على البحر وهو يناجي نفسه قائلا : « ومع ذلك
لا بد من ان أقول كل شيء لوالدتي . « فدنّت منه والدته فقال لها : « لا التي
مندوحة عن أن أقول لك ذلك ولكن حذار أن تقوليه لاحد حتى ولا
لبولين . . . فاعلمي اني منطلق الليلة . « فقالت : « والى أين تذهب ؟ » فقال :
« الى باريس ولكن قبل انطلاقي أحب أن ألتصطك عن رأيك » فقالت : « دعي أنسى
اني والدتك . . . فالحق سبحانه وتعالى لا يشاء أن تموت بالسلم ولا براحة
لا تليق بك ولكن ان تموت والسيوف في يمينك . فالآن امنض يا ابني وسر وراء
حظك . « ولكن هذه المرة لم تبصر عين الام كل شيء فقد أبصرت باريس من
دون أن تبصر جبل ماريو حنا وواترلو .

ولما وقعت البلية الكبيرة كانت باقية هناك وبعد معركة واترلو وافقت نابوليون الى المالميزون وأوشك البروسيانيون ان يصلوا الى ذلك الملجأ الاخير فاقتضى الامر الاسراع في الفرار وقد شهد طلما المواجهة الاخيرة بين الام وابنها فقال: ظهر تأثر الوالدة بدمعتين سالتا على وجنتيها ولم تفه بغير هاتين الكلمتين: «الوداع يا ابني». وكان جوابه مختصراً ايضاً فقال لها: «الوداع يا أمي». ثم تعانقا وافترق الواحد منهما عن الآخر افتراقاً ابدياً.

السيدة الوالدة في رومية: — ومن ذلك الحين ابتدأت تلك المرأة المسكينة تشعر بنزع مؤلم دام احدى وعشرين سنة فبرحت فرنسا ميممة رومية حيث اتخذت لها قصراً عاشت فيه مع أخيها وبعض أولادها عيشة هادئة وكانت تقول: «لا يضحكون عند والدة الامبراطور». وقد اختارت لمنفاها مدينة رومية لانها الارض التي احبتها كأمراة أجا كسية كاثوليكية وقالت في كتاب معد لان يطلع عليه البابا بيوس السابع.

«اني في الحقيقة أم جميع الاوجاع فالتعزية الوحيدة الباقية لي هي أن أعلم أن الاب الاقدس ينسى الماضي ويذكر جميع العواطف التي أظهرها لجميع اسرتي.» ففي قصر رينوتشيني المسمى الآن قصر بونابرت عند زاوية الكورسو وساحة البندقية لم يكن لها من أمنية الا السفر الى جزيرة القديسة هيلانة للاجتماع بابنها وايصال المال اليه وارسال طبيب وكاهن يثق بهما اليه. فرخصوا لها في ارسال المال والطبيب والكاهن ولكنهم منعوها عن الذهاب.

وفي مؤتمر اكس لاشابل المنعقد في سنة ١٨١٨ وجهت الى كل من امبراطور النمسا حي ابنها وجد ملك رومية وامبراطور روسيا صديق ابنها في تلست وارفرت وملك بروسيا كتابا يحرك الجهاد وهذه خلاصته: «ياذا الجلالة أنا أم وحياتة ابني أعز من حياتي فلا تنبذمسي أم تقيم النكير على المعاملة العنيفة التي عومل بها ابنها.» ولكنها لم تحصل منهم على جواب.

وتقطعت أنفاس ابنها في ٥ مايو سنة ١٨٢١ فارسلت الى وزير خارجية بريطانيا العظمى كتاباً مطولاً قالت فيه: «اطلب رفات ابني فحق الام بذلك مفضل على سواء فبأي حجة يحبسون غني هذا الرفات الخالد؟ ان ابني لم يبق محتاجاً الى المجد فاسمه يكفي لمجده ولكني اريد ان اقبل رفاتة الهامد....»

لقد دفعت نابوليون إلى فرنسا والعالم فأناشدكم الله وأستحلفكم بجميع الآلهات وأتمس منكم يامولاي اللورد ألا تضن علي برفات ابني . « ولم يكن حظها هذه المرة أفضل من حظها حين أرسلت كتاباً إلى ملوك الحلفاء .

وعاشت السيدة الوالدة خمس عشرة سنة بعد وفاة ابنها نابوليون وتوفيت في ٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وقد لجعت بموت حفيدها الذي حانت منيته سنة ١٨٣٢ في قصر شنبرن ببلاد النمسا في الحادية والعشرين من صمره ولم تكن عنها قد وقعت عليه من ١٨١٤ : ولو امتدت حياتها خمس سنوات لشاهدت في الانغاليد بباريس رفات ابنها نابوليون الذي جادت به على فرنسا والعالم .

يوسف بونابرت

ولد يوسف بونابرت في كورتي سنة ١٧٦٨ . ولم يكن في حياته يشبه نابوليون أخاه بشيء من الأشياء فقد انقضت حياته بسكينة تامة ولم يصحبها شيء من العناد أو التمرد وكان جميل الصورة بهي الطلعة حلو الملبس وقد ارتسم على محياه مزيج من جمال والده الارسطقراطي وأنفة والدته المختلة تيهاً وعجباً . وكانوا يعجبون به مقتخرين ويفضلونه على أخويه نابوليون ولوسيان المذكورين من التذمر والشكوى لأنهما كانا معرضين للأمراض التي تصيب الاحداث . أما يوسف فقد كان وضاح الجبين بض الوجه يشوق الناظر اليه تقبيله . وكانت السيدة لاتيسيا والدته تتباهى ببيكرها بأنه لا يسبب لها أدنى اضرار أو اغتمام وقد ظل المفضل بين اخوته حتى لمعت بوارق دهاء نابوليون وبهرت بها أنظار الناس طراً ونال وهو ناعم الظفر التفوق على جميع أفراد أسرته وقد اعترف له بذلك في جميع الظروف ولا سيما بعد تحريم والده شارل بونابرت وانتقال حق الزعامة على الاسرة إليه كأنه البكر . على أن امتياز حق البكورية المعتبر عند الكورسيكيين كمقيدة من عقائد الايمان جعل يوسف يخاطب دائماً أخاه نابوليون بكلام يدل على تفوقه عليه ومع ذلك كان نابوليون يحرم شقيقه البكر . ومما جعل يوسف يتعالى على اخوته تزوجه في شببته بفتاة غنية جاءت ببائنة دفعت الشقاء والفاقة عنه وهما من خصائص أسرته وقد أخذت عليها الحوادث السياسية التي جرت في الجزيرة وذهبت بكل ماله من المقتنيات .

وتحاصر نابوليون أمام تفوق أخيه يوسف وكان يشكو من ضيق ذات يده وتوسل بجميع الوسائل لاستمالة اليه وأشار عليه بأن يبتاع ببائة زوجته أرضاً تدر عليه الرزق . وكان نابوليون كلما ارتقى درجة في سلم المجد والمناصب الجنديّة يذكر أخاه يوسف . ولما قضت الحال باليجاد قنصلية في إيطاليا ألقى بمقاليدها إلى شقيقه يوسف مسهلاً في وجهه سبيل مزاولة التجارة في جنوى لأن القنصلية كانت تساعد على إحراز الثروة . وحالما وجد طريقاً مفتوحاً لديه عينه مع شوافي بمنصب معاون مسيطر لجيش إيطاليا براتب قدره ستة آلاف فرنك ورقاه الى منصب كبير ثم أرسله سفيراً يمثل الجمهورية الفرنسية في بارمة ورومية . ولم ينبذ يوسف منصباً من هذه المناصب لاستقاده اعتقاداً تاماً بتفوقه الشخصي كما كان نابوليون في دوره يعتقد بتفوقه أيضاً وهي صفة يمتاز بها كل فرد من أفراد الأسرة البونابرتية فكل منهم معجب بذاته وكل منهم يسعى وراء المجد والعظمة وهذه الخلة ورثوها عن والدهم فاعتقد يوسف وهو تاجر ثم قنصل فسير فلما إنه قادر على تذليل جميع العقبات التي تعترضه في القيام بجميع مهماته وقد رأوه من جراء هذا الأمر في خلال المعركة التي انتهت بالانتصار الباهر في مارنغو يفاوض رفاقه في أمر قبضه على السلطة اذا ما هلك نابوليون في المعركة ووصفه معاصروه بكونه لطيف المعاشرة ومهذب الاخلاق وذكي الفؤاد وطلق اللسان وخفيف الروح وكان ذا طباع لينة كطباع أهل الجنوب وأهل البلاط ولم يكن ذا طباع خشنة كطباع الجنود لأنه كان ينفر من الخدمة الجنديّة التي أصاب فيها شقيقه منزلة سبامية . وقد شاء أن ينتظم في سلك القضاة فجعل يختلف الى مكاتب المحامين في اجاكسيو ومرسيليا من دون أن يحجي من ذلك ثمار الفوائد ولكنه صادق أصدقاء وحافظ على صداقتهم فأخلصوا له النية وعضدوا مصالحته ودافعوا عنها ضد مصالح نابوليون

وتزعم عقيلة ريموزا أنه كان ناغل الدخيلة ومعتصماً بمحبل الكذب والراء ولكنه لم يجسر أن ينم أمام شقيقه بما انطوى عليه من الطبايع بل كان يعوذ بمقوة السكتان . وكانت تهب في صدره رياح المطامع بيد أنه كان يبذل الجهود لتسكينها وبتبني الظهور بمظهر الترفع عن العظمة وحب الاعتزال عن معاشر البشر والتعلق بأسرته على أنه كان يميل الى اصابة المقام الاول أيا كان . أولم

يستنفد الميسور لتقرير حق الوراثة في نسله حين تقررت القنصلية لنابوليون مدى حياته ولاصافته مقاماً رفيعاً في الاحتفالات الرسمية وجلسه في المحل الاول على المائدة عند تناول القنصل الاول الطعام معه في مرتفتين ؟ وكان له بلاط كبلاط الملوك وكان أصدقاؤه أعداء أخيه وقد تصير في ذلك آل ارليان في خالي الحين مع البوربون ومد لواء حمايته فوق عقيلة ستال مع معرفته بتعقب غوشاي مسيطر الشحنة لها ودافع عن برنادوت الناسج برود الدسائس لمناوأة السلطة القنصلية واستقبل في مرتفتين بنيامين كنستان محرك المعاكسة ومثير المعارضة في المجلس ومع ذلك لم تحل جميع هذه التظاهرات دون النزاع الى أخيه الرفيع المنزلة ويقول باراس ان يوسف بونايرت لم يتمكن من عقد قرانه الا بطريق الدسائس : فانه أدى في مرسيليا خدمة الى أسرة كلاري التي كان لها فتاتان بتخليصه عنهما من السجن . وكانت هذه الاسرة قد أحرزت ثروة واسعة من تجارة الصابون . وحالما مكنته الاحوال من التعرف بها والتردد عليها لم يبتعد عنها . وكان له من العمر في ذلك العهد ست وعشرون سنة وكان جميل الطلعة يزينه لقب كنت . فأعجبت به ثمانية الفتاتين المدعوة جوليا وغشى على عينها رواؤه وأصم أذنيها الكلام المزوق الذي كان يخاطبها به بانما لها حبه . وتم قرانهما وكان لها شقيقة تدعى ديزراي ولها بائنة تساوي بائنة شقيقها . فأراد نابوليون أن يقترب منها ولم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا وطلبها الا أن ولي الفتاة (كان والدها قد توفي) أجاب انه يكفي أن يحصى بين أفراد الاسرة كورسيكي واحد . ولم يكن كلامه هذا تقريراً ليوسف بونايرت . ولما زفت الالة جوليا الى يوسف عرفت أسرة كلاري ما كان عليه العريس من ضيق ذات اليد ويبين هذا الجواب بنوع جلي حالة ذلك الشاب فانهم لم يشاءوا أن يقبلوا صهر آخر كورسيكياً لأن الاول لم يرضهم كل الرضى : فهل استشفوا انه مداهن من وراء ما كان يظهره من لين الجانب ودمائة الاخلاق ؟ أو هل جنح عن الطريقة المثلى التي تخطها واجبات الزواج بتصيبه النساء على مثال جميع البونايرتيين وولوعه بالنقل ؟ وقد كان الجواب مفجعاً فلم يتمكن الكورسيكي من استغواهم ونال برنادوت التفضيل عليه .

وذكر باراس أن جوليا كلاري كانت قبيحة الصورة دميمة الخلق تقذى

بها النواظر وقد يكون متحاملا عليها في هذا الوصف ففي المكتبة الوطنية صورة تمثلها بشكل ظريف تقارنه جودة عظيمة ولها جبين واسع وعينان كبيرتان وأنف غليظ وفم صغير وشفتان رقيقتان . وهي صورة امرأة ليس فيها شيء من مميزات النبلاء وقد خلقت للخضوع لسلطة بعلمها ورضيت بحالتها وأحبت أن تقضي حياتها في الهيئة الاجتماعية من دون أن تفتح مجالاً للناس للاكثار من التحدث عنها . وقالت عقيلة دي جنلي : لما كان يوسف بونابرت في نابولي جالسا على عرش البوربون كانت جوليا كلاري في باريس مقبلة على التعبد فتسمع القداس في كل يوم في معبد سان سوليس وكانت قبل خروجها من الكنيسة تلقي في صندوق الفقراء قطعة من النقود الذهبية قيمتها أربعون فرنكا . على أن عقيلة دي جنلي بالغت في اطرائها بقدر ما تحامل باراس على البونابرتين في الكلام عنهم . وقد عينت لها ادارة الشحنة في حكومة نابوليون راتباً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك فالضرورة تقضي عليها بأن تخدمها بشيء في مقابل المبلغ الذي تقبضه منها فتسرف في اطرائها وتقابل جوليا كلاري ملكة نابولي بأخر أميره من أميرات كنتي واصفة اياها بأنها تحاكيها في الهيئة والتصرف . وقد تكون مصيبة في هذه المقابلة .

وانه ليصعب علينا أن نلقى في حياة يوسف بونابرت قبل عهد القنصلية وفي أثنائه عملا من الأعمال لا يظهر فيه شيء من المماكسة لشقيقه حين نشر يوسف بونابرت في سنة ١٧٩٩ رواية موينا التي أطنب أصدقاؤه برقة العواطف المبهمة فيها وطلاوة انشائها رأى القراء في الحال ان النهاية التي يرمي اليها المؤلف يراد بها مأكسة الروح الحربي . فقد انتقد ذلك الروح انتقاداً عنيفاً على مثال السواد الأعظم من رجال الامة في ذلك العهد . وكان حب المجد الباطل متسلطاً عليه فأحب أن يكون ذا مقام سام في المجتمع الانساني وجعل ينتفخ على مثال ضفدعة لافنتين حتى كاد ينشق . فابتاع داراً في شارع روشاي ثم اشترى أرض مرتفعتين الجميلة . وبعد قليل من الحين أبي الاقتناع بذلك فأقام في الدار التي ابتناها في ماضي بلوان الخادم الخاص للملك لويس الرابع عشر ويوصل مدخل هذه الدار الفخم الى شارع سانت اونوراوي وتمتد الحدائق التي خلفها الى الشانزليزي . وكان شديد التعلق بداره وهي التي ورثها الماركيز دي ماربوف حاكم كورسيكا



تنازل نابوليون عن العرش في ٦ أبريل ١٨١٤

القديم الذي بجلب البونابرتيون مقامه ويمدونه في مقدمة أصحاب الوجاهة والثروة وقد أصبح الآن يوسف بونابرت نجبل ذلك الرجل الكورسيكي الذي كان في خالي الحين يكثر من التردد الى فرنسا سعيًا وراء مركز لأولاده مقبلا في قصر نخم خلفاً للمركز دي ماربوف . وما أشد ما شعر به من المسرة والبهجة يوسف بونابرت الشديد الزهو والخيلاء بصيرورته صاحب ذلك القصر بحيث خيل اليه أنه أصبح المركز عينه .

ولما وصل الى تلك المنزلة السامية أصبح مسموع الكلمة بين جميع مغالطيه في أثناء تغيب أخيه نابوليون في مصر . ولم يحسر أحد على معاكسته إلا لوسيان ومع ذلك كان هذا الأخير يشعر أكثر من غيره بالاحترام لأخيه بما له من حقوق البكورية عليه فانقاد الى رأي أخيه يوسف وتكاتفوا على انشاء الحزب البونابرتي وإذابة جوزفين امرأة أخيهما مرارة الهوان : فلم تكن تصيب منهما إلا جزءاً يسيراً من المرتب المخصص لها من زوجها . وقد فعلا ذلك إرادة أن يجعلها تتورط في الجنوح عن الجادة المثلى فينحيان عليها بالتعنيف ويدفعان زوجها الجنرال على تطليقها وإقصائها عنه .

وصار القوم في فرنسا من ذلك الحين يمدون حزب البونابرتيين من جملة الاحزاب وأصبح قصر يوسف بونابرت مثابة لدوي التفوق في مجلس الخمسة ومجلس الشيوخ وللشعراء ومشاهير الكتبة الذين تقرأ رواياتهم القصصية وتمثل ما سبهم في ملاعب التمثيل المشهورة وحين لا يجتمعون في باريس يجتمعون في مرتفتين . وكان يوسف بونابرت يفضل مرتفتين على سواها ويقضي فيها معظم وقته وقالت عقيلة دي ستال انه كان يقضي ثمان ساعات في التنزه في حدائقه من دون أن يناله أدنى سأم . ولم يكن متموداً ذلك النوع من المعبشة أي بلا عمل فجعل يكرع كثرؤوس الملذات مترعة الى اصبارها على مثال الذين يصيبون ثروة طائلة في يوم واحد . على انه مهما كانت الذرائع التي تذرع بها لنيل الفنى لم يدخر شيئاً للظهور بمظهر الزهو والعظمة : فوسع دائرة أملاكه وزين قصره بحيث أصبحت أرض مرتفتين من أجل الاراضي وصار يستقبل فيها السفراء ويقوم المآدب التي يجلس عليها أكثر من مئة مدهو . وعقدت وثيقة مع الولايات المتحدة أقيمت على أثرها ولأتم شائقة فاقت جميع الولائم رونقاً واتقاناً . ومن

تدر الرسائل والاسفار المكتوبة في ذلك العهد وجد فيها ذكراً عظيماً للمآدب. التي كان يوسف بونابرت يقيمها والجميع متفقوا الكلمة على الاطراء على مقيمها . فكان أصحاب القصر يتوفرون في الاحتفاء بضيوفهم : فيلقونهم عندهم جميع أسباب المسرات : كالزهرة على شواطئ البحيرة في النهار والقراءات المختلفة وطرح الالغاز وحلها ولعب البلياردو وقص الحكايات المختلفة في الليل فكانت الاضواء تطفأ والقصاص يحاول القاء الرعب في قلوب السامعين . وكان نابوليون شديد الولوع بالقصص الخفيفة بحيث صارت رائجة بين جميع الناس .

وكان يوسف بونابرت يتوجه في غالب الاحيان من مرتفتين الى المالميزون. لينغدى عند القنصل الاول ويؤخذ من رواية منيفال كاتب يوسف الخاص انه كان يجتمع في مثل تلك الايام على مائدة نابوليون اخوته وأخواته وحجابه وجميع القادمين من باريس لزيارته . وبعد الغداء والجلوس في البهو مدة قصيرة. لتجاذب أذيال الاحاديث كان يوسف يعود الى قصره بعد أن يتبادل هو وأخوه. الاحاديث الودية .

على أن يوسف بونابرت لم يرعو عن التسبب بجميع الاسباب المعاكسة لسياسة نابوليون بيد أن هذا لم يظهر انه دار بشيء من أمره وكان يحافظ على الاكرام له ويحاذر معاكسته وقد أجاب سؤاله فيما يتعلق بنفوشاي وهذا لم يكن أحد معضده في الاسرة البونابرتية فقد كانوا يبغضونه بغضاً شديداً من جراء انقياده لجوزفين دي بوهرنه . وهذا الرجل بعد ما فصل من منصبه انتظم في سلك مجلس الشيوخ واعترض يوسف بونابرت أخاه نابوليون مرة أخرى حين دارت رحى البحث بينهما على بيع لوزيانا للامير كين . وحمي وطيس الجدال بينهما في حضرة شقيقتهما لوسيان فيوسف المعضود بأخيه لوسيان العائد من اسبانيا بتنازل الملك شارل الرابع عن تلك الطارئة لفرنسا ألح بتغيير أفسكان نابوليون عن بيعها . وكان القنصل الاول في الحمام وقد تمود إطالة المكث فيه . وكان الاخوة الثلاثة في مفتتح الامر يتحدثون بسكينة وتؤدة ولكنهم ما لبثوا أن بلغت منهم الحدة ، فتابوليون جعل يختبئ في الماء لرؤيته أخويه يعاكسانه في مبادئه فلم يكن يطيق أن يرى أحداً يعارضه في مقاصده . أما يوسف فانه جعل يرعد ويبرق ويتوعد فقار فائر القنصل الاول ونهض بغتة من الماء ثم انطرح فيه

بعنف فانبعث رشاش الماء على أخيه البكر وغطاه ففاه لوسيان منهكما تهكما مرأ بكلمة معناها « كان يجب أن . . . » فوقفت في الحال حركة الجدال بين يوسف ونابوليون . ولكن قضت الحال بتجفيف ثياب يوسف وتنشيفه فقرع الجرس للخدام خاء كنستان وحين أبصر تلك الحال والغضب البادي على أوجه الاخوة الثلاثة ورشاش الماء السائل على ثياب يوسف وقع على الارض ممشياً عليه . فقرع الناقوس مرة أخرى لرستان فدخل المملوك وبادر الى إخراج كنستان .

على ان مثل هذه المشاهد نادر مع يوسف بخلاف لوسيان فان يوسف لم يكن يقور فائره بسرعة ومع ذلك حين كان يوسف يستشيط غضبا كان غضبه هائلا : ويقول لوسيان انه ابصره ذات مرة على أثر جدال عنيف دار بينه وبين نابوليون يطلق غدارة على صورة القنصل الاول متمنياً له الموت الذريع ولكنه حين يثوب اليه الروح يعود الى أخيه مستعطفاً ولا سيما حين يأمل أن يصيب منه مبلغاً من النقود . وكانت هذه الذريعة أكبر ذريعة يستطيع نابوليون أن يتذرع بها لاسترضاء أخيه . وكانت الحال تقضي على يوسف بونايرت بأن يعارض سياسة القنصل الاول لانه التف حوله أنصار المعارضين للحكومة وكان يجاري أصدقاءه في إطالة اسان الانتقاد على مطامع أخيه ولكنه كان كلما علم أنه يستطيع أن يجني من تلك المطامع ثمار القوائد يجتهد بإيجاد عذر له عليها فيزعم أنه مصيب بذلك . وحين يبروح على غير قصد منه بحقيقة نفسه يكشف الغطاء عن أنانية ذاهبة وشائجها في صدره كل مذهب مع شدة حرصه على كتمانها . أو لا نرى الرثاء في هذه الصفات ؟

وهانحن نذكر الآن بعض نكات عن حياة يوسف بونايرت :

لما علم يوسف بونايرت أن صحيفة المونيطور ستلشر تقرير الجنرال سباستيانى المبني على التحقيق عن البريطانيين في الشرق اعتبر أن اذاعة مثل هذا التقرير اعلان للحرب على بريطانيا العظمى ولكن هل ساءل نفسه عن الحرب هل هي ضربة لازب أم لا وهل تبقى مالطة في يد البريطانيين ؟ ان مثل هذا الفكر لم يدر قط في خلده . فاذا ما شهرت الحرب لحقته منها غضاغة شخصية تصرم أسباب الوثيقة المبرمة في اميان والموقع هو عليها وقد كان اول كلام خاطب به سباستيانى في هذا الصدد : « وماذا يلم بوئيتي فانها معلقة

« يسطأوهي من خيط العنكبوت . » فقد كان خرق حرمة هذه الوثيقة يهمة كثيراً لاعتباره إياها عملاً من أعماله الشخصية وهذا كان همه الوحيد . ولو لم تكن الانانية متسلطة عليه لبحث في الحرب على غير تلك الصوبة ولخاض في مجال الدثار في «واقبها ولكن هي الانانية فقد كان بمحملته رقالها .

ولما انشئت الامبراطورية باح بأسرار عجب باطل يستغربه المرء ولكنه تنغص من رؤية جوزفين دي بوهرنه تتوج امبراطورة وأولاد أخيه الاصغر لويس زوج هرتنس حفدة امبراطورة . وربما اختار نابوليون واحدا منهم ولياً للعهد ووارثاً له . أما بنتاه فأنهما بقيان حميدتين لعقيلة كلاري احدي نساء سوقة الشعب . أولا يحق له أن يصيب اكراما ساميا ؟ أو لم يكن شقيق الامبراطور الاكبر ؟

وقد شاء نابوليون أن يستنبط كل ما في رأس أخيه يوسف من الافكار واطاق حتى النهاية مشهدا من المشاهد المضحكة وبعد أيام قال للمقرين اليه ما يأتي :

« أولا يعلم أن كلامه عن حقوقه ومصالحه أماعي أنا شقيقه مما يشتر حسده ومزاحه ؟ وهو ولا مرء كلام يجرحني جرحاً أليماً . ولا شيء يستطيع أن يحجو من ذهني مثل تأثير كلامه هذا . ومثله في ذلك مثل القائل لعاشق متيم انه با... عشيقته أو انه يأمل أن يظفر بها وأنه يعالج عبثاً في الغد أن يقنع العاشق المذكور بأنه انما قال له ذلك على سبيل المزاح . فعشيقني هي السلطة وقد استنفدت المجهود لاصابتها فكيف أطيق أن أدع احداً يسلبني أياها أو يطمح الى احرازها . وهب قلتم ان السلطة وافتني عفواً فانا أدري مقدار العناء الذي كابدته في سبيلها فلم يدري خلدي قط من خمسة عشر يوماً ان أغلظ له في المقال أما الآن فاني لا اغضي الطرف عن شيء ولا أقابله الا بالمواربة فقد شاء أن يبا... عشيقتي . »

وجرى أيضاً مشهد يقرب من هذا المشهد عند الاحتفال بتتويج الامبراطور في نوردام فان الاصول تقضي على امرأة يوسف بونابرت والنساء الاخريات من الاسرة البونابرتية بأن يحملن ذيل رداء جوزفين فكبر الامر على يوسف وجرى بينه وبين أخيه جدال عنيف بهذا الشأن كان من نتيجته انصراف

يوسف منضبطاً بعد ما قال انه يستقيل من جميع المناصب المسندة اليه ويسافر الى المانيا . وكان نابوليون ينتظر قدوم البابا الى فنتنبلو فغادر باريس في أثناء ذلك الحين ولكنه شاقته رؤية أخيه بعد ستة أيام فندم على ما بدر منه من الكلام القارس الموجه الى أخيه المبكر فدعاه اليه لانه لم يكن يطيق البقاء بعيداً عنه . واليكم ما كتبه في هذا الصدد :

« لقد أطلت الروية في الخلاف الطارىء بيني وبينك واعترف بأنني من ستة أيام أي من اليوم الذي دار بيننا فيه الجدل العنيف لم أذق طعم الراحة دقيقة واحدة . وقد طار النوم من عيني وليس لاحد غيرك مثل هذا التأثير في فعليك الآن أن تختار خطة من ثلاث خطط : اما الاستقالة والاعتزال اعتزالاً تاماً عن الشؤون السياسية والتنازل عن كل شيء وأما بقاءك متمتعاً بامتيازات امراء الاسرة المالكة مع بقاءك معاكساً لما انتجته من المبادئ وأما انضمامك الي انضماماً حقيقياً ومجاهرتك بكونك أول شخص من تبغني . »

وقد صرح بكل جلاء بحقيقة الخطط الثلاث التي خبره بالمسير على واحدة منها . وقرر ما يريد ان يفعله اذا صمم على الاعتزال في مرتفتين فقال انه يخصص له مليونين من الفرنكات في كل سنة ويرخص له بشراء أرض في جوار طورينو وبالسفر الى المانيا وروسيا ويعين خلفاً له ابن أخيه لويس ويجلس وكالة يكون لويس رئيساً له وكهبا ساريس وليبرون عضوين فيه . أجل ان في هذه الطريقة محاذير ولكنها كاملة وما كان كاملاً بعتبر دائماً حسناً على انه لم يكن من سبيل الى التساهل بالخطوة الثانية فانه يظهر العداوة بها وحينئذ يسحقه لويس سحقاً

أما الخطوة الثالثة فانها أبسط من غيرها أي ان يكون الاول من تبعة مملكة يتوارث ملكها الحكم خلفاً عن سلف . ولعمري الحق انه مركز جميل ان يكون الانسان ذا محل ثان في فرنسا وربما كان صاحب ذلك المحل في اوربا قاطبة . وكل شيء يتحقق باهمية النتيجة وهذه النتيجة مجبولة بمجملتها حتى الآن . وهذا ما قاله نابوليون في هذا الشأن

« أنا مدعو لتغيير وجه العالم على ما اظن فكن يا يوسف في بلاد يمحرون فيها على الخطة الملكية الموروثة تصب فيها امتيازات متعددة . اعمل مشيئتي

راجع على المبادئ نفسها التي اجري أنا عليها . ولا تجامل الذين انبذهم من
لناس ولا تبعد من اقربهم من النبلاء . وكن أميراً ولا تهولك تبعة هذا اللقب
وحين تخلفني تعود اذا شئت الى أفكارك المعتصم باهدابها . . . وعلى هذه
الشروط يمكننا ان نعيش معاً واحب ان اقول لك ان الخطوة الثالثة هي التي اريد
ان تسير أنت عليها وان كنت عند مسيس الحاجة أسر بالخطوة الاولى ولا ادعك
تسبر على الثانية . فاختر لنفسك ما يحلو »

ولم يبق ليوسف من مناص فاما ان يرفض واما ان يقبل . فقبل يوسف لان
الامتيازات الموعود بها صريحة وواضحة ومن شأنها ان تزيد ثروته الواسعة .
وكان نابوليون سخى الكف نحو أسرته فلم يكن المال شيئاً مذكوراً عنده
ولذلك لم يقبض يده عن البذل . وكان كولو يعطي يوسف مليوناً ونصف مليون
من الفرنكات في السنة ليحفظ له امتيازاه بكونه مقدم حاجات الجيش . ولو لم
يجار اخاه على فكره لفقد هذا المبلغ وفقد أيضاً لقب أمير وقد كان يباهي به
على ان اخاه لوسيان الشكس الطباع اضطر الى مغادرة فرنسا وليس له لقب أو
ميزة فكانوا يسمونه الوطني لوسيان بونابرت ليس إلا وهو اسم لا يستطيعون
حرمانه اباه ولا ين في الأذان كما يرن اسم « الامير يوسف »

وفي المكتبة الوطنية رسوم تمثله بوجه نصفي وبوجه كامل . فالصورة
الاولى تدل على مخافة الوجه وجمال الجبين وانتظام الانف ولطف الفم وغلاظة
الشفقين والشفة السفلى منهما مقلوبة قليلا على ذقن كبير نظير ذقون جميع
البونابرتيين المتصلة اليهم من السيدة لايسيا وهذا دليل على صدق العزيمة وقوة
الارادة . أما الصورة الثانية فليس فيها ما في هذه من الدلائل وقد صنعت في
المانيا على شكل خشن . والوجه الكامل يدل على هيئة الاكثاب المقرونة
بالعبوسة على مثال هيئة خازني الاموال فيمخيل الى الناظر اليها ان صاحبها من
سوقة الناس خال من كل ما يميز المرء عن سواء فاني صورة من هاتين الصورتين
أقرب من الاخرى الى الحقيقة ؟ ومعلوم ان الصورة التي يصورها المصور
الواحد لا تكون في غالب الاحيان متائلة وعليه يصعب ابراز الحكم الجازم في
هذا الشأن باسنادة الى صورة المصور ومع ذلك يؤخذ من أخبار حياة يوسف
بونابرت في عهد القنصلية ان اصبح تلك الاخبار ما كان غير منطبق على مدحه

وقد اكد نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة ان اخاه البكر جيد القلب لطيف رقيق الاخلاق بيد انه ابرز الحكم عليه هذه المرة وهو في مكان بعيد عنه بعد ما كابد من المصائب والازايا ماجعله يمهّد العذر لجميع الناس . فمن يتجرع غصص الآلام يصبح كريم الاخلاق لانّ النكبات والعذابات تطهر عواطف المرء وتجعله متجاوزا عن المساوىء . وحقيقة الامران يوسف بونابرت لم يكن موصوفاً بالجودة ولا باللطف ولا بالركة ففي أعماله ما يخالف هذا الوصف . ولم يخطيء نابوليون مواقع الصواب لما أدار رحي الكلام على ضعف أخيه وعدم كفاءته لتقلد ما أسند اليه من المناصب . وخلاصة ما يمكن القول عن يوسف بونابرت انه رجل متوسط الحال كثير العجب والزهو شديد الرثاء والمداهنة وهذا ماجعل من ابرزوا الحكم عليه يضلون عن جادة الصواب

وخلاصة حياة يوسف بونابرت انه ولد في كورتي في سنة ١٧٦٨ وجعل ملكا على نابولي في سنة ١٨٠٦ وملكاً على أسبانيا من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٣ وشخص الى الولايات المتحدة بعد معركة واترلو وعاد الى اوربا بعد اقامته فيها ردحا من الدهر وتوفي في فلورنسة في سنة ١٨٤٤

لوسيان بونابرت

لما كان لوسيان بونابرت حدثاً لم يشأ مشاطرة اخوته واخواته العاهم وكانت اليزا التي يقرب سنّها من سنّه قد أرسلت الى مدرسة سان سير بفرنسا . أما اخواه اللذان كانا اكبر منه فلم يكثرأ من مخالطته وكان اخوه لويس اصغر منه . وفيما بعد صارت اليزا التي تقرب طباعها من طباع لوسيان صديقه الحميمه ومعزته في ضيقه

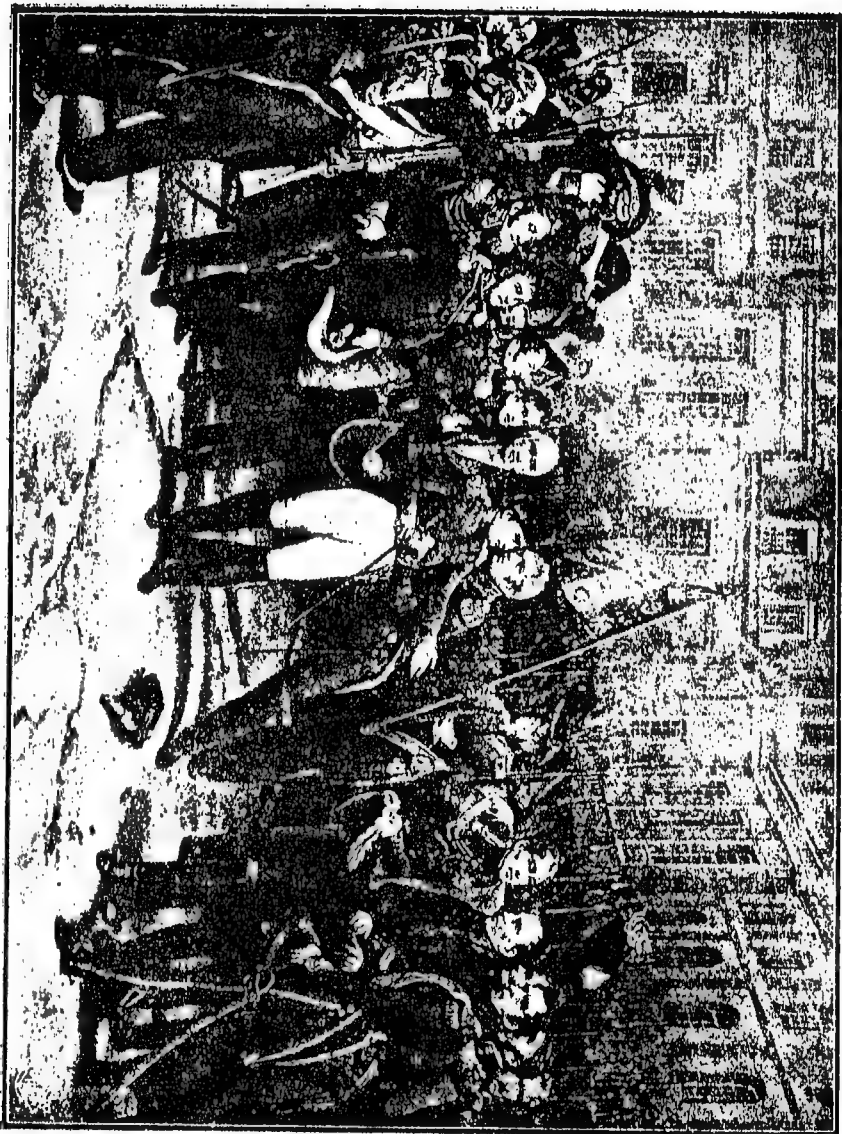
فهل كان يحب المداعبة كنبابوليون أو كان معتصماً باهداب طول الاناة . كيوسف ؟ هذا أمر مجهول . وكان لوسيان ضعيف البصر بحيث كان يضطر عند القراءة والكتابة الى خفض رأسه الصغير الذي يختاف عن رؤوس غيره من البونابرتيين في الحجم

بيد ان ابتسامته اللطيفة كانت تجذب اليه القلوب . أما الرسم المحفوظ عنه في المكتبة الوطنية فغير مطابق لهذا الوصف : ففي هذا الرسم يرى نصف وجهه

٤٧٤/ج

«بماثلا لهيئة أفراد أسرته الآخرين : فانقه مستقيم ودقيق وشغته بارزتان وذقنه اكبر من ذقن يوسف وكانت ترى على هيئته العبوسة والقلق من جراء حسره . وأخذ والده في أول الامر مع نابوليون الى اوتان ثم أرسله الى بريان وأدخله أخيراً المدرسة الاكليريكية في اكس ليدرس اللاهوت ويستعد للدخول في مصاف رجال الدين إلا ان الثورة الكبرى غيرت أفكاره وحولته عن قصده فترك المدرسة وعاد الى كورسيكا وله من العمر سبع عشرة سنة . ومعلوم ان الانسان في هذه السن ينصرف الى الملامهي والملاذ ولكن لوسيان الميال كل الميل الى اضرار طيب الفتنة والمعجب بدعائهم وأنصارها انضم الى خطبائها في الاندية المعينة لها وارهف لسانه لخدمتها والمجاهرة بمبادئها وما عثم ان أصاب بما أوتيته من طلاقة اللسان وقوة المعارضة شهرة عظيمة في بلاده وصار من المشار اليهم بالبنان . ولما جاء أمير البحر طروغاي الى كورسيكا موفداً من لدن حكومة الجمهورية وتلاه سيمونفيل رحب بهما لوسيان بخطاب بليغ وتزلف منهما . وعظم شأنه في وطنه حتى انه لما عاد باولي الى بلاده اتخذته مستشاراً له ولم يمض وقت طويل حتى انفصل لوسيان عن بارلي رسمى به لدى الكنفنسيون كاشفاً دخائله ومتهماً إياه بأنه يعمل لتسليم الجزيرة الى البريطانيين . وعقب ذلك الامر خراب أسرته فان أنصار باولي أحرقوا كروم البونابرتيين وأتلفوها وهجموا على منازلهم ودسروها فاضطرت الام الى الفرار بأولادها والالتجاء الى فرنسا . ولم يأسف لوسيان قط على مجاهرته بمبادئه الوطنية ولم يمنقه أحد من أفراد أسرته على عمله هذا

ولما وصل لوسيان الى فرنسا أرسلوه الى سان مكسيان في الفار لمشاركة مستودع الدخائر والمؤن وعين له مرتب قدره الف فرنك ومئتا فرنك . أجل ان هذا المرتب قليل ولكن لوسيان لم يكن له من العمر سوى عشرين سنة . وجرى هناك على الطريق الذي جرى عليه في كورسيكا أي المجاهرة بمبادئ الجمهورية راكبا في عمله مركب التطرف فاستبدل باسمه اسم بروتوس وغير اسم «الكومون» فاطلق عليها اسم ماراطون . ودخل نادي الثوريين فانتخبوه زعيماً له . وكان يتصرف في النادي على هواه لما كان له من الكلمة المسموعة فيه ولم يستطع خطيب من الخطباء أن ينازعه إياه . فان الارسطقراطيين المتنورين



وداع فتيبلو في ٢٨ أبريل ١٨١٤

المشتبه فيهم زجوا في السجون وهاجر من نجا منهم الى البلدان الاجنبية . ولم يبق في ماراطون الا العملة والكرامون وراهب خرج من الرهينة يحسن دون سواء من رفاقه القراءة والكتابة وقد كانت له الكلمة المسموعة بينهم قبل مجيئهم لوسيان ولكنه بعد انضمام هذا الاخير اليهم ترك له الراهب الرامة عليهم وتولى عملا في ادارة المؤن والذخائر واتخذ اسم ابامينداس وصار من اكبر المؤازرين للوسيان

وأقام لوسيان في نزل بسان مكسيان يديره رجل يدعى بوايبي . فتعرف في النزل بفتاة لطيفة المعاشرة رشيدة القامة حسنة التركيب على وجهها آثار الجذري ولكنها كانت محبلة العيينين خلافة القلوب فتعشقها لوسيان وهام بها هيما شديداً وكان اسمها كرسيتين بوايبي وهي شقيقة صاحب النزل . فلم يشق على لوسيان استئثارها اليه فكان يخاطبها بكلام لم تتعود سماع مثله في قريتها الحقيرة لانها كانت أمية بحيث لم تستطع توقيع اسمها على صك زواجها ولكنها كانت شديدة التعلق بزوجها وعالجت البلوغ الى درجته باتمامها تهذيبها وتثقيفها ولما تزوج لوسيان سعى لتحسين حالته فأصاب مركز مفتش لنقل الذخائر والمؤن بالمركبات في سان شامون ولم يكف ذلك لان يدرأ عنه الشبهة في دوره فألقي في السجن وهل نجا أحد من سهام الظنة في ذلك الحين ؟ وتمكن نابوليون من اخراجه من سجون الجمهورية ودعاه اليه في باريس ولكنه أبى أن يستقبل امرأة أخيه من جراء خمول أصلها . على أنه اضطر فيما بعد الى نبدأ وهامه هذه وأعلن المودة لتلك المرأة التي غير التهذيب كل التغيير ما فيها من الطبيعة القريبة من الحمجية وسمي لوسيان بفضل أخيه أيضاً مسيطراً لجيش الشمال ثم نقل فيما بعد الى بستييا : ولما هيا نابوليون حملة مصر اقترح على أخيه مرافقته اليها فنبذ اقتراحه وكان قد استمال اليه محبة الشعب في مدينة اجاكسيو وانتخب مع حداثة سنه عضواً في مجلس خمس المئة . وقد أصاب في طرح اقتراح أخيه وراء ظهره كما يتبين ذلك فيما بعد فان المجلس رحب به ولم ينظر الى صغر سنه واتخذ باريس محلا لاقامته من ذلك الحين . وأصبح البيت الذي ابتاعه في الشارع الأخضر مثابة لزملائه ولأنصار الأدب فصنف رواية عنوانها « القنبيلة الهندية » وأودعها انتقاداً لاختلاق الشعوب المتمادية في المدن . وأقبل في أثناء ذلك على العمل بمجد .

وكدشديدين في تهيئة الخطب التي كان يبتغي القاءها أمام مجلس خمس المئة في سبيل توطيد أركان الحرية . فأصاب تفوقاً عظيماً في هذا المجلس المؤلف معظمه من فتيان الجمهورية كما أصاب في ماضي الحين تفوقاً في الأندية الكورسيكية . وما عثم زملاؤه أن نسجوا على منوال نادي سانب مكسيان فانتخبوه زعيماً لهم . واشترى لوسيان بونابرت من ختنه الجنرال لسكرك أرض بلسي - شامان والقصر المشيد فيها وضمه الى منزله في الشارع الاخضر . وهذا القصر مبني في فسحة جميلة وكان في غابر الايام جارياً على ملك آل سان سيمون ثم انتقل الى أحد حجاب الملك . وجميع هذه التظاهرات والدلائل على الغنى الواسع زادت منزلته ارتفاعاً بين رصفائه ووسعت دائرة آماله . إلا أن نابوليون لما عاد من مصر لم يطق أن يلتقي مناظراً بين اخوته بل كان يبتغي أن يلتقى له بينهم أنصاراً يمدون له السبيل الى نيل أوطاره من دون أن تطمع نفوسهم بمشاطرته السلطة .

ولا يخفى أن لوسيان وان يكن من اكبر العالمين لحوادث سان كلود لم يكافئه أخوه بما يستحقه عند توزيع المكافئات . وقد مضى على تلك الحوادث عدة أسابيع قبلما أسندت اليه وزارة الداخلية . فرضي بهذا المنصب وقتياً مع علمه بأنه دون كفاءته ومقدرته فكان يبدي في الشؤون السياسية ما يبيده من الدهاء أخوه الجنرال في الشؤون الحربية . ولما كانت الدعوى قد نفخته ترك ادارة شؤون وزارته لمريديه من الكتاب وغيرهم لاعتباره هذه الشؤون أدنى من مستوى عقله السامي وانصرف الى ترتيب الاجتماعات في المجالس وتمهيد السبيل لسياسة توخي حمل الحكومة القنصلية على انتحائها . وأكثرت من ارسال الاوامر العامة الى مديري النواحي والنصائح لحكام الولايات . ورأس الحفلات المقامة لأكرام الأبطال الذين قضوا في ساحات القتال . وخطب في الجماهير المحتشدة في هذه الحفلات لما أوتيته من الفصاحة ولشدة ميله الى الخطابة . وأن طوران تأبيناً بليغاً في يوم الاحتفال بنقل رفاته الى الانفاليد وأعلن افتتاح القرن العظيم وأقسم على أن حظ فرنسا الجمهورية سيكمل . وصار أيضاً رب عائلة وزين قصره ووضع فيه طرف الصور المجلوبة من ايطاليا أو المشتراة من المخازن الغاصة بغنائم الثورة . وكان أصدقاؤه المصورون يدلونه على التحف الفنية الثمينة الممكن ابتياعها بأثمان بخسة خيبادر الى احرارها . وكان أيضاً يظهر بمظهر السيد

العظيم عند الاقتضاء ويروي عنه أنه دخل عليه في داره الدوق دي لوين بامور المهاجرين ولما علم أن صورتين من الصور النفيسة المزدانة بها ردهة قصره كانتا لهذا النبيل أرجعهما اليه في الغد وفوض الى من حملهما اليه ان يقول له انه مبهج كل الابتهاج باعادة تيفك التحفتين النفيستين الى صاحبهما . وفتح في دار الوزارة التي كانت تدعى قبل ذلك الحين قصر برساك الرده الفخمة في وجه المدعويين الكثرين المختلفين اليها للرقص والموسيقى ومغازلة الغواني ومداعبة الجسار - وأنشأ أيضاً في داره ملعباً لتمثيل الروايات وكان يسر بأن يكون هو وأخته الزمان عداد الممثلين . وجاهر بحبائه للفنون وعلم الأدب . وسمى لاعادة الندوة العلمية وتألب حوله فريق كبير من مشاهير العلماء والشعراء لميله الى قرض الشعر ونظم عقوده . ولما نفى فيما بعد الى رومية أقبل على نظم ملحمة موضوعها شارلمان سبكه في عشرين الف بيت . وقد انتقدها نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة انتقاداً مرأ وأحال على لوسيان بالتعنيف لاضاعته وقتاً ثميناً في نظمها من دون أن يصيب نتيجة تذكر من وراء ذلك العمل الشاق وقد أظهر تغير معيشة لوسيان وارتفاع منزلته وازدهار كبار الرجال وشهيرات النساء في داره بباريس ما كانت كرتين بواياي مطبوعة عليه من سلامة الدوق وهو المدارك : فانها تمكنت بمقدرتها العقلية من الاضطلاع بما انتدبتها اليه منزلتها في الاستقبالات الرسمية وأصبحت زينة لمنزلها ومثالا يقتدى به في الحديث وغير ذلك من الامور الممتازة بها شهيرات النساء . وصار الناس يشيرون اليها بالبنان فافهم قلب قرينها بهجة ما أصابته زوجته من رفعة المقام عند الخاص والعام . ومع ذلك لم تكن شديدة الرغبة في إقامة الاحتفالات الكبيرة في الوزارة وغير ذلك من الاحتفالات في الهيئة الاجتماعية الباريسية وكانت تؤثر على جميع هذه الامور السكنى في بيت بسيط تستطيع فيه أن تنصرف بحملتها الى تدبير شؤون منزلها والعناية بأسرتها ولكنها فعلت ما فعلته في المركز الذي احتلته بحارية رغبة قرينها .

وروت عقيلة ابرنتس أنها كانت صديقة لتلك المرأة اللطيفة فكانت تلتقي بها مرات كثيرة عند عقيلة دي برمون والدتها وتسمعها تستشيرها عما يحسن أن تفعله في السهرات مع استطاعتها الاستغناء عن آراء غيرها لمعرفة ما تقتضي عليها

الحال باجرائه وجاءت في ذات يوم الى عقيلة ذي برمون والبشر تلمع بوارقه على عيهاها وكان السبب في ذلك أن القنصل الاول سر بما رآه من تصرف امرأة أخيه وتغيرها الفجائي الغريب وصار يستقبلها بلطف واکرام وتودد . وأهدتها جوزفين بعض الحلى الفاخرة وقد تكون فعلت ذلك مكرهه عليه لأنها كانت دائماً تعتبر لوسيان عدواً لها وتعتبر أيضاً امرأته اعتبارها له . وكتبت عقيلة ابرنتس ما يأتي : وكانت كرستين اللطيفة الفاضلة تنزل الى سلفتها وتستنفذ المجهود في سبيل اسمائها اليها إلا أن جوزفين لم تن عن ابداء بعض الملاحظات الجارحة لها . فكانت كرستين تغضي الجفن على القذى وتحتمل كلام جوزفين بالصبر الجميل لئلا تحزن قرينها وكانت تحاذر أن تجعل يد الخلاف تمسك بينه وبين سكان التويلري .

وأصبحت تلك المنكودة الحظ بمرض صديقي اضطرها الى ملازمة الفراش وذاقت في آخر حياتها أشكالا وألواناً من العذابات المبرحة فكانوا ينقلونها من غرفة الى أخرى على فراش جاس ليسهل عليها استنشاق الهواء النقي . وكتبت عقيلة ابرنتس في مفكراتها صفحة مؤثرة عن وفاة كرستين بواياي وكانت تلازم وسادة المحتضرة :

« وقالت لي : يد كرني هذا الفراش بفراش سان مكسيان فلا أستطيع الرقاد أو التنفس تحت هذه الستائر الكبيرة (وأشارت بيدها الى سريرها الفخم) ولا في هذه المضاجع الوئيرة . اقتربني مني يا لوريت فأنا أعلم أن فراش المحتضرة لا يروءك . وقبضت على يدي فكانت يدها محيطة فلمسحت تأثير ضغط عظامها الملهبة في وقالت لي : هل تخافين مني ؟ فذرفت الدموع من دون أجيبها بكلمة وضممتها الى صدري . . . ومن ذلك الحين حرمت رؤيتها لأنها توفيت في الغد . »

وبلغ اليأس من لوسيان مبلغاً عظيماً وقد كتب في هذا الصدد ما يأتي :

« هذا حزني الاول وليس وراءه من مزيد فإن كرستين بواياي زوجتي توفيت . ولم يبق لي سوى رفاتها في هذه الدار التي ابتعتها لها وزينتها اكراماً لها فألطف وأطهر تلك النفس ! » وبني لها في حديقة القصر ضريحاً من الرخام الناصع البياض وأحاطه بسور من قضبان الحديد فكان يأتي اليه ومعه بنتاه الصغيرتان للبكاء على الراحلة البليظة وتحميد نار الحزن اضطراباً .

وفقد قصر بلسي بفقدان كرسيتين رونقه وبهجة أعياده . ولا يخفى أن طباع
لوسيان المتقلبة كانت تعدلها أطوار زوجته اللطيفة ومحبتها الشديدة له : فكانت
تشاطره جميع مشقاته وتسمى لارضاء الجميع . وأكثرت عقيلة ابرنتس من
الكلام عن اللذة التي كان يجدها من يزور قصر بلسي ويقيم فيه . فكان السرور
رافعاً دائماً ألويته فوق ذلك المنزل الفخم وكان الزوار المنتخبون يذوقون من
الغبطة أشكالا وألواناً . وذكرت أن من جملة الذين كانوا ينتابون ذلك الصرح
في ذلك العهد عقيلة دي فرشفيل زوجة الجنرال الذي عضد البونابرتيين في
حوادث سان كلود والمسيو دي شاتيون النحات والمسيو بوايبي لسبب كرسيتين
والمسيو ساباي دي رامولينو أحد أنسباء أسرة السيدة لاتيسيا والمسيو دوفر قبل
الشاعر الخفيف الروح .

وأخذت أليزا أخاها لوسيان الى منزلها في نوي رجاء تخفيف عبء الاحزان
عنه . وكان لوسيان على أثر وفاة زوجته يأبى التعزية ويميل الى الاختلاء ولم يكن
يفتأب دار الوزارة إلا نادراً جداً بحيث أن تنفبيه أحدث خلافاً ضاحكاً في أعمال
وزارته . ولم تدخر أليزا شيئاً لاجل تسلية شقيقها فنلت رواية الزيرة من نظم
فاتير وكان لوسيان من جملة الممثلين فانه مثل دور زامور ومثلت أليزا دور
الزيرة . وكان نابوليون يضحك كثيراً عند سماعه تمثيل شقيقته التي كانت تهجتها
الكورسيكية تلفت الانظار فكانت أليزا تستاء جداً من استهزائه بها .

وما مكث لوسيان أن عاد الى ما كان عليه من السيرة فصار يغشى الاندية
ويهصر غصون الملاذ ويسعى وراء مداعبة الحسان وقد شغف شغفاً عظيماً
بميرزاي الحسناء إحدى ممثلات « ملعب الفرنسيين » وعقيلة ريكامياي . وعاد
الى التدخل في جميع الشؤون السياسية فأنحاز الى الحزب المعاكس لمطامع القنصل
الاول الظاهرة . وكان شديد الاخلاص في الاعتصام بتلك المبادئ وحدث
ذات مرة حين كان في منزل عقيلة دي بروم ودار الحديث على الاحوال
الحاضرة انه أشار الى صدره وقال : « هنا قلب وطني مغرم بالحرية وأخي يعرفني
ولا يخفى عليه شيء من حقيقة حالي ولا شيء في وسعي أن يحول دون تذكري إياه

بما شاهد الامة الفرنسية عليه علانية في ١٩ برومير وأنا ذو النفس الفرنسية الحرة قد ضمنت ذلك العهد . »

وكان يكثر من الكلام في هذا الموضوع وقد اشتهرت أحاديثه وامياله بين الخاص والعام فاغتاظ نابوليون منها ومن تصرفه في وزارته تصرفاً منافياً لمصلحته . وذات يوم خلا نابوليون بأخيه لوسيان فدار بينهما حديث طويل عن تلك الحال فأغلظ نابوليون في الكلام لأخيه وخطبه بحق شديد فكان لوسيان يجاوب أخاه برودة متكبها على كلامه وختم حديثه بقوله له : ان غضبك عنوان خطائك . فقال له أخوه الهائل : أريد أن ألقى القبض عليك . فحينئذ لم يبق في قوس صبر لوسيان منزع فألقى على المنضدة المحفوظة التي فيها أوراق وزارته وقدم استقالته وخرج في الحال لا يلوي على شيء .

ولم يكن من الممكن التوفيق بين ذينك الاخوين لتنافر طباعهما : فلوسيان كان يعتبر ذاته ممثلاً للجنرال في المنزلة ومحزراً نظيره صفات يخضع لها جميع الناس . وقد أصبح التقاطع بينهما أمراً محتوماً إذ لم يشأ أحد منهما أن يستكين لدى الآخر . فمالج يوسف على غير جدوى أن يصالحهما . ورضي لوسيان بأن تلقى اليه مقاليد سفارة اسبانيا فأسندها اليه نابوليون وهو يري في ذلك الى غايتين الاولى إبعاده عن فرنسا انقاء لشره والثانية تمهيد السبيل في وجهه للأتراء . وقبل افتراقهما جمعتهما سهرة في التويلري وقد أسهب ستانسلاس دي جيراردان في الكلام عن تلك السهرة . جلس الذين حضروها في البهو حيث كانت جوزفين وابنتها هرتنس قاعدتين قرب الموقد واجتمع في الغرفة الملاصقة نابوليون وأخوه لوسيان فكانا يتحدثان تارة بصوت منخفض وتارة بصوت عال : وكانت جوزفين تظهر قلقاً شديداً تضرع تحته فرحاً عظيماً لمعرفة أن لوسيان سيغادر فرنسا عن قريب وكانت تكره لوسيان كل السكره وتنفر منه أشد النفور . وكانت عقيلة باتشيوتشي في البهو ودموعها تسكاد نهل من مآقيها . فنصح لها ستانسلاس دي جيراردان بأن تحبس عبراتهما لان بعض الناس يسر بها وآخرأ فتح باب الغرفة المجاورة فخرج منه لوسيان وهو متجلد يحاول كتمان عواطفه . أما نابوليون فان هيئته كانت تدل على اضطراب نفسه وكان شعره منتبهاً وقد كان من الاشخاص الذين لا يقدرّون أن يخفوا عواطفهم . وانصرفت

عقيلة باتشيوشي مع أخيها لوسيان وعيناها مغرورتان بالدموع. وحينئذ نهضت عن كرسيها عقيلة نابوليون بونابرت التي لم يخف عليها شيء من أمر عقيلة باتشيوشي ودنت منها لتشجيعها. فأظهرت حزنها وصاحتها وطاققتها وكادت تطير من الفرح حين أبصرت على خديها أثر الدموع وشاهدت أجفانها مبللة . ولا يخفى ان النشرة الصادرة تحت عنوان « مقابلة بين قيصر وكرمول ونابوليون » زادت علاقة الاخوين توتراً . ويقال ان هذه النشرة دبجتها براعة فنتان بايعاز من لوسيان ولم يخف ذلك على نابوليون . وقد انتشرت في جميع الديار الفرنسية وكانت الغاية منها استمالة القوم الى طلب تقرير حق الخلافة في تولي السلطة في أسرة بونابرت وكان كل فرد من أفراد الأسرة يطمع بها ويطمح الى اصابتها .

ودونكم أهم ما جاء في تلك النشرة :

« ان بونابرت يعد فرنسا بعصر جديد وجميع الآمال معلقة على مجده وحياته . فيا ما أسعد هذه الجمهورية لو تسنى لها دوام البقاء ! ومعلوم ان حياة الرجل العظيم أشد استهدافاً لنبال المعاطب من حياة الرجل الخامل الذكر : فلا يسهل تخلصه من الاختلافات الطارئة والمصائب النازلة . وهب نزل القضاء المحتوم ببونابرت بغتة وفقدته الوطن نجاة فأين تصبح الانظمة التي وضعها وهي المستطبعة أن تخلد دهاء وتجعل الناس ينسجون على منواله ؟ فخط ثلاثين مليوناً من البشر معلق بحياة فرد واحد . يا أيها الفرنسيون كيف يكون مصيركم لو سمعتم آلان ناعياً ينعي اليكم مصرع ذلك الفرد ؟

« وهب دخل عليكم الذعر عند رؤيتكم مظالم المجالس قالى من تلتجئون وبعن تعصمون ؟ أولا تستجبرون رجال الجندية ؟ أين خليفة بريكلير ؟ وأين البطل الموصلته ثقة الشعب والجيش العامة الى منصب القنصلية والمستطيع هو البقاء فيه ؟ فلا تلبثون وأيم الحق ان تخضعوا لغير زعماء الجندية الذين يجعلون من وكدهم ان يخلع الواحد منهم الآخر والذين يصيرهم ضعفهم ظلماً . فنيروا وكالينغولا وكلوديوس وأمثالهم خلفوا في رومية زعماء من أشهر دهاء الرجال فتكت بهم أيدي الحساد الاثيمة . »

لم يكن نابوليون ليكثر لتلك النشرة لو لم يقل له فوشه ما كان من

تأثيرها السيء في الجمهوريين الذين كانت يدايرهم حتى ذلك العهد . وقد زاد نابوليون تحذراً ما كان يوسف ولوسيان يبديانه من المتابعة على السعي المتواصل في سبيل اصابة الوراثة بطرق سرية مجهولة فارتأى ان أفضل شيء له الافتراق عن لوسيان لأنه كان يخشاه أكثر من غيره من أخوته .

وقد شاء لوسيان أن يستصحب في سفره أصدقاءه الذين أخرجهم من الوزارة كفيليكس ديپورت وساباي وأرنول واستصحب أيضاً مصورين أخذهما معه ليدققا في الصور التي كان يروم احرازها في أسبانيا . وكان يتفادى من الغضب من كراهة العامة للناس ومن تجرده من النعمة المسبغة عليه فركب عربته وانطلق بها سائراً على طريق الشمال أما أصدقاؤه وخدامه فانهم أخذوا طريق الجنوب . وبعد ما طاف حيناً من الزمان وافهم وقد ذكرت صحف بوردو في ذلك العهد مروره بتلك المدينة ومرور حاشيته وكان فيها بالشيوتشي . وظهر في مدريد بمظهر سيد عظيم من أبناء البيوتات الكبيرة ولم تكن داره تقل في الفخامة والزينة عن دور الامراء بحيث ان الاسرة المالكة أعجبت بها كل الاعجاب . وصار يدخل بغير استئذان على الملك والملكة ويحادثهما على انفراد في الشؤون السياسية الخطيرة الموفد هو لاجلها . وصادقه أمير السلام عشيق الملكة . وسمى لاستمالة بلاط أسبانيا الى فرنسا وتنفيذه من بريطانيا العظمى ونجدة الاسطول الاسبانيولي للفرنسيين في مصر ونهضة غزوة البرتغال ان لم تخلع هذه البلاد نير بريطانيا العظمى وتديره التنازل عن لوزيانا في مقابل مملكة صغيرة لو ارث اسرة بارم وزوجة ابنة ملك أسبانيا وعقده محالفة بين المملكتين يرمى بها الى طرد بريطانيا العظمى من البحر الرومي بحيث يصبح هذا البحر لآتينيا وهذا ما كانت تبغ فيه « لجنة الأمن العام » .

وأصاب لوسيان مجاًحاً باهراً في مدريد وقد حولت البرتغال عنها العاصفة المهددة أي الغزوة المنوية بتقديمها للسفير عدة ملايين من الفرنسكات . وروت عقيلة دي ريموزا في مفكراتها ان لوسيان بونابرت أحرز مبالغ طائلة يصعب تصديقها .

ولم تكن سيرة لوسيان في مدريد أفضل منها في باريس فانه اختطف امرأة رجل من باعة المرطبات كان زوجها شديد الغيرة عليها فهاج الشعب على الخاطف .



مؤتمر فيينا ١٨١٤ اجتماع مندوبي ثلثي دول وقت على معاهدة باريس

ويروي دي بوريان ان الشكاوي من لوسيان في هذا الصدد انتهت الى نابوليون في باريس . وفضلا عن ذلك لم ترض الوثيقة المعقودة مع أسبانيا أحداً في أسبانيا وفي فرنسا ولذلك أبى القنصل الأول التوقيع عليها وأرسل الى أخيه مكاتيب جافية اللهجة مرة الأسلوب . فأبى لوسيان الاذعان لمقتضيات هذه المكاتيب وزعم انه لا يستطيع اتيان أفضل من ذلك وبادر الى الاستقالة . وطال الوقت قبل ان يصل اليه الجواب نخشي ان يمنعه عن مغادرة مدريد وخاف غضب أخيه فانتحل اسماً مستعاراً ومضى خفية من طاصعة أسبانيا الى باريس . وظفر لوسيان بثروة واسعة وأصبح أغنى من جميع البونابرتيين . وقد أهده ملك أسبانيا ثلاثين صورة من أجمل الصور المصنوعة بقلم مشاهير المصورين وصورة كبيرة لها كفاف مغلف بورق حريري ومرصع بالالماس الثمين . وقال لوسيان ان ثمنها لا يقل عن خمسة ملايين فرنك . وذكر غيره ان الثروة التي جاء بها لوسيان بونابرت من أسبانيا لا تقل عن خمسين مليوناً من الفرنكات . على ان أعداءه الكثيرين قالوا انه أخفق في مساعيه في الخارج لانه لم يكن ذا صفات تؤهله لادارة شؤون منصب السفارة فكان فظ الطباع حادها مطلق الارادة مستبدأ في رأيه مفتقراً الى الأخلاق الفرنسية كاللطف ورقة الجانب واللين والمجاملة مما لم يكن مندوحة عنه في بلاط نظير بلاط أسبانيا . اما لوسيان فانه يغالط جميع هؤلاء المنتقدين ويزعم ان ما فعله كان عين الصواب .

ولما درى القنصل الاول برجوعه دعاه اليه في التويلري واختلى به ثلاث ساعات . فقال لوسيان : لا تطمع نفسي بمنصب من المناصب فأنا أريد أن أعيش في باريس كفرد بسيط من أفراد الشعب يبتغي أن يقضي حياته حراً مستقلاً . ولا أشاء خدمة الحكومة إلا اذا أردت أنت ان تسند الي منصباً أستعين به على تعزيز سلطتك . فامنحني في الاستقبالات الرسمية والاحتفالات الكبيرة المنزلة اللائقة بمقامي . ويجب ان تفرز لي دائماً مكانة ممتازة بحيث لا يتوهم الناظر الي اني من جملة حجابك أو من عداد السفراء . فأنا شقيق القنصل الاول ولي الحق ببعض الامتيازات . وقد سألتني زوجتك عن السبب الذي من أجله أبيت تناول الطعام على مائدتها فانا أجيبك على سؤالها . وقصارى الكلام ضع حداً للمهازحة والمداعبة وأد الي حقني من الكرامة وعد عن استعمال مثل هذه العبارات :

« يا وطني لوسيان ماذا فعلت وماذا تفعل ؟ . . . وما هي هذه المرأة التي ؟ . . . »
فان أنت وعدتني بأن تحترمني رأيت مني احتراماً شديداً لسلطتك .
وافترق الشقيقتان على وفاق ووئام .

وكانت المشاغل الكثيرة تملأ أفسكار لوسيان فانه ابتاع قصر بريان وباشتر
ترميمه واصلاحه فأنفق عليه مبالغ طائلة من الثروة الواسعة التي جاء بها من
أسبانيا بحيث فاق ذلك القصر في زخرفته جميع قصور الملوك . وامتلات رداه
من الصور المشتراة بأثمان باهظة . وكان قد دفع بالمزاد عشرة آلاف فرنك بتمثال
من النماثيل وحين شعر بأن أحدهم يبتغي مشراه زاد دفعة واحدة ضعف ثمنه .
وبالغ أيضاً في تزيين قصر بلسي . ولما كان يشعر بالملاحة من طول النظر الى
الاشياء عينها كان يبادر الى التغيير فيها محولا وجوهها الى وجوه جديدة . وكان
لوسيان بونابرت من أصحاب الفنى العظيم في ذلك العهد فقد كان المليون
فيه يساوي ثروة واسعة . وكان يكثر من التردد على سيدة نبيلة جاء بها من مدريد
وهي المركيزة دي سانطا كروز . وكثر عدد المتعلقين المتزلفين اليه وأشرفه
فنتان في التنويه بمناقبه الشريفة وتولت شقيقته اليزا تدير شؤون منزله . ولم
يأنف شاتوبريان من التحاقر لديها والتماس مساعدتها لنشر مؤلفاته . وكانوا
يعيشون في قصر بلسي عيشة الكبراء ويكثرون من مزاوله الالعب والتسبب
بأسباب السلوى بحيث نسي لوسيان ذكرى زوجته المتوفاة .

وكان فنتان في تلك الاثناء مدمنا الرماية على الغرض الذي توخى الرماية
عليه وقد وضع نصب عينيه ان ينصب عرشاً يجلس عليه أحد أفراد أسرة
بونابرت وأن يجني ثمار المكافأة على غيرته وسعيه . فكتب الى لوسيان ما يأتي :
« قرأت التاريخ فلم أجد فيه أن رجلا من مشاهير الرجال احتل منزلة
سامية بتقصيره عن مؤاناة حظه . ويجب أن تكون النهاية موافقة لهذه المأساة
الكبرى التي شاهدت بداءتها والتي أوصلت أن أشاهد ختامها . وانا معتقد كل
الاعتقاد ان كل ما أفكرنا به سيتم . والعمل الخطير تتمهد سبيله يوما فيوما
ولعمر الحق أنه يتعذر ارجاؤه : »

فأثر كلام فنتان المكرر بلوسيان بحيث شد الكرة على أخيه . ومع
كونه جمهوريا شديدا الاعتصام بمبادئه لم ينفر من مضاهرة شقيقه ومريديه على

انشاء ملكية جديدة يبدو له الفضل في انشائها . ولما كان يصعب على الملك أن ينشئ أسرة ولا يكون له ولي عهد اقترح بالاتفاق مع باقي أفراد أسرته طلاق جوزفين واقتران القنصل الاول بامرأة أخرى . والا وجب على جوزفين أن تتألمهم على حيلة يموه بها على الناس بانها ولدت ولدًا . ولم يتردد في بسط ذلك الامر لامرأة أخيه بغير حياء ولا تحفظ . وبعد أيام اوقفت جوزفين المنكودة الحظ المستاءة دي بوريان على ما اقترحه لوسيان عليها .

وشعر نابوليون بأن الحزب المعاكس له يشتد ساعده ويستمد أزره وعلم أن مساعي كباساريس وتاليران لتكبت ذلك الحزب ذهبت سدى . أما لوسيان فانه يستطيع أن يكون عضداً قويا لأخيه ان هو تمكن من دخول مجلس الشيوخ ويقدر أن يظهر بذلك الحزب بما أوتيته من المقدرة على ترأس الجمعيات ومن طلاقة اللسان على المنابر ومن الغنى المستعمل اليه انصارا كثيرين واختار لوسيان عضوية تريف في المجلس المشار اليه .

وكانت هذه الفرصة من أفضل الفرص لان يقضي الشقيقتان حياة سعادتهما الوفاق ولحمتهما الوئام وان يعيشا متجاورين . فسر نابوليون بذلك التقرب وسعى لعمل كل ما يؤول الى هناء أخيه وغبطته . وحدث في تلك الاثناء أن ملك اتروريا الشاب توفي وكانت زوجته ابنة ملك اسبانيا فرغبت في الاقتران بلوسيان بونايرت شقيق القنصل الاول طمعاً باصا بة مناصرته لها لتظل جالسة على عرش فلورنسة . وبقي نابوليون بضعة أسابيع يسعى لتحقيق هذه الامنية . ولوسيان قد أبى الاقتران بكريمة لاغايات وليس له من سبب لذلك غير أنه . اما ابنة ملك اسبانيا فان للوسيان أسباباً تدعوه الى نبذ الاقتران بها . كانت قبيحة الصورة مشوهة الاعضاء حذاء الظهر عرجاء على ما جاء في تلك الايام . وفضلا عن ذلك كان قد علق أليم تاجر يدعى جيوروتو ثوبه في الديار الامبركية بعد ما فقد جميع ثروته . وبعد ما قضى لوسيان معهما ردها من الزمان تزوجها سراً أيضاً . وولدت له ولداً قبل اقترانه بها . شرعيا . على ان نابوليون وان لم يكن يجمل علاقته بأليم جيوروتو كان القران المعقود في بلسي شامان بحضرة كاهن شيخ زاول في الوقت عينه . محافظ البلدة وكيف كان الامر فماذا يهم لوسيان المتكثر من الكلام عن

والمشير به على أخيه وأي اعتراض جدي يبيده عشيق أيم جوبرتو على افتراق الزوجين؟ فالمرش ولقب ملك يفضلان عشيقة مطلقة .

الا ان تلك المرأة لم تكن سهلة المراس وكان لوسيان يحبها محبة شديدة بحيث شقت عليه مفارقتها . وكانت رياح المطامع تهب في صدرها وعوامل العجب والذهو تتجاذبها وقوة الارادة تمنحها سلطة قوية على حبيبها فأسرت لبه وعواطفه وصيرته رقيقا لها لا يقوى على الاعراض عنها . وقد وصف فتان أخلاق هذه المرأة في رسالة سيرها الى الزا وقال لها فيها ما يأتي :

« لا يخفى عليك يا صديقتي اللطيفة الفاضلة ما يمكنني أن أفصح عليك فانت بما أوتيته من الذكاء تدركين بلهجة طرف ما هو مخبئ وراء الستار : فالسيدة حسنة وعلى جانب عظيم من التدلل . وتستطيع يها تين الصفتين أن تتسلط على القلوب حينما طويلا .

» وجميع دلائل الحب الشديد بادية على وجه حبيبها وفي حديثه وهو يعالج الكتمان على غير جدوى فان دلائل الحب لا تخفى على أحد . وهو يحصر فيها جميع هنائه أما هي فلا يكفيها هذا الامر لان لها مطامع أسمى وأبعد وهي تميل الى احراز الشهرة وتركها في الدنيا دويا عظيما . وعينها النجلان وان تخلبان الالباب . ولعمري ان ما فيها من العجب يدعو الى العجب وقد اجدت في تمثيل دوري وتمكنت من الوقوف على كنه حالها فعرفت أنها من أشقى خلق الله وقد أخبرني حبيبها انها تفضل غيرها من النساء في فضيلتها .

» يستمدون لتمثيل رواية الزيرة وهي من جملة الممثلات . وبينما كانت تمثل دورها كدت أصبح قائلا لها عند رؤيتي ما هي عليه من اللطف : ان اللطف أفضل من الجمال . وفي أثناء تمرنها على تمثيل دورها سمعهم يلفظون اسمك وكان ذلك الاسم اللطيف يعبر عما بخالج ضميري ، وأني مع شدة شوقي الى رؤيتك سررت بتفنيك . وعندني انه لا ينبغي لك أن تظهرني للناس بحضورك انك تمالئين على تفضيل هذه المرأة على الاميرة الاسبانيولية . وأظن انهم يسمعون لتأليف حاشية لها من بعض النساء . واصرح لك بأن النفس حدثتني في فاتحة الامر بأن اهجر هذا المكان ليخلو الجو لتلك السيدة وللأضياف ولكنني خشيت أن ينسبوا الي الفظاظة والخشونة . ولا يذهب عنك اني شديد التعلق

بالأماكن التي تذكرني بك وسأظل فيها غير مبال بالمحاذير لان ذكرها
عزيزة عندي . »

وذهبت على غير طائل جميع مساعي نابوليون لدى أخيه فان لوسيان أصر
على عناده . وكان يريد أن يعلم جميع الناس أنه مستقل في تصرفه وان القنصل
الاول ليس له عليه سلطة ما وانفذ اليه مورات ليتدخل في القضية وتدخل فيها
أيضاً كباساريس ويوسف حاملين اليه رغائب القائد العظيم الشديد الحول والطول
ولكنه أصر على عزمه فأصبح في حال لا يرى له معها بداً من مفارقة أخيه .
وكان نابوليون يشعر بمذاب أليم من جراء هذه المعاكسات المتوالية وقد
حرمه خلافه مع لوسيان لذة النوم وأقضى مضجعه . وقالت جوزفين انها كثيراً
ما كانت تسمع زوجها في الليل يلغظ وهو غائص في لجة الكرى اسم أخيه لوسيان
ويقول انه زاحف رجال الثورة الى التويلري ليخرجه منه عنوة ويطره في
الشارع . وكان تارة يذكر اسم لوسيان وتارة اسم برنادوت وهذا ظل عدوا
للقنصل الاول مضرباً عداوته حتى جاء حين جاهر بها فيه لما تضمضت اركان
الامبراطورية وأفل نجم صاحبها العظيم .

وكان لوسيان يشتد تشبهاً بعناده كلما طلبوا منه أن يوافق أخاه على رغائبه
فأذاع اقترانه بأيم جوبرتو ولم يكتف بذلك بل كان يذهب معها الى الملعب
الفرنسوي في الايام التي تملأ فيها السيدات النبيلات مقصورات الملعب فتبدو
الى جانبه أيم جوبرتو بمجملها الرائع وملابسها الفاخرة وحلاها الثمينة . وكان
يبذل كل ما في وسعه لاستمالة الشعب اليه بمناذاته على رؤوس الاشهاد بأنه
جمهوري شديد التمسك بغرز مبادئه وان أخاه الكثير المطامع يعمل على تقويض
دعائم الجمهورية . وقد خرج ذات يوم الى مرج سان جرفه للتنزه بين الجماهير
الغفيرة التي كانت تحترمه وتنوه بحاسن زوجته الجديدة فيفتخر بذلك
متباهياً ولكن أوليس للجمال في باريس منزلة عالية يحج اليها القوم على
اختلاف طبقاتهم ،

وفي آخر الامر دعا نابوليون شقيقه لوسيان الى سان كلود فكانت مقابلتهما
جازمة وقد هدمت فيها صروح المقاصد العظيمة التي شيدها ذلك الرجل العظيم
المعمل نفسه بعودة أخيه اليه وقد أصر لوسيان على عزمه وأجابه : « أنا وزوجي

وابني وبناتي شخص واحد » وأقامت جوزفين تنتظره في الردهة مدة طويلة فلما عاد اليها انطرح في كرسي والاضطراب بالغ منه . وقد حفظت عقيلة ريموزا ذكرى تلك الليلة المحزنة .

وقال نابوليون لزوجته : « لقد قضي الامر فاني قطعت أسباب كل علاقة بلوسيان وطردته من حضرتي » . ولما توسطت جوزفين له قال لها : « ان طيب عنصرك يملك على التوسط له . » ثم أنه نهض وعانق زوجته واللقى رأسه على كتفها وقال لها : « لقد أصر لوسيان على غيه ولم يبال بتوسلاتي فلجأت الى الوعد والوعيد على غير طائل . والحال تقضي علي بالاعتزال عن معاشر البشر والتمويل على نفسي وعليك يا جوزفين فأنت سلواني . » وكانت العبرات تنهل من محاجر نابوليون حتى كادت تبل نحره وهو يفوه بهذا الكلام .

ويبين الرسم المحفوظ في المكتبة الوطنية والممثل أيم جورنو وهو منقول عن كانوفا طابع هذه المرأة التي ترك زوجها كل شيء وتعلق بها : فرأسها مستطيل وجبينها منخفض وعيناها كبيرتان ومفتوحتان وأنفها دقيق ونائي وشفتاها رقيقتان تجري عليهما ابتسامة الاحتقار .

وبعد اشتداد الخلاف بين الاخوين لم يجد لوسيان ندحة عن مغادرة فرنسا فصمم على انتجاع رومية . وقد أذخر يوسف له حبه خفاء ليلة سفره الى منزله في باريس مودعاً وسهر معه في الردهة المحشودة فيها الصناديق المحتوية أمتعته . وحبس التأثر لسانيهما عن الكلام فجعل الواحد ينظر الى الآخر وهو صامت والافكار الكثيرة تزدهم في مخيلته وقد ساورته السكابة . وكانا يستطيعان أن يذوقا طعم الهناء لو لم تهب رياح المطامع في صدر شقيةهما . ولكن لم يكن في اليد حيلة وقد رح لوسيان الديار الفرنسية وليس له من مطعم بالجوع اليها . وباع قصره من والدته بمليون من الفرنكات قبضها منها نقداً .

وتروى عنه عبارة مشكوك في صحتها فيقال ان انطلاقه الممجل ناجم عن انتشار خبر مقتل الدوق دنغاب . وقد كثرت في ذلك الحين دسائس الحزب الملكي ومورو وبيشغرو فاتفق أن لوسيان دخل منزله في تلك الاثناء وقال لزوجته : « الفرار الفرار يا الكسندرين لقد ذاق طعم الدم ! » ولكن لايمقل أن تكون هذه الرواية صحيحة فان عقيلة ريموزا المنتقدة انتقاداً مرأ ذكرت أن القنصل

الاول ساوره غم شديد لمجزه عن تليين مجسة أخيه . واذا كان الامر كذلك فهل يصدق انه يقضي عليه بالموت ؟ والحقيقة أن قلب لوسيان كان شديد التعلق بعياله وكان يحافظ عليهم كل المحافظة على ما جاء في رواية أحد حفدته . وكانت ثروة لوسيان في سنة ١٨٠٤ أي عند مهاجرته من فرنسا الى

ايطاليا كما يلي :

دخل يقدر بمئتي الف فرنك من موارد مختلفة وخمس مئة الف فرنك مودعة في مصارف أميركا وخمس مئة الف فرنك مودعة عند إحدى الشركات وخمسة وستين الف فرنك مرتباً سنوياً كمضو من أعضاء مجلس الشيوخ وخمسة عشر الف فرنك مرتباً سنوياً كمضو في الندوة العلمية على أن هذين المرتبين حسباعنه في سنة ١٨١٠ . وكانت له أيضاً عقارات واسعة في سان شامان وقصر بريان الذي باعه لوالدته بليون فرنك . وابتاع في ايطاليا عقارات باصانو وقصر لانسياتي في رومية واشترى بمئة وخمسين الف فرنك قصر ميغز في رومية وروفيكولا أوتسكولوم في سنة ١٨٠٤ وقصر ميسين في تيفولي وروكابريورا والديراغنسلا وأرض كانينو في سنة ١٨٠٦ البالغ ريعها السنوي ثمانين الف فرنك والابولينيا . ويضاف الى هذه الثروة الكبيرة الصور والتماثيل الكثيرة والمتحف الفنية الثمينة التي كانت عنده ويرى القارئ والحالة هذه مقدار الثروة الطائلة التي جاء بها لوسيان من اسبانيا .

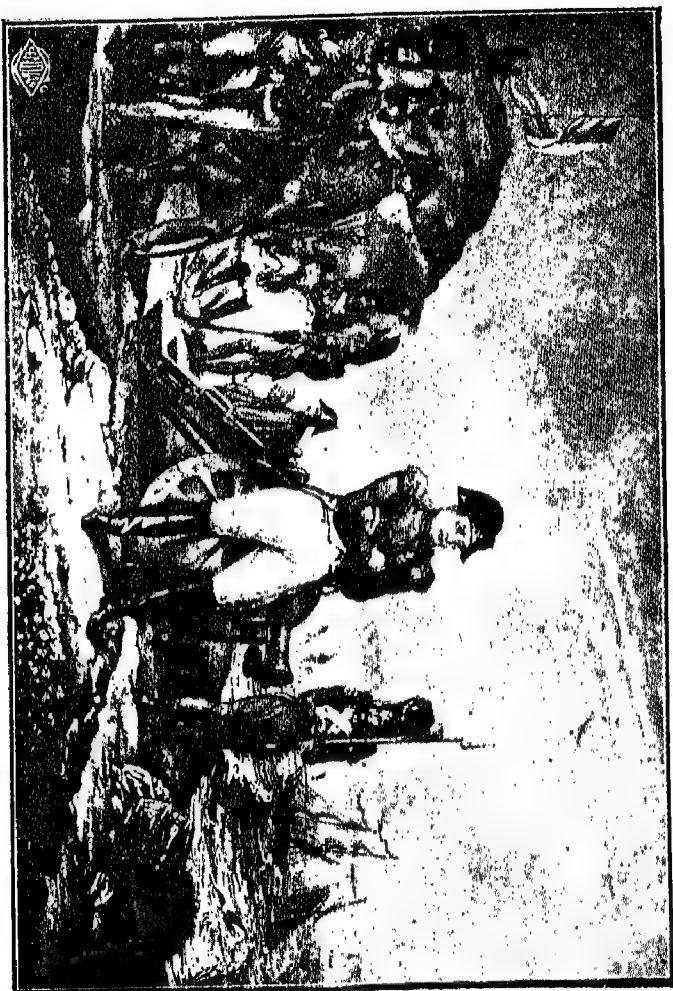
ومن أهم حوادث حياته انه ولد في اجا كسيو في سنة ١٧٧٥ وتولى رئاسة مجلس خمس المئة وجعل أمير كانينو وتوفي في فيتربي من أعمال ايطاليا في سنة ١٨٤٠ . وان أحد أولاده المدعو بطرس بونايرت ولد في رومية في سنة ١٨١٥ وتوفي في سنة ١٨٨١ وهو والد البرنس رولان الذي ولد في سنة ١٨٥٨ .



لويس بونابرت

كان لويس بونابرت ثالث أخوة نابوليون غلاماً لين الاخلاق لطيف الطباع ميالاً الى الدرس . ولما عاد نابوليون من كورسيكا الى اكسون المقيمة فيها الحامية المنتظم هو تحت لوائها جاء اليها بأخيه لويس . فكان الفتى يرقد في غرفة أخيه ويشاطره طعامه وشرابه وكان نابوليون يأمل أن يربي أخاه هذا على المبادئ الميال هو اليها . وأعدده لدخول فرقة المدفعية لاعتباره الخطة العسكرية من أشرف الخطط وأفضلها وماعدا ذلك لم يشأ أن يعلمه الا ما يحسن هو معرفته . وكان الاخوان يعملان في الغرفة نفسها جنباً الى جنب . وكثيراً ما كان لويس يسر شقيقه بنسخه له صوراً خطية لأن نابوليون لم يكن يحسن تنميق الخط وعلي هذه الصورة كان كل منهما مبهتجاً بالآخر وعاضداً له في وقت ضيقه وحاجته . وكان الاخلاص شعاراً للويس . وقد نم لأخيه يوسف في كتابته له بما فطر عليه من كرم الجبلة . وأراد ذات يوم أن يرسل اليه اربعة من الحرير ولما كان قد مضى على رؤيته اياه زمان طويل كتب اليه ما يأتي . « اني وماتريد فاطلب مني المسير اليك فأوافيك في الحال وأقيم عندك اذا راقك ذلك . فأنت بعد نابوليون أعز جميع اخوتي . » وكتب عنه نابوليون وهو في اكسون مقتخراً به : « انه سيكون أفضلنا نحن الاربعة وقد تعلقت جميع النساء في هذه البلدة بأهداب حبه وصار يحسن اللهجة الفرنسية وامتاز في معرفة أساليب الدخول في الالفة الاجتماعية : فكان يدخل بخفة حركة ورشاقة ويحيي ويفوه بما يجب أن يفوه به من الكلام وحين يخرج يرى الانسان انه راق جميع الحضور . »

وكان من المقضي عليه أن ينجز دروسه قبل أن يرتقي الى درجة ضابط فأدخله نابوليون مدرسة شالون فأقبل لويس على الدرس بحمد عظيم بحيث سر منه رئيس المدرسة فكتب الى أخيه يوسف ما خلاصته : « اني مسرور من لويس وهو سيحقق آمالي فهو فتى من أفضل الفتيان : رشيق الحركة متوقد الذهن قوي البنية حسن الصحة شديد العارضة شديد الرأي كريم القلب . » على أن الكتب والرسائل المنسوجة برودها في عهد القنصلية على منوال حياة ذلك الشاب تبين ان بين الاخوين مشابة شديدة بيد أن نابوليون كان يمتاز عن



اقامة الامبراطور في جزيرة الباسنة ١٨١٤

شقيقه لويس بقوة نظره وعلامات السلطة البادية على وجهه .
ولما انطلق نابوليون الى ايطاليا لقيادة الجيش فيها استصحب معه أخاه
لويس اليها وجعله حاجبا له . ولم يكن للويس سوى ست عشرة سنة من العمر
ولكنه كان مع حدائته جريء القلب في ميادين القتال شديد الاقدام وغير
مبال بالمتاعف والمعاذب . وكان نابوليون يعامله كما يعامل حجابيه الآخرين قاذفاً
به الى ساحات الروع من دون أن يشعظه عن ذلك شيء من الخوف من أهواء
الأقذار . واضطر نابوليون في معركة أركول الى ارسال أمر الى قائد يقاتل في
موضع تحصد فيه قتابل الاعداء جنود الفرنسيين حصداً فاختر لويس لتلك
المهمة . فسار وعاد سالماً وأوقف أخاه على نتيجة مهمته برابطة جأش نادرة .
فدهش نابوليون من جرأته وعلق عليه الآمال الكبيرة في المستقبل . وقال له :
خيل الي انك وردت مورد الهاكمة .

ولما عقد الصلح لم يشأ لويس ان يفارق أخاه نابوليون فأقام معه في باريس
وكان رفيقاً لطيفاً حسن المعاشرة جيد القلب كريم المهزة . وفي خلال اختلافه
الى منزل عقيلة كعبان في سان جرمان لزيارة شقيقته كارولين أبصر أميلي دي
بوهرنه نسيبة جوزفين ورفيقة أخته في المدرسة فعلمتها ونصباها وأكثر من
التردد على ذلك المكان لمشاهدتها . ولما كان نابوليون غير راض عن اقترانه
بها بادر فزفها الى شامان لافاليت أحد حجابيه . وعلى أثر ذلك تقررت حملة مصر
فتطوع لويس فيها ورافق شقيقه الى أرض القراعنة .

وأصاب لويس علة ناهكة في القطر المصري خفيت حقيقتها على نطس الاطباء
فاضطر الى العودة الى فرنسا للتداوي . ولما خيم ظله في باريس سمى لاستجالة
الحكومة الى الجيش المقاتل في الديار المشرقية بدسالة وجراًة عظيمتين . وكانت
العلة تشتد وطأتها عليه شيئاً فشيئاً وناله من جراء ذلك اكتئاب مقيم وتجهم
دائم . ولم يكن يهمه إلا أمر صحته فلم يترك علاجاً من العلاجات الموصوفة له
إلا واستعملها حتى انه لبس أقصة كان المصابون بالجرب يلبسونها .

ومع ما صار اليه من تلك الحال السيئة لم يترك الجندية . وحالما ارتقى
نابوليون الى درجة قنصل أول حمل هو قائداً لفصيلة الدراغون الخامسة ثم
جعل كولونيلا لهذه الفرقة فأرسل الى فرنويل لتولي قيادة حاميتها ولبت فيها

حتى استتبت الاحوال في إقليم الفنده . وقبل ذلك بقليل من الحين ألقى الجنود القبض على أربعة من زعماء الملكيين المحرضين على الفتنة وجاؤوا بهم الى مركز الحامية فثقلوا أمام مجلس حربي حكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص . وألح قائد الفرقة على لويس بونابرت الكولونيل بأن يترأس المجلس المذكور . فأبى لويس إجابة طلبه مشدداً التكبر على ذلك الحكم وعلى تعجيل اجرائه . وأنفذ رسولا الى القنصل الأول برسالة يطلب بها العفو عن المحكوم عليهم فتأخر الرسول عن العودة بالجواب في الأجل المعين وتمت تلك المأساة الفظيعة فدخل لويس غرفته وقضى فيها بياض نهاره وسواد ليله علامة الحداد وأمر ضباطه بأن يحذوا حذوه . ويذكر هذا الحادث في السفر الذي دون فيه تذكارات هولندا وقال انه من ذلك الحين ابتداء ينفر من الخدمة الجندية .

ولم يكن نابوليون ينظر بعين الرضى الى أطوار أخيه لويس الغريبة التي نفرت منه جميع الناس فاقترح عليه أن يباشر رحلة في المانيا رجاء أن يروح نفسه ويلبس ما نزل به من الداء المبرح فوافقه لويس على اقتراحه وشخص الى المانيا فزار المدن الكبرى في تلك البلاد ونزل في برلين واستقبل في بلاط ملك بروسيا ونظر اليه فيه بعين الاحترام . ولكنه ما أبطأ أن هاج به الحنين الى الوطن فاسرع في العودة الى باريس وجعل يكثّر من التردد على المالميزون والمواظبة على معاشرة هرتنس دي بوهرنه . وكانت هرتنس بارعة في الجمال . ومع ذلك كانت افكار لويس موجهة الى فتاة أخرى لقيها في التويلري وهي الآنسة ليفيغر وقد اقترنت فيما بعد بالمسيو درسن في طروى .

وكانت العادة جارية في تلك الايام أن يستشيروا دهاقنة الطب في منبلياي فيشخص الانسان الى تلك المدينة ويقيم فيها ردحا من الزمان يتردد في أثنائه على الاطباء ويعمل بموجب وصفاتهم ومشوراتهم . وظعن لويس الى منبلياي وتعرف فيها بالجنرال فرشفيل قائد الجندي تلك الناحية وتعرف أيضاً بأسرة دوران سان موريس والاب كستو الذي شهد وفاة شارل بونابرت . واخرج لويس بإشارة من ذلك الاب رفات والده المدفون في كنيسة الكردلياي التي تحولت الى كنيسة بروتستانطية ووضع العظام في حق ولفها بالقطن وعاد بها الى باريس بعد ما كتب على ذلك الحق : « ساعة دفاقة » . ولما شيد له فيما بعد منزلا فخما

ملاً لاسمه ومقامه وضع رفات والده في نعش وأقام له ضريحاً لا تقا به في حديقة قصره .

ولما كان لويس ميالا الى الابتعاد عن معاشر الناس ابتاع بيتاً في وسط حرجة ليس وكان ذلك البيت في خالي الحين يخص لينرمان ديتول زوج عقيلة دي بمبادور المنكود الحظ . وهناك ظل معذباً ولم يكن يبرح معزله الا ليزور المالميزون في بعض الاوقات الا انه كان يرسل دائماً أصدقاء مجهولين لم يذكر اسمهم قط . وكان اعز صديق له يدعى المسيو مزينجير فهذا كان مستودع أسرار له وكان هو يرسل اليه مكاتيب طويلة يودعها ما يساوره من العذاب والقنوط .

وانطلق لويس الى بريج للتداوي عند الاطباء وبقي في تلك الاثناء يرسل مزينجير واحتاج الى المال فأرسل يطلب منه شيئاً من النقود . حينئذ طلب مزينجير من أمين صندوق الحكومة ارسال المال المطلوب فاستاء لويس من ذلك الامر لأنه لم يشأ أن يدري أحد من أصحاب المناصب شيئاً من أمره . وكان يحب أن يبقى كل شيء عنده سرياً وقد توهم أنهم يرصدون حركاته وسكناته متعمدين جر الأذى اليه . ولم يقر له قرار ولم يسكن له فكر . وكانت أبواب الغرف في منزله موصدة ولم يترك سوى باب واحد مفتوحاً في كل غرفة . ويمكن القول انه سار على هذه الخطة خاضعاً لموامل الوسوس والاهام .

وكان يلذه في غالب الأحيان أن يزور في باريس فيلسوفاً شيخاً يدعى أوربان دومرغ من أعضاء الندوة العلمية فيلتي في ناديه منفال وأرنول وباليسو الشيخ . فيتباحثون في علم الأدب والروايات التمثيلية والفنون الجميلة فكان ذلك المريض الوهمي يجد بهجة شديدة في معاشرتهم . وكان ميالا الى علم الادب وقد نظم بعض القصائد والمقطعات وكتب بعض الروايات الجميلة ولكنه كان يحاذر أن يدع أحداً يطلع عليها .

وعمل بقدر استطاعته على الابتعاد في ذلك العهد عن المالميزون وحين كانت الحال تقضي عليه بغشيان ذلك القصر كانت جوزفين تحتفي به كل الاحتفاء لانها كانت تنوي أن تزف اليه ابنتها هرتنس . وحاذر لويس الوقوع في الاشراك المنصوبة له ولم يخف عليه أن مثل هذه الاشراك نصب لاختيه لوسيان من قبله ولم يجهل ما ذاع عن علاقات القنصل الاول السرية مع ابنة زوجته وفي

ذات يوم نهض لويس صباحاً وبرح المالميزون سراً ولحق بفصيلته المنطلقة الى سيوداد ردرينغو لموافاة الجنرال ليكرك ووقف في أثناء الطريق في مون دي مرسات وحل ضيفاً على الحاكم فتقاطر أصحاب المناصب الى المشول بين يديه والتعرف به . ووقف لديه رئيس المحسكة وفتح صحيفة وشرع يتلو خطاباً افتتحه بهذه الكلمات : « أيها البطل الشاب الجريء . . . » وكان لويس ينفر من مثل هذا المدح والاطناب فطلب الصحيفة من الرئيس وقال له : « عرفت الغاية التي ترمي اليها في خطابك فأنت تعني أخي بكلامك وسأقبل اليه صدى عواطفك الكريمة عند عودتي وهو ولا مرء سيقدر عملك هذا حق قدره . . . » وكان بعض الحضور ينوون أن يخطبوا الخطب في مدحه فلما سمعوا كلامه أحجموا عما كانوا ينوون عمله . ولم يغير مقامه في سيوداد ردرينغو شيئاً من توجهه وكأبته فعاد الى باريس بعد أشهر ولم يطرأ عليه شيء من التغير . وبقيت أفكاره قلقة على صحته . وفي واقع الحال كان عقله مريضاً وليس بدنه . وقال نابوليون عنه وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « قد يكون للويس عذر شلى اضطراب أفكاره فقد كانت صحته متزعزعة وقد طرأ عليه الانحراف وهو في تقبل العمر وعرضت له أحوال سيئة سببت حلول السقام في جسمه وأثرت في عقله . وكاد يقضي من جراء هذه الحال وبقيت فيه تأثيرات العلة الناهكة التي نزلت به بحيث ظل كسحه مشلولاً على التقريب . » وأوجست جوزفين خيفة من طلاق نابوليون لها لانه لم يكن له ولد منها ففكرت في أمر تثبيت مركزها باقتران لويس بابنتها وببني نابوليون للولد الذي يولد لأخيه من هرتنس فليس ليوسف سوى بنتين ولم يكن لوسيان يسلس قيادته لأخيه وقد رأت والحالة هذه أن الاخ الثالث يلائم مصالحها أكثر من سواء فلم تبال بذبول نضارة لويس قبل ميعادها ولا بما هو عليه من الاخلاق المتقلبة وعدم الاكتراث لشيء من الاشياء . وقد أعمنها مطامعها ومصالحها الشخصية عن رؤية المستقبل فلم تدخر شيئاً من شأنه أن يجذب ابن حميها الى المالميزون فأكثر من اقامة الولائم والمآدب وبدأت هرتنس في مرقص حافل بمظاهر البهاء ومجالي السناء فنشب لويس في جبال دلاها وقد كتب في مفكراته التي دونها في هولندا ما كان من أمر استغوائه فقال ان امرأة أخيه دعتة اليها الى احدى الروايا بجانب النافذة ودلته على ابنتها المتدفق

ماء الجمال من وجهها فدنا منها نابوليون وتألبا عليه ولم يتركاها حتى وافقهما على اقتراحهما . وكانت تلك الساعة ابتداء عذاب لم يفارقه حتى آخر نسمة من حياته . وكان له من العمر اثنان وعشرون سنة . أجل أن جسمه بلغ أشده لكن عقله وطبعه لم يكونا قد كتملا بعد . وكان ذا بساطة كبساطة الاحداث . وحدث أن زواجه أحدث فيه تغيراً بيناً فتأثرت صحته من جراء ذلك من دون أن يشعر بشيء ففقد جميع أسباب الراحة من ذلك الحين

وانه لا امر محقق ان لويس بونا برت كان تاعس الجذ وان امراته لم تكن أسعد حظاً منه . وقد شعرا في أثناء حفلة الزواج بنفور كان يجب عليهما أن يريا فيه عدم موافقة هذا الزوج لهما . ومع ذلك رضيا بعقده ولم يأنسا من نفسيهما مقدرة على اقامة النكير عليه والفرار من الحال السيئة المنتظر وصولهما اليها . وكان جميع الحضور مبهجي القواد وعلامات الفرح والبشر منتشرة على جميع الوجوه وتغر المستقبل يغتر للجميع ما عداها . وقصارى الكلام أنهما سلسكا مسلك جميع الاحداث الذين يسعى والدوم وأصدقائهم لا قناعهم بأن أفئدة الاشخاص المتقارنين لا تلبث أن تتحد اتحاداً لا تنفصم عراه .

وبروي أن القنصل الاول تردد ذات يوم في أمر زفاف هرتنس لأخيه لويس فأراد أن يزفها الى دوروك . لأنه شعر بأنه يميل اليها ولم تكن الفتاة تنفر من دوروك . فدخل بعد الغداء غرفة بوريان مؤملاً أن يجد عنده دوروك . ولما لم يجده عنده سأله قائلاً : أين دوروك ؟

— أظن أنه في ملعب التمثيل

— عند عودته قل له اني أعده بهرتنس وسيقترن بها ولكن أريد أن يتم هذا القران بعد يومين على الكثير وأنا أعطيه بائنة قدرها خمس مئة الف فرنك وأميميه قائداً للفرقة الثامنة وفي غد اليوم الذي يقترن فيه يسافر مع عروسه الى طولون وحينئذ نعيش مفترقين الواحد منا عن الآخر فأنا لا أريد أن يقيم صهري عندي . أخبرني هذا المساء ماذا يكون من جوابه لأنني شديد الرغبة في انجاز هذه القضية .

— أظن أنه غير مبال الى هذا القران .

— بناء عليه ستتقرن بلويس .

— وهل هي راغبة في ذلك ؟

— لا بد من اتمام هذا الأمر .

وحدث بعد ذلك أن عاد دوروك فأوقفه بوريان على ما كان من حديث القنصل الاول معه فقال دوروك : مادام الحال على هذا المنوال يمكنه يا صاح أن يبقى ابنته عنده . وهاءنذا منصرف . . . قال هذا وتناول قبعته وانصرف وهو غير مبال بما سمعه .

على أن متدبر هذا الأمر يشك في صحته من جهة نابوليون ولا سيما من جهة دوروك فقد كان هذا يتصحبى هرتنس ويكتب اليها رسائل يوصلها اليها بوريان فتمتلقى الرسائل وتقرأها بسرور جزيل وان لم تكن ترسل اليه الاجوبة عليها . وعليه كان يمكنه أن يأمل الانتهاء الى غاية أمانيه وهل يعقل أنه ينبذ بغتة جميع تلك الآمال حين يبتغي نابوليون التمتع في عقد قرانه ؟ . . . فن يطمع بمثل هذا القران لا يخضع لعوامل الأهواء الوهمية الغريبة بل بعكس ذلك يسر بتلك السرعة . ومع ذلك يستنتج من الصفحة التي كتبها بوريان في هذا الشأن ان رغبة نابوليون في تزويج لويس وهرتنس لا تقل عن رغبة جوزفين فيه ولكنه لم ينبج من طائلة العذاب ووخز الضمير اللذين شعر بهما من جراء تدبيره ذلك القران الخالي من الموافقة

وكتب لويس بونابرت في هذا الغرض ان أفضل عذر لدينك العروسين هو حداثة سنهما وخلوها من اختبار الحياة وبساطتهما . فقد كان الحياء متسلطاً عليهما ولكن هل يصبح أن يطلق هذا الأمر على هرتنس ؟ فانها عارضة والدتها ورفضت الاقتران بابن روبل ولم تشأ أيضاً أن تزف الى السكنت دي مان الشاب لمعرفتها أنه من عشاق عقيلة دي ستال في ألمانيا ولكن لا بد من أن يكون لهرتنس من سبب غير الحياء يجعلها توافق والدتها وترضى بأن تدعها تتصرف بها على هواها . أجل أنها تدري أن لويس لا يلائمها وانها لا تلائم لويس ولكنها تعلم أنهما سيعيشان في ظلال بلاط تحف به المسرات والعظمة وانهما سيرتعا في بحبوحة الغنى ويصبجان معززين ومكرمين عند رجل عظيم تهيبه أوربا قاطبة

وعلاوة على ذلك اسمعوا أن مستقبل أسرة عظيمة وورثة سلطنة سامية منوطان بها . أو تستطيع والحالة هذه أن تنبذ مثل هذه الاعتبارات الخطيرة وهذه السياسة الكبيرة؟ وقد كانت سلطة هرتنس على جوزفين تفوق سلطة هذه عليها . وكانت مستقلة في أميالها وأهوائها وقد اتبعت باقتنائها بلويس مجرى مطامعها . والناظر الى صورتها المحفوظة في المكتبة الوطنية يرى في هيئتها لأول وهلة أنها من اللواتي تتسلط عليهن المطامع: فوجهها يبضي الشكل وشففتها رقيقتان وأنفها ممتليء ومروس وهذا الشكل يدل على شخص شديد الميل الى ركوب مركب الاعمال العظيمة . وانها بدلا من معارضة مقاصد والدتها بادرت الى الموافقة عليها إلا أن نكد طالعها جعل قرينها كثير الظنون مضطرب الافكار غريب الأطوار لا يلين مجسته لأحد من الناس ولذلك لم يسهل عليهما الائتلاف .

وهيأ نابوليون لاقامتهما قصراً صغيراً له في شارع شترين فقضيا فيه شهر العسل . وأقيمت لقرانهما حفلات شائقة فأحيت عقيلة دي منتسون ليلة ساهرة اكراماً لها كان الخدام يلبسون فيها ثياباً تماثل الثياب التي كان يلبسها الخدام قبل الثورة الكبرى ولم يكن الناس قد شاهدوا مثل ذلك المنظر بعد الفتنة الميار ذكرها . وكانت هرتنس تكثر من ملاطفة زوجها والتبدل عليه . وترغب في الاستيلاء على عقله وقلبه فمالبت ذلك الزوج الشاب بعد ما رأى من اقراطها في التدلل أن نهر من فرط تهمكها به وولاهها صفحته وقال . انها لم تبالغ في إظهار التعلق بي الا لتخونني فيما بعد .

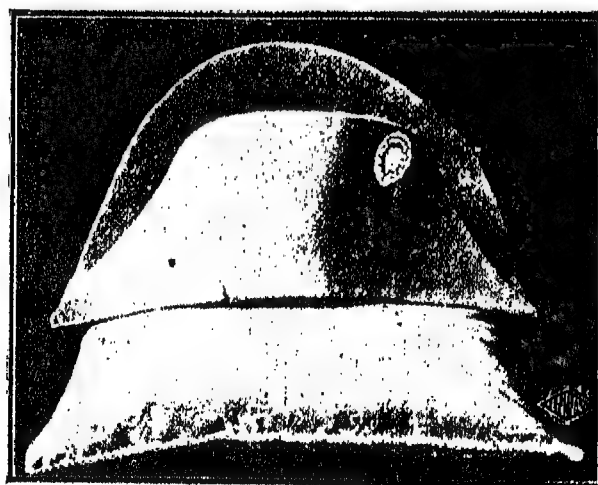
ولم يكن شيء يحول دون تقلب تلك الافكار في ذهنه فان اشقاءه المستائين من اقتران نابوليون بايم بوهرنه ازداد استياؤهم من اقتران لويس بابنة جوزفين وخافوا من اشتداد تسلط أسرة بوهرنه على أسرة بوناپرت وصاروا ينظرون اليها بعقلة الارتياب والنفور وعمدوا الى القاء الشقاق بين الزوجين وقضوا لبائهم من التفريق بين لويس وزوجته

ولما انقضت مدة الاحتفالات وخلا الجو للزوجين حسر لويس اللثام عن حقيقة أخلاقه فبدا بعيد النور متقلب الأهواء كثير الظنون مستبداً في رأيه وقال لزوجته أنها أصبحت من ذلك اليوم مندحجة في أسرة بوناپرت ولم يبق لها

من علاقة بوالدتها . فاستاءت هرتنس من سماعها كلام زوجها ولاسيما لأنه لم يكن ثمة من داع الى ذلك ... فبأي شيء اساءت جوزفين الى لويس انها لم تأت شيئاً تؤاخذ عليه ولكنه صرح بلا موارد بكل ما يعلمه عن حماته من الطيش والخفة والاسراف والعلاقات والاختلافات ومصالحاتها لعشاقها . أو لا تذكر ما جرى في شارع سنترين امام باب الجنرال العائد من مصر ؟ وهل نسيت أن الجنرال أبي أن يفتح بابه وأنه لم يفتحه الا بناء على التماس جوزفين وولديها وتوسلهم اليه بتذريف الدموع وأن شاءت هي أن يحبها زوجها وجب عليها أن تقتصر على تولي العلاقات البسيطة مع تلك المرأة وأن تتجنب المسير بموجب مشوراتها الوخيمة المغيبة . وهل نسيت أيضاً ماذا عسا لنا بوليون من العلاقات بها مما يثير الشكوك بين الناس ويفسح المجال للقليل والقال فيريد وارا دته لامرد لها ألا ترقد تحت سقف البيت الذي يرقد فيه نابوليون

ما أشد ما شعرت به هذه المرأة من العذاب عند سماعها كلام زوجها المفعم اهانة فعرفت حقيقة الشخص الذي قرنت حياتها بحياته لأنه لم يكن يعتقد بوجود فضيلة فكيف والحالة هذه تجعله يثق بصدق دخیلتها فلم يبق من سبب للوفاق بين ذينك القلبين . والى من تشكو حالتها الى والدتها ... وكانت تحترمها احتراماً شديداً وتحبها محبة عظيمة فنبذت نبذ النواة ما سمعته من زوجها مما يتعلق بالقدح بها وآثرت كتمان حزنها في صندوق صدرها . وشعرت بأن حياتها انسحقت انسحاقاً وأنه لم يبق لها من مطعم بهناء العيش ورغده . فذوى ورد خديها وعلا الشحوب محياها وحصرت من ذلك الحين حبها في غرض واحد وقد قالت لعقيلة ريموزا في هذا الشأن : « لم يبق لي من غاية في الحياة الا سعادة أخي وغبطته . »

وكانت هرتنس في ذلك الحين ذات أخلاق طاهرة شريفة تحول دون اتيانها المنكر واقترافها المحذور . ويقول بوريان وجميع المعاشرين للقنصل الأول من الاصدقاء والاعداء على السواء انه لم يحدث بين نابوليون وابنة زوجته أقل إشارة تدعو الى تحريك ساكنات الظنون ومما يؤيد ذلك ما أذاعته عقيلة ريموزا من جميل المدح لصفات تلك المرأة الفاضلة فقد قالت ان هرتنس دهشت عند معرفتها أن النساء يخضعن لعوامل أهوائهن أكثر مما يخضعن لعوامل عواطفهن وأن



قبعة نابوليون ورايته في جزيرة البا

ضعفهن المقرون بالجرعة لا يتفق مع ميل قلوبهن ولم تجسر هرتنس أن تخاطب زوج والدتها فكانت تنهيه وتلجأ الى بوريان ليتوسط لدى القنصل الاول ويحصل لها علي ماتبتغي إصابته منه . ودونكم ماقاله بوريان في هذا الصدد : كانت تطلب مني أن أسأل القنصل الاول قضاء ماتريده من الحاجات وحين ألقى صعوبة لنيل غايتي أغميها له فيبادر بونايرت الى القول : ما أشد حماقتها ! لماذا لا تطلب مني ذلك بذاتها فهل تخاف مني هذه الفتاة ويقول بوريان : وكان نابوليون يشعر نحوها بخنان والذي منذ افترانه بوالدتها فانه أحبها كأنها ابنته الحقيقية . أما المتعاملون عليها فانهم يزعمون أن شهادة بوريان غير صحيحة لانه كان شديد الهيام بها وكثير التزلف اليها وكان يلعب معها بالبلياردو ويدير أمامها ذكر دوروك ويسلمها مكاتيبه ويخرج معها الى التزه راكباً جواده . فهل يمكنه والحالة هذه أن يذكرها بالقبيح

ما أضعف هذا البرهان وما أسخفه

وكان لويس من الأتلي يزعمون أن الرذيلة تنتقل بالأرث من السلف الى الخلف وقد قال ان ابنة جوزفين ستطأ أقدام والدتها وانه سيحمر وجهه خجلاً في المستقبل من جراء جنوح زوجته عن الطريقة المثلى . وبعد قضاء لويس بضعة أسابيع مع زوجته غادرها حاملاً وسافر منطلقاً الى الأنحاء الجنوبية وقد نبت ذكرها من جنانه .

ولما رأت هرتنس أن زوجها هجرها جاءت الى المالميزون وأقامت فيه مدة اقامة والدتها فيه وكتبت أسباب حزنها الهائل بحيث اعتقدتها أمها سعيدة الجدة . وكتبت اليها جوزفين من ليون « طانقي غني زوجك الذي أحبه حباً يقرب من الجنون . » وكانت عقيلة كبران تباهي في كل مكان بالهناء والوثام السائدين في منزل هرتنس . بيد أن كنستان خادم نابوليون الخاص يروي أنه شاهد غير مرة تلك الفتاة مكتئبة وصامتة بين صديقاتها وعيناها محترتان من الدموع المذرفة سراً وزوجها جالس في إحدى زوايا البهو مقطب الجبين بأسر الوجه كأنه تمثال من الصخر الصلب لا تؤثر به كآبة زوجته المنكودة الطالع . وكانوا يظنونها معذبة لأنها لم تكن تفوه بأذى كلمة تدل على حزنها المضر فكانوا يرثون لحالها لما فيها من الصفات الكريمة المستميلة اليها جميع القلوب

وكان وجهها الصبوح يروق جميع الناظرين اليه وشعرها الأشقر يكلل جبينها باكليل من البهاء والجمال وقدمها الصغيرتان تفتنان الأنظار ويداهما البيضاءون تخلصان الألباب وقامتها الرشيدة تأخذ بمجامع القلوب . وكانت تحسن الضرب على القيثارة وتحكم التصوير والرقص والتمثيل في الروايات الممثلة في رده المنازل الخاصة ولا سيما الأديوار الغرامية فيها . فهل يتعذر اذاً على من كانت مثلها أن تستميل اليها القلوب ويقول كنسستان انها كانت أرض من والديها جوزفين وأشد منها تسلطاً على نفسها بيد أن طباعها كانت ضعيفة

وأدخلت هي وابنة عمها اميلي دي بوهرنه من السنة الثانية عشرة من عمرها مدرسة عقيلة كيبان فكانتا من أول الطالبات اللواتي دخلن هذه المدرسة وقد برزتا على رفيقاتهما في جميع دروسهما . وكان من مصلحة عقيلة كيبان أن ترى هرتنس تكبر فتستفيد من ذلك . وبفضل هرتنس فوض اليها أمر تهذيب شقيقة في القنصل الأول : فان بولين اضطرت الى التعلم بعد اقترانها بالجنرال لسكارك لانها كانت أمية وكارولين أصغر شقيقات نابوليون كانت تجهل الكتابة والقراءة . ولا يخفى أن المكاتيب التي كانت عقيلة كيبان تسيرها الى تلميذتها القديمة غريبة اللهجة ومنطوية على عبارات تدل على أخلاق يحسن بنا ألا نبقها مكتومة . وهذا ماجاء في مكتوب أرسلته الى هرتنس الى التويلري : « لا تبرزي أبداً من النوافذ وضعي ستائر من الموسلين على ألواح الزجاج في فصل الشتاء ومن الجنيفس في فصل الصيف . فذوو البذاءة يأتون ويخطرون ذهاباً وإياباً تحت نوافذك بعد رؤيتهم اياك في أحد المراقص . » وفي مكتوب آخر توصية أخرى تدل على تراخي الاخلاق في ذلك العصر فان عقيلة كيبان كتبت ما يأتي : « قبلي غني بشوق شديد عزيزتي كارولين وقولي لها اني التمس منها ألا تعطي علامات خارجية لمحبتها لزوجها العزيز حين تكون في الملعب معه فينبغي لها أن يحترما الجمهور المحترم . » لأن هرتنس لم تجاوب عقيلة كيبان على رسائلها فكانت هذه تشكو من صمتها وتكتب اليها قائلة : « لا تتخذي العادة القبيحة التي تتخذها نساء هذا العصر فهن لا يحسن الكتابة الا حين يقضى عليهن أن يدبرن وقائع حفلة من الحفلات . »

ولم يخف شيء على نابوليون من حزن هرتنس المكتوم لمعرفة أخلاق لويس

وبالتالي علم ماسيكون من وراء قرانه بهرتنس . فساء ذلك الأمر كثيراً وحين كان يبصر في المالميزون هيئة هرتنس الشديدة الاكتئاب كان يرثي لحالها ويسعى لتخفيف وطأة الشقاء عنها ويجاهر بالعطف عليها ويمنحها كل ما ترغب فيه وتميل اليه . ورأى أن قصرها في شارع شنترين بسيط الظاهر تحف به جدران قائمة فاتباع لها ولأخيه قصر درفيو من الميسو سيمون البلجيكي قرين الانسة لانج . وكانت تحديق به حديقة غناء واسعة فيها من جميع أنواع الاشجار والياحين . وكان حبل هرتنس يتقدم شيئاً فشيئاً وقد بقي زوجها لويس متغيباً . وذاع أن هرتنس ولدت . وكانت الحال تقتضي تكذيب ذلك الخبر فألح عليها نابوليون مع ماهي عليه من تلك الحال أن ترقص في مرقص أقامه في المالميزون . ففي مفتتح الامر أنكرت طلبه ولكنه زاد في الحاحه ليتحقق الجميع ان ماذاع عن ولادتها غير حقيقي وان حبلها حديث العهد . ولكي يثبت حقيقة ماينوي اثباته نشر في صحيفة الديبا خبراً ذكر فيه ان عقيلة لويس بونايرت شاطرت الراقصين والراقصات الرقص في مرقص المالميزون .

وبقيت هرتنس عائشة وحدها مع والدتها بحيث أن الخدام كانوا يذسون موقفها الجديد وينادونها باسم الانسة . وكان لها بأمر القنصل الاول موقف مستقل تجاه جوزفين : ففي السهرات ترأس جمعية السيدات وجماعة صديقاتها ومائدة من موائد اللعب منفصلة عن غيرها . واذا كان لها أعداء في أسرة زوجها فقد كان لها أصدقاء يتحاشون الاعراض عنها ويزيدون في احترامهم لها لمعرفة مايجال فؤادها من حزن تحاذر افشاءه . وأخيراً ولدت غلاماً كان لها سلواناً في وحشها وعزاء في مصابها . فصرفت كل عنايتها الى ولدها وكان القنصل الاول عراباً له فأحبه محبة شديدة وعزم على اتخاذه وارثاً له وولياً لعهد له لأنه بصفة كونه قنصلاً مدى الحياة بحق له أن يعين خلفه . فانكر لويس مقاصد أخيه وانقاد الى أخويه يوسف ولوسيان : فيوسف كان يطلب أن تقرر ولاية العهد له ولوسيان يتباهى باستقلاله ونفيه الاختياري في رومية .

وقال لويس لنابوليون : لماذا يجب علي أن أتنازل لابي عن قسم من ميراثك ؟ وما السبب الذي من أجله استوجبت الحرمان وماذا يكون موقعي حين يصبح هذا الولد الذي تبناه أنت في مقام يسمو مقامي ويكون مستقلاً كل الاستقلال

عني ويتلوك في المنزلة وربما يصير ينظر الي بازدرء . فأنا لا أرضى أبداً هذا الامر . ولأن أغادر فرنسا خير لي من تنازلي عن السيادة المعتبرة جزءاً من ميراثك وطأطأة رأسي أمام ابني . وسرى هل تتجراً جهازاً على سلب الاب ابنه .

وكان عقل لويس مضطرباً كل الاضطراب من جهة زوجته بحيث أدت به الحال الى الایماز الى خدامه بتجسس حركاتها وسكناتها فلا يصل اليها مكتوب من دون أن يطلع عليه زوجها قبلاً . ولو نسي له منعها عن الافتكار لما تردد في ذلك قط لما كان عليه من الانانية وسوء الخلق . وهو يقول في مفكراته انه في أثناء حكم أخيه لا يزيد عن أربعة أشهر مجموع المدة التي قضاه مع زوجته ومع ذلك ولد له منها ثلاثة أولاد كان يحبهم كثيراً بمقدار محبة والديهم لهم . ولما كان نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وأدار رحي الكلام على أسرته قال عن لويس وهرتس ما يأتي :

« ان هرتس مع ما هي عليه من جودة القلب ومكارم الاخلاق وصدق المبادئ لا تخلو من الخطأ بحق زوجها وهذا أمر لا يمكنني نكرانه بقطع النظر عن مودتي لها وتعلقي الشديد بها . ومع غرابة أخلاق لويس وصعوبة مراسه كان يحبها وفي مثل هذه الحال يجب على كل امرأة أن تتمكن من التسلط على نفسها ومقابلة حب زوجها بمثله ولا سيما حين تقضي عليها مصلحتها بذلك . ولو استطاعت أن تكبح جماح عواطفها بشكيمة التمثل لكفت نفسها مؤونة الدعاوي التي أقيمت عليها ولقضت حياة سعيدة ورافقت بعلمها الى هولندا ولظلت حتى الآن مقيمة فيها ولما فر لويس من امستردام ولما اضطرت الى ضم مملكته الى مملكتي وهذا نجم عنه ضعفي في اوربا وربما حدثت أمور شتى غير هذه الامور التي ذكرتها . »

ولد لويس بونابرت في اباكسيو في سنة ١٧٧٨ وجعل ملكاً على هولندا من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨١٠ وتوفي في ليفورنو في سنة ١٨٤٦ . وهو والد نابوليون الثالث .

وزوجته هرتس ابنة الامبراطورة جوزفين من الكنت دي بوهرنه ولدت في سنة ١٧٨٣ وتوفيت في سنة ١٨٣٧ .

جيروم بونابرت

وكان جيروم أصغر أخوة نابوليون حدثاً في ابتداء عهد القنصلية وقد خرج من عهد قريب من المدرسة وأقام في التويلري عند أخيه وجرى على أهوائه من دون أن يهتم بأمر من أمور المستقبل وخضع بحملته إلى سلطان المملكات. وكان ناعم الظفر لما هاجرت والدته من جزيرة كورسيكا في حالة متناهية في الشقاء. وخيل إليه أن التويلري كان في كل حين مقر أجداده وأنه ولد سيداً عظيماً وإن حياته مماثلة لحياة أمير من الأمراء. فان مال إلى شيء فلا يلبث أن يسمى لنيل رغبته: وحدث أنه مر ذات يوم بشارع سانت أونوراى فأبصر في أحد المحازن علبة فاخرة مصنوعة من الذهب الإبريز ومرصعة بالحجارة الكريمة فابتاعها بستة عشر ألف فرنك وأوعز إلى صاحب المحزن أن يرسلها إلى التويلري ويقبض ثمنها من حاجب القنصل الأول. فدفع دوروك ثمنها ولكنه في المساء أخبر القنصل الأول بأمر العلبة المذكورة. فنوى نابوليون أن يغلظ في الكلام لأخيه المترف. وفي الغد دناه نابوليون إليه وسأله عن الداعي لمشتري تلك العلبة بذلك الثمن الباهظ. فلم يكترث جيروم لتعطيب جين أخيه وأمارات الغضب المنتشرة على محياه وأجابه من دون أن تنبض له فريضة أو تطرف له عين قائلاً ابتعتها لأني أحب كل شيء جميل.

وكانت جوزفين تسر بخفة روح جيروم وتميل إليه وتعامله بتساهل لا مزيد عليه وتأخذه في قالب الاحيان معها إلى المالميزون فيلمب في الحديقة مع هرتنس. وكثيراً ما تدعوه إلى البهو لتشاهده صديقاتها الراغبات نظيرها في مداعبة ذلك البونابرتي الصغير والمسرورات برؤيتهن إياه يستشيط غضباً من تلك المداعبة. وكان جيروم يسر بتلك الألعاب اللطيفة ويعلم أنه يروق أولئك السيدات بحركاته وسكناته وأحاديثه وترك نابوليون أخاه جيروم عند جوزفين في أثناء معركة مارنغو فقضى ذلك الحدث في المالميزون أشهر الربيع والصيف وبقي كل حياته يتذكر تلك الأيام السعيدة. واقتبس جيروم من معاشرته للجنس اللطيف لطفاً وخفة روح ورقة وظرفاً جعلته ممتازاً على أقرانه طول حياته. ولم يحسن أحد نظيره مخاطبة الغواني واستالتهن إليه وسواء تسلسلت إليه هذه الهبة بالارث أو اقتبسها في هو جوزفين يمكن القول أنه كان يفضل جميع أخوته في اصابة ميل

الجنس اللطيف اليه واستغواثهم فهو بكل معنى الكلمة زير انساء .
 وآخر استاء نابوليون من نوع معيشة أخيه المخنثة وكان ينوي أن يصير
 جيروم بحاراً وأن يركبه متن إحدى السفن مع أهير من أمراء البحر ليعوده .
 تلك الخطة الخسنة . فنبذ جيروم رغبة أخيه ورغب في أن يكون حاجباً له كما
 كان أخوه لويس وأوجين بوهرنه من قبله وكانت تتعذر مما كسبه نابوليون
 حين يقرر شيئاً من الاشياء فقال لأخيه : « أو أنت تبتغي أن تكون حاجباً لي
 يا أيها الفتى الغر فانتظر ريثما تخترق جسمك رصاصة من رصاص الاعداء . »
 وفوض أمره الى غنطوم فرافقه في سفرته البحرية الاولى .

ولم تغير هذه السفرة شيئاً من أخلاقه فكان كثيراً ما يبارز رفاقه وقد
 شاعت مبارزته لدافو الشاب : فتبارزا بالفدارات على أن يظل الواحد منهما
 يطلق غدارته بعد الآخر حتى يصيب قرنه فأصاب جيروم رصاصة في القص .
 ووجدوها فيه بعد ستين سنة عند تشريح جسمه بعد وفاته .

ويروى أيضاً عنه أنه وصل ذات يوم الى مائدة القنصل الاول وهو لابس
 حذاءه الطويل وقابض بيده على السوط عند رجوعه من التنزه . وكان نابوليون
 شديد النمسك بالمحافظة على الرسميات وآداب المجالس ففار قائمه على أخيه
 واندفع عليه بالتمنيف والتقريع . ويقول بوريان ان نابوليون مع شدة عطفه
 على أسرته وتعلقه بها وميله الى الصفيح عن هفوات اخوته كان يسمى البحار
 الشاب « المعتز الصغير » وكان جيروم شديد المعجرفة فكلمها أداروا أمامه حديث
 البحر والملاحة يظهر بمظهر دعوى منكرة وذلك لكونه ركب البحر بضعة أشهر
 فيقول جلسائه إنكم من جماعة المخفلين البله وأنتم تتوهمون أنكم تستطيعون
 الكلام عن البحر مع أنكم قضيتم حياتكم وأنتم جلوس على طنافسكم .

وركب البحر مرة ثانية فتوجه الى الانطيل ومنها الى أميركا وهناك تعرف
 بعتاة أميركية ارلندية الاصل تدعى اليصابات باترسن من بلتيمور فتعشقها
 وتزوجها من دون أن يحتمل بانذار قنصل فرنسا له . وكانت بارعة في الجمال
 حنطية اللون لطيفة الشكل خفيفة الروح رقيقة الشمور طماعه . وقالت إنها
 تؤثر أن تكون ولو يوماً واحداً زوجة شقيق القنصل الاول على كونها زوجة
 غيره مدى الحياة . وكانت واثقة بجمالها وبما لها من السلطة على عاشقها الوهاق .

بأن تظل عقيلة بونايرت . وقد تمكنت والحق يقال من التعجب اليه واستمالته .
اليها ولكنها ما لبثت أن خابت آمالها فانها عنسد شخصه الى أوروبا عرفت أن
برق هنائها خلب وأن زوجها أفلت من بين يديها : فانه لما ذهب لزيارة أخيه قال
لها انه لا يلبث أن يعود اليها ولكنه لم يعد اليها قط . فقد هدم نابوليون
صرح أمانها ولم يكن لجيروم ما لآخيه لوسيان من الجرأة الادبية . فرضي بأن
يمثل لارادة أخيه نابوليون رئيس الاسرة ويطلق امرأته . وهذه أول مرة
رأى نابوليون فيها أن أحد اخوته يذعن لمشيئته .

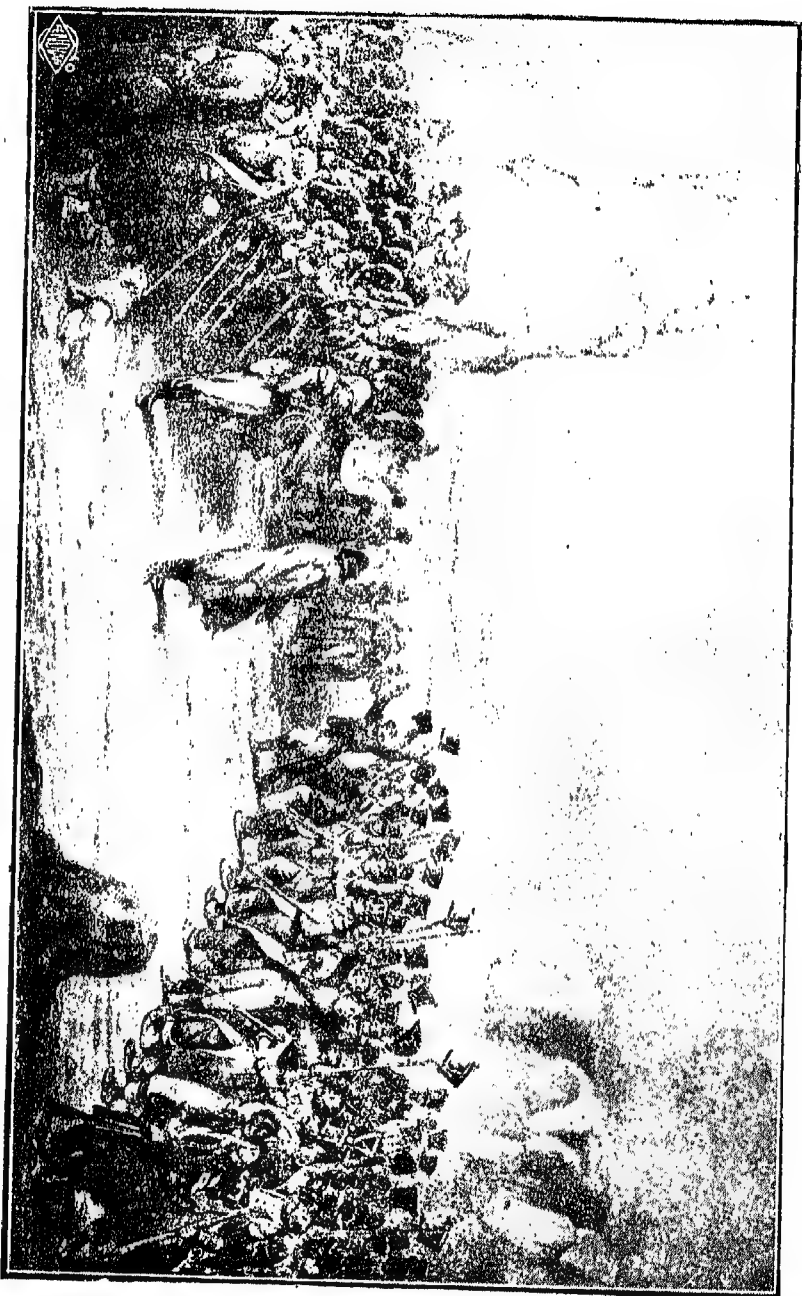
ولد جيروم بونايرت في اجاكسيو في سنة ١٧٨٤ وجعل ملكا على وستفالي
من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٣ وجعل حاكما للانفاليد في سنة ١٨٤٨ ومارشالا
في سنة ١٨٥٠ . وبعد وفاة زوجته الأولى اقترن في سنة ١٨٠٧ بالأميرة كاترين
دي رتمبرج وتوفي في سنة ١٨٦٠ في فلجنيس بولاية السين والواز . وابنته
الأميرة ماتيلد ولدت في تريستي في سنة ١٨٢٠ وتوفيت في سنة ١٩٠٤ . وابنه
الأمير نابوليون المدعو جيروم ولد في تريستي في سنة ١٨٢٢ واقترن بالأميرة
كلوتيد ابنة فكتور عمانوئيل وولد له منها في باريس في سنة ١٨٦٢ الأمير
فكتور نابوليون . على ان الفرع الأكبر من أسرة بونايرت يتألف من اختلاط
اهتاب يوسف ولوسيان شقيقه نابوليون وهذا الاختلاط تم في سنة ١٨٣٢ .
بزواج زينايد كريمة يوسف بشارل حول نجل لوسيان . وزعيم هذا الفرع هو
الكردينال لوسيان بونايرت الذي أبصر النور في سنة ١٨٢٨ . وأما الفرع
الثاني من الأسرة فانه يتسلسل من جيروم أصغر اخوة نابوليون وكان زعيم
هذا الفرع الأمير نابوليون الذي توفي في سنة ١٨٩١ .

اليزا بونا بورت

لا يخفى ان شقيقات نابوليون كن كاشقائهن خاضعات لموامل الرذيلة وشديدات التطلب ومتعبدات للملاذ . على ان اليزا كبيرتهن لم تنل من الحظ قسمة وافرة فانها كانت أقل جمالا من شقيقتها بولين وكارولين وقدرضيت بأن تزوج بضابط حامل الذكر يدعى فيلكس باتشيوتشي وهو رجل كورسيكي الأصل كان يقيم في مرسيليا في البيت الذي كانت تقيم فيه أسرة بونا بورت . وكانا عائشين في شطف المعيشة ولولا مساعدة نابوليون لهما لذاقا من الضيق أشكالا وألوانا فانه اتقدما الثلاثين الف فرنك واستحصل لختنه التقدم في سلك الجندية وظل ساهرا عليه بعين يقظي . وكان نابوليون كلما ارتقى في مدارج العلاء . وازدادت سلطته اتساعا يرقى ختنه الخامل وآخرأ نينه عضواً في مجلس الشيوخ حين أسندت اليه مقاليد القنصلية . واستصحبه معه الى مصر ثم أرسله الى كورسيكا ليتولى قيادة الجند في حصن بستيا . وبعد ذلك نقله الى سدان . ولما أرسل لوسيان سفيراً الى أسبانيا أخذ معه ختنه وجعله مستشاراً للسفارة . وعلى هذه الصورة تملصت اليزا من زوجها الذي كان يضايقها أمام أصدقاءها الذين يؤلفون عصاة من مشاهير الكتاب .

وانقضت حداتها في مدرسة سان سير فقد دخلت تلك المدرسة بمساعدة وحماية المركيز دي مربوف الذي ساعد أيضاً شقيقتها نابوليون ولويس على دخول مدرستي أوتان وبريان . ولما أقفلت مدرسة سان سير بعد خلع لويس السادس عشر عاد بها نابوليون الى أسرتها . وكان من نتيجة درستها في تلك المدرسة المشهورة ومن أحاديثها مع أخيها لوسيان الذي كانت تقدر عقله وخلقه حق قدرهما أن نشأ فيها احترام شديد لعلم الادب الفرنسي وقد عضدت ذلك العلم لما أصبحت ذات مكانة عند القنصل الاول

وكانت منفصلة دائماً على التقريب عن زوجها وقد قضت معظم حياتها في بيت لوسيان . وهي الأمرة الناهية فيه فتستقبل فيه الفلاسفة والشعراء والصناع وتكرم وفادتهم وتسرف في ملاطفتهم وتجود عليهم بالمبالغ الطائلة من المال .



رجوع الامبراطور من جزيرة الباء في ٢٦ فبراير ١٨١٥ التقى نابوليون في لافري بالجند الملكيين المرسلين للقبض عليه
فانضموا اليه وصاحوا جميعهم « ليحي الامبراطور »

مساعدة لهم . وبعد وفاة كرسنين بوياي ودخول عقيلة جوبرتو منزل لوسيان وحلوا فيها فيه حلول الفاتح المنتصر افترقت اليزا عن أخيها الذي كانت تحبه محبة شديدة وتماثلته على جميع مقاصده . وقد اتحدت معه لمناوأة جوزفين وجميع أفراد أسرة بوهرنه وفوشه المنتصر لامرأة أخيها . وبتهمها فوشه في مفكراته بأن لها اليد الكبرى في اسقاطه من منصبه بالاتفاق مع يوسف ولوسيان . وبزعم أعداؤها انها كانت قبيحة الصورة كبيرة الجنة هزيلة البدن أما أصدقاؤها فانهم لا يصفونها بالجمال ولكنهم يطرون عقلها وذكاءها ودهاءها السياسي وقوة ارادتها الثابتة . وبعضهم يقول أنها شديدة المشابهة بأخيها نابوليون والبعض الآخر يقول أنها تشبه شقيقة لوسيان على أن الحقيقة هي أن جميع البونابرتيين متشابهون في الهيئة . ويندرأ أن يرى الانسان أولاد أم واحدة يتشابهون كما يتشابه أولاد لاتيسيا بونابرت . وكانت اليزا ممراء اللون ذات شعر جميل وعينين براقيتين ووجه ترسم عليه آيات الذكاء والنجابة . على أن لايزا صورة صغيرة في فرسايل لا تنطبق كل الانطباق على وصف معاصريها لها أجل أنه لا يستدل من هذه الصورة أنها كانت جميلة ولكن الهيئة الممثلة فيها لا تدل على أنها كانت من الخاضعات لعوامل الشهوات العنيفة . التي وصفوها بها ومع ذلك كان لها عشاق كثيرون يهيمون بها ومن جملتهم هنغولو الصيرفي وفتنان الذي لم تفترق عنه قط . ولما تولت الحكم فيما بعد في تسكانيا كان من جملة عشاقها قضاة وحجاب وبعض الخدام الخالي الاصل . ولا يخلو الامر من تحامل شديد عليها في ما يتعلق بأخلاقتها التي وصفوها فيها بالفساد . بيد ان فتنان بقي دون سواه متمسكا بأسباب صداقتها ولولا تلك المرأة لضاع بين جماعة الكتاب المعاصرين له لأنه لم يكن من أصحاب الشهرة الواسعة . وقد عرف الطريق الذي ينتهجه ليصيب رضى اليزا ويستعملها اليه . فجعل عضواً في مجلس النواب ثم رئيساً للمجلس الاشتراعي وقد نال ما ناله بفضل اليزا وحماتها له وكان كل شهر يقبض ماعدا مرتبه الخاص خمسة آلاف فرنك من صندوق القنصل الاول الخاص ومرجع الفضل كله الى اليزا .

وتمكن ريناي دي شاتوبريان الشاب من الحصول على رضى اليزا بونابرت بواسطة فتنان واكتساب حمايتها فأرسلته الى رومية كاتباً للسكردينال فش سفير

الحكومة الفرنسية لدى الكرسي الرسولي . وقدمت هي الحكومة القنصلية التقرير الذي وضعه هذا الكاتب وضمنه جنوح رئيسه عن الطريقة المثلى وما كان عليه من الخفاقة المنكرة . ودفعت أجرة عربية شاتوبريان وأنقذته المبلغ اللازم لطبع مؤلفاته وأبقته في رومية مع ما كان من الحادث الذي جرى له مع عقيلة بومون التي وصفها هذا الشاعر بكونها عاشقة والهة مع أنها لم تكن على شيء مما وصفها به . وبعد ما غضب القنصل الأول على دي شاتوبريان بسبب ما كتبه عن حادثة الدوق دنغان تمكنت اليزا من تخليصه من سخط نابوليون وانتقامه .

وزعمت اليزا أنها محرزة موهبة العلوم والفنون وكانت على مثال أخيها لوسيان تمثل روايات كورنيل وفلتيير بلهجة كورسيكية جعلت أخاها نابوليون يلتقيها ويقول انه لم يسبق لأحد قبلها ان يهين اللغة الفرنسية بمثل اهانتها لها . وبقيت اليزا تبرز للناس في الهيئة الاجتماعية وتترأس الجمعيات العلمية الأدبية زاعمة أنها محامية العلوم والفنون . وقد اتحل لها شاتوبريان هذه الصفة اقارأ لها بالمعروف . وكان من وكدها ان ترتدي ملابس تحاكي الملابس التي يصورون إلهة الشعر مرتدية بها وتضع على رأسها أكليلا من الفار كالا كليل الذي يصورونه على رأس بترارك ومفرق الداني .

وقال نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة : « وكانت اليزا من حدائتها ذات أنفة واستعلاء واستقلال في الرأي . وقد ناصبت كلا منا من دون ان تلين مقادتها لاحد . وهي ذات عقل راجح وهمة لا تدنو منها الملالة » . وهي تفضل شقيقتها في تمكنها من التسلط على نفسها وكم انما يحول في خاطرها . ففي ولبة أقيمت في سان كلود بعد اعلان الامبراطورية بمضعة أيام وبعد اعطاء نابوليون كلا من ذوي قرابه اللقب الذي رآه موافقا له أبدت شقيقات العاهل الجديد استياءهن من سماعهن لقب « أميرة » يطلق على هرنس دي بوهرنه زوجة شقيقتهم لويس . أو مثل ابنة بوهرنه تستحق لقب أميرة ! . . . واليزا زوجة العضو بالشيوتشي وكارولين زوجة المارشال مورات لا يطلق عليهما لقب شريف ولا تصيبان منزلة سامية وكانت كارولين أشدهم استياء من تلك الحال . أما اليزا فانها تجلدت وأبدت الاحتقار والأنفة وأسهمت من مخاطبتها قوارص الكلام . وتقول عقيلة

دي ريموزا التي روت هذه الحادثة انه لما بلغ الأمر غايته وضاق صدر نابوليون عن سماع تلك الأحاديث قال لشقيقاته: « ان الناس والحق يقال يزعمون يا حضرة السيدات اني حرمتكم قسماً كبيراً من تركة والدنا الملك المتوفي »
وقد ولدت اليزا في أجاكسيو في سنة ١٧٧٧ واقرنت كما ذكرنا بفيلكس جاتشيوتشي الذي جعل أميراً على لوك وييمينو وتوفيت في تريستي في سنة ١٨٢٠ .

بولين بونابرت

كانت بولين بونابرت بما رزقته من جمال الصورة وطلاقة المحيا تجعل الناس يكترونها من إطالة اللسان على سيرتها وآدابها بيد انها كانت في الحين عينه تستميل اليها فريقاً كبيراً من المعجبين بنضارتها وحسن روائها . وكان لها عند البعض عذر بما نالته من الملاحاة والقسامة . ولم يرض عليها معاصروها بالمديح والاطراء وقد صنع لها كانوا تماثلاً من الرخام يعد أفضل مانحة اليد البشرية . وكانت بولين في أثناء أحداثها تفرح لاهية وتغم بالبهجة قلوب جميع الذين يبصرونها . ولم تدع الهموم والاحزان تبلغ منها بل كانت تفتن الفرصة من الحاضر وتستسلم لاهوائها من دون ان تعاكس رغبة أو تدعن لأمر . ولا تفعل إلا ما يروقها ولو كان في ذلك معارضة لمشيئة أخيها نابوليون الذي لم تنقد لرغائبه إلا حياءً له ليس إلا . وقبل أن تقيم الأسيرة بونابرت في مرسيليا عند قدومها الى فرنسا من جزيرة كورسيكا نزلت في مكان يدعى أنطيب تحيط به بساتين غناء وحدائق جميلة تكثر فيها الفواكه اللذيذة . وكثيراً ما كانت بولين تدخل تلك البساتين والحدائق لتسرق منها ثمارها . وكانت فتيات الأسرة يذهبن الى السوق لا بتبائع حاجاتها وفي أثناء الطريق يلتقيان بالفتيان الذين يدنون منهن لمغازلتهم ومداعبتهم وهذا ماجعل باراس يقول ان بنات السيدة لا تيسيا وضمن بالمزاد محاسنهن الحديثة النشأة . على ان مايرويه باراس لا يمكن اثباته لانه منقول عن خصوم نابوليون . ومع ذلك احب بولين المتفوقة على اليزا في الجمال تاجر صابون غني يدعى بيلون ولو رضيت والدها لاقرن بها وعلق بها أيضاً فرورون

المندوب من قبل الديركتوار للتوجه الى مرسيليا فهذا جعلها تتصباه وتبادل رسائل الغرام . ومع ان لغريرون ثلاثة أولاد رزقهم من راقصة من راقصات الاوبرا صمم على تذليل جميع المصاعب الحائلة دون حصوله على بولين التي خلقت له بالمقلظة على المحافظة على حبه إلا ان الجنرال بونايرت اعترض على اقترانها به فأذعنت بولين لارادة أخيها .

ورأى جميع أفراد الاسرة انه يجب تزويج تلك الفتاة فضى بها الاب فش الى ممبلو في ايطاليا وكان أخوها نابوليون يبتغي أن يزفها الى الجنرال لكرك المقيم بها على مثال جميع الذين شاهدوها وحادثوها فسكروا بسلافة كلامها . وتم عقد الزواج بسرعة . وكان نابوليون يحترم الجنرال لكرك ويقدره حق قدره وقد كتب عنه وهو في جزيرة القديسة هيلانة مبدياً فيه رأيه فوصفه بأنه من أفضل رجال الجندية وانه من رجال الادارة الممتازين ومن رجال السياسة المحنكين .

وكان الجنرال لكرك يعمل دائماً على تصير ختنه في ملابسه وحركاته وسكناته وقد كان جسمه مماثلاً لجسم نابوليون في الرقة والقامة : على ان الجنرال طيابول يقول ان نظر نابوليون الحاد لا يستطيع أحد ان يقلده فهو بمثابة سهام محجور المشوق بها بحيث لا يرى في نظر لكرك ما يرى في نظر نابوليون من القوى والكهربائية الشديدة . وأراد لكرك أيضاً ان يقتدي بالجنرال بونايرت في الكتابة ولكن فاته ان الكتابة تمثل الكاتب وهل كان لنابوليون من ند في ذلك العصر فهل رضيت بولين ان تقترن بذلك الرجل لكونه شبيهاً بأخيها نابوليون ولم تجفل من دخول مدرسة عقيلة كميان لانجاز دروسها في خلال تولي زوجها قيادة الجيوش التي وكل اليه القنصل الأول قيادتها .

ولما خرجت من المدرسة وجعلت تتردد على الاندية الباريسية شخصت اليها جميع الابصار وأكثرت القوم من التحدث عن جمالها الرائع فحسدتها الغواني . وكانوا يرصدون كل حركة من حركاتها ويرهفون آذانهم لسماع كل كلمة من كلامها وينظرون الى الملابس المرتدية بها . فقد كانت تلبس ثياباً فاخرة على زي لطيف يخالب الالباب ويزيد في بهائها القتبان . إلا ان عيباً صغيراً في جسدها أحنزها ذات يوم حزناً شديداً وتحرير الخبر انها دعيت مرة الى ليلة راقصة عند عقيلة

دي برمون وكانت لابسـة ثوباً ثميناً . فدخلت احدى الغرف لتستريح وهي تنبأهي بجملها وباعجاب الناس بها . وكانت عقيلة دي كنتاد احدى السيدات المشهورات بالتأنق في عهد الديركتوار وعهد القنصلية قد بلغت منها الغيرة فسمعت لايحاد ذريعة تتمكن بها من كبت تلك المزاحمة التي استمالت الرجال عنها اليها . فتأبطت ذراع أحد أصدقائها ودخلت معه الغرفة الجالسة فيها بولين على عرش جماها وقالت لرفيقها بصوت عال : « ياالضيعة الأمل ان هذا الجمال الفتان تشووه أذناها . » وكان لبولين أذنان قبيحتان فاستاءت كل الاستياء من تلك الملاحظة غير المنتظرة وغادرت المرقص بنفس حزينة حتى الموت وعبراتها تهاطر من محاجرها .

وكانت شديدة الاعجاب بجملها الرائع وروى أنها لما عادت من ايطاليا بعد اقترانها بالبرنس برغيزي كانت تستسلم بجملتها الى وصيفاتها ليلبسها ثيابها وتستقبل صديقاتها وهي عريانة وكثيراً ما تنهض وهي على تلك الحال وتخطو في طول الغرفة وعرضها أمام الجميع باسطة لدين محاسنها المنجوعة وكل ذلك تفعله بوقاحة ما عليها من مزيد . ويقول كنفستان انها كانت تفعل ذلك الأمر كأنها مرتدية بجميع ملابسها .

واعتربت المعيشة في باريس قبلة أمانها والتدلل غاية آمالها وقد نشبت باشرارك حب لافون الممثل المشهور في الملعب الفرنسي . ولما كان لافون يمثل دوراً مهماً في احدى الروايات في الملعب كانت بولين وكارولين شقيقتها الصغرى تشهدان التمثيل فلا ترفع عينها لحظة واحدة عن هذا الممثل المحبوب الذي تهتكت في حبه كما تهتكت من قبل بحب فريرون الأنف الذكر . والممثل في نوبته لم يشخص دوره الا اكراماً وحجاً لها ولم تفارق عينه المقصورة المقيمة فيها بولين . ولما ذاع أمر مرافقتها لزوجها الى سان دومنك قالت الأكسة دوشنوى : « ان لافون لا يطيق هذا الفراق الماؤم وقد يكون مجلبة لحقته . » ولكن لافون لم يمت من جراء الفراق وبولين في دورها لم تمت أيضاً . اذلا يخفى ان مثل هذا الغرام المبرح لا يلبث أن تحمد نيرانه المضطربة .

وأرسل نابوليون الجنرال لكرك الى تلك الجزيرة الكبيرة المرفوعة فيها ألوية العصيان طامعاً بأن ختنه المشهور بحسن ادارته ودرايته يضرب بيد من حديد على أيدي الثائرين وراغباً بأن يمهّد له السبيل لاصابة الثروة . وفي مبتدأ الأمر أبدت بولين النفور من شخصوصها الى تلك البلاد المتوحشة التي تكثر فيها الأفاعي ولا تلقى فيها الفة اجتماعية ولا سلوى ولا مراقص ولا احتفالات تبرز فيها السيدات أسرار جهلهن ودلهن . فأنذرهما أخوها بأنه يضطرهما الى السفر ولو ألجىء الى حملهما الى متن السفينة . ثم انه لجأ الى طريقة أخرى وهي أنه حرك ساكنات ميلها الى العظمة والمجد الباطل بقوله لها انها تعيش في الجزيرة كملكة كما تعيش جوزفين في باريس

ولما كانت تلك المرأة تعلم أن ارادة أخيها لامرد لها لم تجد لها بداً من الاتقياد لمشيئته وتوسلت بجميع الوسائل لاقناع بعض صديقاتها بمرافقتها الى ذلك الصقع الشاسع وفي حديث دار بين عقيلة جونو وبولين بدت جميع أطوار هذه المرأة الغريبة فان عقيلة جونو قالت لها أنها ستكون فتنة للناظرين وهي لا بسة الثياب التي تلبسها الخلاسيات . فقالت بولين : وهل تظنين أن تلك الثياب تلائمني واني أكون فيها أجمل مما أنا عليه الآن ؟ . . . وقالت عقيلة جونو : « ولا بد من أن يتصور القارىء ما بدا من عقيلة لكرك من ابتسام الثغر عند تصورها أنها ستظهر بمظهر الجبال بملابسها الجديدة وقد نسيت أنها ستنتقل الى بلاد تخشى أن يفرسها فيها السكان المولعون بأكل لحوم البشر وألحت علي في ذلك اليوم بمرافقتها الى الجزيرة البعيدة قائلة لي : وسنقيم فيها المراقص ونخرج للتنزه في الجبال الجميلة وكأنها نسيت الأفاعي والاشخاص المتوحشين . . . وقالت ان جونو يتولى قيادة حامية العاصمة التي أجعل اسمها . وسأقول لكرك أن يقيم حفلة كل يوم وسنأخذ معنا عقيلة برمون . وكانت وهي تخاطبني بمثل هذا الكلام تفرك أنفي وتجذب أذني وتضع في بعض الأحيان يدها على بطني . »

وقضت في سان دومنك عيشة تحاكي العيشة التي كانت تتصورها فبينما الجنود يقاتلون ببسالة وشجاعة ويضطرون الزوج الثائرين إلى الاذعان لسلطة فرنسا لم تفكر بولين الا بالملذات وصنع المربيات وارسالها إلى أسرتها . وظهر بفترة الداء الرهيب الشديد الفتك بالببيض في البلدان الحارة وهو داء الحمى

الصفراء فتفتشت بين الجيش الفرنسي وذهب عدد كبير منه ضحية لها . فألح لسكرك على زوجته بالعودة الى فرنسا فأبت إجابة طلبه وأبدت جرأة عظيمة قائلة له : « اني أبتى في هذا المكان أو لست شقيقة الجنرال بونايرت ؟ فليهرب من يشاء اهرب من هذا المكان أما أنا فاني أبقى فيه ولا أخاف شيئاً » وفي واقع الحال بقيت بولين في سان دومنك من دون أن تغير شيئاً من أطوار معيشتها ولم تبطل ارسال الماريات الى ذويها واقامة الحفلات الشائقة حال كون المستشفيات تغص بالجنود المصابين بالجمل . وفي آخر الأمر أصيب الجنرال لسكرك بذلك المرض وتوفي به في ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٢

وكان لمصرع الجنرال لسكرك رنة حزن شديدة عند زوجته بولين فرزحت تحت عبء الكتابة والجزع وقطعت غداً شعراً الجميل وزينت بها جثماناً بعلمها وحظته على مثال تخنيط المصريين لجثث موتاهم ووضعته في تابوت ثمين . ووضعت قلبه في حق من الرصاص ضمن حق آخر من الذهب حفرت عليه هذه الكتابة :

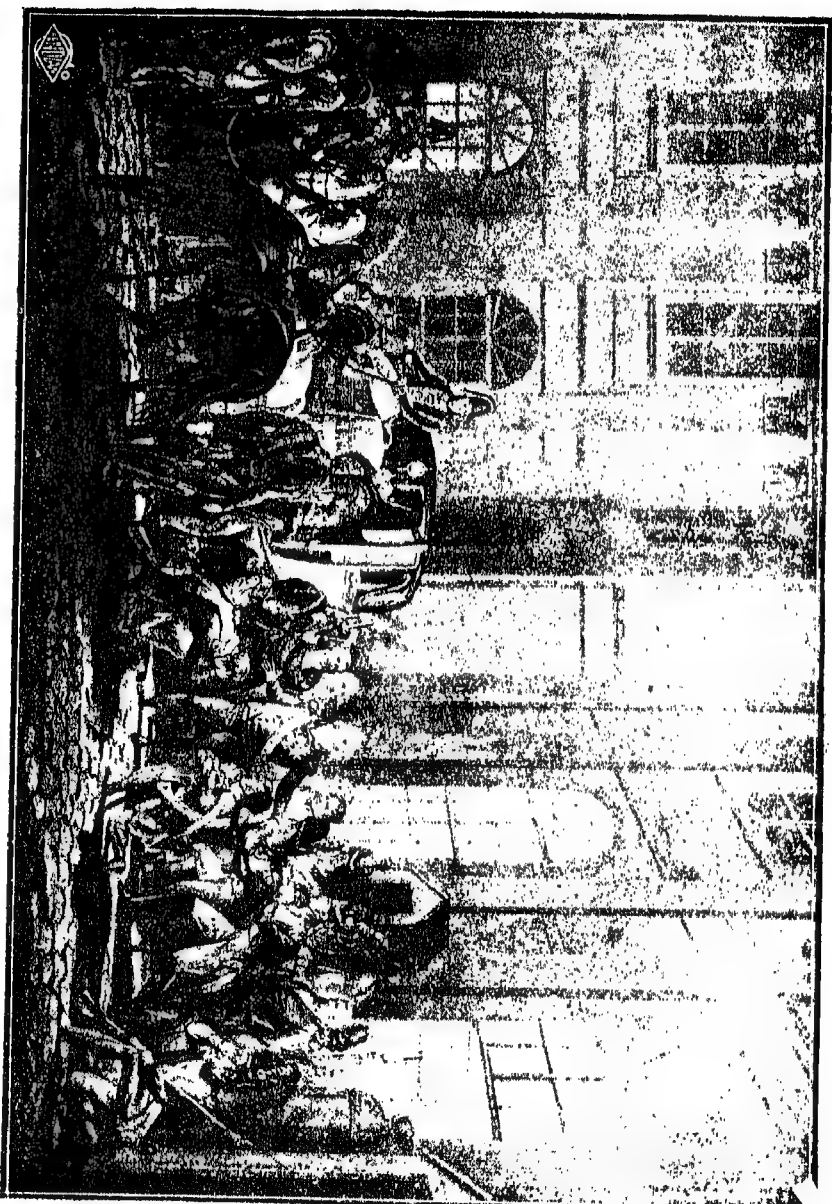
« بولين بونايرت المقرنة بالجنرال لسكرك في ٢٠ براريل من السنة الخامسة أودعت في هذا الحق حبها الى جانب قلب زوجها بعد ماشاطرته المتالف والمجد . وان لم يحزن ابنها ميراث فضائل والده العزيز فلا يظفر بميراثه المحزن . »
وأكثر من الكلام عن تهتك بولين في سان دومنك وتمسقها لقائد زنجي يدعى كرسنوف . ولما عادت الى فرنسا كانت ضئيلة الجسم منسرفة القوى لا تستطيع الوقوف الا بمسقة . فكانوا يحملونها في محفة حين تبتغي الذهاب من مكان الى آخر . وكانت مريضة إلا أن مرضها لم ينجح كما يزعمون عن ولادتها وعدم الاعتناء بصحتها على أثر الولادة وانما كان نتيجة من نتائج تهتكها وجنوحها عن الجادة المثلى .

وعادت السفينة سويفتسور ببولين وبالنمش الى فرنسا وكان السفر طويلاً وشاقاً للأيم الفتاة الراححة تحت أوقار الكتابة والنافر قلبها من تصبي الفتيان والمعرصة عن الجنرال همبرت المسافر معها في السفينة نفسها . ولما ألفت سويفتسور مراسلتها في نهر طولون كان لوريستون حاجب القنصل الأول مقبلاً فيها على حبل انتظارها . وأراد نابوليون أن يحتفي احتفاء باهراً برفات ختنه . فقلعوا النعش

من مدينة الى مدينة باحتفال عظيم ورافقته الجنود من مرحلة الى مرحلة الا أن الاحتفالات الرسمية لم تلق لها صدى في افئدة الشعب . فكانوا يبصرون الموكب المهيّب يمر من دون أن يشعروا بشيء من التأثر فقد نسوا الجنرال لكرك لأن الشؤوف العامة ومجد القنصل الاول وعقد الصالح مع بريطانيا العظمى استفرقت جميع الافكار وحولتها عن الحداد المقتصر على التظاهرات الرسمية ، ونقلت الجثة الى منغوبير على مقربة من سواسون في القصر المقيمة فيه أسرة لكرك وهو المكان الذي شيد له فيه فجا بعد ضريح نغم وبذل نابوليون جهده ليعوض عن عدم مبالاة الشعب بذلك الحادث فوضع في ردهة بقصر فنتنبلو صورة كبيرة للجنرال لكرك وفي البنطيون تمثالا له

وكان التابوت ثقيلًا جدا فأذاع أعداء بونايرت أن بولين أودعت فيه كنوزا مهمة تقدر بسبعة ملايين من الفرنسكات جاءت بها من سان دومنك . فلم تكثرت بولين لتلك الاراحيف وأقامت عند شقيقها يوسف في قصر ماربوف بشارع سانت أونوراي . وخولت الوصاية على ابنها درميد وسرت بوجودها في باريس ولا سيما حين علمت أن الثياب السوداء تلاءمها فكان لها ذلك الامر أكبر تعزية . وما عثم حزنها أن خفت وطأته عليها فأيقظت فيها حركة باريس وصدى الاخبار المختلفة هاجدات التدلل فيها وصارت تتبرم من الوحدة وضجرت من المقام عند أخيها يوسف وتأسفت على حريتها المفقودة . فأرادت أن يكون لها بيت خاص ترتبه على ذوقها . وكان على مقربة من قصر يوسف قصر للدوق دي كارست أعجبها كثيرا فابتاعته . ولم تكمد تشتره حتى بادرت الى ترتيبه فأوصت على رباش فاخر ثم أنها ابتاعت مركبة وجيادا مهطمة وصارت تقضي جميع أوقاتها في نهضة ما تريد مهيمته

وجعل نابوليون يفكر في تزويج بولين وزفها الى ملازي مدبر شؤون الجمهورية الايطالية تحت سيطرته إلا أن هذا الرجل العظيم الذي أربى على التحسين لم يوافق على رغبته . وعادت بولين الى مخالطة الالفة الاجتماعية الباريسية واللعمان بين حسانها فأكثر الناس من القيل والقال عنها وعن الكولونل دي كانونفيل الشاب الذي برّح به غرامها ودار أيضا ذكر الوزير ديكريس الذي استرقته بحاسنها . وقد أرف الحين لايحاجد قرين موافق لها ولكن كيف يتم ذلك ؟



وفاغ الملك لويس الثامن عشر لما فر من وجه نابولين عند دنوه من باريس فذهب الى ليل ومنها الى غاند للاقامة فيها
في ٢٠ مارس سنة ١٨١٥

وذاع في باريس نبأ وصول البرنس كميل برغيزي القادم من رومية وهو شاب حسن الطلعة حنطي اللون قوي البنية أسود العينين أنوف . ولاسرته مقام عال بين النبلاء الرومانيين العريقين في الشرف . ولم يكد ظله يخيم في باريس حتى خطر لصديقيه الدوق دي سنتا كروسي وانجيولينى الايطاليين المكثرين من انتياب منتديات باريس الخاصة ان يعرفاه ببولين بونابرت . واجتمع البرنس برغيزي ببولين بونابرت في منزل شقيقها يوسف في مرتعتين فوق كل منهما في قلب الآخر موقعا حسنا . وكانوا في صيف سنة ١٨٠٣ أي بعد وفاة الجنرال لكارك بمانية أشهر وأبتسعة أشهر على الكثير وبولين لاهم لها غير الاقتران بحبيبتها الجديد ، ولم يكن البرنس يعرف من اللغة الفرنسية سوى كلمات قليلة بيد أنه قدرا ان يفهم ان حبيبته تحبه وتتصباه وتميل الى الاقتران به .

ولا يخفى ان بولين اهتمت اهتماما شديدا بتهيئة ملابس العرس ولم تكن تصدق ان يتم ذلك القرائن . ولم يكن أحد من أفراد أسرة بونابرت قد ارتقى حتى ذلك العهد الى درجة من درجات النبلاء فشقيقتا بولين لم تكونا سوى سيدتين من السيدات المكرمات في باريس لكونهما شقيقتين للفنصل الأول وبهر لقب أميرة المعد لبولين أبصار جميع أفراد الأسرة البونابرتية حتى بونابرت ذاته فلم يتم أدنى نكير على ذلك الزواج .

على انه لم يكن بد من انتظار المهلة التي يقتضيها القانون ولم يكن بونابرت يتساهل بشيء من هذا القبيل . فمزأت به بولين واحتفلت بزفافها في أثناء تغيبه وكان قد ابتعد عمداً عن باريس لثلاث تحث في حضوره الحفلة المخالفة للنظام وتمت الحفلة عند يوسف بونابرت وقد نفذ صبر بولين للتردي بملايسها الجديدة الفاخرة ودفع لها خطيبها خمسة وأربعين ألف فرنك لتنفقها على الملابس وقدم لها أيضاً جواهر أسرة برغيزي لتصوغها على الذي الحديث عند أمهر الصاغة والجوهرين في باريس وقضت الخطاطات في ذلك العهد معظم أوقاتها مع الاميرة الجديدة باحثات عن الازياء الموافقة لها . ولما جاءت نوبة الرأس وغطائه وجدن عقدة يصعب حلها لأن بولين كانت قد قطعت غدائر شعرها عند وفاة زوجها الأول الجنرال لكارك على ما سبقت الاشارة اليه فاخترعوا لها طريقة جديدة على الذي اليهودي

ودفعت لأرباب تلك الصناعة ثمانى مئة فرنك لسكى يعلموا عادلا ليدة خادمتها الخاصة فن تصنيف الشعر على الزى الملائم لها .

ولما جاء الحين الموافق لاعلان الزواج شخص الزوجان الى رومية فمرجا على ليون لزيارة الكردينال فش ثم توجهوا الى فلورنسة لزيارة أصدقاء أسرة برغيزي الكثيرين واستقبلتهما أسرة برغيزي في رومية استقبالا عظيما مفتخرة بذلك القران الذي عدته جارا اليها جميع أسباب العظمة والجاه وقد شاء البابا ان يشارك الأسرة في أفراحها فاستقبل العروسين في الفاتيكان ولكن ليس في الحدائق جرياً على العادة التي يستقبل بموجبها الأسر النبيلة الرومانية بل في رده القصر الخاصة . وقد تمكنت بولين بما أوتيته من اللطف وجميل الاخلاق من استمالة بيوس السابع اليها فانصرفت هي وزوجها من عند الأب الأقدس والبشر يتدفق من جبينيهما . على ان تغيير حالة بولين بونابرت لم يرقها كثيراً فان باريس كانت دائماً منتهى رغائبها وقصوى آمانيها لوجدانها فيها كل ما تميل اليه نفسها من الازياء الجديدة والملاذ المتجددة يوماً فيوماً . ولم تلق قط مكانا يضاهي باريس في العظمة والسناء والمسرات . وخشي نابوليون من تقلب الأفكار في شقيقته فأراد ان يبتاع منها قصرها في باريس لينزع منها كل ميل الى الرجوع الى هذه المدينة الا ان بولين عينت لها في باريس قوماً على أملاكها شديد الحرص على مصلحتها فبقي القصر لها مع شدة الضغط على القيم ليبيعه . ما أشهى العودة الى باريس ! . . . فادعت ان صحتها تقتضي العودة اليها بيد ان نابوليون أجابها بواسطة الكردينال فش مشدداً النكير على حجيتها وقد كتب الى فش في هذا الصدد ما يأتي : « اذا قدمت الى باريس فلا تلقى عندي أدنى عضد وأرفض مواجعتها لاني لا أشاء ان ينشأ خلاف بيني وبين أسرة برغيزي . فيجب عليها ان تدعن لمقتضيات حظها فانه سعيد . . . » فأذعنت بولين لمشيئة أخيها وهي مكتئبة لعدم تمكنها من البروز في مننديات باريس بمظاهر العظمة فالف لقب « أميرة برغيزي » له صدى شديد في أودية القلوب ولا سيما لان أسرة برغيزي من الاسر المتناسقة في الشرف وقد خرج منها باباوات مشهورون وادعت انها منخرقة الصحة فانطلقت الى حمامات لوك وأخذت معها وصيفاتها وملابسها الفاخرة لتبهر بها عيون الاسر الايطالية النبيلة . وتركته في رومية سليلها درميد فمات في أثناء تغيبها .

وقد ذكروا حزنها الشديد على تخرم زوجها الاول الجنرال لكرك ولكن لم يذكروا شيئاً عن حزنها على وفاة نجلها . فاعتنمت الفرصة من تقطع أنفاسه المعدودة واستأذنت بالشخص الى باريس للعزاء وسميا وراء الاسباب الآيلة لتحسين صحتها فأذن لها في هذه المرة بزيارة باريس .

وكان انحراف مزاجها وهميا يراد به التخلص من الاستقبالات والزيارات الرسمية في التويلري . فكانت تقضي الوقت مضطجعة على مقعد ويحملها عبيدها بولس الزنجي على منكبيه بمقعدها الى المكان الذي يريد الذهاب اليه حتى الى حمامها . ولما كانت تذهب لزيارة شقيقها القنصل الاول لم تكن تصعد الى غرفته الا محمولة على أذرع خدامها . واذا أقيم مرقص أو احتفال يمكنها أن تظهر فيهما بجميع مجالي العظمة والبهجة برحها في الحال الالم وانحراف الصحة والضعف فتشهد المرقص مرتدية أنفرا ما عندها من الملابس وترقص الليل كله من دون أن يلم بها أدنى تعب . وبعد ما تبرز على جميع الحسان اللواتي يحسدنها على جمالها الفتان تعود الى قصرها وتنزوي فيه زاعمة أن العلة عادت الى التبرجح بها فتقيم على تلك الحال حتى تقام حفلة جديدة . هذه كانت معيشتها في عهد القنصلية فقد كانت لها السيادة في مملكة الجمال وسلطنة الازياء .

وكان الخدام والخدامات المتقضي عليهم الاعتناء بها اشقى حقاً منها بيد انهم كانوا يسرون باجراء رغائبها ، وقالت الانسة افريليون عنها انها جمعت بين الحسن والجمال والملاحة كأنها زهرة مديسي وان اللطف المحرك أوصال ذلك الجسم البديع المحاسن يفوق جماله وبضافته .

وكان نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة يشكو من اسرافها المفرط فقد وهبها أموالا وافرة واجرى عليها رزقا واسعاً وفي أواخر عهد الامبراطورية لم يبق معها شيء يذكر من تلك الاموال الطائلة لانها كانت تنفق بلا حساب . . . ولم تكن والدتها تفي عن تعنيفها على تبذيرها وتنبأت عنها بأنها ستموت في المستشفى لكن نبؤتها هذه لم تتم . وتوفيت بولين في فلورنسة في سنة ١٨٢٥ ولها من العمر ٤٥ سنة .

كارولين بونابرت

هي أصغر شقيقات نابوليون وكانوا يسمونها انونسياتا في كورسيكا . ولم تدر شيئاً من حالة الضيق الذي كانت فيه أسرته لانها كانت في ذلك العهد حديثة السن . ولما صارت تميز الخير من الشر كان شقيقها نابوليون قد أصبح صاحب الامر والنهي في فرنسا . فأدخلت مدرسة عقيلة كبان مع هرتنس بوهرنه . ولما خرجت من المدرسة أقامت في بيت أخيها يوسف حتى اقترنت بمورات وكانت تسير مع يوسف ايان سار فصحبته الى رومية والى سفارته . ثم انها صحبت أخاها نابوليون الى ميلانو فتعرف بها الجنرال مورات وطلب في الحال الاقتران بها .

ولما كانت في كورسيكا في ابان حداثتها كانوا يعتبرونها نفاية الاسرة فانها كانت بلهاء وخالية مما يدل على انها ستصيب حظاً كبيراً . الا ان هواء فرنسا وتهذيبها مع الفتيات الفرنسيات غيرها تغييراً بيناً فاعتمت أن ظهرت بمظهر الحسن والنضارة والجمال فكانت غداً شعرها الاشقر المسترسل على منكبيها تلفت اليها جميع الانظار .

ووقت ما صار نابوليون زعيم الاسرة بعد حادث برومير أراد أن يزفها الى أوجيرو أو الى مورو . وقد اعترف بذلك في جزيرة القديسة هيلانة وقال أنه لا يستصوب أبدا عقد الزواج الناجم عن الغرام لاعتقاده أن مثل هذا الزواج يكون وخيم المغبة في غالب الاحيان . ولم يبق عنده سوى هذه الشقيقة ليزوجها ولذلك احب أن يزفها الى نبيل من النبلاء او الى رجل من مشاهير الرجال لوزمه أنه لا يمضي وقت طويل حتى يتهافت الملوك والامراء على مصاهرته . الا ان كارولين عارضت على مثال اشقائها وشقيقاتها رغائب نابوليون فسات الى الاقتران بمورات واقترنت به غير مكترثة لاختها نابوليون رضي أم لم يرض وكان كل فرد من أفراد الاسرة صعب المراس لاتذعن ارادته لغير عقله . وشعر مورات المولع بكارولين أنه نال شرفاً اثيلاً باقترانه بكارولين بونابرت . وكانت ارادتها متسلطة على ارادته وقد بقيت على هذه الحال حتى دفعها مطامعها في آخر الامر الى حمله على ركوب ذلك المركب الخشن فهوى عن متنه واعتطم

اعتطاما وصير الدهر والظروف كارولين من ربات السياسة على مثال شقيقتهما
اليزا فلم تحجم عن شيء من الاشياء حتى القدر نفسه لاصابة مبتغاها بعد
صيرورها ملكة نابولي للمحافظة على مقامها العالي . وكانت نظير شقيقتيها تحب
المخفخة والبهجة والملاذ

وفي مؤتلف الامر لم يتوخ مورات وزوجته الا حشد الثروة فان زملاءه
القواد الذين واقعوا الاعداء وواثبوا الخصوم كانوا يعودون الى فرنسا ومعهم
مقادير وفيرة من الغنائم والاسلاب أما هو فانه لم يحرز شيئا مما احرزوه وآخرا
طلب من ختنه أن يفوض اليه قيادة الجيش في ايطاليا . ولما عاد من تلك الاقاليم
ابتاع في ولاية مل أرض مت سان هيراي التي كانت لامراء طور . ويبلغ ريعها
السنوي اثنين وثلاثين ألف فرنك . ورأى أنه يلزمه قصر على مثال قصور عديليه
والنسبائه فاشترى قصر طيلوسون بشارع بروفنس وهو مع ملحقاته يعتبر من
أجمل قصور باريس . وقبل ذلك كان ذاك الزوجان يقيان في قسم من التوبري
ويعيشان عيشة بسيطة . ويري الزوجان طيا بول أنه تناول الغداء في ذات يوم
عند مورات فقال ان الغداء كان لذيذا وان الصحف كانت من الخبز الفاخر
وبعد تناول الطعام وضعوا على المائدة صحيفة من الخبز الخشن فرفع
مورات غطاءها باحترام وقال : هذا المربي عقدته والذي من العنب . وكانت
والدة مورات قروية من كرسي وهي صاحبة نزل حقير . وبيناهم على المائدة جاء
المصور ايزابي ومعه صورة صغيرة صنعها لاخليل الصغير لنجل مورات ولم يكن
عمر الغلام سوى بضعة أشهر .

وتخلل حياة مورات كثير من الحوادث كما تخلل حياة معظم القواد . ويرى
ان مورات جاء الى باريس وهو حدث في خدمة نبيل من النبلاء مقيم في شارع
كومرتان ثم دخل في خدمة مطبخ الدوق دي بربون في شانتلي ويقال أنه
طرد من خدمته بسرقة ارتكبها ولما تولى مورات قيادة الجيوش في باريس بعد
جونو كان في ذات يوم يتناول الغداء عند ريكامياي فوجد الطعام لذيذا وسأل
الصيرفي عن اسم الطاهي الذي طأله . فسماه له ريكامياي فاحمر وجه مورات ولم
يفه ببنت شفة لان ذلك الطاهي كان الطاهي نفسه الذي استخدمه في شانتلي
وطرده من القصر بداعي السرقة .

وكان مورات في ذلك العهد معجبا بمهابته وهيئته العسكرية وقد زاد موقفه عجبه وخيلاءه . وبصفة كونه ختناً للقنصل الاول توهم انه لا تبلغه قوة من القوات . وأنه يستطيع حمل كل شيء . وازدادت مطامعه بما ألقته زوجته في صدره من حب العلاء والمظمة وقد حملتها أوهاهما على السعي وراء أسنى المطالب من دون ان تروى لها غلة . وكانت كارولين في فاتحة الأمر تحبه حبا شديداً وقد ساعدها من جهته على تلك المحبة زاعماً أنه ذو طلمة جميلة تستميل اليه الجنس اللطيف على ان دوقة ابرنتس تنكر تلك الدعوى الفارغة قائلة : « لأسلم أبداً بان الرجل يعد جميل الصورة لكونه كبير الجسم يرتدي بالملابس الفاخرة فورات لم يكن جميل الصورة وعندى انه متى عري من شعره المصنف وملأه المشاة بالذهب والفضة يبين قبيح المنظر فوجهه يشبه وجه الزنجي بتقاطيعه وان لم يكن افطس الانف وانما كانت شفتاه غليظتين . »

وكانت زوجته ذات صورة نحيفة التقاطيع تقرب من شقيقتها بولين بيد أن جسمها ادق من جسم شقيقتها وهو يقرب من جسم شقيقتها نابوليون . وهي على مثال شقيقتها بولين لا تخلو اخلاقها من الانتقاد وقد اتهمت بان لها علاقات غرامية بدي فلاهو الشاب ولما صارت ملسكة نابولي تعشت البراس . دي مترنيخ .

وكان منذ حداثتها بينها وبين بولين تنافس وتخاصم فكانت كل منهما تحسد . الاخرى على جمالها وارتقاءها في سام المعالي وقد صارت بولين أميرة قبل ما اصابت كارولين ادني لقب سام . وكانت بولين عند مخاطبتها لشقيقتها تغلظ لها في الكلام مطلقة عليها اسم فلاحه ولكن لم يطل وقت اجتماعهما فان بولين في سان دومنك وفي ايطاليا لم تتسن لها معاشره اختها لتداوم انتقادها . اما كارولين فانها كانت تستقبل ضيوفها على الرحب والسعة في قصر طيلوسون . ولم تكن في عهد القنصلية الا في فاتحة حياتها العامة فكانت تقضي وقتها في اجتناء الملاذ من روضة المسرات . ولم تنم باسرار مطامعها الا في عهد الامبراطورية فانها ما زالت بما رزقته من الجراة تدفع زوجها حتى أوصلته الى التربع على عرش نابولي .

ويؤخذ من رواية اللورد رزبري ان كارولين بعد مصرع زوجها بخمسة عشر

شهرآ تزوجت في فينا ، ولما انتهى ذلك النبأ الى نابوليون وهوفي جزيرة القديسة هيلانة فار فائره وصاح قائلاً : « ان هذا الامر لمن أعجب الامور التي مرت علي . ما أغرب اطوار البشر ! فالحب كان المحرك لمعاطف هذه الخبيثة في جميع ادوار حياتها . »

ولدت كارولين بوناپرت في اجا كسيو سنة ١٧٨٢ واقترنت ببواكيم مورات في سنة ١٨٠٠ وارتقت الى درجة غرندوقة برغ وكليف ثم صارت ملكة على نابولي وتوفيت في فلورنسة في سنة ١٨٣٩ .

الامبراطورة جوزفين

لما اسندت قيادة الجيش الداخلي الى بوناپرت جاءه فتى لايتجاوز الرابعة عشرة من العمر الى بيته بشارع الكابوسين في ١٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٥ وكان ذلك الفتى يدعى اوجين دي بوهرنه فان والده الفيكونت الاسكندر دي بوهرنه كان قائداً اكبر لاحد الفيالق وقد قضى على النطع . وطلب الفتى من قائد الجيش الداخلي ان يرد اليه والى والدته سيف والده الذي ضبطوه في اثناء التفتيش في منزلهم . فراقت بوناپرت طلعة الفتى البسيطة الدالة على الانفة وأمر في الحال بارجاع سيف الجنرال دي بوهرنه الى محله .

ولما كان من الغد جاءت أيم دي بوهرنه لتقديم الشكر للجنرال بوناپرت وكانت أول مرة وقعت عليها عينه فخلبت لساعتها لبه بحساسنها ولم يكن لها من العمر الا اثنتان وثلاثون سنة . وكانت ذات قامة هيفاء يترقرق ماء اللطف على عيهاها . وكان لها صوت رخيم وعينان خلابتان وهي تنهادى في مشيها . وكان الجنرال بوناپرت أصغر منها بست سنوات لانه لم يكن قد اربى بعد على السادسة والعشرين من عمره . ولم يكن قد أتيج له حتى ذلك الحين ان يفازل الجنس اللطيف او يداعبه بل كان يقضي معظم وقته مع الجنود . وهو الآن يرى في بيته امرأة وهي ايم نبيل من النبلاء يفيض الحسن من وجهها الوضاح . ومعلوم ان اطلاع هذه الزائرة عليه كان طبيعياً وبسيطاً فانها قدمت لشكر له ارجاع سيف زوجها المقتول ولكنه لم يسمعه كتمان دهشه من مسعى تلك المرأة لانه لم يكن متعوداً معاشره الحسان والغواني فكان لهذه الزيارة وقع شديد عليه .

ورد الجنرال بونا بورت الزيارة لأيم دي بوهرنه وكانت تقيم في بيت بشارع
شنترين وهو الشارع المسمى اليوم باسم « شارع النصر » في المحل الموضوع
عليه الآن عدد ٦٠

وما لبث بونا بورت ان صار يكثر من التردد على ذلك المنزل مدفوعاً اليه
بمحاسن صاحبتة وكان يلتقي ايضاً بتلك الصديقة الحسنة عند عقيلة تاليان وكان
يختلف الى دارها كثيرون من رجال الديركتوار وكان المجتمعون عندها يجرعون
كؤوس المسرات مترعة الى اصبارها وينفقون الاموال بسخاء وعن سمة
ولا يبالون ببعض مسائل تتعلق بالآداب والازياء الخارجية لان باراس المقدم
بينهم لم يكن معتصماً باهذاب تلك الامور وكان له من العمر اربعون سنة .
ولا يخفى ان حياة جوزفين لم تكن تنطوي على اسرار كثيرة فان ماري
جوزف روز المدعوة جوزفين كانت كريمة يوسف تاشر دي لا باجري وكان
اسم والدتها روز كلير دي فرجاي دي سانوى من اسرتين اتحدتا جزر الانثيل
محللاً لاقامتهما من صدر القرن الثامن عشر . وقد ولدت جوزفين في جزيرة
المرتينيك في ٢٣ يونيو سنة ١٧٦٣ ولم تتلق الا مبادئ التعليم في دير بمدينة
« فور دي فرانس » حاضرة الجزيرة وجاؤوا بها الى فرلسا فاقرنت في سنة ١٧٧٩
بالفيكونت الاسكندر دي بوهرنه نجل احد حكام المرتينيك السابقين وكانت
قد طوت من عمرها ست عشرة سنة ونصف سنة وكان قد مضى من عمر زوجها
تسع عشرة سنة . فولدت غلاماً في شهر سبتمبر سنة ١٧٨١ ممتة اوجين وولدت
ابنة في شهر ابريل سنة ١٧٨٣ دعته هورتنس . واهملها زوجها ومال الى الغواني
في اندية باريس وهي في نوبتها جارت الهيئة الاجتماعية الباريسية في ذلك
العهد وقد قال تاليران في هذا الصدد . « من لم يعش قبل سنة ١٧٨٩ لم يعرف
معنى لذة الحياة . »

وأفضى الامر بالفيكونت دي بوهرنه وزوجته جوزفين الى الافتراق في
سنة ١٧٨٤ بعد دعوى ظهر فيها خطأ الزوج فبرحت جوزفين دير بنتيمون في
شارع غريندل وكانت النساء يأوين اليه ومادت الى المرتينيك . وكان ان الاضطراب
الذي نشأ عن الفتنة الكبرى اتصل الى تلك الجزيرة فعادت جوزفين الى باريس
في أواخر سنة ١٧٩١ وقد زعم بعضهم ان الزوجين تصالحا ولكن ليس من



تمثال نابليون الذي نصب في سنة ١٨٣٣
فوق العمود الكبير في ميدان فندوم بباريس

دليل يؤيد هذا الزعم وكل ما عرف عنهما انهما بقيا مفترقين وقد ارتقى الزوج في مدارج المناصب وانتخب عضواً في مجلس النواب وانتخب مرتين رئيساً للجمعية الدستورية ثم أسندت اليه القيادة العامة لجيش الرين . ولما جاء زمان الرعب فقد حرته وحياته وألقت جوزفين نفسها في السجن في ٢١ ابريل سنة ١٧٩٤ . وأصبحت ابناً في ٢٣ يوليو من السنة عينها وكانت تتوقع صعودها الى المقصلة ولكن جاء يوم ترميدور وأخلي سبيلها .

وتعرفت في ذلك الحين بتريزا كاباروس وهي مطلقة وفي العشرين من عمرها وقد تزوجت بتاليان فتوقفت بينهما عرى صداقة متينة .

وهل كانت جوزفين تشعر بضيق مالي حين كانت تتردد الى منزل تاليان وباراس وتسرق العقول بلطفها ومحاسنها ؟ ان جوزفين كانت ذات ثروة طائلة فقد كان دخلها السنوي نحو ٢٥ الف جنيه ولكن كانت هذه الثروة عقارات في الميرتنيك ولم يكن دخلها في ذلك العهد مضموناً . وكانت ميالة الى التزين بالملابس الفاخرة والظهور بمظهر التبرج ولم تكن تحسن انفاق الاموال في وجوهها وكانت في سنة ١٧٩٥ تقيم في منزل في كرواسي بجوار سان جرمان وتعرف بها فيه المستشار باسكيه واليك ما كتبه عنها : « وكانت عقيلة دي بوهرنه جارتنا ولم نكن نعرف ثروتها فبيتها كان ملاصقاً لبيتنا ولم تكن تأتي اليه الا مرة واحدة في الاسبوع لتستقبل باراس ورفاقه الكثيرين فكنا نشاهد من الصباح يأتون بسلال الطعام والشراب وكنا نبصر بعد ذلك فرساناً قادمين في الطريق المؤدي من نانتر الى كرواسي لان باراس كان يأتي في غالب الاحيان راكباً جواده . وكان ظاهر منزل عقيلة دي بوهرنه يدل على الفخفة ولكن كان بازاء الاشياء الزائدة كثير من الاشياء الضرورية ناقصة فكانت لحوم الطير ولحوم الصيد والنثار النادرة تملأ المطبخ ولكن لم يكن عندهم ما يكفي من القودر والاقداح والصحاف فكانوا يستعيرونها من عندنا . »

ووضعت جوزفين ولديها في مدرسة داخلية بسان جرمان فأدخلت أوجين مدرسة بتريك مك درمت الارلندي وهورتنس مدرسة عقيلة كمان في طرف المدينة عند مدخل الغابة . واضطرت الى استدانة مبالغ كبيرة من المال لتتمكن من المشاركة على نوع المعيشة الذي اختارته . وكانوا يقولون ان باراس كان يريد

لها الخير على ان الحقيقة هي انها أصابت من الدير كتوار نعمة غريبة فقد طلبت تعويضاً عن المركبة والخيول التي كانت لزوجها وضبطها ممثلو الكنفنسيون في سنة ١٧٩٣ من جيش الرين فساعدوها باراس على الحصول على جوادين مطهين ومركبة من جياذ ومركبات اسطبلات الملك الخليلع وقد توجه الجنرال بونايرت في ليلة عرسه الى المنزل الصغير في شارع شنترين بهذه المركبة المهداة من باراس. وكانت ايم بوهرنه تعتبر زوجها ضرورياً لصيانة موقفها في الهيئمة الاجتماعية ولما شاهدت همك ذلك الظافر في فنديميار بها أدركت انه لا يمضي عليها وقت طويل حتى تغبر اعماها . إلا ان ما كان عند بونايرت نتيجة غرام متيم ومبرح كان عند تلك المرأة المتسلطة على ارادتها نتيجة حسبان دقيق طويل فكتبت الى بونايرت في ذات يوم : « ما بالك لا تجيء لمشاهدة صديقة تحبك فقد أعرضت عنها وانك وايم الحق أخطأت لأنها شديدة التعلق بك فتعال غداً السبت لتتغدى معي وإني أبتغي أن أشاهدك وأخاطبك في ما يتعلق بمصلحتك . »

وأسرت في الوقت عينه الى احدى صديقاتها أموراً تتعلق بحالتها الروحية: « لقد أبصرت الجنرال بونايرت عندي وهو يرغب في أن يكون أباً ليتميحي الاسكندر دي بوهرنه وزوجاً لايمة وقد تسأليني قائلة : وهل تحبينه . فأجيبك لا . وقد تقولين وهل تشعرين بنفور منه . فأجيبك لا . لكنني أجد نفسي في حالة فتور لا تروفي ويعتبرها المتدينون حالة مزعجة . ويؤكد لي باراس بأنني إذا اقترنت بالجنرال بونايرت يسعى لأن يجعله ينال القيادة الكبرى لجيش ايطاليا . ولما كان بونايرت يحدثني أمس عن هذه النعمة الموعود بها والمثيرة عليه سخط رفاقه في الجندية مع كونه لم يحصل عليها بعد قال لي : « وهل يظنون اني محتاج الى حماية لأصيب تلك القيادة وسيمعدون أنفسهم سعداء في المستقبل عند منحني اياهم تلك الحماية . ان حسامي على جنبي وأستطيع الوصول به الى غاية بعيدة » فإذا تقولين في تأكيده بأنه يحرز التقدم ؟ لا أدري شيئاً من ذلك إلا انني لا أتمالك نفسي في بعض الاحيان عن تصديق مثل تلك الثقة الغريبة بنفسه بحيث اني أعتقد امكان حدوث كل ما يدور في خلد هذا الرجل الغريب ومن يستطيع ان يحسب ما يباشره هذا الانسان في تصوره »

وكان كاتب العدل الموكولة اليه اعمالها يشير عليها بالآ تقترن بذلك الشاب

الذي لم يكن يملك شيئاً من حطام الدنيا . ونظم صك الزواج في ٨ مارس سنة ١٧٩٦ وصرح العريس بأنه لا يملك شيئاً من ثابت او منقول ما عدا ملابسه الموضوعة في خزانته وسلاحه ولكنه خصص معاشاً سنوياً للعروس قدره الف وخمس مئة فرنك وتم عقد الزواج في الغدائي في ٩ مارس امام شيخ المحلة بشارع انتان وكان شاهدا العريس باراس وتالياً وشاهدا العروس ليماروى حاجب الجنرال وكلماي مستودع سر جوزفين . وكان قد عين موعد الاجتماع في الساعة الثامنة مساء فاجتمع الجميع ماعدا بونايرت ولم يقدم الا بعد الساعة العاشرة ولما وصل قال : ارجو منك يا حضرة الشيخ ان تعجل في عقد قراننا . وصرح بونايرت في صك الزواج بأنه ولد في ٥ فبراير سنة ١٧٦٨ وصرحت جوزفين بأنها ولدت في سنة ١٧٦٧ فالاول زاد على عمره سنة ونصف سنة والثانية حذفت من عمرها اربع سنوات بحيث لم يبق فرق في العمر بينهما الا ستة اشهر .

وذهبت جوزفين بزوجها في غد اليوم الذي تم فيه عقد الزواج الى سان جرمان لمشاهدة ولديها فهورنتس التي كان لها من العمر نحو ثلاث عشرة سنة كانت تستحي وكانت قد شاهدت عمها قبل ذلك الحين في عشاء عند باراس كانت قد ذهبت مع امها اليه وجلست الى جانب الجنرال . وقد اسرت الى رفيقاتها في المدرسة انها تشعر بانقباض في صدرها لان امها موشكة ان تقترن بالجنرال بونايرت وهي تشعر بان الخوف يدخل عليها كلما ابصرته وتحشى من معاملته لها ولشقيقها اوجين بالعنف والقسوة . الا ان الجنرال الذي لم يكن قد مضى على قرانه اربع وعشرون ساعة ابدى لهورنتس لطفاً شديداً واثى على الطالبات ومعلمتهن ثناء طيباً وقال لمعلمته كيبان : « سأكل اليك تثقيف شقيقتي الصغيرة كارولين فابذل جهدي لتصيرها عالمة نظير هورنتس العزيزة : » قال هذا الكلام وضغط باصبعيه على طرف اذن هورنتس .

ولم يطل بونايرت المقام في سان جرمان لانه كان مقضياً عليه ان يعد أهبة السفر . وكان في ٢ مارس أي قبل زواجه بسبعة أيام قد ممي قائداً عاماً لجيش ايطاليا وكان لباراس يد في تقليده تلك القيادة ودارت على الالسنه في ذلك الحين هذه العبارة وهي « ان هذه القيادة بائنة أيم بوهرنه » وركب بونايرت مركبة انطلق بها الى ايطاليا في ١١ مارس أي بعد ثمانية

وأربعين ساعة انقضت على حفلة شارع انتان وكان ذلك فأتحة تسع عشرة سنة قضاها هذا الرجل العظيم في المجد والتنقل من مكان الى آخر في أوروبا .

وما كان أشد ما أثرت فيه تلك المرأة التي لم يقض معها الا ساعات قليلة فكان في كل مرحلة يجتازها يخط لها كتاباً يفيض غراماً مبرحاً لم يسبق لعاشر ولها ان خط مثله لحبيبتة فأرسل اليها الكتاب الآتي من شانسو في ١٤ مارس : « كل دقيقة تبعدني عنك . أيتها الحبيبة المعبودة تجعلني أشعر بأن عزيزني نهي عن حمل أعباء نواك فأنت موضوع افتكاري الدائم وكلما أغرق فكري في ما تفعله الآن تضعف فان أنا رأيتك كثيرة تصدع فؤادي واشتدت كما تبني وان رأيتك مبتهجة الفؤاد تلهين مع أصدقائك أنحيت عليك بالتعنيف لكونك نسيت فراقنا من ثلاثة أيام فأنت ترين انه يصعب ارضاءني . »

وكتب اليها في ٤ ابريل من بورتو موريزيو قبل ان يصل الى سافونا : « يا عزيزتي جوزفين الوحيدة اني اذا ما ابتعدت عنك أرى العالم مقفراً وأراني منفرداً فيه فقد سلبتني أكثر من نفسي فأنت الغاية المحصورة فيها جميع أفكاري في هذه الحياة . . . فبأي حيلة تمكنت من أسر عواطفني جميعها وحصر جميع كياني الأدبي فيك . ان تاريخ حياتي هو المعيشة لاجل جوزفين . . . »

ووجه رسالة الى كارنو في ٩ مايو سنة ١٧٩٦ من بلازاكس بعد عبوره البو تطرق فيها الى الكلام عن زوجته فقال له « اوصيك بها خيراً فهي صادقة الوطنية واحبها حباً يقرب من الجنون » وداخلته عواطف قاق كسفت باله وكادت تقضي على حبه الشديد فكتب الى جوزفين في هذا الصدد ما يأتي : « يا زوجتي المحبوبة اني اجهل ما تحبته لي الاقدار واذا قضت علي هذه الاقدار بالبقاء بعيداً عنك مدة طويلة رزحت تحت اعباء القنوط لان شجاعتي لاتصل الى هذا الحد فان تصوري بانه يحتمل ان تكون عزيزتي جوزفين مريضة أو انه ربما تكون محبتها لي قد ضعفت تكسف بالي وتجمد الدم في عروقي وتصيرني كثيراً خائراً القوي ونضن علي بأن أستطيع ابداء السخط أو الشعور باليأس . فلأن أموت محروماً حبك أشد من عذاب الجحيم وهو صورة شديد الوضوح تدل على الانحطاط التام فكانني اشعر بأنني اكاد اختنق . فيا ايها الرفيقة الوحيدة التي قبض لك الحظ بان ترافقيني في سفر الحياة الشاق اعلمي ان اليوم الذي افقد فيه

قلبك أعتبره يوماً تخلو فيه الطبيعة في نظري من الحرارة والحياة .
ومزق بونابرت شمل جيوش كولي وبوليو وقبل أن يوقع صك هدنة
شيراسكو رغب في أن تأتي جوزفين الى مشاهدته فكتب اليها ما يأتي :
« انقضت أيام ولم تكتبي لي شيئاً فماذا تفعلين ؟ أو لا تريدن المجيء الي ؟
ستأتين الى هنا لموافاتي لتكوفي قربية مني وتمكيني على صدري وتلقي ذلك بين
ذراعي . فأتخذي لك أجنحة وطيري الي » . ولم تكن تفهم شيئاً من معنى ذلك
الغرام المبرح المحاكى للحجم المصهور فان تخننهما واسترخاهما ولطفها واسلاس
قيادها لدواعي الحياة الهنيئة لم تكن لتتنطبق على ذلك الهيام المتيم . وكان ان
مورات الذي قدم الى باريس حاملاً أسلاب منتنوت ولودي الى الديركتوار
دفع الى عقيلة بونابرت كتاباً من زوجها . وقد قال أحد المعاصرين في هذا
الصدد : ان هذا الكتاب الذي أطلعتهني عليه كان منسوجاً على منوال سائر
الكتب التي وجهها اليها بعد انطلاقه أي انه كان يحتوي على عبارات تشف
عن غرام شديد . وكانت جوزفين تسر بتلك العواطف وان لم تكن تخلو من
الغيرة وكان في لا أزال أسمعها تقرأ بعض عبارات يقول لها فيها زوجها وهو
يعالج اقضاء أفكار تزعجه : « واذا صح ذلك فخافي مدية عطيل » وكان في
أيضاً أسمعها تقول : ما أبرد بونابرت ! وكيفما كان الامر فقد كانت لهجة هذا
الكتاب شديدة لا تحتل الرد فلم تلق بدأ من الرحيل مع انه كان يشق عليها
كثيراً مغادرة باريس والابتعاد عن منزلها بشارع شننرين والافتراق عن
قصر الكسمبور ورده الديركتوار .

غيره بونابرت — وشخصت جوزفين الى ايطاليا ولكنها لم تكن على اتفاق
ووثام مع زوجها فكتبت الي حمها تقول لها : « ان المسيو سربلوفي يبسط لك
كيف استقبلوني في ايطاليا وكيف احتفوا بي في كل مكان خيم فيه ظلي وقد
أقام لي جميع الامراء في ايطاليا حفلات شائعة ولم يتأخر غرندوق تسكانيا شقيق
امبراطور النمسا عن الاحتفاء بي ومع ذلك أؤثر أن أكون خاملة الذكر في
فرنسا على جميع هذه المجالي الاكرامية التي يبدونها لي . . . فقد تولتني
للسامة . . . »

وكان بونايرت يتمذب عند رؤيته زوجته غير مبالية بتلك المظاهر وهو لم يكن يني عن اظهار شدة الحب لها فكان يقول لها : « ان كتبك باردة اللهجة كالكتب التي تخطها امرأة لها من العمر خمسون سنة أو امرأة مضى على زواجها خمس عشرة سنة فالقارئ يرى فيها صداقة وعواطف باردة وهي تدل على لؤم وخساسة . ولم تدخري شيئاً من شأنه أن يجعلني كثير التذمر والشكوى فهل نصبت موارد حبك لي . لقد قضى الامر . وهل تبتغين أن تعالينني بالقلبي . اني أتمنى ذلك فمكل شيء يحقر منزلة الانسان ما عدا البغض ولكن عدم الا كثرات والظهور بمظهر البرودة . . . »

وكانت الغيرة تنهش فؤاد بونايرت نهشاً يطبع فيه آثاراً لا تمحى . وحدث في ذات يوم في سنة ١٧٩٨ حين كان في مصر قبالة العريش انه كان يروح النفس متنزهاً وكان معه جونو فبلغه أخباراً مزعجة عن جوزفين وأخبره ان هذه الاخبار جاءت في رسائل خاصة وانتشرت بين الجيش فكان بونايرت يصغي اليه وعقله مشرد وعيناه زائغتان ثم ذهب الى بوريان وقال له : « انك غير مخلص لي . . . تباً للنساء . . . يا جوزفين . . . لو كنت صادق الود لأخبرتني بكل ما أخبرتني به جونو فهو صديق وفي . . . يا جوزفين . . . أنا بعيد عنها ست مئة فرسخ . . . فقد كان الواجب عليك أن تخبرني . . . يا جوزفين . . . لقد خدتني . . . الويل لك ولمن شاطرك هذه الخيانة . . . سأنتقم من جميع أولئك الشبان وأعفي آثارهم . . . أما هي فليس لديها سوى الطلاق . نعم الطلاق . الطلاق بشكل جهاري يكون عبرة رادعة ويجب عليّ الآن أن أكتب لأنني مطلع على كل شيء . . . فأنت مخطيء يا بوريان وقد كان من المقضي عليك أن توقفي على كل شيء » .

وكانت نار الغيرة تتأكله بحيث لم يسهه أن يخفي ذلك عن أوجين بوهرنه فجعل جوزفين وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة وقد اتخذها حاجباً خاصاً له . وقال أوجين في هذا المهدد : « تمود أن يفضي اليّ في المساء بشكواه ويستودعني أسراره وهو يتمشى في خيمته وكنت أستطيع من دون سواي أن أنكلم معه بحرية فمالجت أن أسكن جأشه بما حضرنني من كلام التسكين وبما أستطيعه وأنا في تلك السن مع احترامي له » .

تصالح الزوجين — ولما عاد بونايرت فجأة الى باريس في ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٩ لم يجد جوزفين في منزلها بإشارع النصر فانها كانت قد ذهبت لملاقاته بطريق برغونية ولكنها لم تلتق به لانه مر بنيفير فعادت على جناح السرعة الى باريس وكان التقاؤهما الاول في غاية البرودة ولكن بونايرت ما علم أن فتن بحاسن تلك المرأة التي سحرته وكانت بما لها من العلاقات في الهيئة الاجتماعية وبخبرتها في ادارة شؤون المنزل لازمة له ليمثل دوراً مزدوجاً : دور المتآمر الذي يدير حركة لقلب الحكومة ودور المنتصر الذي يتغني استمالة الناس اليه وتأليف دار يلتف حوله فيها كراء القوم .

وكان عهد القنصلية سعيداً على جوزفين فكانت في التويلري ولا سيما في الملبزون قد أصبحت كالمسكة وكان سؤدها يزيد يوماً بعد يوم وانتهى بها الامر الى ان أصابت من زوجها عربون مودة كانت تعلق عليها أهمية عظمى .

واحتفل الكردينال فش خال الامبراطور في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ في قصر التويلري بزواج نابوليون وجوزفين الدني واشتركت جوزفين في ٢ ديسمبر بحفلة التتويج فمصعب نابوليون بيده حينئذ بالتاج في حفلة لم يسبق لها نظير وكانت قد أصبحت زوجته الشرعية أمام الحق سبحانه وتعالى وصارت امبراطورة واعترف لها بهذه الصفة البابا والملوك والشعب .

جوزفين امبراطورة — اذا أرسلنا الكلام عن جوزفين وهي امبراطورة لم نجد على أعمالها أدنى غبار من الجهة السياسية فلم تكن تطمع بأن يكون لها تأثير وكلمة مسموعة في الدولة وهب دار في خلدها هذا الامر فان ارازه الى حين العمل كان متمذراً عليها ولذلك بقيت عائشة في عهد الامبراطورية كما كانت عائشة في عهد القنصلية فانها اشتهرت بجودة القلب ورقة المواطن والميل الى مؤساة المساكين فاستخدمت تفوق مركزها لاغاثة الملهوفين ودفع عوادي الدهر عن المظلومين . فكم من محكوم عليه بالنفي عملت على محو اسمه من جدول المنفيين وأعادت اليه أمواله المحجوزة .

وبقيت جوزفين حافظة لنضارتها ومحاسنها الفتانة بعد تجاوزها الاربعين من عمرها فكان منظرها يخالب الالباب وكان فيها صغيراً وكانت تعلم كيف تخفي بعض أسنانها القبيحة . وكان لونها مائلاً قليلاً الى السمرة بيد انها كانت

تبرج وتختضب وكانت ممشوقة القامة ناعمة الخدين لدنة الانامل تقفن الناظرين بمشيئها ويمكن القول بالاجمال انها احرزت جميع المحاسن التي خلقتها ريشة برودون . فكانت تمدو للانظار وتسحر الالباب وتدعو الناس الى الاعجاب بها وهي جالسة للتأمل على الصخور في غابة المالميزون . وقد لبست ثوباً أبيض يحسر عن كتفيها وذراعيها وقد وشي بالذهب وألقت على منكبيها رداء أحمر التفت بأطرافه .

اسراف جوزفين — وكانت جوزفين مستعبدة لميل تعدت فيه الحدود وهو حب التأنق في الملبس والتزين فكانت تنفق على ذلك مبالغ طائلة من المال ويروي بوريان حوادث شتى من هذا القبيل اسرها اليه الامبراطور عن الامبراطورة في شهر مارس سنة ١٨٠٥ فقال له « اذهب اليها وحاول أن تقنعها بالمدول عن نفقاتها الباهظة فكل يوم اطلع على شيء جديد في هذا الشأن وهذا يزعجني كثيراً . وحين اكلمها عنه يفور فأتري فتبكي فاصفح عنها واصبح فتعدي بالافلاخ عن ذلك ولكنها لا تلبث أن تعود اليه في الغد فنعود الى المعاتبة والتقريع . » فذهب بوريان الى الامبراطورة ونقل اليها كلام الامبراطور فقالت له ببساطة مؤثرة : ماذا تريد أن أفعل وهم يأتونني بأشياء جميلة فلست مخطئة في ذلك ولا سبياً بعد أن يعرضوها علي ويبالغوا في وصفها فاشترىها وهم لا يطلبون مني دفع ثمنها في الحال ولكنهم يعودون الى طلب ثمنها حين لا يكون معي نقود فيتصل خبرها به فيستشيط غضبا وحين يكون معي مال يا بوريان تعرف كيف أنفقه فان القسم الأكبر منه يبذل على المساكين الذين يطلبون رفاة فسأجتهد من الآن فصاعداً بأن أقتصد . قل له ذلك حين تبصره . »

ولم يكن تعنيف نابوليون لجوزفين على نفقاتها الجنونية بلا أساس فلم تكن تحجم عن اقتناء أي شيء ترغب في اقتنائه مهما كان ثمنه كبيراً فقد انتهى اليها في عهد القنصلية ان عند أحدهم عقداً من اللؤلؤ كان للملكة ماري انطوانت يبلغ عنه ٢٥٠ الف فرنك فتمكنت من الحصول على هذا المبلغ بمساعدة برتيه وزير الحرب عند تصفية حسابات مستشفيات ايطاليا ولكن كيف السبيل للباس العقد ونابوليون لم يكن قد عرف شيئاً من أمره وصممت أن تلبسه في ليلة ساهرة فقال لها بونايرت ما هذا الذي في عنقك ما أجلك اليوم ما هذه اللآلئ

فاني لم أبصرها عندك قبلا . فقالت له : بلى أبصرته أكثر من عشر مرات فهذا هو العقيد الذي أهدتني اياه جمهورية ما وراء الالب وكنت أضع اللاك في شعري . . . فقال : ولكن يظهر لي . . . فقالت : اذا لم تصدقني فاسأل بوريان يصدقك الخبر . فقال : وماذا تقول يا بوريان في هذا فهل تذكره . فقال نعم يا حضرة الجنرال اذكر اني رأيته قبلا . ولم يكذب بوريان في قوله هذا لان جوزفين كانت قد أرته العقيد وهيأته لهذه الكذبة .

وكانت شديدة الولوع بالاردية الفاخرة فكان في خزائن ملابسها نحو أربع مئة منها وكانت تصنع منها فساتين وأغطية لسريرها ووسادات لكرسيها وكانت تشتري من الاردية كل ما تمر عليه بلا مساومة فكان ذلك يجبرها الى نفقات باهظة ولما كانت شؤنها غير منظمة كانت أثمان الاردية تبقى في غالب الاحيان غير مدفوعة . ولما كان نابوليون في جزيرة البا وكانت جوزفين قد ماتت جاؤوه من جميع أنحاء ايطاليا بمجداول حسابات لم تكن جوزفين قد دفعتها بعد فكان نابوليون يقول : لو كانت من ربات الترتيب لكانت قد تركت بعد وفاتها خمسين الى ستين مليون فرنك لانه دخل عليها أموال كثيرة .

اخلاقها — وكان الامبراطور ينحني عليها باللائمة لانها لم تكن محرزة قسطا وفيرا من العلم فلم تفتح قط كتابا ولم تقبض قط على قلم على ان مثل هذا الامر لم يكن شبيهاً مذكوراً في نظر زوج ميال الى الامور النسوية أما في ما سوى ذلك فقد كانت كاملة أو لم يجدها دائماً ذات أخلاق رضية وذات طاعة تامة . فكان يقول : « واذا فضي على بأن أركب المركبة في جوف الليل لاذهب الى جهة بعيدة كنت أدهش من رؤيتي جوزفين مستعدة لمرافقتي وان لم يكن وجودها معي ضروريا فاقول لها لا يمكنك المسير معي فانا ذاهب الى مكان بعيد والسنر اليه شاق فتقول : أخطأت في قولك هذا فاقول : ولكن لا بد لي من الانطلاق في الحال فتقول : اني مستعدة . فاقول : ولكن يجب أن يكون معك حاشية . فتقول : لا تهتم بذلك فكل شيء معد . وكنت في كل مرة اجيب سؤلها . »

وقال نابوليون أيضاً عن جوزفين : « انها كانت راموز المحاسن ومثال اللطف وكانت قدوة في الطاعة والاخلاص والمجاملة في كل حين ولذلك أدرها في فؤادي

ذكرى حسنة ومعرفة جميل متناهية . »

فكرة الطلاق — وكان لها أعداء كثيرون وكان من أشدّهم عداء ابناء وبنات حميها وخصوصا لوسيان وكارولين فانهما لم يكونا يفتران عن الكيد لها وكل ذلك منشأه الحسد . وكانت هي تشعر بانها حجرة عثرة في سبيل حفظ نابوليون من الحبس الذي شعرت فيه بان سلطته اصبحت وراثية فلم تكن قد ولدت له أولاداً ولم تكن قادرة على ذلك وكانت تفكر وتقول : وما الفائدة له من بقائي معه لانها كانت تعرف مقدار أنانيته ولم يكن يغرب عنها ان الاسباب الدولية القاهرة ستنتهي بالتغلب على آثار ذلك الغرام الذي كان متبعا والذي كانت ناره تنتمش من حين الى آخر ولكنه مع كل ذلك لم يكن سوى نار آخذة بالحمود وكان نابوليون قد أوشك قبل التتويج بايام أن يطلق جوزفين بصورة فظة فانها كانت قد عرفت أن له في سان كلود علاقات غرامية وعرف هو ذلك . فاستاء من انفضاح أمره واغلظ لها في الكلام وصمم على التماس منها والامساخه الى صوت السياسة التي كانت تقتضي ان يكون له امرأة ولود . وقال لاوجين أن يوافيه الى سان كلود لكي ينظم شروط الطلاق لأمه ولكن انقضت الفهمة أمام نسيم لطف جوزفين ورشاش دموعها وزال كل شيء وانتهى الامر باقناعها اياه بان يتم عقد الزواج — دينيا قبل التتويج بيومين — وطلبت من الكردينال فش بعدما بارك الاكليل أن يعطيها شهادة خطية بواقع الحال وقد حفظت هذه الشهادة بكل اعتناء ولم ترض بأن تدفعها الى الامبراطور مع شدة الحاحه عليها بطلبها وقد توهمت انها ضمنت بها مستقبلها فرضيت بان تكون زوجة مطيعة لبعليها ومتغاضية عن جميع هفواته وكان نابوليون يستودعها اسراراً غريبة فتساعده في بعض الاحيان على تحطيم سلاسل كانت تثقل عليه .

ومع كل ذلك لم تكن هذه الامور لتحول دون فكرة الطلاق فقد كانت من عهد بعيد تخالج ضمير نابوليون وتقوى فيه يوما بعد يوم وقد قال لبوريان في سنة ١٨٠٥ : « لو كانت على الاقل قد ولدت لي ولداً فانا أتعذب كل حياتي لانه ليس لي ولد وأعلم أن دعاؤهم مركزي لا تتوطد الا حين يكون لي ولد . وان أنا مت فلا يستطيع أحد من أخوتي ان يقوم مقامى . ان كل شيء ابتداء ولكنه لم يفته فالله وحده يعلم ماذا يحدث . »

واقترح نابوليون أمراً غريباً على جوزفين بعد التتويج بقليل من الحين فطلب منها أن تتظاهر بالحبل لينخدع الجميع بذلك وأن يقدم للناس طفلاً يتوهمونه ابنه من دون أن تكون هي والدته . ويقال إنها رضيت بذلك الاقتراح ولم يبق إلا أن يوافق عليه كورفيزار طبيب العاهل الاول فقال له : اذا تمكنت من ضمان ولادة غلام يكون ابني فهل تريد أن أت أشهد بان الامبراطورة ولدت بتدبير جميع الاشياء اللازمة لتحيوه الحقيقية على الناس . فرفض كورفيزار موافقة الامبراطور على تلك الحيلة . ولكن كان عند فوشه حل بسيط لتلك المسألة المعقدة وقد بسطها في سنة ١٨٠٥ بقوله : « ليت الامبراطورة تموت فتزول المصاعب ويمكن الامبراطور من الزوج بامرأة تلد له أولاداً فانه ما دام بلاعقب من صلبه يخشى أن ينشأ عن وفاته تفكك أجزاء السلطنة التي أنشأها فليس أخوته قادرين على ادارة الشؤون فيغتنم أنصار البوربون الفرصة ويهبون لنيل أوطارهم وهذا مالا بد من تلافيه . »

مفاتيح نابوليون بامر الطلاق — وخطر لنابوليون أن يتبنى ابن أخيه لويس ولكنه ماعدا رغبته في أن يكون وارثه من صلبه كان يرى ابن شقيقه ضعيف البنية وهذا ما كان يقلق خاطره فاستند الى هذه الحجة وحدث جوزفين بمسألة الطلاق بانياً ذلك على ضرورة اتخاذ امرأة تلد له أولاداً فقال لها : « اذا تم مثل هذا الفكر يا جوزفين وجب عليك ان تساعدني على تدبير المسألة وأنا اعتمد على صداقتك لتخلصيني من المأزق الحرج الذي يدفعني اليه فعم عرى زواجنا الباعثة عليه أحوال قاهرة فانت تفانحيني بالامرواات مع مراعاتك للبحالة التي أنا فيها تمدرعين بالشجاعة لتقرري بذاتك شروط انفصالك عني . » فاجابته جوزفين بانفة وتمكنت من التجلد من دون أن تفوه بكلمة عن الحالة التي أبدى نابوليون مشيئته في ايصالها اليها وافتصرت على قولها له بلهجة تفصح عن حزن شديد مقرون بعزة نفس : « يامولاي أنت صاحب الأمر والنهي وفي يدك حظي فحين تأمرني بمغادرة التويلري ألبي أمرك في الحال ولكن اصدار أمرك الي على هذا الشكل القطني ليس بالأمر السهل فانا زوجتك وقد توجتني بحضور البابا فمثل هذا الشرف السامي يحملي غير مبالاة الى تركه بسهولة فاذا طلقني عرفت فرساكلها أنك طردتني وهي تجهل مقدار طعني لك وحزني الشديد . »

وجعلوا يسعون لجل تلك المنكودة الطلع على الرضى بفصم عرى الزواج مختارة أو مكرهة عليه .

تدابير فوشه — وخلا نابوليون بفوشه وزير الشحنة العام في فنتنبلو في يوم من أيام اكتوبر ١٨٠٧ وكان هذا الوزير ناثلاً ثقة مولاه في ذلك الحين وطال الحديث بينهما ودعاه العاهل الى الغداء معه على مائدته في ذلك اليوم وكان نابوليون مبهتجا . وذهب خادم الامبراطورة الخاص في منتصف ليل ذلك اليوم للبحث عن عقيلة دي ريموزا أو زوجها كبير حجاب الامبراطور فاسرع المسيو دي ريموزا في المثلول أمام الامبراطورة فوجدها منبوشة الشعر وقد خلعت فمها من ملابسها وانقلبت سحنتها فناولته رقعة طويلة بتوقيع فوشه وقد بلغ منها التأثير مبلغاً شديداً وكان فوشه يقول لها في الرقعة « انه يكتب اليها من تلقاء نفسه من دون أن يكون للعاهل اطلاع على ذلك وأنه يتوسل اليها بأن تحفظ المسعى الذي لجأ اليه سرا لنفسها وهو يعتبره مؤانها لمصلحة الامبراطورية فنانابوليون صاحب السلطة العليا في فرنسا ولكن الاحوال تقضي بان تراعى مصلحة مستقبل فرنسا الموكولة اليه فلا ينبغي كتمان الحقيقة يامولاتي . ان مستقبل فرنسا السياسي مستهدف لنبال الخطر من جراء الافتقار الى وارث للامبراطور واني بصفة كوني وزيراً للشحنة أعرف حقيقة الرأي العام وأعلم أن الناس كثير والاهتمام بأمر الخلافة في الامبراطورية فتمثلي مقدار القوة التي تكون لعرش جلالته حين يكون معضوداً بوجود ابن له حوله . »

ولما كان فوشه معتقداً أن الامبراطور لا يقدم على مثل تلك التضحية جرؤ على الاشارة على الامبراطورة بان تفعل ذلك الجهد العظيم وتضحى بنفسها في سبيل فرنسا . ودخلت الامبراطورة في الند على زوجها وأطلعته على كتاب فوشه فلم يكن مأبداً من الدهش يقل عما أبداه من الغضب ولولم يكن الوزير قد انطلق الى باريس لكان قد وبخه توبيخاً شديداً وكان مستعدا اذا شاءت جوزفين ذلك ان ينزل به عظيم العقوبة وان يفصله من منصبه . وصحب هذه الكلمات كثير من الملاطفة والمجاملة ولكنه كان يصعب على الامبراطور اخفاء ما كان يساوره من الاضطراب

وعاد فوشه بعد بضعة أيام الى فنتنبلو فاستقبله نابوليون ببرودة وكتب

اليه في ٥ نوفمبر ١٨٠٧ رسالة تفيض غضبا وقال له : « يا حضرة السيد فوشه انك تأتني من خمسة عشر يوما أعمالا تدل على الخفاقة فقد آن الأوان لان نضع حدا لهذه الاعمال وان تكف عن التدخل رأسا أو بالواسطة بأمر لا يعنيك بوجه من الوجوه. هذه ارادتي. » ولكنه كان في الوقت عينه يقول لزوجته وهو يغالي في ملاطفها : « انه فعل ذلك منقاداً الى غيرة شديدة على مصلحة الدولة فلا ينبغي أن نوغر الصدر عليه فيكفي أن نسد آذاننا عن سماع مشوراته وأن تتيقني اني لا أستطيع أن أعيش بدونك . »

ولكن فوشه لم يمتأ عن تحريك الرأي العام فكان رجال الصحافة يرددون في كل ناحية أنه من الضروري لمستقبل الحكم الامبراطوري أن يكون للامبراطور وارث من لحمه ودمه. وكانت مثل هذه الاحاديث تدور في جميع الملاهي وقد اعتقد نابوليون أن الرأي العام ممالء له من هذه الجهة الدقيقة. وأراد فوشه أن يسبق مزاحه البرانس دي بنيفان (تاليران) الى تدبير قضية الطلاق وكان يعلم أيضا أن كارولين شقيقة الامبراطور وملكة نابولي كانت تبغض جوزفين بغضا شديداً من عهد بعيد وتسمى لتدبير ذلك الطلاقة. متوسلة بوسائل شتى لنيل أمانها .

تردد نابوليون — وكان تاليران يسمى لنكاية فوشه بالتظاهر بالدفاع عن مصالح جوزفين على أنه كان في الحقيقة يرغب كل الرغبة في وقوع الطلاق في الفرصة الملائمة لمقدزواج جديد كان يدبره من زمان طويل . فأوقفه الامبراطور على ترده الا أن مصلحة الدولة كانت تقوى يوما فيوما على ذكرى تلك المحبة القديمة .

وروت عقيلة دي ريموزا مشهداً غريباً وقع في شهر مارس ١٩٠٨ وقد عرفته من جوزفين نفسها فان الامبراطور دعا الامبراطورة الى تناول الطعام معه وكان الصمت والكآبة يخيمين فوق المائدة ودخلت الامبراطورة مخدعها بعد العشاء لترتدي ملابس السهرة ولكن جاؤوا ودعوا بحجة أن العاهل يشكو من ألم شديد في معدته . ولما أبصرها لم يقو على حبس عبراته فخذها الى سريره وانطرح الى جانبها غير مبال بتعطيل ملابسها الفاخرة وضمها الى صدره وهو يقول : « يا عزيزتي جوزفين الحبيبة لا أستطيع فراقك . » وكان تهيج العصبى يزداد

فأشارت عليه جوزفين بألا يظهر للناس على تلك الحال ونصحت له بأن يرقد . فأذعن لمقالتها مشروطاً عليها بأن تنزع ملابسها وتنام الى جانبه وكان يردد قائلاً ودموعه تسيل من محاجرته : « انهم يحيطون بي ويضايقوني ويصيرون عيشي مرأ » وكان في تلك الليلة يمزج التهيج بالحنان وثاب اليه الروح في الصباح .

تصميم نابوليون على الطلاق — وأخيراً قرر نابوليون فكره وحيث أن الامبراطورة لم تظهر أنها فهمت ما يبتغون منها عمله لم يبق الا أن يبلغوها ارادة لامرد لها فبعد التهيب جاء دور الهجوم الفجائي وكان ذلك في ٣٠ نوفمبر ١٨٠٩ في قصر التويلري وقد شهدته المسيودي بوصفه بصفة كونه قيم القصر واليك تفصيل الحادث :

« لما قدمت القهوة تناول نابوليون الفنجاني من يد الخادم وأشار اليه بالانصراف وسمع في الحال صوت خرج من فم الامبراطورة جوزفين من غرفة الامبراطور . وهم الخفير الواقف أمام الغرفة بفتح الباب لظنه ان الامبراطورة أصيبت بوعكة فمنعته عن ذلك بقولي له ان الامبراطور يدعو الناس حين يرى أن الحال تقتضي ذلك . وكنت واقفاً الى جانب الباب حين فتحه نابوليون بيده . فلما أبصرني قال لي بتهيج: ادخل يا بوصه وافعل الباب . فدخلت الغرفة وأبصرت الامبراطورة ممتدة على الطنفسة وهي تبكي وتلتجب بصوت يلين له الجراح قائلة . « لا أقوى على الحياة بعد ذلك . » فقال لي نابوليون : هل تستطيع أن تحمل جوزفين الى غرفتها ماراً بالدرج الداخلي ليعتنوا بها بحسب ما يحتاج اليه . فأنهضتها بين يدي بمساعدة نابوليون وتناول هوقنديلا عن المنضدة وفتح الباب وسار أمامي لينير لي الطريق . ولما وصلت الى الدرجة الأولى من الدرج قلت لنابوليون انه ضيق جداً وأخشى من العثار فنادى أحد الخدام وناولته المصباح وقبض على ساقى جوزفين ليساعدني على النزول براحة . ولما شعرت الامبراطورة بما أبذله من الجهد لئلا تسقط همست في أذني قائلة : انك تضغط علي كثيراً فعلمت حينئذ انه لا خوف على حياتها وانها لم يغم عليها دقيقة واحدة . وكان اضطراب الامبراطور وتهيج شديدين فأخبرني في اثناء اضطرابه عن سبب الحادث الذي حدث وكانت الكلمات تخرج من فيه بمجهود من دون أن يكون بعضها مرتبطاً ببعض الآخر وكان صوته متهدجاً يدل على ما يشعر به

من الضيق وكانت الدموع تماطر من مقلتيه . وقد كان من الضروري أن يكون شديد التهييج حتى أفضى الي بتفصيل الحادث مع أي لم أكن من الذين تعود البوح لهم بمكتومات ضميره .

« ولم يدم هذا المشهد أكثر من ثماني دقائق فأرسل نابوليون في الحال يدعو اليه كورفيزار والملسكة هرتنس وكباسارس وفوشه وقبل أن يصعد الي مخدعه ذهب بنفسه ليقف على حالة جوزفين فوجدها ساكنة الروع . »

وقد شهدت الامبراطورة في يوم الاحد في ٣ ديسمبر صلاة الشكر المقامة للاحتفال بذكرى استرلنز ومعاهدة فينا وكانت جالسة في المحل المعد لها في كنيسة نوتردام . وشهدت في الغد أيضاً مرقصاً شائفاً في دار بلدية باريس وكانت جالسة على عرش الى جانب الامبراطور وقد ترأست الاستقبال ثم أها رافقته وهو يدور على المدعوين الحاضرين في الردهة وكانت جميع الانظار موجهة اليها ولكنها لم تفقد شيئاً من رباطة جأشها ولطفها . وكانت هذه المرة آخر مرة ظهرت فيها بين الناس بصفة رسمية .

الطلاق — وكان كل شيء مقرراً ولم يبق إلا اجراء المراسيم الرسمية وقد رضيت الامبراطورة بذلك كما جاء في كتاب مؤرخ في ١٥ ديسمبر أهلي عليها وهذا نصه :

« باذن زوجي العظيم العزيز لا أرى لي بداً من التصريح بأنه لم يبق لي من أمل بالحصول على أولاد يقومون بحاجات سياسته ومصالحة فرنسا فيسرنى أن أظهر له أكبر دليل على تعلقى به واخلاصى له مما يعطيه البشر على هذه الارض . فكل ما عندي أصبته من مكارمه فيده توجتني ومن أعلى هذا العرش لم ألق إلا دلالات المودة والمحبة من الشعب الفرنسوي .

وأظن انى أعرب عن جميع هذه العواطف بقبولي الغاء زواج يعد من الآن فصاعداً حائلاً دون مصلحة فرنسا وخبرها ويحرمها الهناء الذي تصيبه يوماً ما بصبرورتها تحت حكم أعقاب رجل عظيم أوجدته العناية ليسخ آثار ثورة هائلة ويرم ماتداعى من المذامح والعرش والنظام الاجتماعى . على أن فصم عرى زواجى لا يغير شيئاً من عواطف قلبي وسيلقى الامبراطور في صديقة مخلصه . وانى أعلم ما يسببه له من الغم هذا العمل الباعثة عليه السياسة والمصالح الخطيرة ولكننا

كلينا نشعر بعظمة بسبب هذه التضحية التي نضحي بها في سبيل وطننا
جوزفين «

ولم يكن الغاء هذا الزواج المدني مزعجا لان مجلس الشيوخ كان قد عهد اليه في تنظيم كل ما لم يكن مستدركا في الدستور وكان ضروريا لحسن سيره . وقد أراد الامبراطور أن يأتي عملا غريبا ويبين أن ما وقع لم يقع بالاكراه ففوض الى أوجين دي بوهرنه أن يبايع مجلس الشيوخ ما قورته والدته وقد فعل ذلك بصفة كونه كبير مستشاري الدولة .

فقال : « من الضروري لسعادة فرنسا أن يشيخ مؤسس هذه الاسرة الرابعة محاطا بأعقاب يتحدرون منه ويكونون ضمانا لجميعنا . فالدعوى التي ذرفها الامبراطور من جراء ذلك تكفي لاعلاء شأن والدي . »

وكان الغاء الزواج الديني أصعب من الغاء الزواج المدني ولكن رجال الدين في باريس كانوا موالين للامبراطور فعملوا ان الزواج الذي عقد في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ لم يكن قانونيا لانه لم يسبقه اعلان المناداة التي يقتضيها الحق القانوني ولم يتم عقد الزواج بحضور خوري الرعية أو نائبه وان أهم شيء في هذه المستندات كان عدم وجود الرضى من جهة الامبراطور فلم يكن الزواج الديني والحالة هذه معتبرا عملا قانونيا .

واجتمع المجلس الخاص في الساعة العاشرة من مساء ١٤ دسمبر سنة ١٩٠٩ بغياب الامبراطور ليقرر تنظيم صك الطلاق وبعد قليل من الحين وقع نابوليون وجوزفين بحضور جميع الاسرة الامبراطورية الصك الملغى الزواج بموجبه . وبعد ما عرض الامبراطور في صباح الغد فصيلة من الحرس شهد انطلاق جوزفين في الساعة الثانية بعد الظهر فانها فصلت عن قصر التويلري ميممة قصر المالميزون لتتضي فيه ما بقي لها من العمر .

آخر حياة جوزفين في المالميزون — وأمر نابوليون بأن تبقى جوزفين حالة لقب امبراطورة وملكة وخصص لها مرتبا سنويا قدره مليونان فرنك وزيد فيما بعد الى ثلاثة ملايين فرنك وكان يتحفها بهدايا نفيسة . من حين الى آخر فاعداها في سنة ١٨١٠ مئة الف فرنك لتفقات غير عادية على المالميزون وبضعم مئآت من الوف الفرنكات لشراء عقدمن الزمرد وادوات فضية للمائدة وملابس وغير ذلك من الاشياء . وكان يكثر

من زيارتها ويكتب اليها واصفا المالميزون بمثل العبارات الآتية : « ان هذا المكان مملوء من عواطفنا فلا يستطيع شيء من الاشياء أن يغيرها من جهتي فانا شديد الشوق الى رؤيتك ولكن يجب أن أتأكد انك قوية ولا تدعين الوهن يساورك . فأنا أشعر بشيء من الضعف وهذا يعذبني قليلا . . . لا تدعي مجالا للريب بداخلك في حقيقة عواطفني نحوك فهي ستجني في فؤادي ما حبيت وان انت شككت في ذلك ارتكبت خطأ كبيراً . »

ولم تبح جوزفين ذلك المكان الذي حسنته وأكثرته من غرس النباتات العطرية السادرة في حديقته بحيث أصبحت كحديقة من حدائق النباتات المشهورة .

وجاءها العاهل في ذات يوم بابنه ملك رومية وكانت وهي تلعب بشعر هذا الغلام الأشقر تذري الدهم من عينها . وقضت في المالميزون السنوات ١٨١٢ و ١٨١٣ و ١٨١٤ المحزنة المختلفة كل الاختلاف عن السنوات التي كانت فيها زوجة القنصل الاول والعاهل المظفر . فكانت تقول : « يخيل الي في بعض الأحيان أنني مت وأنه لم يبق لي سوى تصور مبهم بشعوري بأني لست من عداد الاحياء في هذا العالم . »

وكان انها قبلما جاءها العاهل بابنه كتبت اليه رسالة لما بلغها خبر ولادة ولي العهد من الامبراطورة ماري لويز وكانت هي في معزلها بقصر نافار قرب افرو واليكم ترجمة الرسالة :

« كنت أرغب أن أعرف منك نبأ ولادة ملك رومية وليس من مدفع مدينة افرو ولكنني أدري قبل كل شيء أنك مدين بنفسك للدولة والاميرة التي حققت أعز آمالك وأسمى رغائبك . انها لا تستطيع أن تفوقني في الاخلاص لك ولكنها استطاعت أن تأتيك بما لم استطع اتيانك به وضمنت بذلك سعادة فرنسا . فلها الحق إذن بعواطفك الاولى وبعنايتك كلها وأنا رفيقة حياتك في أوان الشدائد لم يبق لي الحق بأن أحتل في قلبك الا مركزاً بعيداً جداً عن المركز الذي احتلته في قلبك الامبراطورة ماري لويز . وبعد أن تسهر حيناً من الزمان عند وسادتها وبعد أن تقبل ولدك لتتناول قلماً لتخط جواباً الى أشد صديقاتك اخلاصاً فأنا أقيم على حبل الانتظار . . . »

وفي هذه الرسالة وصف كاف لما كانت عليه نفس جوزفين بعد طلاقها فقد كانت راضية بالحلة التي صارت اليها وصابرة على نكد طالعها وباقية شديدة التعلق بالامبراطور مع ما أصابها من الغموم من جراء توليته اياها صفحه وقد بقيت على تلك الحال حتى آخر نسمة من حياتها .

ولما سقطت باريس في قبضة المتحالفين في شهر مايو سنة ١٨١٤ وعاد الامبراطور من جزيرة البا وهربت ماري لويز لالتوي على شيء ولا تهم زوجها الذي جافاه الحظ كتبت جوزفين الى نابوليون ما يأتي :

« يا صاحب الجلالة اليوم أستطيع أن أفس عظم النكبة التي نالتني برؤيتي الاربطة التي تقرني بك مصرومة بيد القانون وأتتعب لاني لم أبق لك سوى صديقة لا يسعها الانتحاب على الداهية الدهاء غير المنتظرة النارة بك . لا أرتي لك لفقدانك العرش فقد اختبرت بنفسي ان الانسان يستطيع أن يسلو هذا الامر ولكن يسوء في ما تشعر به من الكآبة من جراء انفصالك عن الاشخاص الذين صحبوك الى مواطن المجد والفخار . . فان ترك هؤلاء الابطال بلا زعم كالزعم الذي شاطرم المشقات يكون شديد الوطأة على قلبك المكوم . ولا أرى مندوحة عن مشاطرتك هذه العواطف ستبكي على نكران الجليل وتختلف الاصدقاء عنك وخذلهم اياك ولا سيما الاصدقاء الذين استرسلت اليهم فيما لبتي يا صاحب الجلالة أستطيع المضي اليك لاؤكد لك ان انفي لا يدخل الفرق والخشية الا على النفوس الصغيرة وان النكبات لا تقصم عري التعلق الصادق بل تزيدها ثوقاً . وقد أوشكت حيناً من الزمان أن أغادر فرنسا وأقتص أترك وأخصص لك بقية حياة زينتها لي مدة طويلة ولكن تبطني عن اللحاق بك سبب لا يخفى عليك كنهه .

« واذا علمت اني انا الوحيدة التي تحب أن تنهض بما يحجب عليها فلا يحول شيء دون اطلاقني الى المكان المقيم انت فيه فألتقي فيه الهناء اذ يتسنى لي حينئذ أن أسليك في خلوتك ومصائبك .. قل كلمة واحدة فأخف اليك . . . »
وهذه الكلمة المنتظرة بفروغ صبر لم يبق بها نابوليون فبقيت جوزفين في المالميزون ولكن لم تطل مدة اقامتها فيه .

وبينا هي عائدة بعد أيام من عند ابنتها الملكة هرتنس في سان لي تافرني

حيث كانت قد أدبت مأدبة لعاهل روسيا وملك بروسيا شعرت بتوعك في مزاجها فدعي في الحال طبيبها الخاص لمعالجتها وما عتمت أن ثابت اليها عافيتها . وجاء بعد مدة قصيرة لعيادتها صديق لها من نبلاء البريطانيين يدعى الورد بفرلي ومعه نجله فاسيهت في محادثته عن العاهل نابوليون وكان من جملة ما قالته له : « اني وان لم أبق زوجة له صممت على موافاته غداً بحيث لا ينجم عن عملي هذا استياء الزوجة التي فضلها علي ويلد لي خصيصا في هذا الحين ان أكون الى جانبه لاشاطره حمل أعباء التبرم في حزيرة البا وأقاصمه الاحزان التي دهمته على أي لم اشعر منذ طلاقي بمثل كآبتي اليوم . . . »

وكان تعلقها بنابوليون شغلا شاعلا لها وقد اكتسب لها ذلك التعلق بالعاهل الهاوي عن عرشه ميل الشعب اليها . وزارها الاسكندر قيصر الروس في منزلها بالمليزون في ١٠ مايو وتناول الطعام عندها وأبدى لها صداقة شديدة وسر بما شرتها ومعاشرتها ابنتها الملكة هرتنس ونجلها البرنس أوجين . فاستقبلته الامبرطورة في الردهة ثم خرجت الى الحديقة للتنزه معه . وكانت صحبتها تضعف شيئاً فشيئاً .

وزارها أيضاً الاسكندر قيصر روسيا في ٢٤ مايو ومعه ملك بروسيا فاستقبلتهما جوزفين في هذه المرة أيضاً ولكنها ما لبثت أن شعرت بتعب شديد فاستأذنت من ضيفيها ودخلت غرفتها وبقيت ابنتها هرتنس معها . وصارت وطأة المرض تشتد عليها من ذلك الحين وكانت تشعر بالآلام مبرحة في حلقها فوصف لها الاطباء نفاطة بين كتفيها ولكن الداء كان قد استفحل أمره وأصبح لا ينجم فيه دواء . وغاصت في الليل الذي بين ٢٧ مايو و ٢٨ منه في لجة كرى بعيدة القرار وظلت خمس ساعات على تلك الحال وكان هذا نذيراً بالموت .

ولما نفي الخبر الى قيصر روسيا خف الى عيادة جوزفين فلم تتمكن من محادثته بل ألفت عليه نظرة ملؤها معرفة الجليل . وكان الامير أوجين والملكة هرتنس راكعين الى جانب سرير المحتضرة . وتزعم إحدى صديقات جوزفين ان الامبراطورة قالت وهي تجود نفسها : « لقد سميت دائماً لجر السعادة الى فرنسا وبذلت غاية الجهود لادراك هذه الضالة ويمكنني أن أقول أمام جميع الناس

وانا غير محاذرة في قلبي لومة لائم ان زوجة نابوليون الاولى لم تسبب قط ذرف
عبرة من المعبرات . . . »

وفاضت روح الامبراطورة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من
صباح يوم ٢٩ مايو سنة ١٨١٤ . وكانت تلك الوفاة الفجائية التي وقعت بعد
رجوع البوربون ببضعة أيام قد اثارت في صدور القوم بعض المزاغم الغريبة
فذهب بعضهم انها ذهبت ضحية السم وان تاليران ارتكب هذه الجريمة السياسية
الفظيعة وقد بعثت الاسباب التالية على الظن بان جوزفين ماتت مسمومة :

« ان الشعب الفرنسي لم يستقبل بالتمحس الملك الشرعي تخافوا السعي
لارجاع الامبراطورية وحيث ان رجوع نابوليون لم يكن مؤكداً كان البرنس
اوجين بوهرنه الرجل المعدل لجلوس على عرش الامبراطورية وهو جندي باسل يحبه
الشعب ويميل الى اللحاق به . واذا كانت جوزفين قد نزلت الى قيصر روسيا
فانها لم تفعل ذلك الا لاستمالة الى نجلها . أو لم يكن امبراطور روسيا في ذلك
الحين مسلطاً على حظ فرنسا . أو لم تكن كلمته مسموعة فيها أكثر من كلمة الملك لويس
الثامن عشر . وحسب الحزب الملكي الف حساب لثردد القيصر على المايزون
لرؤية جوزفين وعلى سان لومشاهدة الملكة هرتنس ولاظهار شدة ميله الى
الامير اوجين . . . فخطر لذلك الحزب أن يقضي على جوزفين بالتواري فينهدم
صرح التدابير التي كانت تسعى لاعدادها طمعاً باجلاس نجلها على عرش
الامبراطورية . ويؤكد المسيو دي منغاليار ان أمر جوزفين تقرر في ٢٢ مايو
سنة ١٨١٤ في حديث دار بين لويس الثامن عشر وتاليران حتى انه يروي الكلام
عينه الذي دار بينهما ويقول ان تاليران قال للملك : ان اغواء زوجة نابوليون
الاولى لعاقل الروس يجلب علينا خطراً عظيماً فالقيصر يعتقد انه يأتي عملاً من
أعمال المروءة بمديد المساعدة الى عقيلة دي بوهرنه ونجلها الا ان دهاء
جلالتك وحكمتك السامية وخلقت النبيل فوق جميع المزاغم التي يطمع أصحابها
بهضم حقوق الملكية المقدسة وعلاوة على ذلك لنا علاج لسكل شيء ويمكن
اتخاذ التدابير التي . . . فقطع عليه لويس الثامن عشر كلامه قائلاً : حسنأ قلت
يا مسيو تاليران فالسياسة الحقيقية لا تقف عند الاعتبارات المبتذلة فملك فرنسا
يعول على سمو مداركك واخلاصك وخبرتك في مسائل الحكومة الخطيرة .

وكان كلام الملك بمثابة اقرار على ما كان تاليران يرمي اليه من التدابير من دون أن يصرح بحقيقة هذه التدابير . . .
ويقال أن جوزفين هممت ارادة اخفاق المساعي التي كانت تدبرها لاستمالة
عاهل الروس الى نجلها . »

الا أن التاريخ أنكر هذه التهمة وثبت فيما بعد أن الحديث المزعوم أنه دار
بين لويس الثامن عشر وتاليران لانصيب له من الصحة وقد كذب هذا الامر
مؤرخو الامبراطورية جميعهم وخصوصا المسيو فريدريك ماسون . وقد بين
الطب من جهة تطبيقه على الحادث التاريخي نوع موت جوزفين وأكد الدكتور
كابانيس ان جوزفين توفيت بالتهاب الشعب الرئوية المصحوب بالبلحجة المغنرينية
وكيفما كان الامر فقد كان لتخرمها رجة لا تحدث عادة عند تخرم غيرها من النساء
في فرنسا ولا يشير في افئدة الملأ الفرنسي مثل ما أثاره مصرعها من ساكنات
الحب المقرون بالشفقة .

وقد ينهض بعض الناس ويقول أنها لم تكن تستوجب مثل هذه العواطف
وانها كانت في ماضي حياتها تمنح عن الطريقة المثلى وأن الخفة كانت تستهويها
وأنها كانت مسرفة مبذرة وانها كانت في غالب الاحيان تضطر العاهل عند اتيانها
مثل تلك الامور المستهجنة المستوجبة الانتقاد الى الاستشاطاة غضباً عليها
ولكن لا يمكن حبس اللسان عن التنويه بمجودة قلبها وعطفها على البائس الملهوف .
أولم يقل زوجها نفسه في ذات يوم وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « هجري
سمدي لما هجرت جوزفين . » وكان الشعب الفرنسي قد قال قبله حين طلق
جوزفين الفاضلة واستبدل بها النمساوية الجلمودية الفؤاد : « سيكون هذا الأمر
شؤماً عليه . »

جدول أسماء الأعلام في الجزء الثاني

لما كانت ترجمة بعض أسماء الأعلام من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية تبعث في بعض الأحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولاً لأسماء الأعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الأول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— ١ —

Orcha	ارخا	Epaminondas	اباميننداس
Orza	ارزا	Ebersberg	ابرسبرغ
Auerstaedt	ارستاد	Ebersdorf	ابرسدرف
Árcis	ارسيس	Abrantès	ابرنس
Erfurth	ارفورت	Epernon	ابرنون
Arles	أرل	Epernay	ابرني
Armagnac	ارمانياك	Ipsilanti	ابسيلنتي
Ormansperg	ارمنسبرغ	Eblé	ابله
Arnault	ارنول	Abensberg	ابنسبرغ
Arizaga	اريزاغا	Abo	ابو
Ospem	اسبين	Aboukir	أبو قير
Espinoza De Los	اسبينوزا دي لوس	Apolda	ابولدا
Monteros	منتيروس	Etaples	اتابل
Ostermann	استرمان	Etrurie	أتوريا
Estrenay	استرني	Ettlingen	اتلنجن
Osterode	استرود	Aderklaa	ادر كلا
Ostrolenka	استرولنسكا	Aranjuez	أرانجويز
Istrie	استريا	Orthez	ارتيز

L' Argonne	الارغون	Ostende	استند
L'Arzobispo	الارزوبسبو	Stockholm	استوكهلم
Alzire	الزيرة	Elienne	اسطمان
L'Esirémadure	الاستريمادور	Essling	اسلنغ
Prince Des Astu- ries	أمير الاستوريين	Essen	اسن
L' Escorial	الاسكوريال	Suède	اسوج
Le Grec	الاغريقي	Séville	اشبيلية
Alfort	الفور	Augsbourg	اغسبورغ
Elchingen	الشنجن	Avrillon	افريلون
Alexiston	الكسستن	Aix-la-Chapelle	اكس لاشابل
Alexandrine	الكسندرين	Aix	اكس
Aleamtz	الكنتز	Excehmans	اكسمان
L' Elster	الالستر	Eckmühl	أكمل
L' Andalousie	الاندلس	Auxonne	اكسون
L'Oder	الودر	Aken	آكن
L'In	ألم	L' Alava	الالافا
L' Isère	الايزر	L' Alle	الال
L' Aisne	الايين	L' Inn	الان
Il-et-Rance	ال ورائس	Elbe	الب
Almonacide	الموناسيد	Alba	البا
Elisa	إليزا	Albeck	البك
Allent	آلن	Albuféra	البوفيرا
L' Aube	الاب	Albuera	البويرة
L' Ypres	الايبر	Altkirken	التكركن
L'Ibérique	الايبيرية	L' Adriatique	الادرياتيكية
Alicante	اليكانت	Oldenbourg	الدينبورغ
		L'Aragon	الاراغون

Oboiarzina	اوبوارزينا	Empecinado	امباسينادو
Autun	اوتان	Ambiorix	امبيوركس
Ougea	أوجيا	Amstetten	امستتن
O'Donnel	اودونل	Amsterdam	مستردام
Oudinot	اودينو	Antin	انتان
Oropeza	اوربزا	Angiolini	انجيولينى
Orense	أورنز	Saint-André	القديس اندراس
O'Reilly	اوريلي	Andujar	اندوجار
Ostrowno	اوسترونو	Enzersdorf	انزرسدرف
Ousouwieff	اوسوييف	Enns	انس
Ottone	اوطنون	Anspach	انسباخ
Augusta	اوغسطا	Insprück	انسبروك
Ouvaroff	اوفاروف	Antomarchi	انطومارخي
Ocana	أوقانا	Don Antonio	دون انطونيو
Auxerre	اوكسير	Antibes	انطيب
Olivenza	اوليفنزا	Antilles	انطيل
Iéna	ايانا	Invalides	انفاليد
Aigues-Mortes	ايغ مورت	Anvers	انفرس
Eylau	ايلو	Infintado	انفنتادو
Illyrie	ايليريا	Annonciata	انونسياتا
Ems	ايمس	Oporto	أوبرتو
Isabey	ايزابي	Obersdorf	اوبرسدرف
		Aupinskoë	أوبنسكويي

— ب —

Elisabeth	اليساباث باترسن	La Sublime Porte	الباب العالي
Paterson			
Bacciochi	باتشيوتشي	Batavia	باتافيا

Peterwalde	بٲروالڊ	Pajol	باجول
Petrowskoie	بٲروسكويي	Badajoz	باداجوز
Potsdam	بٲسڊام	De Padoue	ڊي بادو
Petit	بٲي	Partha	بارٲا
Le Brabant	البرابان	Bar-Sur-Aube	بارسوراب
De Pradt	ڊي برادٲ	Bar-le-Duc	بارليڊوق
Prado	برڊاو	Parme	بارم
Le Brésil	البرازيل	Barrois	باروي
Prague	براغ	La Passarge	الباسارج
Praga	براغا	Pasquier	باسكيه
Bragance	براغانس	Passenheim	باسنهم
Portalis	برٲاليس	Bacca	باكا
Le Portugal	الپرتوغال	Baclar d'Albe	باكله ڊلب
Bertrand	برٲران	Bâle	بال
Partounaux	برٲونو	Le Palatin	البالاتيني
Brissac	برساك	Balaguer	بالاغوير
Presbourg	برسبورغ	Palafox	بالافوكس
Brest	برست	Balachoff	بالاكوف
Beresford	برسفرد	Ballesteros	بالستروس
Breslau	برسلو	Palliot	باليسو
La Bérésina	البرسينا	Banos	بانوس
Barcelone	برشلونة	Pahlen	باهلن
Berg	برغ	Baireuth	بايرٲ
Berg-op-Zoom	برغ آب زوم	Baylen	بايلن
Bergfried	برغفريد	Bayonne	بايون
Burghausen	برغهاوسن	De Bubna	ڊي ببننا او بوبنا
Burgos	برغوس	Pétrarque	بٲرارك

Bruges	بريج	Bourgogne	برغونية
Prézel	بريجل	Borghèse	برغيزي
Prevost	بريفو	Barclay	بركلي
Pérignon	برينيون	Berkeim	بركيم
Bastia	بستيا	Porlitz	برلتز
La Bastille	البستيل	Berlin	برلين
Les Pasques	البسكية	Brunn	برف
Bessières	بسيار	Pirna	برنا
Pierre Le Grand	بطرس الاكبر	Prentzlow	برنتزلو
Petersbourg	بطرسبرج	Pernetty	برنتي
Bagration	بغراسيون	Pringen	برنجن
Pfaffenhofen	بفاهنهوفن	Brandebourg	برندبورغ
Buxhowden	بكسهودن	Brunswick-Aels	برنسويك الس
Platow	بلاتوف	De Brancas	دي برنكا
Plaisance	بلازنس	Brenier	برنيه
Placencia	بلاسنسيا	Brutus	بروتوس
Blavet	بلافه	Bruxelles	بروسل
Blake	بلاك	Prusse	بروسيا
Plechnitsi	بلخنيتزي	De Provence	دي بروفنس
Plauen	بلاون	Preussik-Eylau	بروسيك ايلو
Baltimore	بالتيمور	Bróussier	بروسيه
Plessis-Chaman	بلسي شامان	Provins	بروفان
Belchitte	بلشيت	Brune	برون
La Baltique	بحر البلطيك	Brunn	برون
Bellegarde	بلغارد	Briare	بريار
Pilnitz	بلنيز	Brienne	بريان
Valence	بلنسية	De Prévannes	دي بريفان

Borodino	بورودينو	Du Belloy	دي بلوى
Borowsk	بوروسك	Blücher	بلوخر
Borisof	بوريسوف	Plouzonne	بلوزون
Poserna	بوزرنا	De Bellune	دي بلون
Posen	بوزن	Pleiss	بليس
Beausset	بوصه	Pleineselve	بليانسلف
Bossuet	بوصويه	Bamberg	بامبرغ
Butturlen	بوترلن	Pampelune	بمبلونه
Puthod	بوطود	Benavente	بنافنتي
Potocki	بوطوكي	Ponte-Corvo	بنتي كرفو
Bug	بوغ	Les Bénédictins	البندكتيون
Bouvet-de-Lozier	بوفه دي لوزيه	Pondichéry	بنديشيري
Beaucaire	بوكير	Bentham	بنثام
Bouland	بولان	Buntzlau	بنزلو
Pultusk	بولتسك أو بولتسك	Beningsen	بننغن
Polsk	بولسك	Benvenuti	بنفنتي
Polotsk	بولوتسك	Bénévent	بنيفان
De Bulow	دي بولوف	Boyer	بواي
Pologne	بولونيا	Bobr	بوبر
Pauline	بولين	Bautzen	بوتزن
De Polignac	دي بولينياك	Porto-Maurizio	پورتو موريزيو
De Pompadour	دي بومبادور	Bordeaux	بورديو
Poméranie	بوميرانيا	Bourcier	بورسيه
Poniatowsky	بونياتسكي	Borysthène	بورستين
Boniface	بونيفاسيوس	Bourguignon	بورغنيون
Poniémen	بونيمن	Porlier	پورليه
Bohême	بوهيميا	Bourmont	بورمون

Peicherwitz	بیشروئز	Buen-Retiro	بوین ریتیرو
Pichegru	بیشغرو	Pietra-Santa	بیاتراسانتا
Pélage	بیلاج	Le Béarn	البیاردن
Pilar	بیلار	Piava	بیافا
Pilon	بیلون	Bianchi	بیانکی
Piombino	پیومبینو	Biberach	بیراخ
Beverly	بفرلی	Pise	پیزا
Prud'hon	برودون	Bizannet	بیزانه
		Peissing	بیسسنگ

(ت)

Trèves	تریف	Le Tage	التاج
Trévisé	تریفیز	Tascher de la Pagerie	تاشردیلاباجری
Thérèse Cabarrus	تریزا کباروس	Tallien	تالیان
Tilsitt	تلسیت	Talaveyra de la Reyna	تالافیرارینا
De Tolstoi	دی تلسٹوی	Taylor	تایلر
Tscherin	تشرین	Turquie	ترکیا
Tours	تور	Trieste	تریستی
Tamerlan	تیمورلنگ	Trianon	تریانون
Thémistocle	تمستوکل	Teruxillo	تروکسیلو

(ج)

Juntersdof	جنترسدوف	Jaca	جا کا
Geneviève	جنفیف	Jakubowo	جا کوبوفو
De Genlis	دی جنلی	Jeanne d'Arc	جان دارک
Joubert	جویر	Jakowleff	جا کولیف
Jaurdan	جورداز	Les Montagnes Noires	الجبال السوداء
Joubertou	جوپرتو	Georgenthal	جرجنتال

وكان كلام الملك بمثابة اقرار على ما كان تاليران يرمي اليه من التداير من دون أن يصرح بحقيقة هذه التداير . . .

ويقال أن جوزفين سممت ارادة اخفاق المساعي التي كانت تدبرها لاستمالة طاهل الروس الى محملها . «

الا أن التاريخ أنكر هذه التهمة وثبت فيما بعد أن الحديث المزعوم أنه دار بين لويس الثامن عشر وتاليران لانصيب له من الصحة وقد كذب هذا الامر مؤرخو الامبراطورية جميعهم وخصوصا المسيو فريديريك ماسون . وقد بين الطب من جهة تطبيقه على الحادث التاريخي نوع موت جوزفين وأكّد الدكتور كابانيس ان جوزفين توفيت بالتهاب الشعب الرئوية المصحوب بالذبحه الغنغرينية وكيفما كان الامر فقد كان لتخرمها رجة لا تحدث عادة عند تخرم غيرها من النساء في فرنسا ولا يشتر في افئدة الملأ الفرنسي مثل ما أثاره مصرعها من ساكنات الحب المقرون بالشفقة .

وقد ينهض بعض الناس ويقول أنها لم تكن تستوجب مثل هذه العواطف وانها كانت في ماضي حياتها تمنح عن الطريقة المثلى وأن الخفة كانت تسهوها وانها كانت مسرفة مبذرة وانها كانت في غالب الاحيان تضطر العاهل عند انيائها مثل تلك الامور المستهجنة المستوجبة الانتقاد الى الاستشاطه غضباً عليها ولكن لا يمكن حبس اللسان عن التنويه بجودة قلبها وعطفها على البائس الملهوف . ولم يقل زوجها نفسه في ذات يوم وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « هجري سمعدي لما هجرت جوزفين . » وكان الشعب الفرنسي قد قال قلبه حين طلق جوزفين الفاضلة واستبدل بها النساوية الجامودية الفؤاد : « سيكون هذا الأمر شؤماً عليه . »

جدول أسماء الأعلام في الجزء الثاني

لما كانت ترجمة بعض أسماء الأعلام من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية تبعث في بعض الأحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولاً لأسماء الأعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الأول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— ١ —

Orcha	ارخا	Epaminondas	اباميننداس
Orza	ارزا	Ebersberg	ابرسبرغ
Auerstaedt	ارستاد	Ebersdorf	ابرسدرف
Arcis	ارسيس	Abrantès	ابرنس
Erfurth	ارفورت	Epernon	ابرنون
Arles	أرل	Epernay	ابرني
Armagnac	ارمانياك	Ipsilanti	ايسيلنتي
Ormansperg	ارمنسبرغ	Eblé	ابله
Arnault	ارنول	Abensberg	ابنسبرغ
Arizaga	اريزاغا	Abo	ابو
Ospem	اسبرن	Aboukir	أبو قير
Espinoza De Los Monteros	اسبينوزا دي لوس منتيروس	Apolda	ابولدا
Ostermann	استرمان	Etaples	اتابل
Estrenay	استرني	Etrurie	اتروريا
Osterode	استرود	Ettlingen	اتلنجن
Ostrolenka	استرولنسكا	Aderklaa	ادر كلا
Istrie	استريا	Aranjuez	أرانجوز
		Orthez	ارتيز

L' Argonne	الارغون	Ostende	استند
L'Arzobispo	الارزوبسبو	Stockholm	استوكهلم
Alzire	الزيرة	Etienne	اسطفان
L'Eslrémadure	الاستريمادور	Essling	اسلنغ
Prince Des Asturies	أمير الاستوريين	Essen	اسن
L' Escorial	الاسكوربال	Suède	اسوج
Le Grec	الاغريقي	Séville	اشبيلية
Alfort	الفور	Augsbourg	اغسبورغ
Elchingen	الشنجن	Avrillon	افريلون
Alexiston	الكستون	Aix-la- Chapelle	اكس لاشابل
Alexandrine	الكسندرين	Aix	اكس
Alcanitz	الكنز	Excelmans	اكسمان
L' Elster	الالستر	Eckmühl	اكهمل
L' Andalousie	الاندلس	Auxonne	اكسون
L'Oder	الاودر	Aken	آكن
Ulm	ألم	L' Alava	الالافا
L' Isère	الايذر	L' Alle	الال
L' Aisne	الايين	L' Inn	الان
Ill-et-Rance	ال ورائس	Elbe	الب
Almonacide	الموناسيد	Alba	البا
Elisa	اليزا	Albeck	البك
Allent	آلن	Albuféra	الجوفيرا
L' Aube	الايوب	Albuera	البويرة
L' Ypres	الايبر	Alt kirken	التكركن
L'Ibérique	الايبيرية	L' Adriatique	الادرياتيک
Alicante	اليكانت	Oldenbourg	الدنبورغ
		L'Aragon	الاراغون

Oboiarzina	اوبوارزينا	Empecinado	امباسينادو
Autun	اوتان	Ambiorix	امبيوركس
Ougea	أوجيا	Amstetten	امستتن
O'Donnel	اودونل	Amsterdam	امستردام
Oudinot	اودينوت	Antin	انتان
Oropeza	اوربزا	Angiolini	انجيولينى
Orense	أورنز	Saint-André	القسيس اندراوس
O'Reilly	اوريلي	Andujar	اندوجار
Ostrowno	اوسترونو	Enzersdorf	انزرسدرف
Ousouwieff	اوسوييف	Enns	انس
Ottone	اوطون	Anspach	انسباخ
Augusta	اوغسطا	Insprück	انسبروك
Ouvaroff	اوفاروف	Antomarchi	انطومارخي
Ocana	أوقانا	Don Antonio	دون انطونيو
Auxerre	اوكسير	Antibes	انطيب
Olivenza	اوليفنزا	Antilles	انطيل
Iéna	ايانا	Invalides	انفالايد
Aigues-Mortes	ايغ مورت	Anvers	انفرس
Eylau	ايلو	Infintado	انفنتادو
Illyrie	ايليريا	Annonciata	انونسيماتا
Ems	ايمس	Oporto	أوبرتو
Isabey	ايزابي	Obersdorf	اوبرسدرف
		Aupinskoé	أوبنسكويي

— ب —

Elisabeth	اليسابيث باترسن	La Sublime Porte	الباب العالي
Paterson		Batavia	باتافيا
Bacciochi	باتشيوتشي		

Peterwalde	پټروالډ	Pajol	باجول
Petrowskoie	پټروسکويي	Badajoz	باداجوز
Potsdam	پټسډام	De Padoue	دي پادو
Petit	پټي	Partha	پارتا
Le Brabant	البرابان	Bar-Sur-Aube	بارسوراوب
De Pradt	دي پراډت	Bar-le-Duc	بارليدوق
Prado	پرډاو	Parme	پارم
Le Brésil	البرازيل	Barrois	باروي
Prague	پراخ	La Passarge	الباسارج
Praga	پراخا	Pasquier	پاسکيه
Bragance	براغانس	Passenheim	پاسنهم
Portalis	پرتاليس	Bacca	باکا
Le Portugal	الپرتوغال	Bacler d'Albe	باکله دلب
Bertrand	پرتوان	Bâle	بال
Partounaux	پرتونو	Le Palatin	البالاتيني
Brissac	برساک	Balaguer	بالاغوبر
Presbourg	برسبورخ	Palafox	بالافوکس
Brest	برست	Balachoff	بالاکوف
Beresford	برسفرد	Ballesteros	بالستروس
Breslau	برسلو	Pallisot	باليسو
La Bérésina	البرسينا	Banos	بانوس
Barcelone	برشلونه	Pahlen	باهلن
Berg	برخ	Baireuth	بايرت
Berg-op-Zoom	برخ آب زوم	Baylen	بايلن
Bergfried	برغفريد	Bayonne	بايون
Burghausen	برغهاوسن	De Bubna	دي بېنا او بوبنا
Burgos	برغوس	Pétrarque	پټرارک

Bruges	بريج	Bourgogne	برغونية
Prézel	بريجل	Borghèse	برغيزي
Prevost	بريفو	Barclay	بركلي
Pérignon	برينيون	Berkeim	بركيم
Bastia	بستيا	Porlitz	برلتز
La Bastille	البستيل	Berlin	برلين
Les Pasques	البسكية	Brunn	برن
Bessières	بسيار	Pirna	برنا
Pierre Le Grand	بطرس الاكبر	Prentzlow	برنتزلو
Petersbourg	بطرسبرج	Pernetty	برنتي
Bagration	بغراسيون	Pringen	برنجن
Pfaffenhofen	بفافنهوفن	Brandebourg	برندبورغ
Buxhowden	بكسهودن	Brunswick-Aels	برنسويك الس
Platow	بلاتوف	De Brancas	دي برنكا
Plaisance	بلازنس	Brenier	برنيه
Placencia	بلاسلسيا	Brutus	بروتوس
Blavet	بلافه	Bruxelles	بروسل
Blake	بلاك	Prusse	بروسيا
Plechnitsi	بلخنيتزي	De Provence	دي بروفنس
Plauen	بلاون	Preussik-Eylau	بروسيك ايلو
Baltimore	بلتيمور	Broussier	بروسيه
Plessis-Chaman	بلسي شامان	Provins	بروفان
Belchitte	بلشيت	Brune	برون
La Baltique	بحر البلطيك	Brunn	برون
Bellegarde	بلغاردا	Briare	بريار
Pilnitz	بلنيز	Brienne	بريان
Valence	بلنسنة	De Prévannes	دي بريفان

Borodino	بورودينو	Du Belloy	دي بلوى
Borowsk	بوروسك	Blücher	بلوخر
Borisof	بوريسوف	Plouzonne	بلوزون
Poserna	پوزرنا	De Bellune	دي بلون
Posen	پوزن	Pleiss —	پليس
Beausset	بوسه	Pleineselve	پلینسلف
Bossuet	بوسويه	Bamberg	بامبرگ
Butturlen	بوترلن	Pampelune	پمپلونه
Puthod	پوٹود	Benavente	بنافنتي
Potocki	پوٹوڪي	Ponte-Corvo	پنتي كرفو
Bug	بوغ	Les Bénédictins	البندكتيون
Bouvet-de-Lozier	بوفه دي لوزيه	Pondichéry	بنديشيري
Beaucaire	بوڪير	Bentham	بنٹام
Bouland	بولان	Buntzlau	بنزلو
Pultusk	پولتسك أو پالٹسك	Beningsen	بننغن
Polsk	پولسك	Benvenuti	بنفنتي
Polotsk	پولوتسك	Bénévent	بنيفان
De Bulow	دي بولوف	Boyer	بواي
Pologne	بولونيا	Bobr	بوبر
Pauline	پولين	Bautzen	بوتزن
De Polignac	دي پولينياك	Porto-Maurizio	پورتو موريزيو
De Pompadour	دي پومبادور	Bordeaux	بورديو
Poméranie	پوميرانيا	Bourcier	بورسيه
Poniatowsky	پونياٹسڪي	Borysthène	بورستين
Boniface	بونيفاسيوس	Bourguignon	بورغنيون
Poniémen	بونيمن	Porlier	پورليه
Bohème	بوهيميا	Bourmont	بومون

— ٥٧٢ —

Peicherwitz	بیشروتز	Buen-Retiro	بوين ريتيرو
Pichegru	بیشغرو	Pietra-Santa	پياتراسانتا
Pélage	پيلاج	Le Béarn	البيارن
Pilar	پيلار	Piava	پيافا
Pilon	پيلون	Bianchi	بيانكي
Piombino	پيومبينو	Biberach	بيبراخ
Beverly	بفرلي	Pise	پيزا
Prud'hon	برودون	Bizannet	پيزانه
		Peissing	پيسنم

(ت)

Trèves	تريف	Le Tage	التاج
Trévisé	تريفيز	Tascher de la Pagerie	تاشردي لا باجري
Thérèse Cabarrus	تريزا كباروش	Tallien	تاليان
Tilsitt	تيلست	Talaveyra de la Reyna	تالافيرارينا
De Tolstoi	دي تيلستوي	Taylor	تايلر
Tscherin	تشيرين	Turquie	ترکيا
Tours	تور	Trieste	تريستي
Tamerlan	تيمورلنك	Trianon	تريانون
Thémistocle	تمستوكل	Teruxillo	تروكسيلو

(ج)

Juntersdof	جنترسدف	Jaca	جا كا
Geneviève	جنيفياف	Jakubowo	جا كوبوفو
De Genlis	دي جنلي	Jeanne d'Arc	جان دارك
Joubert	جوير	Jakowleff	جا كوليف
Jaurdan	جوردان	Les Montagnes Noires	الجبال السوداء
Joubertou	جوبرتو	Georgenthal	جرجنتال

— ٥٧٣ —

Gorice	غوريس	Gustadt	غستاد
Gossa	غوسا	Gustave-Adolphe	غستاف ادلف
Gorodeczna	غوروذكزنا	Guilleminot	غلمينو
Gourgaud	غورغو	Glinzendorf	غلنزندرف
Guastalla	غوستالا	Glogau	غلوغو
Gouvion - Saint-Cyr	غوفيون سان سير	Gobel	غوبل
Goldberg	غولدبرغ	Gentz	غننز
Golymin	غوليمين	Gotta	غوتا
Gué-à-trème	غي آتريم	Günzbourg	غنزبورغ
Guidal	غيدال	Gutakowski	غوتا كوفسكي
Guimarans	غيمارانس	Gudin	غودان
Guindet	غينده	Godling	غودن
Guignes	غينييه	Godoi	غودوي
Guyot	غيو	Gordonia	غوردنيا
		Gorzakoff	غورزاكوف

— ف —

Valoutina	فالوتينا	Fabre	فابر
Valogne	فالونيه	Fabvier	فابيه
Fain	فان	Le Vatican	الفاتيكان
De Vaublanc	دي فبلان	Varus	فارس
Vitry	فتري	Vachau	فاشو
Vittoria	فتوريا	Valladolid	فالادوليد
L'Euphrate	الفرات	Valençay	فالنساى
Ferrare	فراري	Valée	فاله
La Ferté	الفرته	Valhuber	فالهور

Flahaut	فلاهو	Ferté-Sous-Jou- arre	فرته سوجوار
Flessingue	فلسنغ	Friedland	فردلاند
De Valmy	دي فلي	Verdun	فردون
Villeneuve	فلنوف	Ferdinand	فردینان
Volney	فلي	De Fersen	دي فرسن
Flensburg	فلنسبرغ	Pharsile	فرسیل
Volhynie	فلهینیا	Varsovie	فرسوفیا
Flaugergue	فلوحرغ	De Frescheville	دي فرشفیل
Florence	فلورنسه	Foureroy	فرکروی
De Fleurieu	دي فلوریو	La Fronde	الفرند
Fontanes	فنتان	Don Francisco	دون فرانسيسكو
Vandamme	فندام	La Franche-Co- mté	الفرانش کونتته
Venegas	فنegas	Frochot	فروشو
Finkenstein	فسکنسٹن	Fromenteau	فرومتهو
Voyer d'Argen- son	فویای درجنسن	Franconie	فرنسکونیا
Fort-de France	فور دي فرانس	Verneuil	فرنوویل
La Force	الفورس	Verhuel	فرهوویل
Fournier	فورنیه	Friant	فریان
Vauchamp	فوشان	Freyberg	فریبرغ
Fouché	فوشه	Freybourg	فریبورغ
Foucher	فوشه	Fréjus	فریمجوس
Fulde	فولد	Frédéric	فریدریک
Viazma	فیاژما	Fréron	فررون
Viterbe	فیتربی	La Vistule	الفستول
Vidoni	فیدونی	Fesch	فش
Fère - Champen- oise	فیرشیمپنواز	Victor - Emma- nuel	فکتور عمانوئیل
Véréja	فیریا	Valachie	فلاخیا

— ٥٧٥ —

Villenberg	فيلنبرغ	De Vicence	دي فيسنس
Fili	فيلي	Vischau	فيشو
La Vilia	الفيليا	De Vivès	دي فيفس
Fisme	فيم	Villacampa	فيلا كمبا
Vimeiro	فيميرو	Villeneuve — le-Comte	فيلنوف ليكنت
Philippe II	فيليب الثاني	Wilna	فيلنا

— ق —

Constantinople	القسطنطينية	Cadix	قادس
Castille	قسطيلة	L'Ile de Sainte-	جزيرة القديسة
Cosaque	قوزاق	Hélène	هيلانه
		Constantin	قسطنطين

— ك —

Cassel	كاسل	Cabanis	كابانيس
Castlereagh	كاسلري	Kapelsdorf	كابلسدرف
Le Cavado	الكافادو	Les Capucines	الكابوسين
Calais	كاله	Le Capitole	الكابيتول
Kalocza	كالوكزا	Catalogne	كاتالونيا
Caligula	كاليغولا	Calon	كاتون
Kaminski	كامنسكي	Cadoudal	كادودال
Canova	كانوفا	Don Carlos	دون كارلوس
Canonville	كانونفيل	Charles IV	كارلوس الرابع
Canino	كانينو	Caro	كارو
Kuřa	كايا	Carrousel	كاروسل
Caën	كابن	Caroline	كارولين

Cluny	كلوني	Caprara	كبرارا
Calvi	كلفي	Corbeny	كربني
Kleist	كليست	Coblentz	كبلنتز
Kulm	كلم	Cattcart	كشكات
Clotilde	كلوتيلد	Krasnoï	كراسنوي
Klenau Klein	كلينوكلين	Craonne	كراني
Clèves	كليف	Kirgener	كرجنر
Compère	كمبير	Cardade	كرداد
Condillac	كنديلياك	Christophe	كرستوف
Compans	كمبان	Kursomb	كرسومب
Koenigsberg	كنيسبرغ	Crécy	كرسي
Combronne	كمبرن	Le Kremlin	الكرملين
Knobelsdorf	كنوبلسدرف	Christine	كريستين
Les Cantabres	الكنتبيريون	Adam Czartorys-	آدم سكار
Kehl	كهل	ki	تورسكي
Cobentzel	كوبنتزل	Czarnovo	كزارنوفو
Cuença	كوانسا	Castille	كستيليا
Kutusov	كوتوزوف	Castanos	كستانوس
Kourakin	كوراكين	Castillane	الكستليانية
Courlande	كورلاند	Cascante	كسكانت
Curial	كوريال	Claparède	كلاباريد
Cordeliers	كوردلياي	Sainte - Claire	القديسة كلارا
Copenhagen	كوبنهاغن	Clary	كلاري
Le Corso	الكورسو	Kalkreuth	كلكروث
Curée	كوره	Calvty	كالفينوس
Corinne	كورين	Claude	كلوديس
La Corogne	الكورونيا	Clovis	كلوفيس

— ٥٧٧ —

Kologha	کولوغا	Korneubourg	کورنوبورغ
Kolonna	کولومنا	Corte	کورتی
Comarchi	کومارخی	Koesen	کوزن
Commode	کومودیوس	Custrin	کوستران
Caumartin	کومرتان	Cuesta	کوستا
Kowno	کونو	Cologne	کولونیا
Connewitz	کونوئز	Colloredo	کولوریدو
Conti	کونتی	Collenbach	کولنباخ
Klenmayer	کیانمایر	Caulaincourt	کولانکور
Le Quirinal	الکویرینال	Cuvier	کوفیه
Quiroga	کیروغا	Kollowrath	کولوراث
Queiss	کیس	Koulnew	کولنیاف

— ل —

Lamarque	لامارک	Labanol	لابانوف
Lamotte	لاموط	La Bruyère	لابرویار
Laon	لان	La Place	لابلاس
Lange	لانج	Lapoybe	لابویب
Landshut	لاندشت	La Trava	لاترافا
Lanciletti	لانشیلتی	Lajolais	لاجوله
Lahorie	لاهوری	La Romana	لارومانا
La Hogue	لاهوغ	Lariboissière	لاریبواسییار
Léon	لاون	Lassalle	لاسال
Lebreton	لبرتون	Lacy	لاسی
Lebrun	لبرون	Lacépède	لاسیپید
Leipsick	لپسیک اولیگزیت	Lafon	لافون
Lippodiswalde	لیپودیسلد	Laken	لاکن

Louisbourg	لويزبورغ	Lutchissa	لتخسا
Louisiana	لويزبانا	Ledru	لدرو
Louis le Débon- naire	لويس الحليم	Lherminier	لرمينييه
De Luynes	دي لوين	Lérída	لريدا
De Liéven	دي ليافن	Lambach	لمباخ
Lieberwolkwitz	ليبرولكوتز	Lambert	لمبر
Lech	ليخ اولوخ	Lamberty	لمبرتي
Jean De Lichten- stein	جان دي ايختنستين	Lintz	لنتر
Lisy	ليزي	Langeron	لنجيرون
Lisbonne	ليشبونة	Lindenau	لندنو
Lithuanie	ليطوانيا	Lopackzen	لوباكزن
Legrand	ليگران	Lubeck	لوبك
Ligneau	ليغنو	Lohenstein	لوهنستين
Livourne	ليفورنو	Lohaw	لوبو
Lefebvre	ليفيفر	Lutzen	لوتزن
Lefebvre — Des- nottes	ليفيفر دينوت	Luther	لوتيروس
Léopoldstadt	ليوبولد ستاد	Lorette	لورت
Lainé	لينه	La Lorraine	اللاورين
Lignitz	ليغيتز	La Lusace	اللوزاس
		Lusigny	لوزيني
		Lugo	لوغو
		Lovers	لوفرز
		Locke	لوك
		Locques	لوك
		Lomitten	لوهتير
		Lowenberg	لوزنبرغ
		Lowiez	لويز

— ٥٧٩ —

— م —

Mahmoud	محمود	Mathilde	ماتيلد
La Méditerranée	البحر المتوسط	Marathon	ماراثون
La Madeleine	المدين	Marrac	ماراك
Medellin	مدلين	Champ De Mars	ميدان مارس
Médicis	مديشي	La Marne	المارن
Medyn	مدين	Marente	مارنت
Mortefontaine	مرتفتين	Maria	ماريا
La Martinique	المرتينيك	Mariano-Domin- guez	ماريانو دومنغز
Mortier	موتيه	Marie Antoinette	ماري انطوانت
Mont-de-Marsan	مون دي مرشان	Marie Thérèse	ماري تيريز
Murcie	مرسية	Marie Louise	ماري لويز
Marchand	مرشان	Marie De Médicis	ماري المديشية
Morghoni	مرغوني	Marienzul	مارينزال
Merfeld	مرفلد	Marion-Huart	ماريون هوار
Marklberg	مركليبرغ	Frédéric-Masson	فريدريك ماسون
Missiessy	ميسييسي	De Massa	دي ماسا
Merhenbach	مرهنباخ	Mack	ماك
Magdebourg	مغذبورغ	Malet	مالاي
Le Mexique	المكسيك	Malher	ماله
Maximilien	ماكسيميليان	Malojaroslawetz	مالوجاروسلاويز
Macdonald	مكدونال	De Man	دي مان
Mequinenza	مكيننزا	La Manche	المانش
Melgrave	ملغراف	Manège	مانيج
Molk	ملك	Mayence	مايانس
Moldavie	مoldافيا	De Metternich	دي مترنيخ

Morus	موروس	Malaga	ملقا
Maury	موري	Montbrun	منبرون
Mormant	مورمان	Montpellier	منبلييه
Mouzon	موزون	Montalègre	منتاليغر
Moscou	موسكو	De Montesson	دى منتسون
La Moscova	الموسكوف	Montespan	منتسبان
Mouton	موطون	Monte-Cavallo	منتي كافالو
Mullen	مولن	Montjoie	منجوى
Mollendorf	مولندرف	Montreuil	منرويل
Molek	مولك	Monza	منزا
Mojaisk	موجايسك	Monçanarès	منسانارس
Molé	مولاي اوموله	Moncey	منسي
Molodetschino	مولودتشينو	Minisk	منسك
Montereau	مونطرو	Montgalière	منغاليار
Mont-Serra	مون سرا	Montgobère	منغوبير
Monet	مونه	Montfort	منفور
Munich	مونينخ	Montmartre	منمارتر
Mohrungen	موهرنجن	Montholon	منطولون
Mohilow	موهيلوف	Ménéval	منيفال
Mouina	موينا	Montmorency	منمورانسي
Médée	ميده	Montmirail	منميراييل
Méry	ميري	Meaux	مو
Maison	ميزون	Mouhed Effendi	موحد افندي
Mézérée	ميزيراي	Moore	مور
Miguez	ميغز	Moravie	مورافيا
Michalewska	ميكاليوسكا	Morand	موران
		Morella	مورلا

— ٥٨١ —

Maine-de-Biran	مين دي بيران	Milhaud	ميلاهو
Mina	ميننا	Miloradowitz	ميلورادتز
Miollis	ميولي	Melun	ميلون

— ن —

Neustark	نوسطارك	Naroeki	ناروكي
Neusiedel	نوسيدال	Nasielsk	نازيلاسك
Neufchatel	نوشاتل	Navarre	نافار
Novozilzof	نوفوزيلزوف	Nanterre	نانتر
Neumark	نومارك	Nangis	نانجي
Naumbourg	نومبورغ	Ney	ناي
Neuilly	نويي ^٩	De Narbonne	دي نربون
Néron	نيرون	Nizni-Novgorod	نزي نغورود
Neiss	نيس	Neswig	نويغ
Nièvre	نيفير	Nevers	نفر
Nicolsburg	نيكلسبورغ	Necker	نكر
Nesle	نيل	Nansouty	ننسوتي
Nemours	نيمور	Le Niémen	النيمن
Niort	نيورت	Nogent	نوجان
		Normann	نورمان

— ه —

Halle	هال	Harispe	هارسب
Hanau	هانو	Harlay	هارلي
Haynau	هاينو	Le Havre	الهافر

— ٥٨٢ —

Hollaßbrunn	هولا برن	Herbisse	هر بيس
Hulin	هولان	Hertwell	هر تول
Hof	هوف	De Hardenberg	دي هردنبورغ
Hullin	هولن	Habsbourg	هابسبورغ
Pays-Bas	هولندا	Hesse	هس
Hauembourg	هوه بورغ	Hesse-Hambourg	هس همبورغ
Honfleur	هونفلور	Haxo	هكسو
Hohenzollern .	هوهنزولرن	Hollstedt	هولستد
De Hohenlohe	دي هوهنلوه	Hembert	همبرت
Hoyerswerda	هوير سفردا	Hambourg	همبورغ
Hiller	هيلر	Hochkirch	هوخكرخ

— و —

Wertingen	ورتينجن	Waterloo	واترلو
Wurtchen	ورتخن	Watelstadt	واتلستادت
Le Weser	الوزر	Guadalquivir	الوادي الكبير
Wagram	وگرام	Wartenbourg	واوتنبورغ
Westphalie	وستفاليا	Wassa	واصا
Walther	ولتر	Wattier	واطيه
Walcheren	ولخرين	Valladolid	والادوليد
Wolkersdorf	ولكر سدرف	Witepsk	وتيسك
Wolkonski	ولكنسكي	Wittgenstein	وتجنستين
Wilkowsky	ولكووسكي	Waterdorf	وتردرف
Wickham	وكهام	La Wartha	الورتا
Wellington	ولتين	Wurtzbourg	ورتزبورغ
Wentzingerode	ونتزنجيرود	Wurtemberg	ورتمبرج

— ٥٨٣ —

Weissy	ويسى	Wenkowo	ونكوفو
Weiesenfels	ويسنفلس	La Woop	الروب
Weischelmunde	ويسلمند	Wolenberg	وولنبرغ
Weimar	ويمار	Wiazma	ويازما
		Wittenberg	ويتمبرغ

— ي —

L'Yonne	اليون	L'Yères	اليار
Les Grecs	اليونان	Ietelsée	ياتلز
Judith	يهوديت	Iéllachieh	يالا شيش
Joseph	يوسف	Vésuve	بزوف

فهرست الجزء الثانى

صحيفة

- ١ كلمة المؤلف
- ٢ الفصل الاول — انشاء الحكومة الامبراطورية — أعمال الرحمة —
- ٢٢ الفصل الثاني — معسكر بولون — الرحلة الى بلجيكا
- ٢٢ — دعوة المجلس الاشتراعي الى الاجتماع — تخصيص الاقتراع الشعبي — وصول البابا بيوس السابع الى فرنسا — تتويج الامبراطور
- ٢٧ الفصل الثالث — جلسات المجلس الاشتراعي — ازاحة الستار عن تمثال نابوليون — كتاب الامبراطور الى ملك بريطانيا العظمى — جواب اللورد ملغراف —
- ٢٧ اعلام مجاس الشيوخ
- ٣٢ الفصل الرابع — المندادة نابوليون — اسكا على ايطاليا — الانطلاق من باريس — الاقامة في طورينو — نصب مارنغو — دخول ميلانو — ضم جنوى الى فرنسا — التتويج الجديد — الرحلة الى ايطاليا —
- ٣٢ العودة الى فرنسا
- ٣٦ الفصل الخامس = انطلاق نابوليون الى معسكر بولون — حشد الجنود الفرنسية على حدود النمسا — عودة الامبراطور الى باريس — اعادة التقويم الغريغوري — اعلان الحرب على النمسا وتقرر مجلس الشيوخ تعبئة ثمانين ألف مقاتل — توجه الامبراطور الى الجيش — معركة استرلتز
- ٣٦ نتيجة معركة استرلتز — معركة طرف الغار البحرية
- ٥٦ صلح رسبورغ — خلع البوربون عن عرش نابولي — ترفيع بافاريا الى درجة مملكة — ارسال رايات استرلتز الى باريس — عودة نابوليون الى فرنسا

الفصل السابع — اعتراف الحكومة العثمانية بنابوليون امبراطوراً —

اعادة مزاولة العبادة الكاثوليكية في البندقيون —
 ترميم سان دنيس — افتتاح المجلس الاشتراعي —
 الاشغال العامة — قانون المرافعات الحقوقية —
 الكلية الامبراطورية — مصرف فرنسا — أنظمة
 امبراطورية — اقامة يوسف بونايرت ملكا على
 نابولي — ترفيع مورات الى درجة غرندوق برغ —
 اقامة لويس بونايرت ملكا على هولندا — انشاء
 محاكمة الرين — التثام محكمة اليهود العليا في باريس —
 عقد معاهدة مع الباب العالي — مفاوضات في
 سبيل عقد السلم العامة — وفاة فوكس

٩٨

الفصل الثامن — حرب بروسيا — معركة ايانا — نابوليون في

٧٩

بستدام

الفصل التاسع — دخول نابوليون برلين — اقامته في هذه العاصمة —

حصار القارة الاوربية — توقيف رحي القتال —
 رسالة الى مجلس الشيوخ — مجنيد ثمانين ألف
 مقاتل — نشره بوزن — نصب المدلين

٩٢

١٠١

الفصل العاشر — حرب بولونيا — صلح تيلست

الفصل الحادي عشر — عودة نابوليون الى باريس — جلسات المجلس

الاشتراعي — الغاء المجلس الأعلى — رحلة
 الامبراطور الى ايطاليا — احتلال البرتغال —
 عودة نابوليون — بيان نجاح العلوم والفنون

١١٥

من سنة ١٧٨٩

١٢٤

الفصل الثاني عشر — مسائل اسبانيا

الفصل الثالث عشر — عودة الامبراطور الى سان كلود — مفاوضات

سياسية — ارسال الجنود الى اسبانيا — مفاوضة
 ارفورت — العودة الى باريس — زيارة المتحف —

- انعقاد المجلس الاشتراعي - رحلة الامبراطور
الى بايون - غزوة جديدة لاسبانيا - الاستيلاء
على مدريد - الغاء ديوان التفتيش - دلائل
العداوة مع النمسا - مغادرة نابوليون الفجائية
لجيش اسبانيا - العودة الى باريس والانطلاق
الى ألمانيا ١٣٧
- الفصل الرابع عشر - حرب سنة ١٨٠٩ مع النمسا ١٤٨
- الفصل الخامس عشر - الحلاف مع البابا - ضم الولايات الرومانية الى فرنسا ١٦٧
- الفصل السادس عشر - طلاق الامبراطور - تزوجه بأرشيدوقة النمساوية ١٧٩
- الفصل السابع عشر - انتداب برنادوت للجلوس على عرش اسوج -
ضم هولندا الى فرنسا ١٨٩
- الفصل الثامن عشر - قانون المطبوعات - تعيين المسيميو شاتوبريان
خلفاً لشنيه في الندوة العلمية - ولادة ملك
رومية وعماده - احتفالات عامة في العاصمة
والسلطنة - مجمع الاساقفة الوطني - البابا
في فنتمبلو ١٩٧
- الفصل التاسع عشر - نظرة عامة في مجرى الحوادث الحربية في اسبانيا
والبرتغال من سنة ١٨٠٩ - الى سنة ١٨١٢ ٢٠٥
- الفصل العشرون - انقطاع العلاقات مع روسيا ٢١٦
- الفصل الحادي والعشرون - حرب روسيا سنة ١٨١٢ ٢٢٣
- الفصل الثاني والعشرون - الاسكندر في موسكو - الحاكم رستيشين
- القصد النهائي - معركة موسكو ٢٤٠
- الفصل الثالث والعشرون - الزحف الى موسكو - احتلال الفرنسيين
لهذه المدينة ٢٤٩
- الفصل الرابع والعشرون - حريق موسكو - نتائج هذه النكبة -
انتظار نابوليون الفارغ اقتراح الصلح - تراجع
الفرنسيين - نفس المارشال مرتيه لقصر

٢٥٢	السكرمدين
٢٦٢	الفصل الخامس والعشرون — نتائج تراجع الفرنسيين — نابوليون في سمولنسك مؤامرة مالاي
٢٧١	الفصل السادس والعشرون — الانطلاق من سمولنسك — موقف الجيش الهائل — معركة البرسينا — عودة الامبراطور الى باريس
٢٧٩	الفصل السابع والعشرون — تأمل في نتيجة حملة روسيا الجارة المصائب — تهنئة مجالس الحكومة الكبرى لنابوليون — تعبئة جيش قوامه ثلاث مئة وخمسون الفا — خيانة الجنرال ديورك الروسياني — ترك مورات الجيش — افتتاح المجلس الاشتراعي —
٢٨٨	الفصل الثامن والعشرون — حرب سنة ١٨١٣
٢٩٦	الفصل التاسع والعشرون — تابع حرب سنة ١٨١٣
٣٠١	الفصل الثلاثون — تنمة حرب سنة ١٨١٣
٣١٠	الفصل الحادي والثلاثون — معركة فاشو وليهزيك — خيانة السكسونيين — نتيجة تلك الحرب المشؤومة — عودة العاهل الى باريس
٣١٨	الفصل الثاني والثلاثون — تقرير مجلس الشيوخ للامبراطور — تعبئة ثلاث مئة الف مقاتل — عقد المجلس الاشتراعي وحله
٣٢٥	الفصل الثالث والثلاثون — ابتداء حرب سنة ١٨١٤
٣٣٤	الفصل الرابع والثلاثون — مؤتمر شاتيون — نهاية حرب سنة ١٨١٤ — دخول الحلفاء مدينة باريس

ذيل الجزء الثاني

٣٤٨	الاميرة البونابرتية :
٣٤٩	شارل بونابرت والد نابوليون

٣٥١	لائسـيا رامولينـو والدـة نابولينـو
٣٦٩	يوسف بونابرت
٣٧٩	نوسيان بونابرت
٣٩٦	لويس بونابرت
٤٠٩	جيروم بونابرت
٤١٢	اليزا بونابرت
٤١٥	بولين بونابرت
٤٢٤	كارولين بونابرت
٤٢٧	الامبراطورة جوفين
٤٥٠	جدول اسماء الاعلام في الجزء الثاني
٤٧٦	فهرست الجزء الثاني

انتهى الجزء الثاني

